الأخلاق الإسلامية
وأسسها

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

الجزء الثاني

دار القلم
دمشق

الأخلاق الإسلامية

وأسسها

الطبعة الخامسة

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

تطلب جميع كتبنا من :

دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق

دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥

ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الثاني

الرَّحمة وفروعها وظواهرها السُّلوكيّة وأضدادها

من الأصول الخلقية وكلّيّاتها العامة خلق الرحمة، ولهذا الأصل فروع أخلاقية متعدّدة، منها برّ الوالدين، ومنها صلة الرحم، ومنها إكرام اليتيم، ومنها العطف على الفقراء والمساكين والمرضى والخدم وذوي الحاجات والضعفاء والعجزة وذوي المصائب، ومنها التعاطف بين الإخوان والأصحاب والجيران وبين المسلمين بوجه عام، ومنها الشفاعة الحسنة، ومنها لين الجانب للناس، ومنها العفو والصفح عن المسيء، ومنها مشاورة رئيس الجماعة وقائدهم وولي أمرهم لأهل المشورة منهم رحمة بقلوبهم ونفوسهم التي يؤلمها الإهمال والاستبداد، إلى غير ذلك.

تعريف الرحمة:

قد يكون من العسير التوصّل إلى تعريف دقيق للرحمة، لأنّ شأن الرحمة كشأن معظم العواطف والانفعالات، إنما تدرك وتعرف بظواهرها، لا بحقيقة تكوينها.

ولكن باستطاعتنا أن نقرّب للتصّور فهم حقيقة الرحمة، وذلك بأن نقول: الرحمةُ رقة في القلب يلامسها الألم حينما تدرك الحواسّ أو يتصور الفكر وجود الألم عند شخص آخر؛ أو يلامسها السرور حينما تدرك الحواس أو يتصور الفكر وجود المسرّة عند شخص آخر.

فهي مشاركة الكائن الحيّ لغيره في مثل آلامه ومسرّاته، والشعور بمثل

مشاعره، ولا يشترط في المماثلة التساوي في المقدار، وإنما يكفي فيها المشاركة العامة في الألم أو المسرّة.

الرحمة منبع كريم يفيض بالعطاء، وهو إذا لم يفض بالعطاء لمستحقي الرحمة بسبب من الأسباب، احتقن فآلم صاحبه.

إنّ الرحيم يؤلمه جداً أن يشهد آلام مستحق الرحمة، ثم لا يفيض له بعطاء يدفع عنه آلامه، أو يخفّف له منها، وهذا هو خلق المؤمنين الذين ربّاهم الإسلام عليه.

ألسنا نشاهد الأمّ الرؤوم حينما يثيرها بكاء طفلها الرضيع، الذي يؤلمه الجوع، كيف يمتلىء ثديها لبناً، ويدفعه حنانها على طفلها للتدفق، فإذا لم ترضعه احتقن اللّبن في ثديها فآلمها وأوجعها احتقانه؟

كذلك الرحمة في كلّ ما تندفع إليه.

للرحمة مستويات:

والرحمة ذات مراتب ودرجات، ولها مستويات متفاوتات، قد يصل بعضها إلى أن يشعر الراحم بمثل مشاعر من يرحمه تماماً، في النوع والمقدار، وقد يعمل التصوّر على أن تكون فعلاً أكثر من مشاعر من يرحمه. وتتنازل هذه المراتب والمستويات حتى تكون شفقة عابرة، أو رقّة آنية لا تقوى على تحريض صاحبها تحريضاً مؤثراً في بذل معونة، أو تقديم مَؤُونَة، أو مساعدة في خدمة، أو مشاركة في دمعة، أو تضحية بأيّ شيء قد ينفع مستحق الرحمة.

وتختلف دوائر الرحمة اتساعاً وضيقاً، فبعض الناس تتدفق في قلبه مشاعر الرحمة نحو الذين يحبهم من ولد، أو أب، أو أم، أو زوج، أو أخ، أو صديق، أو قريب أو نحو ذلك، فإذا شاهد آلام الآخرين الذين لا صلة له بهم لم يشعر نحوهم بأية مشاركة لهم في آلامهم، بل قد يقابلها ببرود في مشاعره، أو قسوة في قلبه. بينما نجد من الناس رحماء تجاه كلّ من يستحقّ الرحمة من قريب أو غيره. وبين الدائرة الضيقة والدائرة الواسعة دوائر متعددة، يتسع بعضها للعشيرة

ويتسع بعضها للقبيلة، ويتسع بعضها للقوم، ثم تأتي الدائرة الكبرى التي تتسع لكل كائن حيّ له إحساس بالألم واللّذة.

قابلية خلق الرحمة لأنواع التربية:

والرحمة كمال في التكوين الفطري، إلّا أنه كشأن كلّ الكمالات الفطرية القابلة للتهذيب والتقويم والتنمية والترقية، والقابلة للتشويه والإفساد والتدني والضمور.

فمن تهذيبها وتقويمها حسنُ توجيهها للمواطن التي تستحق الرحمة، وفق المفاهيم الإسلامية الحكيمة، وصرفها عن المواطن التي لا تستحق الرحمة.

فحينما يقرّر الإسلام ضرورة إيقاع العقوبة الصارمة بصاحب جناية كبيرة، فإنّ رقة قلب المؤمن لا تتأثر بمشهد العقوبة أو بتنفيذها، ولو كان مستحقّ العقوبة قريباً، أو صاحباً، أو حبيباً، وهذا ما أدّب الله المسلمين عليه بقوله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾.

ومن تشويه فطرة الرحمة وإفسادها توجيهها لمن لا يستحقها، كالرحمة التي تستدعي كفّ العقاب عن الظالمين، الذين يجعلهم العفو عنهم يتمادون في طغيانهم وظلمهم، وكرحمة الأمّ الرعناء التي تهمل تأديب ولدها مهما أساء، حتى تفسده وتجعل منه إنساناً مجرماً.

ولذلك كان للرحمة جوانب خير وجوانب شرّ، أمّا الله تبارك وتعالى فلا يرحم إلّا في الخير، قال عز وجل في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾.

وتكون تنمية الرحمة وترقيتها بتدريب النفس على الشعور بمشاعر الرحمة مرّة بعد مرّة، وذلك بممارسة الأعمال التي تدفع إليها الرحمة عادة، وإيقاظ

كوامن الرحمة في النفس بذلك، وتركها تتلذّذ بمشاعر العطف، فالتلَذذ بالمشاعر كفيل بتغذية دوافعها وبتنميتها، مهما كانت أصولها ضعيفة في أعماق النفس. وهذا علاج قد أرشد إليه الرسول صلوات الله عليه، روى الإمام أحمد عن أبـي هريرة، أن رجلاً شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه، فقال له: «امسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين».

وفي رواية عند الطبراني، أنّ رجلاً جاء إلى النبـيّ ﷺ يشكو قسوة قلبه، فقال له: «أتحبّ أن يلين قلبك، وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم، وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك، يلنْ قلبُك وتدركْ حاجتك».

أمّا ضمور الرحمة وتدنِّيها في القلوب فمن أسبابه استغراق النفوس في الترف، والملذات، والمتع الجسدية، وتنافس المترفين في التفاخر بما يملكون من مظاهر الحياة الدنيا.

وتكاد تموت الرحمة في قلوب البطرين المستكبرين، الذين يطول عليهم الأمد في بحبوحة الترف والنعمة، وهذا ما يجعل قلوبهم قاسية لا تشعر بآلام الآخرين، ويشير إلى هذه الحقيقة قول الله تعالى في سورة (الحديد ٥٧):

﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

التوجيهات الإسلامية لخلق الرحمة والحضّ على مظاهره وآثاره في السلوك:

إن الإسلام دين الرحمة العامة الحكيمة العاقلة التي تضع الأشيـاء في مواضعها، ولذلك نلاحظ في النصوص الإسلامية توجيهات ملحّة للتحلي بخلق الرحمة، وحثاً على مظاهرها العملية وآثارها في السلوك، فمن ذلك ما يلي:

١ ـ روى البخـاري ومسلم عن جريـر بن عبـدالله قـال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس».

٢ ــ وروى مسلم عن عياض قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدّق موفق. ورجل رحيم رقيق القلب لكلّ ذي قربى ومسلم. وعفيف متعفف ذو عيال».

٣ ــ وروى أحمد والترمذي عن أبي هريرة قال: سمعت أبا القاسم الصادق المصدوق ﷺ يقول: «لا تُنزع الرحمة إلا من شقي».

٤ ــ وروى أبو داود والترمذي عن عبدالله بن عمْرو قال: قال رسول الله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».

ولذلك كان الإصلاح بين الإخوة بدافع خلق الرحمة بهم جالباً لرحمة الله، قال الله تعالى في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

٥ ــ ومن روائع التوجيه الإسلامي للأخذ بفضيلة خلق الرحمة، توسيع الإسلام دائرة الرحمة حتى شملت العالمين، وكلّ ذي حياة مّما خلق الله في هذا الكون الفسيح.

ولهذا أرشد الله رسوله إلى مهمة رسالته، وهي أن يكون رحمة للعالمين، فقال له في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

وثبت في الصحيح أن الرسول ﷺ قال: «إنما أنا رحمة مُهداة»[(١)].

وكون رسول الله ﷺ رحمة للعالمين نفحة قدسية من نفحات رحمة الله الواسعة، ولذلك يقدّم الملائكة ثناءهم على الله بأنه وسع كلّ شيءٍ رحمة وعلماً،

---

(١) رواه الدرامي، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة، ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي، انظر مشكاة المصابيح الحديث (٥٨٠٠) والتعليق للألباني.

قبل أن يسألوه المغفرة للّذين تابوا واتبعوا سبيله، قال الله تعالى في سورة (غافر ٤٠):

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧﴾.

ومن رحمة الرسول بأمته جعل نفسه مثل الوالد لولده، فعَن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا لكم مثل الوالد لولده» رواه ابن ماجه والدرامي وأبو داوود والنسائي بإسناد حسن.

٦ ــ ومن حث الإسلام على معاملة الحيوان غير الناطق بالرفق والرحمة، والنهي عن تعذيبه؛ ما رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر أنّ رسول الله ﷺ قال: «عذبت امرأة في هرّة حبستها حتى ماتت فدخلت النار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ هي حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خَشاش الأرض».

خشاش الأرض: هوامّها وحشراتها.

وما رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر أيضاً أنه مرّ بفتيان من قريش قد نصبوا طيراً وهم يرمونه، وقد جعلوا لصاحب الطير كلّ خاطئة من نبلهم، فلمّا رأوا ابن عمر تفرّقوا، فقال ابن عمر: «من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا. إنّ رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً».

وما روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب، ثمّ خرج فإذا كلبٌ يلهث يأكل الثرى من العطش. فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان قد بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفّه ماءً، ثمّ أمسكه بفيه حتى رقيَ فسقى الكلبَ فشكر اللّهُ له فغفر له».

قالوا: يا رسول الله، إنّ لنا في البهائم أجراً؟ فقال: «في كلّ كبدٍ رطبة أجر».

وفي رواية للبخاري ومسلم: «بينما كلب يُطيف بركيَّة (بئر) قد كاد يقتله العطش إذ رأته بغيٌّ من بغايا بني إسرائيل، فنزعت موقها فاستقت له به فسقته فغفر لها به».

موقها: الموق الخف.

فما أروع هذا الشمول الذي تتمتع به التعاليم الإسلامية! امرأة تعذّب بسبب قسوة قلبها تجاه هرّة، ورجل وامرأة يغفر لهما بسبب رحمتهما بكلب، فالرحمة الإيمانية تمدّ ظلالها وراء حدود الإنسان، فتشمل كل ذي كبد رطبة، والله يثيب على كل رحمة ولو كانت بحيوان محتقر غير ذي شأن.

إنّ الذين توصلوا حديثاً إلى إعلان مبدأ الرفق بالحيـوان، وأصبحوا يفخرون بهذا الرقي الإنساني، إذا تعلقت مصالحهم السياسية أو الاقتصادية بإهلاك أمم وشعوب من البشر لم يتورّعوا عن ذلك، ولم تخفق في قلوبهم خافقة رحمة، إنّ دوائر الرحمة لديهم محدودة في حدود أشخاصهم أو أهليهم ومن يحبون، أو أقوامهم.

أمّا التعاليم الإسلامية فإنها تجعل دائرة الرحمة دائرةً واسعة تنتظم الوجود كلّه، وتجعل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم كالجسد الواحد، وتجعل المؤمنين مسؤولين عن الرحمة بكلّ ذي كبد رطبة.

وهكذا عمل الإسلام على غـرس خلق الرحـمة في قلوب المسلمين، وتغذيته، وتنميته، وتوسيع دائرة شموله، حتى يكونوا في توادّهم وتراحمهم كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر.

ونستطيع أن نثبت بكلمة جامعة أنّ الإسلام قد وجّه المسلمين أن يرحموا كلّ مستحقٍّ للرحمة، وأكّد بشكل خاصٍّ وملحّ على رحمة الضعفاء، ويدخل في عموم الضعفـاء الصغار لا سيـما اليتامى، والنســاء والأرامل ومن لا معيـل لهنّ، والمرضى، والعجزة، وكبار السنِّ الهرمون، وأبناء السبيل المنقطعون الذين لا سند لهم ولا ناصر، والعبيد والخدم والأجراء، وهكذا إلى سائر الضعفاء.

وحين ذكر القرآن بعض وجوه البرّ عدّد أموراً فذكر منها:

الأول: الرحمة، ومن آثارها في السلوك إيتاء المال على حبّه ذوي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، والسائلين، وفي الرقاب. فجعل الرحمة بالضعفاء من أوّل عناصر البرّ بشرط الإيمان.

الثاني: الصدق، والمحافظة على شرف الكلمة وأداء حقها، ومن آثار ذلك في السلوك الوفاء بالعهد.

الثالث: الصبر، في البأساء (أي: في الجوع) وفي الضرّاء (أي: في المصائب) وحين البأس (أي: في القتال).

قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾.

في الرحمة بالضعفاء: الأرملة والمسكين والبنات:

١ ــ روى البخاري ومسلم عن أبـي هريرة عن النبـي ﷺ قال: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله».

قال الراوي: وأحسبه قال: «وكالقائم لا يفتُر، وكالصائم لا يُفْطِر».

٢ ــ وروى البخاري ومسلم عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين الذي تردّه التمرة والتمرتان، ولا اللّقمة واللقمتان، إنّما المسكين الذي يتعفّف».

وفي رواية في الصحيحين أيضاً:

«ليس المسكين الذي يطوف على الناس تردّه اللّقمة واللقمتان، والتمرة

والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنىً يغنيه، ولا يُفْطَنُ به فيُتصدّق عليه، ولا يقومُ فيسأل الناس».

٣ — وروى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: دخلت عليّ امرأة ومعها ابنتان لها تسأل، فلم تجد عندي شيئاً غير تمرة واحدة، فأعطيتها إياها، فقسمتْها بين ابنتيها ولم تأكل منها، ثمّ قامت فخرجت، فدخل النبـي ﷺ علينا فأخبرته فقال:

«من ابتُلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كنّ له ستراً من النار».

أي كنّ له حجاباً يحجبه من عذاب النار.

٤ — وروى مسلم عن عائشة قالت: جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها فأطعمتها ثلاث تمرات، فأعطتْ كلّ واحدة منهما تمرة، ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها، فاستطعمتها ابنتاها، فشقت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها، فذكرتُ الذي صنعت لرسول الله ﷺ فقال:

«إن الله قد أوجب لها بها الجنة، أو أعتقها بها من النار».

٥ — وروى مسلم عن أنس عن النبـي ﷺ قال:

«من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين» وضم أصابعه.

ففي هذه الأحاديث النبوية حثّ على كفالة الضعفاء ورعايتهم والرحمة بهم، فهي من الواجبات الاجتماعية الإسلامية، وتنبع من منابع خلق الرحمة، وخلق حب العطاء.

وقد أبان الرسول ﷺ أنّ السعي على الأرملة والمسكين من الأعمال الحسنة والفضائل العظيمة عند الله، وأنه كالجهاد في سبيل الله، وأن له مثل أجر قائم الليل الذي لا يفتُر عن العبادة، ومثل أجر المواظب على الصوم الذي لا يُفطر.

وأبان الرسول ﷺ أن القيام بتربية البنات وخدمتهن والإحسان إليهنّ يدخل الجنة ويحمي من عذاب النار.

وهذا عناية عظيمة من الإسلام بالضعفاء، ضماناً لحاجاتهم وربطاً لهم بالمجتمع ربطاً تامّاً، إذ جعل المجتمع المسلم مسؤولاً عنهم، كالأسرة الواحدة.

والأرملة إنسانة كسيرة القلب بفقد زوجها المعيل لها والساعي عليها، وهي إنسانة حزينة ضعيفة، فمن رحمها وسعى في حاجاتها كان سعيه سلوةً لها وضماداً لجراحها وجبراً لكسرها.

والمسكين إنسان مهيض الجناح، ضعيف الحال، مثقل بالأحمال، فمن ساعده وسعى عليه وقدّم له ولأسرته حاجاتهم ومعايشهم، جبر كسره، ومسح عنه حزنه، ورفعه من مقام الذلّة والمهانة والضعف.

ووصف الرسول ﷺ المسكين بوصفين:

الأول: أنه ذو حاجة لا يجد غنى يغنيه.

الثاني: أنّه متعفّف يكتم حاجته وفقره، فلا يسأل الناس، فلا يفطن الناس إلى واقع حاله حتى يتصدّقوا عليه.

والبنات الصغار ضعيفات، وقد يزهد أهلُهنّ بهنّ، تأثراً بالمفاهيم الجاهلية من كراهية أن يولد لهم الإناث، فمن عالهنّ وأحسن إليهنّ وأكرمهن وأدّبهن كنّ له ستراً من النار.

في الرحمة بالصغار والضعفاء:

١ ــ روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قبّل النبي ﷺ الحسن بن عليّ وعنده الأقرع بن حابس، فقال الأقرع: إنّ لي عشرة من الولد ما قبّلتُ منهم أحداً. فنظر إليه رسول الله ﷺ فقال:

«من لا يَرحم لا يُرحم».

٢ ــ وروى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: قدم ناسٌ من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبّلون صبيانكم؟ فقال: «نعم»، قالوا: لكنّا والله ما نقبّل؛ فقال رسول الله ﷺ:

«أو أمْلكُ أنْ كان الله نزع من قلوبكم الرحمة؟!».

٣ ــ وروى البخاري ومسلم عن جرير بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ:

«من لا يرحم الناس لا يرحمه الله».

* باستطاعتنا أن نستخلص من هذه الأحاديث فكرتين رئيسيتين:

الأولى: عناية الإسلام بالصغار، والتوجيه لإعطائهم ما يحتاجون إليه في فطرتهم من عطف وحنان، والخلقُ الذي يدفع إلى إعطائهم ذلك هو خلُق الرحمة.

فتقبيل الصغار وضمّهم والحنو عليهم يُغذيهم نفسياً بما يحتاجون إليه من حنان وعطف، وذلك أن الطفل كما يحتاج إلى غذاءٍ مادي عن طريق الطعام والشراب، يحتاج إلى غذاءٍ نفسي عن طريق العطف والحنان، والطفل الذي يأخذ وجباته الضرورية من غذائه النفسي يكون أكثر نمّواً من الطفل الذي يحرم من ذلك، مهما أعطي وجبات كافيات من الغذاء الجسدي، ولذلك علمنا الرسول ﷺ بتوجيهاته القولية والعملية ما ينبغي لنا أن نمنحه أطفالنا من عطف وحنان وقبلات، وما ينبغي أن نشعر به نحوهم من رحمة.

الثانية: بيان سنّة من السنن الرّبانية الثابتة، وهذه السنة قد كشف عنها قول الرسول ﷺ: «من لا يرحم لا يرحم» وقوله: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله».

وهذه السنة هي جزئية من جزئيات قاعدة «الجزاء من جنس العمل».

فمن جفت الرحمة في قلبه، فصار يعامل الناس بالقسوة، عامله الله تعالى بمثل عمله، وجازاه بمثل صنيعه.

أمّا من يعامل الناس بالرحمة والإحسان، والعطف والحنان، فإن الله الرحيم الرحمن يكافئه بالرحمة والإحسان، ويضاعف له المثوبة ويزيده من فضله.

الرحمة من صفات الله:

لقد وسع ربّنا كل شيء رحمة وعلماً، فبرحمته يهدي عباده إلى سبيل سعادتهم، وبرحمته ينزل عليهم الشريعة الكفيلة بتحقيق الخير والسعادة لهم في دنياهم وأخراهم، وبرحمته يدخل المؤمنين في جنته، وبرحمته يغفر للمسيئين، وبرحمته يستجيب للمضطرين، وبرحمته يرسل لهم الرسول الذي هو رحمة للعالمين، ولقد كتب الله على نفسه الرحمة ووصف نفسه بأنه أرحم الراحمين، وبأنه خير الراحمين، ومن أسمائه الحسنى سبحانه الرحمن الرحيم، فمن النصوص الكثيرة الدالة على سعة رحمة الله ما يلي:

١ ــ قول الله تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ ﴾.

موئلاً: أي منجى يلجأون إليه ويرجعون إليه.

٢ ــ وقول الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾.

٣ ــ وقول الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾.

٤ ــ وقول الله تعالى في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾.

٥ ــ وقول الله تعالى في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

٦ ــ وقول الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

٧ ــ وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله مئة رحمة، أنزل منها رحمةً واحدة بين الجنّ والإنس والبهائم والهوامّ، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة».

٨ ــ وفي رواية:

«جعل الله الرحمة مئة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه».

٩ ــ وروى البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب، قال: قدم على النبي ﷺ سبي، فإذا امرأة من السبي قد تحلّب ثديها تسعى، إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ:

«أترون هذه طارحة ولدها في النار؟».

قلنا: لا وهي تقدر أن لا تطرحه.

فقال: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها».

فرحمة الله وسعت كل شيء، ولكن رحمته تعالى مقرونة بحكمته.

وأسباب الرحمة في جميع الخلائق مدد من فيض رحمة الله.

١٠ ـ ومن عظيم رحمته تعالى أنه جعل أدنى ثواب الحسنة عشر أمثالها، وأعلى جزاء السيئة مثلها، وأن من تقرب إلى الله مقداراً تقرب الله إليه أضعافه.

روى مسلم عن أبي ذر الغفاري قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله عز وجل: من جاءَ بالحسنة فله عشر أمثالها وأزِيدُ، ومن جاء بالسيئة فجزاؤه سيئةٌ مثلها؛ أو أغفر، ومن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة، ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئاً لقيته بمثلها مغفرة».

والمراد تقرب العبد لربه بالطاعة والحب، وتقرب الله لعبده بالرحمة والفضل والمحبة.

١١ ـ ومن عظيم رحمته تعالى أن رحمته سبقت وغلبت غضبه، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«لمّا خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي».

وفي رواية: «غلبت غضبي».

وفي رواية: «سبقت غضبي».

١٢ ـ ومن عظيم رحمة الله تعالى أنه يغفر الذنوب لمن تاب واستغفر من عباده، معترفاً بذنبه، راجياً عفو ربه.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فيما يحكيه عن ربه تعالى قال:

«أذنب عبد ذنباً فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال الله تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي ربِّ اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي ربِّ اغفر لي

ذنبـي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء».

أي مهما أذنب ثم استغفر صادقاً معترفاً بذنبه راجياً عفو ربه فإن الله يغفر له.

من صفات أصحاب الرسول أنهم رحماء بينهم:

وصف الله أصحاب محمد في التوراة بأنهم رحماء بينهم، وقص ذلك علينا في القرآن، فقال تعالى في سورة (الفتح ٤٨):

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ . . . ﴿٢٩﴾ ﴾.

فهم أشداء على الكفار رحماء بينهم، بحسب ما يقتضيه منهم إيمانهم، فالإيمان بالله وباليوم الآخر متى تغلغل في القلب حقاً غرس فيه من الرحمة بمقدار قوته وتغلغله، ولكن جعل لها طريقاً لا تتعداه، وغرس فيه من الشدة أيضاً بمقدار قوته، وتغلغله، ولكن جعل لها أيضاً طريقاً لا تتعداه.

ولا تتعارض الرحمة في قلوب المؤمنين مع مظاهر الشدة على الكفار، لأن الغاية من هذه الشدة تحقيق أهداف الرحمة الحقيقية العامة، فالشدة على أهل الشر تمنع شرورهم، ومنع الشرور هو من الأمور العظيمة التي تستدعيها الرحمة.

ومن أمثلة الشدة بدافع الرحمة شدة المربـي كلما دعت الضرورة التربوية إلى ذلك، وشدة الطبيب الناصح على المريض بالجراحة المؤلمة كلما دعت الضرورة العلاجية إلى ذلك. وكذلك المؤمنون في شدتهم على أهل الشر والظلم والبغي والفساد في الأرض، إنها شدة تدفع إليها أهداف الرحمة العاقلة.

أما الرحمة الحمقاء فقد تفضي إلى عكس ما توجبه الرحمة؛ إنها قد تسبب للمريض الهلاك، وتسبب للناشىء الفساد، وتسبب للمجتمع القلق والاضطراب والانهيار والفساد العام.

فلا تنافي مطلقاً بين الرحمة الصحيحة العاقلة والشدة في مواضع الضرورة، وحينما تكون الشدة هي المصلحة، وهي المحققة لأهداف الرحمة.

برّ الوالدين:

إن عطف الوالدين على الولد من أبرز صور الرحمة، وهي تفرض على الولد أن يقابل رحمة والديه له بأن يرحمهما، فيخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة، ويدعو لهما بالرحمة الشاملة للمغفرة والعفو ودخول الجنة.

إن رحمة الوالدين بأولادهما رحمة غيرية بحتة، فهي عطاءٌ لا يلاحظ فيه ترقب العوض، وفطرة فطر الله خلقه عليها، ولذلك كان برّ الوالدين من أعظم واجبات الصلة الاجتماعية، وكان عقوق الوالدين مقارباً لدركة الشرك بالله، وكان الأمر بالإحسان للوالدين في بعض النصوص الإسلامية عقب الأمر بعبادة الله والنهي عن الإشراك به.

الإحسان للوالدين في القرآن:

١ ـ قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

ففي هذا النص نلاحظ أن الله تبارك وتعالى يأمر بعبادته، وينهى عن الإشراك به، ويُتبع ذلك بالأمر بالإحسان للوالدين، ثم يأمر بوجوه الإحسان لأصناف من الناس تستدعي أحوالهم الاجتماعية، أو قراباتهم، أو قرب الصلة بهم في المسكن أو في الصحبة، زيادة الإحسان إليهم والشفقة عليهم والرحمة بهم.

إن هذه الآية الكريمة تعتبر من أمهات الآيات التي توجه لواجبات الصلات الاجتماعية، التي تعتبر الرحمة من أعظم دوافعها في أعماق النفس الإنسانية.

٢ ـ وقال الله تعالى في سورة (العنكبوت ٢٩):

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

ففي هذه الآية يأمر الله تبارك وتعالى بالإحسان إلى الوالدين، ولكنه لا يسمح بطاعتهما في معصية الله، إذ طاعة الله ورسوله تقع في الدرجة الأولى، ثم يأتي من بعدها الإحسان إلى الوالدين، على أن طاعة الوالدين هي أيضاً من طاعة الله، ما لم يأمرا بالكفر بالله أو بالشرك به أو بمعصيته في أوامره ونواهيه.

٣ ـ وقال الله تعالى في سورة (لقمان ٣١):

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾.

في هذا النص يوصي الله الإنسان بالإحسان لوالديه، مبيّناً على وجه الخصوص مبلغ متاعب الأم بولدها، إشعاراً بمبلغ استحقاقها للإحسان والرعاية، شكراً لها على ما قدمت من عطاء دفعت إليه دوافع الرحمة.

وفي قوله تعالى: ﴿حملته أمه وهناً على وهن﴾ صورة رائعة ودقيقة جداً لمبلغ المتاعب التي تتحملها الأم في حمل جنينها، والتي تستوجب على الولد أن يشكر لها.

وفي قوله تعالى: ﴿وفصاله في عامين﴾ إشارة إلى مدّة الرضاع التي تكون فيها متاعب إرضاع الطفل وتربيته متاعب جمة، وهي في الغالب تتحملها الأم، وقد يشارك فيها الأب، وهذا يستوجب الشكر.

ولمّا كانت العناية الربانية هي المهيمنة على الإنسان منذ نشأته، والمسايرة له مدى وجوده، كان من حقه على عباده أن يشكروه.

ولذلك قال الله تعالى في النص: ﴿أنِ اشكر لي ولوالديك إليّ المصير﴾.

وأكد الله في هذا النص ما جاء في آية (العنكبوت) السابقة مع بعض زيادات في الدلالات.

ففي آية (العنكبوت): ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً﴾ وهذا يتضمن مجرد الوصية بالإحسان للوالدين.

أما ما جاء في (لقمان) ففيه الأمر بالشكر لهما، بعد التنبيه على متاعبهما، وجعل هذا الأمر مقروناً بالشكر لله: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن، وفصاله في عامين، أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير﴾، ففي هذه الآية تكليف زائد على مجرد الوصية، وبيان لموجب هذا التكليف.

وفي آية (العنكبوت): ﴿وإن جاهداك لتشرك بـي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾.

أما في (لقمان) فالنص كما يلي: ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بـي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إليّ﴾.

والفرق بينهما أن آية العنكبوت تضمنت أن مجاهدة الوالدين في الدعوة إلى الشرك بالله مجاهدة من مستوى السعي غير الملزم، ولذلك كان التعبير: «وإن جاهداك لتشرك» أي: سعياً لأجل أن تشرك. بخلاف آية لقمان فقد تضمنت أن مجاهدتهما مجاهدة من مستوى الإلزام والإيجاب، ولذلك جاءت التعدية في التعبير بحرف (على): «وإن جاهداك على أن تشرك» أي: حرصاً على أن تشرك، وهنا كان لا بد من تحديد موقف الولد بوضوح بعد نهيه عن طاعتهما في هذا الأمر، وهذا الموقف يتلخص بعنصرين:

الأول: مصاحبتهما في الدنيا بالمعروف ﴿وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾.

الثاني: اتباع سبيل من أناب إلى الله، وهو سبيل المؤمنين ﴿واتبع سبيل من أناب إلي﴾.

ومن كل النصوص نستخلص أن الإحسان للوالدين يجب أن لا يكون على حساب حق الله على عباده. إن مبدأ الإحسان للوالدين مبدأ ثابت ولو كان الوالدان كافرين، ولكن هذا المبدأ لا يصح بحالٍ من الأحوال أن يطغى على مبدأ وجوب الإيمان بالله والتزام طاعته واتباع شريعته لعباده.

ومن واجب الولد أن يصاحب والديه الكافرين في الدنيا مصاحبة بالمعروف، أي: بما هو معروف بين الناس من أصول الإحسان في المصاحبة، وحين يطلبان منه أن يعصي الله في شيء لم يكن لهما عليه حق الطاعة، ولم يجز له أن يطيعهما في ذلك، إذ لا طاعة لمخلوق مهما كان شأنه في معصية الخالق جل وعلا، إن حق الله على عباده أعظم وأجل من أي حق.

٤ ــ وقال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

النَّهْرُ: هو النهي الشديد مع الزجر.

في هذا النص يأتي النهي عن عبادة غير الله، والأمر بالإحسان للوالدين مقترنين، وفي هذا إشارة إلى الأهمية البالغة لواجب برّ الوالدين والإحسان إليهما، إذ توحيد الله من أهم مطالب الشريعة وأعظمها، فإذا جاء الأمر ببر الوالدين مقروناً به دل ذلك على مبلغ اهتمام الإسلام بهذا الواجب.

وفي قوله تعالى: ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾ قوة في الإلزام بهذين الواجبين، إذ جاء التعبير عن هذا التكليف بعبارة (قضى) ومعلوم أن القضاء إذا كان في مجال التكوين كان لا بد من وقوعه حتماً، فلما جاء في مجال التكليف دل على شدة إلزام المكلفين به، إلى أقصى حد.

وفي هذا النص اهتمام بحالة الأبوين حينما يبلغان مبلغ الكبر والعجز،

إذ يؤكد فريضة الإحسان إليهما في هذه الحالة، ومن الإحسان إليهما تكريم مقامهما، وعدم التضجر من أفعالهما مهما كانت مثيرة للتضجر، وعدم مواجهتهما بما يؤذيهما من القول، حتى ولا بكلمة (أفّ) علماً بأن الإنسان متى كبرت سنه وبلغ مبلغ العجز كثرت مطالبه، وضاق صدره، وكثرت مداخلاته في كل صغيرة وكبيرة، ومنهم من يردّ إلى أرذل العمر، ومع كل ذلك فالولد مطالب شرعاً بأن يقول لكلٍّ من والديه مهما كانت حالهما قولاً كريماً، وبأن لا يواجههما بأي قولٍ يؤذيهما، وأدنى ذلك كلمة (أفّ) التي تشعر بالتضجّر.

ويكاد الإنسان لا يفي والديه حقهما عليه مهما أحسن إليهما، لأنهما كانا يحسنان إليه حينما كان صغيراً وهما يتمنيان له كل خير، ويخشيان عليه من كل سوء، ويسألان الله له السلامة وطول العمر، ويهون عليهما من أجله كل بذلٍ مهما عظم، ويسهران على راحته دون أن يشعرا بأي تضجر من مطالبه، ويحزنان عليه إذا آلمه أي شيء، أما الولد فإذا قام بما يجب عليه من الإحسان لوالديه فإن مشاعره النفسية نحوهما لا تصل إلى مثل مشاعر أنفسهما التي كانت نحوه، ولا تصل إلى مثل مشاعره هو نحو أولاده إلا في حالات نادرة جداً.

وفي قوله تعالى: ﴿ولا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما﴾ بتقديم النهي عن الأمر الأخف على النهي عن الأمر الأشد وهو النهر، وكان الظاهر يقتضي العكس بتقديم النهي عن نهرهما على مواجهتهما بكلمة أفّ، في هذا جريٌ على سنن العرب في كلامهم، إذ يقدمون الأقل على الأكثر، والأخف على الأشد، والمفضول على الأفضل، فهم يقولون: لم يترك قليلاً ولا كثيراً، مع أن من لم يترك القليل لم يترك الكثير من باب أولى، وهذا ينسجم مع طبيعة العربي الذي يتدرج من الأدنى إلى تصوره فالأدنى، فالبعيد فالأبعد.

وفي قوله تعالى: ﴿واخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة﴾ رائعة بيانية عجيبة، فالله تبارك وتعالى يأمر الولد بأن يخضع لوالديه، ويلينَ لهما ليناً ناشئاً عن خلق الرحمة المتغلغل في قلبه، ويتذلل لهما تذلل الراحم لا تذلّل الضعيف المهين، فيشبه الرحمة بالطائر، ويجعل لهذا الطائر طائرِ الرحمة الخياليّ عدة

أجنحة، وأحد هذه الأجنحة يسمى جناح الذل، وإذ يصل القرآن إلى هذه الصورة الخيالية الحلوة، يأمر الإنسان بأن يخفض جناح الذل هذا لوالديه.

ويعني خفض هذا الجناح تقديم كل صور العطف والإحسان والتكريم العملية، التي يستطيع أن يقوم بها رحمة بوالديه، من خدمة ومساعدة، وعطاء، وتكريم واحترام، وسهر وصبر، وبذل وتضحية، وتواضع وتذلل وتحبب، فكل ذلك من خفض جناح الذل.

وهذه الرائعة البيانية هي من قبيل الاستعارة التخييلية، لأن المشبه به وهو الطائر قد حُذف ورمز إليه في الاستعارة ببعض خواصه وهو الجناح، ومعلوم أن الاستعارة من روائع الأساليب البيانية، وتبدو نافعة جداً حينما تقرب الحقائق الفكرية والمعاني النظرية، إذ تجعلها في صورة تدرك في التصور الحسي، وكذلك حينما تزينها فتعطي من الأثر ما لا تعطيه المعاني الفكرية المجردة.

فقوله تعالى: ﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾ يحمل من الأثر في أنفس السامعين ما لا يحمله قول آخر، كقولنا: واخضع لهما وارحمهما، أو نحو ذلك.

وفي ختام النص يأمر الله الولد بأن يدعو لوالديه بالرحمة، وذلك بقوله: ﴿وقل: ربّ ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾ وهذا الدعاء وفاء من الولد لوالديه في حال غيابهما.

٥ ــ وقال الله تعالى في سورة (الأحقاف ٤٦):

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾.

فصاله: فطامه.

فأبان هذا النص ما تتعرض له الأم من متاعب الحمل والوضع وأشار إلى متاعب الرضاع.

ووصف المؤمن البار بأنه يسأل الله أن يوفقه لأن يشكر نعمة الله عليه وعلى والديه، وأن يعمل صالحاً يرضيه تعالى، وأن يصلح له في ذريته.

٦ ـ وأبان الله تعالى أن برّ الوالدين والإحسان إليهما شريعة من شرائع الله في الأديان السالفة التي أنزلها على رسله السابقين، فقال تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا . . . ﴿٨٣﴾ ﴾.

وأثنى الله على يحيى عليه السلام بأنه كان براً بوالديه، فقال تعالى في سورة (مريم ١٩):

﴿ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ ﴾.

وحدّث عيسى عن نفسه وهو في المهد طفل بأنه برّ بوالدته؛ حكى الله ذلك عنه بقوله تعالى في سورة (مريم ١٩):

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ ﴾.

٧ ـ وقال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ . . . ﴿١٥١﴾ ﴾.

فدلت جملة النصوص القرآنية على أن الأمر بالإحسان للوالدين مما وصى

الله به الإنسان، وهذا يدل على أن هذا الأمر شريعة ربانية منذ أول الشرائع التي أنزلها الله للناس، وأن الله أخذ الميثاق على بني إسرائيل بالمحافظة على هذا الواجب وجعله مقارناً لأخذ الميثاق عليهم بأن لا يشركوا بالله شيئاً.

برّ الوالدين والإحسان إليهما في السنّة:

١ ــ روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن مسعود، قال: سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها» قلت: ثمّ أي؟ قال: «برّ الوالدين» قلت: ثم أيّ؟ قال: الجهاد في سبيل الله».

فبدأ الرسول صلوات الله عليه في هذا الحديث بحق الله على عباده، وهو أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، والصلاة على وقتها من أهمّ أركان العبادة في الإسلام. ثم ثنّى ببرّ الوالدين، وقد اتبع الرسول ﷺ في هذا ما جاء في النصوص القرآنية التي سبق الاستشهاد بها. ثم ثلّث الرسول ﷺ بالجهاد في سبيل الله، لأن ركن الجهاد من أهم الأركان التي يرتبط بها نشر الدين وإعلاء كلمة الله، وإقامة الحق والعدل.

٢ ــ وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة، قال: قال رجل: يا رسول الله،من أحقُّ الناس بحسن صحابتي؟ قال رسول الله: «أمّك» قال الرجل: ثم من؟ قال رسول الله: «أمّك» قال الرجل: ثم من؟ قال رسول الله: «أمّك». قال الرجل: ثم من؟ قال رسول الله: «أبوك».

فجعل الرسول ﷺ للأم من الحق بحسن المصاحبة نسبة ثلاثة أرباع، وجعل للأب نسبة الربع، وهذا بداهة من حقّ الوالدين على الولد، أمّا الحقوق الأخرى فلها نسب أخرى ممّا يجب على الإنسان. وقد يقال: إنّ تكرير بيان حقّ الأمّ لتأكيد الاهتمام بضرورة القيام بحقها نظراً إلى ضعفها، لا لبيان مقدار حقها بالنسبة إلى حقّ الأب.

٣ ــ وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رَغم أنفه، رغم أنفه، رغم أنفه» قيل من يا رسول الله؟ قال: «من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كلاهما ثمّ لم يدخل الجنّة».

ممّا يثير الانتباه في هذا الحديث أسلوبه البياني العجيب، الذي يعلن الرسول ﷺ فيه الحكم الخطير على مجهول، ويكرّر إعلان هذا الحكم ثلاث مرّات، بطريقة مفاجئة غير مسبوقة بتمهيدات، وذلك لاستدعاء التساؤل من السامعين عن المحكوم عليه بهذا الحكم، واستجماع كلّ انتباههم.

ومعنى «رغم أنفه» التصق أنفه برغام الأرض، وهو ترابها، وهذا كناية عن الحكم عليه بالذلّ والمهانة والصَّغار والخيبة في المسعى.

وفي قول الرسول «من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كلاهما ثم لم يدخل الجنة»؛ تذكير مهمٌّ بالفترة التي يتهيّأ للإنسان فيها موسمٌ تجاري رابح، وربحه فيه بخدمة والديه أو أحدهما يدخله الجنة، ودخول الجنة أعظم ربح يربحه الساعي في هذه الحياة.

٤ ــ وروى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص، قال: أقبل رجلٌ إلى نبـي الله ﷺ فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد، أبتغي الأجر من الله تعالى، فقال: «فهل من والديك أحدٌ حيٌّ؟» قال: نعم، بل كلاهما، وقال الرسول: «فتبتغي الأجر من الله تعالى؟» قال: نعم. قال: «فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما».

وفي رواية عند البخاري ومسلم، أنّ رجلاً جاء إلى الرسول فاستأذنه في الجهاد، فقال: «أحيٌّ والداك» قال: نعم. قال: «ففيهما فجاهد».

وفي معنى هذا الحديث، ما رواه أحمد والنسائي والبيهقي في شعب الإيمان بإسناد جيد، عن معاوية بن جاهمة، أنّ جاهمة جاء إلى النبـي ﷺ فقال: يا رسول الله أردت أن أغزو، وقد جئت أستشيرك، فقال: «هل لك من أمّ؟» قال: نعم. قال: «فالزمها فإن الجنة عند رجليها».

وهكذا تتعاضد التوجيهات النبوية على ترجيح برّ الوالدين والقيام بخدمتهما على الغزو في سبيل الله في حالات خاصة، وهي الحالات التي تكون حاجات الوالدين فيها حاجات ملحّة، ويكون الغزو والقتال في سبيل الله من

الأمور المندوبة، لا من الواجبات العينية على الشخص الذي تعارض عنده الأمران.

٥ ــ وروى مسلم عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ من أبرّ البرّ صلة الرجل أهل ودّ أبيه بعد أن يولّي» أي: من بعد وفاته. إنّ هذا الحديث يبرز رائعة من روائع المفاهيم الإسلامية في ميادين السلوك الخلقي، فبرّ الوالدين لا يقتصر على الإحسان المباشر إليهما، بل هو يتعدّى إلى الإحسان إلى كلّ من يسرّهما الإحسان إليه.

وفي هذا استبقاء لروابط المودّة التي كانت بين الأب وأهل ودّه، وانتقالها إلى أولاده.

٦ ــ وإذا كان برّ الوالدين بهذه المنزلة التي عرضتها نصوص القرآن والسنة، فعقوقهما من كبائر المعاصي.

روى البيهقي في شعب الإيمان عن أبـي بَكْرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلّ الذنوب يغفر الله منها ما شاء إلاّ عقوق الوالدين فإنه يعجّل لصاحبه في الحياة قبل الممات».

٧ ــ وروى الترمذي وأبو داود بإسناد صحيح عن أبـي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أحرى أن يعجّل لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدّخر له في الآخرة من البغي وقطيعةالرحم». ومما لا ريب فيه أنّ أقرب الرحم للإنسان والداه.

٨ ــ وروى الترمذي عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «رضى الربّ في رضى الوالد، وسخط الرب في سخط الوالد».

٩ ــ وروى البخاري ومسلم عن أبـي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» وكرّرها الرسول ثلاثاً. قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»، وكان متكئاً فجلس فقال: «ألا وقول الزور وشهادة الزور» فما زال يكرّرها حتى قلنا: ليته سكت.

١٠ ــ وروى البخاري عن عبدالله بن عمرو بن العاص، أنّ النبي ﷺ قال: «الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس».

اليمين الغموس: هي التي يحلفها الحالف كاذباً عامداً، وقد سمّيت غموساً لأنها تغمس الحالف في الإثم، أو في النار.

١١ ــ وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا يجزي ولد والداً إلاّ أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه».

١٢ ــ وروى البخاري ومسلم عن أسماء بنت أبي بكر قالت: قدمت عليَّ أمي وهي مشركة في عهد قريش. فقلت: يا رسول الله، إنّ أمي قدمت عليّ وهي راغبة. أفأصلها؟ قال: «نعم، صِليها».

وهي راغبة: أي راغبة فيما عندي تسألني، أو راغبة عن الإسلام.

١٣ ــ وروى الترمذي بإسناد صحيح عن أبي الدرداء، أنّ رجلاً أتاه فقال: إنّ لي امرأة، وإنّ أمّي تأمرني بطلاقها. فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«الوالد أوسط أبواب الجنة».

فإن شئت فأضِعْ ذلك الباب أو احفظه.

١٤ ــ وروى أبو داود وابن ماجه، عن أبي أسيد الساعدي قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجلٌ من بني سلمة فقال: يا رسول الله، هل بقي من برّ أبويّ شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال:

«نعم: الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما».

١٥ ــ وروى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«من الكبائر شتم الرجل والديه».

قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «نعم، يَسُبّ أبا الرجل فيسبّ أباه، ويَسُبّ أمّه فيسبّ أُمّه».

وفي رواية:

«إنّ من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه».

قيل: يا رسول الله، كيف يلعن الرجل والديه؟ قال:

«يسبّ أبا الرجل فيَسبّ أباه، ويسبّ أمّه فيسبّ أمّه».

١٦ ــ وروى البخاري ومسلم عن المغيرة بن شعبة، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنّ الله حرّم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومَنْعَ وهاتِ، وكره لكم قيل وقالَ، وكثرة السؤال، وإضاعة المال».

ومَنْعَ وهاتِ: أي منع الحقوق الواجبة عليه، ومسألة الناس ما ليس له به حق.

وكره لكم قيل وقال: أي كره الله لنا أن نحدّث بكل ما نسمع من أقوال الناس، ممّا ليس فيه علم ينتفع به، أو خير يرجى.

١٧ ــ وروى الترمذي بإسناد صحيح عن البراء بن عازب، عن النبي ﷺ قال: «الخالة بمنزلة الأمّ».

وجاء أيضاً في كلام رسول الله ﷺ: أنّ عم الرجل صِنْو أبيه.

فدلت النصوص على أنّ حق الوالدين قائم ولو كانا كافرين، فعلى الولد أن يُحسن صحبتهما، دون أن يطيعهما في معصية الله عز وجل، فطاعة الله لا تقدّم عليها طاعة لأحد مهما كان ذا حق.

وحينما يكون الوالدان بحاجة إلى مساعدة وإحسان، ومعونة وخدمة،

لا سيما في كبرهما وعجزهما، فإنّ خلق الرحمة يفرض الإحسان إليهما، فكيف وهما أقرب الناس إليه، ولهما عليه حق التربية والخدمة والعطاء، وسوابق الفضل الجسيم.

والوالدان حينما يكبران ويصيبهما ما يصيب الإنسان في شيخوخته من عجز وضيق صدر وتدخل في الصغائر من الأمور، حتى يردّان إلى أرذل العمر، فإنهما يحتاجان إلى من يصبر عليهما، ومَنْ أولى بالصبر عليهما من ولدهما؟!.

وبر الوالدين والإحسان إليهما ومصاحبتهما بالمعروف تتطلب بذلاً، ورحمة، وحناناً، وخدمة، ومخالفة لأهواء النفس، وصبراً، وتسامحاً، وتغاضياً، وطاعة في المعروف، وكل ذلك يحتاج إلى مخزون جمّ من جملة من فضائل الأخلاق.

ومن عظيم فضل الله أنه تعالى جعل لمن يقوم بواجب الشكر لوالديه أن يدخله الجنة ويكفر عنه من سيئاته إذا كان من أهل الإيمان. فمن تهيأت له فرصة خدمة والديه أو أحدهما، والإحسان إليهما، وبرهما وهما كبيران عاجزان عن القيام بخدمة أنفسهما، ففوّت على نفسه هذه الفرصة الذهبية العظيمة، فلم يبرّهما، فهو لا شكّ خائب خاسر. لقد أتته سوق التجارة الرابحة فلم يظفر بها، وهبّت عليه رياح المغانم العظيمة فلم يغتنمها.

وأبان الرسول ﷺ أن من الكبائر أن يتسبب الإنسان بشتم والديه أو أحدهما. وأن من أبرّ البرّ أن يصل الإنسان أهل ودّ أبيه بعد موته، وكذلك أهل ودّ أمّه قياساً، وأنّ من البرّ بالوالدين أن يصل الولد الرحم التي لا توصل إلاّ بهما، وأنّ من البرّ إكرام صديقهما.

في ثمرة برّ الوالدين:

(أ) قصة أصحاب الغار الثلاثة:

من ثمرات برّ الوالدين استجابة الدعاء، ومن أمثلة ذلك قصة أحد الثلاثة الذين أووا إلى غار في ليلة ممطرة، فانحطت على فم الغار صخرة من الجبل فانطبقت عليهم، فدعا كلّ منهم متوسلاً بصالح عمله، وكان عمل

أحدهم برّه بوالديه، فاستجاب الله دعاء كلٍّ منهم، ففرج لهم فخرجوا من الغار.

روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمر عن النبي ﷺ قال:

«بينما ثلاثة نفر يتماشون أخذهم المطر، فمالوا إلى غارٍ في الجبل، فانحطّت على فم الغار صخرة من الجبل، فانطبقت عليهم.

فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها لله صالحة، فادعوا الله بها لعله يُفرِّجها.

فقال أحدهم: اللهمّ إنّه كان لي والدان شيخان كبيران، ولي صبية صغار كنت أرعى عليهم، فإذا رُحتُ[1] عليهم فحلبت بدأت بوالديّ أسقيهما قبل ولدي، وإنّه قد نأى بي الشجر[2]، فما أتيت حتى أمسيت، فوجدتهما قد ناما، فحلبتُ كما كنت أحلب، فجئت بالحِلاب[3]، فقمت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما، وأكره أن أبدأ بالصبية قبلهما، والصبية يتضَاغَوْن[4] عند قدميّ، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافرُج لنا فرجةً نرى منها السماء. ففرج الله لهم حتى يرون السماء.

قال الثاني: اللهم إنه كانت لي بنت عمّ أحبُّها كأشدّ ما يحبُّ الرجال النساء، فطلبت إليها نفسها، فأبت حتى آتيها بمئة دينار، فسعيت حتى جمعت مئة دينار، فلقيتها بها، فلما قعدت بين رجليها، قالت: يا عبدالله اتق الله ولا تفتح الخاتم، فقمت عنها. اللهم فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج لنا منها، ففرج لهم فرجة.

---

(١) رُحت: رجعت عشية.
(٢) قد نأى بي الشجر: أي بعد بي طلب المرعى.
(٣) بالحلاب: باللبن الذي حلبته.
(٤) يتضاغَون: يتصايحون من الجوع.

وقال الآخر: اللهم إني كنت استأجرت أجيراً بِفَرَقِ[٢] أرُزّ، فلمّا قضى عمله، قال: اعطني حقي، فعرضتُ عليه حقّه، فتركه ورغب عنه، فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقراً وراعيها، فجاءني فقال: اتق الله ولا تظلمني وأعطني حقي. فقلت: اذهب إلى ذلك البقر وراعيها، فأخذه فانطلق بها. فإن كنت تعلم أني فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافرُج ما بقي ففرّج الله عنهم».

هذه قصة هؤلاء الثلاثة أصحاب الغار، وقد فرّج الله عنهم إذ توسلوا إليه بما قدّموه من أعمالٍ صالحة:

فالأول: كان عمله الصالح من باب برّ الوالدين.

والثاني: كان عمله الصالح من باب العفة عن الحرام.

والثالث: كان عمله الصالح من باب أداء الحقوق إلى أهلها بأمانة تامّة مقرونة بإحسان وفضل.

(ب) قصة أويس القَرني:

روى مسلم عن أُسَيْر بن عمرو، أو هو أُسَيْر بن جابر، قال: كان عمر بن الخطّاب إذا أتى عليه أمْداد أهل اليمن سألهم: أفيكم أويْس بن عامر؟ حتى أتى على أويس فقال: أنت أويس بن عامر؟ قال نعم. قال: من مُرادٍ ثمّ من قَرَن؟؟. قال: نعم. قال: فكان بك برص فَبَرأت منه إلاّ موضع درهم؟. قال: نعم. قال: لك والدة؟. قال: نعم. قال عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن، من مُرادٍ ثمّ من قَرَن، كان به برص فَبَرأ منه إلاّ موضع درهم، له والدة هو بها برٌّ، لو أقسم على الله لأبرّه، فإن استطعتَ أن يستغفر لك فافعل».

فاستغفر لي، فاستغفر له، فقال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة؟. قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟. قال: أكون في غبراء الناس أحبُّ إليّ.

---

(٢) الفَرق: مكيال يسع ستة عشر رطلاً.

فلمّا كان من العام المقبل حجّ رجل من أشرافهم، فوافق عمر، فسأله عن أويس، فقال: تركته رثّ البيت قليل المتاع، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن، من مُراد ثمّ من قَرَن، كان به برص فبرأ منه إلّا موضع درهم، له والدة هو بها بَرٌ لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل».

فأتى الرجل أويساً، فقال: استغفر لي. قال: أنت أحدث عهداً بسفر صالح، فاستغفرْ لي. لقيتَ عمر؟. قال: نعم. فاستغفر له. ففطن له الناس، فانطلق على وجهه.

أمداد أهل اليمن: هم متطوعة الجهاد الذين كانوا يأتون مدداً لجيوش الفتح الإسلامي من مختلف الجهات، وكان اليمانيون عنصراً مهماً يُمد بالأعداد الكثيرة من المقاتلين.

لو أقسم على الله لأبرّه: أي لو حلف يميناً قال فيه: والله ليفعلَنَّ الله هذا الأمر لأبرَّ الله قسمه ففعل الله ما حلف عليه.

أكون في غبراء الناس أحبّ إليّ: أي أكون في عامتهم وفقرائهم ومن لا ينظر إليه منهم أحبّ إليّ، وهذا من تواضعه وإخلاصه العظيم رضي الله عنه.

رثّ البيت: الرّث هو الخَلَقُ البالي المهترىء الخسيس من كلّ شيء تقول: ثوبٌ رثٌ، ورجلٌ رث الهيئة، ومتاع رثّ، والجمع رِثاث.

فانطلق على وجهه: أي ذهب ثمّ لم يُعرف مكانه، إخفاءً لنفسه وبعداً عن التظاهر مخافة أن يدخل إلى قلبه الرياء.

واضح من قصة أويس أنّه كان يتمتع بميزتين عظيمتين:

الأولى: أنه كان براً بأمّه، فكان من ثمرة برّه بها أن منحه الله تبارك

وتعالى الدعوة المستجابة، فهو امرؤ كما أخبر الرسول ﷺ عنه: لو أقسم على الله لأبرّ الله قسمه.

وأويس تابعي لم ير الرسول ﷺ ، ولكن الرسول ﷺ قد أخبر عنه وعن صفته قبل أن يأتي، ثمّ جاء مع أمداد أهل اليمن كما أخبر الرسول فهي إحدى معجزاته صلوات الله عليه.

الثانية: تواضعه وإخلاصه لله تعالى وزهده في الدنيا، وقد ظهر ذلك بإيثاره البعد عن كلّ ما فيه ظهورٌ وشهرة، حرصاً على مرتبة الصدق والإخلاص لله عزّ وجل، وظهر أيضاً برفضه أن يكتب أمير المؤمنين عمر إلى عامله في الكوفة يوصي فيه، وقوله: أكون في غبراء الناس أحبّ إليّ.

ولكن لم يحرمه الله من الذكر الحسن، فقد زاده الله بتواضعه رفعة وشهرةً وذكراً، وارتبط اسمه بمعجزة نبوية تروى.

أويس خير التابعين:

ولمّا كان أويس هذا عظيم الإيمان عظيم الإخلاص لله كثير التقوى والبرّ والإحسان كان خير التابعين، وقد شهد له الرسول ﷺ بذلك، كما جاء في رواية عند مسلم أن رسول الله ﷺ قال:

«إنّ خير التابعين رجل يقال له أويس، وله والدة، وكان به بياض، فمروه فليستغفر لكم».

صلة الرحم:

ومن ظواهر خلق الرحمة صلة الرحم، وقد أوصى الإسلام بصلة الرحم، ونهى نهياً شديداً عن قطيعة الأرحام.

إنّ من مبادىء الإسلام الاجتماعية الأولى تشبيك جماعات المسلمين في وحدة جسدية جماعية عامة. وأولى الناس بذلك الأقربون رحماً، فلهم حقّ أخوّة الإسلام، ولهم حقّ قرابة الرحم.

وتكون صلة الرحم بزيارتهم، وتفقد أحوالهم، وإكرامهم، والإهداء

إليهم، والتصدق على فقيرهم باعتباره أحقّ من الفقير البعيد، وتكون بتعهّد مرضاهم، ومشاركتهم في مسرّاتهم، ومواساتهم في أحزانهم، وتقديمهم على غيرهم في كلِّ أمرٍ هم أحقّ به من غيرهم بسبب قرابتهم.

أمّا قطيعتهم فتكون بهجرهم، والإعراض عن زياراتهم المستطاعة، وعدم مشاركتهم في مسرّاتهم، وعدم مواساتهم في أحزانهم، وتكون بتفضيل غيرهم عليهم في الصلات والعطاءات الخاصة، التي هم أحقّ بها من غيرهم.

وقد وصف الله المؤمنين أهل الجنة، بأنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل، ويدخل في ضمن ذلك صلة الرحم، قال الله تعالى في سورة (الرعد ١٣):

﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ . . . ﴿٢١﴾ ﴾.

ووصف الله من هم اللعنة ولهم سوء الدار بأنهم يقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويدخل في ضمن ذلك قطيعة الرحم، قال الله تعالى في سورة (الرعد ١٣):

﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ﴾.

وصلة الرحم من موجبات دخول الجنة، روى البخاري ومسلم عن أبـي أيوب خالد بن زيد الأنصاري، أنّ رجلاً قال: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة، فقال النبـي ﷺ: «تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم».

ومن وصل الرحم وصله الله، ومن قطع الرحم قطعه الله، روى البخاري ومسلم عن عائشة، عن النبـي ﷺ أنه قال: «الرّحم معلّقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله».

وهذا كناية عن أنّ حقّ الأرحام حق ثابت، وأنّ الله يصل من وصل الرحم، ويقطع من قطع الرحم، نظراً إلى أن الرحم مستجيرة برحمة الله.

وروى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «الرحم شُجْنَةٌ من الرحمن، فقال الله: من وصلك وصلته، ومن قطعك قطعته».

الشُّجْنَةُ: في اللغة عروق الشجر المشتبكة، والمتداخل بعضها في بعض، ولا شكّ أنّ الرحم متداخلة متشابكة بعضها في بعض، كتداخل عروق الشجر المشتبكة، وكونها من الرحمن، أي اشتق الله لها اسماً من اسمه الرحمن. وقد جاء هذا المعنى مصرحاً به في حديث رواه أبو داود، وقال عنه: «حسن صحيح» عن عبدالرحمن بن عوف قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى: أنا الله، وأنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها من اسمي فمن وصلها وصَلْته، ومن قطعها بتّته».

بتته: أي قطعته، فالبتّ في اللغة القطع.

وقطيعة الرحم من العناصر التي تحرم القاطع من دخول الجنة، روى البخاري ومسلم عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ : «لا يدخل الجنة قاطع».

أي: قاطع رحم، وقاطع لما أمر الله به أن يوصل، وهذا يفضي إلى الكفر الذي يتمرّد فيه العبد على أمر الله، ويرفض فيه طاعته.

وليس الواصل لرحمه هو من يعامل أرحامه بالمثل، فإن وصلوه وصلهم، وإن قطعوه قطعهم، ولكن الواصل هو الذي إذا قطعته رحمه وصلها، روى البخاري عن عبدالله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ : «ليس الواصل بالمكافىء ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها».

وشكا رجل إلى رسول الله ﷺ قطيعة قرابة له، على الرغم من أنه يواصلهم، ويحسن إليهم، ويحلُم عنهم، فأبان له الرسول ﷺ مبلغ عقوبتهم عند الله على قطيعتهم وإساءتهم له إن صدق فيما يقول، روى مسلم عن أبي هريرة، أنّ رجلاً قال: يا رسول الله، إنّ لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إليّ، وأحلُم عنهم ويجهلون عليّ، فقال له الرسول ﷺ :

«لئن كنت كما قلت فكأنّما تُسِفُّهم الملّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك».

الـمَلْ: هو الرماد الحارّ، والمعنى فكأنما تطعمهم الرماد الحارّ، وهذا تشبيه لنوع العقاب الذي يجازون به يوم القيامة على قطيعتهم لرحمهم.

وروى البخاري ومسلم عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله تعالى خلق الخلق، حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم، فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: «نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟» قالت: بلى. قال: «فذلكِ لكِ».

ثم قال رسول الله ﷺ: «اقرأوا إن شئتم: ﴿فهل عسيتم إن تولّيتم أن تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم * أولئك الذين لعنهُم الله، فأصمّهم، وأعمى أبصارهم﴾ (محمد ٢٢ ـ ٢٣).

فمن هذه النصوص يتبينّ لنا أن قطيعة الرحم معصية كبيرة، وإثم شنيع، وأنّ عقابها عند الله عقاب مريع، ونحن نعلم أنّ الوالدين أقرب الرحم.

نعوذ بالله من سيء العمل، ومزالق الزلل، وكبائر الإثم، وسوء المصير.

ومن لطائف الشريعة أنّ الصدقة على المسكين تحسب بصدقة، أمّا الصدقة على ذي الرحم فتحسب باثنتين، صدقة وصلة؛ روى الترمذي بإسناد حسن عن سلمان بن عامر، أنّ النبـي ﷺ قال: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم صدقة وصلة».

وصلة الرحم مما يكافىء الله عليه في الدنيا ببسط الرزق وإطالة العمر، وهذا ثواب معجل يتسابق إليه معظم الناس، وهو زائد على ثواب الآخرة الذي ادّخره الله للمؤمنين الذين يعملون الصالحات ابتغاء مرضاته، روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك، أنّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أحبَّ أن يُبسط له في رزقه، ويُنسأ له في أثره، فلْيصِلْ رحمه».

يُنْسَأ: أي يؤخر، والنسيء هو التأخير. والمراد من الأثر الأجل والعمر،

وذلك لأن عمر الإنسان في هذه الحياة هو الفترة الزمنية التي تسجّل له فيها آثاره ــ أي أعماله ذات الآثار ــ سواء أكانت خيراً أو شراً.

فيكون المعنى المراد من «ويُنسأ له في أثره»: يؤخر له في عمره، أي يطوّل له في عمره.

وأفضل الصدقة وأفضل أعمال البرّ هو ما كان منها على الأرحام والأقربين ما وجد فيهم ذو حاجة.

روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحبَّ أمواله إليه بَيْرَحاء (اسم لحديقة من نخل) وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماءٍ فيها طيب، فلمّا نزلت هذه الآية: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبّون﴾ قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنّ الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا ممّا تحبون﴾ وإنّ أحبَّ مالي إليّ (بَيْرَحاء) وإنها صدقة لله تعالى، أرجو برّها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال رسول الله ﷺ: «بخٍ، ذلك مال رابح، ذلك مالٌ رابح، وقد سمعتُ ما قلتَ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين».

فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسم حديقته هذه في أقاربه وبني عمّه.

وروى البخاري ومسلم عن زينب الثقفية امرأة عبدالله بن مسعود، قالت: قال رسول الله ﷺ: «تصدّقن يا معشر النساء، ولو من حَلْيِكُنّ» قالت: فرجعت إلى عبدالله بن مسعود فقلت: إنك رجل خفيف ذات اليد، وإنّ رسول الله ﷺ قد أمرنا بالصدقة، فأته فاسأله، فإن كان ذلك يجزي عني، وإلّا صرفتها إلى غيركم، (تريد بذلك إعطاء صدقتها إلى زوجها إذا كان هذا جائزاً) فقال عبدالله بن سمعود: بل ائته أنتِ، قالت زينب: فانطلقت، فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله ﷺ حاجتي حاجتها (أي: تريد أن تسأل الرسول بمثل السؤال الذي جاءت زينب من أجله).

قالت زينب: وكان رسول الله ﷺ قد ألقيت عليه المهابة، فخرج علينا بلال، فقلنا له: ائتِ رسول الله ﷺ فأخبره أن امرأتين بالباب تسألانه، أتجزيء الصدقة عنهما على أزواجهما، وعلى أيتام حجورهما؟ ولا تخبره من نحن. فدخل بلال على رسول الله ﷺ فسأله، فقال له رسول الله ﷺ: «من هما؟» قال: امرأة من الأنصار وزينب. فقال رسول الله ﷺ: «أي الزيانب؟» قال بلال: امرأة عبدالله. فقال رسول الله ﷺ: «لهما أجران، أجر القرابة، وأجر الصدقة».

هذه تعاليم الإسلام الرائعة، وهذا حال نساء الصدر الأول من المسلمين.

* والأمر بصلة الرحم من أوائل ما نزل من التشريع في الإسلام، دلّ على ذلك آيات مكية، وأحاديث ثابتة:

روى مسلم عن عمرو بن عَبَسة السلمي في حديث طويل، قال: كنت وأنا في الجاهلية أظنّ أنّ الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخباراً، فقعدت على راحلتي فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفياً جرآء عليه قومُه، فتلطفتُ حتى دخلت عليه بمكة، فقلت له: ما أنت؟ قال: «أنا نبي». فقلت: وما نبي؟. قال: «أرسلني الله». فقلت: بأي شيءٍ أرسلك؟ قال:

«أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحّد الله لا يشرك به».

قلت: فمن معك على هذا؟ قال: «حرٌّ وعبد» ــ ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ــ فقلت: إني متّبعك، قال:

«إنك لن تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالي وحال الناس، ولكن ارجع إلى أهلك فإذا سمعت بي ظهرتُ فأتني».

وفي حديث أبي سفيان في قصته مع هرقل، من حديث طويل عند البخاري ومسلم، قال هرقل لأبي سفيان عن محمد ﷺ: فماذا يأمركم به؟ قال أبو سفيان: قلت: يقول: «اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والعفاف، والصلة».

أي: وصلة الأرحام.

واستمرت الدعوة إلى صلة الرحم تحتل مقدمات ما يدعو إليه الرسول ﷺ.

روى البخاري ومسلم عن أبي أيوب الأنصاري أنّ رجلاً قال: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة، فقال النبي ﷺ:

«تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم».

وصلة الرحم قد تكون مقدمة على عتق الرقاب في بعض الأحوال:

روى البخاري ومسلم عن أمّ المؤمنين ميمونة، أنها أعتقت وليدة، ولم تستأذن النبي ﷺ، فلمّا كان يومُها الذي يدور عليها فيه، قالت: أشعرت يا رسول الله أني أعتقت وليدتي؟. قال: «أو فعلتِ؟». قالت: نعم. قال: «أما إنّك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك».

ويظهر أنّ أخوالها كانوا ذوي حاجة، أوأنّ صلتها لهم تؤلف قلوبهم، وتجبر خواطرهم.

وصلة الرحم مطلوبة في الإسلام ولوكانت الرحم غير مسلمة، ولكن صلتها حينئذ تكون فيما لا يتعارض مع الإسلام وأحكامه، أو مع مصلحة المسلمين.

روى مسلم عن أبي هريرة قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا، فعمّ وخصّ فقال:

«يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني مرّة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني عبدشمس أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني عبدمناف أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني عبدالمطلب أنقذوا أنفسكم من النار. يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، فإنّي لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أنّ لكم رحماً سأبلُّها ببلالها».

بِبِلالها: البلال مصدر بلّه بالماء إذا ندّاه به، أو جمع الْبَلَلِ؛ والعرب يطلقون النداوة على الصلة، واليبس على القطيعة.

وروى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري، عن عمرو بن العاص، قال: سمعت النبي ﷺ جهاراً غير سرٍّ يقول:

«إنّ آل أبي فلان ليسوا بأوليائي، إنما وليّي الله وصالح المؤمنين، ولكن لهم رحِمٌ أبُلّها بِبِلالها».

أي: أندّيها بما تستحق من صلة وإكرام، وذلك لأن هذه الرحم لم تستجب لدعوة الرسول ﷺ.

فصلة الرحم ظاهرة ترجع إلى جملة من الأسس الأخلاقية، منها الرحمة، ومنها حبّ الحق وإيثاره، لأنّ الله تعالى قد عقد بين الرحم شبكة حقوق متبادلة، ومنها الدافع الجماعي، والشعور بالمحبّة تجاه الآخرين.

وأبان الرسول ﷺ أنّ صلة الأرحام من الأعمال التي يثيب الله عليها بثوابين معجّلين في الدنيا:

الأول: البسط في الرزق والتوسعة فيه، فالذي يصل رحمه يبسط الله له في رزقه.

الثاني: إطالة العمر والبركة فيه.

وأبان الرسول ﷺ أن قطيعة الرحم تحجب بين القاطع وبين دخول الجنة وهذا الحجب إمّا أن يكون حجباً جزئياً، أو يكون حجباً كلياً إذا أفضى إلى ما فيه كفر موجب للخلود في النار.

وأبان أنّ المكافىء على الصلة بمثلها ليس هو الواصل، إنما الواصل هو الذي إذا قطعته رحمه وصلها. وأبان أن قطيعة الرحم من الذنوب التي يعجل الله لصاحبها العقوبة في الدنيا، مع ما يدخره له في الآخرة من عقوبة.

ونفهم من حديث ميمونة مع أحاديث أخرى أنّ الأفضليات الواردة في

كلام الرسول ﷺ كثيراً ما كان يراعي الرسول فيها حال السائل وظروف الحادثة، فلكل حادثة حكمها، ومن العسير الحكم بالأفضلية المطلقة إلا للإيمان. وفيما عدا ذلك كثيراً ما تتبادل الأعمال الأفضليات بحسب المصالح التي تتحقق بها.

إكرام اليتيم:

ومن ظواهر خلق الرحمة إكرام اليتيم، بل هنا تظهر الرحمة في أعطف وأحنى وأكرم مظاهرها.

إنّ اليتامى صنف من الضعفاء بين الناس، والضعفاء أحوج الناس إلى الرحمة، وإلى مظاهرها وما تدفع إليه.

اليتامى ضعفاء فقدوا ظهيرهم ونصيرهم من أعطف الناس وأحناهم عليهم، وفقدوا راعيهم المزوّد فطرياً بالحنان والعطف عليهم، مع حبّ غير مشوب غالباً بأخلاط الأنانية والمصلحة الخاصة، ومع رغبة بالتضحية والعطاء والفداء، ومع حرص شديد على إبلاغهم مبلغ الرشد والكمال، والنضج والقوة، والدرجات العاليات في كلّ أمر نافع، وفي كلّ عمل رافع، وفي كلّ ارتقاءٍ مجيد.

وإذْ يفقد اليتامى راعيهم الحاني فطرياً عليهم يكونون عرضة للإهمال من جهة، ومطمعاً للبغاة من جهة أخرى.

وبين فكّي الإهمال والطمع يقع اليتامى فريسة ضعيفة تستدرّ رحمة الرحماء، وتستجلب حنان ذوي الشفقة والرأفة، فهم في وضعهم الذي هم فيه بؤساء، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً.

من أجل كل ذلك بادرهم الإسلام بالرعاية الجماعية من قبل المجتمع الإسلامي المحيط بهم، تعويضاً لهم عما فقدوه؛ فأوصى الإسلام المسلمين برعاية اليتامى، وبذل الحنان والعطف لهم، والمبالغة في إكرامهم، وحسن تربيتهم وتأديبهم، وأمر بكفالتهم، وإدارة أموالهم بأمانة تامة، ورعاية حازمة

بصيرة، وحذّر من استغلال موقف الضعف الذي هم فيه تحذيراً شديداً، وتهدّد الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً بالوعيد الشديد، وبالنار التي تكوي ما في البطون.

وحين نستعرض النصوص الإسلامية التي تعرضت لأحوال اليتامى نلاحظ أنّها توصي بإعطاء اليتيم وإطعامه، والإحسان إليه وإكرامه، وكفالته والرأفة به، ومؤاخاته عند مخالطته، والقسم له من الفيء والغنائم، وتنهى عن دعّه وطرده، وتحذّر من مغبّة ظلمه في نفسه أو ماله، وهكذا تهتم بشأن اليتيم اهتماماً بالغاً.

فلنواكب في مسيرة البحث قافلة النصوص الإسلامية في اليتامى، لنستجلي موقف الإسلام وطريقه في شأن هذا الصنف الضعيف من الناس:

١ ــ يقول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ في سورة (الضحى ٩٣):

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾.

في هذا النص أعظم مواساة ربّانية للأيتام، فالله يعلن فيه أنّ اليتم بفقد الأبوين قد اختاره الله لأصفى أصفيائه من خلقه، محمد بن عبدالله، فحسب اليتامى مواساة وفخراً أن يكون سيّد المرسلين قد وُلد يتيم الأب، ثم نشأ يتيم الأبوين، ويخاطبه الله بقوله: ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى؟﴾ أي: فآواك، إذ يسّر لك بدل والديك من يكفلُك ويؤويك ويحنو عليك.

وإذ ذاق الرسول طعم اليتم، وعرف في نشأته مشاعره، وعرف ما يقهر اليتيم وما يواسيه، وعرف ما يفرحه ويسره ويجبر كسره ويكون له تعويضاً عمّا فقد من أبويه، قال الله له: ﴿فأمّا اليتيم فلا تقهر﴾.

إنّ مشاعر اليتيم ربّما تبلغ من الإفراط في الحساسية أن تقهره الكلمة العابرة التي لا تثير انتباه أي إنسان آخر، ولا تحرّك فيه شيئاً، لذلك كان على

كافل اليتيم أن يكون دقيق الملاحظة جداً لما يهزّ مشاعر الأيتام بالألم، فلا يأتي منها شيئاً، ويوصي أسرته بمثل ذلك، فليس من السهل قهر اليتيم ولو بكلمة عابرة.

إنّ مراقبة الأيتام ودراسة مشاعرهم تنبىء عن أمور مهمّة جداً من هذا القبيل، ومن الجدير بمتتبعي الدراسات النفسية بالسبر والملاحظة، أن يخصّصوا فصلاً في دراساتهم لدراسة أحوال الأيتام النفسية، وما يسرهم ويواسيهم، وما يؤلمهم ويقهرهم، حتى تكون هذه الدراسات الواقعية هادياً لكل من يتولّى كفالة الأيتام، والإشراف على تربيتهم وتأديبهم وتنشئتهم، وحتى لا يكونوا في المستقبل جانحين، أو معقدين بالحقد والكراهية، والسخط على كلّ شيء من حولهم.

إن اليتيم قد يقهره منظر عطف الأب أو الأم على ولدهما داخل الأسرة التي يعيش في كفالتها، ويؤلمه جداً تفضيل غيره عليه ولو بأتفه الأشياء، ويتيقظ فيه الشعور بأنه لو لم يكن يتيماً للقي من العطف والإكرام والتفضيل مثل الذي يلقاه الآخرون، ولكنّه محروم من ذلك بسبب يتمه.

وقد يكون من الخير إقامة مؤسسات عامة لكفالة الأيتام، مزودة بأفضل وأحدث وسائل الحضانة والرعاية والكفالة الجماعية، يشرف عليها مربّون ومربّيات، يتمتعون بالمؤهلات التربوية العالية النظرية والعملية، وبذلك يتهيأ للأيتام وسط اجتماعي بعيد نوعاً ما عن مشاعر الحرمان والتفاضل التي يشعر بها الأيتام داخل الأسر.

ومثل هذا المشروع من الواجبات الاجتماعية التي ترضي الله وتلائم أساليب العصر الحضارية.

٢ ــ ويمتنّ الله على الإنسان فيقول في سورة (البلد ٩٠):

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾.

في هذه الآيات حديث عن الإنسان ومسؤوليته في هذه الحياة. يعرّف الله الإنسان بموقعه تحت سلطان قدرة الله ومراقبته، ثم يمتن عليه ببعض ما وهبه، ويضعه موضع الامتحان على مفترق طريقين، آتاه الله العلم بهما وبنتائجهما، بما أودع فيه من استعداد لإدراك ذلك، وهما طريقا الخير والشر، ﴿وهدينا‌ه النجدين﴾.

ثم يبين الله للإنسان أنّ طريق النجاة والفلاح منهما هو طريق الميمنة، إلّا أن هذا الطريق من دونه عقبة قائمة داخل نفس الإنسان، وهذه العقبة في النفس لا بدّ من اقتحامها لتحقيق النجاة والفلاح ﴿فلا اقتحم العقبة﴾.

ولكنْ ما هي هذه العقبة في النفس؟ ﴿وما أدراك ما العقبة؟﴾ ويأتي الجواب: أنها عقبة قسوة القلب، التي ينشأ عنها البخل، والشحّ، وجحود الحقّ، وعقبة انعدام الصبر.

فكيف يكون اقتحام العقبة هذه؟

إنه يكون بتنمية خلقي الرحمة والصبر، مع الإيمان الصحيح وذلك يجعل الإنسان قادراً على اقتحام عقبة نفسه، فيجود في مواطن المرحمة، ويثبت في مواطن الصبر. فيعتق الرقاب جوداً وإحساناً ورحمة بالضعفاء، ويطعم الطعام في أيّام المجاعة، إذ الحاجة إليه حينئذٍ ملحّة، فيقدّمه إلى الضعفاء من ذوي الحاجة، وفي مقدمتهم يتيم ذو قرابة، أو مسكين فقير ﴿فلا اقتحم العقبة، وما أدراك ما العقبة؟ فكّ رقبة، أو إطعام في يوم ذي مسغبة، يتيماً ذا مقربة، أو مسكيناً ذا متربة، ثمّ كان من الذين آمنوا وتواصلوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة﴾.

مسغبة: مجاعة. متربة: فقر وحاجة. مرحمة: رحمة. مقربة: قرابة. وهي مصادر لأفعالها جاءت على وزن (مفعلة).

ونستطيع أن نفهم من إشارة الكلام في السورة، أنّ عتق الرقاب، وإطعام الأيتام والمساكين، من ظواهر خلق الرحمة، التي عمل الإسلام على غرسها في نفوس المؤمنين، وعمل على تغذيتها وتنميتها، وتوسيع دائرة شمولها، بدليل قوله تعالى عقب بيان اقتحام عقبة النفس وذكر أمثلة لهذا الاقتحام: ﴿ثمّ كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة﴾.

وهذا ما توحي به طبيعة تناسب بناء الكلم بعضه على بعض، وهو الأمر الذي يكاد يكون مطّرداً في الترابط البيّن من معاني آيات القرآن العظيم، يشهد هذا من يتدبّر القرآن بعمق في التأمل، وبصر نافذ في الفهم. إنه لم يأت ذكر تواصي الذين آمنوا بالمرحمة، الأمر الذي وجّه له القرآن بعد الحثّ على الظواهر العمليّة التي تنبع في غالب أحوالها من منابع الرحمة المتغلغلة في أعماق النفس الإنسانية، إلاّ إشعاراً بهذه الحقيقة. فيكون الأمر بهذه الظواهر العملية تعميقاً لخلق الرحمة في قلوب المؤمنين، ثم يكون تواصي المؤمنين فيما بينهم بالمرحمة وسيلة أخرى مشجعة على ممارسة ظواهر الرحمة على اختلافها، وعاملة على تعميق هذا الخلق في النفس. وذلك لما لهذا الخلق العظيم من آثار اجتماعية جليلة.

وهكذا نلاحظ في هذا النصّ عناية القرآن بالتوجيه لإطعام اليتيم.

٣ ــ ويؤنّب الله المشركين الذين من شأنهم أن تكون قلوبهم قاسية غير ندية بخلق الرحمة، لذلك فهم لا يكرمون اليتامى، ولا يحضّ بعضهم بعضاً على إطعام المساكين، فيقول تبارك وتعالى في سورة (الفجر ٨٩):

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾.

في هذا النص يؤنب الله المشركين الذين جفّت في قلوبهم بسبب الكفر منابع الرحمة، التي تدفع أصحابها إلى العطف على الضعفاء، وفي مقدمتهم اليتامى، فهم بقسوة قلوبهم وجفافها لا يكرمون اليتيم، ولا يتحاضون على طعام المسكين، وهم بسبب كفرهم باليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء ونعيم مقيم وعذاب أليم، دنياويون مفرطون في أنانيّاتهم، نامٍ في نفوسهم الطمع الشديد وحبّ المال، فهم يأكلون التراث أكلاً لمّاً، ويحبون المال حبّاً جمّاً.

أي: يأكلون الميراث مقبلين عليه بشره شديد، إذ يأتيهم بغير جهد، فيلمّون كلّ صغيرة وكبيرة منه، ولا يدعون شيئاً للأيتام والمساكين، ولا يقسمون شيئاً من التركة للضعفاء والمجهودين وذوي الحاجات. بينما توصي التعاليم الإسلامية مستحقي التركة بأن يعطوا شيئاً لمن يحضر قسمتها من أولي القربى واليتامى والمساكين الذين ليس لهم في الأصل نصيب مفروض وأن يقولوا لهم قولاً معروفاً، وهذا العطاء إكرام تجبر به خواطرهم، قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾.

ففي هذه الآية يوصي الله تبارك وتعالى بإعطاء الذين يحضرون قسمة التركة من أولي القربى واليتامى والمساكين، شيئاً على سبيل الترضية وجبر الخاطر، إذا لم يكونوا من ذوي الحقوق فيها. وفي تحقيق هذه الوصية ترابط اجتماعي عظيم، وتوثيق لوشائج المودّة والمحبّة بين أعضاء الأسرة، وتعميق لخلق الرحمة بالضعفاء في نفوس المسلمين.

٤ ـ ويقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾.

في هذا النصّ تحريض على حسن رعاية اليتامى وضمـان حقوقهم، واستثارة لحرص الإنسان على أن تعامل ذرّيته الصغار من بعده بالإحسان والإكرام، مكافأة له على معاملته لليتامى بمثل ذلك. فإذا لم يفعل ذلك فلربما قست قلوب الناس تجاه من قد يصيبهم اليتم من ذرّيته. أليس هو عرضة في كلّ لحظة لأن تقبض عليه يد المنون، فيموت ويخلّف من ورائه صغاراً له يمسُون بفقده يتامى؟ فبماذا يُحبّ أن يعامل الناس أولاده الذين قد يمسون يتامى بموته؟ إنه يحبّ أن يعاملوهم بمثل الإكرام الذي كانوا يتمتعون به في حياته. إذن فليعامل هو يتامى الآخرين بمثل ما يحبّ أن تعامل به ذريته الضعاف من بعده؛ وإلّا فليرتقب المعاقبة بالمثل، تعذيباً لروحه بالحرقة على ذرّيته الضعاف الذين تركهم يتامى، وفي هذه الاستثارة ضرب على الوتر العاطفي الحسّاس للتوجه إلى ما يجب.

فليتق الذين يتولون أمور اليتامى ربهم، وهذه التقوى تفرض عليهم أن يحافظوا على أموال اليتامى، ويكرموهم، ولا يهينوهم، ويحسنوا تربيتهم وتأديبهم وتعليمهم، ويعاملوهم بمثل ما يعاملون به أولادهم. وهذه التقوى تفرض عليهم أن يقولوا قولاً سديداً في كلّ أمرٍ يتعلق بالأيتام الذين يتولّون شؤونهم، ومن القول السديد إرشاد الأيتام إلى فضائل الخصال، ومحاسن الآداب، وكريم الأفعال، مع حكمة في الأسلوب.

وفي هذا النص تحذير شديد من العدوان على أموال اليتامى، وأكل شيء منها ظلماً ﴿إنّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾.

ففي الدنيا لهم عذاب وآلام تشبه ما تفعل النار في البطون لو دخل شيء منها فيها، وفي الآخرة لهم عذاب في السعير في نار جهنم، وبئس هذا المصير.

وكان العرب في الجاهلية قبل الإسلام من قسوة قلوبهم يهينون اليتامى، ويدفعونهم بالأبواب، ويأكلون أموالهم ظلماً وعُدواناً، وكان الرجل منهم إذا كان وليّاً لأمر يتيمة أنثى فإن كانت جميلة ولها مال تزوجها وأضافها إلى نسائه

ـ إذ كانت التقاليد العربية تسمح بهذا الزواج ـ وهضم حقوقها وأكل أموالها، وإن كانت دميمة منعها من الزواج وأكل أموالها.

ولمّا جاء الإسلام وبسط الله سلطانه، أصلح كلّ هذه الأوضاع الشاذة، ورفع شأن اليتامى إلى مقام التكريم من جهة، والمحافظة على حقوقهم المالية والشخصية من جهة أخرى، وجعل المجتمع الإسلامي رقيباً عامّاً على الأولياء، وحارساً عاماً لحقوق اليتامى، ويشير القرآن إلى بعض أحوال الجاهلية التي كان أهل الجاهلية يمارسونها قبل الإسلام فيقول الله تعالى في سورة (الماعون ١٠٧):

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾.

فقد كانوا يدعون اليتيم، أي: يدفعونه دفعاً عنيفاً غليظاً دونما شفقة ولا رحمة.

وقد بين القرآن السبب في نضوب رشح الرحمة في قلوبهم، وهو أنهم يكذّبون بيوم الدين، وتكذيبهم هذا يجعلهم لا يتصوّرون غير الحياة الدنيا، وهذا النظر القاصر من شأنه أن يجعل الإنسان حريصاً على ملذات الحياة الدنيا، متكالباً عليها، أنانياً في كل تصرفاته، لا يشعر بالخوف من انتقام الله العادل، لا سيما الضعفاء الذين لا يخشى بأسهم أو انتقامهم.

إنه لا يخفف من نزعة الظلم والبغي عند الإنسان إلاّ إيمانه باليوم الآخر، وما أعدّ الله فيه من جزاء للمجرمين، وهذه حقيقة ثابتة يرشد إليها العقل السديد، وتشهد لها التجارب الإنسانية.

ولذلك نزل القرآن بالوعيد الشديد للذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ﴿إنّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾.

وقد ورد أنه لمّا نزلت هذه الآية خاف المسلمون من مغبّة مخالطة أموال اليتامى، حذر أن يدخل عليهم منها شيء، فيقعوا في الظلم، فصاروا يتحرّجون منها تحرجاً كبيراً، ويعزلونها عن أموالهم، الأمر الذي جعل أموال اليتامى مجمّدة

عن التنمية، وعرضة للفساد، وتساءل متسائلون منهم عن هذا الأمر، **فأنزل الله** قوله في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ ﴾.

فتضمنت هذه الآية بيان نقطة مهمة، وهي أن المطلوب بالنسبة إلى أموال اليتامى إنما هو المحافظة عليها، فإذا تهيأت وسيلة أخرى هي أنفع لهم وأصلح، فإصلاح لهم خير، وإن كان هذا الإصلاح يستدعي خلط أموالهم بأموالكم فهو خير أيضاً، وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: **﴿وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح﴾**.

فتنمية أموال اليتامى بالأعمال الاستثمارية من الخير، بشرط أن تكون وجوه الاستثمار ممّا لا مغامرة فيه، أي: **مما اعتاد معظم الناس عدم التخوف على** أموالهم إذا وضعوها فيها للاستثمار.

وقوله تعالى: ﴿ولو شاء الله لأعنتكم﴾ أي: ولو شاء الله لحمّلكم مشقة تكليفٍ أكثر ممّا كلّفكم بالنسبة إلى اليتامى وأموالهم، كأن يجعل مثلاً نفقتهم عليكم لا في أموالهم، وكأن يكلفكم تثمير أموالهم على أنّ لهم الربح إذا حصل، دون أن يتحملوا الخسارة إذا حصلت أو دون أن يكون لكم أجر على ذلك، ولكن الله تعالى لم يشأ أن يحمّلنا هذه المشقة في تكاليفه الشرعية، وإنما نهانا فقط عن ظلمهم وأكل أموالهم بالباطل.

والأحكام التي دلّت عليها هذه الآية قد جاء بيانها وتأكيدها في قوله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ... ﴿١٥٢﴾ ﴾.

ونظيره في سورة الإسراء.

ففي هذا دلالة واضحة على أنه كلّما كان القرب من مال اليتيم أحسن له من عدم القرب فهو خير، وإلّا فعدم القرب منه هو الواجب.

وحين يبلغ اليتامى مرحلة الرشد يجب تسليمهم أموالهم كاملة غير منقوصة ولا مبدلة، لأنهم قد أصبحوا أولياء أنفسهم، وارتفعت عنهم وصاية غيرهم عليهم، وقد أنزل الله في هذا قوله في سورة (النساء ٤):

﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ﴿٢﴾﴾.

حوباً كبيراً: أي ذنباً كبيراً.

وأنزل الله فيه أيضاً قوله في سورة (النساء ٤):

﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٦﴾﴾.

بداراً أن يكبروا: أي مبادرين كبرهم، إذ تسابقون في أكل أموالهم قبل أن يكبروا ويطالبوا بها.

والإذن للفقراء بأن يأكلوا من أموال اليتامى بالمعروف، إنما هو أجرة إدارتهم لأموالهم وتقدّر هذه الأجرة بحسب عرف الناس في كل زمان.

أما الأغنياء فالمطلوب منهم أن يديروا هذه الأموال مع الاستعفاف عن أخذ الأجرة.

وعالج الإسلام موضوع تزوّج ولي اليتيمة منها، الأمر الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه مستغلّين سلطة ولايتهم على اليتامى، فقرّر أنه ليس للولي أن يستغلّ ولايته، فيتزوج من اليتيمة التي تحت يده، ما لم يكن ذلك بكامل رضاها، وبشرط توفيتها كامل حقوقها، وبشرط معاملتها بالقسط.

ومن تخوّف من نفسه أن تجانب سبيل العدل التام مع اليتيمة التي تحت ولايته إذا هو تزوّج منها فلا يتزوج منها، إنّ النساء غيرها كثيرات، فلينكح منهنّ ما شاء مثنى وثلاث ورباع، وهذا ما دلّ عليه قول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ ﴾.

ألّا تعولوا: أي أن لا تتحمّلوا مسؤولية النفقة على عيال كثيرين. عن الكسائي قال: من العرب من يقول: عالَ الرجل يعول إذا كثر عياله. وعن اللّحياني مثله[1].

٥ ــ ويقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ ۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

فهذه الآية تأمر بعبادة الله وحده، وتتبع ذلك فتأمر بالإحسان إلى الوالدين، ثم تأمر بالإحسان لذي القربى، ثمّ تأمر بالإحسان لليتامى بوجه عامّ، وهكذا تستمرّ حتى تشمل طائفة كبيرة من مستحقي الرحمة والإحسان.

٦ ــ ومن رعاية الله للأيتام أن جعل لهم نصيباً في خُمس الغنائم وفي الفيء، والغنائم هي ما يستولي عليه المسلمون من أموال العدو في الحرب، وأمّا الفيء فهو ما يستولي عليه المسلمون من أموال العدوّ بغير حرب.

---

(١) تفسير غريب القرآن للإمام السجستاني المتوفى سنة ٣٣٠هـ.

أمّا الغنائم فحصة الأيتام منها من أصل الخمس الذي لله وللرسول، قال الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾.

وأمّا الفيء فحصة الأيتام تؤخذ منه كلّه، لا من خمسه فقط، قال الله تعالى في سورة (الحشر ٥٩):

﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾.

والسبب في أنّ الفيء كلّه يوجّه لأبواب الخير أنه منحة ربّانية للمسلمين عامة، وليس للمقاتلين فيه كسب مباشرٌ فعّال، بخلاف الغنائم، وهذا ما دلّ عليه قول الله تعالى في سورة (الحشر ٥٩):

﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ ﴾.

فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب: أي فما حثثتم عليه خيولكم ولا ركابكم مقاتلين بذلك عدوّكم، حتى تستحقوا منه، وإنما هو منحة من الله أفاءها الله على رسوله. وأصل الإيجاف في اللغة: الإسراع في السير.

٧ ــ سأل المسلمون رسول الله: ماذا ينفقون؟ فنزل القرآن مبيّناً وجوه الخير التي ينبغي لهم أن ينفقوا فيها، ومنها اليتامى، قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾.

وهكذا توجّه النصوص الإسلامية لرعاية الأيتام وسائر الضعفاء بعناية بالغة، ولو أنّ الوصايا الإسلامية هذه اتبعت بصدق وإخلاصٍ وتنفيذ صحيح، لكان الأيتام وسائر الضعفاء أسعد حالاً وأرغد عيشاً من كثير من الذين يتمتعون بحَنان وعطف آبائهم وأمَّهاتهم.

٨ ــ ويبين الله تبارك وتعالى وجوه البرّ، فيذكر منها إعطاء اليتامى المال على حبّه، يقول الله تبارك وتعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ ... ﴿١٧٧﴾ ﴾.

وهكذا توجّه هذه الآية إلى العناية بالفقراء والضعفاء وذوي الحاجات ومنهم اليتامى، رحمةً بهم.

٩ ــ وحثّ الرسول الكريم صلوات الله عليه على إكرام اليتيم وإطعامه، في أقوال كثيرة، منها:

ما رواه البخاري عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم له ولغيره في الجنة هكذا» وأشار الرسول بأصبعيه السبّابة والوسطى، وفرّج بينهما شيئاً.

له ولغيره: أي سواء أكان قريباً له أو بعيداً.

وما رواه ابن ماجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يُحسَنُ إليه، وشرّ بيت في المسلمين بيتٌ فيه يتيم يساءُ إليه».

وما رواه ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «من آوى يتيماً إلى طعامه وشرابه أوجب الله له الجنّة البتّة، إلاّ أن يعمل ذنباً لا يُغفر، ومن عال ثلاث بنات أو مثلهنّ من الأخوات فأدّبهنّ ورحمهنّ حتى يغنيهنّ الله أوجب الله له الجنّة» فقال رجل: يا رسول الله واثنتين؟ قال: «واثنتين» حتى لو قالوا: أو واحدة؟ لقال: واحدة، «ومن أذهب الله بكريمتيه وجبت له الجنّة».

قيل: يا رسول الله وما كريمتاه؟ قال: «عيناه»، رواه في شرح السنة[1].

١٠ ــ وروى النسائي بإسناد جيّد، عن أبي شُرَيح خويلد بن عمرو الخزاعي قال: قال رسول الله ﷺ: «اللّهم إنّي أحرّج حقّ الضعيفين: اليتيم، والمرأة».

ومعنى أحرّج: ألحق الحرج ــ وهو الإثم ــ بمن ضيّع حقهما، وأحذّر من ذلك تحذيراً بليغاً، وأزجر عنه زجراً شديداً.

وهكذا بشر الرسول ﷺ كافل اليتيم بأنه يكون مع الرسول في الجنة، وفي إشارة الرسول ﷺ بأصبعيه إيماء إلى أن كافل اليتيم يكون مجاوراً له ﷺ في الجنة، كمجاورة أصبع السبّابة للأصبع الوسطى، أمّا التفريج بينهما فقد يكون إيماءً إلى المجاورة بوجه عامّ مع ملاحظة الفروق في المنزلة التي تدلّ عليها نصوص أخرى.

ولكفالة اليتيم هذا الثواب العظيم سواء أكان اليتيم قريباً للكافل أو غير ذي قرابة له، ولكنّ هذا التكريم إنما يكون لمن استحق دخول الجنة بالإيمان، أخذاً بدلالة النصُوص الأخرى.

وكان لكفالة اليتيم هذه المنزلة في الإسلام لأنّها تنبيء عن مشاعر الرحمة في قلب من يكفله، والرحمة جوهرة نفيسة من الجواهر التي تشتمل عليها قلوب المؤمنين، وتعظم هذه الجوهرة في قلوب العظماء حقّاً، ومهما عظمت هذه الجوهرة في قلب امرىء كان أعظم مكانة وأرفع قدراً. ولأنها واجب اجتماعي تفرضه

(١) مشكاة المصابيح الحديث رقم (٤٩٧٥).

أحكام الشريعة، ومبادىء الأخلاق، وجميع النظم الوضعية التي تنظر بعقل إلى مصالح الجماعة الإنسانية. فهذا اليتيم مخلوق ناشىء من الناس ضعيف، وهو بحاجة إلى من يكفله ويرعاه ويقوم بشؤونه، فإذا هو فقد الحاني عليه الرؤوف به من ذي قرابته وجب أن يجد في المجتمع بديلاً عنه، وهذا البديل لا يكفل بصدق وأمانة ما لم يكن قلبه مملوءاً بخلق الرحمة، أو مشحوناً بإيمانٍ يربطه بالله ربطاً صحيحاً، ويدفعه إلى ابتغاء مرضاة الله، فمن جفت في قلبه منابع الرحمة الإنسانية كان الإيمان بالله واليوم الآخر في قلبه كافياً لدفعه إلى كلّ عمل كريم تدفع إليه الرحمة، وكان أيضاً محرّضاً وممدّاً لمنابع الرحمة فيه حتى تعود إلى عطائها بعد جفافها.

وكفالة اليتامى من أخلاق المجتمع المسلم، إذ لا يجوز بحالٍ من الأحوال في مجتمع مسلم أن يُترك يتيم مهملاً، دون أن يجد من يكفله ويرعى شأنه، فإن لم يجد من يكفله فالمجتمع الإسلامي الذي حوله كلّهم آثمون إذا علموا به وأهملوه.

أمّا من يعتدي على اليتيم فيظلمه أو يأكل مـاله بغير حقّ، ويستغل ضعفه وقلة حيلته؛ فهو من أشدّ الناس عقوبة، لأنه من أكثرهم جرماً وأقلّهم رحمة وعاطفة إنسانية، يضاف إلى ذلك استهانته بالإنذارات الشديدة التي أنذر الله بها الذين يظلمون اليتامى ويأكلون أموالهم بغير حقّ.

وكم من أناس ظلموا اليتامى فأكلوا أموالهم بغير حقّ فكانت عاقبتهم وعاقبة أسرتهم في الدنيا وخيمة جدّاً، وجازاهم الله على ظلمهم جزاء نكراً.

وكان ذلك تأكيداً لما ورد من أنّ ظلم اليتامى ممّا يعجّل الله العقوبة عليه في الدنيا مع ما يدخره لهم من عقاب يوم القيامة، ليتعظ الناس فلا يتعرضوا لظلم اليتامى. والسرّ في ذلك أنّ الله تبارك وتعالى حينما يتوفّى آباءهم أو أمهاتهم أو كليهما يجعلهم في كفالته وحمايته، وتظهر هذه الكفالة والحماية في تسخير من يكفلهم من أهل الرحمة، وفي تعجيل عقاب من يظلمهم. وحينما تتكرّر سنّة العقوبة المعجلة لمن يظلم اليتيم تكون عبرة وعظة لكل من تحدثه نفسه بأن يظلم

يتيماً، إذ يضع في حسابه أنّ العقاب لاحق به لا محالة إذا هو دخل دائرة الخطر فظلم من هو في كفالة الله.

إكرام الجار والإحسان إليه وحفظ حرمته:

من مظاهر التراحم بين المسلمين إكرام الجار، والإحسان إليه، وحفظ حرمته، وقد أوصى الإسلام بهذا وصايا ملحّة.

إنّ التراحم ظاهرة من ظواهر المجتمع المسلم بشكل عام، وهو أظهر وآكد فيما بين الأقربين والجيران، والأصحاب والخلان، وكذلك بالنسبة إلى كلّ مستحقي الرحمة من الضعفاء وذوي الحاجات.

للجار على الجار في المفاهيم الإسلامية والآداب الشرعية حقوق تشبه حقوق الأرحام على الأرحام، فللجار حقّ المواصلة بالزيارة والتهادي، والعيادة والمواساة والمعونة، وله حقّ كفّ الأذى، والمناصرة بالحقّ، والنصح له، وتهنئته، ومشاركته في مسرّاته، وتعزيته ومواساته في مصائبه، وله في الأخلاق الإسلامية حقّ الشُّفعة، حتى رآه بعض الفقهاء حقاً لازماً يُحكَم به قضاءً، وحق الشفعة هو حق الشريك في ملك عقار، إذا أراد شريكه أن يبيع حصته، فهو أحق بشرائها ممّن عداه، بالقيمة التي يتمّ الاتفاق مع الغير على بيعها له. هذا ما يسمّى بحق الشفعة، ويحكم به قضاءً إذا تمّ البيع لشخص آخر غير الشريك في ملك العقار الواحد. وحق الشفعة هذا حق قد قرّره بعض الفقهاء المجتهدين للجار الملاصق على جاره.

أما كونه من فضائل الأخلاق الإسلامية فهو أمرٌ متفق عليه، لأنه يدخل في عموم الإحسان إلى الجار.

وقد أمر الإسلام بالإحسان إلى الجار، وأوصى به خيراً، وجعل له على جاره حقوقاً، والنصوص في هذا متعدّدة، منها ما يلي:

١ ــ يقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ ۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي

﴿ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾.

فأوصى الله في هذه الآية بالإحسان إلى الجار ذي القربى، وإلى الجار الجنب.

وللعلماء في تفسير المراد من الجار ذي القربى والجار الجنب رأيان:

الأول: أنّ الجار ذا القربى هو الجار القريب، أي: الذي تكون داره قريبة من دار جاره، وعلى هذا التفسير فالجار الجنب هو الذي تكون داره مجانبة ليست بملاصقة، لكنّ عرف الناس يقضي بأنهما متجاوران، كالدور التي تكون في حارة واحدة، أو زقاق واحد، أو في قرية صغيرة.

الثاني: أن الجار ذا القربى هو الجار الذي بينه وبين جاره قرابة رحم، وعلى هذا التفسير فالجار الجنب هو الذي ليس بينه وبين جاره قرابة رحم.

وقد أوصى الله بالجار عموماً، أمّا الجار القريب قرابة رحم فله حقّان: حقّ القرابة، وحقّ الجوار.

وأمّا غيره فله حقّ الجوار فقط.

وأوصى الله بالجار الأدنى، وبالجار غير الأدنى.

٢ ــ وروى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمر وعن عائشة، أنّ النبي ﷺ قال: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه».

فهذا الحديث يشعر بقوّة حقّ الجار على جاره، حتى قارب أن يكون بمنزلة الأقربين، الذين فرض الله لهم حقوقاً في الميراث.

٣ ــ وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه».

أي: لا يأمن جاره شروره وغوائله.

ففي هذا الحديث بيان مشدّد يتضمّن التحذير البالغ من إيذاء الجار، حتى كاد يكون إيذاء الجار مخرجاً من الإيمان، أو علامة على فقد الإيمان، لأنّ من أوصاف المؤمن أن يكون مأمون الجانب، فكيف بالذي لا يأمن جاره شروره وأذاه.

٤ ــ وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت».

فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر لم يؤذ جاره، وانتهى عمّا نهى الله ورسوله عنه.

٥ ــ وروى مسلم عن أبي شُرَيحٍ الخزاعي، أنّ النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره».

فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر أحسن إلى جاره، امتثالاً لأمر الله والرسول.

٦ ــ وروى الترمذي بإسناد حسن، عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره».

ففي هذا الحديث يبيّن الرسول ﷺ خير الجيران، ويذكر أنه خيرهم لجاره.

٧ ــ ومن تعميق معاني الأخوة بين الجيران التهادي بينهم في المآكل والمشارب وغيرها.

روى مسلم عن أبي ذرّ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك».

وروى البخاري ومسلم عن أبـي هريرة، أنّ رسول الله ﷺ قال: «يا نساء المسلمات لا تحقرَنّ جارة لجارتها ولو فرسن شاة».

أي: ولو كان ما أهدته لها ظلف شاة. وهو عظـم قليل اللحم جدّاً.

٨ ـ ومن إكرام الجار والإحسان إليه، أن يأذن الجار لجاره بأن يستخدم جداره، فيحمل عليه خشبة من أخشاب سقفه، أو نحو ذلك، روى البخاري ومسلم عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يمنع جارٌ جاره أن يغرز خشبة في جداره».

ثم يقول أبو هريرة: ما لي أراكم عنها معرضين، والله لأرمينَّ بها بين أكتافكم.

نعم: لقد أمسى الجيران يشحّون بهذا، ولا يعملون بهذه الوصية.

٩ ـ وروى البخاري عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، إنّ لي جارين، فإلى أيّها أهدي؟ قال: «إلى أقربهما منك باباً».

١٠ ـ وروى الحاكم وصحّحه، أنّ النبـي ﷺ قال: «من كان له جار في حائط أو شريك فلا يبعْه حتى يعرضه عليه».

ففي جملة هذه الأحاديث يتبيّن لنا إلحاح الإسلام على الوصية بالجار، والتحذير من إيذائه، ومن كثرة ما أوصى جبريل عليه السلام الرسول ﷺ بالجار، ظنّ الرسول أنه سينزل تشريع بتوريثه.

إنّ الذي يؤذي جيرانه يتنافى سلوكه مع مقتضى إيمانه إن كان مؤمناً، وهو محروم من أوّليات فضائل الأخلاق، فالإيذاء ليس من أخلاق المؤمنين في كلّ الأحوال ولكلّ الناس، فكيف بإيذاء الجار لجاره، وللجار حقوق على جاره؟

إنّ الجار في وصايا الإسلام معين وناصر وحارس وأمين، يطعم الجار من طعامه إذا هو جاع، ويهدي له من طبخه ولو كان غير ذي حاجة، ويشاركه في أفراحه ومسرّاته، ويواسيه ويعزّيه في مصائبه وأحزانه، ويرشده وينصح له،

ويتعاون معه على البر والتقوى، ويعوده إذا مرض، ويزوره زيارة الأخوة والمودّة، ويحفظه في أهله وذريته، ولا يخونه في مال ولا أهل ولا ولد.

ومن حقّ الجار على الجار أن لا يحتقر هديته مهما قلت قيمتها، إذ ليس المقصود من التهادي التفاخر والتظاهر، بل المقصود الإشعار بالتذكّر، وتوثيق عرى المودّات. إنّ الهديّة مهما كانت قليلة القيمة ففيها معنى التحيّة والتذكّر، وهذان أمران ثمينان في قيمتهما المعنوية.

وفي مراعاة وصايا الإسلام لحقوق الجار تنعقد المودّات، وتتوثّق الروابط الاجتماعية بين المسلمين، وتتأكد ظاهرة من ظواهر الجسدية الواحدة بين المؤمنين.

ولذلك أمر الله بالإحسان للجار ذي القربى وللجار الجُنُب، كما أمر بالإحسان للوالدين ولذي القربى واليتامى والمساكين والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت الأيمان من أرقاء.

ومع هذه الوصايا الإسلامية بالجار نلاحظ كثيراً من الناس يؤذون جيرانهم، ولا يؤدّون لهم حقوقهم. فكم من مزعجات صوتية تكاد تبعث الموتى من قبورهم يطلقها بعض الجيران غير مراعين حقوق جيرانهم عليهم، وربما يكون ذلك في أوقات الراحة والنوم، كالقيلولة بعد الغداء، ومن الليل حتى يغدو الناس مصبحين. وكم من قمامات يرميها بعض الجيران على أبواب جيرانهم أو منازلهم، وكم يستعير بعض الناس المتاع من جيرانهم ثم لا يردّونه. وكم ينظر بعض الجيران إلى محارم جيرانهم بفضول قبيح، ونظرات مريبة. وكم من جيران لا أمانة لهم على أموال جيرانهم وأعراضهم. إلى غير ذلك من قبائح ومنكرات.

وكم من رجل فاضل هجر داره ليفارق جاره، ويكفّ عن نفسه وأهله بوائقه.

إنّ جار السوء من المصائب الكبرى في الحياة الدنيا، وقد يصل السوء

ببعض الناس أن يتوسط لديه العقلاء لكفّ أذاه عن جيرانه، فلا يستجيب لهم، ويجدون أنفسهم لدى معالجته ونصحه كمن يحلُب قرنَ الشاة، أو يحرث في صفاة، أو يخاطب الأموات.

حسن معاشرة النساء:

ومن ظواهر خلق الرحمة حسن معاشرة النساء، لأنّهنّ بحسب ما فطرهنّ الله عليه ضعيفات، ولذلك أوصى الإسلام بالنساء خيراً، وأمر بإكرامهنّ والإحسان إليهن، والصبر على عوجهنّ، ورحمتهن، والعطف عليهن، وعدم ظلمهنّ.

والنصوص التي توصي بالنساء خيراً متعدّدة، منها ما يلي:

١ ــ روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة، أنّ رسول الله ﷺ قال: «استوصوا بالنساء خيراً، فإنّ المرأة خلقت من ضلَع، وإنّ أعوج ما في الضلع أعلاه، فإذا ذهبتَ تقيمه كسرته، وإنْ تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً».

وفي رواية عند مسلم: «وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها».

فأبان الرسول ﷺ أنها خلقت من ضِلَع، أي: عوجاء: لأنّ الضلع أعوج، وإنّ أعوج ما في الضِلَع أعلاه، وأعلى ما في المرأة رأسها، وموطن تفكيرها، وأوهامها، وتصوّراتها.

وإذا كان هذا من طبعها الذي فطرت عليه للغاية التي خلقت من أجلها، كان من واجب الرجل أن يصبر عليها، ويتحمل منها آثار عوجها الفطري في السلوك.

٢ ــ وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَفْرَك مؤمن مؤمنة، إن كرِه منها خلُقاً رضي منها آخر».

لا يَفْرَكْ مؤمن مؤمنة: أي لا يُبغض مؤمن مؤمنة. يقال لغة: فَرِكَت المرأة زوجها تَفْركه: إذا أبغضته وكرهته. وفَرِكَ الرجلُ زوجته يَفْرَكها: إذا أبغضها وكرهها.

وقد نبّه الرسول ﷺ في هذا الحديث على جانب من جوانب الواقع الإنساني، وهو أنّ كلّ إنسان فيه جوانب ترضي وفيه جوانب لا ترضي، والعاقل هو الذي يوجّه نظره وإعجابه إلى ما يرضيه ممّن يخالطهم، ويُغضي عمّا لا يرضيه منهم؛ فإن كان مّما يمكن معالجته وإصلاحه عمل على تهذيبه بالتربية الحسنة، وبذلك يعيش راضياً سعيداً، وبذلك يستطيع أن يكف نفسه وقلبه عن الكراهية والبغض، ويتعايش مع الآخرين بالرضا والتسامح. وهكذا يستطيع الرجل أن لا يكره زوجته، وإن كان فيها من الأخلاق أو الصفات ما لا يعجبه.

٣ ــ وأوصى الرسول ﷺ بالنساء في خطبته في حجة الوداع، فجاء فيها: «ألا واستوصوا بالنساء خيراً، فإنما هنّ عوانٍ عندكم».

أي هن تحت أيديكم بمثابة الأسيرات، وكلمة: «عَوانٍ» على وزن «فواعل» جمع عانية، والعانية هي الأسيرة، والعاني هو الأسير.

٤ ــ ومن المقاييس التي نبّه الرسول ﷺ عليها لمعرفة خيار الناس، معاملة الرجل لنسائه، فمن كانت معاملته للنساء حسنة كان من خيار القوم، ومن لم تكن معاملته كذلك لم يكن من خيارهم، بل إمّا أن يكون من حشو الناس، وإما أن يكون من شرارهم.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنُهم خلقاً، وخياركم خيـاركم لنسائهم» رواه الترمذي، وقـال: حديث حسن صحيح.

والسبب في ذلك أنّ الإنسان مع أهله ينطلق على سجيّته، ومع انطلاقه تظهر معادنه، فإن كان سيء الخلق ظهر سوء خلقه، وإن كان حسن الخلق لم يختلف حاله مع أهله عن حاله مع الناس، أمّا معاملته للناس خارج موطن انطلاقه فإنها تتّسم في غالب أحوالها بالتصنّع والمجاملة، وإخفاء سوء خلقه، محافظة على سمعته بين الناس، وحرصاً على مكانته.

وبهذا نلاحظ أنّ هذا المقياس النبوي مقياس دقيق جداً.

٥ ــ وهذه البيانات النبوية جاءت شرحاً وتفصيلاً لقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

ومعاشرتهن بالمعروف تكون بإعطائهن حقوقهنّ الزوجية، وبالإحسان إليهن، والتلطّف معهنّ، ومداعبتهنّ، والصبر على عوجهنّ، والإنفاق عليهنّ، وفق النفقة المتعارف عليها، ويخضع ذلك لاختلاف الزمان والبيئة الاجتماعية.

وتكون أيضاً بعدم إيذائهنّ ومكارهتهنّ حتى يطلبن الطلاق بأنفسهنّ، مقابل تنازلهن عن حقوقهن، أو مقابل ترضية يدفعنها بغية حصولهنّ على الطلاق عن طريق المخالعة، فهذه المحرمات ليست من المعاشرة بالمعروف التي أمر الله بها في هذه الآية.

فالذين يحرجون زوجاتهم بالمكارهة وسوء المعاشرة عصاةٌ لله، إذ يخالفون أمره بمعاشرتهن بالمعروف، وهم يسيئون معاشرتهن ليتهرّبوا من مسؤولياتهم تجاه حقوقهن، أو ليسترجعوا ما كانوا قدّموا لهن من مهر.

وفي قول الله تعالى في الآية: ﴿فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾: دلالات عظيمة، وإشارات نفيسة إلى أمور تشتمل عليها المقادير الربّانية، إذ تحتوي عليها حقائق الأشياء وبواطنها، وذلك لأنّ كراهية النفس لبعض الأشياء قد لا تعتمد على ما في الأشياء من شرٍّ أو ضرر، بل تعتمد في أكثر أحوالها على أمور ذوقية أخرى، تجد فيها النفس ما تشتهي وتهوى، من حلاوة أو طلاوة، أو خفة، أو جمال، أو رشاقة، أو رقة، أو ذكاء، أو عذوبة منطق، أو نحو ذلك ممّا تميل إليه الأنفس، أو تستمتع به الحواسّ، وكثيراً ما تكون هذه الأمور الذوقية البحتة سبباً لمتاعب كثيرة، أو سبباً لشرّ الزوج وشقائه، وكثيراً ما تكون الأشياء المكروهة مشتملة في بواطنها أو في نتائجها على خير كثير، وكراهيتها إنما حصلت بسبب خلوّها ممّا تميل إليه، أو تستمتع به الحواسّ من مشتهيات.

وفي الأمثلة المشاهدة نلاحظ أن الدواء المرّ تكرهه الأنفس ولا تميل إليه الطباع، ومع ذلك ففيه شفاء ونفع وصحة.

فكم من امرأة لم تأت على مزاج الرجل وذوقه، وليس فيها سوء خلق أو ضعف دين أو قلة حياء أو قلة أمانة، فصبر عليها زوجها وعاشرها بالمعروف، فجعل الله منها خيراً كثيراً، فكانت عفيفة شريفة صيّنة، وكانت معينة له على السراء والضراء، وحافظة له ولمالِهِ ولولده، وأنجبت له ذرية صالحة يسعد بها.

ولو ظفر الرجل بامرأة تجمع بين الحسنيين لكان ذلك من خير متاع الدنيا له.

روى مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص، أن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة».

وهي ذات الدين والخلق الفاضل، مع أنها تسرّ زوجها وتمتعه.

وحين تكون المرأة صالحة ذات دين، فمن الخير للرجل أن لا يَفْرَكَها، ولو لم تكن على ما يهوى، صحيح أنه قد لا يملك أن يحبّها، ولكن يملك أن يكيف نفسه معها، ويملك أن يغضي عن الجوانب التي لا تميل إليها نفسه فيها، ويفكر في الجوانب التي قد يحبّها منها، ويجسمها ويعظمها في عينه، وعندئذٍ قد تغطّي الجوانب المرضية منها الجوانب التي لا تميل إليها نفسه، وبمرور الزمن يحصل الإلف، ومع الإلف تختفي الكراهية، وتبرز في الصورة المحاسن وحدها، ولا يبعدُ أن ينتقل القلب من الإلف إلى الحبّ، وهذا من الأمور المجرّبة في الحياة، وهو ما نبّه عليه الرسول ﷺ بقوله كما سبق:

«لا يفركْ[١] مؤمن مؤمنة، إنْ كره منها خلقاً رضي منها آخر» أو قال: «غيره».

ذلك لأن سبب الكراهية ربما يكون من أجل خلق رآه فيها لم يتلاءم معه،

---

(١) لا يفرك: لا يبغض، يقال: فَرِكت المرأة زوجها إذا أبغضته، فَرِكها زوجها إذا أبغضها.

فإذا نظر إلى سائر أخلاقها فلا بدّ أن يجد فيها شيئاً يرضاه منها ويستحسنه، فما من إنسان في الوجود إلّا وفيه جوانب ترضي بعض الناس، مهما كان نصيبه من المستكرهات كثيراً، والعاقل هو الذي إذا ألزم بشيء تلاءم معه على قدر المستطاع.

فإذا تعذّر عليه التلاؤم فمن الخير لهما حينئذٍ أن يفترقا، وحلاً لمثل هذه الأحوال المستعصية شرع في الإسلام الطلاق، وقال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ ﴾.

والعاقل الحصيف يستطيع أن يقنع نفسه بأنه لا تخلو امرأة من عوج، فعليه أن يصبر على عوجها، ما دام يرضيه منها جوانب حسنة، وما دامت ذات دين وخلق، ويقنع نفسه بأن تقويم عوجها من الأمور المتعذرة، فهو في جوهر فطرتها، وهو ما أبانه الرسول ﷺ كما سبق.

وكون المرأة خُلقت من ضِلَع أو أنها كالضلع كما جاء في بعض الروايات يراد منه أنها عوجاء في طبيعتها، لا تستقيم على طريقة قويمة، والسبب في ذلك ضعف إرادتها الفطرية أمام قوة عاطفتها وسلطان أهوائها، فهي لا تستطيع أن تتحرر من طبعها تحرّراً نهائياً مهما أرادت أن تستقيم.

وقد ورد عن ابن عباس: أنّ حواء خلقت من ضِلَع آدم الأقصر الأيسر وهو نائم.

فإن صح هذا الخبر فيحمل عليه ما جاء في الصحيح من أنّها خُلقت من ضلع، وإلّا فالمراد أن العوج في فطرتها، كما أن الضلع أعوج في أصل تكوينه. يضاف إلى ذلك أنه قد ثبت بيقين أنّ حواء خلقت من آدم، كما جاء في القرآن. ومعلوم أنّ الضلع أرقّ عظام الإنسان وألينه، والضلع وعاء ما في الصدر، ومن ورائه مركز العاطفة والحنان، والضلع في تكوينه ذو عوج، فكأنّ الرسول ﷺ يشير إلى أنّ المرأة خلقت من رقة، ومع الرقّة اعوجاج، وهذا الاعوجاج فيها

مناسب لما خلقت من أجله، إذ خلقت لتكون وعاء العاطفة والحنان والإيناس، ولا بدّ أن يظهر عوجها في أعلاها، أي في لسانها وفكرها، إذ لا بد أن تتغلب جوانب عاطفتها على المنطق الفكري السليم فيها.

لذلك يوجّه الرسول ﷺ الرجال شطر الحكمة التربوية التي ينبغي أن يعاملوا بها النساء، وذلك بأن يراعوا واقع طبيعتهنّ التي فُطرن عليها، وأن يداروهن ويلاينوهن ويسوسوهنّ سياسة عاقلة حكيمة رشيدة، حتى يستمتعوا بهنّ فيما خُلقن له، مع التغاضي عن عوجهنّ الفطري فيهنّ، وهو العوج الذي يتعذر تقويمه.

وليس معنى هذا ترك إصلاحهنّ وتقويمهنّ، ولكن معناه ضرورة اتخاذ الحكمة التربوية في سياستهن، مع ملاحظة أنّ الاستقامة الكاملة لا ترجى منهن، فعلى الرجال أن يستوصوا بهنّ، وذلك بالرفق في تأديبهن وتربيتهن، وبمراعاة طبيعتهن وبعدم القسوة عليهن والعنف في تقويمهن، لأن القسوة والعنف يؤديان إلى كسرهن، أي إلى طلاقهن وفراقهن، مع أن الرجل في حياته لا غنى له عن امرأة يسكن إليها، ويستمتع بها، ويستعين بها على معاشه، والعاقل هو الذي لا يكلّف الأشياء فوق طباعها.

ومكلّف الأشياء فوق طباعها　　　متطلّب في الماء جذوة نار

ومن رفيع الأدب النبوي ورقة الرسول التامة، ما نجده في صحيحي البخاري ومسلم من أنّ الرسول ﷺ ذكر في خطبة له النساء، فوعظ فيهن فقال:

«يَعْمدُ أحدكم فيجلد امرأته جلْد العبد، فلعله يضاجعها من آخر يومه».

أي: فهل يتناسب في الذوق وفي الأدب الاجتماعي هذا وهذا، مهما كانت المبررات التي يتذرع بها الرجل؟

وروى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم».

(قال الترمذي: حديث حسن صحيح)

٦ ــ وحين يكون للرجل أكثر من زوجة فالواجب عليه أن يعدل بينهنّ، في العطاء والمبيت والمعاملة، ولكن لا يكلّف ما لا يستطيع، وهو أن يعدل بينهنّ في الميل القلبي والحب ونحو ذلك، وهذا ما بينه الرسول ﷺ بفعله وقوله، روى الترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجه والدارمي عن عائشة: أنّ النبي ﷺ كان يقسم بين نسائه فيعدل، ويقول:

«اللهم هذا قَسْمي فيما أملك، فلا تلُمني فيما تملك ولا أملك».

(إسناده جيد ــ تعليق الألباني)

الشفاعة الحسنة:

ومن ظواهر خلق الرحمة الشفاعة الحسنة، فقد يقع الإنسان في شبهة تعرضه للعقوبة عند ذي سلطان، ويكون هو بريئاً، فمن الرحمة به أن يشفع له عند ذي السلطان ذو جاه لديه، أو ذو دالّة، فيكون له بذلك ثواب إنقاذه من العقوبة.

وقد يخطىء الإنسان خطيئة أو يذنب ذنباً ليس له حدٌّ شرعيٌّ واجب التنفيذ، ولكنّه قد يقتضي عقوبة قادر على البطش به أو الانتقام منه، ويكون الأمر مما حثّ الإسلام فيه على العفو، فمن الرحمة به إذا هو شعر بخطيئته ورجا العفو، أن يشفع له من تنفعه شفاعته عند ذلك الرجل. ومن أمثلة هذا شفاعة الحر بن قيس لعمّه عُيينة بن حصن، عند عمر بن الخطاب؛ لمّا أغضب عُيَيْنَة عمر بقوله له: (هِيْ يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم فينا بالعدل) وكان الحر بن قيس من المقربين من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، فقال له: يا أمير المؤمنين، إنّ الله قال لنبيه ﷺ: ﴿خذ العفو، وأمُر بالعُرف، وأعرض عن الجاهلين﴾ وإنّ هذا من الجاهلين، يعني عمّه عُيَيْنَة، فعفا عنه عمر رضي الله عنه.

وقد يكون لإنسان حاجة مباحة عند آخر، وقد تكون للشفاعة عنده أثر في جعله يستجيب لتلبية الحاجة؛ فمن الرحمة بصاحب الحاجة أن يشفع له من تنفعه شفاعته عند صاحبه، بشرط ألا يكون من يُطالب بتلبية حاجة صاحب

الحاجة أحوج للرحمة به من طالب حاجته منه. ومن أمثلة الشفاعة في تلبية الحاجة شفاعة الرسول ﷺ لمغيث عند بريرة رحمة بمغيث، وقصة هذه الشفاعة فيما يلي:

روى البخاري ومسلم عن عائشة أنّ رسول الله ﷺ قال لها في بريرة (مولاة عائشة): «خذيها فأعتقيها» وكان زوجها عبداً، فخيرها رسول الله ﷺ فاختارت نفسها، ولو كان حراً لم يخيرها.

أي: اختارت فسخ الزواج، لأنها غدت حرّة وهو عبد.

وروى البخاري عن ابن عباس قال: كان زوج بريرة عبداً أسود يقال له مُغيث، كأني أنظر إليه يطوف خلفها في سكك المدينة، يبكي ودموعه تسيل على لحيته، فقال النبي ﷺ للعباس: «يا عباس، ألا تعجب من حبّ مُغيث بريرة، ومن بغض بريرة مغيثاً؟» فقال النبي ﷺ لبريرة: «لو راجعته» فقالت: يا رسول الله تأمرني؟ قال: «إنّما أشفع» قالت: لا حاجة لي فيه.

ومن الشفاعة الحسنة الشفاعة للقاتل عند أولياء المقتول لرفع القصاص عنه، والقبول بالدية المثقلة، بشرط إظهار القاتل توبته وندمه، وعزمه على الاستقامة وقد ألمح القرآن بالترغيب الضمني لأولياء القتيل بالعفو، وذلك في آية القصاص، إذ يقول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾.

فهذه الآية ترغّب ترغيباً ضمنياً بالعفو عن القصاص بالنسبة إلى الجريمة الأولى في حياة الإنسان، أمّا تكرّر الجريمة منه فإنه يشعر بأنّ العفو عن الاقتصاص منه قد شجعه على تكرار الأمر، وقوى فيه دوافع الإجرام الخبيثة، فاعتداؤه للمرة الثانية يوجب له العذاب الأليم، والأولى في مثل هذه الحالة عدم العفو عنه، وعدم الشفاعة له.

والشفاعة قسمان:

١ ــ شفاعة حسنة.

٢ ــ وشفاعة سيئة.

وقد أوضح القرآن هذه القسمة، وبيّن أنّ من يشفع شفاعة حسنة يكون له نصيب منها، أي: ثواب وأجر عند الله من الشفاعة التي شفعها. وأنّ من يشفع شفاعة سيئة يكون له كفل منها، أي: نصيب من وزر شفاعته السيئة التي شفعها، قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾.

المقيت: الحفيظ الذي يعطي الشيء قدر الحاجة من الحفظ، وقيل: القدير المقتدر. يقال: أقات على الشيء اقتدر عليه.

أمّا الشفاعة الحسنة فهي كلّ شفاعة لرفع الظلم عن مظلوم، أو لإيصال الحق لصاحبه، أو العفو عمّا رغب الإسلام فيه بالعفو، أو للإحسان في كل ما رغب الإسلام فيه بالإحسان، أو للإصلاح بين متخاصمين، أو نحو ذلك.

وأمّا الشفاعة السيئة فهي كلّ شفاعة لدرء حدٍّ من حدود الله أو لارتكاب معصية من معاصي الله، أو لهضم حقّ من حقوق الناس دون أن يكون ذلك على سبيل العفو أو المسامحة من قبل صاحب الحق نفسه أو لمخالفة واجب العدل، أو نحو ذلك، ومن يشفع مثل هذه الشفاعة فهو والمشفوع له شريكان في الإثم وتحمّل الوزر، وكذلك من يقبل الشفاعة فيلبّي طلب الشفيع.

ولذلك غضب رسول الله ﷺ من شفاعة أسامة بن زيد حينما شفع في حدٍّ من حدود الله، وهو حدّ السرقة.

روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها، أنّ قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يكلّم فيها رسول الله ﷺ؛ فقالوا: من

يجترىء عليه إلاّ أسامة بن زيد حِبّ رسول الله ﷺ ؟! فكلّمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ : «أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟؟» ثم قام فاختطب، ثم قال: «إنّما أهلك الذين قبلكم، أنّهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ، وايم الله لو أنّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»!!.

فما أروع هذا العدل النبوي وأعظمه.

ولّما كانت الشفاعة الحسنة أمراً من أمور الرحمة الاجتماعية المساعدة على فعل الخير؛ حثّ الإسلام عليها، ورتب الأجر على القيام بها، وكان الرسول صلوات الله عليه يحث جلساءه على الشفاعة عنده لطالبي الحاجات منه، تدريباً عملياً لهم على هذه الظاهرة الاجتماعية التي تمثل مكرمة من مكارم الأخلاق.

روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري قال: كان النبي ﷺ إذا أتاه طالب حاجة أقبل على جلسائه فقال:

«اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيّه ما أحبّ».

العفو والصفح والمغفرة والمشاورة ولين الجانب:

قد يكون من ظواهر خلق الرحمة العفو والصفح عن المسيئين وستر سيئاتهم، ومقابلتهم بالمغفرة، وقد يكون من ظواهر خلق الرحمة أيضاً المشاركة بالمشاورة، وكذلك لين الجانب للناس.

وقد أوصى الله المؤمنين بهذه الأخلاق، كما أمر رسوله بها في قوله في سورة (آل‌عمران ٣):

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾.

إنّ هذا النص يخاطب الله به رسوله محمداً ﷺ ، إلاّ أن ظلاله تشمل

جميع المسلمين، نظراً إلى أنّ الفضائل التي يشتمل عليها فضائل تعلي شأن كل من يتحلّى بها.

ومع ذلك فقد وجه الله للمسلمين عامة وصايا تتضمن الفضائل الخلقية التي اشتمل عليها هذا النص الخاص بخطاب الرسول:

١ ــ ففي العفو عن الناس نلاحظ أن الله تبارك وتعالى يصف المتقين الذين أعدّ لهم الجنّة، بأنهم كاظمون للغيظ وعافون عن الناس، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة (آل‌عمران ٣):

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾.

فمن الصفات الخلقية للمتقين أنهم رحماء، إذا ظلموا من قبل إخوانهم كظموا غيظهم وعفوا عمن أساء إليهم، بدافع من خلق الرحمة.

٢ ــ ويقول الله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

وقد نزلت هذه الآية بمناسبة حلف أبي بكر رضي الله عنه أن لا ينفق على مِسْطح، إذ قال: «والله لا أنفق على مسطحٍ شيئاً أبداً، ولا أنفعه بنفع أبداً».

والسبب في ذلك أن مِسطحاً كان من الذين اشتركوا في إشاعة خبر الإفك على عائشة أم المؤمنين، فآلم ذلك أبا بكر وآل أبي بكر، وكان أبو بكر يُحسن إليه، فينفق عليه لقرابته وحاجته، فحلف اليمين التي حلفها.

فقوله تعالى: ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى

والمساكين والمهاجرين في سبيل الله﴾ أي: لا يحلف أولو الفضل منكم والسعة على أن لا يعطوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله، ممّا لديهم من فضل وسعة في الرزق.

وبما أنّ الحلف الذي كان من أبي بكر إنما كان منه عقوبة لمسطح، من أجل الإساءة الكبيرة التي أساءها هذا الرجل لآل أبي بكر، في المساهمة بإشاعة خبر الإفك على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فقد أرشد الله تبارك وتعالى إلى العفو بقوله: ﴿وليعفوا وليصفحوا﴾.

أي: فلا تكن الإساءة الشخصية مانعة من فعل الخير مع المسيء، لأنّ فعل الخير إنما يبتغى به وجه الله ومرضاته، لا مرضاة الذين يقدّم لهم الإحسان.

ثم ألمح الله في آخر الآية إلى أنّ مَنْ يعفو عمّن يسيء إليه فإنّ الله يعفو عنه، وذلك بقوله تعالى: ﴿ألا تحبّون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾ أي: إنّ الله يغفر لكم سيّئاتكم التي تفعلونها في جنبه، إذا أنتم عفوتم عن إخوانكم وصفحتم عنهم.

وحين يرى الله عبده يعفو عن المسيئين إليه فإنه يقول له: أنا أجود وأكرم، قد غفرت لك. وكم للعبد من سيّئات في جنب الله، وهو بحاجة إلى أن يغفرها الله له.

فمن كان حريصاً على أن يغفر الله له فليعف عمّن يسيء إليه.

٣ ــ ويقول الله تعالى في سورة (التغابن ٦٤):

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

ففي هذا النص يرشد الله المؤمنين إلى أن يعفوا ويصفحوا ويغفروا.

وقد جَاء الإرشاد إلى العفو والصفح والمغفرة عقب ذكر أنّ من الأزواج

والأولاد أعداءً؛ تنبيهاً على ضرورة المحافظة على وحدة الأسرة المؤمنة وترابطها. وهذه الظواهر الخلقية هي الضمان لاستمرار وحدة الأسرة وتماسكها وترابطها، يضاف إلى ذلك أنّ من عادة الإنسان أن يكون هو البادىء بالإحسان إلى زوجه وأولاده، وقد يسرف في عطائه وإحسانه، فإذا وجد منهم إساءة آلمته جداً، لأنه قد لا يقع في تصوّره أن يكافأ على إحسانه بالإساءة، فإذا وجد منهم الإساءة اشتد غضبه، وصعب عليه جداً أن يعفو ويصفح، لأنه يعتبر ذلك غاية في الجحود ونكران الجميل.

من أجل ذلك كان بحاجة إلى توجيه إرشاد خاصٍ إليه، بأن يعفو ويصفح ويغفر، حتى يستحق من الله الغفران والرحمة، وقد ألمح الله إلى ذلك بقوله في الآية: ﴿وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإنّ الله غفور رحيم﴾ أي: فإنّ الله يغفر لكم ويرحمكم، إذ من صفاته أنه غفور رحيم. وإنّ لنا سيئات كثيرة نرتكبها في جنب الله، ونحن بحاجة إلى أن يغفرها الله لنا ويرحمنا رحمات واسعات، مع أننا مغمورون بنعمته التي لا تنقطع، فلا يعظم في نفوسنا أن نتلقى الإساءة ممن نحسن إليهم، فنحن نفعل مثل ذلك في جنب الله دائماً.

٤ ــ ويقول الله تعالى في سورة (الجاثية ٤٥):

﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾.

فالذين لا يرجون أيّام الله هم الذين ينكرون يوم القيامة، فهم كافرون، ومع ذلك فإنّ الله يطلب من المؤمنين أن يغفروا لهم إساءاتهم الشخصية، ممّا لا علاقة له بموضوع الجهاد في سبيل الله بالقتال.

والهدف من ذلك أن يقدّم المسلمون صورة الأخلاق الإسلامية العظيمة، حتى يكونوا بأخلاقهم الكريمة داعين إلى الإسلام محبّبين الناس به، بعيدين عن كلّ قسوة وغلظة في القول أو في العمل، فكم من الناس أسلموا بفضل الخلق النبوي، والخلق الإسلامي الذي كان يتمتع به المسلمون الأولون، وهذا الخلق

الإسلامي لا يتعارض مع شدة البأس في الحرب. على أننا نقول: إنه لا انفصام في شخصية المسلم، إنه صاحب خلق رفيع مع المسلمين ومع غير المسلمين، وأمّا كون المسلمين أشداء على الكفار فهذا في ظروف الحرب وفي مواجهة المحاربين.

وقد ضرب البطل الإسلامي «صلاح الدين الأيوبي» الذي جاهد الصليبيين جهاداً عظيماً أروع أمثلة الخلق الكريم في تسامحه وعفوه بعد أن ظفر وانتصر تأثراً بالأخلاق الإسلامية التي رُبّي عليها.

٥ ــ وإذ يوصي الإسلام بالعفو والصفح والمغفرة فإنه يقرّر أنّ من حقّ المظلوم أن يعاقب على السيئة بمثلها، وفق مقتضى العدل، إلاّ أنّ العفو والصفح والمغفرة من غير تشجيع على الظلم والتمادي فيه أكرم وأرحم، وهو ما تحضّ عليه الأخلاق الإسلامية، وتدعو إليه مرتبة الإحسان، ومعلوم أنّ مرتبة الإحسان هي أعلى وأرفع من مرتبة العدل. قال الله تعالى في سورة (الشورى ٤٢):

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾.

ففي هذا النص يصف الله مستحقي ما عنده من خير باقٍ في نعيم الجنة بعدّة صفات:

الصفة الأولى: الإيمان، وإذا أطلق الإيمان في القرآن والسنّة كان المراد منه التصديق الكامل بكل ما جاء به الرسول ﷺ من عند الله، وثبت عنه بطريق يفيد العلم الجازم.

الصفة الثانية: التوكّل على الله، وهو اعتماد القلب على الله في تحقيق المطالب المرجوّة، عند القيام بالأسباب المستطاعة، التي ربط الله بها في سنن كونه أو في تعاليم دينه مسبَّباتها ﴿وعلى ربهم يتوكّلون﴾.

الصفة الثالثة: اجتناب كبائر الإثم والفواحش ﴿والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش﴾.

الصفة الرابعة: أنّهم يغفرون لمن أغضبهم إذا هم غضبوا فعلاً ﴿وإذا ما غضبوا هم يغفرون﴾ والسرّ في جعل مغفرتهم لإخوانهم مرتبة على حدوث غضبهم بالفعل، أنْ تكون مغفرتهم مقاومة فعلاً لعقبة من عقبات النفس، إذْ من السهل على الإنسان أن يغفر إذا لم يغضب ولو أسيء إليه، ولكن تظهر ميزة خلق المؤمن حينما يغفر إذا هو غضب بالفعل من إساءة وُجّهت إليه.

الصفة الخامسة: أنّهم استجابوا لربّهم فيما دعاهم إليه من عبادة وعمل، وأقاموا الصلاة ﴿والذين استجابوا لربّهم وأقاموا الصلاة﴾.

الصفة السادسة: أنّ أمرهم فيما بينهم شورى، وليس استئثاراً ولا استبداداً ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾.

وما جاء بيانه في معرض الحديث عن تكليف الرسول أن يشاور أصحابه في الأمر، من ثمرات المشاورة وفوائدها وميزاتها القيادية والاجتماعية، ينطبق على قاعدة المشاورة بين المؤمنين، فالقوانين الاجتماعية شبيهة بالقوانين الكونية الأخرى، لها حقائق ثابتة لا تختلف باختلاف الأشخاص، أو باختلاف الأزمنة أو الأمكنة.

الصفة السابعة: أنهم ينفقون مما رزقهم الله، ولا يبخلون بما يجب عليهم في أموالهم ﴿وممّا رزقناهم ينفقون﴾.

الصفة الثامنة: وهي صفة دائرة بين أمرين، أحدهما من مستوى العدل، والآخر من مستوى الإحسان، وهي: أنهم يجازون على السيّئة بمثلها دون زيادة، أو يرتقون إلى مرتبة أعلى من ذلك، وهي مرتبة العفو والإصلاح والصبر والمغفرة

﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون، وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها، فمن عفا وأصلح فأجره على الله، إنّه لا يحبّ الظالمين، ولَمِن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحقّ، أولئك لهم عذاب أليم، ولَمَنْ صبر وغفر إنّ ذلك لَمِنْ عزم الأمور﴾.

وهكذا جاءت هذه الصفة في النص معروضة عرضاً متشابكاً متداخلاً، فيه إبداع بياني عجيب، يلاحظ فيه متابعة خلجات الأنفس، باللّمسات الرفيقة، والتوجيهات الرقيقة، مع مراعاة آلام المجني عليهم، والنظر بعنفٍ وشدّة إلى البغاة الظالمين، وإعلان أنّ من حقّ المجنيّ عليهم أن ينتصروا لأنفسهم بالحقّ، ثمّ العودة لدفعهم برفق إلى الصبر والمغفرة، كلّ ذلك في ألوان دائرةٍ بين العدل والإحسان.

فقول الله تعالى: ﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون وجزاء سيّئةٍ سيّئة مثلها﴾ يبرز حقّ المؤمنين في الانتصار لأنفسهم إذا أصابهم البغي، ويضع لجاماً لهذا الانتصار للنفس، بإعلان الحدّ الذي لا يجوز تجاوزه، وهو جزاء سيئة سيئة مثلها.

ثم يعرض الله مرتبة الإحسان مشجّعاً عليها فيقول: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ ثمّ يتبع ذلك بإعلان حرمان الظالمين من محبّة الله لهم، فيقول: ﴿إنه لا يحبّ الظالمين﴾.

ثم يرجع النصّ فيعلن حقّ المظلومين في أن ينتصروا لأنفسهم، ويعلن بشدة استحقاق الظالمين للعقاب في الدنيا، وللعذاب الأليم في الآخرة، فيقول الله تعالى: ﴿ولَمِن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل، إنّما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحقّ أولئك لهم عذاب أليم﴾.

ثمّ لا يدع النصّ مرتبة العدل هذه تتجه إليها الأنظار اتجاهاً كليّاً، بل يدفع مرّة ثانية إلى مرتبة الإحسان بالصبر والمغفرة، معلناً أنّ ذلك من عزم الأمور، فيقول الله تعالى في ختام النصّ: ﴿ولَمَنْ صبر وغفر إنّ ذلك لَمِنْ عزم الأمور﴾.

وعند هذه النهاية التي تأخذ بأيدي المؤمنين إلى المرتبة المثلى يُسدل الستار، إعلاناً بانتهاء الفصل التربوي.

أليس هذا إبداعاً بيانيّاً عجيباً؟؟!!

أمّا قوله تعالى: ﴿إنّ ذلك لمن عزم الأمور﴾ فهو يفيد أنّ الصبر والمغفرة إنما يكونان من إنسان صاحب إرادة قوية، ذات عزم في مواجهة الأمور الشديدة على الأنفس، وهذا مقام خلقي عظيم.

قسوة القلب:

الخلق المناقض لخلق الرحمة يتمثّل بقسوة القلب حينما يراد من قسوة القلب نضوب عاطفة الرحمة، وهو خلق ذميم قبيح ذو نتائج خطيرة على الفرد والمجتمع الإنساني والحياة كلها.

إذا وضعنا للرحمة سلّماً ذا درجات، ولاحظنا فيه أنّ نسبة الرحمة تتفاوت ارتقاء وهبوطاً، وجدنا أنّ الدرجة الدنيا من درجات الرحمة إذا انعدمت تمّ بانعدامها بلوغ أقصى دركات قسوة القلب، إذن فبمقدار انخفاض نسبة درجة الرحمة يكون ارتفاع نسبة درجة قسوة القلب، والعكس صحيح.

قسوة القلب مرض من الأمراض الخلقية، يجفّف في داخل النفس الإنسانية عاطفة الإحساس بآلام الآخرين وحاجاتهم، ويشتدّ هذا المرض ويشتد معه الجفاف النفسي، حتى ينعدم الشعور بالواجب الفطريّ نحو الخالق المنعم، الذي متى شاء سلب النّعم كلّها، ومنها نعمة الحياة. وفي هذه الحالة من حالات الجفاف النفسي تمسي القلوب مثل الحجارة التي لا ترشح بأي عطاء، أو أشدّ قسوة من الحجارة، لأنّ من الحجارة ما تتشقق قسوته الظاهرة فيندفع العطاء من باطنه الرخو ماءً عذباً نقياً، ولكن بعض الذين قست قلوبهم يجفّ من أغوارها كلّ أثر للفيض والعطاء.

حين تُشبَّه القلوب بالحجارة، ويستعمل للدلالة على فقدان عاطفة الرحمة منها عبارة القسوة وما يشبهها من العبارات المأخوذة من الماديّات المدركة بالحواسّ

الظاهرة، فذلك لأنّ كثيراً من المشاعر النفسية والمدركات الوجدانية غير خاضعة لمقاييس ظاهرة، حتى يستطاع الرجوع إليها، وتمييزها بعبارات يمكن فهمها بسهولة عند التخاطب، ولو وضعت لها عبارات كلامية خاصة فإنه تظلّ دلالاتها غامضة عند معظم الناس، ومن أجل ذلك كان الأولى في الدّلالة عليها استخدام عبارات معروفة الدلالة في المجال الحسّي، والاستفادة من تشبيه المشاعر النفسية والمدركات الوجدانية بالمدركات الحسيّة الظاهرة، لتقريب الحقيقة إلى الفهم.

على أنّ كثيراً من المشاعر النفسية والمدركات الوجدانية قد وضع لها تعبيرات خاصة بها، نظراً إلى أنّ الإحساس بها عند معظم الناس إحساسٌ واضح في مشاعرهم، ويمكن قياسه من ظواهره ولو بشكل تقريبي، كالحبّ، والبغض، والإرادة، والخوف، والطمع، والفهم، والذكاء، والشجاعة، ونحو ذلك.

قسوة القلب في الدلالات القرآنية:

لقد ذمّ القرآن الذين قست قلوبهم من أهل الكتاب، وحذّر المؤمنين بالإسلام من أن يطول عليهم الأمد في المعاصي والغفلة عن ذكر الله فتقسو قلوبهم، وأنذر القاسية قلوبهم وخوّفهم من أن يحلّ بهم العذاب والهلاك. ويراد من قسوة القلب نضوب عاطفة الرحمة فيها، وتحجرها عن قبول دعوة الحقّ، فعلى المعنى الأول تكون قسوة القلب مناقضة لخلق الرحمة، وعلى المعنى الثاني تكون قسوة القلب مناقضة لخلق حب الحقّ.

١ ـ خاطب الله بني إسرائيل، وحدّثهم بما وصلوا إليه في أجيالهم اللاحقة من قسوة شديدة في قلوبهم، جعلتهم لا يرشحون بعطاء نابع من خلق الرحمة، ولا يخرّون ساجدين من خشية الله، فقال الله تعالى خطاباً لهم في سورة (البقرة ٢):

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ

لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

لقد بلغت قسوة قلوبهم مبلغاً جعلها لا تتفجر من مؤثرات داخلية فتفيض بعطاء، ولا تتشقق من مؤثرات خارجية تستثير فيها الرحمة فترشح بعطاء، ولا تنصدع لمؤثرات الخشية من الله فتخضع لله وتذلّ، فهي أشدّ قسوة من الحجارة، لأنّ من الحجارة ما يتفجر فتخرج منه الأنهار، وما يشقّق فيخرج منه الماء ولو بنسب قليلة، وما يهبط من خشية الله.

إنها حالات ثلاث مفقودة في المخاطبين، صوّرتها حالات ثلاث للصخور القاسيات:

(أ) فمن الحجارة القاسية ما يتعرّض إلى اندفاع داخليّ فيفجر قسوتها، ويخرج منها العطاء الثرّ أنهاراً.

(ب) ومن الحجارة القاسية ما يتشقّق تشققاً دون التفجر، بمؤثرات من الخارج، وربما من الداخل، فيخرج منه العطاء غير الثرّ.

(ج) ومن الحجارة القاسية المستكبرة في المرتفعات ما تأتيه هزات وعوارض فيهبط إلى مواطن التواضع من خشية الله.

أمّا قلوب هؤلاء فلا تتدفّق لأيّ مؤثر يستثير الرحمة، ولا ترشح ولو رشحاً قليلاً، وتظلّ في قسوتها واستكبارها فلا تذلّ ولا تخضع من خشية الله.

وفي الصورة أيضاً إلماحٌ لأصحاب القلوب القاسية المستكبرة، بأن من لم يتفجر قلبه من الرحمة، ولم يخضع من خشية الله، فسيكون عرضة لتشقيقه بعنف المصائب لاستخراج ما في باطنه من خير، إذا كان فيه خير، وسيكون عرضة لتصديعه وهو في مواطن استكباره لإذلاله وإهانته، لعلّه يخضع من خشية العزيز القهّار، ويرى أنّ خضوعه لربّه أولى له من الاستكبار.

٢ ــ وكشف الله السبب الذي جعل ذريّات بني إسرائيل تقسو قلوبهم، فقال تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

فمعصيتهم لله تعالى، بنقضهم ميثاقهم، سبّب لهم الطرد عن الله، وهذا الطرد أبعدهم عن مهابط رحمة الله مصدر كلّ الرحمات، فأمست قلوبهم جافّةً قاسية، لا ترشح بعطاء ولا تلين لخير، ولا تخضع من خشية العزيز القهار.

وفي بيان هذا بيانٌ لسنةٍ من سنن الله في تكوين القلوب والنفوس، فمن استغرق في المعاصي، ونقض مواثيقه مع ربّه، طرده الله من صفوف أهل التقوى، فابتعد عن مهابط رحمة الله، فقسا قلبه، وتابع مسيرته المظلمة الظالمة، حتى كان من أصحاب الجحيم.

أمّا الميثاق الذي نقضه بنو إسرائيل فقد ذكره الله بقوله في سورة (المائدة ٥):

﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ ﴾.

فعلى وفق البنود التي ذكرتها هذه الآية أخذ الله الميثاق على بني إسرائيل، ولكنّ أجيالهم نقضوا هذا الميثاق فلعنهمُ الله، فقست قلوبهم.

ربّنا إنا نعوذ بك من قسوة القلوب وسوء المنقلب.

٣ ــ وكشف الله السبب الذي جعل أهل الكتاب عامّة تقسو قلوبهم، فقال تعالى في سورة (الحديد ٥٧):

﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

الأمد: في اللّغة هو غاية المدّة، والمراد من طول الأمد طولُ المدّة عليهم قبل حلول الآجال التي هي آمادهم.

فأهل الكتاب عامّة لمّا طال عليهم الأمد في النعمة، والكثرة الكاثرة منهم فاسقة منغمسة في المعاصي، نسوا ربّهم، فابتعدوا عن مهابط رحمة الله، فقست قلوبهم.

وهذه سنة عامّة من سُنَن الله في الخليقة، إنّ أيّة أمّة يطول عليها الأمد وهي تتقلّب في بحبوحة نِعمِ الله على فسق ومعصية ونسيان لربّها، تقسو قلوبها فلا تخشع لذكر الله وما نزل من الحق. ولذلك خاطب الله الذين آمنوا خطاب غيبة بقوله: ﴿ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾ بعد قوله لهم: ﴿ألم يأْنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق؟!﴾.

ألم يأْنِ: أي ألم يَحِنْ، ألم يأتِ الحين الذي يكفي لأن تنضج عنده قلوب المؤمنين، بعدما تواردت عليها الذكرى والعظات الكثيرات، فتغدو قلوباً رقيقة لينة، تخشع برقّتها ولينها لذكر الله، وما نزل من الحقّ من عند الله.

إنّ حرارة الإيمان تستطيع أن تنضج القلوب فتليّنها وترققها، إذا غذّاها وقود عبادة الله والعمل الصالح، والإكثار من ذكر الله وتدبّر آلائه وآياته، ومُراقبة عدله وفضله وسلطانه المهيمن على جميع خلقه، ومراقبة علمه ورحمته التي وسع بهما كل شيء، ومتى لانت القلوب ورقت بهذه العوامل الإيمانية والعملية المختلفة غدت كثيرة الخشوع، إذا لامسها ذكر الله استولى الخشوع عليها، واقشعرّت من ورائها الجلود، وتدفقت معها الدموع، واستكانت النفس تحت عدّة مؤثرات، أهمها الحب والخوف والطمع، فجللتها الخشية.

ومتى وصلت القلوب إلى هذه المرتبة تدفّقت منها الرحمة، واتجهت شطر مستحقيها بالعطاء والإحسان والإيثار، وسائر الفضائل السلوكية التي تعود إلى خلق الرحمة.

ففي هذه الآية بيان للأسباب الداعية إلى خشوع القلبِ ولينه، وبيان للأسباب التي تتولد عنها قسوة القلب، رغم وجود أصل الإيمان في الأمّة، وتنبيه على أنّ الطبائع البشرية على وجه العموم تخضع لقوانين ربّانية ثابتة، ولسنن دائمة، ذات أسباب ومسبّبات، فمتى وجد كامل السبب جاء المسبّب نتيجة طبيعية له، ولا تتخلّف النتيجة إلاّ ضمن معجزة ربّانية.

٤ ــ وحين تشتد قسوة قلوب الأمم، يكون آخر علاج لإصلاحها أن تنزل بها الآلام والمصائب، لتردّها الآلام والمصائب إلى الله، فتلجأ إليه، وتتضرّع بانكسارٍ وذلّ لاستدرار رحمته. فإذا لم تليّنها وسيلة العلاج هذه، فقد انتهى دور ابتلائها، وجاء دور إهلاكها، ولكن يأتي إهلاكها وفق سنة الله بعد أن يفتح الله عليها أبواب كلِّ شيء من أبواب الترف والنعمة، حتى إذا فرحت بما جاءها أتاها عذاب الله بغتة فإذا هي حزينة نادمة ساكنة ساكتة يائسة، وهذا ما بيّنه الله بقوله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

البأساء: شدة الفقر والجوع. الضرّاء: المصائب في الأموال والأنفس. يتضرعون: يذلّون ويخضعون ويخشعون سائلين الله أن يكشف ما نزل بهم. مُبْلسون: نادمون يائسون ساكتون ساكنون واجمون، والإبلاس في اللّغة يأتي بمعنى اليأس من النجاة عند وقوع الهلكة، ويأتي بمعنى السكون والوجوم عند

انقطاع الحجّة، ويأتي بمعنى الحيرة القاطعة لكلّ حركة عند نزول المصيبة.

فمن سنن الله في الأمم المتمرّدة على طاعة الله، التي قست قلوبها فهي لا تلين للمواعظ والذكرى، أن يعالج الله إصلاحها بالبأساء والضراء، فإذا هي لانت قلوبها، وتضرّعت إلى الله، رفع عنها المصائب.

﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرّعوا﴾ أي: فهلّا إذ جاءهم بأسنا تضرّعوا وخشعوا واستقاموا، حتى نرفع عنهم البأساء والضرّاء، ونغفر لهم ونرحمهم.

﴿ولكن قست قلوبهم، وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾هما أمران: قسوة في قلوبهم اشتدت حتى لم تؤثر في إصلاحها وردّها إلى الله المصائب والآلام. وغرور في أفكارهم جعلهم يفسّرون ما نزل بهم من مصائب بالأسباب الطبيعيّة أو المصادفات، فلم تلتفت أنظارهم إلى أنها مصائب ربّانية أنزلها الله بهم ليتذكروا فيتضرّعوا إلى الله.

﴿فلمّا نسوا ما ذكروا به﴾من نزول البأساء والضراء في فترة التدرج لتحويل الحال ﴿فتحنا عليهم أبواب كلّ شيء﴾ من أبواب الترف والنعمة ومتاع الحياة الدنيا ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا» من قبل هذه الأبواب ﴿أخذناهم﴾ بالهلاك والعذاب ﴿بغتةً﴾ مفاجأة وهم لا يشعرون ﴿فإذا هم مبلسون﴾ آيسون نادمون لا حراك لهم.

٥ ــ أمّا من قست قلوبهم قسوة بالغة، فهي لا تلين عند ذكر الله، فلا تخاف ولا تخشى، وتظلّ معرضة عن ذكر الله، ولا يزيدها التذكير بالله إلا قسوة ونفرة، فأولئك الويل لهم، كذلك أنذرهم الله بقوله في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾.

يبدأ هذا النص بالمقارنة بين صنفين من الناس: صنف لان قلبه عند ذكر الله، فتدفقت منه عواطف الخير بالحق، فشرح الله صدره للإسلام، فاستجاب لدعوة الحق فأسلم، فهو على نورٍ من ربه. وصنف قسا قلبه فلم يلن عند ذكر الله، بل أعرض عنه، ولم يزده التذكير بالله إلّا قسوة ونفوراً، فلم يشرح الله صدره للإسلام، لأنه لم يلن قلبه للحقّ، فهو في ظلمات الجهل والغواية يسير، وفي الضلال المبين يتخبّط.

دلّ على الصنف الأول قوله تعالى: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه؟﴾.

أما الصنف الثاني فملاحظ مطويّ تقديرُه: كمن قسا قلبه فلم يلن عند تذكيره بالله فهو في ظلماته ضالٌ تائه.

وقد دلّ على هذا الصنف المطويّ إنذاره بالويل في قوله تعالى: ﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين﴾.

و (من) في قوله تعالى﴿من ذكر الله﴾قد تكون بمعنى (عند) أو بمعنى (عن) أي: فويل للقاسية قلوبهم عند ذكر الله، أو فويل للقاسية قلوبهم معرضة عن ذكر الله. فهي لا تلين، فلا تستجيب للحقّ، ولا تستضيء بنور من الله، فتبقى في ظلماتها وضلالها المبين.

ثم يذكر النصّ أحسن الكلام المذكر بالله، ألا وهو كتاب الله: ﴿الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعرّ منه جلود الذين يخشون ربّهم، ثمّ تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾.

متشابهاً: أي يشبه بعضه بعضاً في الحسن والبلاغة والتأثير في قلوب السامعين والتالين.

مثاني: ثنى الشيءَ يثنيه إذا ردّ بعضه على بعض فتقابلت الطيّات وتناظرت، فكلّ زوجين منها مثنى، والجمع من هذه الأزواج مثاني. أمّا المراد من كون القرآن مثاني ففيه احتمالات:

منها تكرير المعاني والقصص والأخبار فيه بأساليب مختلفة تناسب أحوال

النفوس والقلوب للتأثير فيها، كالإقناع مرّة بعد العرض المجرد، وكالترغيب مرّة، ثم الترهيب.

ومنها التقابل بين الأزواج المتضادة، كالأمر والنهي، والظلمة والنور، والجنة والنار، والمؤمنين والكافرين، والمسلمين والمجرمين، والوعد والوعيد، والخوف والطمع، والذين يعلمون والذين لا يعلمون، والرحماء والقاسية قلوبهم.

ومنها التوازن اللفظي بين الجمل بردّ بعضها على بعض رداً فيه تناظرٌ محبّب للنفوس، كالموجات الحلوة المثنّاة في سورة (الرحمن ٥٥):

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾.

وهكذا إلى آخر السورة.

ومنها أنّ بعض المعاني فيه مطوية في ثنايا الآيات، إنّما يتنبه إليها الباحث في المنحنيات والمنعطفات، أخذاً من مثاني الوادي، وهي منحنياته ومنعطفاته، مثل قوله تعالى: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه؟﴾ أي: هل يستوي هو ومن قسا قلبه فلم ينضَحْ بخير، فلم يشرح الله صدره للإسلام فهو في ظلماته وضلاله المبين.

هذا الكتاب الذي نزّله الله أحسن الحديث متشابهاً مثاني كتاب مذكّر بالله، إذا سمعه الذين يخشون ربهم اقشعرت منه جلودهم، فإذا تكرّر سماعهم به كان له فيهم تأثير آخر، إذ تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله باندفاع ذاتي، إنهم ذاقوا حلاوة الإيمان، وعرفوا أنّ هذه الحلاوة إنما جاءتهم من ذكر الله، فاتجهوا من ذاتهم إلى ممارسة ذكر الله مرّة بعد مرّة، لينة إليه قلوبهم وألسنتهم وجميع حواسهم ﴿الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعرّ منه جلود الذين يخشون ربّهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله. ذلك هدى الله يهدي به من يشاء. ومن يضلل الله فما له من هاد﴾.

أي: فمن يثبت الله ضلاله بسبب ما كان منه من ضلال فما له من هادٍ يثبت له الهداية، إنّ الله هو الحكم العدل لا معقب لحكمه.

الظلم

ـ ١ ـ
مقدمة

لقسوة القلب المناقضة لخلق الرحمة ظواهر في السلوك أبرزها ظلم الآخرين في حقوقهم، فمن فقد الرحمة فقسا قلبه ظلم غيره، ولم يكترث بآلام من ظلمه.

والإنسان الرحيم قلّما يكون ظالماً، ولئن كان للظلم عوامل نفسية مختلفة فإن تنفيذه لا يكون إلّا حينما يكون القلب قاسياً وتكون الرحمة فيه ناضبة أو غارقة في سبات عميق.

والظلم بمعناه العام قد يكون من ظواهر قسوة القلب بفقدان الرحمة، وقد يكون من ظواهر الانحراف عن الحق، وفقدان خُلق حبّ الحق، أو تناقصه، ومن قسوة القلب عن قبول دعوة الحق.

ـ ٢ ـ
تعريف الظلم

يعرّف اللغويون الظلم بأنه: وضع الشيء في غير موضعه.

جاء في أمثال العرب قولهم: «من أشبه أباه فما ظلم» قال الأصمعي: أي فما وضع الشبه في غير موضعه.

وجاء في أمثال العرب قولهم: «ومن استرعى الذئب فقد ظلم» وهذا ظاهر في وضع الشيء في غير موضعه، إذ موضع الذئب الطرد عن قطعان الغنم، لا جعله راعياً عليها حتى يفتك فيها كما تهوى غريزته.

ويقال لغة: لزم سالك الطريق طريقه فلم يظلمه، لم يعدل عنه ولم يتجاوز حدوده اليمنى واليسرى.

وإنما كان الشرك بالله ظلماً لأن خصائص الألوهية كلّها من حقّ الله وحده، فمن أسند ما هو لله وحده إلى غيره فقد وضع الأمر في غير موضعه، وجعل لله شريكاً في صفاته التي لا يشاركه فيها أحد في الواقع، ولمّا كان الأمر يتعلّق بحق الله خالق كل شيءٍ كان الظلم فيه أشدّ أنواع الظلم.

ـ ٣ ـ
المجالات التي يدخل فيها الظلم

إنّ المجالات التي قد يدخل الظلم فيها كثيرة وواسعة:

(أ) فقد يكون الظلم في مجال حق الله على عباده، من عقيدة أو عبادة، أو طاعة في أمر أو نهي.

(ب) وقد يكون الظلم في مجال حقوق العباد، بتجاوزها أو هضمها.

(ج) وقد يكون الظلم للحقائق الفكرية والعلمية، بتجاوز حدودها، أو بإنكارها وجحودها.

(د) وقد يكون الظلم لأي كائن ذي حياة، وظلم ذي الحياة الذي يستحق الرحمة ويشعر بالألم إنما يفعله ذوو القلوب القاسية، الذين نضبت الرحمة من قلوبهم، أو تخدّرت باللذات الأنانية والشهوات المادية، أو غرقت في سبات عميق إذْ أبطرتهم النعمة.

(هـ) وقد يظلم الإنسان نفسه، فيغامر في فعل ما يشتهي، ويعرّض نفسه لعذاب أليم من وراء ذلك.

وكل ظلم يعاقب عليه الظالم يكون من قبيل ظلم الإنسان لنفسه، بالإضافة إلى كونه ظلماً لغيره.

وظلم الإنسان لنفسه ظلم مصحوب بجهالة بالغة، إنْ لم يكن مع الجهالة حماقة ورعونة.

وباتساع وتعدّد مجالات الظلم نلاحظ أن منه الكفر بالله والشرك به ومعصيته وتجاوز حدوده، ويدخل في ذلك كتم شهادة الحق، ومنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وأكل أموال الناس بالباطل، والعدوان على أي حق من حقوق الناس، والإعراض عن آيات الله بعد التذكير بها، والقتل، والسرقة، والغش، والقذف، والغيبة، والإفساد بين الناس، إلى غير ذلك من آثام ومعاصي.

— ٤ —

الظلم في المفاهيم الإسلامية

لقد تحدّث القرآن عن الظلم والظالمين والعقوبات التي أعدّها الله في آيات كثيرة جداً، وأَوْلَى هذه الظاهرة السلوكية التي ترافق في معظم أحوالها قسوة القلب وجفاف خلق الرحمة منه اهتماماً شديداً، بغية التحذير منها، واتخاذ الوسائل لمعالجتها، وفيما يلي عرض لطائفة من النصوص القرآنية مع تدبر ما اشتملت عليه في هذا الموضوع:

١ ــ إن الشرك بالله لظلم عظيم، ولذلك كان من وصايا لقمان لابنه وهو يعظه: يا بني، لا تشرك بالله، إنّ الشرك لظلم عظيم، هذا ما قصه الله علينا مشيداً بوصايا لقمان لابنه في سورة (لقمان ٣١):

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾.

حقّاً إن الشرك بالله لظلم عظيم، وذلك لأنّ حق الله على عباده أن يؤمنوا به، وأن يعبدوه وحده ولا يشركوا بعبادته أحداً، وأن يطيعوه بالتزام ما يأمرهم به، واجتناب ما ينهاهم عنه. فمن عبد غير الله مثل عبادته لله فقد وضع عبادته

في غير محلّها، ورفع خلقاً من خلق الله فجعله مساوياً لله ولو في أمرٍ من الأمور، أو صفة من الصفات، وكلّ ذلك ظلم عظيم، لأنه يتعلق بحقّ الله الخالق الرازق المنعم المتفضل المحيي المميت، في كبرى حقوقه على عباده.

إنّ الشرك بالله ظلم للحقيقة العلمية من جهة، وظلم للواجب الأخلاقي من جهة أخرى.

أمّا كونه ظلماً للحقيقة العلمية فظاهر، إنّ أحداً غير الله لا يستحق أن يعبد من دونه، ولا يستحق أن يعبد معه.

وأما كونه ظلماً للواجب الأخلاقي، فيوضحه أنّ الله وحده هو الخالق، الرازق، المنعم بالحياة والإرادة والعقل وسائر النعم العظيمة، المحيي المميت والممد بكل الخيرات، والواجب الأخلاقي يحتم على العبد المتلقي لكل هذه النعم والخيرات من ربّه وحده، أن يشكره على نعمه، فيؤمن به وحده ربّاً خالقاً، ويخضع له وحده، ويعبده وحده لا يشرك بعبادته أحداً.

ويقول الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

وقد ورد تفسير الظلم في هذه الآية بالشرك، روى البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال: لما نزلت ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ شقّ على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله، أيّنا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «ليس ذاك، إنما هو الشرك، ألم تسمعوا قول لقمان لابنه: ﴿يا بني لا تشرك بالله إنّ الشرك لظلم عظيم﴾» وفي رواية: «ليس كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه».

٢ ــ من الظلم تعدّي حدود الله، وحدود الله شرائعه التي حدّد فيها لعباده أبعاد الحلال والحرام والفروض والواجبات، والأصل في الحدّ المعْلَم الذي يوضح نهاية بُعد الأرض المراد تمييزها عن غيرها، فيحد صاحب الأرض عن

تجاوزه إلى غيرها لئلا يظلم حق غيره، ويحدّ غيره عن تجاوزه إلى داخلها حتى لا يظلم حقه في أرضه.

وتجاوز حدود الله التي حدّها لعباده معصية له، ومعصية الله ظلم لحقه على عباده، ولذلك كثرت في القرآن الكريم نسبة صفة الظلم إلى العصاة والفاسقين وكلّ المتجاوزين لحدود الله، وإن كانوا من المؤمنين؛ قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ ﴾.

والمشار إليه في «تلك حدود الله» أحكام شرعية سبق بيانها في آيات قبل هذه الآية، تتعلق بالخمر والميسر، وباليتامى، وبالنكاح، وبمعاشرة الزوجات، وبالأيمان، وبالطلاق، وبغير ذلك.

٣ ــ وفي معرض الحديث عن عصاة بني إسرائيل يقول الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾.

الرجز: العذاب.

ويقول تبارك وتعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾.

٤ ــ ويحذر الله تبارك وتعالى رسوله من طرد الفقراء والضعفاء من المؤمنين عن مجالسه العامة، تلبية لمطالب أصحاب الغنى والقوة من المشركين، الذين كانوا يلوحون باستعدادهم للإسلام إذا طرد الرسول عن مجالسه الفقراء

والضعفاء والمساكين، ويبيّن الله لرسوله بأنه إذا فعل شيئاً من ذلك فإنه يكون من الظالمين، قال الله تعالى لرسوله في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

٥ ــ وشعر يونس عليه السلام وهو في بطن الحوت، أنّ ما نزل به قد كان بسبب ظلمه إذ ترك قومه ــ أهل نينوى ــ مغاضباً لهم إذ لم يؤمنوا به، فنادى في الظلمات التي هو فيها في بطن الحوت، أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، قال الله تعالى في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

فظنّ أن لن نقدر عليه: أي ظنّ أن لن نضيّق عليه، اعتقاداً منه أن ما فعله لا حرج عليه فيه.

٦ ــ ونهى الله آدم وزوجه أن يأكلا من الشجرة فإن أكلا منها كانا من الظالمين، قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

فدلّ هذا على أن مخالفة النهي بفعل ما نهى الله عنه ظلم.

٧ ــ ومن الظلم كتم شهادة الحق، وأظلم الظلم في كتم الشهادات أن يكتم الكاتم شهادة عنده من الله، أي: ممّا يتعلق بأمر الحقائق الربّانية والمعارف الدينية الإلهية، قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ

كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ ﴾.

٨ ـ ومن الظلم منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه والسعي في خرابها، بل هذا من أظلم الظلم لأنه صدٌّ عن سبيل الله ومنعٌ لعباد الله من عبادة الله، قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾.

فعقوبة هؤلاء الظالمين تأتيهم على ثلاث شعب:

(أ) إلقاء الخوف في قلوبهم، فهم لا يدخلون مساجد الله إلّا خائفين.
(ب) معاقبتهم بالخزي في الدنيا.
(ج) معاقبتهم بالعذاب العظيم في الآخرة.

٩ ـ ومن أظلم الظلم الإعراض عن آيات الله بعد التذكير بها، وعدم الاستجابة لله فيما يدعو إليه من الإيمان والعمل الصالح، قال الله تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾.

فهؤلاء قد أعرضوا بعد أن ذكّروا بآيات ربّهم إعراض كفر وجحود، ومن أجل ذلك كانت قلوبهم في أكنّة، أي: محجوبة بحجُبٍ كثيفة، أو محبوسة في بيوت من الغفلة مقفلة، فهي لا تفقه الحقّ الذي تشتملُ عليه آيات الله، ومن

أجل ذلك أيضاً كان في آذانهم وقر، أي: صمم عن سماع ما يذكر بالله ويرشد إلى طريق الإسلام، وهو صمم إعراض، لا صمم فقد حاسة السمع.

وقال الله تعالى في سورة (السجدة ٣٢):

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

ففي هذه الآية وصفهم الله بأنهم مجرمون، لذلك كان من العدل تقرير الانتقام منهم.

وقال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾.

صدف عنها: أي أعرض عنها، ويلزم من الإعراض عن آيات الله عدم قبولها والتكذيب بها، لذلك كان لهؤلاء المعرضين عن آيات الله سوء العذاب يوم القيامة بما كانوا يصدفون، أي: يعرضون كلّما ذكروا بآيات ربهم.

١٠ ــ ومن أظلم الظلم الكذب على الله لإضلال الناس بغير علم، قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾.

كيف يثبت الله لهم الهداية ويحكم لهم بها وقد ظلموا ظلماً كبيراً، إذْ افتروا على الله كذباً ليضلوا الناس بغير علم؟

١١ ــ ومن الظلم الكبير ظلم الناس في أنفسهم وأموالهم، قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن

تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾.

فأكل أموال الناس بغير حق وقتل النفس بغير حق، عن علم وإرادة، عدوان وظلم.

وخصص الله أكل أموال اليتامى بالباطل بذكره في آية منفردة؛ لتوجيه التحذير الشديد لهذا النوع من الظلم، فقال تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًاۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾.

وفي بيان أن القتل بغير حقّ ظلم يقول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾.

فظلم الناس في أنفسهم وأموالهم أمره شديد عند الله، وعقابه مخيف، ومن النصوص في ذلك ما يلي:

(أ) روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

«لتؤدنّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يُقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء».

يُقاد: يقتص.

الجلحاء: هي الشاة التي لا قرون لها. والجلح في الناس ذهاب الشعر من مقدّم الرأس، وفي الشاء والبقر: عدم وجود القرون.

(ب) وروى البخاري عن خولة بنت ثامر الأنصارية قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن رجالاً يتخوضون في مال الله بغير حق؛ فلهم النار يوم القيامة».

(ج) وروى البخاري ومسلم عن أبي حُمَيد عبدالرحمن بن سعد الساعدي قال: استعمل النبي ﷺ رجُلاً من الأزد يقال له ابن اللتبية على الصدقة؛ فلما قدم قال: هذا لكم وهذا أهدي لي، فقام رسول الله ﷺ على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«أمّا بعد، فإني أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولاني الله، فيأتي فيقول: هذا لكم وهذا هدية أهديت إليّ! أفلا جلس في بيت أبيه وأمّه حتى تأتيه هديته إن كان صادقاً، والله لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حقه إلا لقي الله تعالى يحمله يوم القيامة، فلا أعْرفن أحداً منكم لقي الله يحمل بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خُوار، أو شاة تَيعر».

ثم رفع يديه حتى رئي بياض إبطيه فقال:

«اللهم هل بلّغت؟».

الرغاء: صوت الإبل. والخوار: صوت البقر. واليُعار: صوت الغنم.

فدلّ هذا الحديث على أنه يدخل في الحقوق العامة الهدايا التي تقدم للموظفين بحكم وظيفتهم، لا لأشخاصهم.

(د) وروى البخاري ومسلم عن عائشة، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«من ظَلَمَ قيد شبرٍ من الأرض طُوّقه من سبع أرضين».

قيدَ شبر: قيد الشيء قَدْره، تقول: فلانٌ مني قيدَ رمح، أي مسافة ما بيننا هي قدر طول رمح.

طوقه من سبع أرضين: أي من سبع طبقات من الأرض، لأن الملكية والانتفاع من الأرض قد يصل إلى سبع طبقات منها.

دلّت هذه الأحاديث على أن عدل الله لا بدّ أن يلاحق الظالمين بالعقوبة على ظلمهم، حتى تؤدى الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، بما في ذلك الحقوق بين البهائم العجماوات.

وأبان الرسول ﷺ أنّه إذا ظلمت شاة ذات قرون شاةً جلحاء غير ذات قرون اقتصّ الله يوم القيامة للشاة الجلحاء من الشاة القرناء، لأن الظلم من الجرائم التي تدركها البهائم وتعرف أنه لا حقّ لها به، وتدرك معنى الانتقام لنفسها من ظالمها.

فالله تبارك وتعالى يقيم قانون عدله يوم القيامة حتى في البهائم، مع أنّها غير مكلفة بالشرائع الربانية، إذ لا عقل لها، ولا قدرة لديها على إدراك النهي والأمر والتكاليف الشرعية، لكنّها تدرك بما لديها من قدرة على المعرفة طائفة من معاني الظلم، وتدرك أنها من القبائح التي تستحق عليها العقاب إذا هي فعلتها، وتدرك أيضاً طائفة من معاني الإحسان وتدرك أنها من المحاسن التي ينبغي أن تكافأ بالتودد والطاعة والخدمة. وبما أنّ الله تبارك وتعالى قد منح البهائم أو طائفة منها هذا المقدار من الإدراك فإنّ من سننه أن يقيم فيها عدله، بمقدار ما تدرك من معاني الظلم والعدل والجزاء، حسب المنحة التي منحها الله إياها، وليس معنى هذا أنها مكلّفَة بشرائع منزّلة، وإنما هي قوانين وسنن لله ثابتة، وهي تنطبق على كلّ ذي حياة وإرادة وإدراك ما، قلّ أو كثر، ولكنّ الجزاء يكون على مقدار ما يحصل عند ذي الحياة والإرادة من إدراك، سواءٌ أنزلت بذلك شرائع أو لم تنزل، بخلاف تكاليف الدين والإيمان والعبادة، فإنّها لا ترسم على الكائن الحيّ ما لم تنزل بها شرائع ربّانية.

وعلى هذا الأساس نعاقب نحن في مفاهيمنا الإنسانية البهائم على بعض أعمالها، ألسنا نؤدّبها ونربيها بقانون الثواب والعقاب الذي تدركه بفطرتها؟ ألسنا نجد بعض البهائم تفرّ إذا هي ظلمت ظلماً تدركه، خوفاً من العقاب الذي تلاحظ أنها تستحقه وقد تتعرّض له؟ إنّ البهائم تشعر بكراهية من يظلمها ويعتدي عليها، وكثير منها يضمر في نفسه الانتقام من الذي ظلمه واعتدى

عليه، والظالم منها يحسب حساباً للانتقام ويتخوف منه. وهذا المقدار من المنحة الرّبّانية لها لا يُلغَى من حساب العدل، ما دام الظلم موجّهاً لكائن يطالب في نفسه بإقامة العدل، ولا يسامح به ظالمه.

لذلك فإن الله عزّ وجلّ يحشر البهائم مع ما يحشر من خلائق يوم القيامة، فيُعطي المظلوم منها حقّه من ظالمه، ثمّ يقول لها: كوني تراباً. فتموت وتكون تراباً، وعندئذ يتمنّى الكافر من الناس أن يعامل معاملة البهائم فيقول: يا ليتني كنت تراباً، وفي حشر البهائم قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

وجاء في كلام الرسول ﷺ ما يدلّ على الفائدة من حشرها، فمن ذلك القصاص من البهائم الظالمة في الدنيا للمظلومة منها، وذلك على مقدار إدراكها لمعنى الظلم الذي لا تقبله نفس من النفوس مهما قلت مداركها العامّة. ومن ذلك أيضاً تأديتها وظيفة الشهادة على الناس، بحسب مشاهدتها في الدنيا. ومن ذلك تسخيرها لتعذيب العصاة الذين عصوا الله بها في الدنيا، حينما كانت مذلّلة لهم، مسخّرة لمصالحهم وحاجاتهم. ومن ذلك مشاهدتها عقاب من ظلمها من الناس في الدنيا، وتعويضها عن ذلك طبق قانون العدل الربّاني، حتى إذا تمت الحكمة الإلهية من حشرها قضى عليها بأمره فكانت تراباً.

وشاهد هذا ما جاء في حديث ابن اللّتبية، فالذي يأخذ من الأموال ما ليس له به حقٌ يأتي يوم القيامة يحمله ويعاني عذاب حمله له، فإن كان ما أخذه حيواناً يأتي به حيّاً بشحمه ولحمه ودمه، وبصوته الذي كان يصوت به.

وثبت في الصحيح أيضاً أن من يمنع زكاة أمواله من الأنعام فإنه يعذّب بها يوم القيامة، إذ تأتي على أحسن ما كانت في الدنيا، فتنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها، أو بأخفافها، وتعضه بأفواهها، كلما مرّ عليه أولاها ردّ عليه أخراها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة.

ومن اعتدى على غيره في أرضه، فأخذ منها بغير حقٍّ عُذِّب يوم القيامة بالأرض التي غصبها، فَيُطَوَّقُها، سواء أخذها بالحيلة، أو باللصوصية، أو باستخدام القوّة، أو بغير ذلك.

أمّا كيف يكون هذا التطويق فلا نستطيع تصوّره على وجه الحقيقة، لأنه أمر من أمور الآخرة، ويكفينا أن نفهم منه هول التعذيب الذي يلقاه يوم القيامة غاصب الأرض في الدنيا، والمستولي عليها بغير حق. وأحوال الآخرة وأمورها مخالفة لما في الدنيا، وقياس ما يجري في الآخرة على ما يجري في الدنيا قياس غير صحيح، ومفاهيمنا عن الآخرة وأحوالها مفاهيم كليّة، وليست مفاهيم تفصيلية محدّدة الأشكال والصور، وما ثبت منها في نصوص الشريعة نؤمن به ونسلم تسليماً، دون زيادة عليه ولا تفصيل له.

وأرشد الرسول إلى محاسبة المسلم نفسه على الظلم ولو قضى له القاضي بما ليس له فيه حق.

روى البخاري ومسلم عن أم سلمة أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّما أنا بشر وإنكم تختصمون إليّ، ولعلّ بعضكم أن يكون ألحَنَ بحجّته من بعض فأقضي له بنحو ما أسمع، فمن قضيت له بحقّ أخيه فإنّما أقطع له قطعة من نار».

لعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض: أي لعلّ بعضكم أن يكون أفطن لتصيّد الحجّة التي تدعم دعواه، وأقدر على بيان الدليل الذي يقنع القاضي بأنه هو صاحب الحقّ، وأعرف بمداخل الكلام ومخارجه ووجوه دلالاته، فهو يزيّن أقواله ويزخرفها حتى يغلب على ظنّ سامعيه أنّه محقّ وأنّ خصمه مبطل، وربما يكون الواقع بخلاف ذلك.

إنّما أنا بشر: أي قد أحكم بحسب ما يظهر لي من البينات، وقد يكون الواقع بخلاف ذلك. وفي هذا دلالة على أنّ الرسول ﷺ ليس من لوازم نبوّته أن يطّلع على حقائق الأمور دائماً، وأن يكتشف خفايا الأشياء، وأن يستبطن ما تكنّه الصدور من أسرار، وأنه صلوات الله عليه في هذا بشرٌ من البشر، لا يعلم وراء ما يعلمه الناس بوسائلهم الإنسانية إلا ما يوحى إليه به، وكثير من

الأمور الإنسانية لا ينزل بها الـوحي، إذ لا يتعلق بها غرض تشريعي، فيكون الرسول ﷺ فيها كسائر الناس، معرّضاً لاحتمالات الصّواب والخطأ، بحسب ما يظهر له في الظّنّ الغالب، اعتماداً على الـدلائل والأمـارات، والحجج والبينات. والقضاء بين الناس في الحقوق من الأمور الإنسانية التي من شأنها أن يفصل بها القضاة من الناس، وليس من شأنها أن تنزل بها أقضية سماوية حتى ينزل الوحي في كل قضاء يقضيه الرسول، فيعرفه بصاحب الحقّ من الخصمين وبالمبطل منهما.

ولو كانت أقضية الرسول ﷺ بين المتخاصمين من الناس لا تتمّ حتى ينزل وحي يكشف للرسول المحقّ من المبطل، لما استطاع قاضٍ بعد الرسول أن يقضي في الإسلام، ولما عرف المسلمون بعد الرسول ﷺ كيف يكون منهج القضاء بين الخصماء، ولما تجرأ بعد الرسول على القضاء مسلم يخشى الله تعالى.

أما والرسول ﷺ في شأن القضاء واحتمالات الخطأ والصواب فيه بشرٌ من البشر، فإنه في هذا أسوة حسنة لكلّ من يتولّى القضاء بين الناس من بعده.

وقد أبان الرسول ﷺ، أنّه يوجد فريق من الناس يستغلّ بخلقه المنحرف ونفسه الظالمة الآثمة، ما وهبه الله من قدرة على إقامة الحجج وصَوْغ الأدلّة، والتصرف بوجوه الكلام، ليزيّن باطله فيجعله حقّاً، وليشوّه حقّ غيره فيجعله باطلاً.

ولا شكّ أنّ هذا يمثّل انهياراً خلقيّاً خطيراً، لأنّ فاعله يستخدم نعمة الله عليه في معصيته، ويستغلّ امتيازه على خصمه بقوّة البيان والقدرة على إدلاء الحجج وصوغ الأدلة وتزيينها لظلم خصمه وهضم حقّه عن طريق القضاء، الذي يعطيه بحسب ما ظهر له شرعيّةً كاذبة مزوّرة، يكون بموجبها محمياً من الإدانة بالجريمة أمام السّلطة، ومحميّ العرض تجاه الناس.

إنه لا فرق بين هذا وبين من يستغل قوته الجسدية، أو حيلته الحركية، أو ذكاءه في اللصوصية، أو سلطته الاجتماعية في العدوان على حقوق الناس، وسلبهم ونهبهم وظلمهم بغير حقّ، فكلاهما مجرم ظالم، إلاّ أن لكلٍّ منهما وسيلة يتخذها

للوصول إلى ارتكاب الجريمة. وربما يكون المجرم الواضح أهون شراً، لأنه ينبّه على نفسه، فيعامله الناس بالاحتراس، على أساس أنه غير مأمون الجانب، أما من يخادع الناس فيتظاهر أمامهم بالاستقامة والأمانة، ثمّ يعتدي على حقوق الضعفاء، ويستغل قوة بيانه أو قوة سلطانه، لتزوير الحقيقة والواقع، وقلب الحق باطلاً والباطل حقاً، فإنه شرّ المجرمَيْن وأخبثهما وأخطرهما، وأكثرهما فراراً من وجه العدالة في الأرض على أيدي الناس.

أمّا العدالة الربّانية فلا مفرّ منها لأحد، ومهما فرّ منها فارٌّ وجد نفسه يدور في قبضتها، وهذا ما حذّر منه الرسول ﷺ بقوله في الحديث: «فمن قضيت له بحقّ أخيه فإنّما أقطع له قطعة من نــار» أي فهو إن استطاع أن ينجو بحيلته وبيانه من قبضة العدالة على أيدي القضاة والحكام من الناس، فلن يستطيع النجاء من قبضة عدالة الله. إنّ ما يأخذه من حقّ أخيه بسلطان القضاء سيكون قطعة من نار جهنّم تكويه وتعذّبه يوم الدين.

وبيان هذه الحقيقة يتضمّن تربية خلقية، تجعل المسلم يرجع إلى نفسه فيحاسبها حساباً دقيقاً، على ما يعلم من الحقيقة وواقع الأمر، وتجعله حذراً من ظلم الناس والعدوان على حقوقهم، ولو استطاع أن يظفر بإقناع السلطة القضائية، وأن يثبت لها بالحجج والأدلة أنه صاحب حقّ، وأنّ خصمه مبطل، إنه يعلم أن من يحيط بكل شيء علماً لا تخفى عليه خافية، وأنه قادر على القبض عليه مهما أمهله.

١٢ ــ ولـمّـا كان الظلم من أقبح القبائح حرّمه الله على نفسه، وجعله بين عباده محرّماً، هذا ما جاء بيانه في الحديث القدسي الذي رواه مسلم عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربّه، وفيه أنّ الله تبارك وتعالى قال: «يا عبادي، إنّي حرّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرّماً، فلا تظالموا».

في هذا الإعلان الربّاني بيان أنّ الله سوّى عباده بنفسه في موضوع الظلم، فحرّمه على نفسه كما حرّمه على عباده، وإذ حرّمه الله على نفسه فهو لا يظلم أحداً مثقال ذرّة، قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ ﴾.

وحين يقيم الله عدله في عباده، فإنه لا يظلمهم شيئاً، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم، قال الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

١٣ ـ والظلم ظلمات على صاحبه يوم القيامة، روى مسلم عن جابر بن عبدالله، أنّ النبي ﷺ قال: «اتقوا الظلم فإنّ الظلم ظلماتٌ يوم القيامة، واتقوا الشحّ فإن الشحّ أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلّوا محارمهم». أي: استحلّوا ما حرّم الله عليهم.

وروى البخاري ومسلم عن ابن عمر، أنّ النبي ﷺ قال: «الظلم ظلمات يوم القيامة».

والظلمة يوم القيامة يرافقها العذاب، أمّا الظلمات يوم القيامة فيرافقها ألوان من العذاب.

بخلاف النور يوم القيامة فإنه يومئذٍ يرافقه النعيم الذي تفيضه رحمة الله على الصالحين.

والدليل على ذلك قول الله تعالى في سورة (الحديد ٥٧):

﴿ يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾.

فهذان قسمان من الناس يوم القيامة:

الأول: المؤمنون والمؤمنات، وهؤلاء نورهم معهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، وقد رافق النور نعيم لهم مقيم، في جنات هم فيها خالدون.

الثاني: المنافقون والمنافقات، وهؤلاء يتخبّطون في الظلمات، يلتمسون نوراً فلا يجدون، وقد رافق ظلماتهم عذاب لهم أليم.

والفاصل بين هذين القسمين سورٌ، باطنه فيه الرحمة، وظاهره من قبله العذاب، هؤلاء في الجناح المضيء المغمور بالنعيم، وأولئك في الجناح المظلم المغمور بألوان العذاب.

١٤ ــ والله تبارك وتعالى قد يمهل للظالم ولكنّه لا يهمله، فإذا أخذه، أخذه أخذَ عزيز مقتدر، وكم يمكر الظالم فيوقعه الله في مكره، وكم يكيد فيرميه الله في مكايده، وربّما حفر حفرة لغيره فكان هو ضحيّتها، وربما نصب شَرَكاً لغيره فوقع هو فيه.

روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله يملي للظالم، فإذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ رسول الله ﷺ قول الله تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[1].

١٥ ــ ودعوة المظلوم مستجابة ليس بينها وبين الله حجاب، روى البخاري ومسلم عن معاذ بن جبل قال: بعثني رسول الله ﷺ فقال: «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أنّ الله افترض عليهم خمس صلوات في كلّ يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أنّ الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردّ على فقرائهم، فإنْ هم أطاعوا لذلك، فإيّاك وكرائم أموالهم، واتّق دعوة المظلوم فإنّه ليس بينها وبين الله حجاب».

وروى البيهقي في شعب الإيمان، عن علي بن أبي طالب، رضي الله

---

(١) سورة هود: آية ١١.

عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إيّاك ودعوة المظلوم، فإنّما يسأل الله حقّه، وإنّ الله لا يمنع ذا حقٍّ حقّه».

فعلى الذين تحدّثهم أنفسهم بظلم الناس أن يضعوا في حسابهم أنّ الله لهم بالمرصاد.

١٦ ــ والظلم بالقتل أوّل ما يقضى به يوم القيامة، اهتماماً بشأنه، روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أوّل ما يُقضَى بين الناس يوم القيامة في الدّماء».

١٧ ــ ومن كمال عدل الله: أنّ كلّ ظالم يظلم غيره وهو يدرك معنى الظلم، فإنّ الله تبارك وتعالى ــ يوم القيامة ــ سيمكّن المظلوم منه ليقتص، أو يأخذ حقه، حتى المظالم التي تجري بين البهائم كما سبق بيان ذلك.

أمّا الحقوق الأخرى كالحقوق المالية فإنها تؤدّى من صحف الأعمال، روى البخاري عن أبـي هريرة، أنّ النبـي ﷺ قال: «من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شيء فليتحلّله منه اليوم، قبل أن لا يكون دينارٌ ولا درهم، إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته، وإنْ لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحُمِل عليه».

فرؤوس الأموال التي يُتقاضى منها يوم القيامة هي الأعمال.

وروى مسلم عن أبـي هريرة، أنّ رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من المفلس؟».

قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع.

فقال: «إنّ المفلس من أمّتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثمّ طرح في النار».

نعم: هذا هو أسوأ المفلسين حالاً.

وروى الإمام أحمد والبيهقي في شعب الإيمان، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ:

«الدواوين ثلاثة:

* ديوان لا يغفره الله، الإشراك بالله، يقول الله عز وجل:

﴿إنّ الله لا يغفر أن يُشرك به﴾.

* وديوان لا يتركه الله، ظلم العباد فيما بينهم حتى يقتصّ بعضهم من بعض.

* وديوان لا يعبأ الله به، ظلم العباد فيما بينهم وبين الله، فذاك إلى الله، إن شاء عذّب به، وإن شاء تجاوز عنه».

المراد من الدواوين صحائف أعمال الناس.

١٨ ــ وفي التحذير من ظلم من بدأ يومه بعبادة الله فأصبح في ذمة الله روى مسلم عن جندب بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ:

«من صلّى صلاةالصبح فهو في ذمّة الله، فلا يطلبنّكم الله من ذمّته بشيء، فإنه من يطلبْه الله من ذمّتِهِ بشيء يدركْه ثمّ يكبّه على وجهه في نار جهنم».

في هذا الحديث تحذير شديد من ظلم المسلمين، لا سيّما الذين يضعون أنفسهم في ذمّة الله، إذ يؤدّون واجب أوّل النهار تجاه ربّهم، فتتجافى جنوبهم عن المضاجع يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وينهضون إلى عبادة الله، فيحضرون صلاة الصبح، ويشهدون الخير مع المؤمنين.

والذّمة في اللّغة تأتي بمعنى العهد، وبمعنى الكفالة والضمان، وبمعنى الأمان، ويبدو أن المناسب هنا هو معنى الكفالة والضمان، فمن صلّى صلاة الصبح فهو في كفالة الله وضمانه، ومن كان في كفالة الله انتصر الله له وحماه ممن يريده بظلم أو يبغيه بسوء.

وحينما يكون إنسان في كفالة الله فإنّ كفالة الله له تستلزم حقاً على الناس مسلّطاً عليهم من الله تعالى، أن لا يتعرّضوا بأذى لمن كان في ذمّة الله، فمن ظلم واعتدى على حقّ الله في ذمته، طلبه الله لإقامة عدله فيه، ومنْ يطلبْه الله من ذمته بشيء يدركْه لا محالة، ثم يكبّه على وجهه في النار.

فحقّ المؤمن القائم بواجباته نحو ربّه حقّ عظيم، مضمون بضمان الله، مكفول بكفالته، وهذه إحدى منح الله تعالى للمؤمنين، والعاقل الحصيف المؤمن هو الذي لا يأتي إلى مواقع النار فيدس نفسه فيها.

ـ ٥ ـ
أبواب من الظلم بأكل أموال الناس بالباطل

(أ) مقدمة عامّة:

لـمّـا كان أكل أموال الناس بالبَاطل من فروع ظلم الناس للناس، فقد جعله الله من كبائر المحرَّمات، وشدّد الرسول ﷺ فيه تشديداً عظيماً.

قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾.

فقد رتّب الله على أكل أموال الناس بالباطل وعلى قتل الأنفس أنه من يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف يصليه الله ناراً.

وخطب الرسول ﷺ خطبته المشهورة في حجّة الوداع فقال فيها:

«إنّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا في بلدكم هذا»[1].

وثبت في الصحيح أنّ الرسول ﷺ قال:

«كلّ المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه».

وروى البخاري ومسلم عن سعيد بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ:

«من أخذ شبراً من الأرض ظلماً، فإنّه يُطوّقه يوم القيامة من سبع أرضين».

وروى مسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا يحلُبَنّ أحدٌ ماشية امرىءٍ بغير إذنه، أيحبّ أحدُكم أن يؤتى مَشْرَبَتَهُ فتكسَر خِزانته فيُنْتَقل طَعامُه؟ وإنّما يخْزُنُ لهم ضُروع مواشيهم أطْعِماتهم».

مَشْرَبَتُه: غرفته التي يخزن فيها الطعام وغيره. فشبّه الرسول ﷺ ضروع مواشي الناس بمخازن أطعمتهم التي يحرم أخذ شيء منها إلاّ بإذن أصحابها، واعتبر ذلك من نوع السرقة.

وروى البيهقي في (شعب الإيمان) والدارقطني في (المجتبى) عن أبي حُرّةَ الرَّقاشي، عن عَمّه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«ألا لا تظلموا، ألا لا يحلّ مالُ امرىء مسلم إلاّ بطيب نفسٍ منه»[2].

وروى الترمذي عن عمران بن حصين، أن النبي ﷺ قال:

«ومن انْتهب نُهبةً فليس منّا».

وروى البخاري عن سالم عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ:

«من أخذ من الأرض شيئاً بغير حقّه، خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين».

---

(١) من حديث طويل رواه مسلم عن جابر بن عبدالله وفيه قصة حجة الوداع.

(٢) مشكاة المصابيح رقم الحديث (٢٩٤٦).

ولعل هذا يفسر معنى يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين، الواردة في الحديث السابق.

(ب) الـربـا:

ومن أكل أموال الناس بالباطل ــ وهو من الظلم الذي يتواضع الناس على الاعتراف به واتخاذ صيغ قانونية له، على خلاف شريعة الله ــ أكل الأموال عن طريق الربا المحرم في دين الله.

وقد سماه الله ظلماً، فقال تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾.

وكان هذا النص آخر نص نزل في تحريم الربا كله قل أو كثر، وأبان الله فيه أنه ظلم، فقال: ﴿وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون﴾.

وروى مسلم عن جابر قال: لعن رسول الله ﷺ آكل الربا، وموكله، وكاتبه، وشاهديه، وقال: «هم سواء».

وروى الإمام أحمد وابن ماجه والبيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنّ الربا وإن كثر فإنّ عاقبته تصير إلى قُلّ».

أي: إلى قلّة.

وروى الإمام أحمد وابن ماجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«أتيتُ ليلة أُسري بي على قومٍ بطُونهم كالبيوت، فيها الحيات، تُرى من خارج بطونهم، فقلتُ: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا».

(ج) الـغـشّ:

ومن أكل أموال الناس بالباطل ــ وهو من الظلم ــ أكل المال عن طريق الغش.

وللغش أنواع كثيرة وصور شتى، ترجع معظمها إلى المخادعة بإظهار شيء وإخفاء خلافه في باطنه، ومن ذلك الكذب في التعريف بالشيء فيعرف الرديء بأنه جيّد، وذو السعر الرخيص بأنه من الصنف ذي السعر الغالي.

ومن الغش دسّ الرديء في ثنايا الجيد، وبيعه جميعاً بقيمة الجيد، دون بيان الواقع والحقيقة.

ومن الغش أن يقول البائع: اشتريته بكذا، ليخدع المشتري فيرضى بأن يربح عليه مقداراً من المال، مع أن البائع كان قد اشتراه بأقلّ ممّا ذكر.

فكم يخلط التجار السّمن الرديء بالسمن الجيد ويبيعون الجميع على أساس أنه من السّمن الجيّد، ويخلطون الزيت الرديء بالزيت الجيد ويبيعون الجميع بقيمة الزيت الجيد.

ونظير ذلك يفعلون في سائر الأطعمة، وفي الأقمشة، وفي الأثاث، وغير ذلك.

وعند البنائين والمهندسين ألوان من الغش، وعند الأطباء والصيادلة ألوان من الغش، وعند المعلمين ألوان من الغش، وعند الصناع ألوان من الغش، وعند العمال ألوان من الغش.

وكلّ أنواع الغش لابتزاز الأموال ترجع إلى أنها صورة ماكرة من اللصوصية، مقنعة بأقنعة تعامل في عقود مشروعة بحسب ظاهرها، ولكن كلّ مال يكتسبه الإنسان عن طريق الغش هو مال حرام، وهو سحت، وظلم، وهو من أكل أموال الناس بالباطل.

وقد أبان الرسول ﷺ أنّ من غشّ المسلمين فليس منهم.

روى مسلم عن أبـي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال:

«من حمل علينا السلاح فليس منّا، ومَنْ غشّنا فليس منا».

وروى مسلم عن أبـي هريرة أيضاً، أن رسول الله ﷺ مرّ على صُبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً، فقال: «ما هذا يا صاحب الطعام؟».

قال: أصابته السماء يا رسول الله.

قال: «أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس؟! من غشنا فليس منّا».

صبرة طعام: كَوْمٌ من طعامٍ بُرٍّ أو شعير أو نحو ذلك.

(د) **الاحتكـــار:**

ومن أكل أموال الناس بالباطل ــ وهو من الظلم ــ إغلاء الأسعار عن طريق الاحتكار، لابتزاز أموال الناس بافتعال قلة العرض مع وجود كثرة الطلب.

إنّ التجارة في الأصل نظام شرعه الإسلام وأذن به لتسهيل مصالح الناس، والربح الذي يأخذه التاجر إنما هو تعويض لخدماته التي يقوم بها في تسهيل مصالح ذوي الحاجات، بتسخير ماله، وبتسخير قدراته الفكرية والجسدية.

فإذا احتكر التاجر ما لديه من سلع، أو احتكر مجموعة من التجار ما لديهم من السلع، بأي لون من ألوان الاحتكار الخاص أو العام، فقد خالفوا أصل هذا النظام، والغاية منه، وألجأوا أصحاب الحاجات إلى قبول أخذ السلع المحتكرة بأكثر من أثمانها الحقيقية.

إن المال الذي يؤخذ زيادة على الربح المقبول عرفاً والذي يحصل بسبب الاحتكار مالٌ يؤخذ بالباطل، إذْ هو ليس مقابل خدمات تجارية صحيحة، ولم يؤخذ بالرضا الحقيقي من قبل المشترين، وإنما ألجئوا إلجاءً لدفع القيم الزائدة لضروراتهم وحاجاتهم؛ وقد استغل المحتكرون ظرفاً ملائماً للاستغلال، أو سلطة

من السلطات حصرت توريد البضاعة في أيديهم، ولم يأتِ ارتفاع السعر أمراً طبيعياً دون عمل مفتعل دبّره المحتكرون بمكر شيطاني.

وقد تتسع دوائر الاحتكار حتى تكون دولية كبرى تديرها مؤسسات عالمية لها فروع وأجراء وعملاء في معظم دول العالم.

فالمحتكرون من التجار يخونون العمل الذي أطلقت أيديهم فيه، ويخونون أماناتهم، ويخلّون بالغاية من نظام التجارة، فما يأكلونه من مالٍ بسبب الاحتكار إنما يأكلونه بالباطل.

وليس للمحتكرين أن يقولوا: إنّما هي تجاراتنا، ونحن فيها أحرار نصنع ما نشاء، وليس لأحد أن يجبرنا أن نبيع ما نملك من سلع، وذلك أنّ الله الذي منحهم حق الربح العادل في التجارة مقابل جهدهم، هو الذي حرّم عليهم الاحتكار وهو الذي حرم عليهم أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل.

وقد أبان الرسول ﷺ أن المحتكر خاطىء، أي مذنب عاصٍ، وأنه ملعون، وأنذر محتكري الطعام بالجذام والإفلاس، وبأنه يبرأ من الله ويبرأ الله منه.

روى مسلم عن معمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من احتكر فهو خاطىء» أي: عاصٍ.

وروى ابن ماجه والدارميّ عن عمر بن الخطاب، أنّ النبي ﷺ قال: «الجالب مرزوق، والمحتكر ملعون».

وروى ابن ماجه والبيهقي في (شعب الإيمان) عن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالجذام والإفلاس».

وروى رزين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من احتكر طعاماً أربعين يوماً يريد به الغلاء فقد برىء من الله وبرىء الله منه».

وروى البيهقي في (شعب الإيمان) عن معاذ بن جبل قال: سمعت

رسول الله ﷺ يقول: «بئس العبد المحتكر، إن أرخص الله الأسعار حزن، وإن أغلاها فرح».

(هـ) الميســـر:

ومن أكل أموال الناس بالباطل ــ وهو من الظلم ــ أكل أموال الناس عن طريق الميسر، وهو القمار بكل أنواعه وأشكاله وصوره.

وقد وصف الله الميسر بأنه رجس من عمل الشيطان، فقال تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾.

إنّ المال الذي يؤكل عن طريق القمار هو من الظلم والبغي على حقوق الآخرين، ولو كان بتراضي المتقامرين، لأنهما لا يتقامران إلّا وعلى فكر كلٍّ واحد منهما غشاوة شيطانية تصوّر له أنه سيكون هو الرابح، ولو علم أنه سيخسر لا محالة فإنه لا يقامر، فهو طامع مطموس البصيرة، مدفوع بالأمل الكاذب، والله تعالى لا يسمح للمؤمن أن يكون فريسة أوهامه ومطامعه، حتى يندفع إلى خسارة يكون بها نادماً على ما بدأ من عمل، ومعلوم تماماً أن أحد المتقامرين لا بدّ أن يكون خاسراً لا محالة.

والمال الذي يؤكل بالقمار ليس تعويضاً عن جهد يبذل لصالح دافع المال، وليس بدلاً عن شيء ذي قيمة يدفعه آخذ المال وليس منحة يمنحها باذل المال بحريّة تامة، وإنما هي حيل شيطانية تلبس ثوب عمل قائم على التراضي بين المتقامرين، ليسلب كل منهما مال صاحبه مستخدماً ما لديه من حيلة ودهاء ومهارة في الحركة.

والسلب القائم على المقامرة يشبه من يتقاتلان ظلماً وعُدواناً، على أن الغالب منهما هو الذي يسلب حياة الآخر، ثم ماله وأرضه وكلّ ما هو له.

يضاف إلى ذلك ما في القمار من رجس آخر يتمثل بالعداوة والبغضاء اللذين يورثهما، ويتمثل بأنه يصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة، ثم ما يورثه من إتلاف للجملة العصبية، وما يرافقه من منكرات أخرى.

(و) **السرقــة**:

ومن أكل أموال الناس بالباطل ــ وهو من الظلم ــ أكل أموال الناس عن طريق **السرقة**.

وحماية لأموال الناس من أيدي اللصوص، قرّر الإسلام أنّ من ثبتت عليه السرقة دون شبهة، وكان من أهل التكليف، وكان ما سرقه يساوي ربع دينار فأكثر، وعند أبـي حنيفة يساوي عشرة دراهم فأكثر، يعاقب بقطع يده، وهذا حدّ شرعي فرضه الله على الحكم الإسلامي، والمجتمع المسلم.

قال الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾.

وروى البخاري ومسلم عن أبـي هريرة عن النبـي ﷺ قال:

«لعن الله السارق، يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده».

أي يسرق البيضة أولاً فيعتاد حتى يسرق ما قيمته ربع دينار فأكثر فتقطع يده إذا انكشف أمره، ورفع إلى حكم الإسلام.

أو كان القطع بأقل مقدار يساوي بيضة الدجاجة، ثم حدّد الرسول ﷺ النصاب الذي تقطع فيه اليد بربع دينار.

روى البخاري ومسلم عن عائشة عن النبـي ﷺ قال:

«لا تقطع يد السارق إلاّ بربع دينار فصاعداً».

وروى البخاري ومسلم عن ابن عمر قال: قطع النبـي ﷺ يد سارقٍ في مِجَنٍّ ثمنه ثلاثة دراهم.

المِجَنّ: الترس.

وبتطبيق حدّ الإسلام في القطع تحفظ الأموال والأرواح، ويستتب الأمن، وحين تركت بلادٌ كثيرة من بلاد المسلمين هذا الحدّ الشرعي انتشرت فيها جرائم السرقة والقتل بنسبة واسعة جداً، من أجل الحصول على الثراء غير المشروع.

وتبعت هذه البلاد النظم الوضعية المستوردة من أوروبا، فانتقلت إليها أوبئة الجرائم الموجودة في بلاد غير المسلمين، وضعفت بترك حدود الإسلام شروط الأمن، فكثرت الجرائم، وفسد حال المجتمع، وكانت البلاد في عافية من معظم هذا الفساد الذي انتشر، لو أنّها حافظت على تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، التي تردع الناس متى نفذت في عدد قليل من المجرمين، والتجربة الواقعية في بعض بلاد المسلمين أثبتت ذلك.

من أجل ذلك كان الرسول ﷺ متى رفع إليه أمر السارق أمر بقطع يده، وقال: «لو أنّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

ثبت هذا في الصحيح، كما جاء في حديث المرأة المخزومية التي سرقت، وأراد بعض المسلمين أن يشفعوا لها عند رسول الله ﷺ، فدفعوا لذلك أسامة بن زيد.

وروى النسائي عن عائشة قالت: أتى رسول الله ﷺ بسارقٍ فقطعه، فقالوا: ما كنّا نُراك تبلغ به هذا، فقال:

«لو كانت فاطمة لقطعتها».

(ز) الغلول:

ومِنْ أكل أموال الناس بالباطل، وهو حرام وظلم، أن يأخذ الولاة والموظفون من الأموال العامة بغير حق، فمن فعل ذلك فقد غلّ، قال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾.

وروى الإمام أحمد عن المستورد بن شداد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«من ولي لنا عملاً وليس له منزل فليتخذ منزلاً، أو ليس له زوجة فليتزوج، أو ليس له خادم فليتخذ خادماً، أو ليس له دابّة فليتخذ دابة، ومن أصاب شيئاً سوى ذلك فهو غالّ».

وروى الترمذي عن معاذ بن جبل قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن، فلـمّـا سرت أرسل في أثري فَرُدِدت، فقال:

«أتدري لِـمَ بعثتُ إليك؟ لا تصيبن شيئاً بغير إذني فإنه غلول ﴿ومن يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة﴾ لهذا دعوتك، فامض لعملك».

وروى البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة قال: قام فينا رسول الله ﷺ يوماً فذكر الغلول فعظّمه وعظّم أمره، ثم قال:

«لا أُلفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد بلّغتك. لا ألفينّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس لها حمحمة فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد بلّغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت، فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد بلّغتك».

وروى أبو داود بإسناد صحيح عن بريدة عن النبـي ﷺ قال:

«من استعملناه على عمل فرزقناه رزقاً فما أخذ بعد ذلك فهو غلول».

وروى مسلم وأبو داود واللفظ له عن عديّ بن عَميرة، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«يا أيها الناس من عمل منكم لنا على عمل فكتمنا منه مخيطاً فما فوقه فهو غالّ يأتي به يوم القيامة».

فقام رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله، اقبل عنّي عملك. قال: «وما ذاك؟» قال: سمعتك تقول: كذا وكذا، قال: «وأنا أقول ذلك، من استعملناه على عمل فليأت بقليله وكثيره، فما أوتي منه أخذه، وما نُهي عنه انتهى».

(ح) الـرشوة:

ومن الغلول الرشوة، بل هي أقبح، لأنها تفسد ضمير ذي السلطان، وتجعله يهضم الحقوق الخاصة والعامة من أجل مصلحة الراشي.

وأقبح الرشوة ما يأخذه القضاة، فبها يعين القاضي الظالم على ظلمه، ويعطيه الحق بسلطة القضاء، وبها قد يبرّىء القاضي الجاني والمجرم.

وبالرّشوة يَفسُد جهاز الدولة كلُّه، ويغدو ألعوبة بأيدي المجرمين وأصحاب الأهواء والظالمين الذين لهم أموال يبذلونها رشوة لمن بأيديهم السلطان أو شيء منه.

ولذلك لعن رسول الله ﷺ الراشي والمرتشي والرائش الذي يمشي بينهما.

روى أبو داود وابن ماجه والترمذي بإسناد صحيح عن عبدالله بن عَمْرو قال: لعن رسول الله ﷺ الراشي والمرتشي.

ورواه الترمذي عن أبي هريرة أيضاً.

وروى أحمد والبيهقي في (شعب الإيمان) عن ثوبان، قال: لعن رسول الله ﷺ الرّاشي والمرتشي والرائش.

يعني بالرائش الوسيط الذي يمشي بينهما.

وحين يفسد جهاز الحكم ولا يستطيع صاحب الحقّ أن يصل إلى حقه إلا برشوة يبذلها لذي السلطان فماذا يفعل؟

الظاهر في مثل هذه الحالة التي لا يجد صاحب الحق معها وسيلة أخرى يصل فيها إلى حقه، فإنّ بذله للرشوة ليصل إلى حقه، دون أن يهضم حقّ أحد لا يجعله مشمولاً باللّعن الذي ورد في الحديث والله أعلم. وهي ظلامة يدفعها لإنقاذ حقه من يد ظالم.

ولكنّ الأمة التي تصل إلى مثل هذه الحالة أمة محكوم عليها بالنتائج الوخيمة، وبالهلاك المحقق.

وقد تأخذ الرشوة صورة هدية لذي السلطان، وقد حرمها الرسول ﷺ أيضاً، وأبان أنّ عقوبتها مثل عقوبة الغلول.

روى الإمام أحمد بسنده أنّ النبي ﷺ استعمل رجلاً من الأزد يقال له: ابن اللتبية على الصدقة، فجاء فقال: هذا لكم، وهذا أُهدي لي، فقام رسول الله ﷺ على المنبر فقال: «ما بال العامل نبعثه على عمل فيقول: هذا لكم وهذا أهدي لي!! أفلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى إليه أم لا؟ والذي نفس محمد بيده، لا يأتي أحدكم منها بشيء إلاّ جاء به يوم القيامة على رقبته، إن كان بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر» ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطية، ثم قال: «اللهم هل بلغت»؟.

(ط) الغصب والنهب وغير ذلك:

ومن أكل أموال الناس بالباطل ــ وهو حرام وظلم ــ أنواع أخرى من أخذ أموال الناس بدون حقّ مشروع، كالغصب، والنهب والسلب بالقوة، واستيلاء الحكام على أموال الرعيّة ظلماً وعدواناً بسلطان القوة، أو بالقرارات والقوانين الظالمة الآثمة المنافية لمقتضيات الحق والعدل.

ومن أكل أموال الناس بالباطل الغبن الفاحش في البيع والشراء، لأنّ فيه استغلالاً لغفلة الإنسان عن القيمة الحقيقية للسلعة، وتغريراً له حتى يدفع ثمناً باهظاً في سلعة لا تساوي هذا الثمن، وليس في عرف الناس أن يتغابنوا في حدود هذا الفرق الكبير.

* * *

الفَصْل الثَالِث

قُــــوَّة الإِرَادَة

— ١ —

قوة الإرادة من الأسس العامة للأخلاق

من الأسس العامة التي ترجع إليها مجموعة من الفروع والمفردات الخلقية المحمودة قوة الإرادة.

ويأتي في مقابل هذا الأساس الخلقي خلق ضعف الإرادة، الذي ترجع إليه مجموعة من الرذائل الخلقية في السلوك الإنساني.

إذا كان الإنسان يمثّل مملكة كاملة، فهذه المملكة تشتمل على سلطة تشريعية، وسلطة تنفيذية، وجمهورٍ هو رعيّة، وهيئة وعظ وإرشاد وأمر بمعروف ونهي عن منكر.

أمّا السلطة التشريعية في مملكة الإنسان السويّ فيمثّلها الفكر، إذْ يقوم بوظيفة التنبيه والإرشاد وإصدار الأحكام التوجيهية، وإعطاء قوانين الإدارة والسلوك في هذه المملكة، ويستمدّ الفكر ما يبتّه من أحكام من عدّة مصادر، من الحكمة الفكرية التي فطر الله العقول عليها، ومن الواقع التجريبـي، ومن المعارف التي توصّل إليها الناس من قبل، ومن الشرائع الربّانية.

وأمّا السلطة التنفيذية في مملكة الإنسان السويّ فتمثّلها إرادته، وإنّها تملك هذه السلطة متى كانت قوية حازمة عاقلة. أمّا إذا كانت ضعيفة فإنها تتخاذل

وتستكين وتخضع لأهواء الجمهور، أو يستبدّ بها ذو قوة من أفراده، أو يسيّرها شخص آخر ذو إرادة قوية، استطاع أن يفرض سلطانه عليه.

وأمّا الجمهور في مملكة الإنسان فهو جمهور الأهواء والشهوات والغرائز النفسية، ولكل فرد من أفراد هذا الجمهور مطالب عاقلة صالحة، ومطالب رعناء فاسدة مفسدة، ولا يصح في منطق العقل والواقع تلبية مطالب كلّ فردٍ من أفراد هذا الجمهور، لأنّ ذلك يدفع بمملكة الإنسان إلى الفساد والفوضى والخراب. لذلك كان على الإرادة الحازمة العاقلة أن تلبّـي من هذه المطالب ما تأذن السلطة التشريعية بتلبيته، وأن ترفض منها ما لم تأذن السلطة التشريعية به، لما فيه من ضرّ، أو شرّ، أو أذى، أو مخالفة لأوامر الله ونواهيه.

فالمفروض في الإرادة داخل مملكة الإنسان السوي أن تأتيها الأحكام والتعليمات والتوجيهات والقوانين من الفكر، وأن تقوم هي بدور سلطة الأمر التنفيذي.

وعلى مقدار استقامة الإنسان في سلوكه نستطيع قياس مقدار قوّة إرادته.

وعلى مقدار انحراف الإنسان في سلوكه وتخبطه مع أهوائه وشهواته ونزواته وغرائزه نستطيع قياس مقدار ضعف إرادته، وإن وجدناه فيما يتصل بأهوائه وشهواته ومطامعه جادّاً وحازماً، لأنّ أهواءه وشهواته ومطامعه وغرائزه ونزواته هي التي ركبت إرادته، وجعلت تسوقُها إلى تحقيق مطالبها، مسخّرة كلّ طاقاته، ومُنفِقةً كلّ أوقاته في ذلك.

إنّ مطالب الجمهور داخل مملكة الإنسان قد تتوافق، وقد تتعارض، وقد تكون مصلحة الإنسان الكبرى في رفض بعضها، لأنها عمياء رعناء لا حدود لها، ولها عواقب مفسدة وضارّة، وحكمة السلطة التنفيذية وكمال عملها الإداري إنما يكونان بالقدرة على التحكم في الموافقة على تلبية المطالب أو رفضها ضمن حدود المصلحة الكبرى، وضمن حدود الخير، وعلى وفق ما تمليه السلطة التشريعية التي هي بمعزل عن الاتّهام بالسعي وراء مصلحة خاصة ضدّ مصلحة الجمهور، فهي منه وهو منها.

وحين تنبحُ بعضِ الأهواء والشهوات والغرائز الجانحة في داخل مملكة الإنسان، وتلحّ متظاهرةً عليه، فإنّ الإرادة القويّة الحازمة تسكتها بما لا ضرّ فيه ولا أذى مما أذن الله به. فإن استزادت وأرادت التجاوز إلى ما حرّم الله ممّا فيه ضرّ أو أذى أو معصية لله، أسكتتها الإرادة القوية العاقلة الحازمة بـالكبح والصد، واتخذت كل الوسائل التربوية الحكيمة لحسم العلّة ومداواة الداء. والإرادة القوية العاقلة الحازمة لا تكون في مثل هذه الحالة مفرطة في ديمقراطيتها تجاه جمهور الأهواء والشهوات والنزوات والغرائز الجاهلة الشرهة الرعناء. وحين يستبدّ الجمهور أو بعض أفراده بتوجيه السلطة التنفيذية فعلى مملكة الإنسان السلام، إذ تعمها الفوضى ويسودها الفساد والخراب، ثم الدمار.

وأمّا هيئة الوعظ والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مملكة الإنسان السوي فيمثّلها الضمير، وواعظ الله في قلب المؤمن.

الضمير مرآة النفس الإنسانية تبثّ للإنسان صور الخير والفضيلة، فتذكّره بها، وتلمس مشاعره الداخلية محرّضة لها على فعل الخير والفضيلة، واجتناب الشرّ والرذيلة، وليس له سلطة تنفيذية، وإنما له قوة التأثير الوجداني، وعنده انشراح الرضا، أو وخزات التلويم والتثريب.

ـ ٢ ـ
ضابط قوة الإرادة

إنما تكون الإرادة القوية خلقاً محموداً إذا كانت مقرونة بالعلم والعقل والحكمة في التصرف، وإلاّ كانت سلاحاً خطيراً ضاراً.

فحين تكون الإرادة قوية ومقرونة بالعلم والعقل الدرّاك، تكون تصرفاتها الشخصية والاجتماعية تصرفات حكيمة نافعة.

وحين تكون الإرادة ضعيفة، أو غير مقرونة بالعلم والعقل الدرّاك، فإنّ تصرفاتها الشخصية والاجتماعية تكون في الغالب تصرفات غير حكيمة وغير نافعة.

إنّ الإرادة القوية التي لا تكون مقرونة بالعلم والعقل، تكون مصيبة على صاحبها، ومصيبة على كل من يرتبط به أو يخضع له طائعاً أو مكرهاً. إنّ هذه الإرادة قد تدفع إلى التهلكة وأنواع المصائب، وقد تُحمِّل صاحبها ومن يرتبط به أو يخضع له من التكاليف والمشاق ما لا طاقة لهم به، وقد تدفع بهم إلى المآزق الكبرى الجسدية والنفسية، وترمي بهم في المخاطر.

إنّ من الناس من يتمتعون بإرادة قوية جداً، إلّا أنهم حمقى، لا يتحلون بعقل حصيف يعقلهم، ويضبط تصرفاتهم بضوابط الحكمة. وهؤلاء نكبة على أنفسهم وعلى مجتمعهم، فإذا اتجه أحدهم للضغط على نفسه عن طريق العبادة مثلاً أهلكها وأشقاها في غير ما شرع الله لعباده، زاعماً أنّ ما يفعله ويشقى به هو من فضائل السلوك التي تقربه إلى الله تعالى، مع أنّ الله غنيّ عن تعذيبه نفسه وجسده، وقد أمر في شريعته باليسر ولم يأمر بالعسر. وإذا قاد أحدهم عصابة وانقادوا له أهلكهم مشقّة وإعناتاً، لأنه بقوة إرادته يحزم عليهم، ويعطيهم مثلاً عمليّاً بقهر النفس والتغلّب عليها، ولكنه بجهله وحماقته ونقص عقله يوردهم موارد التهلكة، وضعف الإرادة في مثل هذه الحالة أهون شرّاً وأخف ضُرّاً.

كم من مربّ قوي الإرادة غير عاقل، يفسد من يشرف على تربيتهم بتصرفاته غير الحكيمة.

وكم من إداري قوي الإرادة غير عاقل، هو فاشل في إدارته مفسد لها، يديرها بالضغط والكراهية، وبالعنت والمشقة ثم تكون قوّة إرادته وبالاً عليه، بعد أن تجر أنواعاً من المصائب عليه وعلى غيره.

وكم من تاجر قوي الإرادة غير عاقل، يغامر بقوة إرادته مغامرات تسرع به إلى حضيض الإفلاس.

وكم من طالب علم نهم لتحصيل المعارف، تجني عليه إرادته القوية غير العاقلة، حتى تخرّب طاقاته الفكرية والجسدية، لأنه بقوة إرادته يبذل كل ما لديه من طاقات معدّة للبذل وطاقات احتياطية، حتى يفرغ آخر نقطة في وعائه، وعندئذٍ يرمي نفسه في العجز والضعف، ويلقي نفسه بيده إلى التهلكة، وتنبيهاً

على ضرورة الأخذ بالعقل والحكمة في هذا المجال، جاء في كلام العرب: «إنّ المنْبتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى» وهو مُطرِّف كما جاء في «لسان العرب» لابن منظور.

المنبتّ: هو الذي يحثّ دابته حثّاً شديداً، حتى تعطي كلّ ما لديها من قوة على الجري، وبذلك تهلك وتنقطع في بعض الطريق، فيكون صاحبها منبتاً، أي: منقطعاً في طريقه، فلا هو قطع الأرض التي يريد اجتيازها، ولا هو أبقى دابته التي يعلو ظهرها.

فقوة الإرادة وحدها من غير عقل يضبط تصرفاتها ضمن حدود الحكمة، سلاحٌ خطير قد يكون وبالاً، وسبباً من أسباب الفشل والهلاك. أما إذا اقترنت بالعقل والحكمة في التصرف فإنها عندئذ تكون أساساً خلقياً عظيماً، ينجم عنه فضائل خلقية جليلة.

وضعف الإرادة عند الإنسان مرض خلقي قبيح، ينجم عنه رذائل كثيرة في الأخلاق، وفي كثير من أنواع السلوك، لا سيما إذا قويت عند الإنسان ضعيف الإرادة شهواته وأهواؤه النفسية، ونزغاته الجانحة، أو استولى على مشاعره جانح مجرم خبيث قوي الإرادة، فإنه حينئذ يسخّره في أعمال الشرّ مستحوذاً عليه، ويدفع به إلى الموبقات ورذائل الأخلاق والأفعال، وقبائح السلوك، وقد يدفع به إلى ارتكاب الجرائم الكبرى.

ـ ٣ ـ
المجالات التي تحتاج إلى قوة الإرادة

ويحتاج الإنسان إلى قوة الإرادة ضد كلّ عوامل الانحراف والتثبيط، من داخل نفسه، أو ممّا يأتيه ليؤثر عليه من الخارج.

فيحتاج إلى قوة الإرادة ضدّ أهواء نفسه وشهواتها، ووساوسها، وضدّ كل دوافع نفسه ونوازعها التي قد تميل بها إلى الجنوح، ويدخل في ذلك فتنة المال،

وفتنة الأولاد، وفتنة النساء، وفتنة الجاه، وفتنة الحكم والسلطان، إلى آخر الأمور التي تدخل في زينة الحياة الدنيا.

ويحتاج إلى قوة الإرادة ضدّ ميل نفسه إلى الدعة والراحة، الدافعتين إلى الكسل والفوضى.

ويحتاج إلى قوة الإرادة ضدّ مخاوف نفسه المختلفة، وضدّ ما ينزل به فعلاً من مصائب يجب أن يعالجها بالصبر والسلوان، وضدّ ما يفوته من خيرات كان يرجوها، وضدّ تطلعات أوهام النفس إلى الأماني التي ضاعت مع الماضي، والتي لا يمكن تحققها في المستقبل، أو من المستبعد في مجرى العادات تحققها في المستقبل.

ويحتاج إلى قوة الإرادة ضدّ وساوس شياطين الإنس والجنّ.

أمّا قوة الإرادة ضدّ المخاوف الحاضرة فمظرها الشجاعة وضدّها الجبن، وأمّا قوة الإرادة ضدّ المخاوف التي يحتمل وقوعها في المستقبل فمظهرها التفاؤل، وضده التشاؤم. وإذا زاد التفاؤل عن حدّه المعقول كان مظهراً من مظاهر الطموح الأرعن والطمع الغبي. وإذا نقصَ التشاؤم إلى الحدّ المعقول كان حذراً محموداً.

وأما قوة الإرادة في مواجهة المصائب والآلام فمظهرها الصبر، فإذا مرّ زمانها فمظهرها السلوان والنسيان.

— ٤ —
تفاوت الناس في نسب قوّة الإرادة وضعفها

الناس يتفاوتون تفاوتاً كبيراً وضمن درجات عديدة في مقادير ما لديهم من قوّة أو ضعف في إراداتهم.

وباستطاعتنا أن نضع سلّماً لهذا التفاوت، تصعد الدرجات من منتصفه متسلسلة بحسب تصاعد مقدار قوة الإرادة، وتهبط الدّركات من منتصفه

متسلسلة بحسب تنازل مقدار ضعف الإرادة، وتقترن بالدرجات الصاعدات نسبُ الفضائل الخلقية التي ترتبط بقوّة الإرادة، وتقترن بالدركات النازلات نسبُ الرذائل الخلقية التي ترتبط بضعف الإرادة.

قابلية الإرادة الضعيفة للتقوية:

إنّ الإنسان ضعيف الإرادة يستطيع أن يتخذ مجموعة من الوسائل العلاجية ليقوي بها إرادته، وهي كثيرة، ومن أهمها ما يلي:

١ ــ تقوية عناصر الإيمان بالله، وبصفاته العظيمة، وبقضائه وقدره، وبحكمته العالية، وتقوية ما يقتضيه الإيمان من الثقة بالله، وصدق التوكل عليه، وحسن الظنّ به، فتقوية هذه العناصر تعتبر من الوسائل الجذرية لاكتساب فضيلة قوة الإرادة، فضعف الإرادة يأتي من عدم الثقة بالنفس. والثقةُ بالله مع صدق التوكل عليه وحسن الظنّ به تمنح الإنسان ثقةً بسداد ما يبتّه من أمر متوكّلاً فيه على ربه، وأملاً بمعونة الله في تحقيق النتائج التي يرجوها، فتقوى بذلك إرادته.

٢ ــ التدريب العملي على مقاومة أهواء النفس ومخالفة شهواتها، كلّما ألحّت عليه بمطالبها.

٣ ــ ممارسة أنواع العبادات الإسلامية تعتبر من الوسائل لتقوية الإرادة الإنسانية.

فتأدية عبادة الصلاة بالتزام وانتظام وسيلة تقوّي الإرادة الإنسانية على مخالفة كثير من أهواء النفس.

وتأدية عبادة الصوم بالتزام تام وسيلة أخرى تقوّي الإرادة الإنسانية ضدّ طائفة من أهواء النفس.

وهكذا سائر العبادات.

٤ ــ والتزام طاعة الله في كل ما أمر به وفي كل ما نهى عنه من الوسائل الناجعة في تقوية الإرادة.

٥ ــ الأناة في البتّ، ثم المضي في العمل دون تردّد متى وضح سداد الاتجاه أو ظهر رجحانه، وعندئذ ينبغي صرف الخواطر المعوّقة والمثبطة، إلاّ أن يظهر يقين يكشف جانب الحق، عندئذ يكون الرجوع إلى الحق مظهراً من مظاهر قوة الإرادة، ويكون التمادي في الخطأ عناداً مذموماً، واتباعاً لهوى من أهواء النفس، وذلك من ضعف الإرادة، أو من الرعونة والحماقة.

ــ ٥ ــ

قوة الإرادة في مفاهيم النصوص الإسلامية

ما نعنيه من قوة الإرادة لم يأت التعبير عنه بهذا اللفظ في النصوص القرآنية.

ولكن جاء في القرآن ألفاظ ثلاثة ومشتقاتها، تشتمل في مجموع دلالاتها بحسب مواقعها من النصوص على ما نعنيه من (قوّة الإرادة) وهذه الألفاظ هي: (الإرادة ــ العقل ــ العزم).

وهذه الألفاظ الثلاثة تواردت في القرآن للدلالة على مستويات ثلاثة للإرادة:

(أ) مستوى أدنى، وقد استعمل للدلالة عليه مطلق لفظ الإرادة ومشتقاتها.

(ب) مستوى متوسط، وقد استعمل للدلالة عليه مشتقات لفظ العقل.

(ج) مستوى أعلى، وقد استعمل للدلالة عليه لفظ العزم ومشتقاته.

* أمّا المستوى الأدنى الذي استعمل للدلالة عليه مطلق لفظ الإرادة ومشتقاتها، فمن شواهده قول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾.

فالإرادة في هذا النص مستعملة للدلالة على المستوى الأدنى، وهو مطلق الاتجاه المرجّح، ولذلك لم تكن كافية لنيْل مجد الآخرة حتى اقترن بها السعي المطلوب «ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها».

أمّا إرادة العاجلة فقد اقترن بها هوى النفس إليها الموجود في فطر الناس، وتأكّدت بالتكرار والتجدد الذي دلّ عليه الفعل المضارع (يريد) وهذا كافٍ للانصراف عن الآخرة، والسعي لزينة الحياة الدنيا ومتعها.

ومن شواهده قول الله تعالى في شأن المنافقين الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك في سورة (التوبة: ٩):

﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: فلو أرادوا الخروج مع الرسول إلى غزوة تبوك إرادةً ما ولو كانت ضعيفة، لأعدّوا له عدّةً ما، ولو كانت عُدّة ضعيفة[1]، لتدلّ على أنّهم قد وُجد عندهم أدنى مستوى من إرادة صادقة، ولكن هذا المستوى الأدنى غير موجود لديهم.

* وأمّا المستوى المتوسط الذي استعمل للدلالة عليه مشتقات لفظ العقل، فهو مستوىً من الإرادة الجازمة الحازمة الكافية لعقل الإنسان وحجزه عن الاندفاع وراء أهوائه وشهواته، والانزلاق إلى مواطن هلكته العاجلة أو الآجلة.

وقد تكرّر في القرآن الكريم استعمال مشتقات لفظ العقل للدلالة على هذا المستوى، كما سبق بيانه في الباب الأول من الكتاب.

فالمراد من العقل في هذه الاستعمالات القرآنية الطاقة الإرادية الجازمة

---

(١) هذا المعنى مأخوذ من التنكير في (عدةً) من قوله تعالى: ﴿لأعدوا له عدّة﴾.

الحازمة، المستندة إلى معرفة الأمور، القادرة على عقل النفس عن مزالق أهوائها وشهواتها.

فالعقل في هذه الاستعمالات غير مطلق الذكاء، إذ الذكاء طاقة فكرية يستطاع بها معرفة الأمور على حقيقتها، سواء اقترن به عقل النفس عن مزالق أهوائها وشهواتها أو لم يقترن. وكم من ذكيّ حادّ الذكاء ولكن لا عقل له، فهو يعرف الشرّ حقّ المعرفة، ولكنه لا يستطيع عقل نفسه عنه، لأنّ أهواءه وشهواته مندفعة إليه، ويعرف الخير حقّ المعرفة، ولكنّه لا يستطيع عقل نفسه وسوقها للقيام به، لأن أهواءه وشهواته تغلبه فتصرفه عن فعله.

وحينما نقرأ في القرآن مثل قول الله تعالى: (لعلكم تعقلون) ـ (أفلا تعقلون) ـ (أفلم تكونوا تعقلون) ـ (إن كنتم تعقلون) ـ فالمراد منه غالباً المعرفة المقترنة بإرادة جازمة حازمة كافية لعقل الإنسان عن اتباع أهوائه وشهواته التي لا خير له من اتباعها.

ولذلك خاطب الله علماء بني إسرائيل بقوله في سورة (البقرة ٢):

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟! ﴿٤٤﴾ ﴾.

لقد خاطبهم الله بقوله: ﴿أفلا تعقلون؟﴾ مع أنهم علماء، لا ينقصهم ذكاء يعرفون به حقائق الأمور، ولكنّهم لا عقل لهم يعقلهم ويحبس نفوسهم ويردّها عن اتباع هواها.

والعاقل في اللّغة: هو الذي يحبس نفسه ويردّها عن هواها.

* وأمّا المستوى الأعلى الذي استعمل للدلالة عليه لفظ العزم ومشتقاته، فهو مستوى رفيع ممتاز من الإرادة الفعّالة الجازمة الحازمة، التي تواجه العقبات الكؤود بالثبات والصمود، وهذا المستوى من شأنه أن ينهض بالإنسان إلى معالي الأمور، ويوصله إلى مراتب الصابرين المحسنين المجاهدين، وأن يجعله في تنفيذ ما يريد من أهل العزم.

ولذلك جعل الله الصبر مع التقوى، وجعل الصبر مع المغفرة لمن أساء، من عزم الأمور، أي: من الأمور التي تتطلّب عزماً، أي: إرادة جادة قوية، قادرة على متابعة الأمور الشديدة الصعبة على النفوس بالتنفيذ.

والعزم في اللغة الجدّ، وعزم الرجل على الأمر يعزم عزماً أراد فعله، وعقد عليه قلبه.

قال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٨٦ ﴾.

وقال تعالى في سورة (الشورى ٤٢):

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ٤٣ ﴾.

وأوصى لقمان الحكيم ابنه بأن يقيم الصلاة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويصبر على ما أصابه، وأبان له أن ذلك من عزم الأمور، قال الله تعالى في سورة (لقمان ٣١) حكاية لوصاياه:

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧ ﴾.

ولـمّا كانت إرادات الرسول صلوات الله عليه فيما يتعلق بشؤون المسلمين العامّة من مستوى العزم قال الله له: ﴿فإذا عزمت فتوكّلْ على الله﴾ نجد ذلك في قوله تعالى لرسوله في سورة (آل عمران ٣):

﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩ ﴾.

أي: فإذا وصلت إرادتك إلى مستوى العزم على الأمر، فنفذه متوكّلاً على الله.

وأولو العزم من الرسل هم الذين كانت لهم إرادات تنفيذية من المستوى الرفيع، لذلك كانوا في غاية الصبر على ما أصابهم في سبيل الله، فلم يضعفوا عن جهادهم ودعوتهم إلى الله، وواجهوا المهمّات الثقال بعزم ودأب ومتابعة وجلد وصبر عظيم، وقد أمر الله رسوله محمداً بأن يصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، فقال له في سورة (الأحقاف ٤٦):

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ . . . ﴿٣٥﴾﴾.

وذكر المفسرون أنّ أولي العزم من الرسل هم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم.

ولـمّا كانت إرادة التكليف في الفرائض جازمة سميت عـزائم، عن عبدالله بن مسعود أن النبـي ﷺ قال: «إنّ الله يحب أن تؤتى رخصُه كما يحبّ أن تؤتى عزائمه». قال أبو منصور: عزائمه: فرائضه التي أوجبها الله وأمرنا بها. من لسان العرب مادة (عزم).

وأبان الرسول ﷺ أنّ المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف، والمراد من ذلك قوة إرادته، وحزمه في الأمور، وعزمه على القيام بجلائل الأعمال، روى مسلم عن أبـي هريرة، عن النبـي ﷺ أنه قال: «المؤمن القوي خير وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلّ خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدّر الله، وما شاء الله فعل، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان».

وعرّف الرسول ﷺ الكيِّس العاقل ذا الإرادة القوية بأنه الذي يحاسب نفسه، ويعمل ببصيرة لما بعد الموت، وعرّف العاجز ضعيف الإرادة بأنه الذي يتبع نفسه هواها، ويتمنى على الله الأماني.

عن أبـي يَعْلَى شدّاد بن أوس أنّ النبـي ﷺ قال:

«الكيّس من دانَ نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجزُ من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله». (رواه الترمذي، وقال: حديث حسن)

الكيْسُ والكياسة في اللّغة بمعنى العقل والفطنة، وبمعنى الخفّة والتوقد وعلوّ الهمّة.

فالكيِّس على المعنى الأوّل هو الفطن العاقل، والعاقل هو الذي يستطيع ضبط نفسه، بما يتمتّع به من خلُق قوّة الإرادة المقترنة بالبصر في الأمور وتقديرها حقّ قدرها، فالكيّس على هذا هو من يتمتع بهذا الخلق الذي هو أصل من أصول فضائل الأخلاق.

والكيّس على المعنى الثاني هو عالي الهمة، وعلوّ الهمة أصل من أصول فضائل الأخلاق.

وكلا المعنيين يفهمان من الحديث، ففي الحديث توجيه لمرتبة الكياسة، وتنفير من مهانة العجز وضعف الإرادة واتباع الهوى، وفيه بيان للعناصر التي تجعل الإنسان كيّساً، وللعناصر التي تجعل الإنسان عاجزاً.

الكيّس كما عرّفه الرسول ﷺ هو من جمع وصفين، فهو من دَانَ نفسه، وعمل لما بعد الموت.

ومعنى (من دانَ نفسه) أي من حاسب نفسه على أعمالها قبل أن يأتي يوم الحساب، وإنما يفعل هذا الإنسان العاقل الذي يتبصّر الواقع بإمعان، ويدبّر أمر نفسه بحكمة، فيدرأ عنها الآلام والمخاطر المرتقبة، ويسعى في اغتنام الخير العاجل والآجل حيث وجده أو وجد أسبابه، وهذا هو الوصف الأول للكيّس.

أمّا الوصف الثاني فهو أن يعمل لما بعد الموت، أي أن يكون عالي الهمة، يبذل العمل العاجل لتحصيل الخير العظيم الآجل.

ففي تعريف الرسول ﷺ للكيّس نجد معنى العقل المقترن بقوّة الإرادة، ونجد معنى علوّ الهمّة.

وبعد هذا قابل الرسول ﷺ الكيّس بالعاجز، والعاجز هو من كان ضعيف الإرادة تغلبه أهواء نفسه، وهو من كان نازل الهمّة يتعلق بمحقرات الأمور ودناياها، فيعمل للحصول عليها، وينظر ببرودٍ نفسيٍّ إلى معالي الأمور

وعظائمها، فلا يعطيها من نفسه إلاّ الأماني، أمّا الأعمال فهي عنده لمحقرات الأمور ودناياها، وهذا من نزول همته.

بما سبق نستخلص أن هذا الحديث يتضمن التوجيه لأصلين رئيسيّين من الأصول العامة للأخلاق:

الأول: قوة الإرادة المقترنة بالبصر بالأمور وتقديرها حقّ قدرها.

الثاني: علوّ الهمّة التي ينظر الإنسان بها إلى معالي الأمور، ويبذل في سبيلها ما يستطيع من عمل، ولا يكتفي بالتمني والأمل.

— ٦ —

كبح جماح الأهواء والشهوات وعدم التأثر بضغط الجماهير الضالة والقـــادة المضـــلين ووساوس الشياطـــين

ومن أبرز ظواهر قوة الإرادة قدرة الإنسان على كبح جماح أهواء نفسه التي بين جنبيه، وقدرته على ضبط شهواته وحجزها عن الجنوح، ورفضه وساوس شياطين الإنس والجنّ، مهما بلغت إغراءاتها وزخارفها، وعدم تأثره بضغط الجماهير الضالة والقادة المضلين.

ومن أبرز ظواهر ضعف الإرادة تخاذل الإنسان واستخذاؤه أمام أهواء نفسه وشهواتها واتباعه خطوات الشيطان، وتأثره بوساوس شياطـين الإنس والجن، وتأثره بضغط الجماهير الضالة، والقادة المضلين.

في هذا المجال الخطير تظهر الشخصية الإنسانية، ويظهر ما لديها من قوّة أو ضعف في الإرادة.

ولذلك كان من خطة الإسلام التربوية العمل على تقوية إرادة الإنسان، حتى يتغلب على أهوائه التي لا خير فيها، ويكبح جماح شهواته الجانحة عن سبيل الخير والهدى، ويرفض بإصرار وحزم كل وساوس الشياطين وتسويلاتهم،

وينتصر بعزمه على كلّ إغراءاتهم، وحتى تكون إرادته هي صاحبة السلطة التنفيذية الفعالة في كيانه، بعد أن تهتدي بهدي السلطة التشريعية فيه، وبذلك يرتقي الإنسان إلى مرتبة الكرامة التي كرّمه الله بها﴿قد أفلح من زكاها﴾وإلّا ارتدّ إلى أسفل سافلين﴿وقد خاب من دسّاها﴾.

وهكذا تهدف خطة الإسلام التربوية إلى رفع الإنسان إلى علّيين، في كل جانب من جوانبه الفكرية والنفسية والروحية والخلقية. أما الشياطين فيهدفون إلى جرّ هذا الإنسان إلى أسفل سافلين، في كلّ جانب من جوانبه أيضاً.

وإنّ أعظم انتصار تنتصره الإرادة الإنسانية، هو انتصارها على أهواء النفس وشهواتها ووساوس الشيطان الذي يجري من ابن آدم مجرى الدمّ.

والنصوص التي تشتمل على الخطّة التربوية الإسلامية لرفع الإنسان إلى مرتبة الكرامة التي كرّمه الله بها في أصل التكوين، وإلى الصعود به إلى عليين، كثيرة، وفيما يلي تدبّر لطائفة منها:

* أوّلاً: ففي تربية الإرادة حتى تتغلّب على أهواء النفس يقول الله تعالى في سورة (النازعات ٧٩):

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

هذا النصّ يبينّ لنا أنّ للإنسان قوّة قادرة على أن تحكم فتأمر وتنهى، وقوة أخرى اندفاعية ذات أهواء تتجه نحوها بعوامل نفسية، فإذا أهملت هذه القوى الرعناء، وتُركت تندفع وفق الأهواء، طغت وسيطرت على كيان الإنسان، مُؤْثِرةً الحياة الدنيا على الآخرة، وعندئذٍ يهوي الإنسان إلى الحضيض، وعندئذٍ لا بدّ أن يكون مصيره إلى جهنم، فهي جزاؤه، وهي مأواه.

أمّا إذا تمكّن بقوّة إرادته من نفسه وما فيها من قوى رعناء، ونهى النفس عن الهوى، فإنه يرقى بنفسه، ويذهب بها صاعداً إلى العلاء، حتى يصل إلى

منزلة الكرامة الإنسانية التي كرم الله بها بني آدم، وعندئذٍ يستحقّ جنّة الخلد، فهي جزاؤه، وهي مأواه.

فقوة الإرادة المقترنة بالعقل والحكمة، والمهتدية بهدي الإسلام، وسيلة موصلة إلى جنة الخلد، ومقام التكريم العظيم لهذا الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿ونهى النفس عن الهوى﴾ يشعر بأن الأصل في الهوى أن يكون قوّة في النفس تجنح بها عن طريق الهدى إذا ترك وشأنه من غير ضبط وتوجيه، وكبح ومدّ، ومسايرة وردّ.

والواقع يثبت أنّ مثل الهوى كمثل الحصان الجموح، إذا سار على طريق الهدى مدَدنا له العنان، وإذا مال إلى جانب الانحراف رددناه وشددنا عليه اللجام، فهو يحتاج إلى قائد يقوده حتى لا يجنح، وإشارة إلى هذه الحقيقة جاء في كلام الرسول ﷺ قوله: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» فجعل الرسول صلوات الله عليه الهوى قابلاً لأن يُطوَّع، فيكون تبعاً لما جاء في الإسلام من حقٍّ وهداية.

ولذلك جاء في القرآن الهوى المذموم مقيداً بأن يكون بغير هدى من الله. قال الله تعالى في سورة (القصص ٢٨):

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

فهذه الآية تدلّ على أنّه ليس كلّ من اتبع هواه ضالاً، ولكنّ الضالّ الذي ليس فوقه أضلّ منه هو من اتّبع هواه بغير هدى من الله. أمّا من كان هواه موافقاً لما أنزل الله من هدى، وتبعاً لما جاء به رسول الله من علم، فذلك لا ضير عليه من هواه، بل هواه يساعده على فعل الخير، ويدفعه إليه. إنّ من أهل الخير من يكون هواه في فعل الخير، ومن أهل الجود من يكون هواه في أن يجود، ومن أهل العبادة من يكون هواه في أن يعبد ربه، ومن أهل العلم من يكون هواه طلب العلم والاستزادة من المعرفة. فهذه الأهواء النفسية الكريمة مصاحبة لهدى

من الله، ولذلك لا نعتبرها أهواءً مذمومة، ما لم تتجاوز الحدود النافعة، فتمسي منطلقة على غير هدى من الله، وهي حينئذٍ تجنح أو تجمح إلى مواطن الفساد والإفساد، وتكون أهواءً مذمومة قبيحة.

ولكنْ قليل من الناس من تكون أهواؤهم سليمة من الجموح والجنوح إلى مواطن الفساد والإفساد، ومن قلتهم لا يكادون يوجدون، ولئن كانت بعض أهوائهم على هدى من الله فأكثر أهوائهم جانحة عن سبيل الهداية.

ولـمّـا كان إرضاء الهوى منزلقاً خطيراً، نهى الله داود عليه السلام عن اتباع الهوى في حكمه بين الناس، خشية أن يضلّه الهوى عن سبيل الله، قال الله تعالى في سورة (ص ٣٨):

﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾.

فالأسلم للإنسان أن يضع الهوى جانباً دون أن يلاحظ إرضاءه أو اتباعه، وعليه أن يتبع الحقّ والهدى، سواء وافق هواه أو خالفه. فإن وافق الحق والهدى هواه كان هواه مساعداً له ومؤازراً ومنشطاً، وإن خالف الحق والهدى هواه تدخلت الإرادة الحازمة بقوّتها وسلطانها فنفّذت ما يقتضيه الحقّ والهدى، منتصرة على الأهواء وإن تمرّدت.

ولذلك أيضاً حذّر القرآن الكريم من اتباع الهوى، ونبّه على أنّ من عوامل ضلال الضالّين وظلم الظالمين اتباعهم أهـواءهم أو أهواء قـادتهم وكبرائهم، فمن ذلك قول الله تعالى في سورة (الروم ٣٠):

﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ . . . ﴿٢٩﴾ ﴾.

فكونهم اتبعوا أهواءهم على عمى وجهالة من غير تبصّر بالعواقب؛ هو الذي جعلهم ينزلقون إلى مواطن الظلم والكفر بالله، ولو أنهم كانوا على

حذر من أهوائهم وبصر بعواقب أمورهم لشدوا لجام أهوائهم، واستقاموا على سبيل الهدى.

ومن ذلك قول الله تعالى لرسوله في سورة (القصص ٢٨):

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) ﴾.

فبيّن الله في هذا النص أنّ سبب عدم استجابة الكافرين للرسول صلوات الله عليه يتلخص بأنهم يتبعون أهواءهم على غير هدى من الله.

ونظيره قول الله تعالى في سورة (القمر ٥٤):

﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (٣) ﴾.

فمشركو العرب إذ كذّبوا بما جاء به الرسول ﷺ، رغم الآيات البينات التي كانت براهين صدق رسالته ـ ومنها آية انشقاق القمر ـ قد كان سببُ تكذيبهم أنّهم اتبعوا أهواءهم.

والذين يتبعون أهواءهم على درجات:

(أ) فمنهم من لم تنطمس بصيرته، فهو يعلم الحقّ حقًّا والباطل باطلاً، ولكنه ينحرف تحت تأثير أهوائه الجانحة عن سبيل الهدى، بنسب تختلف باختلاف تسلط أهوائه عليه.

(ب) ومنهم من انطمست بصيرته بشكل كلّي أو جزئي، وهذا الفريق قد وصل إلى مستوى الطبع على قلبه، إذ أعماه هواه، فزين له سوء عمله، وفي هذا الفريق يقول الله تعالى في سورة (محمد ٤٧):

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم (١٤) ﴾.

أي: لا يستوي الفريقان: فريق هو على بيّنة من ربّه وفريق انطمست

بصيرته باتباعه أهواءه، حتى زُيّن له سوء عمله، فهو غير مستعدٌ نفسيًّا لرؤية الحقّ، ومعرفة جماله وكماله.

ويقول الله لرسوله في شأن المنافقين في سورة (محمد ٤٧):

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ (١٦) ﴾.

فهذا فريق من الناس منافق، مطبوع على قلبه باتباعه هواه، فإذا كان في مجلس من مجالس العلم الربّاني، أو في مجلس موعظة حسنة، لم يعِ شيئاً، ولم يدخل إلى قلبه من الموعظة ولا من العلم شيء، لقد أصمّه الهوى وأعماه، فهو منطمس البصيرة لا يفقه شيئاً من الحق، والهدى.

ومتى انطمست بصيرة الإنسان باتباعه أهواءَه كان من الذين قال الله فيهم في سورة (البقرة ٢):

﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١) ﴾.

ومتى وصل الإنسان إلى هذا المستوى من سلطان الهوى عليه فقد اتخذ إلٰهه هواه، فهو لا يسمع ولا يرى ولا يعقل شيئاً مما يخالف ما يمليه عليه الهوى، وطبيعي بعد ذلك أن يكون أبكم عن مقالة الحق.

ومتى اتخذ الإنسان إلٰهه هواه كان هواه هو الآمر الناهي له، وهو الموجّه لسلوكه، قال الله تعالى في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤) ﴾.

أي: فالذي يتخذ إلٰهه هواه يعميه هواه ويصمّه فهو لا يسمع ما يُلقى إليه من خير وهداية.

وقال الله تعالى في سورة (الجاثية ٤٥):

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

فهذا الذي اتخذ إلهه هواه قد أثبت الله ضلاله على علم به، وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة وفق سننه الثابتة المهيمنة على المقدمات ونتائجها، والأسباب ومسبَّباتها، فهل توجد سلطة أخرى تستطيع إثبات الهداية له بعد أن أثبت الله ضلاله وحكم عليه به؟؟!! الجواب: لا.

فالهوى متى نما سلطانه، وهيمن على إرادة الإنسان، كان متَّخذاً لدى الإرادة بمثابة الإله، ومتى وصل الهوى إلى هذا المستوى من التسلّط؛ أعمى وأصَمّ، وأبكم، وحجب العقل السليم الذي يعقل صاحبه عن مزالق الشرّ.

* ثانياً ــ وفي تربية الإرادة حتى تتغلّب على تخاذل النفس تُجاه الكثرة الضالة من الجماهير، وتُجاه القادة المضلّين من ذوي النفوذ أو الجاه أو السلطان، حذّر القرآن الكريم من الطاعة العمياء للجماهير الضالة، ومن اتخاذ القادة الضالين المضلّين أولياء، ووجّه إلى الاعتماد على البصيرة في كلّ اتباع.

من الملاحظ في المجتمع الإنساني أنه ذو قوّتين قياديتين:

القوة الأولى: هي قوة الكثرة الملتزمة طريقة معيّنة، أو تقليداً ما، أو أسلوباً خاصاً في السلوك، أو فكرة ما، أو عقيدة ما، ويندمج في هذه الكثرة من الناس أتباعٌ تقليديون، ليس لهم إرادة خاصة، وإنما هم يسيرون كما يسير الناس بلا رأي ولا محاكمة للأمور.

القوة الثانية: هي قوة نابغين قياديين، يبرزون في المجتمع، فيكون لهم أتباع يحتلّون من نفوسهم مكان الثقة التامّة، فيفقد بذلك هؤلاء الأتباع إراداتهم الخاصة، ويُمسون في إراداتهم تابعين لا مستقلين، فيسيرون وفق إرادات قادتهم بلا رأي خاص ولا محاكمة للأمور.

وأمام هاتين القوّتين اللتين تسلُبان إرادات كثير من الأتباع، يقف الإسلام فيبصر كلّ فرد بمَسؤوليته الشخصية، ويبيّن له أنه لا يعفيه منها أن يكون تابعاً

للكثرة، أو تابعاً للقادة على غير هدى من الله، فإذا رأى الكثرة من الناس يتبعون الهوى فعليه أن يستقلّ بطريقة يتبع فيها الحقّ والهدى، وإذا رأى قائده يتبع أهواء نفسه منحرفاً عن سواء السبيل فعليه أن لا يتبعه، بل يستقلّ عنه بطريقة يتبع فيها الحق والهدى.

ففي معالجة مؤثرات الكثرة الجماعية المنحرفة عن سبيل الحقّ والهدى، يخاطب الله تبارك وتعالى أهل الكتاب بقوله في سورة (المائدة ٥):

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾.

فيضع الله تبارك وتعالى كلّ فرد من أهل الكتاب في هذه الآية رهن مسؤوليته الشخصية، إذ ينهاه ضمن النهي العام عن اتباع أهواء قوم قد ضلوا من قبل، وأضلّوا كثيراً، وذلك لأنه باتباعه القوم الذين اتبعوا أهواءهم إنّما يتبع أهواء أولئك القوم.

أفيليق بالإنسان السوي العاقل أن يكون إِمَّعة تُسيّره إلى هلاكه أهواء الآخرين.

ويتحدّث القرآن عن طبيعة مسيرة الجماهير، فيبيّن أن طاعة أكثر من في الأرض تُضلّ عن سبيل الله، وذلك لأنّ الجماهير إنما تتبع في مسيرتها الظنون الضعيفة، والأكاذيب التي تنتشر فيما بينها، لذلك فهي في الغالب تكون على غير هدى ومن ثمّ تكون طاعتها سبباً في الضلال.

والسبب في ذلك أنه في ضمن الجماهير الغوغائية العامة تضعف إرادة كل فرد من أفرادها، وتقل عنده القدرة على محاكمة الأمور محاكمة منطقية عاقلة، اعتماداً على رأي الكثرة، واتكالاً عليه، ويدور هذا الضعف على كلّ فرد، بسبب تناقص الشعور بالمسؤولية الشخصية، وعندئذٍ تستطيع أن تسود هذه الجماهير فكرة باطلة، مغلفة بعاطفة من العواطف، وتندفع الجماهير منادية بهذه الفكرة الباطلة بغوغائية عمياء رعناء. وكثيراً ما يستغلّ هذا الضعف الجماهيري

فرد ذو هوىً خاصّ، أو عصابة ذات هوى خاص، فتدعم بمكر عظيم هذه الفكرة الباطلة بوسائل دعائية شتى، لتستغل الجماهير وتسخّرها في تحقيق أهواء أنفسها.

قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ١١٦﴾.

والمراد من الظنّ: الظن الضعيف الذي لا دليل يرجحه، لوضعه في الآية مع الخرص موضع المساواة، والخرص: هو الحدس والتخمين، وهو أضعف الظنون التي لا يجوز الاعتماد عليها، وقد يطلق الخرص على الكذب، فهو ادّعاء باطل تماماً.

والرأي الجماهيري الغوغائي كثيراً ما يصل إلى هذا المستوى من ضعف المحاكمة، وإلقاء مسؤولية البحث والتفكير على الآخرين، وعندئذ لا يبقى في الجماعة مفكر مستقلّ، إلّا صاحب هوى يريد أن يستغلّ قوّة الجماهير لهواه، وبهذا يظهر لنا مبلغ دقّة الإعراب عن هذه الحقيقة في قول الله تعالى: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلّوك عن سبيل الله﴾.

وبعد آيتين من سورة (الأنعام) نفسها يبينّ الله تبارك وتعالى عمل المعتدين، الذين يتبعون أهواءهم فيتلاعبون بأفكار الجماهير، ويضلونهم بغير علم، ويستغلون ما في الجماهير من غوغائية وضعف في المحاكمة، فيقول الله تعالى:

﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ ١١٩﴾.

أي: وإنّ كثيراً من الناس ليُضلون آخرين بأهوائهم بغير علم، ظلماً وعدواناًواستغلالاً لضعف إرادتهم، ولكنّ الله سيعاقبهم على عدوانهم، إنّ ربّك أعلم بالمعتدين.

فالمكايد الشيطانية تستغل ما في الجماهير من ضعف إرادة وغوغائية وقلة محاكمة للأمور، فتسوقها إلى الضلالات. والجماهير الجاهلة فاقدة البصيرة فاقدة الإرادة تسير سير القطعان دون أن تشعر إلى أين المسير، وكيف يكون المصير.

خطورة مداراة أهواء الناس على حساب المبادىء:

من الناس من يداري أهواء الجماهير، أو أهواء القادة وأصحاب المكانة الاجتماعية، على حساب دينه، أو على حساب الحق، ليجلبهم بزعمه إلى طريق الهداية، وهي خديعة شيطانية.

قد تكون المداراة سياسة حكيمة وعملاً نافعاً، ولكن بشرط أن لا تكون على حساب العقيدة الحقة، أو على حساب الدين، أو على حساب الحق، فإن كانت على حساب شيء من ذلك ـ إذ تتضمن تنازلات في المبادىء أو مساومات على الحق ـ كانت ضلالة وانحرافاً موجباً لسخط الله.

ولذلك حذّر الله رسوله صلوات الله عليه من كلّ مداراة على حساب الحق، أو مساومات في قضايا الدين، مبادئه وأحكامه، وتعاليمه وشرائعه، فمن ذلك قوله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

ففي هذه الآية إعلان الرفض التامّ لأية مساومة تتصل بالعقيدة وأصول الدين، فقبول المساومة في هذا المجال ضلال بيّن، وخروج عن دائرة الهداية﴿قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين﴾.

وقول الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

فالتحذير في هذا النصّ تحذير من اتباع أهواء الناس، ومن مداراتهم في موضوع الحكم بغير ما أنزل الله، فأهواء الناس تتجه في أكثر الأحوال إلى معاصي الله﴿وإنّ كثيراً من الناس لفاسقون﴾.

ولشدّة خطورة الانزلاق مع أهواء الناس فيما يتعلّق بأمور الدين، بلغ تحذير الله لرسوله من اتباع أهواء القوم في تدرّج النصوص إلى مستوى التهديد، والغرض تعريف الرسول ﷺ بخطورة الأمر، وتهديد كلّ من تحدّثه نفسه بمثل ذلك من المسلمين.

* ففي المرحلة المكّية أنزل الله على رسوله قوله في سورة (الشورى ٤٢):

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

ثم أنزل عليه قوله في سورة (الجاثية ٤٥):

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

وهكذا نلاحظ أن النصّ الأول جاء نهياً مجرّداً عن اتباع أهوائهم، فقال الله له: ﴿ولا تتبع أهواءهم﴾.

أمّا النص الثاني فقد جاء مُعللاً من جهة، وفيه تلويح بتهديد ضمني، فقال الله تعالى: ﴿ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾ فوصفهم بأنهم لا يعلمون، وهذا بمثابة التعليل للنهي عن اتباع أهوائهم، لأنّ الذي لا يعلم يتورط متبعاً هواه في أمور تقذف به إلى المهالك. وبعد هذا التعليل لوّح الله بالتهديد، فقال تعالى: ﴿إنّهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً﴾.

* وفي المرحلة المدنية أنزل الله على رسوله تحذيراً مقروناً بتهديد صريح، فقال له في سورة (البقرة ٢):

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾.

وقال له فيها أيضاً:

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

ثم أنزل الله عليه قوله في سورة (الرعد ١٣):

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾.

وهكذا جاء هذا التحذير المقرون بالتهديد في مناسبات مختلفات، تتعلق بأمور العقيدة والشريعة في شتّى أحكامها وتعاليمها، لأن من المعروف في كلّ زمان أنّ من شأن أصحاب الأهواء محاولة التلاعب بشرائع الله حسب أهوائهم، فإذا أطاعهم في ذلك أو تلاين معهم في ذلك دعاة الحق وحَمَلة شرائع الله ضلّوا وأضلّوا، وفسدت مفاهيم الحق ومفاهيم الدين، واختلطت الأمور، وضاع الخير في خضم الشرور، وصار الشرّ في مفاهيم الناس خيراً، وفسد الكون ومن فيه، وهذا ما بينه الله بقوله في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾.

ومن الواضح أن من أعظم الأسباب التي حرّفت الشرائع الأولى وأفسدت أحكامها؛ تدخّل أصحاب الأهواء فيها، من ذوي سلطان ديني أو سلطان

مدني، وشواهد هذا في الواقع التاريخي كثيرة، وأدلته في النصوص الإسلامية متعددة، منها قول الله تعالى في شأن اليهود في سورة (النساء ٤):

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ . . . ﴿٤٦﴾﴾.

وقوله تعالى في شأنهم أيضاً في سورة (المائدة ٥):

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ . . . ﴿١٣﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

فهذه التحريفات التي كانوا يحرّفونها في كلام الله قد كانت بدافعٍ من أهواء نفوسهم، أو أهواء ذوي السلطان فيهم.

وهكذا حمّل الإسلام كلّ إنسان تكاملت فيه شروط التكليف مسؤوليته كاملة، وعمل على تقوية إرادته، لئلا يستخذي أمام أهواء نفسه، أو أمام أهواء ذوي الأهواء مهما كانوا، ولئلا يستدرجه الظالمون من ذوي الأهواء إلى مواقع الشرّ والفساد ومعصية الله.

وفي تربية الإرادة حتى تتغلّب على تخاذل النفس تجاه القادة المضلين من ذوي الجاه أو السلطان، حذّر الإسلام من الطاعة الآثمة لأصحاب الزعامات الكافرة الفاجرة الظالمة.

وأبان القرآن أنّ ضعف إرادة الجماهير هو السبب في تخاذلها واستخذائها، وطاعتها لذوي السلطان والأكابر المجرمين؛ ففي قصة فرعون وقومه يبيّن الله لنا أنّ سبب طاعتهم له هو تسلّطه على إراداتهم باستخفافه لهم، أي: لم يجد لهم وزناً من إراداتهم العاقلة يثقل كيانهم، فتسلط عليهم بقوته الآثمة المنحرفة عن

سبيل الهدى فأطاعوه، واتبعوه في ضلالاته، وكانوا أجهزة مسخرة لأهوائه وشهواته، قال الله تعالى في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

إنّ فرعون قد زخرف لقومه الكلام ليصدّهم عن التأثر برسول الله موسى عليه السلام، وأضاف إلى زخرف القول الذي ليس له وزن علمي ولا منطقي شيئاً من إرضاء أهواء قومه الفاسقين، فوجد قومه لا وزن لهم من جهة العقل، ولا وزن لهم من جهة الإرادة، فأمرهم بطاعته في كلّ شيء، فأطاعوه.

وإنهم في طاعتهم له يتحمّلون مسؤوليتهم كاملة، ولا يعفيهم منها أنهم كانوا أتباعاً لساداتهم وكبرائهم، وسوف تُقلَّب وجوههم في العذاب يوم القيامة، ويندمون على ما فرّطوا في جنب الله، يقولون يومئذ: يا ليتنا أطعنا الله، وأطعنا الرسول، ويومئذٍ يتبين لهم أنّ طاعتهم لسادتهم وكبرائهم قد كانت سبب شقائهم.

وفي شأن الأتباع الذين ضلّوا بسبب طاعتهم لسادتهم وكبرائهم من قادة الضلال في الأرض، يقول الله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾.

ومن هذا النص يتبين لنا أن الطاعة تكون على قسمين:

القسم الأول: الطاعة العاقلة البصيرة، وهي الطاعة التي تكون في الحقّ،

ولذلك تجب طاعة الله وطاعة رسوله، لأنهما لا تكونان إلاّ في الحقّ، ثم طاعة كلّ من أمر الله بطاعته، ما لم يأمر بمعصية الله. فطاعة الله في مرتبة القمة، فيجب مراعاتها قبل كل شيء، وطاعة الرسول من طاعة الله لأنه يبلغ أوامر ربّه وقد أمرنا الله بطاعته، ثم بعد ذلك تأتي طاعة من سواهما ممن أمر الله بطاعته فيما لا معصية لله فيه.

القسم الثاني: الطاعة الجاهلة العمياء، وهذه الطاعة تجرّ إلى السقوط في حمأة الباطل، وطاعة السادة والكبراء على طريقة عمياء تجرّ حتماً إلى هذه النتائج الوخيمة، لأنهم غير معصومين عن الزلل والخطل، وغير مبرئين من اتباع أهواء نفوسهم وشهواتها. ولذلك أمرنا الإسلام بأن نكون في طاعة أولي الأمر منا وفي طاعة آبائنا وأمهاتنا عقلاء بصراء، فلا نطيعهم في أمرٍ نعصي الله فيه، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وقد سبق في برّ الوالدين بيان قيود طاعتهما، وأدلّة ذلك من القرآن.

* **ثالثاً**: وفي تربية الإرادة حتى تتغلّب على وساوس الشيطان وتسويلاته، أبانت النصوص الإسلامية أنّ الشيطان للإنسان عدوٌ مبين، وحذّرت الإنسان من وساوس الشيطان تحذيراً شديداً، وعرضت له قصته التاريخية مع الإنسان الأول إذ أخرجه من الجنة بوساوسه وتسويلاته، بعد أن حقد عليه وحمل له ولذريّته العداوة إلى يوم الدين.

وإذا كان موقف الإسلام ضدّ أهواء النفوس وشهواتها مثلما سبق بيانه، وأهواء النفوس وشهواتها جزء من كيان الإنسان، فماذا عسى أن يكون موقفه ضدّ وساوس الشياطين، وهم بوساوسهم يحاولون أن يستحوذوا عليه ويستولوا على إرادته، وهم بوساوسهم إنما يحرّكون فيه الأهواء والشهوات.

إنّ الإسلام قد وجّه الإنسان توجيهاً مؤكّداً مشدّداً كيما يرتقي إلى مواقع قوة الإرادة، ضدّ كلّ شياطين الإنس والجنّ، فمتى قويت إرادته استطاع بحزم وعزم أن يهزأ بكل وساوسهم وتسويلاتهم، وأن يطردهم عن كيانه الداخلي والخارجي، ويسير في صراط الله المستقيم، وكذلك يكون المسلمون المؤمنون

المتقون، في قوة إراداتهم، واستعاذتهم بالله من وساوس شياطينهم وطردهم عنهم.

أمّا ضعفاء الإرادة أمام وساوس الشياطين وتسويلاتهم فهؤلاء تستهويهم الشياطين، وتستحوذ عليهم، وتستدرجهم من حيث لا يعلمون، حتى تجرّهم إلى حضيض الهاوية، مرحلة فمرحلة، وفي هؤلاء قال الله تبارك وتعالى في سورة (المجادلة ٥٨):

﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

استحوذ عليهم الشيطان: أي استولى عليهم، وغلب عليهم، حتى سلبهم بوساوسه وتسويلاته إراداتهم الخاصة الواعية العاقلة.

ومن ألطف البيان ما جاء في القرآن من تصوير الإنسان الضالّ عن سبيل الهدى، كيف أنّ الشياطين استهوته في الأرض، بعد أن استولت على إرادته، فهو حيران لا يدري الطريق ولا يعرف كيف الخلاص، قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾.

ففي هذا تصوير بديع لاستيلاء الشياطين على نفوس الضالين ضعفاء الإرادة، الذين يستجيبون لوساوسهم، فيتبعون خطواتهم، وهم بهذه الاستجابة وهذا الاتباع يتخذون الشياطين أولياء لهم، مع أنهم لا يغنون عنهم من الله شيئاً، قال الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

وقال فيها أيضاً:

﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

ففريق من الناس اتخذوا الشياطين أولياء لهم، مع أنّ الشيطان بخبثه يحاول أن يسلب الإنسان قوة إرادته، وأن يستخفه ويجعله منساقاً مع كلّ هوى ونزوة وشهوة جانحة، وإمعة يتبع كل ناعق ويستجيب لكل رأي تافه.

وهكذا عمل الإسلام على تقوية إرادة المسلم ضدّ أهواء نفسه وشهواتها، وضدّ ضغط الجماهير الغوغائية السائرة في غير طريق الهداية، وضدّ القادة المضلّين الذين يتبعون أهواءهم، وضدّ وساوس الشياطين وتسويلاتهم.

وقوة الإرادة في هذا المجال تمنح الإنسان القدرة على قيادة نفسه بعقل وحزم وفق الحكمة «ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً».

ولذلك فلا بدّ أن يكون العاقل الحكيم قوي الإرادة أكثرَ تمسّكاً بقواعد الدين وتعاليمه، وأكثر تمسّكاً بفضائل الأخلاق، وأكثر التزاماً للسلوك الأقوم.

— ٧ —

البت في الأمور بحزم وعدم التردد بعد العزم

ومن ظواهر قوة الإرادة البت في الأمور بحزم عند ظهور الوجه الأصلح فيها، وعدم الاستسلام للتردّد والحيرة النفسية التي تنتاب ضعفاء الإرادة، وتنتاب الذين يتخوّفون من النتائج ومسؤولياتها الماديّة أو الأدبية.

إنّ ضعيف الإرادة يقتل عمره في متاهات الحيرة والتردّد، فهو لا يصلح لإدارة نفسه والقيام بأعمالها اللازمة النافعة، حتى تحوجه الضرورة إلى ذلك من أمور طبيعية أو أحداث مفاجئة، فهو يترك الأحداث تبادره، ولا يبادرها هو بتراتيبه وخططه واستعداداته وأعماله النافعة.

أمّا العاقل قوي الإرادة فعلى العكس من ذلك، إنه يحسن استخدام طاقاته، واستغلال وقته، وتصيّد الفرص السانحة، فيبُتّ القرارات الصالحة، وينفذ الأعمال النافعة، ومتى ظهر لديه الوجه الأصلح عزم عليه ونفّذه متوكّلاً على الله، ومعتمداً على تسديده وتوفيقه، إنّه يدير نفسه بحكمة وحزم، ويصلُح لأن يدير الأعمال الجماعية بحكمة وحزم، متى توافرت لديه الشروط الواجبة لنوع الإدارة الخاصّة التي يتولاّها.

وقد أرشد الإسلام إلى هذه الظاهرة الخلقية من ظواهر قوة الإرادة.

ففي النصّ القرآني التربوي الأخلاقي العظيم، الذي علّم الله فيه رسوله محمّداً صلوات الله عليه، أنْ يكون ليّناً غير فظ الطبع ولا غليظ القول، وأن يتسم بخلق العفو عن أصحابه وأتباعه، وأن يستغفر لهم، وأن يشاورهم في الأمر، نجد في آخره أنّ الله يعلّم رسوله إذا عزم على أمر أن ينفذه متوكّلاً على الله، غير متردّد ولا متحير ولا متراجع عنه، وفي هذا توجيه قويّ إلى بتّ الأمور بحزم متى ظهر الوجه الأصلح، بل فيه أمرٌ تكليفي بذلك، وهذا البت إنّما يكون بعد اتخاذ ما يلزم من تدبّر للأمر، ومشاورة فيه لأهل الرأي، قال الله لرسوله في سورة (آل عمران ٣):

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾.

فقوله تعالى: ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾ أي: فنفّذ ما عزمت عليه متوكّلاً بقلبك على الله، ليمدّك بعونه ويدفع عنك الأعراض والموانع، ويحقق لك النتائج التي ترجوها، وفي قوله تعالى بعد ذلك: ﴿إن الله يحبّ المتوكلين﴾ إشارة أن أنّ الله عز وجل يحبّ الذين ينفّذون أعمالهم إذا عزموا عليها بشرط أن يتوكلوا في قلوبهم عليه، ليدفع عنهم الأعراض والموانع، وليحقق لهم النتائج التي يرجونها، وليمدّهم بعونه، مع قيامهم هم بالأسباب التي ربط الله بها النتائج في نظام كونه.

فالبتّ في الأمور بحزم عند ظهور الوجه الأصلح من الفضائل الخلقية التي ينبغي للمسلم أن يتحلى بها، متأسياً بالرسول صلوات الله عليه، ومتبعاً إرشاد الإسلام في ذلك.

ومن كان في إرادته ضعف فعليه أن يدرّب نفسه على البت في الأمور بحزم، وعدم التراجع عمّا يبتّه ويقرره، وأن يدرّب نفسه على نتائج قراراته، وما يبته من أمور، وما ينجزه من أعمال.

فبالتدريب المتتابع يتخلّص الإنسان من التردّد الناشىء عن ضعف الإرادة وعدم الثقة بالنفس، ويساعده في عمليات التدريب، أن يضع نصب عينيه القدوات الصالحة من أهل العزم وأصحاب الإرادات القوية، الذين يثقون بما منحهم الله من هبات، ويؤمنون بأنّ الله معهم يسدّدهم وينوّر بصائرهم، وينفذون بحزم ما يعزمون على تنفيذه، وهم متوكلون على ربّهم، واثقون من معونته وتأييده.

وفي مقدمة القدوات الصالحة الرسولُ صلوات الله عليه، فقد كان أبعد الناس عن التردّد في أموره. كان إذا عزم على أمر لم يتراجع عنه، ولم يتردّد في تنفيذه مهما وقفت العوائق في طريقه، ولكنه كان يتأنى في العزم على الأمور وإصدار القرارات الجازمة فيها، حتّى يتدبّرها تدبّراً كافياً، وحتى يستشير أهل الرأي والحجى من أصحابه، وحتى يتبين فيها الآراء اتفقت أو اختلفت. ومن شواهد ذلك ما كان منه صلوات الله عليه في غزوة أحد، إنه لـمّا بلغه مقدم جيش المشركين من قريش إلى المدينة، ونزولهم خارجها لقتال المسلمين، جمع الرسول صلوات الله عليه أصحابه، فاستشارهم، وخيَّرهم بين الخروج لملاقاتهم وقتالهم، والبقاء في المدينة فإن دخلوا عليهم فيها قاتلوهم في طرقاتها ورموهم من فوق البيوت، فكان رأي الطائفة من شيوخ المسلمين عدم الخروج من المدينة إلى العدو، وكان رأي الطائفة من الشباب والذين لم يكن لهم شرف القتال في غزوة بدر، أن يخرج الرسول والمسلمون لقتال عدوهم خارج المدينة، وقالوا: يا رسول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنّا جبنّا عنهم وضعفنا.

ولم يزل أصحاب هذا الرأي يلحون على رسول الله ﷺ بالخروج حتى

وافقهم على ما أرادوا، فدخل رسول الله ﷺ بيته فلبس درعه، وأخذ سلاحه، ولـمّا خرج عليهم بعدّة الحرب ظنّ الذين ألحّوا عليه بالخروج أنّهم قد استكرهوه على ما لا يريد، فندموا على ما كـان منهم، فقالـوا له: لعلنـا استكرهنـاك يا رسول الله، ولم يكن لنا ذلك، فإن شئت فاقعد.

وهنا برزت قوة إرادة الرسول ﷺ، وظهر حزمه في الأمر بعد عزمه على الخروج إلى العدوّ، وقتاله خارج المدينة، فقال صلوات الله عليه: «ما ينبغي لنبـيّ إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل».

اللَّأْمَةُ: هي الدرع وعدة الحرب.

وكذلك كان دأب الرسول صلوات الله عليه، فلم يعرف عنه التردّد ولا التقلب، ولذلك كان أعظم إداري قائد عرفه التاريخ، فهو المثل الكامل للإنسان الكامل.

وقد علّم الرسول ﷺ أصحابه هذا الخلق، ودرّبهم على المضي في الأمر وعدم التردد فيه بعد العزم عليه.

روى مسلم عن أبـي هريرة أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر:

«لأعطينّ هذه الراية رجلاً يحبّ الله ورسوله يفتح الله على يديه».

قال عمر رضي الله عنه: ما أحببت الإمارة إلاّ يومئذٍ، فتساورت لها رجاء أن أدعى لها.

قال أبو هريرة: فدعا رسول الله ﷺ عليّ بن أبـي طالب رضي الله عنه فأعطاه إيّاها وقال:

«امش ولا تلتفت حتّى يفتح الله عليك».

فسار عليٌّ شيئاً ثمّ وقف ولم يلتفت فصرخ: يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟ قال:

«قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلاّ بحقها وحسابهم على الله».

ففي قول الرسول ﷺ لعلي رضي الله عنه: «امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك» تربية خلقية على المضيّ في الأمر وعدم التردّد، متى تمّ العزم والتصميم على القيام به. وقد نهاه الرسول عن أن يلتفت إلى الوراء لأن الالتفات مظهر من مظاهر التردّد، ومن مظاهر ضعف العزيمة عن القيام بما تمّ العزم عليه، وهذا ليس من شأن أصحاب الإرادة القوية.

فالرسول ﷺ بهذا التوجيه يغرس في نفوس أصحابه خلق قوة الإرادة، حتى لا يقعدهم التباطؤ والحيرة والتردّد والالتفات إلى الوراء عن القيام بجلائل الأعمال.

وتنفيذاً لهذا التوجيه النبوي وجدنا عليّاً رضي الله عنه لـمّا أراد أن يأخذ التعليمات الأساسية التي تتعلق بالمهمة التي حمل الراية للقيام بها، نادى رسول الله ﷺ بأعلى صوته وهو متوجّه لمهمته دون أن يلتفت إلى الرسول، وفي هذا تدريب عملي على قطع كل تردد قد يعرض للنفس بعد الجزم على القيام بالعمل.

إنّها لا تصلح قيادة مع تردّد، ولا تصلُح قيادة مع تباطؤ وتسويف، ولا تتمّ الأعمال العظيمة من الأفراد والجماعات إذا كانت مقترنة بالتردّد والحيرة وضعف الأمل بتحقق النتيجة المقصودة.

ولّما كانت المهمة التي حمّلها الرسول عليّاً هي مهمة فتح خيبر، جعل له فتح خيبر غاية مسيرته التي يقوم بها، لا سيّما وقد قدّم له البشارة بأنّ القضاء والقدر ظهيره في هذه المسيرة، إذ قال قبل أن يعطيه الراية: «لأعطينّ هذه الراية رجلاً يحبّ الله ورسوله يفتح الله على يديه» وكان هذا من الأخبار التي أخبر بها الرسول ﷺ قبل وقوعها، وتحققت كما أخبر، وأصحاب الرسول على إيمان كامل بأن ما يخبر بوقوعه في المستقبل لا بدّ أن يقع.

وفي هذا الحديث أن الأحكام الإنسانية يراعى فيها الظاهر، أمّا أحكام الله فتراعى فيها المقاصد والنيات، وهو ما دلّ عليه قول الرسول: «قاتلهم حتى

يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله».

أي إذا كانوا قد شهدوا شهادة الإسلام وكانوا في حقيقة قلوبهم منافقين فإنّ حسابهم في ذلك على الله تعالى، وأمّا أنت فتعاملهم بحسب ما يظهر لك من أحوالهم، ولا تعاملهم بحسب ظنك بحقيقة نياتهم ومقاصدهم، ما لم يظهر من ذلك شيءٌ ماديٌّ تدينهم به.

— ٨ —
الجـدّ والحـزم والنظـام

ومن ظواهر خلق قوة الإرادة الجدّ في الأمور، والأخذ فيها بالحزم، والنظام في الأعمال والبعد عن كل فوضى.

أمّا ضعيف الإرادة فإنه يتخاذل أمام ميل نفسه إلى الكسل والتباطؤ في العمل، فلا يكون جادّاً مجتهداً في أموره، ولا يكون حازماً في تنفيذ أعماله، وهو يميل غالباً إلى الهزل لستر حالة النقص التي يعاني منها، ولتغطية ضعف إرادته أمام هوى نفسه إلى الكسل، وطبيعي أن لا يحب النظام في أعماله، لأنّ النظام يتطلب جدّاً وحزماً، فالجادّ الحازم العاقل لا بدّ أن يرتب أعماله وواجباته وفق نظام عملٍ سليم، يمنع التزاحم والتعارض والتصادم، ويملأ فراغ الوقت بتوزيع متناسق للعمل، وتقسيم عادل للوقت. بخلاف الذي لا جدّ ولا حزم عنده بسبب ضعف إرادته أمام ميل نفسه إلى الكسل، فمن أصعب الصعاب لديه أن يرتب أعماله وواجباته، وفق نظام عمل سليم يتقيد بتنفيذه، لأنّ هذا سيفوّت على هوى نفسه فرصة الإخلاد إلى الراحة، متى شاء له هذا الهوى، ومن شأن هذا الهوى الجانح الضار أن يحرضه على التكاسل وترك العمل، والإخلاد إلى التعطّل التامّ، متى شعر بأدنى تعب في جسمه أو ملل في نفسه، أو عدم انسجام بين هواه ونوع العمل الذي يقوم به. إنّ الكسل يجرّ إلى التعطّل، والتعطل يجلب الخبل، والسأم، والوساوس، والنوم الطويل القاتل

للقوى والمتلف للعمر من غير فائدة، والتعطّل يجرّ إلى الحاجة والضرورة، ثم إلى الجريمة، أو يجرّ إلى أنواع شتى من الفساد الشخصي والاجتماعي. فكل هذه النقائص والقبائح قد تتولّد عن هذا الأساس الذي يمثل انحرافاً جذرياً في بناء الإنسان الخلقي. قد يستصغر الإنسان بعض النقائص الجذرية فيهمل إصلاحها، فيتولّد عنها أمور خطيرة جداً. إنّ الصغائر في الجذور كبائر في الآثار، فإبرة صغيرة في القلب أعظم خطراً وضرراً من سيف بتار في القدم، وربّ شرارة أخطر من جيوش جرّارة.

وقد حث الإسلام على الأخذ بالجدّ والحزم، ووضع الخطط اللازمة لتدريب المسلمين على النظام.

وحينما يمارس الإنسان الجدّ والحزم والنظام في أعماله، ويتدرّب على هذه الفضائل السلوكية بالتكلف، يكتسب العادة عليها، ثم تكون جزءاً من أخلاقه، وذلك له أثر أيضاً في تقوية إرادته، التي تكون قوّةً مضافة إلى قوة العادة في تأثيرها، فتنمو لديه فضائل الجدّ والحزم والنظام في الأعمال.

لقد أمر الله المسلمين بأن يقتدوا بنبيهم محمدّ ﷺ، وقد كانت حياة الرسول مع أصحابه حياة جدّ وحزم ونظام، سواءٌ ما يتعلّق منها بأمور الدين وما يتعلّق منها بأمور الدنيا، وبالتربية النبوية تحوّل شعب فوضوي يعوزه الجدّ في الأمور، ولا يربطه نظام، إلى أمّة جادّة ، ذات حزم، وانضباط مع الواجب، وانتظام كامل في العمل الفرديّ والجماعي.

ومن التوجيه النبوي إلى المثابرة على العمل بدأب وانتظام، ما رواه البخاري ومسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «أحبّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ».

وفي حثّ الإسلام على العمل النافع المفيد دعوةٌ كافية إلى الأخذ بالجد، ومجانبة الهزل واللّهو واللّعب.

ولئلا يترك الله لرسوله فراغاً في وقته خالياً من عمل نافع، أمره بأن يقوم

بعمل جديد متعب يرضي الله فيه كلّما فرغ من عمل سابق أرضى الله فيه، فقال له في سورة (الشرح ٩٤):

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾.

أي: فإذا فرغت من عمل سابق فابدأ بعمل جديد تنصب فيه، أي: تتعب فيه، ولتكن في كلّ عملك راغباً بتحقيق مرضاة ربّك.

أليس هذا غايةً في الأمر بالعمل الجادّ النافع، وملء كلّ فراغ من الوقت به، وفي الصرف عن كلّ لهو وهزل وعبث، وكلّ عمل ليس فيه تحقيق لمرضاة الله تعالى؟

وما أمر الله رسوله به يشمل في توجيهه عامّة المسلمين.

وفي تنفير الإسلام من اللّهو والهزل والعبث، وتوجيه المسلم لأن يكون عاملاً جادّاً في عمل ما ينفعه ممّا فيه مرضاة لله تعالى، إلاّ في حدود قليلة يقصد منها الترويح عن النفس، والاستجمام للقيام بعمل آخر نافع، نلاحظ نصوصاً عديدة، منها ما يلي:

(أ) يقول الله تعالى في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩﴾.

ففي هذه الآية توجيه إلى أسمى ما ينفع الإنسان في حياته الدنيا، وهو ذكر الله الذي يدفعه باستمرار إلى كلّ عمل من أعمال الخير التي ترضي الله. فمن ألهته أمواله، أو ألهاه أولاده، عن هذا العمل المجيد، خسر رأس ماله في هذه الحياة، ورأس مال الإنسان في حياته عمره المحدود، وطاقات العمل التي وهبه الله إياها، ومن خسر رأس ماله كان هو الخاسر الأكبر. ويظن الجاهلون

أنهم إذا ربحوا كثرة المال أو الولد فقد فازوا، ويغفلون عن خسارتهم ذاتهم، التي لا يعوّضها مال ولا ولد.

(ب) وكان قوم عاد يبنون في مرتفَعات من الأرض مباني لا غرض لهم منها إلّا أن تكون دالّة على عظمتهم، ولا غاية لهم منها إلّا التفاخر، فهي لا تؤوي ساكناً ولا تدفع بأساً، فرأى الله هذا العمل منهم عَبثاً، والعبث ليس من شأن العلماء العقلاء، فبلّغهم ذلك رسولهم هود عليه السلام، قال الله تعالى في حكاية قول هود لهم في سورة (الشعراء ٢٦):

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

الريع: هو المرتفع من الأرض، والطريق. آيةً: أي علامة تدلّ على قوتكم، فتفاخرون بها.

أمّا توجيه الإسلام لتنظيم الأعمال وتوزيعها بعدل على الأوقات، فموجود في كلّ العبادات الإسلامية المفروضة، وفي معظم العبادات غير المفروضة، فهي مشمولة بنظام عمل محدّد، لا مجال فيه للفوضى. الصلاة المفروضة تؤدّى بنظام تام في أوقاتها، وفي حركاتها، وفي أقوالها، سواء أدّيت بصفة فردية أو بصفة جماعية وقد ثبت في الصحيح أنّ أحب الأعمال إلى الله الصلاة لوقتها. والصوم يؤدى بنظام تامّ، إذا طلع الفجر أمسك الصائم عن كلّ المفطرات، وإذا غربت الشمس أفطر الصائم فلم يعد إمساكه صوماً. والحجّ يؤدّى بنظام تام، فلا يجوز الوقوف بعرفة إلّا في يوم محدّد من السنة، ولا يجوز الإخلال بالفروض والواجبات، ولا التفريط بالمحرّمات، ولا الخروج عن حدود الشعائر. والزكاة تؤدّى بنظام لا مجال فيه للفوضى.

وعقود المعاملات في الإسلام لها أنظمة يجب التقيد بها، ولا يجوز الخروج عليها.

ويوم المسلم الملتزم بإسلامه موزّع وفق نظام يدخل في فقراته العبادات بأوقاتها المحدّدة، والباقي ينظمه المسلم حسب حاجاته من العمل والراحة.

— ٩ —

المبادرة بفعل الخير قبل وجود الموانع

ومن ظواهر قوة الإرادة المبادرة بفعل الخير قبل وجود الموانع، وهذا ما أرشد إليه الإسلام.

عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال:

«بادروا بالأعمال سبعاً: هل تنتظرون إلّا فقراً منسياً، أو غنىً مطغياً، أو مرضاً مفسداً، ، أو هرماً مُفْنِداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدّجّال فشرٌّ غائبٍ ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمرّ».

(رواه الترمذي بإسناد حسن)

يهدف هذا الحديث إلى تربية المسلمين على خلق علوّ الهمة، وخلق قوة الإرادة، وذلك لأن مبادرة الأحداث قبل وقوعها بالأعمال الكفيلة بدرء أخطارها، واغتنام الوقت قبل حلولها، تحتاج إلى حزم حكيم، وجدٍّ صادق، وبتٍّ في الأمور عند ظهور الوجه الأصلح، وبعد عن التردّد والتخاذل، وحذر من داء التواني والكسل، والتسويف في العمل، وهذه كلّها ظواهر ترجع في مجموعها إلى خلق قوة الإرادة، وخلق علوّ الهمة، فتوجيه الرسول ﷺ المسلمين لمبادرة الأحداث قبل وقوعها من تربيتهم على هذين الخلقين الكريمين.

ونبّه الرسول ﷺ على أحداث سبعة يجب على المسلم العاقل الحازم قويّ الإرادة عالي الهمة أن يبادرها بالأعمال الصالحة، والأعمال الصالحة النافعة تشمل جميع ما أمر به الإسلام من سلوك أخلاقي، أو عبادة لله عزّ وجل، أو جهاد في سبيل الله، أو التزام للمنهج الإسلامي الذي رسمه الله للناس، في أيّ ميدان من ميادين العمل.

أما السبع التي أمر الرسول ﷺ بمبادرتها بالعمل، فهي مجموعة أعراض في حياة الإنسان صارفةٍ له عن العمل، أو مقعدة له عنه، أو قاطعة له عنه قطعاً كلّيًّا، ويأتي في قمة هذه الأعراض وفي غايتها الموت الذي تنتهي به فترة الامتحان، وهذا بالنسبة إلى كلّ فرد، ثمّ قيام الساعة التي تنتهي بها الحياة الدنيا

كلّها، فلا يبقى لأحد من الناس عندئذٍ مجال لأي عمل. وأمّا الدّجال فهو شرّ فتنة مرتقبة تفتن الناس عن دينهم، فتصرفهم عن فعل كلّ خير، وتدفع بهم إلى سوء المصير.

وكلّ أمر من هذه الكوارث السبع يداهم الناس بثقل عظيم، يصرفهم عن العمل صرفاً كلّياً أو جزئيّاً، أو يقيم بينهم وبين العمل سدّاً لا يستطيعون اختراقه.

وبأسلوب بارع بديع عرض الرسول ﷺ هذه السبع، إذ جاء بها على طريقة الاستفهام، وهذا الأسلوب البياني أرقى وأفعل في النفس من العرض بأسلوب البيان الخبري، المجرّد عن الاستفهام، وذلك لأن أسلوب الاستفهام لدى تقرير الحقائق يستدعي مشاركة المخاطبين في التفكير، ومساهمتهم في البحث عن الأعراض والأحداث الكونية الصارفة أو المقعدة أو القاطعة للناس عن العمل.

الأوّل: «هل تنتظرون إلاّ فقراً منسياً؟» فوصف الرسول ﷺ الفقر بأنه ينسي، وهو من الأعراض التي قد يتعرض لها الإنسان في حياته، فتهز كيانه، وتفقده صوابه، وتنسيه العمل لآخرته.

إنّ الفقر الشديد الذي يحوج الإنسان إلى لقمة العيش وضرورات الحياة، يفقده صوابه، ويحصر كلّ تفكيره في طلب ما يسدّ به حاجاته، فإذا لزمه الفقر شتّت باله، وهزّ كيانه، وأقلق نفسه، وعندئذ ينسى معظم الواجبات المتعلّقة به، وينسى الأعمال الأساسية التي تكون سبب سعادته في الدنيا والآخرة. وهذا الفقر عرض من أعراض الحياة قد يصيب الإنسان فجأة دون ترقّب، وقد يداهمه دون أن يحسب له حساباً، والعاقل هو الذي يغتنم الأيّام التي يكون فيها ذا سعة ويسار، فيبذل من ماله في سبيل الله وابتغاء مرضاته، ويقدّم بذلك عملاً صالحاً يبادر به ما قد يداهمه من فقر ينسيه، ويغتنم أيّام استقراره النفسي بيساره، فيعمل أعمالاً صالحات يبادر بها ما قد يفاجئه من فقر يقلقه، ويشتت باله وينسيه واجباته.

الثاني: «أو غنىً مطغياً؟» والغنى المطغي من الأعراض التي قد يتعرّض لها الإنسان في حياته، ومن الثابت أنّ نفس الإنسان يمسّها الطغيان متى شعرت بالاستغناء، وهذا ما بيّنه الله بقوله في سورة (العلق ٩٦):

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾.

وهذا الطغيان النفسي الذي يمسّ الإنسان عند شعوره بالاستغناء طغيان يصرفه صرفاً عنيفاً عن الأعمال الصالحة، والعاقل الحصيف الحازم قوي الإرادة هو الذي يبادر بالأعمال الصالحات هذا الشعور قبل أن يمسّ نفسه، فيقيم بينه وبين نفسه سدًّا من فضائل الأخلاق، فإذا جاءه الغنى وقد بادر بالأعمال الصالحات لم يطغه الغنى.

الثالث: «أو مرضاً مفسداً؟» والمرض من الأعراض التي قد يتعرض لها الإنسان في حياته، فتفسد نفسه، ومزاجه، وتقعده عن العمل.

فإذا لم يغتنم الإنسان زمن صحته، ولم يبادر بالأعمال الصالحة ما قد ينزل به من سقم، ولم يعدّ نفسه إعداداً حسناً، يتلقّى معه الآلام بصبر ورضىً عن الله، جاءه عرض المرض فأقعده عن العمل، وأفسده، إذ يضجره، ويسيء أخلاقه، ويجعل تصرفاته مع نفسه ومع الناس تصرفات شاذّة، وقد يتطاول على ربّه بما يجعله ــ والعياذ بالله ــ من الكافرين.

أمّا إذا أعدّ نفسه بالأعمال الصالحة إعداداً حسناً، فإنّه إذا جاءه المرض تلقّاه بصبر ورضى عن الله، وكان له طهوراً، وحُسبَ له مدّة مرضه مثل الأعمال الصالحة التي كان يفعلها قبله.

كما أن المرض يمنع الإنسان عن كثير من الأعمال الصالحة إذ يقعده عنها، والعاقل هو الذي يغتنم أحوال صحته، قبل أن تأتيه أحوال المرض، فيستزيد من الأعمال الصالحة ما أمكنته الاستزادة.

الرابع: «أو هَرَماً مُفْنِداً؟» أي موقعاً في الخَرَف، والْفَنَدُ: الْخَرَف وتناقص

العقل من الهرم أو المرض، وقد أفْنَد الرجلُ إذا خَرِف، ويُقال: شيخٌ مُفْنِد، أي واصل إلى مرحلة الخَرَف. والْفَنَدُ: الخطأ في الرأي والقول. وأفْنَدَهُ: أي خطّأ رأيه.

والهرم الْـمُفْنِد عجزٌ مقعدٌ عن العمل ومفسد للرأي، والعاقل هو الذي يغتنم زمن شبابه وقوّته قبل أن يأتيه طور الهرم الذي يقعده عن العمل، ويكون هذا الاغتنام بأن يبادر بالعمل الصالح.

الخامس: «أو موتاً مجهزاً؟» والموتُ المجهزُ هو الموت السريع الذي يفاجىء الإنسان دون مقدمات، وبالموت ينقطع الإنسان عن كلّ عمل.

والعاقل الحازم الحصيف قويّ الإرادة عالي الهمّة، هو الذي يغتنم حياته بالأعمال الصالحة، قبل أن يأتيه الموت المفاجىء دون إنذارٍ سابق.

وكلّ إنسان عرضة لأن ينزل به الموت المفاجىء.

السادس: «أو الدجّال فشرّ غائبٍ ينتظر؟» نعم إنّ الدجّال شرّ فتنة منتظرةستتعرض لها الإنسانية كلّها، ومن لم يُعدّ نفسه بالأعمال الصالحات قبل مجيء هذه الفتنة العظيمة، لم يستطع الثبات بإيمانه أمام تيّارها الجارف، وقبل الدجّال دجالة كثيرون.

السابع: «أو الساعة فالساعةُ أدهى وأمرّ؟» والساعةُ إذا قامت لم يبق معها حيٌّ على وجه الأرض، وبها تنقطع كلّ الأعمال.

والمؤمن العاقل الحصيف قويّ الإرادة عالي الهمة يبادر بالأعمال الصالحة هذا الحدث قبل أن يقع، لأنّه يعلم أنّ وقوعه حتمي لا محالة، إلّا أنّ الله تعالى أخفى زمنه، واحتمال وقوعه واردٌ في كلّ حين، لا سيما وكثير من أشراط الساعة قد ظهر، والساعة لا تأتي بتقدير الله إلا بغتة.

وهكذا يوجّهنَا الرسول ﷺ بنصائحه ووصاياه، حتى نكون أصحاب إرادات قوية حازمة عاقلة، وأصحاب همم عالية عاملة، وأهل رأي حصيف.

— ١٠ —

التفــاؤل بالخــير

ومن ظواهر قوة الإرادة التفاؤل بالخير، وصرف النفس عن التشاؤم من العواقب، ما دام الإنسان يعمل على منهج الله فيما يرضي الله.

والإسلام يشجع المسلمين على التفاؤل ويرغبهم به، لأنه عنصر نفسيّ طيب، وهو من ثمرات قوة الإرادة، ومن فوائده أنه يشحذ الهمم إلى العمل، ويغذّي القلب بالطمأنينة والأمل.

والإسلام ينفر المسلمين من التشاؤم، ويعمل على صرفهم عنه، لأنه عنصر نفسيٌّ سيّىء، يبطىء الهمم عن العمل، ويشتت القلب بالقلق، ويميت فيه روح الأمل، فيدبّ إليه اليأس دبيب الداء الساري الخبيث، وهو يدلّ على ضعف الإرادة.

ولذلك كان رسول الله ﷺ يحبّ الفأل ويكره التشاؤم.

إنّ التفاؤل من الوجوه الباسمة المشرقة في الحياة بخلاف التشاؤم فهو من الوجوه الكالحة القاتمة.

حسب الإنسان من التفاؤل أن يعيش سعيداً بالأمل، فالأمل جزء من السعادة، أما التشاؤم فيكفيه ذمّاً وقبحاً أنه يشقي صاحبه ويقلقه ويعذبه، قبل أن يأتي المكروه المتخوّف منه، فيعجّل لصاحبه الألم، وقد لا يكون الواقع المرتقب مكروهاً يتخوّف منه، إلاّ أنّ التشاؤم قد صوّره بصورة قبيحة مكروهة.

إنّ المؤمن صادق الإيمان يعمل متوكّلاً على الله، فيكسبه توكّله على الله الأمل والرجاء بتحقيق النتائج التي يرجوها، فيعيش في سعادة التفاؤل الجميل بسبب توكله على الله. أمّا المتشائم فلا يلاحظ من احتمالات المستقبل إلاّ وجوهها القبيحة المكروهة. وسبب التشاؤم سوء الظن بالله وضعف التوكل على الله.

وقد جاء معنى التفاؤل في القرآن تحت صيغة الرجاء، فالمسلم يرجو من

الله تحقيق الأمور المحبوبة التي ترضيه سبحانه، فمن ذلك قول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾.

ففي هذا النصّ القرآني حثّ شديد على الجهاد ومقاتلة العدوّ باندفاع قويّ وبأس صادق، وتذكير للمؤمنين بأنهم يرجون من الله ما لا يرجو عدوهم، فهم يرجون من الله أن يؤيدهم بنصره، وهذا لا يرجوه عدوهم، وهم يرجون من الله أن يجزل لهم الأجر عنده يوم القيامة، وهذا أيضاً لا يرجوه عدوّهم، فالرجاء هنا يدلّ على ما يدلّ عليه معنى التفاؤل.

— ١١ —

تلقي الأحداث بصبر، وعدم الحزن على ما فات، وعدم التطلع إلى ما هو بعيد المنال

ومن ظواهر قوة الإرادة تلقي الأحداث بالصبر، وعدم الحزن على ما فات، وعدم التطلع إلى الأماني المستحيلة أو بعيدة المنال جدّاً، لئلا تشتغل النفس بها، فتفوّت العمل الجاد لتحقيق المرجوّ، وتضيع الوقت بالأوهام، وأحاديث النفس الضائعات، وما يسمّى بأحلام اليقظة.

والإيمان بالقضاء والقدر مع الثقة بحكمة الله، يحقق للمؤمن هذا المظهر من مظاهر قوة الإرادة.

وفي تربية الإسلام المسلمين للأخذ بهذه الظاهرة من ظواهر قوة الإرادة، قال الله تعالى في سورة (الحديد ٥٧):

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾.

فالمؤمن يتلقى مقادير الله بإرادة قوية، ورضىً تام، وصبر وجلد، لأنه يعلم أنّ الله حكيم، فهو لا يختار لعباده إلّا ما فيه خيرهم.

ومن الوصايا النبوية قول الرسول ﷺ:

«المؤمن القوي خير وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير، فاحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيءٌ فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا. ولكن قل: قدّر الله، وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان».

(أخرجه مسلم عن أبي هريرة)

وتوجيهات الإسلام للصبر ستأتي في فصل خاص إن شاء الله.

ـ ١٢ ـ
مَلْك النفس عند الغضب

ومن ظواهر قوة الإرادة ملك النفس عند الغضب، وقد مجّد الرسول ﷺ هذه الظاهرة الخلقية.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة، أنّ النبيّ ﷺ قال:

«ليس الشديد بالصُّرَعة، إنّما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب».

والصُّرَعَة: هو بطل المصارعة، الذي يغلب مصارعيه وينتصر عليهم، وقد بين الرسول ﷺ أنّ بطل المصارعة ليس هو في الحقيقة الذي يستحقّ أن يقال عنه الرجل الشديد، وإنّما الذي يستحق هذا الوصف هو قويّ الإرادة، ذو الرصانة الخلقية، الذي يملك نفسه عند مثيرات الغضب، فهذا هو الشديد حقّاً، لأنه استطاع أن يغلب أقوى الدوافع في نفسه بقوّة إرادته وسموّ خلقه، ومتى كان الإنسان قادراً على أن ينتصر على أقوى دوافعه الداخليّة فيه، فهو على ما دون ذلك أقدر، وله أملك وأغلب.

وفي مثل هذا يبرز ارتقاء الإنسان في سلّم الكمالات الحقيقية،

أمّا ذو العضلات القوية، والدربة في مصارعة الأقوياء، والتغلّب عليهم جسديّاً، فلا يزيد على أنّه حيوان قوي قد يصرعه ثور، وقد يخدعه ثعلب، وقد يفترسه نمر، وقد يبتلعه حوت، وقد تطرحه لدغة عقرب، وقد تقتله بعوضة.

والغضب المطلوب كفّه هو ما كان غضباً للنفس، أمّا الغضب لله، فهو أمرٌ حسن ينبع من منابع الإيمان لا من منابع النفس وما يسوؤها من أمور الدنيا. والغضب لله هو ما يكون من المؤمن إذا انتُهكت حرمة من حرمات الله، بارتكاب معصية من المعاصي مع المجاهرة وعدم المبالاة.

وقد كان الرسول ﷺ حليماً في أمره كلّه، وكان لا يغضب ولا ينتقم لنفسه، ولكن كان إذا عُصي الله أمامه أو انتهكت حرمة من حرماته غضب لله، وانتقم لله.

بيد أنّ إظهار الغضب لله يجب أن يكون مقترناً بالحكمة التامّة التي تحقّق إزالة المنكر من جهة، وإصلاح حال العصاة من جهة أخرى، وقد علّمنا الرسول ﷺ أساليب الحكمة المختلفة، والتي يناسب كلٌ منها حالاً من الأحوال، ولدى البحث واستقصاء الأحوال والظروف نجد أن إظهار الغضب في مواجهة بعض العصاة قد يسيء إلى غاية الإصلاح، وقد يجعلهم يتمادون في الغيّ، فلا يكون ذلك واعظاً لهم ولا مصلحاً، وفي مثل هذه الأحوال قد لا يحسن إظهار الغضب، بل يحسن الرفق والنصيحة الحسنة والدعوة إلى الله بحكمة، أو يحسن الإعراض إذا كان المسيء من الجاهلين، وكذلك كان يفعل الرسول ﷺ ، فقد كان إذا واجه أهل الكفر وهم متلبّسون بأعمال كثيرة كلّ واحد منها فيه انتهاك لحرمات الله، لم يقابلهم ولم يواجههم بالغضب والعنف، ولكنه كان يبدأهم بالدعوة إلى الله وإلى الإيمان به وحده، ويبيّن لهم الأسس الأولى للإسلام، أمّا إذا رأى مؤمناً أو جماعة مسلمة قد انتهكوا شيئاً من حرمات الله، فحينئذ كان يغضب لله ويشتد غضبه مع أهل القرب والطاعة، ويخفّ مع غيرهم، ومهما رقّ إسلام الرجل كان رفق الرسول في دعوته أكثر، وكان إظهار الغضب من عمله أخف.

وهذا ما توجبه أساليب الحكمة في الدعوة إلى الله، والتي أرشد إليها قول الله تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾.

فعلى الداعي إلى الله أن يزن المواقف بميزان العقل والحكمة، ويعطي كلاً منها ما يلائمه، ويتّخذ من الوسائل ما هو أقرب إلى تحقيق غاية الإصلاح.

ومن مواقف الرسول ﷺ التي فيها شيءٌ من الشدّة غضباً لله تعالى، موقفه مع عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها، حينما دخل عليها فرأى أنها سترت مقدمة بيتها بِقِرَام[1] فيه تماثيل، هتكه وتلوّن وجهه، وقال: «يا عائشة أشدّ الناس عذاباً عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله».

(رواه البخاري ومسلم عن عائشة)

فقد كان هذا الموقف الذي فيه شيء من العنف وإظهار الغضب مع عائشة أم المؤمنين، ولم يكن مع إنسان رقيق الإيمان هو بحاجة إلى تثبيت إيمانه، قبل إصلاح مظاهر سلوكه، فحاله يدعو إلى التلطف معه في الدعوة والنصح والإرشاد.

ونظير هذا الموقف النبوي شدّة الرسول ﷺ على أسامة وعلى من دفعه إلى الشفاعة في المرأة المخزومية التي سرقت، فأسامة حِبُّ رسول الله وابن حِبّه، ومن فتيان الإسلام الصادقين، والذين دفعوه إلى الشفاعة في المرأة السارقة شيوخ من كبار المؤمنين القرشيّين، ولذلك اشتدّ الرسول ﷺ عليهم في التأنيب.

---

(١) بِقِرام: القِرام ستر رفيق.

ـ ١٣ ـ
خـــاتـــمـــة

وهكذا اتخذ الإسلام الوسائل المختلفة اللازمة، ليربّي في المسلمين عنصر انتصار الإرادة على كل ما يحاول أن يجنح بها عن مواقف العقل والحكمة ومرضاة الله، ويدفع الإنسان إلى تهلكته.

وهكذا دفعنا الإسلام لأن نكون عاقلين، أي: أقوياء الإرادة، إذا عرفنا حقاً أو خيراً عقلنا أنفسنا للقيام به، وإذا عرفنا باطلاً أو شرّاً عقلنا أنفسنا للكفّ عنه ومجافاته ومحاربته.

وعلّمنا الإسلام أن أقوياء الإرادة العقلاء هم أكثر الناس تمسكاً بتعاليم الدين، وأكثرهم تحلياً بفضائل الأخلاق ومحاسن الآداب، وأكثرهم التزاماً للسلوك الأقوم.

وعلّمنا الإسلام أنّ العاقل قويّ الإرادة يُحسن قيادة نفسه بحكمة وحزم، ويكون في أغلب الأحيان نظامياً جاداً عالي الهمة بعيداً عن كل فوضى ولهوٍ وهزل.

وعلمنا الإسلام أنّ العاقل قوي الإرادة يبتّ أموره بحزم، ولا يجعل نفسه ممزّقة بالحيرة والتردّد.

وعلمنا الإسلام أنّ العاقل المؤمن قوي الإرادة متفائل في حياته غير متشائم، وشجاع في مواطن الخوف التي يأمر الإسلام فيها بالشجاعة، فلا يستولي عليه الجبن والخور، ولا يستبدّ به الضعف.

وعلمنا الإسلام أنّ العاقل المؤمن قويَّ الإرادة يستطيع أن يرتقي إلى مراتب مجد عظيمة، دينية ودنيوية، وعلى مقدار قوة إرادته يكون سبقه في الارتقاء.



الفصل الرّابع

الدّافع الجماعي

ـ ١ ـ

الدافع الجماعي من الأسس العامة للأخلاق

من الأسس العامة التي ترجع إليها مجموعة من الفروع والمفردات الخلقية المحمودة الدافع الجماعي، أو الجماعية.

ويأتي في مقابل هذا الأساس الخلقي خلق الأنانية والانفرادية أو الانعزالية، الذي ترجع إليه مجموعة من النقائص الخلقية في السلوك الإنساني.

والدافع الجماعي (أو الجماعية) شعور الفرد بأنه جزء من جماعة هو عضو من أعضائها، أو خليّة من خلاياها، مع شعوره بأنه محتاج إليها، فهو يحبّ الجماعة ويلزمها، ويكره الانفراد والانعزال، ولا يستطيع الاستمرار في الوحدة.

ولدى إمعان النظر في معظم الرذائل الخلقية الاجتماعية نلاحظ أنها نابعة من منابع الأنانيّات المختلفة، ولدى إمعان النظر في كثير من الفضائل الخلقية الاجتماعية نلاحظ أنّها ترجع إلى ما لدى الفرد من جماعية. فما من فضيلة يتعدّى نفعها وخيرها للآخرين إلاّ وفيها عنصر التخلّي عن أنانيّة من الأنانيات الفردية الشخصيّة، والعامل الخلقي الذي يدفع إلى هذا التخلي هو الدافع الجماعي، أي: شعور الفرد بأنه جزء من الجماعة، فهو يحبّ للأجزاء الأخرى مثل ما يحبّ لنفسه.

وممّا لا ريب فيه أن الدافع الديني الذي يدفع الإنسان إلى ابتغاء مرضاة ربّه دافع يدعم الجماعية، ويقوم مقامها ويؤدّي وظائفها إذا انعدمت في الفرد.

ويميل الفرد الإنساني إلى الجماعة ويجدُ في نفسه الرغبة الملحّة للالتقاء والاندماج في طائفة من الناس، لأن كثيراً من مطالب حياته، وحاجاته الجسدية والنفسية والفكرية، لا تتم إلا عن طريق الجماعة، كالأنس بالجماعة، والشعور بالأمن والطمأنينة معها، والتماس مناصرتها، والتقوّي بها، وتعاونه معها في تحقيق شتى مطالب الحياة، وتبادله معها المكتسبات العلمية والمنجزات الحضارية.

أفيريدُ الفرد أن يأنس بالجماعة دون أن يعطيها منه أنساً؟ أفيريد أن يأخذ منها الأمن والطمأنينة دون أن يعطيها من نفسه وسلوكه مثل ذلك؟ أفيريد أن يلتمس عندها القوة وشدّ الأزر، دون أن يدفع من قوته لصندوق القوة العام مقداراً يناسب مستوى مساهمته في الجماعة ويناسب قدر نصيبه من القوة الجماعية؟.

إنّ الحقّ والعدل يقضيان بأنّ كلّ أخذ لا بدّ أن يكون له ثمن من عطاء.

وعطاء الأنس والأمن والطمأنينة والقوة وشدّ الأزر والمعونة من مفردات مكارم الأخلاق.

أمّا الأنانية الانعزالية فإنها لا تعطي من نفسها للآخرين أيّ عطاء، ولا تنبع عنها أيّة فضائل اجتماعية.

ومن مطالب الفرد التي لا تتحقق له إلاّ عن طريق الجماعة، حاجته النفسية إلى المحبة، وحاجته النفسية إلى التقدير، وحاجته إلى المعونة والمساعدة في معظم شؤون حياته، ومنها حاجات عضوية أخرى للفرد لا تتم إلاّ مع غيره. كلّ هذه الأمور تولّد في نفس الفرد الميل إلى الجماعة، والرغبة الملحّة بالاندماج فيها أو الالتقاء معها، وهذه الحاجات التي يريد من الجماعة أن تقدّمها له لا يظفر بها ولا يستطيع أن يحافظ عليها ما لم يقدّم هو من نفسه للجماعة أثمانها.

إنّ ثمن محبّة الآخرين له إنما يكون بالتودّد لهم، وبإكرامهم، وبالتضحية من أجلهم، وبحسن معاشرتهم ومعاملتهم بكثير من فضائل الأخلاق. وثمن تقدير الآخرين له إنما يكون باكتساب الكمالات والفضائل المختلفة، وأهمها فضائل الأخلاق ومحاسن الآدَاب. وثمن معاونة الآخرين له معاونته لهم. وثمن مساعدتهم له مساعدته لهم، وهكذا إلى سائر حاجات الفرد التي لا تتمّ له إلّا عن طريق الجماعة.

وبدهيٌّ أن هذه المبادلات الاجتماعية الكريمة التي لا تنظمها عقود البيع والشراء، مشمولة بعنوان فضائل الأخلاق الاجتماعية، وقد ظهر لنا أنّ الدافع الجذري الخلقي لها هو الجماعية.

فالدافع الجماعي (أو الجماعية) أساس جذريّ تنجم عنه مجموعة من مفردات مكارم الأخلاق.

وإذا كانت الأنانية المفرطة الجانحة خلقاً إنسانيّاً مهيناً، فإنّ الغيـرية أو الجماعية خلق إنساني كريم.

وللأنانية المفرطة الجانحة ظواهر سلوكية كثيرة كلّها مشمولة بعنوان رذائل الأخلاق.

وللغيرية أو الدافع الجماعي ظواهر سلوكية كثيرة مشمولة بعنوان فضائل الأخلاق.

ـ ٢ ـ
فوائـد الجماعـة

غذّى الإسلام الدافع الجماعي، وعمل على تنميته بين المسلمين، وحثّ على لزوم الجماعة، وحاول التخفيف من أنانية الإنسان وانعزاليته، وحذّر من الانفرادية والفرقة، ما لم تفسد الجماعة فساداً عامّاً، لما في الدافع الجماعي ولزوم جماعة الخير من فوائد عظيمة، للفرد الإنساني، وللجماعة الإنسانية، ولما في

الأنانية والانعزالية والانفراديّة من مضارّ كثيرة، للفـرد الإنساني وللجمـاعة الإنسانية.

إنّ جلائلَ الأعمال الكبرى لا تتحقّق إلّا عن طريق العمل الجماعي المنتظم المتعاون، بخلاف العمل الفردي فإنه لا يثمر في الغالب إلّا أعمالاً تتناسب مع مستوى طاقات الأفراد شدّة وضعفاً، والنزعة الانفرادية تنمو معها الرغبة القبيحة بتهديم أعمال الآخرين، حرصاً على الانفراد بمجد التقدير بين الناس، ومع هذه الرغبة القبيحة تتبدّد الأعمال الفردية نفسهـا، أو تضيع ثمراتها، فتحرم الإنسانية بالانفرادية ثمرات الأعمال الجماعية، وكثيراً من ثمرات الأعمال الفردية.

إنّ الارتباط بالجماعة والتعاون معها يضاعف مقادير القوة، لأنّ القوة المجتمعة تصمدُ أمام القوى الأخرى المعادية، بخلاف القوى الانفرادية المتناثرة، فإنّ أيّة قوة معادية مجتمعة تستطيع الظفر بها والتغلب عليها، ثم التحكّم بمقاديرها، وإن كان قسم من القوى الانفرادية لو اجتمع لاستطاع صَدَّ القوة المعادية والتغلّب عليها.

إنّ القوة الانفرادية زائد القوة الانفرادية تساويان مجتمعتين أكثر منهما متفرقّتين، والسبب في ذلك أنّ القوى الانفرادية تتدخل فيها عوامل الوهن والتخاذل، فتبدّد قسماً كبيراً منها، أو تحجبه عن الظهور والاستعمال، فتظهر قيمة القوة ذاتَ نسبة ضعيفة، بخلاف هذه القوة إذا كانت مجتمعة مع غيرها، فإنها تقترن بعوامل الطمأنينة والأمل بالنجاح، فتشحنُ عن آخرها، وتضاف إليها قوى احتياطية لا تظهر إلّا بتأثير عوامل قوية، وحينئذٍ تظهر قيمة القوة نفسها ذات نسبة عالية.

ومن فوائد الاجتماع تهذيب الأخلاق، والتدرّب على كثير من الفضائل والآداب، واقتباس الثمرات المفيدة النافعة التي يتوصّل إليها الآخرون، سواءٌ أكانت علميّة أو عمليّة، والاجتماع يدفع إلى الحركة، ويطلق كثيراً من الطاقات النفسية الكمينة.

بخلاف الانعزالية والانفراد، فإنّه يميل بالإنسان إلى التوحش والحذر من كلّ شيء، ويغذّي الأنفس بكثير من رذائل الأخلاق، إنّ المصاب بالانفرادية والانعزال نفورٌ أذيّ غضوب، لا يصبر على أيّ عمل يؤذيه أو يخالف هواه، ولا يستطيع أن يتكيّف مع أية مجموعة بشرية يلتقي معها، ولا يستطيع أن يضغط على نفسه بشيء يخالف هواه، ليُحْسنَ معاشرة من يلتقي معهم من الناس. كيف يستطيع ذلك وأنانية الانفرادية الانعزالية هي الحاكمة عليه.

وفوائد الاجتماع هذه إنما تحصل بشرط أن يكون المجتمع مجتمعاً صالحاً، أو فيه نسبة من الصلاح كافية. أمّا إذا كان مجتمعاً سيّئاً أو فيه نسبة كبيرة من السوء، فإنّ جفوته والاعتزال عنه خير وأفضل، وعلى العاقل في مثل هذا الوضع أن يتخذ لنفسه مجتمعاً محدوداً صالحاً يتعامل معه ويعيش في وسطه.

ـ ٣ ـ
حثّ الإسلام على الجماعة وتحذيره من الانفراد والانعزالية

ونجد أنّ الإسلام قد حثّ على الجماعة، وأمر بلزومها، واتخذ كثيراً من الوسائل العملية لإنماء الروح الجماعية بين المسلمين، في ظروف السلم والحرب، ونهى عن الفرقة، في نصوص كثيرة، منها النصوص التالية:

١ ـ روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

«إنّ الله يرضى لكم ثلاثاً، ويسخط لكم ثلاثاً: يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولّاه الله أمركم، ويسخط لكم ثلاثاً: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال».

وروى الترمذي بسنده عن عبدالله بن عمر عن عمر، أن النبي ﷺ قال:

«عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإنّ الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، ومن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة».

من حديث خطب به عمر بالجابية، وقال الترمذي فيه: هذا حديث حسن صحيح.

٢ ــ ووصف الرسول ﷺ المؤمن بأنه مأْلَفٌ، أي: بأنه يألف ويؤلف، روى الإمام أحمد والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة، أنّ النبيّ ﷺ قال: «المؤمن مَأْلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف».

فالإنسان الذي لا يألفُ الناسَ ولا يألفه الناس لا خير فيه، لأنه مفرط في أنانيته، محروم من فضائل الأخلاق التي تحبّبه إلى الناس وتقرّبه إليهم.

٣ ــ وتعميقاً لوحدة جماعة المؤمنين شبّه الرسول ﷺ المؤمنين بالبنيان يشدّ بعضه بعضاً، روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً» وشبّك بين أصابعه.

ففي هذا الحديث دعوة إلى الوحدة الجماعيّة بين أفراد المسلمين، وفيه بيان للفائدة العظيمة التي تجنيها الجماعة من وحدتها وتماسكها، إنّها القوة التي تظفر بها الجماعة، حينما يترابط أفرادها ويشدّ بعضهم أزر بعض، إنهم بذلك يكوِّنون شيئاً يشبه البنيان، ألسنا نرى القصر العظيم وما فيه من أبراج عالية مؤلفٌ من حجارة صغيرة جُمع بعضها إلى بعض، وعُقدت وفق نظام خاصّ يمنحها مجتمعة قوة عجيبة ترتقي حتى تنطح السحاب؟!

وفي التصوير المادّي الذي فعله الرسول ﷺ إذْ شبك بين أصابعه ــ بعد قوله: «كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً» ــ استخدام للتمثيل الحسّي بعد التشبيه الكلامي، لتجسيد الفكرة المعنوية، ووضعها في مثالٍ حسّيّ مشاهد، والفكرة المعنوية هنا هي وحدة الجماعة وقوتها وتماسك أفرادها.

٤ ــ وزاد الرسول ﷺ في تعميق معنى وحدة جماعة المسلمين، إذ أبرز أنّ كتلتهم الواحدة المتماسكة، وبناءهم المتشابك، بناء تسري فيه روح واحدة وحسّ مشترك، فمثلهم كمثل الجسد الواحد، الذي تتعاون جميع أعضائه تعاوناً تامّاً، وتتشارك جميع أعضائه في الألم وفي المسرّة.

روى مسلم عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ:

«المؤمنون كرجلٍ واحدٍ إن اشتكى عينه اشتكى كلّه، وإن اشتكى رأسه اشتكى كلّه».

وروى البخاري ومسلم عن النعمانِ بن بشير أيضاً، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى».

ففكرة وحدة جماعة المؤمنين وتماسك بنائهم قد وضعها الرسول ﷺ في صورة رجلٍ واحد، فالرجل الواحد جسد ذو أعضاء مترابطة يجمعها عصبٌ واحد، ويديرها فكر واحد، وتحرّكها عواطف واحدة، وانفعالات واحدة، ويغذّيها دمٌ واحد، وتسير جميعاً إلى غاية واحدة، فإذا نزل الألم بالبعض فقد نزل الألم بالكلّ على سبيل المشاركة، وإذا تمتّع البعض بلذّة من اللّذات، اشترك معه فيها الجميع، بحكم الصلة الوثيقة التي تؤلف وحدة الأحاسيس والمشاعر.

إنّ الصورة التي شبّهت الجماعة المؤمنة بالبنيان الذي يشدّ بعضه بعضاً، قد أعطت معاني القوة القابلة لبناء مجد رفيع، وعزّ منيع. أمّا الصورة الثانية التي شبهت وحدة جماعة المؤمنين برجل واحد، فقد أدخلت عنصر الحياة في البناء الجماعي للمؤمنين، وعنصرُ الحياة يلازمه الإحساس بالآلام واللّذات، وبسائر المشاعر الوجدانية والمشاعر الظاهرة.

ومن خلال هاتين الصورتين الحسّيّتين نستطيع أن نتصوّر معاني الوحدة الجماعية التي دعا إليها الإسلام، فهي بناء قابل للارتقاء العظيم، وهي مع ذلك بناء حيّ ذو أحاسيس ومشاعر ذات آلام وآمال ولذّات وأكدار مشتركة.

والرواية الثانية للحديث الذي رواه النعمان بن بشير قد أبرزت عناصر الترابط الجماعي، وهي التوادّ، والتراحم، والتعاطف، وهذه العناصر هي مشاعر الأخوة الإيمانية، التي توجدها القاعدة الإيمانية وتغذيها وتنميها بتوفيق الله.

ولـمّا كان معنى الجماعة موجوداً في الفرد، كان من قتل نفساً بغير حقّ كمن قتل الناس جميعاً، إذ يكون قد تعدّى على الناس جميعاً بالقتل، يضاف إلى ذلك أنّ القاتل من الناحية النفسية مستعدٌّ لأن يكون قاتلاً للناس جميعاً، فهو كسارق الدرهم مستعدٌّ لأن يسرق القناطير المقنطرة متى تهيّأت له الفرصة، وتعلّقت مصلحة نفسه بذلك، وفي الدلالة على هذه المعاني قال الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ... ﴿٣٢﴾ ﴾.

من الظاهر الجليّ في هذا أنّ الإسلام يغذّي في الأفراد روح الجماعة، ويربّي فيهم المشاعر الجماعية، ويخفّف من مشاعر الأنانية الفردية الضيقة.

ومثل النفس المرتبطة بالدائرة الجماعية كل حقوق الأفراد، وما يملكون، لها في المفهوم الإسلامي امتداد جماعي، ولذلك جعل الإسلام أموال الأفراد مشمولة بمعنى من معاني حقّ الجماعة فيها، فمن ذلك قول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾.

فجعل في الملكيّة الفرديّة معنىً جماعيّاً، يصحّ به اعتبار أموال الأفراد أموالاً للكتلة الجماعية، ولكنّ التصرف والانتفاع يتبع حقّ الملكية الفردية.

وأوضحُ من هذا ما جاء من تعبير بالنسبة إلى أموال السفهاء، إذ أبان الله فيها معنى امتداد الحقّ إلى الجماعة، لأنّ صيانة أموال الأفراد صيانة للثروة الجماعيّة، فقال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ ﴾.

ونظيره قول الله تعالى في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ . . . ﴿١١﴾ ﴾.

ومعلوم أن الإنسان لا يلمز نفسه، وإنما يلمز غيره، ولكن لـمّا كان المعنى الجماعي معنىً سارياً في كلّ الأفراد كان من يلمز أخاه كمن يلمز نفسه، لأن له نصيباً من مضرّة ما فعل، بوصفه جزءاً من الجماعة التي آذى بعض أفرادها، فسرى الإيذاء إلى الجماعة كلّها.

وتابع الإسلام عملية غرس الروح الجماعية في نفوس أفراد المؤمنين، وتربيتهم على الإحساس الدائم بالمشاعر الجماعية، فلا نكاد نجد مناسبة ملائمة إلّا وللإسلام فيها عمل من ذلك.

٥ ــ ولتغذية روح الجماعة في المسلمين أقام الإسلام مناسبات دينية كثيرة قائمة على الجماعة، وحث المسلمين على شهودها، وشدّد النكير على من يتخلّف عنها، من أهمها صلاة الجماعة.

أخرج النسائي وابن ماجه عن أبـي الدرداء، أنّ الرسول ﷺ قال:

«ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة (أي صلاة الجماعة) إلّا استحوذ عليهم الشيطان، فعليكم بالجماعة، فإنما يأكل الذئب القاصية».

أي إنما يأكل الذئب المبتعدة من الغنم عن أخواتها، وفي هذا بيان للسبب الذي دفع إلى التحذير من الانفراد والبعد عن جماعة المؤمنين، فالمبتعد عن جماعة المؤمنين يعرّض نفسه لذئاب الشرّ، وشياطين الإفساد الذين يغوونه ويضلّونه.

حتى في الطعام فقد أمر الرسول ﷺ المسلمين بأن يجتمعوا عليه ليبارك الله لهم فيه، روى الترمذي عن وحشي بن حرب عن أبيه عن جده، أن

أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله، إنا نأكل ولا نشبع قال: «فلعلكم تفترقون» قالوا: نعم. قال: «فاجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله، يبارك لكم فيه».

٦ ــ وحين يعتذر بعض الانعزاليين، بأنهم يريدون أن يسلموا من أذى الناس، الذي قد يتعرّضون له عند مخالطتهم، يأتيهم البيان النبوي فيثبت لهم أن الذي يصبر على أذى الناس خيرٌ من الذين يرغب بالسلامة فيعتزل عنهم، لأنّ الإسلام يريد من المسلمين أن يكونوا كتلة جماعية ذات قوّة، ويريد من الفرد المسلم أن يكون على مستوىً من الأخلاق رفيع، يستطيع به أن يصبر على أذى الناس، ويحسن معاملتهم مع مخالطتهم، ويكف أذاه عنهم وهو مندمج فيهم، روى الترمذي وابن ماجه بإسناد صحيح عن ابن عمر أنّ النبي ﷺ قال: «المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم».

٧ ــ ومن أهم واجبات الأمة الإسلامية، لربط جماعتهم، وتوحيد قيادتهم، أن يكون لهم إمامٌ يسوسهم، وينظم عقدهم، ويحافظ على جماعتهم، ويبعد عنهم عوامل التفرّق.

ولذلك أمر الرسول ﷺ بطاعة الأمراء مهما كان أصلهم وعرقهم ووضعهم الاجتماعي، متى توافر فيهم شرط الإسلام والأهلية للإمارة، روى البخاريّ عن أنس، أنّ رسول الله ﷺ قال: «اسمعوا وأطيعوا وإن استُعمل عليكم عبدٌ حبشيٌّ كأنّ رأسه زبيبة».

أي: شعر رأسه متجعّد قصير كالزبيبة. أو رأسه كلّه في لونه وتجعده كالزبيبة.

ويشترط لوجوب السمع والطاعة أن يحكم المسلمين ويقودهم بكتاب الله، وأوضح هذا الشرط ما رواه مسلم عن أمّ الحصين قالت: قال رسول الله ﷺ: «أنْ أمِّر عليكم عبدٌ مجدَّعٌ ــ أي: مقطّع الأطراف ــ يقودكم بكتاب الله فاسمعوا وأطيعوا».

فقيد الرسول صلوات الله عليه السمع والطاعة بأنْ يقود الأمير جماعة المسلمين بكتاب الله، فإن أمر بمعصية الله تعالى فإنه لا طاعة له في ذلك.

روى صاحب شرح السنة بإسناد صحيح، عن النوّاس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا طاعة لمخلوقٍ بمعصية الخالق».

وروى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحبّ وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة».

وروى البخاري ومسلم عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا طاعة في معصية، إنّما الطاعة في المعروف».

٨ ــ وحرصاً على وحدة جماعة المسلمين، وربطهم بنظام قيادي واحد، جعل الله طاعة أولي الأمر من المسلمين من عناصر طاعته سبحانه، إذْ أمرَ الذين آمنوا بطاعته وطاعة الرسول وطاعة أولي الأمر منهم، قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾.

فطاعة الرسول من طاعة الله، وطاعةُ أولي الأمر من المؤمنين من طاعة الله أيضاً ما لم يأمروا بمعصية الله تعالى، وطاعة الأمراء وذوي الولايات التي تأتي من دون الولاية العظمى من طاعة أولي الأمر، وحلقات السلسلة ترجع كلّها إلى طاعة الله، لأنه هو صاحب الأمر الأعلى في كلّ ذلك، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يَعصِ الأمير فقد عصاني، وإنما الإمام جُنّة، يُقاتَل من ورائه، ويُتّقى به، فإن أمر بتقوى الله وعدل فإنّ له بذلك أجراً، وإنْ قال بغيره فإنّ عليه منه».

وإنما الإمام جُنّة: أي مثل الترسِ الذي يستتر وراءه المقاتل.

وإنْ قال بغيره فإنّ عليه منه: أي وإن قال بغير تقوى الله فإن عليه من إثم وعقاب ما قال.

٩ ــ وبلغ حرص الإسلام في المحافظة على وحدة جماعة المسلمين، والمحافظة على كتلتهم المنتظمة، وصيانتهم من أن يتسرّب إلى صفوفهم التنازع والخلاف، مبلغاً عظيماً، إذ جعل من يفارق جماعة المسلمين خارجاً من موقع الإسلام إلى موقع الجاهلية، فإنْ مات على ذلك مات ميتة جاهلية. وأمر بالسمع والطاعة والصبر فيما نحبّ وفيما نكره من أوامر ونواهي، وأمر بقتل من يبايع بالخلافة، وخليفة قبله قائم قد سبق وبويع بالخلافة.

إنّ الخطأ الجزئي الذي لا يمسّ أسس عقيدة المسلمين، ولا يفضي إلى هدم كيانهم وقوّتهم الكبرى، أهون بكثير من النتائج الوخيمة التي يفضي إليها شقّ العصا، وتقسيم وحدة الجماعة، وتسرّب التنازع والخلاف إلى الصفوف.

روى مسلم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، فمات، مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عُمِّيّة، يغضب لعصبية، أو يدعو لعصبية، أو ينصر عصبيّة، فَقُتِل، فقِتلته جاهليّة، ومن خرج على أمّتي بسيفه يضربُ برّها وفاجرها، ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي لذي عهدٍ بعهده، فليس مني ولست منه».

تحت راية عُمِّيّة: أي في فِتنةٍ ودعوةٍ عمياءَ ضالةٍ، تعتمد على الحميّة الجاهلية، والمناصرة العصبيّة.

وروى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر، فإنّه ليس أحدٌ يفارق الجماعة شبراً فيموت، إلاّ مات ميتة جاهلية».

فأمرنا الرسول ﷺ في هذا الحديث بالصبر على ما نكره من أمرائنا المؤمنين الذين لا يأمروننا بمعصية الله، وأن نحرص على لزوم الجماعة، فمن فارق الجماعة فمات على ذلك مات ميتة جاهلية.

وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري، أنّ النبي ﷺ قال: «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما».

وروى مسلم عن عرفجة، عن النبي ﷺ قال: «إنّه سيكون هَنات وهَنات، فمن أراد أن يفرّق أمر هذه الأمّة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائناً من كان».

هنات وهنات: أي معايب وشرور.

وروى مسلم عن عرفجة أيضاً قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحدٍ يريد أن يشقّ عصاكم أو يفرّق جماعتكم فاقتلوه».

إنّ عقوبة القتل هي العقوبة الإسلامية للذين يحاولون تفريق صف جماعة المسلمين، وبث الخلاف والتنازع بينهم، لغايات سياسية، فوحدة جماعة المسلمين، وصيانتها من تسرب التنازع والخلاف إليها، ركنٌ من الأركان الأولى للأمّة الإسلامية.

وروى مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «من بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعهُ إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر».

١٠ ــ وأمر الرسول بأركان جماعية خمس، فجعل أولاها لزوم الجماعة والمحافظة عليها، ثم أمر بالسمع والطاعة، وهما لتدعيم وحدة الجماعة تحت قيادة واحدة، ثم أمر بالهجرة، وهي لحوق بالجماعة إلى مركز تجمعها في دولة، ثم أمر بالجهاد، ومن أغراضه صيانة الجماعة الإسلامية، وتوسيع دائرة أرضها، وتكثير أعداد أفرادها. روى الإمام أحمد والترمذي بإسناد صحيح عن الحارث الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «آمركم بخمس: بالجماعة، والسّمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله، وإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، إلاّ أن يراجع، ومن دعا بدعوة الجاهلية فهو من جُثِيّ جهنّم، وإن صام وصلّى وزعم أنه مسلم».

أصل الربقة: الحبل يوضع في العنق، والمراد منا هنا العهدة، والمعنى: وإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع عهدة الإسلام من عنقه.

«ومن دعا بدعوة الجاهلية فهو من جثي جهنم وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم»:

كان من مفاهيم الجاهلية الدعوة إلى الفرقة العصبيّة، والاعتزاز بالآباء والأجداد، والاعتزاز بالقبليّات والقوميات، والتمسّك بالأنانيات المختلفة، فلما جاء الإسلام ونادى بوحدة الجماعة الإسلامية، ألغى جميع المفرقات العصبيّة والطبقية والعرقية واللونيّة، وأعلن أنّ المسلمين أمة واحدة، لا فرق بين عربيّها وعجميّها، ولا بين أبيضها وأسودها إلاّ بالتقوى والعمل الصالح، فمن دعا بدعوة الجاهلية المفرقة للوحدة الإسلامية، والمجزّئة لجماعة المسلمين فهو من جثيّ جهنم، أي: من المعذبين في جهنم الجاثين فيها على ركبهم، زيادة في تعذيبهم.

«وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم» لأنّ دعوته هذه خروج عن ركن أساسيٍ من أركان الإسلام في الجانب الجماعي منه.

وجثيُّ جهنَّم: هم الظالمون، كما جاء في قول الله تعالى في سورة (مريم ١٩):

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾.

١١ ــ ومن أجل صيانة قوّة الجماعة ووحدتها نهى الله تبارك وتعالى عن التنازع، لأنه يفضي إلى الفشل، ويفضي إلى ذهاب ريح الجماعة، أي: إلى ذهاب قوتها وبأسها، فيوقعها في الجبن والتخاذل، وذلك يؤدّي بها إلى ذهاب دولتها وسلطانها، قال الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ

تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

١٢ ــ فتفريق جماعة المسلمين، وكسر وحدتهم، بالدعوات الجاهلية، ظلم كبير، وإثم عظيم، وعود بهذه الأمّة إلى ما كانت عليه في جاهليتها، متفرقة ممزّقة بدعواتها الجاهلية التي ليس لها أساس فكريٌّ يدعمها، وليس لها أساس نفسيٌّ إلاّ العصبيات والأنانيات.

كذلك كانت الأمة العربية، فجاءها الإسلام، فجمع كلمتها على الله، ووحّد صفّها، وألغى دعواتها الجاهلية، وأعلن أنها منتنة، وجعل من آمن من العرب نواة الوحدة الإنسانية الكبرى تحت راية الإسلام، ثم أقام منهم الدولة القرآنية الربّانية، التي تشتمل على خير الإنسانية كلّها، غير عابئة بأية فوارق عرقية، أو نسبية، أو لونيّة، أو إقليمية، أو طبقية، أمّا الفوارق المعتبرة عندها فهي الفضائل الذاتية والأعمال الصالحات.

وقد وجّه القرآن الأمّة العربيّة أن تذكر باستمرار ما كانت عليه في جاهليتها قبل نعمة الإسلام، فقال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

ففي هذا النص يأمرنا الله تبارك وتعالى بأن نعتصم بحبله ونحن مجتمعون غير متفرّقين.

وأصل الاعتصام اللجوء إلى ما يعصم ويحمي من الهلاك أو من الضرّ والأذى، واللجوء إلى حبل الله للاعتصام به يستلزم التمسّك به، والقبض عليه

بشدّة، حتى يظفر المؤمنون منه بالعصمة المنجية من الهلاك، والاعتصام بحبل الله لا يكفي أن يكون اعتصاماً فَرديّاً، بل لا بدّ من أن يكون اعتصاماً جماعياً، ولذلك قال الله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً﴾أي: حالة كونكم مجتمعين، وأكد ذلك بالنهي عن التفرّق، فقال تعالى عقب ذلك: ﴿ولا تفرّقوا﴾ أي: ولا تتفرّقوا.

وأجرى الله في هذا النصّ مقارنة بين ما كانت عليه الأمة العربية في جاهليتها قبل الإسلام، وما تحوّلت إليه بالإسلام الذي كان نعمة سيقت من الله إليهم.

ألم تكن الأمة العربية قبل الإسلام أمّة مجزّأة مفرّقة متعادية فيما بينها، فألّف الله بين قلوب أفرادها وجماعاتها بالإسلام، فأصبحوا بنعمته إخواناً، بعد أن كانوا أعداءً، وصاروا أمّةً واحدةً مجتمعة على عقيدة واحدة، وقيادة واحدة، فتكوّنت لهم جماعة ذات قوّة عظيمة فاتحة؟؟

ألم تكن الأمة العربية على شفا حفرة من النار بشركهم وظلمهم وفسقهم وعدوانهم، فأنقذهم الله من كل ذلك بالإيمان الصحيح، وبتعاليم الإسلام العظيمة، وبشرائعه المثلى؟؟

وما كان سبب إنقاذها من قبل، وسبب قوتها ووحدتها ومجدها، هو السبب الذي سيظل أبد الدهر لإنقاذها وقوتها ووحدتها ومجدها، وهو السبب الذي يكفل سعادة الناس جميعاً.

١٣ ــ ولم يقتصر مفهوم الجماعة في الإسلام على الحلقة الكبرى التي تربط الرعيّة في الأمّة الواحدة براعيها العامّ، بل تعدّى ذلك إلى الحلقات التي دونها، حتى حلقةِ الأسرة الصغيرة في البيت الواحد، وتتسلسل حلقات الأمة الإسلامية الكبيرة والصغيرة بشكل متداخل، حتى يشعر كلّ بالغ عاقل مكلّف أنه واحد من رعيّة عليها راعٍ فوقها، وواحد من رعية هو راعٍ عليها، فهو مسؤول عن رعيته مسؤولية جماعية، ومسؤول عن واجباته تجاه الجماعة، باستثناء الإمام الأكبر للمسلمين، فهو واحد منهم وهو أعلاهم، وملتزم بأوامر

الله ورسوله ونواهيهما. وبهذه الحلقات المتعاقدة المترابطة المتداخلة الصغرى منها والكبرى تدور الأمة الإسلامية في فلك الوحدة الإسلامية، الناظمة للعقول والقلوب في سلك العقائد والمفاهيم الواحدة، والناظمة للقلوب في سلك العاطفة المشتركة الواحدة، والناظمة للسلوك في سلك التعاليم الربانية الواحدة، والناظمة للمجتمع في سلك الإدارة والقيادة العامة الواحدة.

فلم يقتصر مفهوم الجماعة في الإسلام على مفهوم أمّة منبثة الأفراد، ذات حزام واحدٍ يربطها بإدارة واحدة كبرى، بل هي أمة متشابكة تشابكاً عجيباً متداخلاً، مناظراً للتشابك الموجود في خلايا وأعضاء الجسد الواحد، ومنسجماً مع أرقى تجمّع طبيعيٍّ لوحدات من نوع واحد. إنها كالنسيج المحبوك المتداخل بعضه في بعضٍ من كلِّ الجهات، فهو يصمد لأيّة محاولة تمزيق من أي طرف من أطرافه، وليس كالتكتلات الجماعية المنبثة، التي لا يربطها إلاّ حزام واحد، هو حزام الإدارة العامة، والتي هي عرضة للتناثر والتفرّق السريع عند أوّل فرصة ينقطع بها الحزام العام، والتي ليس فيها من معاني الجماعة غير الصورة الظاهرة، فمثلها كمثل كوم من رمل محصور بين أربعة جدران.

فإذا انضمّ إلى نسيج الأمة الإسلامية العضوي ما فيه من معاني الأخوّة الإيمانية، والحبّ في الله، والاجتماع على الله، وابتغاء مرضاته في كلّ عمل، ظهرت لنا هذه الأمّة شبكة متداخلة معقدة طبيعية الترابط، صعبة الحلّ على من يريد حلّها، وفي هذا سرّ خلودها، وصمودها ضدَّ عاديات الأعداء الكثيرين المنتشرين في مشارق الأرض ومغاربها.

وفي بيان مسؤولية المؤمن عن رعاية ما تحت سلطانه داخل الأمّة الإسلامية الواحدة الكبرى، يقول الرسول ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمر: «ألا كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام الذي على الناس راعٍ وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده وهي مسؤولة عنهم، وعبد الرجل راعٍ على مال سيّده وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيته».

وقد هال أعداء المسلمين هذه الوحدة الإسلامية العجيبة، فوضعوا الخطط الخبيثة الماكرة لتفتيتها وتجزئتها، بإفساد العقائد والمفاهيم، وإدخال مفاهيم التجزئة، والعمل على إلغاء نظام الأسرة، وإلغاء جميع الروابط الاجتماعية، وإقامة دويلات متصارعة متناحرة، وإقامة الحواجز المصطنعة الكثيرة.

— ٤ —
المسؤوليات الجماعية

لـمّا أقام الإسلام الأمة الواحدة، وحث المسلمين على الانتظام فيها، وأمرهم بالجماعة في معظم أمورهم، وضعهم أمام مسؤوليات جماعية كثيرة، منها المسؤوليّات التالية:

١ ـ رعاية كل راعٍ لرعيته.
٢ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
٣ ـ التربية والتعليم.
٤ ـ الشورى.
٥ ـ الخدمات والمرافق العامة.
٦ ـ تحقيق الأمن والطمأنينة والاستقرار.
٧ ـ الرّعاية الصحية العامّة.
٨ ـ الزكاة المفروضة، والصدقة العامة.
٩ ـ النفقة الواجبة، وصلة الرحم.
١٠ ـ التعاون على البرّ والتقوى.
١١ ـ زيارة الإخوان في الله، وعيادة المرضى، وتشييع الجنائز، ودفن الموتى.
١٢ ـ إكرام الجار، وإكرام الضيف، والتواصل بالمعروف، والتهادي.
١٣ ـ حفظ عرض المسلم من الانتهاك، وحفظ ماله من الضياع والتلف أو العدوان عليه.

١٤ ــ البعد عن كلّ ظلم وعدوان على الأنفس والأموال والأعراض.

١٥ ــ البعد عن الغيبة والنميمة والهمز واللّمز والشتيمة.

١٦ ــ البعد عن كلّ إضرار بالناس أو إيذاءٍ لهم.

١٧ ــ الجهاد في سبيل الله لصيانة الجماعة الإسلامية من عدوان أعدائها، ولصيانة دينها، وتوسيع دائرة أرضها، وتكثير أعدادها.

١٨ ــ التوادّ والتراحم والتعاطف.

إلى غير ذلك من أمور كثيرة تدخل في حدود المسؤوليات الجماعية، التي من شأنها أن تدعم وحدة جماعة المسلمين، وتوثّق عرى الأخوّة بينهم.

وقد أبرز الرسول ﷺ المفهوم العام للمسؤوليّة الجماعية في صورة تمثيلية بديعة، وذلك في الحديث التالي: روى البخاري والترمذي عن النعمان بن بشير، عن النبي ﷺ أنه قال: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قومٍ استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فآذوهم، فقالوا: لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونجَوْا جميعاً».

في هذا البيان الرائع من كلام الرسول ﷺ نلاحظ بوضوح معاني المسؤولية الجماعية في مفهوم الإسلام؛ فالفرد في مركبة هذه الحياة، أو مجموعة أفراد من أمّة، لا يملكون الحرّية الشخصيّة في أن يفعلوا كلّ ما يريدون. إنّ عليهم مسؤولية جماعية تمنعهم من أن يعملوا أيّ عمل ربّما يكون من نتيجته الإضرار بالجماعة، أو الإضرار بأنفسهم، لأنهم أيضاً جزء من الجماعة، وهم بما يفعلون في أنفسهم من ضرّ يضرّون بالكيان الجماعي الذي هم جزء منه. فإذا تجاوز هؤلاء حدود مسؤوليتهم الجماعية، أو حاولوا تجاوزها، فإنّ على الآخرين من الجماعة مسؤولية ردعهم وكفّهم والأخذ على أيديهم، فإن لم يفعلوا نزلت المصائب بالجماعة كلّها، أمّا المذنبون فبكسبهم الإيجابي، وأمّا الآخرون فبكسبهم السلبي إذ لم يأخذوا على أيدي المذنبين.

إنّ هذا الحديث يصوّر الجماعة بمثابة ركاب سفينة واحدة، وأيّ إضرار أو إفساد في هذه السفينة يتعدّى أثره إلى الجماعة كلّها.

وفي هذا الحديث أيضاً تصوير لحالة أصحاب الأهواء المفسدين في الجماعة، والمتذرّعين بمطلب الحريّة الشخصية، إذ يغالطون الناس بجدليات باطلة، ويزينون أعمالهم التخريبية الهدامة بأصباغ إرادة مصلحة الآخرين، حتى يخادعوهم بذلك، فلا يقاوموهم ولا يأخذوا على أيديهم.

ــ ٥ ــ

العبادات الجماعية

صلاة الجماعة في الإسلام من العبادات التي تؤدّي وظائف مُهمّة وعظيمةً من وظائف الروابط الاجتماعية. ولو كان الهدف مجرّد تحقيق عبادةٍ لله تعالى لتيسر هذا عن طريق العبادات التي يؤدّيها المسلم منفرداً بينه وبين ربّه، ولم يُلزم المسلمون بحضور العبادات الجماعيّة، في صلاة الجماعة اليومية، وفي صلاة الجمعة الأسبوعية، وفي صلاة عيد الفطر، وفي صلاة عيد الأضحى.

وعبادة الحجّ الذي هو موسم جامع كبير، يفد إليه المسلمون من شتّى بقاع الأرض، من العبادات الإسلامية ذات السمة الجماعية، فهي منحصرة في زَمانٍ ومكانٍ محدّدين.

إنّ هذه العبادات الجماعية المختلفة، قد شرعت في الإسلام على هذه الشاكلة، لتعميق روح الجماعة في قلب كلّ مسلم، ولتكون مناسبات متكرّرة تشتدّ بها الروابط الاجتماعية بين المسلمين.

ومن أجل ذلك كانت صلاة الجماعة تفضل صلاة المنفرد بسبع وعشرين درجَة، روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذّ بسبع وعشرين درجة».

الفذّ: هو المنفرد.

وبلغ من حرص الإسلام على الجماعة في الصلاة اليومية أنْ همّ الرسول ﷺ بتحريق بيوت أقوام لا يحضرون صلاة الجماعة، روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لقد هممت أن آمر بحطب فيحطب، ثمّ آمُر بالصلاة فيؤذّن لها، ثمَّ آمر رجلاً فيؤمّ الناس، ثمّ أخالف إلى رجالٍ لا يشهدون الصلاة فأحرّق عليهم بيوتهم، والذي نفسي بيده، لو يعلم أحدكم أنه يجدُ عَرْقاً سميناً، أو مِرماتين حسنتين لشهد العشاء».

عَرْقاً سميناً: أي عظماً عليه لحم كثير.

مِرْماتين حسنتين: يقول أهل اللّغة في تفسير المرماة: إنها السهم الذي يُرمى به، وقيل: هي أحقر السهام، وتطلق أيضاً على ما بين ظلف الشاة.

والمعنى المراد: أنّ أقلّ مطمع دنيويّ لو وجد مع حضور صلاة الجماعة في وقت العِشاء لكان كفيلاً بجذبكم لشهود هذه الصلاة.

ومن حرص الإسلام على صلاة الجماعة تعميقاً وتدعيماً للروح الجماعية بين المسلمين، نجد في الفقه الإسلامي أنه لو ترك أهل بلد مسلم صلاة الجماعة، كان من حقّ المسلمين تحت لواء قائدهم العامّ أن يقاتلوهم على ذلك، لأنهم قد تركوا شعيرة ظاهرة من شعائر الإسلام.

ولـمّـا اعتذر الأعمى بأنه لا يجد قائداً يقوده لشهود صلاة الجماعة، وسأل الرسول ﷺ أن يرخّص له بالصلاة في بيته، أذن له أوّلاً، ثمّ دعاه، فقال له: «هل تسمع النداء بالصلاة؟» فقال الرجل: نعم. فقال له الرسول ﷺ: «فأجب».

روى مسلم عن أبي هريرة قال: أتى النبي ﷺ رجل أعمى، فقال: يا رسول الله، إنّه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد، فسأل رسول الله ﷺ أن يرخّص له فيصلي في بيته، فرخّص له، فلـمّـا ولّى دعاه فقال: «هل تسمع النداء بالصلاة؟» قال: نعم. قال: «فأجب».

ومن روائع حرص الإسلام على الجماعة في الصلاة أحكام صلاة الخوف،

إذ نلاحظ أنّ الإسلام لم يفرّط بصلاة الجماعة حتى في أزمات الحرب وظروفه القاسية، ما لم يكن القتال ملتحماً.

ولضمان مصلحة الأمن، مع المحافظة على الجماعة في الصلاة، ذات المضامين النظاميّة والقيادية والانضباطية، اتخذ الإسلام لصلاة الخوف ترتيباً آخر، غير الترتيب المتبع في صلاة الجماعة عند الأمن، واهتماماً بالأمر نزل به تشريع قرآني، ولم يُكتفَ فيه بمجرّد البيان النبوي، ففي مناسبة ظروف الخوف من مداهمة الأعداء، يقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ ﴾.

كلّ هذا الحرص الشديد على الجماعة في حدود الصلاة اليومية، أمّا صلاة الجمعة الأسبوعية فهي فريضة لازمة على جماعة المسلمين، وحضورها فرض لازم على كلّ مكلف ذكر، لا عذر عنده من سفر أو مرض أو نحوهما.

أمّا صلاة عيد الفطر وصلاة عيد الأضحى، فهما تشتملان على دعوة جامعة لعدد أوفر من جماعة المسلمين، ففيهما يجتمع مسلمو البلد الواحد في مصلى العيد، ويجتمع معهم وافدون إليها من القرى القريبة، ويحضر معهم النساء والصغار، حتى اللّواتي لا يصلين بسبب أعذارهنّ المشروعة، وفي هذا

الاجتماع العظيم إبرازٌ لمعنى الجماعة في تظاهرة إسلامية كبرى، وتعميق لروح الجماعة في قلوب المسلمين، وفي نفوسهم، وفي كلّ مشاعرهم الوجدانية.

أمّا الحجّ فهو شعيرة دينية فيها تجمُّع أكبر من الأقطار الإسلامية كلها، يحضره كل مسلم مستطيع ذكراً كان أو أنثى في العمر مرّة واحدة على أقل تقدير.

وهكذا تتكامل تجمّعات المسلمين على عبادة الله تعالى منتظمة في حلقات بعضها أكبر من بعض، فالصغيرة منها تكون في كلّ يوم خمس مرّات، والكبيرة نسبيّاً تكون في كلّ أسبوعٍ مرّة واحدة، فيها تعليم وموعظة وصلاة، والأكبر منها تكون في كلّ سنة مرّتين علَى نطاق البلد الواحد وملحقاته، وفي هذه أيضاً تعليم وموعظة وصلاة، مع تظاهرة إسلامية بالتكبير الجماعي، أمّا الكبرى والتي تكون على نطاق العالم الإسلامي كلّه، فتكون في كلّ سنة مرّة واحدة.

وفي كلّ هذه التجمّعات على ألوان من ألوان العبادات في الإسلام، تظهر أهميّة النظرة الجماعية في أسس التعاليم والشرائع الإسلامية الربّانية.

ـ ٦ ـ
التآخي في الله، والتحابب والتوادد، وما يتصل بذلك

(أ) التآخي والتحابب والتوادد في الله:

من تعميق معاني الجماعة في نفوس المسلمين، وتأصيلها في قلوبهم، وتنميتها وتوسيع دائرتها، ما نلاحظه في الإسلام من الدعوة إلى التآخي في الله، والتحابب والتوادد، وأنواع الصلاتِ المادّية التي تمكن ذلك في قلوب أفراد المسلمين، مع ترتيب الأجر العظيم عليها.

وتظهر هذه الدّعوة في نصوص إسلامية كثيرة، منها ما يلي:

١ ـ روى الإمام مالك عن معاذ بن جبل بإسنادٍ صحيح قال: سمعت

رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: وجبت محبتي للمتحابين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتزاورين فيّ، والمتباذلين فيّ».

وفي رواية عند الترمذي قال: «يقول الله تعالى: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيّون والشهداء».

وروى أبو داود بسنده عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء، ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله».

قالوا: يا رسول الله تخبرنا من هم؟

قال: «هم قومٌ تحابّوا بروح الله على غير أرحام بينهم، ولا أموالٍ يتعاطونها، فوالله إنّ وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس».

وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية من سورة (يونس ١٠):

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

٢ ـ وإذ عقد الله الأخوة بين المؤمنين، أبان الرسول ﷺ أنّ إيمان المؤمن لا يتم حتى يحبّ لأخيه ما يحب لنفسه، ففي الحديث الصحيح يقول الرسول ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه».

(رواه البخاري ومسلم عن أنس)

هذه المحبّة الاجتماعية تجعل الإنسان يحبّ الحقّ، لأنّ الحقّ هو الذي يتمّ به التوفيق السويّ بين مصالح أفراد الجماعة، وهو الذي ينظم علاقاتهم تنظيماً لا إجحاف فيه ولا عدوان، ومن أحبّ الحقّ رضي به لنفسه، ولم يطمع بحقوق الآخرين.

ووجه ارتباط الإيمان بأن يحبّ المؤمن لأخيه ما يحب لنفسه، أنّ الإيمان الكامل الشامل لأسسه وأركانه وآثاره وثمراته، يشتمل على الجانب الاعتقادي، والجانب الخلقي، والجانب السلوكي، وسائر الجوانب التي أمر بها الإسلام من

حقّ وخير وجمال، ومن أركان الأخلاق الاجتماعية أن يحبّ المؤمن لأخيه ما يحبّ لنفسه.

إنّ المؤمن يحبّ لنفسه الجنة، فعليه أن يحب لأخيه الجنة أيضاً، والمؤمن يحب لنفسه أن لا يعتدي أحدٌ على حقوقه، فعليه أن يحب لأخيه مثل ذلك، والمؤمن يحب لنفسه الخير والتقدّم والكمال، فعليه أن يحبّ لأخيه مثل ذلك. وهكذا إلى سائر ما يحبّ المؤمن لنفسه.

أمّا عقد التآخي بين المؤمنين فقد أعلنه الله بقوله في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

إنّ عناصر الأخوّة في مفهوم الناس لا تعدو أنّها لقاءٌ في النسب على أبوين، أو على أحدهما.

فإذا ارتقينا عالياً فوق الأبوين القريبين، وتسلسلنا مع الآباء والأمّهات، وجدنا أنّ المجموعة البشرية كلها تلتقي على أصل واحد، فبين الناس جميعاً على هذا المعنى المادّي أخوّة عامّة، أعلنها القرآن بقول الله تعالى في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾.

وأعلنها الرسول ﷺ بقوله: «كلكم لآدم وآدم من تراب».

فهذه الأخوة المتعارف عليها عند الناس لم ينكرها الإسلام، ولكنّه ارتقى بها عن معنى الأخوّة القريبة إلى الأخوة الإنسانية، ثم اعتبر هذا المعنى الجسدي أضعف العناصر التي تشتمل عليها معاني الأخوة الصحيحة، ثم بصر الناس بالعناصر الأهم والأخطر، التي تنعقد بها الأخوة المتينة الصادقة، وهذه العناصر كلّها عناصر سامية راقية، أعمق تغلغلاً في الإنسان من حدود بنائه الجسدي

وروابطه المادّية، وهذه العناصر الراقية العظيمة كلّها تلتقي تحت عنوان الأخوة الإيمانية.

ولدى تحليل عناصر الأخوة الإيمانية تنكشف لنا العناصر التالية:

أولاً: الالتقاء الفكري على عقيدة علمية واحدة.

ثانياً: التقاء قلوب المؤمنين على عاطفة دينيّة واحدة، وأهداف غائية واحدة.

ثالثاً: التقاء أفراد المسلمين على سلوكٍ فردي واجتماعيّ متحد أو متقاربٍ جداً في خطته العامّة، سواء أكان سلوك عبادة، أو سلوك أخلاق، أو سلوك آداب، أو سلوك أحكام تشريعية ونظام حياة.

رابعاً: التقاء جماعة المسلمين تحت قيادة واحدة ضمن أسس التعاليم الإسلامية.

إنّ الأخوة الإيمانية القائمة على هذه العناصر أخوةٌ متينة باقية، وعميقة عمق الإيمان في قلوب المؤمنين.

بخلاف الأخوّة القائمة على الالتقاء الجسديّ البحت، الخالي من عناصر الأخوة المعنوية، فإنها من غير الممكن أن تتكوّن منها جماعة صحيحة قويّة، تصمُد لعوامل التمزيق، وعوامل التفكّك والخلاف، لا سيما إذا كان بين أفرادها خلاف فكري، أو خلاف اعتقادي، أو خلاف في المصالح والغايات والأهداف. فمن المشاهد المتكرّر أنّ إخوانَ النسب يتقاتلون متى اختلفت عقائدهم ومصالحهم وأهدافهم في الحياة، وأنّ إخوان الإيمان والحبّ في الله يتعاملون فيما بينهم بالأخوّة، وإن اختلفت مصالحهم الفردية، على أنّ مصالحهم الجماعية العامة مصالح واحدة يعود نفعها وخيرها على الجميع.

وتدعيماً للأخوة الإيمانية العامة أقام الرسول ﷺ روابط ثنائية وثلاثية أو أكثر بين المهاجرين والأنصار بعد أن هاجر إلى المدينة، حتى بلغت حدّ التوارث أوّل الأمر، ثمّ نُسخ حكم التوارث هذا. وفي هذا التآخي التدعيمي

الزائد على الأخوة الإيمانية العامة، جعل الرسول ﷺ جعفر بن أبـي طالب ومعاذ بن جبل أخوين. وجعل أبا بكر وخارجة بن زيد أخوين. وجعل حمزة بن عبدالمطلب وزيد بن حارثة أخوين. وجعل عمر بن الخطاب وعُتبان بن مالك أخوين. وجعل عبدالرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين. وهكذا عقد أخوة خاصة بين أصحابه إضافة إلى الأخوة الإيمانية العامة، وتدعيماً لروح الرابطة الجماعية، وتعميقاً لها في القلوب.

(ب) **الصحبة في الله، والمجالسة في الله:**

١ ــ روى أبو داود والترمذي عن أبـي سعيد الخدري عن النبـي ﷺ قال:

«لا تصاحب إلاّ مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلاّ تقي».

(قال النووي: إسناده لا بأس به)

٢ ــ وروى أبو داود والترمذي بإسناد صحيح عن أبـي هريرة، أنّ النبـي ﷺ قال:

«الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل».

٣ ــ وروى البخاري ومسلم عن أبـي موسى الأشعري، أنّ النبـي ﷺ قال:

«إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسكِ ونافخ الكير، فحامل المسك، إمّا أن يُحْذِيك، وإمّا أن تبتاع منه، وإمّا أن تجد منه ريحاً طيبة. ونافخ الكير، إمّا أن يحرق ثيابك، وإمّا أن تجد منه ريحاً منتناً».

نافخ الكير: هو الحداد. يُحذِيك: يُعطيك، يقال لغة: أحذاه يُحذيه إذا أعطاه. ويقال أيضاً: حَذَاهُ يحذوه حذواً، أي أعطاه. والْحَذِيّة والحِذْوة والْحُذْيا: العطية.

فالمصاحبة في الله والمجالسة في الله، مّما حثّ عليه الإسلام، لما فيهما من

تدعيم للروح الجماعية بين المسلمين، وتقوية للمودّات، وشدّ لأواصر الصلات.

وللمصاحبة والمجالسة شروط حتى تكونا إسلاميّتين نافعتين مفيدتين:

الشرط الأول: أن تكونا في الله وابتغاء مرضاته، لا لمجرّد مصالح دنيوية مادّية تقصد.

الشرط الثاني: أن لا تشتمل أيٌّ منهما على معصية لله تعالى.

الشرط الثالث: أن يتناصح الأصحاب والجلساء فيما بينهم، ويتآمروا بالمعروف ويتناهوا عن المنكر.

الشرط الرابع: أن يتعاون الأصحاب والجلساء فيما بينهم على البرّ والتقوى، ولا يتعاونوا على الإثم والعدوان ومعصية الرسول.

الشرط الخامس: أن لا تجر أيٌّ منهما إلى مناصرةٍ وتأييد بالباطل ضدّ أصحاب الحق، تأثراً بعصبية المصاحبة أو المجالسة.

وتحذيراً من جليس السوء وترغيباً بالجليس الصالح ضرب الرسول ﷺ مثلاً لكلٍّ منهما.

فمثَّل الجليس الصالح بحامل المسك، ومثّل جليس السوء بنافخ الكير، وهو الحدّاد الذي ينفخ في كيره.

فالجليس الصالح ينفع جليسه في كلّ حال، إنه كحامل المسك، إذا لم تشتر منه ولم يمنحك منه عطيّة استمتعت من مجالسته بريح طيبة. وهكذا من يجالس أهل العلم والفضل والصلاح، فإمّا أن يسألهم ويأخذ منهم علماً أو نصيحة، وإمّا أن يبدأوه بتعليم أو نصيحة ولو لم يسألهم، وإمّا أن يجدهم على عمل صالح فينتفع منهم بالاقتداء وتأثير العدوى الصالحة، وإمّا أن يجمع كلّ ذلك، وفي كلّ ذلك خير عظيم.

أمّا جليس السوء فإنه يؤذي جليسه على كلّ حال، فهو كالحدّاد الذي

ينفخ في كيره، ويضربُ على محميّ حديده، إذا لم يَطر شيء من شرار ناره على ثيابك فيحرقها وجدت من حديده وناره وكلّ ما يحيط به ريحاً منتنة مؤذية. وهكذا من يصاحب أو يجالس أهل السوء والفحش والمعصية، فهو إمّا أن ينساق معهم إلى مواقع الإثم التي هم فيها، فتمسه نار المعصية، وإمّا أن يجد ما يؤذيه من قول أو عمل أو قدوة سيّئة.

ففي هذا المثل البديع وفاء بغرض النصيحة والإرشاد، وتوجيه غير مباشر يدخل إلى النفوس ويؤثر فيها دون أن تصدّه عقبة، وفيه تمثيل المعاني الفكرية والنفسية بأشياء مدركة بالحسّ، ومعلوم أنّ المدركات الحسية أثبت في النفوس وأرسخ من المعاني المجرّدة.

يضاف إلى ذلك أنّ الأمثال البديعة تحتوي على ألوان من الجمال الفني الممتع للنفوس، والإمتاع طريق قريب للتأثير في النفوس، وتقبُّلِها لما جاء مُغلّفاً فيها.

وفي التوجيه الصريح لمصاحبة الصالحين، والابتعاد عن مصاحبة أهل السوء ودعاة الشرّ والفساد، جاء في قول الرسول ﷺ:

«لا تصاحب إلاّ مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلاّ تقي».

ويقول الناس في حكمهم السائرة: الصاحب ساحب، فإن كان صالحاً سحب صاحبه إلى الخير والصلاح، وإن كان سيئاً فاسداً خبيثاً سَحب صاحبه إلى مواقع السوء والفساد والخبث.

وقد أحسن الشاعر في قوله:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكلّ قرينٍ بالمقارن يقتدي

وحين ترتقي الصحبة إلى مرتبة المودّة والمخاللة فإنّها تكون حينئذٍ أخطر، ويكون أثرها في النفس أعمق. والأقوى إرادة من الخليلين هو الذي يجرّ صاحبه إلى مواقعه، مهما كانت مواقع خير أو مواقع شرّ، ويظل التقارب بين وجهتيهما يزيد شيئاً فشيئاً حتى يكونا بمثابة نفس واحدة ذات نسختين، وحتى يكونا على

دين واحد في الفكر والسلوك، وبياناً لهذه الحقيقة من حقائق الاجتماع الإنساني يقول الرسول ﷺ : «الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل».

الفكر من الفكر يسرق، والنفس من النفس تسرق، والطبع من الطبع يسرق، والخلق من الخلق يسرق، وسبب ذلك الصحبة والمودّة، أو الإعجاب والإكبار، أو الغيرة والحسد، وأعظم كلّ ذلك تأثيراً الخلّة، فالخليل يسرق من طباع خليله وأخلاقه ونفسه وفكره ما لا يسرق منه أي شخص آخر، وعلة ذلك التجاور المنسجم مع ميول النفس وأهوائها، وهكذا تكون العدوى الأخلاقية، حسنة كانت أو قبيحة.

فعلى العاقل أن يحسن انتقاء أصدقائه، وأن يحسن انتقاء الأصدقاء والرفقاء لأبنائه أو تلامذته، ولكل من يشرف على تربيتهم. وهذا من الواجبات التي تفرضها أصول التربية الإسلامية.

(ج) التزاور بين الإخوان في الله:

١ ــ روى الترمذي بإسناد حسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ :

«من عاد مريضاً أو زار أخاً في الله ناداه منادٍ، بأن طبت وطاب ممشاك، وتبوّأت من الجنّة منزلاً».

ناداه منادٍ: يظهر أنه من الملائكة التي تدعو للمؤمنين وتستغفر لهم.

٢ ــ وروى مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ :

«أنّ رجلًا زار أخاً له في قريةٍ أخرى، فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكاً، فلمّا أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة تربُّها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله، قال: فإني رسول الله إليك بأنّ الله قد أحبّك كما أحببته فيه».

فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكاً: أي وكلّ به ملكاً يرصُد مَقْدَمه على طريقه الذي يسير فيه.

هل لك عليه من نعمةٍ تربُّها: أي تحفظها وتربيها وتسعى في صلاحها.

٣ ــ وروى الإمام مالك بإسنادٍ صحيح عن معاذ بن جبل قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«قال الله تعالى: وجبت محبتي للمتحابين فيَّ والمتجالسين فيَّ والمتزاورين فيّ، والمتباذلين فيّ».

٤ ــ وروى مسلم عن أنس قال: قال أبو بكر لعمر بعد وفاة رسول الله ﷺ: انطلق بنا إلى أمّ أيمن نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلمّا انتهيا إليها بكت. فقالا لها: ما يبكيك أمَا تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ؟ فقالت: إني لا أبكي أني لا أعلم أنّ ما عند الله تعالى خير لرسول الله ﷺ، ولكن أبكيّ أنّ الوحي قد انقطع من السماء. فهيّجتْهُما على البكاء، فجعلا يبكيان معها.

التزاور في الله ظاهرة من ظواهر المجتمع المسلم العامل بتعاليم الإسلام، والحريص على تطبيق وصايا الرسول ﷺ، لأن التزاور بين الإخوان في الله من شأنه أن يدعم أواصر الجماعة، ويقوّي الروح الجماعيّة ويوسّع مجالاتها ويمدّ آثارها، ويقوّي المودّات، ويزيد وشائج الصّلات.

من أجل ذلك حثّ الإسلام على التزاور بين المسلمين، لا سيما من كان بينهم تآخٍ في الله، ولا سيما زيارة العلماء والصالحين وأهل الخير، فإنّ زيارتهم ومجالستهم نافعة ومفيدة، وجالبة لخير كثير، بخلاف مجالسة أهل السوء ودعاة الشرّ، فإنّها مضرّة ومؤذية وجالبة لشرٍّ أو تهمة بشرّ.

فمن عاد مريضاً أو زار أخاً في الله ناداه منادٍ من ملائكة الرحمة: بأن طبت وطاب ممشاك، وتبوّأت من الجنّة منزلاً.

ولـما للتّزاور في الله والحبّ في الله من قيمة عند الله تعالى أرسل الله ملكاً من ملائكته، ليبشر مؤمناً قصد أخاً له في الله يسكن في قرية غير قريته، فمشى إليه مخلصاً في زيارته. وقد ترصّده الملك في طريقه، فلمّا وصل إليه سأله عن

قصده، فأخبره أنه يريد زيارة أخٍ له في الله في هذه القرية، فسأله الملك: هل لك عليه من نعمة تريد أن تحفظها وتستثمرها عنده؟. فقال له الرجل: لا، غير أني أحببته في الله.

عندئذٍ قال له الملك: فإني رسول الله إليك بأنّ الله قد أحبّك كما أحببته.

فكان ثوابه عند الله من جنس عمله، إذْ أحبـه الله كما أحب أخاه في الله.

وهذا الثواب قد أوجبه الله على نفسه كما أخبرنا الرسول ﷺ عنه في الحديث القدسي: «وجبت محبتي للمتحابّين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتزاورين فيَّ، والمتباذلين فيّ».

وليس هذا خاصّاً في الرجال، بل هوعامٌ في الرجال والنساء، فتزور المؤمنات أخواتهن في الله، ويتحابَبْن، ويتجالسن ويتباذلنَ في الله.

ودلّ فعل الرسول ﷺ وفعل أصحابه على أنّ من الخير زيارة الفضليات الكبيرات من المؤمنات، وهو ما كان يفعله الرسول ﷺ مع أمّ أيمن وفعله من بعده أبو بكر وعمر معها اقتداءً بالرسول ﷺ.

ولكن يشترط في زيارة الرجال للنساء الفضليات وزيارة النساء للرجال الفضلاء؛ أن لا يكون فيها خلوة، ولا كشف ما أمر الله بستره، ولا ما فيه ريبة، ويشترط أن تكون مصحوبة بغضّ البصر وحفظ اللسان، وأن تكون على خير يرضي الله تعالى، كمجالس العلم والذكر، ومجالس الموعظة والدعوة إلى الله، ومجالس التشاور فيما يصلح أحوال المسلمين وينهض بشؤونهم، ويردّهم إلى منهج الحقّ رداً جميلاً، ومجالس التخطيط للأعمال الإسلامية، من دعوة وتعليم وجهاد وبذلٍ في سبيل الله، إلى غير ذلك من أمور فيها مرضاة الله والرسول.

ويحسن بهذه المناسبة الإلماح إلى أنّ من التقصيرات التي وقع فيها العاملون في سبيل الله خلال القرون المتأخرة، أنّهم أهملوا دور المرأة في الحياة، فعزلوها عن العمل الإسلامي، وحجبوها عن المشاركة في أنواع جهاد الدعوة إلى الله، وأهملوا العناية بها واستغلال طاقتها لبناء المجتمع الإسلامي المتكامل.

فلمّا جاء دور الحضارة الأوروبية المادّية التي غزت العالم الإسلامي وجد دعاتها المرأة مرتعاً خصيباً، وأداة مهيَّأة طيّعة لنشر ما يبتغون من فساد في المجتمعات الإسلامية، وأخذوا يمتصّون الطاقات النسائية شيئاً فشيئاً، والمسلمون في غفلة عن هذا من جهة، وجمود عن القيام بحركات مضادّة من جهة ثانية، حتى سقطت المرأة بصفة عامّة في حبائل أعداء الإسلام، بدءاً من مثقفات الرعيل الأوَّل، ونساء كبراء القوم وأغنيائهم، ثم انتشر الفساد واستشرى، ومعلوم أنّ السلاح لا يقابل إلا بمثله أوأقوى منه، وأن الإسلام في دعوته الأولى اهتم بالمرأة وأشركها في معظم الأمور الإسلامية العامة.

(د) في إطعام الطعام:

ودعماً للروابط الاجتماعية بين المسلمين حث الإسلام على إطعام الطعام، ودعوة ذوي الحاجة للمشاركة في تناول الطعام.

فمن ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«طعام الاثنين كافي الثلاثة، وطعام الثلاثة كافي الأربعة».

وروى مسلم عن جابر بن عبدالله، عن النبي ﷺ قال:

«طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الأربعة، وطعام الأربعة يكفي الثمانية».

ففي هذا الإرشاد النبوي توجيه لبذل الطعام، وتوجيه للاكتفاء بالحاجة، وبذل ما زاد عليها لذوي الحاجة، وفيه دلالة على أن الله تعالى يطرح البركة في الطعام حينما يطعم منه المؤمن إخوانه في الله ابتغاء مرضاة الله.

وروى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنّ الأشعريين إذا أرملوا في الغزو أو قلّ عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسويّة، فهم منّي وأنا منهم».

أي فهم من أهل طريقتي الخاصة في هذا المجال، وأنا من أهل طريقتهم الخاصة في هذا المجال، لأنهم يشعرون بالمعنى الجماعي المتكامل المتضامن، الذي تقوم الجماعة فيه بفضائل المواساة والإيثار والمشاركة في الخير، والشعور بمعنى الجسدية الواحدة.

إذا أرملوا: أي إذا قاربت أزوادهم أن تفنى، وجعلت أيدي الآخذين منها تصل إلى الرمل الذي يكون في أسفل الأزواد.

وروى مسلم عن أبـي سعيد الخدري قال: بينما نحن في سفـر مع النبـي ﷺ ، إذ جاء رجل على راحلة له، فجعل يصرف بصره يميناً وشمالاً (أي من الجوع) فقال رسول الله ﷺ: «من كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضلٌ من زادٍ فليعُد به على من لا زاد له»، فذكر من أصناف المال ما ذكر، حتى رأينا أنه لا حقّ لأحدٍ منّا في فضل.

ـــ ٧ ـــ

ظاهرة التعاون الجماعي على البر والتقوى

(أ) في التعاون على البر والتقوى بشكل عام:

من ظواهر الروح الجماعية التي غذّاها ونمّاها وأصّلها الإسلام في قلوب المسلمين ظاهرة التعاون الجماعي.

إنّ التعاون الجماعي ينأى بالإنسان عن الانعزالية أوّلاً، ثمّ ينأى به نفسيّاً عن الانفرادية وقبائحها الأنانية المفرطة، ويحقق معنى الجسديّة الواحدة، ويهيّـىء المناخ المناسب لإقامة جلائل الأعمال العلمية والتطبيقية.

ولذلك أمر الله تعالى في كتابه بمبدأ التعاون، إلاّ أنه قيّده بأن يكون تعاوناً على البرّ والتقوى، لا تعاوناً على الإثم والعدوان.

إنّ الشياطين فيما بينهم، ودعاة الشرّ والإفساد، والمجرمين، وعصابات

اللصوص، وأحزاب الفتنة، ومنظمات الإضلال، كلّ هؤلاء يتعاون أفرادهم فيما بينهم على الإثم والعدوان، والشرّ والإفساد، وخراب العمران.

أمّا تعاون المؤمنين بالله المتبعين لتعاليم الإسلام ووصاياه، فهو تعاون على البرّ والتقوى في أعمال جماعية نافعة للإنسانية، رافعة لجماعة المسلمين، قال الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾.

ومن التعاون التناجي في السرّ والمشاركة في الرأي، ولذلك نهى الله عن التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، قال الله تعالى في سورة (المجادلة ٥٨):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾﴾.

فلم يجعل القرآن ظاهرة التعاون ظاهرة خيرةً، ما لم يكن تعاوناً على فعل الخير، فإذا كان كذلك فالإسلام يأمر به، لأنه يكون حينئذ وسيلة لتحقيق خير عظيم ومنافع جسيمة، ويكون تدعيماً صالحاً للروح الجماعية بين المسلمين، وصارفاً عن الانعزالية والانفرادية اللتين تُعمّقان في نفس الفرد مشاعر الأنانية المفرطة القبيحة، وتولّدان عنده وحشيّة منفّرة، وتنأيان به عن معارج الكمال الإنساني.

وللتعاون مظاهر كثيرة جدّاً، منها التعاون في الفكر، والتعاون في المال، والتعاون في الأجسام والأعمال، والتعاون النفسي والوجداني في الأفراح والأحزان، إلى غير ذلك من أمور كثيرة.

ولذلك حثّ الرسول ﷺ على فضيلة التعاون، في مناسبات كثيرة، منها ما يلي:

(أ) قول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح: «وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو تحمل له عليها صدقة، وأمرٌ بمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وإماطة الأذى عن الطريق صدقة».

(ب) وروى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أحدكم مرآةُ أخيه، فإن رأى به أذىً فليمط عنه».

وفي رواية لأبي داود والترمذي «المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن، يكُفّ عنه ضيعته، ويحوطه من ورائه».

الضيعة: تأتي بمعنيين، **الأول**: الصنعة والحرفة وما يكتسب به الإنسان معاشه ومن ذلك التجارة والأرض الزراعية وغير ذلك، **الثاني**: الضياع المفضي إلى الهلاك والتلف، وهذا المعنى هو الأنسب للمراد، فيكفّ المؤمن عن أخيه ضيعته بمعنى يدفع عنه الضياع والهلاك.

والحث على التعاون ظاهر جدّاً في عرض هذه الصورة التمثيلية التي جعل الرسول ﷺ المؤمن فيها مرآة أخيه، فإذا رأى في أخيه أذىً أماطه عنه.

إنه لولا التعاون الجماعي لم تظهر في عالم الناس جلائل الأعمال الكبرى، ما كان منها علميّاً، وما كان منها عمليّاً.

من ذلك سد ذي القرنين الذي حدثنا القرآن عنه، فهو عمل من أضخم الأعمال التي قام بها الناس في العصور القديمة بفضل التعاون.

وقصة ذلك أنّ الصينيين من سكان البلاد الواقعة من دون موقع السدّ، اشتكَوْا للفاتح العظيم المؤمن ذي القرنين، ما تفعله قبائل يأجوج ومأجوج فيهم من إغارات مستمرّة عليهم، وإفساد كبير في الأرض، وعرضوا عليه أن يقيم لهم بين مواقعهم ومواقع يأجوج ومأجوج سداً عظيماً، تحجز هذه القبائل عن أعمال الإغارة والإفساد، وذلك مقابل أجر يدفعونه له، ووافق ذو القرنين على طلبهم هذا إلّا أنه طلب منهم أن يعينوه بقوة، ليقيم لهم هذا السدّ العظيم، ففعلوا، وأتمّ ذو القرنين عمله الكبير بفضل التعاون الجماعي. قال الله تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ﴿٩٨﴾﴾.

زبر الحديد: قطع الحديد.
الصدفان: الناحيتان من الجبل.
القطر: النحاس المذاب.

ومن التعاون الجماعي الشورى، فهي تعاون في مجال البحث الفكري، لذلك أمر الله بها رسوله، وجعل الشورى من صفات المؤمنين.

ومن التعاون الجماعي الزكاة في الإسلام، ولذلك سميت ماعوناً، اشتقاقاً من كلمة المعونة، قال الله تعالى في سورة (الماعون ١٠٧):

﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾.

يمنعون الماعون: يمنعون المعونة، والزكاة رأس المعونات الواجبة المفروضة.

ومن التعاون الجماعي التيسير على المعسر، وستر الأخ أخاه، وإعارته المتاع، ومؤازرته في أعماله الخيرة أو في حاجاته المباحة شرعاً، ونصيحته في أموره، وإرشاده إلى سبيل السداد، وتعليمه الخير، والشفاعة الحسنة له، روى مسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «من يسر على معسر في الدنيا يَسّرَ الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً في الدنيا ستر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه».

ومن التعاون الجماعي التواصي بالحقّ والتواصي بالصبر، قال الله تعالى في سورة (العصر ١٠٣):

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾.

(ب) **في التعاون على الخير والدلالة عليه:**

روى مسلم عن عقبة بن عمرو الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ:

«من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله».

وروى مسلم عن أبي هريرة، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«من دعا إلى هُدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا يَنْقُص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً».

وفي حديث المضريّين الذي رواه مسلم عن جرير بن عبدالله البجلي، قال رسول الله ﷺ:

«من سَنّ في الإسلام سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن يَنقُص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنة سيّئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن يَنقُص من أوزارهم شيء».

وروى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري، أنّ النبي ﷺ قال:

«الخازن المسلم الأمين الذي يُنفّذ ما أمر به فيعطيه كاملاً مُوَفّراً طيّبة به نفسه، فيدفعه إلى الذي أمر له به، أحد المتصدّقين».

ففي هذه الأحاديث دعوة إلى التعاون على الخير والدلالة عليه، وتحذير من التعاون على الإثم والدلالة عليه.

والتعاون لا يقتصر على الأمور المادية، بل يشمل الأمور المعنوية، فمن

ذلك التعاون في الفكر، وفي الجاه، وفي النصيحة، وفي الشفاعة الحسنة، وفي الدلالة على الخير، وفي التآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر، وفي المشاركة الوجدانية، إلى غير ذلك من أمور كثيرة.

فمن دلّ على خير كان له عند الله مثل أجر فاعله، وفي هذا تشجيع عظيم على التعاون في الدلالة على فعل الخير.

ومن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، وفي هذا تشجيع عظيم أيضاً على التعاون على الخير، بدعوة الناس إلى الهدى، ومساعدتهم بالتعليم، وتنشيط هممهم لالتزام طريق الهدى، وشدّ أزرهم حتى يتغلّبوا على نفوسهم وأهوائهم.

ومن سنّ سنّة حسنة كان له مثل أجور من تبعه لأنه أعان بعمله المتباطئين على نفوسهم، فجعلهم يقتدون به، ويعملون مثل عمله منافسة أو غيرة أو اقتداءً حسناً.

وفي مقابل كلّ ذلك تأتي الدلالة على الشرّ، والدعوة إلى ضلالة، والبدء بسنّة سيئة، فلهؤلاء من الأوزار مثل أوزار من تأثر بهم واتبعهم.

حتى الخازن المسلم الأمين الذي ينفّذ ما أمر به، فيعطيه كاملاً مُوَفّراً طيبة به نفسه، فيدفعه إلى الذي أمر له به، هو أحد المتصدّقين، لأنه أعان الباذل، فنفّذ ما أمره به، ولو شاء لاتخذ المعاذير، وثبّط همة الباذل، وشجّعه على البخل، كما يفعل كثير من المحاسبين عند أرباب الأعمال، وأمناء الصناديق، إذ يكونون عوناً للشيطان على ما يدعو إليه من البخل بالخير.

(ج) في المعونة بالشفاعة الحسنة:

روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري قال: كان النبي ﷺ إذا أتاه طالب حاجة أقبل على جلسائه فقال:

«اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيّه ما شاء».

في هذا الحديث حثٌّ على المعونة بالشفاعة الحسنة، والمعونة ترجع إلى خلق حبّ العطاء، كما ترجع أيضاً إلى الدافع الجماعي.

والشفاعة تقوية لطلب صاحب الحاجة بطلب شفيع له ذي مكانة عند من لديه تلبية الطلب، فربّما يكون صاحب الحاجة ضعيف التأثير على من تكون حاجته عنده، لأنه مجهول لديه، أو لأنّه مذنب تجاهه، أو لأنّ بينهما جفوةً ما، أو لغير ذلك من أسباب كثيرة يصعب حصرها، فيلتمس شفيعاً يساعده في توجيه الطلب أو الالتماس من أجله، ويتحرّى أن يكون هذا الشفيع من ذوي المكانة أو أصحاب الدالّة لدى من عنده تلبية الطلب أو رفضه، فإذا شفع له عنده نال بغيته وظفر بمطلوبه، فيكون الشفيع قد منحه من جاهه ومكانته لدى من شفع له عنده، فإذا قال في شفاعته قولاً حسناً فقد منحه من كلامه، وإذا سار معه مسافة ليشفع له فقد منحه من جهده ووقته، وإذا خسر من ماله شيئاً في هذا السبيل فقد منحه أيضاً من ماله، وإذا شاركه في مشاعره وأحاسيسه فقد منحه أيضاً من قلبه ونفسه.

وإذا كانت الشفاعة له عند الله بدعوة صالحة كدعوة الأخ المسلم لأخيه، ودعوة الولد الصالح لأمّه وأبيه، ودعوة الحيّ للميّتِ بالصلاة عليه، فإنّ الشفاعة حينئذ عبادة محضة لله تعالى صادقة ومخلصة، والله ينظر إلى الشفعاء فيها نظرة رحمة وتكريم، فيعطيهم أفضل ممّا شفعوا به لإخوانهم، على أنّ كل شفاعة حسنة ولو لم تكن من صور العبادات المحضة هي طاعة لله تعالى.

والشفاعة الحسنة بين المسلمين مظهر من مظاهر الجسدية الواحدة، التي يتشاركون بها في مشاعر التوادّ والتراحم والتعاطف، ويتشاركون بها في مشاعر الآلام والمسرّات، وبها يتساعدون ويتساندون ويتعاونون.

من أجل ذلك حثّ الله تبارك وتعالى على الشفاعة الحسنة، فقال سبحانه في سورة (النساء ٤):

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾.

يكن له كِفلٌ منها: أي يكن له نصيب منها، فالكفل بمعنى النصيب[1]، فمن يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب من الأجر على شفاعته، ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كِفلٌ من الإثم على شفاعته، والشفاعة السيئة هي الشفاعة في الإثم أو العدوان أو معصية الله والرسول.

ولذلك غضب رسول الله ﷺ حينما شفع لديه أسامة بن زيد في المرأة المخزوميّة التي سرقت ووجب في شأنها حدّ السّرقة، وقال له: «أتشفع في حدٍّ من حدود الله، والله لو أن فاطمة بنت محمدّ سرقت لقطعت يدها».

وفي قول الرسول ﷺ: «اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيّه ما شاء» حثّ على الشفاعة الحسنة، فهو يطلب من أصحابه أن يشفعوا لذوي الحاجات عنده، سواء أكان الرسول ﷺ مستعدّاً لتلبية طلب الشفعاء أو لم يكن مستعدّاً لذلك.

وفي هذا توجيه لهم أنه لا ينبغي أن يربطوا شفاعتهم برجاء الإجابة، فإنهم يؤجرون على شفاعتهم مهما كانت النتائج، وأنه ينبغي أيضاً أن لا تتأثر قلوبهم إذا لم يجابوا إلى ما شفعوا فيه، فالأمور مرهونة بالقضاء الرّبّاني، وهذا القضاء ينبغي للمؤمن أن يتقبّله بالرّضا التامّ.

فأعطاهم الرسول ﷺ قاعدة أجر الشفاعة الحسنة، فقال لهم: «اشفعوا تؤجروا» ثمّ أشار لهم إلى المعاني الأخرى، فقال لهم: «ويقضي الله على لسان نبيّه ما شاء».

وقد سبق شرح ظاهرة الشفاعة لدى شرح ظواهر خلق الرحمة.

---

(١) من لطائف الأدب القرآني أنه حينما يكون للمعنى الواحد مترادفان، وهذا المعنى يكون مرة في جانب الخير وأخرى في جانب الشرّ، فإنّ القرآن كثيراً ما يلجأ إلى تخصيص أحد المترادفين في جانب الخير، وتخصيص الآخر في جانب الشرّ، لا سيما إذا اجتمع الأمران في كلام واحد، وفي هذا الفنّ البلاغي جمال يدركه أصحاب الذوق الرفيع.

(د) في التعاون بتجهيز المجاهدين وأنه من الجهاد:

روى البخاري ومسلم عن زيد بن خالد الجُهَني قال: قال رسول الله ﷺ:

«من جهّز غازياً في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازياً في أهله بخير فقد غزا».

وروى مسلم عن أبـي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ بعث بعثاً إلى بني لِحْيَانَ من هذيل، فقال:

«لينبعثْ من كلّ رجلين أحدُهما والأجر بينهما».

وروى مسلم عن أنس بن مالك، أنّ فتى من أسْلَم قال: يا رسول الله، إني أريد الغزو وليس معي ما أتجهّز به، قال:

«ائت فلاناً فإنّه قد تجهّز فمرض» فأتاه فقال: إنّ رسول الله ﷺ يقرئك السلام ويقول: «أعطني الذي تجهّزت به، فقال: يا فلانة أعطيه الذي تجهّزت به ولا تحبسي منه شيئاً، فوالله لا تحبسي منه شيئاً فيبارَكَ لك فيه».

دلت هذه الأحاديث على تربية المسلمين على خلق التعاون في أعمال الخير، فالتعاون مظهر من مظاهر وحدة الجماعة، القائمة على الأخوة الصادقة، وعلى الترابط بين أفرادها بالتوادّ والتراحم والتناصر والتآزر على البرّ والتقوى.

قد يستطيع الفرد المساهمة في بعض عمل الخير، ولا يستطيع القيام بنفسه بكل العمل، في حين أن فرداً قد يستطيع القيام بما يعجز عنه صاحبه، ومساهمة كلٍّ منهُما بالجانب الذي يستطيعه من العمل يحقق مبدأ التّكامل، فكلّ من المتعاونين يكمّل صاحبه، فتُستوفى باجتماعهما الشروط اللازمة للعمل المقصود، وبتحقيق هذا المبدأ من مبادىء العمل المنتج يُسْتطاع القيام بجلائل الأعمال التي لا يستطيع الأفراد القيام بها وهم أفراد، لكنّهم يستطيعون القيام بها وهم جماعات متعاونون.

لذلك كان التعاون الجماعي خلقاً من الأخلاق الإسلامية التي حثّ الإسلام عليها، ودعا إليها بإلحاح، وقدّم ما يلزم لتربية المسلمين عليها.

ولذلك جعل الإسلام ثواب من ساهم في فعل الخير مساهمة يتوقف عليها فعل الخير كثوابه فيما لو فعل الخير كلّه بنفسه، تشجيعاً على التعاون، وصرفاً عن الانفرادية وحبّ الاستقلال بالعمل.

وهذا المفهوم الإسلامي نلاحظ الدلالة عليه في نصوص كثيرة، منها النصوص السابقة.

فمن جهّز غازياً في سبيل الله فقد غزا، ومن خَلَف غازياً في أهله بخير فقد غزا.

إن الغازي قد يعجز عن الخروج في سبيل الله لولا معاونة من جهّزه بالعدّة، أو لولا معاونة من خلفه في أهله للقيام بشؤونهم وحمايتهم، ومن تعاونهما يتهيّأ غازٍ كامل العدّة قادر على الخروج. لذلك كان لكلّ منهما عند الله أجر غازٍ في سبيل الله، وفضل الله في العطاء واسع، ويرجع تقدير نسبة الأجر إلى ما يعلم الله من صدق كلٍّ منهما في بذل المال أو النفس.

وقد يدلّ ما جاء في حديث أبي سعيد الخدري: «والأجر بينهما» على تقاسمهما الأجر، إلّا أنّ نصف الأجر العظيم الذي يضاعف قد يساوي أجراً كاملاً، فالمقصود أنّ لكلٍّ منهما أجراً، وتقدير الأجر يرجع إلى فضل الله.

ودلّت نصوص كثيرة على أنّ من دلّ على خير كان له مثل أجر فاعله، ومن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، وأنّ من أعان على بذل الصدقة كان أحد المتصدّقين، إلى غير ذلك، فالأجر عطاء من بحر فضل الله، ولا حجر على فضل الله وجوده، ولكنّ لله تعالى في كلّ أموره حكماً عظيمة يراعي فيها حقائق الأمور وبواطنها وما تؤول إليه.

وفي حديث أنس نشاهد صورة تدريبية عملية من صور دعم مبدأ التعاون الجماعي، فهذا رجل تجهّز للجهاد فأقعده المرض، وهذا رجل يريد الخروج ولكن ليس عنده ما يتجهّز به، فيأمر الرسول ﷺ هذا بأن يأخذ جهاز هذا، ليجتمع من مستطاع الرجلين غازٍ مجاهد في سبيل الله، ولولا الأخذ بهذا المبدأ التعاوني

لقعدا جميعاً عن الخروج، مع أنّ أحدهما يملك العدّة وليس لديه قدرة جسدية، والآخر يملك القدرة الجسدية وليس عنده العدة.

(هـ) في ضوابط المعونة والمناصرة:

روى البخاري عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ:

«انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً».

فقال رجل: يا رسول الله، أنصُره إذا كان مظلوماً، أرأيت إن كان ظالماً كيف أنصرُه؟ قال:

«تحجزه أو تمنعه من الظلم، فإنّ ذلك نصره».

في هذا الحديث أمر بالتعاون في موضوع التناصر بالحق، وهذا التناصر من أخلاق المسلمين الجماعية، فمن وجدَ أخاه المسلم مظلوماً وكان باستطاعته أن ينصره ويدفع عنه الظلم فعليه أن ينصره على مقدار استطاعته، ولو بكلمة طيبة، أو بشهادة نافعة، أو بشفاعة حسنة، ويأتي فوق ذلك نصره بصفة عملية، كاستخدام قوّة السلطان الماديّة أو المعنوية، أو استخدام المكانة الاجتماعية، أو غير ذلك من أنواع النصرة العملية.

وقد أضاف الحديث هنا معنىً جديداً للنُّصرة، وهو نصرة الأخ الظالم، فبيّن الرسول ﷺ أنّ نصرة الظالم تكون بحجزه عن الظلم ومنعه منه، وهذا هو النصر الحقيقي له، لا معونتهُ على ظلمه، لأنّ حجزه عن الظلم ومنعه منه نصرٌ له على نفسه وأهوائها الجانحة عن سبيل الحق، ونصر له على وساوس شياطين الإنس والجن وتسويلاتهم، وفي هذا إنقاذ له من عقاب الله وعذابه، وإنقاذ له من خساسة الجريمة، وحماية له من دنس الإثم والعدوان.

أمّا نصره بمعنى معاونته على الظلم وشدّ أزره فيه، فهو في الحقيقة ليس بنصر له، بل هو خذلان له ونصر لأعدائه عليه، وأعداؤه هنا أهواؤه وشهواته الجانحة الجامحة، وشياطينه الذين يدفعونه إلى هلاكه وشقائه، ويزيّنون له مسالك الآثمين، وأن يركب مراكب الظالمين، وأن يكون من المعتدين.

وتظهر براعة الرسول التعليمية هنا في طرحه الكلام الذي يوهم في ظاهره معنىً غير مراد، ليثير في نفوس المخاطبين إشكالاً يدعوهم إلى الاستفسار عن الحقيقة، وقد كان الرسول ﷺ واثقاً من أن الكلام لن يمرّ دون أن يثير إشكالاً واستفساراً في نفوس أصحابه، لأنّه كان يعلمهم ما يجب عليهم أن يفعلوه مع الظالم، من ردعه عن الظلم ونصرة المظلوم عليه. ولكنّه في هذا الموقف أراد أن ينبّههم إلى معنى دقيق من معاني النصرة الحقيقية، وهو المعنى الذي بيّنه لهم، بعد أن أثار في نفوسهم الإشكال ودعاهم إلى الاستفسار. ومن المعروف في الطرق التعليمية أنّ من أحسن وسائل التعليم النظري ما يكون عقب هزّة نفسيّة تثير انتباهاً زائداً أو إشكالاً قويّاً، بشرط أن يكون البيان بعد ذلك حلاً كافياً وواضحاً لما حدث في النفس من تساؤل، ولما قام في الموضوع من إشكال.

وكان من ضمن المفاهيم الجاهلية التناصر القومي أو القبلي أو العائليّ بالحقّ وبالباطل، فمتى كان فردٌ من قبيلةٍ نصره أهل قبيلتهِ على من خالفه من غير أهلها، ولو كان هو الظالم المعتدي وكان من خالفه هو المظلوم المعتدَى عليه. وكذلك الأسرة الواحدة تنصر ظالمها على المظلوم من أسرة أخرى، وهكذا في كلّ الدوائر القبلية والعنصرية والأسريّة.

ولـمّا جاء الإسلام ألغى هذا المفهوم العصبيّ الذي يتنافى مع أوليّات الأسس التي تقوم عليها مكارم الأخلاق، وصحّح في نفوس المسلمين وأفكارهم ذلك، وأحلّ محلّه المفهوم الأخلاقي الكريم الذي تعبر عنه في السلوك الأخلاقي نصرة المظلوم على الظالم، مهما كان المظلوم بعيداً والظالم ذا قربى.

وإعلان هذا المفهوم الإسلامي جاء في نصوص كثيرة، منها قول الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ . . . ﴿١٥٢﴾﴾.

ومنها قول الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا

يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

فالمفروض في أخلاق المسلم أن ينصر المظلوم ولو كان من قوم بُعداء على الظالم ولو كان ذا قربى.

— ٨ —

في حقوق المسلمين بعضهم على بعض والحث على دعم أواصر الجماعة

(أ) مما ورد في حقّ المسلم على المسلم:

١ ــ روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال:

«حقّ المسلم على المسلم خمس: ردّ السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس».

وفي رواية لمسلم:

«حقّ المسلم على المسلم ستٌّ: إذا لقيته فسلّم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمّته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتّبعه».

٢ ــ وروى البخاري ومسلم عن البراء بن عازب قال: «أمرنا رسول الله ﷺ بسبع: أمرنا بعيادة المريض، واتباع الجنازة، وتشميت العاطس، وإبرار الـمُقْسِم، ونصْرِ المظلوم، وإجابة الداعي، وإفشاء السلام».

في هذه الأحاديث ثمانية آداب اجتماعية وظواهر خلقية أمرنا بها الرسول ﷺ، وأبان أنها من حقّ المسلم على أخيه المسلم:

الأول: إفشاء السلام، وهو يشمل البدء بالسلام وردّ السلام، والبدء بالسلام سنة وردّه واجب.

الثاني: عيادة المريض مواساةً له وتسلية لنفسه، وإشعاراً له بأنّ إخوانه المسلمين مهتمون بأمره، يسألون عنه ويتفقدون أحواله.

الثالث: اتباع الجنائز، فإذا مات المسلم فمن حقه على إخوانه المسلمين أن يصلّوا عليه، ويدعوا له، ويشيعوه إلى رمسه، تكريماً له، ومواساة لأهله، ومشاركة وجدانيّة لهم، وعظة بالموت.

الرابع: إجابة الدعوة، فإذا دعا المسلم أخاه المسلم إلى دعوة طعام أو غيره، فمن حقه عليه أن يجيب دعوته، إلّا أن يكون عنده عذر شرعي يعتذر به.

الخامس: تشميت العاطس، وذلك بأن يدعو المسلم لأخيه المسلم بأن يرحمه الله، إذا سمعه عطس وحمد الله تعالى، فيقول له: يرحمك الله؛ ويرد عليه العاطس بقوله كما جاء في السنّة: «يهدينا ويهديكم الله».

السادس: النصيحة، فإذا استنصح المسلم أخاه المسلم في استشارة فمن حقّه عليه أن ينصح له، وكذلك إذا رآه في حالة تستدعي نصيحته، فمن حقّه عليه أن ينصحه.

السابع: إبرار الـمُقسم، فمن حلف على أخيه في أمرٍ يستطيع فعله ولا معصية لله فيه فمن حقّه عليه أن يُبِرّ قسمه، بفعل ما حلف عليه فيه.

الثامن: نصْر المظلوم، فمن وجد أخاه المسلم مظلوماً، فمن حقّه عليه أن ينصره بما يستطيع من قولٍ أو شفاعة أو عمل.

وهذه الحقوق الأخلاقية الاجتماعية من شأن تأديتها أن تؤكّد وتوثّق الروابط الاجتماعية بين المسلمين، وتمكّن المودّات في قلوبهم، وهي من ظواهر التوادّ والتراحم والتعاطف، ومن ظواهر معنى الجسدية الواحدة بين المسلمين.

١ ــ أمّا إفشاء السلام، فهو أدب من آداب الإسلام الاجتماعية، وقد أمر الإسلام المسلمين به، فالمسلم مطالب بأن يسلّم على من عرف من المسلمين ومن لم يعرف، ومكلّف أن يردّ التحية بمثلها أو بأحسن منها.

ولا يستهين بهذا الأدب ويُعرض عن تطبيقه إلاّ مصابٌ في أخلاقه بمرض الكبر والعجب بالنفس، أو بالأنانية المفرطة التي يبخل معها بعطاء التحيّة، وعطاء التحية أهون عطاءٍ يبذله الإنسان من لسانه ووجهه.

وهذا الأدب الإسلامي الاجتماعي يمثّلُ أوّل خيطٍ من خيوط الترابط الاجتماعي، وتكرارُه يعقد الصّلات وينسج المودّات.

٢ ـ وأمّا عيادة المريض، فهي من الآداب الاجتماعية الإسلامية، وهي حقّ من حقوق المسلم على أخيه، لأنّ المريض بحاجة ماسّة إلى من يواسيه ويسلّيه ويتفقّد أحواله، ويساعده إذا احتاج إلى مساعدة، ويدعو له بدعوة صالحة عسى أن تكون رُقْيَة نافعة يشفيه الله بها.

وهذا الأدب يرتبط بخلق العطاء عند المسلم، وهو يعبر تعبيراً صادقاً عن مبلغ التآخي بين المسلمين، ويوثق روابط الصلة بينهم، ويزيد من وشائج المحبّة، وأواصر المودّات، لا سيما إذا لاحظنا أنّ حالة المريض فيها من الانكسار النفسي ما يجعله رقيق الحاشية، فيّاض العواطف، مُهيّأً نفسيّاً للتأثير عليه وامتلاك مشاعر المحبّة في قلبه، والمحبّة متى وجدت في طرف سرت غالباً إلى الطرف الآخر بقوّة نفاذها وقوّة عدواها.

٣ ـ وأمّا اتباع الجنائز، فهو صلة من المسلم لأخيه المسلم موصولة من حياته إلى ما بعد مماته، واتباع الجنائز يلحقُها الصلاة على الميت، والشفاعة له عند الله، وهذا أيضاً صلة عظيمة له بخير ما ينفعه بعد موته وهي الدعوة الصالحة، وتعبير صادق مخلص لا رياء فيه ولا سمعة، عن الأخوة الإيمانية التي عقدها الله بين المؤمنين، يضاف إلى ذلك ما في اتباع الجنائز من مواساة لأهل الميت وذويه المصابين بفقده، وهم بحاجة ماسّة إلى من يواسيهم ويعزيهم ويصبرهم على مصابهم، ويشاركهم مشاركة وجدانية كريمة، وقد كان الأصل في اتباع الجنائز أن يساهم المشيّعون في حملها إلى مثواها من الأرض، وفي حفر قبرها وفي مواراتها ودفنها، وكل هذه أعمال تشارك فيها الجماعة وتساهم بها خدمة إنسانية وتواصلاً بين المسلمين.

ومن شأن هذه الأمور التي يشتمل عليها هذا الأدب من آداب الإسلام، الموصول بالأسس الأخلاقية التي دعا إليها، أن تمكّن صلات الأخوة والمودّة والتعاطف والتراحم بين المسلمين، وتبرز معاني وحدتهم الإسلامية الكبرى.

٤ ـ وأمّا إجابة الدعوة فهي حقّ للمسلم على أخيه المسلم أيضاً. إنّ دعوة المسلم لأخيه المسلم صلة اجتماعية تعبّر عن مودّةٍ وأخوّة، وهذه الصلة تستدعي أن تقابل بالاستجابة، لا بالرفض، والمستجيب يعقد من طرفه حبل الصلة الذي مدّه إليه أخوه، وقدّم من قِبَله دليلاً مادّياً على أخوته ومودّته. كما قدّم إليه أخوه من قبلُ الدليل على ذلك بدعوته له.

وحينما يكون المدعوّ معذوراً ويصعب عليه تلبية الدعوة، فعليه أن يقدّم لأخيه عذره ويستسمحه، ولا يجوز له أن يجفو أخاه ويستهين به، فربّ جفوة بغير عذر كسرت قلباً وأحزنت نفساً، وربما أفسدت ما بين القلوب، فحلّ التنافر محلّ التآلف، وحلّ الخصام محلّ الوئام، لا سيما إذا كان الجفاء ناشئاً عن استهانة، أو كبر، أو استعلاء شخصيّ أو طبقي، وعندئذ يكون أشدّ قبحاً وذمّاً، وأكثر إفساداً للمودّات، وتقطيعاً لأواصر الأخوة الإيمانية الإسلامية.

٥ ـ وأمّا تمشيت[١] العاطس، فهو أدب من الآداب الإسلامية الاجتماعية، وهو ينمّ عن ذوقٍ رفيع في مجالس المسلمين، إذ يتصيّد المسلم أدنى مناسبة ليدعو لأخيه المسلم بدعوة كريمة، وليوجّه له كلمة حلوة، يجذب بها من قلبه خيطاً من خيوط العواطف الإنسانية، التي تُنسَجُ بها وشائج المودّة والمحبة، وتوثّق بها روابط الإخاء.

والعطاس ظاهرة طبيعية تتكرّر من الإنسان دون أن يملك دفعها، وقد

---

(١) تشميت العاطس الدعاء له بخير، قال ابن سيده: شمّت العاطس وسمّت عليه دعا له أن لا يكون في حال يُشمت به فيها. وتابع ابن منظور في (اللّسان) فقال: والسين لغة عن يعقوب، وكلّ داعٍ لأحد بخير فهو مشمّت له ومسمّت، بالشين والسين، والشين أعلى وأفشى في كلامهم. ونقل عن التهذيب: كلّ دعاء بخير فهو تشميت. وحكي عن ثعلب أنه قال: الأصل فيها السين من السّمت وهو القصد والهدى.

يكون عنوان نشاط قادم بانتفاضة عصبيّة، وقد يكون ظاهرة لحالة زكام وبرد مرضيّ مسَّ الإنسان، وعلى أيّة حال فمن الخير إذا هو حمد الله على ما جرى له أو حمد الله أن سَلّمه أن تكون مكافأته على حمده لربه توجيه من سمعه أن يدعو الله له، وأعظم دعوة شاملة لجوانب الخير كلها الدعوة له بأن يرحمه الله تعالى.

وحين يتلقى العاطس الدعاء له من إخوانه يشعر في ذات نفسه بأن شركاءه في المجلس قد اهتموا بشأنه، عند هذه العارضة اليسيرة التي عرضت له فدعوا له بالرحمة، فكيف يكون اهتمامهم به إذا هو نابه شيء كبير، وأمرٌ غير يسير، وعندئذٍ يردّ لمن دعا له جميلاً بجميل، فيدعو له بأن يهديه الله ويصلح باله. أمّا الدعوة بالهداية فهي مكافأة كريمة للدعوة بالرحمة، لأن من هداه الله فقد هيأ له أعظم أسباب الرحمة. وأمّا الدعوة بإصلاح البال فهي زيادة بارعة تشير إلى أن سبب البدء بالدعوة بالرحمة انشغال بال الأخ على أخيه، إذ سمعه عطس وحمد الله تعالى، فكأنّه يقول له: ولا أقلق الله بالك على نفسك أو أخ أو قريب أو حبيب.

أفنجد أرق تهذيباً من مجتمع فيه هذه العواطف الكريمة المتبادلة، التي تنتهز لها أدنى المناسبات؟

لكنّ العاطس إذا لم يحمد الله تعالى لم يكن من حقّه على جلسائه أن يشمّتوه لأنه لم يراع ما ينبغي له من أدب مع الله في حالته هذه، فسقط حقّه بأن يدعو له جلساؤه بالرحمة.

٦ ــ وأمّا نصيحة المسلم لأخيه المسلم فهي ظاهرة خلقية كريمة تعبّر عن صدق الأخوة بين المسلمين، وتعبّر عن أمانة الرجل وصدقه فيما يخبر به أخاه ممّا يعلم من وجوه الخير، لا سيما إذا استشاره واستنصحه.

ومن شأن هذا الخلق الكريم أن يعقد المودّات بين الناس، أو يزيد في توثيقها، بشرط أن تكون نصيحة صادقة ليس الغرض منها الفضيحة أو الشتيمة أو التعيير والتنقيص، إلاّ عند بعض النفوس المستكبرة العاتية، على أنها سترضى بعد حين متى شعرت بصدق الناصح وإخلاصه في النصيحة.

والذي يداهن وينافق ويكتم النصيحة قد يظفر بصداقة مؤقتة، إلاّ أنه ينكشف بعد حين، وتعرف مداهنته، ويظهر أنه لم يكن أخاً وفيّاً ولا صديقاً صادقاً، وإنما كان مداهناً منافقاً، فيخسر حينئذٍ ما كان من قبل حريصاً عليه.

٧ ـ وأمّا إبْرارُ المُقسِم، فقد جرى من عادة الناس أن يحلف الأخ قسماً على أخيه أن يفعل أمراً أو يترك أمراً، اعتماداً على أواصر الأخوة بينهما وعلى تبادل المودّة، فيقول له:

والله لتفعلن الأمر الفلاني أو لتتركنَّ الأمر الفلاني.

وهنا يعلمنا الإسلام أن من حقّ الأخ على أخيه أن يُبرّ له قسمه، فيفعل ما أقسم عليه أن يفعله، ويترك ما أقسم عليه أن يتركه، بشرط أن لا يكون في الأمر معصية أو مخالفة لله تعالى، أو مضرّة أو منقصة، فإن كان فيه شيء من ذلك فلا إبرار، لأنّ الإنسان لو أقسم على نفسه أن يفعل شيئاً ثم رأى غير ما حلف عليه خيراً منه فهو مأمور شرعاً بأن يكفّر عن يمينه ويأتي الذي هو خير.

ومن شأن إبرار المُقْسِم أن يوثق الصلات ويعقد المودّات.

وهذا الأدب يرجع عند التحليل إلى مظهر من مظاهر خلق العطاء من النفس، كما يرجع إلى خلق الحياء، وتلبية ما يقتضيه الدافع الجماعي والأخوة الإيمانية.

٨ ـ وأمّا نصرة المظلوم، فهي ظاهرة خلقية ترجع إلى خلق حبّ العطاء من النفس، وإلى ما يقتضيه الدافع الجماعي والأخوة الإيمانية. وشرح هذه الظاهرة قد جاء موسّعاً لدى شرح حديث: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً».

ومن شأن نصرة المظلوم أن تعقد المودات وتوثق الصلات بين المسلمين، وأن تخدم قضية العدل بين الناس، وتصرف عنهم عوامل التفرقة والخلاف والعداوة والبغضاء، ولو أغضبت الظالمين؛ لأنّ الظالم لا بدّ أن يرجع إلى نفسه ويُكبر من نصر المظلوم عليه ما كان في قلبه ذرّة من إيمان.

(ب) في ستر المسلم لأخيه المسلم:

روى مسلم عن أبـي هريرة عن النبـي ﷺ قال:

«لا يستر عبدٌ عبداً في الدنيا إلاّ ستره الله يوم القيامة».

من حق المسلم على أخيه المسلم أن يستره ولا يفضحه، والله تعالى يكافئه من جنس عمله فيستره يوم القيامة، وجاء في حديث آخر، أنّ الله يستره في الدنيا والآخرة.

وستر المسلم لأخيه المسلم يعتبر من مكارم الأخلاق، فإذا اطّلع المسلم على خطيئة أو معصية أو نقيصة وقع بها أخوه المسلم بينه وبين ربّه، ولم يجاهر بها أمام الناس، بل تستّر بها وتوارى واستحيى فيها؛ فما هو الغرض من فضيحته ونشر خطيئته بين الناس إذا كانت من الأمور التي لا تتعلّق بها حقوق شخصية للآخرين، أو حقوق عامّة ترتبط بها مصالح المسلمين الكبرى؟ إنّه لا مصلحة في ذلك، بل الغرض تعييره وتنقيصه وإنزال مكانته بين الناس.

أمّا النصيحة فإنها تتحقق بتوجيهها له في السرّ لا في العلن، أو بالموعظة العامة التي لا توجّه لأشخاص بأعيانهم، كما كان يفعل الرسول ﷺ، إذ كان يقول حينما يُخْبَر بأنّ بعض الناس قد فعل منكراً من المنكرات: ما بال أقوام فعلوا كذا وكذا. أو يفعلون كذا وكذا. ويوجّه موعظته لهم بصفة عامّة.

وإرادة الفضيحة هي من قبيل إشاعة الفاحشة وفعل السوء في المسلمين، وهي تعبّر عن رذيلة خلقية في الإنسان.

من ذا الذي يريد لأخيه المسلم الإهانة ونزول المكانة إلاّ من كان في نفسه عقدة من رذائل الأخلاق؟

فقد يريد أن يحطّ من مكانة أخيه بين الناس ليرتفع هو على أنقاضها. وقد يكون غرضه أن يجد لنفسه مبرّراً في قبائح هو يرتكبها وهو مشهور بها عند الناس، فيكشف عورات إخوانه ليخفف من نقد الناس له، إذ يعلمون أنّ ذوي المكانة المستورين هم مثله في ارتكاب القبائح والسيئات، وهم شركاؤه في الإثم.

وكلّ ذلك من فساد خلقه وسوء سريرته، وهو بعمله هذا يساعد على تهوين ارتكاب الآثام والقبائح، ويشجع عليها، شعر بذلك أو لم يشعر، مع أنّ المفروض بصاحب الأخلاق الكريمة أن يعمل على دعم الفضائل ونشرها، ومحاربة القبائح والرذائل ودفنها، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، لا أن يكون داعياً من دعاتها أو أحد المساهمين في نشرها وإشاعتها.

وقد أنذر الله الذين يحبّون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، فقال تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

وقد جاءت هذه الآية في سياق حديث الإفك.

ففي إشاعة السوء عن المؤمنين إيذاء لهم وإضرار بهم، وتهوين من أمر فعل السوء وتشجيع على ارتكابه، ولا سيما إذا كان من أُشيع أنه قد فعله من أهل الستر والصيانة بين الناس.

(ج) في صيانة المرافق العامة ممّا يؤذي الجماعة:

روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ:

«من مر في شيء من مساجدنا أو أسواقنا ومعه نبل فليمسك أو ليقبض على نصالها بكفه، أن يصيب أحداً من المسلمين منها بشيء».

في هذا الحديث توجيه لحقّ من الحقوق الاجتماعية، إنه يمنع المار في المجامع العامة كالمساجد والأسواق من أن يتعرض المسلمون إلى أذى من قبله بسبب شيء يحمله، كالنبال التي لها نصال، فإن عليه أن يقبض على نصالها، ويأخذ الاحتياطات التامة خشية أن يصيب بها أحداً من الناس فيؤذيه.

فمن حق الجماعة على الفرد الذي يريد أن ينتفع بمرفق من المرافق العامة، أن لا يستعمل المرفق بشيء يؤذي أحداً له حق في استعماله، إذ المرافق

العامة حق مشترك بين جميع الأفراد، والحقوق المشتركة ذات حدود، ومن حدودها أن لا ينتفع الفرد منها انتفاعاً يؤذي فيه أحداً من الشركاء الذين لهم حق الانتفاع بها، أو يعرّض حقه للضياع، ومن حدودها أن لا يستأثر لنفسه بأكثر من حصته في الحق المشترك.

فليس من حق إنسان أن يمر في طريق عام مكتظ بالناس، ويحمل معه في الوقت نفسه قضباناً طويلة من الحديد، أو أعمدة خشبية كبيرة، أو صناديق عريضة، فيضرب بما يحمل من على يمينه تارة ومن على شماله أخرى، ثم من أمامه ثم من وراءه.

وليس من حقه أن يحمل كيساً من فحم أو شقة من لحم ويمر بما يحمل في معترك الناس، فيصبغ ثياب الناس البيضاء بفحمه، أو يلوثها بدهن شحمه ودم لحمه، ويؤذيهم بذلك.

وليس من حقه أن يدخن لفافته بين الناس وينفخ دخانها في وجوههم وأنوفهم، أو ينثر رمادها عليهم، أو يقذف عقبها قذفاً عشوائياً ربما تقع به على شيءٍ تحرقه من متاع الناس أو ممتلكاتهم، ويزعم أنه ينتفع بحقه في مرفق عام، متجاوزاً بذلك حدود حقه.

وكم من الناس الذين يمرون في الطرقات ويستخدمون المرافق العامة لا يعرفون حدود حقوقهم، أو يعرفونها ولا يرعونها، فيؤذون الناس أذى كثيراً وكبيراً، فكم من ضربة، أو لكمة، أو غمزة، أو دفعة، أو لذعة بنارة، يصاب بها الناس بعضهم من بعض في الطرقات والمرافق العامة، أو تنزل عليهم مما يقذفه المسيئون قذفاً عشوائياً، دون أن يجدوا وخزاً في صدورهم من سوء عملهم.

ويفعل المسيئون ما يفعلون من ذلك دون أن يبالوا النتائج، كأن الطرقات العامة لهم وحدهم، وكأن المرافق العامة إنما جعلت من أجلهم خاصة، فهم يفعلون بها ما يشاؤون ويستأثرون منها بما يشتهون.

وهذا من انعدام شعور الفرد بحقوق الجماعة، ومن إفراطه في الأنانية،

واستهانته بما يؤذي الناس، ورغبته بتجاوز حدود حقه والاستيلاء على حقوق غيره.

وكل ذلك يمثل جانباً من جوانب الانهيار الخلقي، الذي يقاومه الإسلام مقاومة شديدة، ولا يرضاه الله من المسلم بحال من الأحوال.

إن المسلم المتخلق بأخلاق الإسلام يعرف مقدار حقوقه وحدودها فلا يتجاوزها ويعرف حقوق الآخرين فلا يعتدي عليها، وينظر إليها باحترام بالغ، فلا يؤذي إنساناً في حق من حقوقه الخاصة أو العامة.

وبالتزام هذه الأخلاق الإسلامية الاجتماعية تبرز في المجتمع الإسلامي ظواهر حضارية راقية.

أمّا الاستهانة بها فإنها تَسِم المجتمع بسمات التخلف الحضاري الشائن، وتجعله في معزل عن المنهج الرباني الذي اصطفاه الله لعباده، ورسم في الإسلام معالمه وحدّ حدوده.

(د) من حقوق المسلمين في المرافق العامة:

روى مسلم عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ:

«عُرضت عليَّ أعمال أمتي حسنُها وسيئُها، فوجدت في محاسن أعمالها الأذى يماط عن الطريق، ووجدت في مساوىء أعمالها النّخاعة تكون في المسجد لا تدفن».

يوجه الرسول ﷺ المسلمين في هذا الحديث لتنظيف الطرقات والأماكن العامة من المؤذيات، ويبين أن إماطة الأذى من محاسن الأعمال، لأنها خدمة يعود نفعها على كل من يمر في الطرقات ويحضر الأماكن العامة، فهي بذلك تعتبر مظهراً من مظاهر مكارم الأخلاق، وهذه الخدمة عطاءٌ يقوم به من يقوم به من المسلمين لصالح جماعة المسلمين بوجه عام، والمساجد أولى الأماكن العامة بهذه الخدمة، لأنها مواطن مخصصة لعبادة الله تعالى، وعلى أرضها تسجد جباه المسلمين.

وفي مقابل إماطة الأذى التي هي من محاسن الأعمال، ومظهر من مظاهر

مكارم الأخلاق، تقع مساوىء أعمال هي ذات صلة برذائل الأخلاق، وتتمثل هذه المساوىء بإلقاء الأذى في طرقات المسلمين، وتقذير المساجد بالأوساخ والقمامات والمستقذرات من الأشياء، كالبصاق والنخامة وغير ذلك من مؤذيات، وما أكثر ما نجد الناس يفعلون ذلك فيؤذون إخوانهم، ويقذرون مساجد الله وطرقات المسلمين، ويلقون المؤذيات فيها، كأنهم عن الآداب والتعاليم الإسلامية بعيدون، وكأنهم لها جاهلون مع أن الإسلام هو رائد الآداب والأخلاق الاجتماعية، وحامل لواء الذوق الحضاري الرفيع.

إن الذين يقارنون بين التعاليم الإسلامية وبين المسلمين في عصرنا هذا، يجدون بوناً شاسعاً، لا سيما في الآداب والأخلاق الاجتماعية، والمعاملات المادية والمظاهر الحضارية، وسبب ذلك يرجع إلى جهل كثير من المسلمين بإسلامهم، واقتصارهم منه على الأركان الكبرى، وتركهم لأشياء كثيرة جداً هي من صلب دينهم، ومن أسس تعاليمه، ومن المؤسف أن نجد كثيراً من تعاليم الإسلام الاجتماعية والحضارية مطبقة عند غير المسلمين، ومهجورة عند المسلمين.

وفي الحث على إماطة الأذى عن الطريق وردت عدة نصوص:

منها ما رواه مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:

«لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين».

وفي رواية لمسلم أيضاً:

«مر رجل بغصن شجرة على ظهر طريق فقال: والله لأنحّينّ هذا عن المسلمين لا يؤذيهم، فأدخل الجنة».

وفي رواية للبخاري ومسلم:

«بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره، فشكر الله له فغفر له».

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«كل سُلامَى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس: يَعدلُ

بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل في دابته فيحمله عليها أو يرفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة».

السّلامى: هي عظم بين مفصلين.

فذكر الرسول ﷺ من الصدقات العدل، والمعونة، والكلمة الطيبة، والعبادة، والخدمة العامة.

وروى مسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ:

«إنه خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مَفصل، فمن كبر الله، وحمد الله، وهلّل الله، وسبّح الله واستغفر الله، وعزل حجراً عن طريق الناس أو شوكة أو عظماً عن طريق الناس، أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر، عدد الستين والثلاثمائة، فإنه يمشي يومئذٍ وقد زحزح نفسه عن النار».

فعلى المسلم أن يعمل من مفردات الأعمال الصالحة كل يوم بمقدار ما جعل الله في جسده من سُلاميات، حتى يؤدي واجب الشكر لله على ما وهبه.

ومن الأعمال الصالحات ما هو خاص بالعامل كالعبادات المحضة، ومنها ما هو ذو نفع للناس، كالعدل، والمعونة، والكلمة الطيبة التي تسرّ مسلماً، وكالخدمة العامة التي منها إماطة الأذى عن الطريق.

(هـ) في الحث على كل عمل نافع للإنسان أو الحيوان:

روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما من مسلم يغرس غرساً إلّا كان ما أُكل منه له صدقة، وما سُرق منه له صدقة، ولا يَرْزَؤُه أحد إلّا كان له صدقة».

لا يَرْزَؤُه أحد: أي لا ينقصه أحد.

وفي رواية أخرى عند مسلم أيضاً:

«لا يغرس المسلم غرساً فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا طير إلّا كان له صدقة إلى يوم القيامة».

وفي رواية أخرى عند مسلم أيضاً:

«لا يغرس مسلم غرساً، ولا يزرع زرعاً، فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا شيءٌ إلّا كان له صدقة».

ففي هذا حثٌ على الأعمال الزراعية، ووعد بالأجر عند الله على كل فائدة يستفيدها إنسان أو دابة أو طير من أي غرس يغرسه مسلم، سواء أكان ذلك بإرادة الغارس أو بغير إرادته، حتى ما يسرق منه فإن له به صدقة.

وأبان الرسول ﷺ أن هذا الغرس وما ينجم عنه من منافع هو من الصدقات الجارية، التي يستمر تسجيل الأجر على ما يكون منها من خير ولو بعد موت الإنسان، بدليل ما جاء مصرحاً به في الرواية الثانية: «إلّا كان له صدقة إلى يوم القيامة».

وهذا من مفاخر الإسلام في ميدان التقدم الحضاري المادي، فميدان الزراعة من أهم الميادين الحضارية التي تعتمد عليها المجموعات البشرية المتحضرة، والرسول ﷺ في هذا الدفع الحضاري يربط بين حاجات الحياة، وبين الأعمال التي هي أسباب لتقديم مطالبها، وبين الإيمان الذي يتطلع باستمرار إلى تحقيق مرضاة الله تعالى، ويرجو به المؤمن عند الله الأجر العظيم على الأعمال التي ترضيه سبحانه.

ولـمّا كانت الأعمال الزراعية مما يخدم الحياة بوجه عام، كانت مما يرضي الله تعالى خالق الحياة وواهب الأرزاق.

ومن سنن الله الثابتة أن يثيب على كل عمل يرضيه من عباده، ما ابتغوا به رضوانه سبحانه.

وغرس الأشجار في نظر الإسلام من قبيل الصدقة الجارية، لأنها معرضة للآكلين والمنتفعين منها، من إنسان أو دابة أو طير.

والمسلم حينما يغرس غرسه ويلاحظ هذه المعاني الإسلامية، فإنه يسجل

في صحيفة حسناته منذ غرس غراسه عملاً صالحاً ذا صدقة جارية، وكان عمله مظهراً من مظاهر خُلقه الإيماني الذي يدفعه إلى نفع عباد الله.

ومن المدهش أن المسلم يؤجر على ما يسرق منه، مع أن ما يسرق منه لم يكن عطاءً بإرادته، إلا أنه من المصائب التي يصاب بها في ماله، وكل المصائب التي يصاب بها المسلم في ماله، أو بدنه، أو نفسه، أو أهله، أو ولده، أو أي شيء يؤلمه، له فيها أجرٌ عند الله، ما لم يتضجر مسيئاً الأدب مع ربه جل وعلا، وعلى هذا دلت عدة نصوص من أقوال الرسول ﷺ.

— ٩ —
في العزلة والاختلاط بالناس

يرى بعض الناس من طلاب الآخرة أن العزلة عن الناس والبعد عن الاختلاط بهم، أفضل عند الله وأحب من مخالطة الناس والدخول في جماعتهم.

ويرى آخرون من أهل العلم خلاف ذلك، فيقول: إن مخالطة الناس، والدخول في جماعتهم، والصبر على أذاهم، والمشاركة في الأعمال الجماعية العامة النافعة، أفضل عند الله وأحب من الاعتزال عنهم والبعد عن الاختلاط بهم.

ولدى النظر في النصوص والمفاهيم الإسلامية الخاصة والعامة تتأكد لدينا الحقائق التالية:

١ ــ أن الإسلام دين جماعي تعاوني، وليس دين انفرادية وعزلة.

٢ ــ أن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم ويدعوهم إلى الله، ويساعد على فعل الخير ونشر الهدى، خير وأفضل من الذي يعتزلهم فلا يخالطهم، جفوةً لهم، أو عجزاً عن الصبر على أذاهم.

٣ ــ أن الذي لا يملك نفسه من الفتنة في دينه إذا هو خالط الناس، لفساد المجتمع، أو لا يستطيع ضبط نفسه عن إيذاء الناس بلسانه أو يده أو غير

ذلك إذا هو خالطهم، خيرٌ له وأفضل أن يعتزلهم، فراراً بدينه، وصيانة لنفسه عن الوقوع في الخطايا.

دلّ على الحقيقة الأولى ما سبق من بيانات كثيرة تؤكد وحدة المسلمين الجماعية، وتدعو كل مسلم إلى الجماعة وعدم الفرقة.

ودلّ على الحقيقة الثانية ما رواه الترمذي وابن ماجه بإسناد صحيح عن عبدالله بن عمر، أن النبي ﷺ قال:

«المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم».

ودلّ على الحقيقة الثالثة، ما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ:

«يوشك أن يكون خير مال المسلم غنمٌ يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن».
شَعَفُ الجبال: أعلاها.

وما رواه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رجل: أي الناس أفضل يا رسول الله؟ قال:

«مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله».

قال: ثمّ مَنْ؟

قال: «ثم رجلٌ معتزل في شعبٍ من الشعاب يتقي الله ويدعُ الناس من شره».

وما رواه مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال:
«من خير معاش الناس لهم رجل ممسكٌ عنان فرسه في سبيل الله، يطير على متنه، كلما سمع هيعةً أو فزعة طار عليه، يبتغي القتل والموت مظانه. أو رجل في غُنيمة في رأس شَعفَةٍ من هذه الشعف، أو بطن وادٍ من هذه

الأودية، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلّا في خير».

أي حتى يأتيه الموت بعيداً عن الفتنة في دينه.

فدلت هذه النصوص على أن أفضلية العزلة خاصة بمن يخشى على نفسه الفتنة في الدين، أو لا يملك نفسه عن إيذاء عباد الله، فمن كان كذلك كانت العزلة له أفضل من المخالطة، على أن الأصل في المسلم أن يكون بخلاف ذلك، إذ المفروض فيه أن يكون ذا حصانة وذا إرادة قوية، وأن يكون قادراً على ضبط نفسه حتى يخالق الناس بخلقٌ حسن، هذه هي القاعدة، وخلاف ذلك شذوذ، وأحوال نادرة، تداوى بالعزلة، وهي ترجع إلى ضعف الإنسان عن المقاومة تجاه دواعي الفتنة، أو ضعفه عن ضبط نفسه عن سوء معاملة الناس.

إن الأصل في المسلم أن يكون دائم المجاهدة لنفسه، وللكافرين والمنافقين والفاسقين، متحلياً بأخلاق الصبر، وقوة الإرادة، وضبط النفس عن مزالق الفتنة والعصيان.

— ١٠ —

من حقوق المسلمين بعضهم على بعض اجتناب كل ما يضر بهم أو يؤذيهم أو يلقي البغضاء بينهم أو يفرق جماعتهم ويمزق وحدتهم والسعي في الإصلاح ورأب الصدع

اشتملت سورة (الحجرات ٤٩) على توجيهات وأوامر أخلاقية وافرة، تتعلق بحقوق المسلمين بعضهم على بعض، مما يفرض على المسلم اجتناب ما يضر بأخيه المسلم أو يؤذيه، أو يلقي العداوة والبغضاء بين المسلمين، أو يفرق جماعة المسلمين ويمزق وحدتهم.

وجاء في سور أخرى من القرآن الكريم وفي بيانات الرسول ﷺ نصوص

كثيرة تتعلق بهذه الحقوق، وفيما يلي طائفة من هذه النصوص، مع تدبر بعض توجيهاتها.

(أ) إصلاح ذات البين:

قال الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ . . . ۝١﴾.

ذات البين: هي صاحبة البين، والبين في كلام العرب يأتي على وجهين متضادين: فيأتي بمعنى الفرقة، ويأتي بمعنى الوصل. وإصلاح ذات البين على المعنى الأول يكون بمعنى إصلاح صاحبة الفرقة بين المسلمين، وإصلاحها يكون بإزالة أسباب الخصام، أو بالتسامح والعفو، أو بالتراضي على وجه من الوجوه، وبهذا الإصلاح يذهب البين وتنحل عقدة الفرقة. أما إصلاح ذات البين على المعنى الثاني فيكون بمعنى إصلاح صاحبة الوصل والتحابب والتآلف بين المسلمين، وإصلاحها يكون برأب ما تصدع منها، وإزالة الفساد الذي دب إليها بسبب الخصام والتنازع على أمر من أمور الدنيا.

والله تبارك وتعالى أمر المؤمنين بأن يصلحوا ذات بينهم ويطيعوا الله ورسوله إن كانوا مؤمنين حقاً.

فمن صفات المؤمنين المتقين أنهم يصلحون ذات بينهم، فإذا نشأ بينهم وبين إخوان لهم خصام على أمر من أمور الدنيا، أسرعوا إلى إصلاحه بأنفسهم، ولو لم يتدخل بينهم وبين إخوانهم وسطاء.

فإذا اشتد أمر الخصام وجب على المسلمين أن يسعوا في الإصلاح بين المتخاصمين بمختلف الوسائل الكفيلة بإزالة أسباب الخلاف ورأب الصدع.

وقد يصل الخلاف إلى حد التقاتل بين طائفتين من المؤمنين، وفي هذه الحال يجب على سائر المؤمنين أن يصلحوا بينهما، ضمن المنهج الذي رسمه القرآن، بقول الله تعالى في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

فأوجب الله على المؤمنين أن يصلحوا بين الذين يختصمون منهم، فقال لهم: «إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم» وجعل ذلك من عناصر التقوى، فقال تعالى بعد ذلك: «واتقوا الله لعلكم ترحمون».

فإذا رفضت إحدى الطائفتين المتقاتلتين أن تخضع للإصلاح بالعدل، وركبت رأسها باغية ظالمة، وجب على سائر المؤمنين أن يقاتلوا الفئة الباغية حتى ترجع إلى أمر الله، وهو الإصلاح بالعدل والقسط، فإذا فاءت تم الإصلاح بينها وبين الطائفة التي هي خصمها بالعدل.

ومن هذا نلاحظ مبلغ اهتمام الإسلام بوحدة جماعة المسلمين، وحرصه الشديد على أن لا يدب الخلاف بينهم، ولا تقع الفرقة بين صفوفهم، لأن ذلك يوهن قواهم، ويطمع بهم عدوهم، ويقذف بهم إلى الفشل، ويُمكن أعداءهم من رقابهم.

(ب) **اجتناب كل ما يسبب الخلاف والفرقة والعداوة والبغضاء:**

قال الله تعالى في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

ففي هذا النص ينهى الله الذين آمنوا عن قبائح اجتماعية ست، من شأنها بذر بذور الفرقة والعداوة والبغضاء، لما فيها من إيذاء وإضرار بالآخرين، وهي قبائح تشتمل على ظلم من الإنسان لأخيه الإنسان، وكل ظلم من شأنه أن يورث العداوة والبغضاء، ويوقع الفرقة بين الجماعة الواحدة.

والقبائح الست هي:

١ ــ السخريــة.

٢ ــ اللّمــز.

٣ ــ التنابــز بالألقــاب.

٤ ــ اتهام المؤمنين بالظنون الضعيفة التي لا تقوى على الاتهام.

٥ ــ التجسس على المؤمنين.

٦ ــ الغيبة للمؤمنين المتقين.

ويلاحظ أنّ كلّ نهي في هذا النّص قد انفرد بلونٍ تعبيري ذي دلالة خاصة، قابلة لأن تكون شاملة للمنهيّات الأخرى فيه:

* ففي السخرية: لا يسخر قومٌ من قوم.
* وفي اللّمز: ولا تلمزُوا أنفسكم.
* وفي التنابز: ولا تنابزوا بالألقاب.
* وفي الظنّ المنهي عنه: اجتنبوا.
* وفي التجسس: ولاَ تجَسَّسُوا.
* وفي الغيبة: ولا يغتب بعضكم بعضاً.

ويلاحظ أنه يصح في كلٍّ منها أن تستعمل التعبيرات الأخرى، لتؤدّي فيه دلالتها.

فيقال: لا يسخر قوم من قوم. ولا تسخروا من أنفسكم ولا تتساخروا. واجتنبوا السخرية ولا تسخروا. ولا يسخر بعضكم من بعض.

وكذلك سائرها.

ومع ذلك فقد اختير لكلّ قبيحة من هذه القبائح الست الصيغة التي تدلّ على أبرز صورة من صورها:

١ ــ **فالسخرية**: تغلب فيها المشاركة الجماعية، إذ الساخر يضحك بسخريته آخرون.

٢ ــ **واللّمز**: يغلب فيه الطابع الفرديّ الخفي الذي يدركه أهل النباهة.

٣ ــ **والنبز باللقب**: تغلب فيه المشاركة، فمن نُبِزَ نَبَزَ، كالتقاتل.

٤ ــ **والتجسّس**: يغلب فيه العمل الفردي ضدّ فرد أو جماعة، فجاء النهي عاماً.

٥ ــ **والغيبة**: ظاهرة جماعية يؤذي الناس بها بعضهم بعضاً في غيبتهم، فهي كالتنابز ولكنها حركة جماعية مختلطة لا مواجهة فيها، فافترقت عن التنابز بالألقاب.

٦ ــ **وظن السوء بالناس**: مثل الغيبة إلاّ أنه حركة نفسية، قد يكون لها آثار مادّية في الاتهام.

وفيما يلي شرح موجز لهذه القبائح الست:

السخريـــة:

إن السخرية تنافي ما يوجبه الحق، وهي ظلم قبيح من الإنسان لأخيه الإنسان وعدوان على كرامته، وإيذاء لنفسه وقلبه، ومن آثارها أنها تقطع الروابط الاجتماعية القائمة على الأخوة والتوادّ والتراحم، وتبذر بذور العداوة والبغضاء، وتولد الرغبة بالانتقام، ثم أعمال الانتقام، ما استطاع المظلوم بها إلى ذلك سبيلاً.

إذا بحثنا في دوافع الإنسان إلى السخرية من أخيه الإنسان، وجدناها ترجع إلى الكبر الذي يلازمه بطر الحق وغمط الناس، وإلى الرغبة بتحطيم مكانة الآخرين استئثاراً بالمكانة، أو مقاومة أفكارهم وأعمالهم بالباطل، لصد الناس عن تقديرها أو الأخذ بها، أو ترجع إلى الرغبة بالتسلية والضحك على حساب آلام الآخرين الناشئة عن احتقارهم واستصغارهم وازدرائهم، والاستهانة

بأقوالهم أو أعمالهم أو خلقتهم أو طبائعهم، أو أُسرهم وأنسبائهم، أو قومياتهم وعناصرهم وأصولهم، أو لغاتهم وعاداتهم وأزيائهم، إلى أشباه ذلك.

وهذا التحقير والاستصغار الذي تعبر عنه السخرية إما أن يكون له من ظاهر ما يُسخر منه مبرر، وإما أن لا يكون له مبرر مطلقاً، وإنما كانت السخرية لوناً من ألوان المقاومة العدوانية لذات الشخص المسخور منه، أو لفكرته أو لعمله، وكلا الأمرين ظلم قبيح وعدوان منكر.

إذا كان الساخر يسخر من خلقة أخيه الجسدية أو الطبعية، فإنه يسخر من أمر لا يملك المسخور منه تعديله، ولو أن الله عز وجل خلق هذا الساخر كذلك لما كان ملك من أمره شيئاً، ولو أن الله ابتلى هذا الساخر بمصيبة جعلت عنده عيباً يسخر منه السالمون، لما ملك من أمره شيئاً، فالسخرية من عيب في أصل الخلقة يحمل في مضمونه الاعتراض على الخالق، وللخالق في ابتلائه لعباده ألوان.

ثم إن المسخور منه للعيب الذي ابتلاه الله به في أصل التكوين، أو في عوارض المصائب، ربما يكون في دخيلة نفسه، أو في خلقه وعمله، خيراً وأفضل من الساخر بكثير، فليست مِيَزُ الإنسان وفضائله محصورة في حدود جسده أو بعض أعماله، بل توجد فيه أمور أعظم من ذلك، هي عقله وإيمانه وطهارة قلبه، وتقواه وابتغاؤه الخير، وجوده وإحسانه، إلى غير ذلك من أمور كثيرة، وهذا ما دل عليه قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن﴾.

وإذا كان الساخر يسخر من أسرة أخيه أو نسبه أو قوميته أو عنصره أو لغته أو عادات قومه أو أزيائهم، فهو يسخر أيضاً من أمر لا يملكه المسخور منه، لأنها تدخل ضمن سلطة القدر الجبري، وهو أيضاً يحمل في مضمونه الاعتراض على الخالق في مقاديره، وما يبتلي به عباده.

وإذا كان الساخر يسخر من عمل أخيه وإنتاجه لما فيه من نقص أو عيب، فهو إما أن يسخر من ملكاتٍ فطرية لا يملك المسخور منه تعديلها، وإما أن

يسخر من تقصيره وإهماله. أما السخرية من الملكات الفطرية فهي اعتراض على المقادير، وأما السخرية من الإهمال والتقصير في العمل ففيها ادعاء ضمني أن الساخر لا يقع بمثل هذا التقصير أو الإهمال، مع أن الواقع قد يشهد بأن الساخر ربما كان له من النقائص الإرادية ما هو أكثر بكثير مما سخر منه، حتى الشيء الذي سخر منه ربما لا يستطيع الساخر عمل مثله، لأنه أعجز من ذلك، وعلى فرض قدرته على ما هو أحسن فإن سخريته ذات تأثير سيءٍ على روابط الأخوة الإيمانية، وعلى حق الإنسان على أخيه الإنسان، والسخرية هي من التعيير، وقد جاء في الحديث:

«من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله».

(رواه الترمذي عن معاذ)

وروى الترمذي وصححه عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال:
«ما أحب أني حكيت أحداً وأن لي كذا وكذا».

وإذا كانت السخرية لا مبرر لها مطلقاً، كسخرية الكافرين من المؤمنين، وكسخرية العصاة من المتقين، وكسخرية الناقصين من الكاملين لتغطية نقصهم وغمط كمال أهل الكمال، فهي سخرية غاية في القبح والظلم والعدوان والشناعة.

ومن كلّ هذا يظهر لنا أنّ أخفّ أنواع السخرية يقال فيها: ﴿لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم، ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهنّ﴾.

ونتساءل عن الحكمة من النهي عن سخرية الرجال من الرجال والنساء من النساء، دون أن يأتي النص عامّاً كأن يقول: «لا يسخر بعضكم من بعض» كما جاء في الغيبة: «ولا يغتب بعضكم بعضاً»؟

ويمكن أن نجيب بأن السبب في ذلك يرجع إلى نقطتين إحداهما نفسية، والأخرى اجتماعية خاصة بالمجتمع الإسلامي:

أمّا الناحية النفسية: فترجع إلى أنّ الغالب في النساء أنّهن لا يسخرن من

الرجال، وأنّ الرجال لا يسخرون من النساء، فدافع السخرية النفسي يكون من الرجال للرجال، ومن النساء للنساء، وإن حصل شيء على خلاف هذا فهو نادر، إذ عامل التعاطف بين الجنسين يمنع سخرية أحدهما بالآخر، وأيضاً يعفّ الرجل عن أن يسخر بالمرأة لأنه لا يعتبرها عنصراً منافساً له اجتماعياً، وتأبى المرأة أن تسخر من الرجل لأنها تعطف عليه، وتشعر فيه معنى القوة والقوامة، ولا ترى فيه منافساً لها مهما كان شأنه.

وأمّا الناحية الاجتماعية الخاصة بالمجتمع الإسلامي: فالأصل في هذا المجتمع أن لا يكون مجتمعاً مختلطاً بين الجنسين، والسخرية في الغالب تكون مع المواجهة والمخالطة.

اللّمـــز:

اللّمز هو أن يعيب الإنسان أخاه في وجهه بكلام ولو خفيّ، وربّ لمزٍ خفيّ هو أشدّ من طعن صريح، وأعمق جرحاً في داخل النفس، لأنّ فيه بالإضافة إلى الطعن والتجريح بالعيب معنى استغباء الملموز واستغفاله، فكأن اللاّمز يشعر الذين في المجلس أن الملموز غبـي لا يتنبّه إلى الطّعن الذي يوجّه ضدّه في رمز الكلام.

واللّمز قبيحة اجتماعية تورث الأحقاد والأضغان، وتقطّع أواصر الأخوة الإيمانية، وهو ظلم من الإنسان لأخيه الإنسان، وعدوان على حقه عليه.

ومن حقّ المؤمن على أخيه المؤمن أن يستر عيوبه، وإذا كان العيب نقيصة إرادية فَدَوْرُ المؤمن أن يكون ناصحاً في السرّ لأخيه، لا فاضحاً له ولا ناشراً لعيوبه، لا بصريح اللفظ ولا برمزه ومعاريضه ودلالاته المغلّفة.

وكم يقع في مجالس الناس هذا اللّمز، وكم يؤذي الناس بعضهم بعضاً به، وكم يولد فيهم أحقاداً ورغبات انتقام، وكم يثير بينهم غضباً وعداوات.

من أجل ذلك نهى الله عنه نهيَ تحريم، واعتبر ارتكابه من الفسوق، وجعل الإصرار عليه وعدم التوبة منه ظلماً، فقال تعالى في آخر الآية: ﴿بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾.

أي: بئس أن يرتكبوا عملاً يطلق عليهم بسببه اسم الفسوق، بعد أن تحلَّوْا باسم الإيمان الذي هو أشرف الأسماء وأكملها بالنسبة إليهم.

وفي النهي عن اللّمز قال الله تعالى: ﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾. ونتساءل هنا فنقول: لِمَ لَمْ يقُل: ولا يلمز بعضكم بعضاً، وإنما قال: ولا تلمزوا أنفسكم؟

ويمكن أن نجيب بأمرين:

الأول: لـمّـا كان المجتمع الإسلامي في مفهوم الإسلام بمثابة الجسد الواحد، كان من يلمز أخاه المسلم بمثابة من يلمز نفسه.

الثاني: من يلمزُ غيره يعرّض نفسه للانتقام منه باللّمز، فهو إذ يلمز الناس يتسبب في أن يلمزوه، فكأنه لمز نفسه.

واقتصر النص على هذه الجملة في أداء هذين المعنيين ضمن ما نهى عنه من السخرية والتنابز بالألقاب والغيبة، ليقاس الباقي عليها، ولتؤدّي كلّ جملة نهت عن أمرٍ معنىً يصلُح لأن يُعمّم على الجميع عن طريق القياس، ويستغنى بهذا عن تكرير كلّ فكرة مع كلّ منهي عنه.

التنابزُ بالألقاب:

النَّبَزُ بفتح الباء في اللغة هو اللّقبُ، وجمعه الأنباز، ونَبَزَهُ يَنْبِزُه نَبْزاً: إذا لقّبَه. والتنابُز بالألقاب هو التداعي بالألقاب، والمراد من ذلك الألقاب التي فيها ذمٌّ أو هُزْءٌ أو تحقير أو شيءٌ مما يكره الإنسان أن يُنْبَزَ به.

وجاء في الحديث: أنّ رجلاً يُنْبَزُ قُرْقُوراً، أي يُلَقّبْ بقُرقور.

ولـمّـا كان التنابز بالألقاب التي من هذا القبيل مما يؤذي الناس، إذ يحمل معنى التحقير والإهانة، نهى الله عنه، وجعله من المحـرّمات، وجعله من الفسوق ومن الظلم.

وربما يصل التنابز بالألقاب إلى مستوى الشتيمة، كالنبز بالحمار والثور والكلب ونحو ذلك.

ومن شأن التنابز بالألقاب أنه يقطّع أواصر الأخوة الإيمانية، ويفسد

المودّات ويولّد العداوات والأحقاد، وربا يوصل إلى التقاتل مع ثوران الغضب وهيجان الحماقات.

وتنفيراً من هذه القبائح الاجتماعية (السخرية ـ واللمز ـ والتنابز بالألقاب) أبان الله أن من يتصف بها من المؤمنين يحمل وصف الفسوق بعد وصف الإيمان، وبئس هذا الوصف، فقال تعالى: ﴿بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان، ومن لم يتبْ فأولئك هم الظالمون﴾.

إنّ من آمن فحمل وصف الإيمان الشريف؛ من القبيح به جداً أن يدنّس نفسه بوصف الفسوق بعد ذلك، إنّه هبوط قبيح بعد ارتقاء جميل، وتسفّل دنيء بعد اعتلاء قمّة مجد عالية، وتدنيس فاحش لأكرم رداء هو رداء الإيمان.

ولـمّـا كانت هذه القبائح التي تقذف مرتكبيها إلى دركة الفسوق تدخل في دائرة ظلم الإنسان لأخيه، قال تعالى: «ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون».

ظالمون لإخوانهم بالعدوان عليهم، وظالمون لأنفسهم بتعريضها لعقاب الله في جزائه العادل.

اتهام المؤمنين بالظنون الضعيفة التي لا تقوى على الاتهام:

وفي النهي عن هذه القبيحة الاجتماعية قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظنّ إنّ بعض الظنّ إثم﴾.

والظنّ المأمور باجتنابه هنا هو اتّهام الناس بجريمة ما أو بارتكاب منكر من المنكرات بغير دليل راجح، وإدانتهم بالأوهام والشكوك، وهي الظنون الضعيفة التي لا تقوى على الإدانة، وكذلك إدانتهم بظنّ راجح لكنّه لا يقوى على الإدانة، كشهادة العدل الواحد في الحقوق المالية ونحوها، وكشهادات ما دون أربعة شهداء في الاتهام بالزنى.

والظنّ في اللّغة يدلّ على كلّ ما دون اليقين حتى أسفل درجات الوهم، ولذلك قال تعالى: ﴿اجتنبوا كثيراً من الظنّ﴾ أي اجتنبوا الظنّ الوهميّ، والظنّ الذي هو من مرتبة الشك، واجتنبوا في الحكم على الناس الظنّ الراجح برجحان

ضعيف لا يقوى على إدانتهم، وهذه هي النسبة الكبرى من الظنون. أمّا الظنّ الراجح برجحان يتناسب مع موضوع القضية، فقد كلّفنا الإسلام العمل به وعليه يعتمد القضاء، وعليه تعتمد طائفة من فتاوى الأحكام الشرعية، وهي التي لا يُشترط فيها اليقين؛ فكثيراً ما يكون اجتهاد الفقيه منحصراً في حدود الظنّ الراجح لا اليقين، وحكم القاضي بشهادة شاهدين عدلين عمل بالظنّ الراجح، ونظير ذلك كثير من وسائل الإثبات، وكثير من العلوم والمعارف من هذا القبيل.

فقول الله تعالى: ﴿إنّ بعض الظنّ إثم﴾ بعد قوله: ﴿اجتنبوا كثيراً من الظنّ﴾ هو بمثابة التعليل له، أي بما أنّ بعض الظنّ بالناس المفضي إلى اتهامهم بغير حقّ إثم، فالحيطة في الأمر للمحافظة على ظاهر عدالة المؤمنين تقضي باجتناب كثير من الظنّ، حتى لا يجرّ ذلك إلى اتهامهم بغير حقّ، وإلى الحكم عليهم بإثم لم يثبت ببيّنة شرعية. وتتبّع الظنون بالمؤمنين يفضي إلى إصدار أحكام جائرة ضدهم، ومن شأنه أن يُفسد العلاقات الاجتماعية، ويولّد الأحقاد والعداوات، وهو من البواعث على رذيلة الغيبة، ومن مقطّعات أواصر الأخوة الإيمانية. ولكن هذا لا يعني الغفلة وترك الحذر، فالغفلة وترك الحذر ورطة، واتباع الظنون التي لا تقوى على إثبات القضيـة رعونـة وطيش وتسرّع في الأحكام، وظلم للمؤمنين وعدوان على كرامتهم وأعراضهم التي يجب أن تظلّ مصونة، إلّا أن يُدانوا بإثبات شرعي.

التـجسس:

التجسّس على الناس هو تتبع عوراتهم وهم في خلواتهم، إمّا بالنظر إليهم وهم لا يشعرون، وإمّا باستراق السمع وهم لا يعلمون، وإمّا بالاطلاع على مكتوباتهم ووثائقهم وأسرارهم وما يخفونه عن أعين الناس دون إذن منهم.

وقد نهى الله المؤمنين عن التجسس على إخوانهم المؤمنين؛ ما داموا ظاهري الاستقامة غير مجاهرين بمعاصيهم، وكان ما يخفونه من أمورهم من السلوك الشخصي الذي يخصّهم، ولا يتعلّق بكيد يكيدونه للمسلمين. أمّا إذا

كانوا فاسقين معروفين بالفسق، أو منافقين مكشوفي النفاق، أو ما يخفونه يتعلّق بأمن الدولة الإسلامية، أو هو من قبيل خيانة المسلمين مع عدوّهم، فهؤلاء لا حرمة لهم، وباستطاعة المسؤولين عن أمن الدولة الإسلامية التجسّس عليهم لكشف خياناتهم وما يكيدون المسلمين مع أعدائهم.

وقد نهى الله عن التجسس، لأنّ من حقّ المسلم أن يخلو بنفسه دون أن يطلع عليه أحد إلاّ الله، ومن حقّه أن يستر قبائحه ومعاصيه إذا كان له منها شيء، وليس من حقّ المجتمع أن يراقبه في خلواته الخاصة، حتى يجاهر بذنبه أو يكشف صفحة نفسه وما يخفي من مخالفاته ومعاصيه.

ومثل التجسّس التحسّس، والأصل فيهما أن التّجسُّس هو من تتبع العورات عن طريق الجسّ الخفي، وأن التحسس هو من تتبع العورات عن طريق استخدام الحِسّ بطريقة خفية.

والتجسّس والتحسّس كلاهما مما يولّد في المجتمع الأحقاد، ويورث العداوات والبغضاء، إذ يشعر المتجسَّس عليه بأنه مشكوك بأمره غير موثوق، وهما يكشفان عورات الناس، ويتسببان بإشاعة الفاحشة في الذين آمنوا.

الغيبة:

وقد نهى الله الذين آمنوا أن يغتاب بعضهم بعضاً، فقال تعالى: ﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه، واتقوا الله إن الله توابٌ رحيم﴾.

والغيبة أن يذكر الإنسان أخاه في غيبته بما يكره، روى مسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال:

«أتدرون ما الغيبة؟».

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «ذكركَ أخاك بما يكره».

قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟

قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهَتّه».

فمن ذكر أخاه في غيبته بما يكره ممّا هو فيه فتلك هي الغيبة، كم بيّن الرسول ﷺ، ومن ذكر أخاه في غيبته بما يكره ممّا ليس فيه، فقد اغتابه وبَهته، أي كذب عليه واتهمه بما ليس فيه.

والغيبة من القبائح الاجتماعية التي لا يليق بالذين آمنوا أن يرتكبوها، فيغتاب بعضهم بعضاً.

وقد حرمها الله ونهى عنها، لما فيها من تقطيع أواصر الأخوة الإيمانية، وإفساد المودات، وبذر بذور العداوات، وذلك لأن الغيبة في الغالب لا تبقى سرّاً، بل يصل العلم بها لمن ذُكر في غيبته بما يكره، فقلّ في الناس من يكتم حديثاً، وعندئذٍ يغضب ممّن ذكره، ويحقد عليه، وينتقم منه بمثل عمله أو بأقبح منه.

وفي نشر معايب الناس بين الناس تشجيع على الاستهانة بها، وارتكاب مثلها أو أقبح منها، لا سيما إذا كان المتحدث عنه من المعروفين بالاستقامة، أو من مستوري الحال، أو ممّن يشار إليه بالبنان، أو من الدعاة إلى الخير والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، أو ممن يقتدى بهم في أعمالهم العامة أو الخاصة.

وتوجد عدّة دوافع تدفع الإنسان إلى الغيبة:

١ ــ منها كراهيته الباطنة لمن يغتاب، مع عدم رغبته بإظهار كراهيته، لئلّا تتحول إلى عداوة ظاهرة، فيخسر بهذه العداوة الظاهرة أموراً يحبّها، أو يتعرّض لمعارك لا يرى من مصلحته أن يتعرّض لها، فينتهز فرصة غياب من يكره، فيغتابه أمام قوم يتصوّر أنه يأمن جانبهم من أن يبلّغوه، شعوراً منه بأن ذلك يحطّم مكانته في نفوسهم، وبذلك ينفّس عن كراهيته له.

٢ ــ ومنها المنافسة التي ولّدت حسداً، والحسود لا يحب أن يعرف عنه

الحسد، ولكنه لا يستطيع مع نار الحسد التي تأكل قلبه إلاّ أن يعبّر عمّا في نفسه بمحاولات نشر معايب من يحسده، فيغتابه في المجالس ليُحطّم مكانته عند الناس، وليعلو هو في تصوّره على حطام أخيه الذي يغتابه.

٣ ــ ومنها الرغبة بأن يبرّر المغتاب في نظر الناس ما عرفوا عنه من معايب وقبائح، فإذا ذكر أمامهم من يحترمونه بأنّ له من العيوب والقبائح مثل عيوبه وقبائحه، خفّ إنكارهم عليه، فإما أن ينزل في نفوسهم من يحترمونه إلى مثل منزلة من يغتابه، أو يرتفع من يغتابه إلى مثل منزلته في نفوسهم، وهكذا يتصوّر صاحب هذه الرغبة الذي يريد أن يبرّر في نظر الناس واقعه.

وغير المؤمنين يغتابون المؤمنين الصالحين لنشر الفساد في الأرض، والتشجيع على ارتكاب الآثام والسيئات، وممارسة القبائح والمنكرات.

وخلائق أهل الغيبة الذين يتظاهرون أمام إخوانهم بالمحبة والاحترام والتقدير، ثم يطعنون فيهم في حال غيبتهم، تشبه خلائق المنافقين، فهم مخادعون يظهرون بوجه، ويخفون وجهاً آخر، وهم جبناء، وهم حريصون على تحصيل المنافع من كلّ الوجوه المتضادّة.

وفي التحذير من الغيبة وردت عدة أحاديث عن النبي ﷺ، منها ما رواه الحافظ أبو يعلى وأبو داود بنحوه، عن البراء بن عازب قال: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في بيوتها، أو قال في خدورها، فقال:

«يا معشر من آمن بلسانه لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنّه منْ يتبع عورة أخيه يتّبع الله عورته، ومن يَتّبع الله عورته يفضحه في جوف بيته».

وروي عن ابن عمر من طريق أخرى نحوه.

وعن عائشة قالت: قلت للنبي ﷺ: حسْبُك من صفيّة أنها كذا وكذا (قال بعض الرواة: تعني قصيرة) فقال:

«لقد قلتِ كلمة لو مُزجَتْ بماء البحر لمزجته».

أي كلمة كبيرة كافية لأن تغير ماء البحر الطاهر الطهور بما فيها من طعم فاسد وريح منتنة، وذلك لأنها من عنصر الغيبة.

قالت عائشة: وحكيت له إنساناً فقال:
«ما أحب أني حكيتُ إنساناً وإن لي كذا وكذا».
(رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح).

فأبان الرسول ﷺ أن المُحَاكاة الدالة على التنقيص من الغيبة، فهي منهي عنها.

وروى أبو داود والإمام أحمد عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ:

«لـمّا عُرِجَ بـي مررت بقوم لهم أظفارٌ من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم».

فهذه من عقوبة المغتابين.

وللتنفير من الغيبة جعلها الله مثل من يأكل من لحم أخيه ميتاً، فقال تعالى: ﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾.

وذلك أن من يذم أخاه المؤمن ويتحدث عن نقائصه ومعايبه، يؤذيه أذىً يشبه أذى من يعضّه ويأكل لحمه، فإذا كان ذلك في غيبته وعلى غير شعور منه، كان كمن يعضّه ويأكل من لحمه وهو ميت لا يحس ألم العضّ والأكل.

وفي التحذير من الغيبة والتنفير منها، روى الحافظ أبـو يعلى بـإسناد صحيح، عن عمر أن ماعزاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد زنيت، فأعرض عنه، حتى قالها أربعاً، فلما كان في الخامسة، قال: «زنيتَ؟» قال: نعم. قال: «وتدري ما الزنى؟». قال: نعم، أتيت منها حراماً ما يأتي الرجل من امرأته حلالاً. قال: «ما تريد إلى هذا القول؟» قال: أريد أن تطهّرني. قال: قال رسول الله ﷺ: «أدخلت ذلك منك في ذلك منها، كما يغيب

الميل في المُكحُلة والرشا في البئر؟» قال: نعم يا رسول الله. قال: فأمر برجمه فَرُجم.

فسمع النبي ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه: ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه، فلم تدعه نفسه حتى رُجم رجم الكلب؟.

ثم سار النبي ﷺ حتى مرّ بجيفة حمار، فقال: «أين فلان وفلان؟ انزلا فكُلا من جيفة هذا الحمار».

قالا: غفر الله لك يا رسول الله، وهل يؤكل هذا؟

قال ﷺ: «فما نِلتُما من أخيكما آنفاً أشد أكلاً منه، والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها».

وهكذا نهانا الله عن كل ما يسبب الخلاف والفرقة، ويلقي في قلوب المؤمنين العداوة والبغضاء، وأبان لنا بالتفصيل قبائح السخرية، واللّمز، والتنابز بالألقاب، واتهام المؤمنين بالظنون الضعيفة التي لا تقوى على الإدانة، والتجسّس على المؤمنين، والغيبة للمؤمنين، ويقاس عليها نظائرها.

ثم جاءت السنّة فبيّنت وفصلت ما جاء في القرآن، ومما جاء في السنّة ما يلي:

روى البخاري والإمام مالك عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال:

«إياكم والظنّ، فإن الظنّ أكذب الحديث، ولا تجسّسوا، ولا تحسّسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً».

وروى ابن ماجه، عن عبدالله بن عمر قال: رأيت النبي ﷺ يطوف بالكعبة ويقول:

«ما أطيبكِ وأطيبَ ريحكِ! ما أعظمكِ وأعظم حُرْمَتَكِ! والذي نفس محمد بيده لَحُرْمَةُ المؤمن أعظم عند الله حُرمةً منكِ، مالُه، ودمُه، وأن يُظَنَّ به إلا خيراً».

وروى الطبراني عن حارثة بن النعمان قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لازماتٌ لأمتي: الطِّيرَة، والحسد، وسوءُ الظنّ».

فقال رجل: وما يُذْهِبُهُنَّ يا رسول الله مَمَّنْ هنّ فيه؟

قال ﷺ: «إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظننت فلا تحقّق، وإذا تطيّرتَ فامضِ».

وروى أبو داود بإسناد صحيح عن معاوية، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إنّك إن اتّبعت عورات المسلمين أفسدتهم، أو كدت أن تُفسدهم».

وروى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ:

«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه».

وروى مسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال:

«تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس، فيغْفَر لكل عبدٍ لا يُشرك بالله شيئاً، إلّا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيُقال: أنْظِروا هذين حتى يصطلحا، أنْظِروا هذين حتى يصطلحا».

وفي رواية: «تعرضُ الأعمال في كل يوم خميس واثنين» وبقية الحديث نحو الحديث السابق.

وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ها هنا (ويشير إلى صدره ثلاث مرات) بحسب امرىءٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله وعرضه».

ولا تناجشوا: التناجش أن يزيد إنسان في ثمن السلعة وهو لا يريد

شراءها، وإنما غرضه أن يغر إنساناً آخر له رغبة بها، فيدفع في ثمنها أكثر من قيمتها.

ففي هذا الحديث نهي عن جملة من قبائح السلوك المنافية لما يجب أن يكون عليه خلق المسلم، وظاهر أن هذه القبائح من شأنها أن تفرق بين المسلمين، وتفسد أخوتهم، وتحطم جسديتهم الواحدة، وقد نهى الرسول ﷺ في هذا الحديث عما يلي:

١ ــ التحاسد.

٢ ــ التناجش، وهو الإضرار في المزاودة دون قصد الشراء.

٣ ــ التباغض.

٤ ــ التدابر، أي التقاطع، إذ به يجعل كل فرد دبره لأخيه، بدل أن يجعل وجهه لوجهه.

٥ ــ أن يبيع المسلم على بيع أخيه، وهذا من التنافس على الدنيا، الذي يفسد المودات، ويورث العداوات، ومن صوره أن يقول لمن يشتري من إنسان: لا تشتر منه فإني أبيعك بأرخص أو عندي أحسن من سلعته.

٦ ــ الظلم.

٧ ــ الخذلان، وهو أن لا ينصر المسلم أخاه بالحق.

٨ ــ التحقير.

٩ ــ وأخيراً قرر الرسول أن كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه، فلا يجوز للمسلم أن يؤذي أخاه المسلم في جسده، ولا أن يعتدي عليه في ماله، ولا أن يؤذيه في عرضه، والعرض هو مكان المدح والذم من الإنسان.

وشرح هذه العناصر موزع في فصولها.

النّميمـــة:

النميمة هي السعي بين الناس بالإفساد، لتحريض الناس بعضهم على

بعض، والإيقاع بينهم، وشحْنِ قلوبهم بالعداء والضغينة، ومنها السعي لدى ذي سلطان حتى يفسد قلبه على بعض أهل مودته، أو أحد رعيته، فيوقع به ضرّاً أو أذى.

والنميمة قد تكون للإفساد بين صديقين، أو شريكين، أو زوجين، أو قريبين، أو حبيبين، أو أسرتين، أو قبيلتين، أو شعبين، أو دولتين، أو أي فريقين بينهما صلاتٌ ومودات أو علاقات تعامل، أو نحو ذلك.

وهي أخبث وسائل التفريق الشيطانية، والنمام يظهر لكل من الفريقين اللذين يفسد بينهما بوجه غير الوجه الذي يظهر به للفريق الآخر.

وصاحب الوجهين هذا هو شر الناس يوم القيامة، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«تجدون شر الناس يوم القيامة ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه».

وأبان الرسول ﷺ أن النمام لا يدخل الجنة، روى البخاري عن حذيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«لا يدخل الجنة قتّات».

القتّات: هو النمام.

وفي رواية مسلم عن حذيفة: «لا يدخل الجنة نمام».

وروى الإمام أحمد بسند ضعيف، أن رسول الله ﷺ قال:

«ألا أنبئكم بشراركم؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «شراركم المشّاؤون بالنميمة، المفرّقون بين الأحبّة، الباغون للبرآء العيب».

وروى البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس قال: مرّ رسول الله ﷺ بقبرين فقال:

«إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستبرىء من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة».

وقال الله تعالى في سورة (القلم ٦٨):

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾.

قيل: نزلت في الأخنس بن شُريق.

وقد وصف الله امرأة أبي لهب بأنها حمالة الحطب، وقد رجح طائفة من المفسرين أن هذا كناية عن كونها تمشي بالنميمة.

والذي يمشي بالنميمة ناقلٌ لأخبار السوء، وقد وصفه الله بأنه فاسق، وأمر الذين آمنوا بأن يتثبتوا من خبره، فلا يأخذوه على عواهنه، ويبنوا عليه الأحكام دون تبيّن ولا تثبت، وفي ذلك قال الله تعالى في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾﴾.

وكم جرت النميمة من شرور عظمى في المجتمع الإنساني، وكم فرقت بين الناس، وأفسدت العلاقات، وأثارت فتناً كبرى، لذلك فهي من المحرمات الكبائر.

ودوافع النميمة ترجع إلى الحسد، أو إلى الكراهية، أو إلى الكبر، أو إلى الرغبة بتحقيق مطامع خاصة، أو ترجع إلى ابتغاء الفتنة وإرادة إشعال نيران الشرور بين الناس وإقامة الحروب والثورات، فهي بهذا شيطانية بحتة.

فنعوذ بالله من النميمة ومن كل نمام.

* * *

الفَصْل الخامِسْ

المحبّــة للآخـــرين

ـ ١ ـ

المحبة للآخرين من الأسس العامة للأخلاق

من الأسس العامة التي ترجع إليها مجموعة من الفروع والمفردات الخلقية المحمودة محبة الآخرين.

وذلك لأن انطلاق الإنسان عن دائرة أنانيته الضيقة، إلى دائرة أعم وأشمل، وخروج الإنسان من إطار محبته لنفسه فقط، إلى محبة الآخرين الذين هم في الدائرة الأعم الأشمل، إنما هو ارتقاء خلقي كريم. أما بقاء الإنسان في حدود دائرة أنانيته الضيقة، وانحصاره في إطار محبته لنفسه فقط، دون أن يكون عنده محبة للآخرين أو شعور بمشاعرهم، فهو من دون شكٍّ انحطاط خلقي، وانعزال عن الحياة الاجتماعية، ورضىً بأضيق الحدود. وكثيراً ما يرافق الأنانية الضيقة كراهية الآخرين، وحسدهم، وبغضهم، والحقد عليهم، لأنهم منافسون أو منازعون أو مشاركون، وكل ذلك ممّا يؤذي أصحاب النفوس الصغيرة الحقيرة ذات الأنانية الضيقة وهذا مما لا شك فيه قبح خلقي وخسة ودناءة وانحطاط.

إن الشعور بالمحبة نحو الآخرين أصل ترجع إليه مكارم خلقية كثيرة، كالتعاون وإرادة الخير للناس، ومشاركتهم الوجدانية في السراء والضراء، وأن يحب لهم مثلما يحب لنفسه، وأن يعاملهم بمثل الذي يحب أن يعاملوه به.

ومن شأن الشعور بالمحبة نحو الآخرين السلامة من كثير من الأمراض الخلقية الخبيثة، كالحسد، والأثرة، والبغضاء، والشحناء، والغيبة، والنميمة، وإرادة الشر والضر بالناس، والظلم والعدوان، وغير ذلك من رذائل.

إن هذه الأشواك السامة تنبتها شجرة في النفس خبيثة جذرها الأنانية الضيقة، ومحبة الإنسان لنفسه فقط، وجذعها كراهية الآخرين، وفروعها الشيطانية الشوكية السامة كل ما فيه أذى وإضرار بالآخرين.

إن شعور الإنسان بمحبته للناس اتجاه كريم نحو الارتباط بالجماعة، والاندماج فيها، ومشاركتها في السراء والضراء، وانطلاق من مواقع الأنانية الضيقة، فهي الوجه السمح الجميل المشرق للقلوب والنفوس.

أما الكراهية فهي انعزال مقيت في مواقع الأنانية الضيقة، وهي الوجه السمج المخيف المظلم القاتم للقلوب والنفوس.

ما أجمل الحياة بالمحبة! وما أقبحها بالكراهية! إن المحبة لتسعد صاحبها قبل أن تسعد الآخرين، أما الكراهية فإنها تشقي صاحبها قبل أن تمس نارها الآخرين.

المحبة جنة ناعمة وارفة الظلال، تنعم بها القلوب الكبيرة التي تحملها، أما الكراهية في القلوب الدنيئة الحقيرة ذات الأنانية الضيقة فهي نار ذات لهب، تكوي أوعيتها، وتعذب أصحابها.

إن المحبة يرافقها في النفوس طمأنينة، وقناعة، ورضى، أما الكراهية فيرافقها قلق واضطراب، ومطامع ثائرة، وتسخط مستمرٌ على الواقع.

فالذين يحبون الخير للناس يعيشون في سعادة قلبية مستمرة، ضمائرهم رضية، ونفوسهم مطمئنة. أما الذين لا يحبون إلا أنفسهم فهم عن هذه السعادة وراحة الضمير وطمأنينة النفس مبعدون، لقد أبعدتهم قلوبهم الصغيرة، ونفوسهم الحقيرة.

ولذلك جعل الإسلام هذه المحبة عنصراً من عناصر الإيمان، أو ثمرة من

ثمراته، فقد ثبت في الصحيح أن الرسول ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

ومعلوم أن الإنسان لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه، حتى يكون عنده شعور نحو أخيه بالمحبة.

ولدى التأمل نلاحظ أن قاعدة هذا الحديث تصلح أساساً عاماً للأخلاق الاجتماعية كلها، إذ أن الفضائل الخلقية الاجتماعية كلها يشتمل عليها هذا المنبع الرئيسي: أن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه.

وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم».

فجعل الرسول ﷺ في هذا الحديث التحابب من عناصر الإيمان، أو ثمرة من ثمراته التي لا بد أن تظهر متى كان الإيمان صحيحاً، فقال: «ولا تؤمنوا حتى تحابوا» أي: فإذا لم يوجد بين المسلمين تبادل المحبة والمودة لم يكن الإيمان في قلوبهم مستكملاً عناصره، وبذلك لا يكونون مؤمنين حقاً، ولا يكونون مؤهلين لدخول الجنة.

فتبادل المحبة بين المسلمين قاعدة من قواعد الإيمان أو أثر من آثاره القلبية، كما أنها أساس عام من أسس مكارم الأخلاق الاجتماعية.

وباستطاعتنا أن نكشف ارتباط محبة الآخرين بالإيمان، حين نلاحظ أن الإيمان في حقيقته ظاهرة من ظواهر خلق حب الحق، والاعتراف به، والإذعان له، وأن هذا الإيمان يستلزم حتماً محبة الخالق المنعم، ومن محبة الخالق تأتي محبة عباد الله الذين أمر بمحبتهم وموادّتهم، فمن صدق في حبه لله أحب بحبه الخير لكل عباد الله، وبهذا نلاحظ الترابط الوثيق بين الإيمان بالله وتوجيه حب القلوب إليه من جهة، وبين الإيمان وتحابب المؤمنين من جهة أخرى، فحلقات الإيمان مترابطة ويلزم عنها لوازم تعتبر متممات لها.

— ٢ —

الأصل في خلق المسلم أن يحب الناس جميعاً والكـــراهية عـــرض طـــارىء لأمـــر يستدعيها

الذي يكشفه التحليل والتبصّر في النصوص الإسلامية، أن الأصل في خلق المسلم الذي يعامل به جميع عباد الله هو خلق المحبة لا خلق الكراهية، فالمسلم المؤمن مشرق القلب دائماً، منفتح القلب لكل عباد الله، ويريد الخير لكل عباد الله.

وإذا أبغض أو كره، فإنما يبغض ويكره الشر والرذيلة والفساد والباطل، لأن حبه للحق والصلاح والفضيلة والخير يستلزم حتماً أن يكـره ويبغض أضدادها. وحينما يلتزم أحد عباد الله هذه الأمور، ويدعو إليها، وينصرها، ويسلك سبلها، فإن حب المسلم المؤمن له يدفعه أولاً إلى هدايته، لإنقاذه من جحيم هذه الأمور، ثم يدفعه إلى محاولة إخراجه منها ولو باستخدام بعض وسائل العنف التي قـد توقظ فكـره وضميره لتقبـل الحق والخير والفضيلة والصلاح، والاستجابة لدعوة الهداية، وسلوك سبيلها. فإذا هو أصر وعاند ورفض أن يستجيب للحق والخير، فقد أعلن باختياره أنه من جنود الشر والباطل، فكان بذلك مثالاً مادياً ذا قوة فاعلة متحركة للشر والباطل والرذيلة والفساد، فاستحق أن يُعامل بالكراهية والبغض، لأنه غدا وعاءً وقوةً وجسداً لما يجب أن يُقابل بالبغض والكراهية، فبغضه وكراهيته ليسا من أجل ذاته، وإنما من أجل الصفات التي اتصف بها باختياره.

فحينما يبغض المسلم المبطلين، وأهل الشر، ومرتكبـي الكبائر من الإثم، ومعادي الحق والخير والفضيلة، فإنما يبغضهم لهذه الصفات التي فيهم، وليس يبغضهم لذواتهم، فهم بالنظر إلى ذواتهم خلق من خلق الله، وعبادٌ من عباد الله، يحب لهم الخير، ويرجو لهم الخير، ويسعى في إصلاحهم، ويشفق عليهم للمصير الوخيم الذي يدفعون أنفسهم إليه، لكنهم لـمّا حملوا الأمراض الوبائية التي حملوها، وتعذر علاجهم، لأنهم رفضوا بإراداتهم كل وسائل العلاج؛ كان

لا بد من معاملتهم بالبغض والكراهية لذلك. ومتى صح أي واحد منهم من مرضه الوبائي الخطير، عاد إلى منزلته الأصلية، وهي منزلة الأخوة، واتجه قلب المؤمن له بالمحبة.

فالخلق الأصلي الذي يعامل به المؤمن جميع عباد الله هو خلق المحبة، لا خلق الكراهية، وبخلق المحبة يريد المؤمن للناس جميعاً أن يكونوا مؤمنين، وأن يكونوا مسلمين، لأنه يعلم أن هذا هو سبيل السعادة الخالدة، وهو يحب لكل عباد الله أن يكونوا سعداء، وأن يشاركوه في النعيم المقيم الذي أعده الله للمؤمنين.

وحينما ينظر المسلم إلى أعداء الحق والخير والفضيلة، فإنما ينظر إليهم كما ينظر الطبيب الناصح إلى المرضى بالأمراض الوبائية الخطيرة، فهو لا يدع وسيلة من الوسائل التي تيسر سبُل شفائهم إلا ويستخدمها، وحينما يستخدم بعض الوسائل المؤلمة لهم، فليس ذلك ناشئاً عن بغضه لهم، وإنما دعته الضرورة إلى ذلك، لأنه لم يجد الوسيلة المجدية التي لا ألم فيها.

إن المؤمن ينظر بالأصل إلى جميع عباد الله نظرة واحدة، ويرى أن كل فرد منهم عضو من أعضاء هذه الوحدة الجماعية الكبرى، وحينما يفسد عضوٌ من الأعضاء فساداً كلياً يتعذر إصلاحه، ويمسي فساده منطقة خطر ينتشر منها الفساد إلى الأعضاء الصحيحة، فإن دافع المحبة لجماعة عباد الله تدعوه إلى أن يحمي هذه الجماعة من خطر وباء العضو الفاسد، وهذه المحبة تدعوه إلى أن يقتلع هذا العضو إذا دعت الضرورة إلى ذلك، وأن يبتره بتراً نهائياً من جسم الجماعة، خشية عليها، وصيانة لها، لا كراهية لذات العضو فإن المؤمن أحب ما يحب أن يشفى العضو من وبائه، وينضم سليماً إلى الجماعة الصالحة السليمة.

ولا يكون المسلم المؤمن بالله أنانيّاً في الدين، فهو لا يريد أن يحتكر الجنّة لنفسه، ولا يقول أنا عبدالله المختار من دون سائر الناس، وأنّ الجنة خلقت لي وحدي، أو خلقت لسلالة من الناس بأعيانهم هم أبناء الله وأحباؤه، وإنّما يقول

ما فهم من دين الله وكتابه: إنّ الجنّة لكلّ من آمن بالله، ولكل من اهتدى إلى صراطه المستقيم، وآمن بجميع رسل الله وكتبه، والتزم سبيل طاعة ربّه.

من أجل ذلك فهو يدعو جميع الناس لاغتنام هذا المجد العظيم والأجر الكبير الذي لا ينقطع، وهو شديد الحرص على أن يشاركه في الجنّة كلّ عباد الله، فالجنة تتسع بفضل الله لكل من يؤمن بالله واليوم الآخر من عباده. أمّا من اختار لنفسه سلوك سبل الشرّ، فمن شأن المسلم المؤمن الصادق أن يكره له ذلك، وأن يؤلمه أن يرى أخاه في الإنسانية سالكاً غير سبيل الله، فإن جعل أخوه في الإنسانية نفسه بإرادته شيطاناً آثماً ظالماً، وحاملاً لواء الدعوة إلى الشرّ والضلال، فقد قطع بنفسه أواصر أخوّته الإنسانية، وعندئذٍ يجد المسلم نفسه مضطراً بدافع المحبّة إلى مقاتلته، لمنع شرّه وضرّه، ومضطراً أيضاً بدافع المحبة إلى إعلان معاداته لذلك، وبغض ما فيه من شر، وهو في اللحظة التي يصلح فيها ويستقيم ويعلن دخوله في زمرة المؤمنين يحتلّ منزلة الأخوة القريبة المحبوبة.

إنّ من يختار لنفسه سبُل الضلال وينحاز إلى الذين يحادّون الله ورسُله، يقطع بإرادته أواصر أخوّته للمؤمنين، فلا يكون لهم منه حبّ ولا ودّ، ولا يجد من أحدهم له حبّاً ولا وداً، ولو كان بينهما قرابة نَسبيّة قريبة، لأنّ حبّ الله والحقّ والخير فوق حبّ الأشخاص، ومتى تعارضا سقط حبّ الأشخاص وثبت حبّ الله والحقّ والخير، فهو الأحقّ بالثبات والبقاء، ولا يمكن أن يجتمعا في قلب واحد، ما دام هذا القلب منطقيّاً مع نفسه، لا انفصام ولا ازدواج في ذاتيته، قال الله تعالى في سورة (المجادلة ٥٨):

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

وسيأتي إن شاء الله مزيد بيان لهذه النقطة.

ـ ٣ ـ

الحبّ قسمان: عاقل، وأرعن

حينما تدفع المحبَّ محبّته إلى إرضاء الشخص الذي يحبّه في كلّ ما يريد، والسرور له بفعل كل ما يهوى، ولو كان في ذلك هلاكه، أو ضرّه وأذاهُ، أو سخط الله، أو إضرار بالناس، أو نشر للشرّ والفساد في الأرض، فهي محبّة حمقاء رعناء جاهلة، ضارّة غير نافعة.

فالمحبة قسمان: محبّة عاقلة نافعة، ومحبّة رعناء جاهلة ضارّة.

أمّا المحبة العاقلة النافعة: فهي التي تريد الخير لمن تحبّ، ولو كان ذلك يسيئه ويخالف هواه.

وأمّا المحبّة الجاهلة الرعناء الضارّة: فهي التي تسعى لإرضاء من تحبّ في كلّ ما يشتهي ويهوى، وتسرّ لمسرّته في اتباعه أهواء نفسه وشهواتها، ولو كان ذلك سيجلب له ولغيره شرّاً كبيراً، وضرّاً عظيماً، ومصائب جسيمة، وعذاباً أليماً.

إن المحبّة الجاهلة الرعناء للولد مثلاً، تدفع صاحبها إلى إهمال تربية ولده شفقةً عليه، أو سروراً بانطلاقه في تلبية أهواء نفسه، حتى تجعله يتمادى في الشرّ والإثم، ويكون في آخر أمره مجرماً خطيراً، وشيطاناً رجيماً.

وربما كانت العداوة العاقلة له خيراً وأهون شرّاً من هذه المحبّة الجاهلة الرعناء.

إن تلك الأم الجاهلة الحمقاء، التي أشفقت على ولدها فأهملت تربيته، قد دفعت به وهي لا تشعر حتى صار مجرماً، وساقته الجريمة إلى يد العدالة. عندئذٍ وقفت أمّه تبكي جزعاً من أجله، وحسرة عليه، وندماً على ما فرّطت في جنبه، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ويقول لها: أنت التي دفعت بي إلى هذا المصير المهلك، بشفقتك عليّ، وسوء تربيتك لي، وإهمالك شأني، وسرورك باتباعي أهواء نفسي.

أمّا المحبّة العاقلة الحكيمة، فأعظم مثلٍ لها محبّة الله لعباده، ثم محبة الرسول لعباد الله، ثم محبة المؤمنين الفاهمين لإسلامهم والمتأدبين بآدابه.

فالله عزّ وجل يحبّ لعباده الكمال، ولا يحبّ لعباده النقص، وهذا ما تقتضيه المحبّة الحكيمة، لذلك فهو يحب لهم الإيمان، ولا يرضى لهم الكفر، ويحبّ لهم أن يعملوا صالحاً، ولا يحبّ لهم أن يعملوا السيّئات، فمن آمن وعمل صالحاً كان من أحباب الله، ومن كان من أحباب الله كان من أحباب رسوله الكريم، وكان من أحباب الصالحين من عباد الله. ومن كفر فإنّ الله لا يحبّه لكفره، وليس يكرهه لذاته، إذ هو عبد من عباده، وخلق من خلقه، ولكنّه لما اختار لنفسه سبيل الكفر أبعده الله عن مكان محبته، وكذلك من ظلم وأجرم وأفسد في الأرض فإنّ الله لا يحبّه لاقترافه هذه القبائح والمنكرات. ومن أجل ذلك كثر في النصوص القرآنية مثل قول الله تعالى: ﴿إنّ الله يحبّ المتقين﴾ وقوله: ﴿إنّ الله يحبّ المحسنين﴾، وقوله: ﴿إنّ الله يحبّ الصابرين﴾، وقوله: ﴿إنّ الله يحب المتوكلين﴾، وقوله: ﴿إنّ الله يحبّ المتطهرين﴾. وفي مقابل ذلك كثر في النصوص القرآنية مثل قول الله تعالى: ﴿والله لا يحبّ الظالمين﴾، وقوله: ﴿والله لا يحبّ كلّ كفّار أثيم﴾، وقوله: ﴿فإنّ الله لا يحبّ الكافرين﴾، وقوله: ﴿والله لا يحبّ من كان مختالاً فخوراً﴾، وقوله: ﴿إنّ الله لا يحبّ من كان خوّاناً أثيماً﴾، وقوله: ﴿ولا تعتدوا إنّ الله لا يحبّ المعتدين﴾، وقوله: ﴿ولا تسرفوا إنّ الله لا يحبّ المسرفين﴾، وقوله: ﴿إنه لا يحبّ المستكبرين﴾، وقوله: ﴿إنّ الله لا يحبّ المفسدين﴾.

وهكذا تتكاثر النصوص القرآنية محدّدة طريق المحبّة الحكيمة العاقلة، ومشيرة إلى أنّها موصولة دائماً بإرادة الخير لمن تحبّ، ولو كان ذلك يسيئه ويخالف هواه، ومقترنة دائماً بوجود الكمالات والفضائل.

أمّا الكراهية الحكيمة العاقلة، فهي لا تتوجّه إلا حيث توجد القبائح والرذائل، من عقائد، وأخلاق، وأقوال، وأعمال.

— ٤ —
الرسول ومحبته لأمته وقومه والناس أجمعين

وفي إطار المحبّة العاقلة نلاحظ أنّ مشاعر المحبّة العامّة التي كانت تتملّك قلب خاتم المرسلين محمد صلوات الله وسلامه عليه، تجاه أمته وقومه والناس أجمعين، هي التي جعلته يتحرّق ألماً، من أجل الذين رفضوا الاستجابة لدعوة الإسلام، وهو يعلم أنّ إسلامهم هو سبيل سعادتهم، وأنّ عنادهم وإصرارهم على الكفر هو سبيل شقاوتهم الأبديّة، وكان مثله صلوات الله عليه كمثل الأب الرحيم العاقل، إذ يرى ولده الذي يحبّه، ويريد له الخير، يقذف نفسه في نارٍ حامية، وهو يظنّ أنّها مرتع من مراتع اللّذات.

لقد كانت هذه المشاعر الكريمة النابعة من أخلاقه العظيمة صلوات الله عليه، هي المحرّكة لكثير من عواطفه وتصرّفاته، ولـمّا زادت هذه المشـاعر العظيمة في نفسه عن الحدود التي ينبغي ألاّ تزيد عليهـا، أرشده الله إلى التخفيف منها، حتى لا تؤثر على حياة الرسول نفسه صلوات الله عليه، ولذلك قال الله له في سورة (فاطر ٣٥):

﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

ففي هذه الآية يرشد الله رسوله إلى أن يخفف من مشاعر تحسّره على الذين لم يستجيبوا لدعوة الإسلام من قومه، إبقاءً على نفسه، فالضالّ السالك سبيل الغواية بإرادته، وهو عالم غير جاهل، وقد وُجّهت له النصائح والبيانات والإرشادات الكافيات لإقناعه ونصحه، لا يستحقّ تحمّل مشاعر الألم والحسرة من أجله، إنّه لم يكن فيه خير لنفسه، حتى يستدرّ شفقة الآخرين عليه، ويستحق أن يتحملوا الآلام حسرة عليه.

وقال الله له في سورة (الكهف ١٨):

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾.

بَاخع نفسك: مهلك نفسك، وقاتل لها.

والمعنى: فلعلّك يا محمد مهلك نفسك وقاتل لها من الأسف والحزن عليهم، إن لم يؤمنوا بما أنزلنا عليك من القرآن، وأنت تلاحقهم بنصحك وإرشادك، وتلحّ عليهم بدعوتك، متابعاً آثارهم، لتردّهم إلى صراط الله المستقيم، فهوّن على نفسك، وخفف عنها مشاعر الحزن والأسف، فهم في هذه الأرض وما فيها من زينة في دار ابتلاء، أي: في دار امتحان، وفي نتيجة الامتحان يظهر أيهم أحسن عملاً.

إذا تبصرنا بحالة الرسول هذه فإننا نجدها نابعة من مشاعر المحبّة المتدفقة، التي جعلت الرسول صلوات الله عليه شديد الحرص على هداية قومه والناس أجمعين، وجعلته يحزن حزناً عظيماً، من أجل الذين أصرّوا على سلوك سبُل الشقاوة معاندين مكابرين.

وقال الله تعالى له في أوائل سورة (الشعراء ٢٦):

﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ ﴾.

ففي هذا النص القرآني يبيّن الله لرسوله برفق، أن يخفّف من حدّة مشاعره النابعة من منابع حرصه على هداية قومه بدافع المحبّة، لئلا يقتل نفسه أسفاً عليهم، ويبيّن له تبارك وتعالى أنّ الغاية امتحان إراداتهم، وأنه لو كانت الغاية إجبارهم على الإيمان لأنزل عليهم بمشيئته آية من السماء فأخضعتهم، وجعلتهم يؤمنون بسلطان القوة، لكنّ هذا غير مراد، إنّما المراد أن يؤمن من يؤمن منهم بإرادته الحرة، التي لا قسر يسوقها، ولا إكراه يجبرها.

وقال الله تعالى له في أول سورة (طه ٢٠):

﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ﴾.

ففي قوله تعالى لرسوله: ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ توجيه ضمني له بأن لا يضني نفسه ويشقيها أسفاً وحزناً على الذين لم يستجيبوا لدعوة الحقّ، بدافع محبّة الخير لهم، والشفقة عليهم من المصير الأليم الذي ينتظرهم إذا هم تمادوا في الكفر والعناد. ثم قال الله له: ﴿إلّا تذكرة لمن يخشى﴾ أي: ليست وظيفتك يا محمّد تحويلهم من الكفر إلى الإيمان، حتى تشقي نفسك في السعي وراءهم، والحسرة عليهم، وإنما وظيفتك تذكيرهم وموعظتهم وإنذارهم فقط، وعندئذٍ يتذكّر منهم من يخشى، وهو من تؤثر فيه المعرفة، فتحدث في قلبه الخشية من الله.

وقد تكرر في القرآن الكريم بيان الله تعالى لرسوله أنّ وظيفته إنما هي التذكير والموعظة والإنذار، لا إكراه الكافرين على الإيمان، ولا اتخاذ الوسائل لتحويلهم إليه تحويلَ خلقٍ وتكوين، فهذا أمر لو شاء الله لفعله بنفسه، ولكن تبطل به حكمة الابتلاء والامتحان في ظروف هذه الحياة الدنيا. فمن هذه النصوص ما يلي:

قول الله تعالى له في سورة (الغاشية ٨٨):

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾.

وقول الله له في سورة (الرعد ١٣):

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾.

أي: ما أنت بالنسبة إلى الكافرين إلّا منذر لهم من عذاب يوم شديد.

وقول الله له في سورة (هود ١١):

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾.

فحدّد الله مهمّة الرسول بالنسبة إلى المنكرين الجاحدين المصرّين على العناد بالإنذار، فقال له: «إنّما أنت نذير».

ولدى تتبع مراحل تنزيل النصوص السابقة نجد أنها نزلت وفق التسلسل التالي:

أولاً: آية (فاطر): ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾.

ثانياً: آية (طه): ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾.

ثالثاً: آية (الشعراء): ﴿لعلك باخع نفسك ألّا يكونوا مؤمنين﴾.

رابعاً: آية (هود): ﴿إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل﴾.

خامساً: آية (الغاشية): ﴿فذكّر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر﴾.

سادساً: آية (الكهف): ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾. وكل هذا في المرحلة المكية.

سابعاً: آية (الرعد): ﴿إنما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾.

وقد نزلت في أواسط المرحلة المدنية.

ونلاحظ في هذه المتابعة منهجاً تربوياً قصد منه معالجة نفس الرسول ﷺ لتخفيف ما كان يعانيه من شدّة حرصه على هداية القوم، ورغبته بتحوّلهم من الكفر إلى الإسلام، ومن الضلالة إلى الهدى.

ـ ٥ ـ
في الحبّ السامي

(أ) حبّ الله والرسول ﷺ:

١ ـ روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري، أن النبي ﷺ قال: «المرء مع من أحبّ».

وفي رواية قال: قيل للنبي ﷺ: الرجل يحب القوم ولـمّا يلحق بهم؟ قال: «المرء مع من أحبّ».

٢ ــ وروى البخاري ومسلم عن عبدالله بن مسعود قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف تقول في رجل أحبّ قوماً ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله ﷺ:
«المرء مع من أحبّ».

٣ ــ وروى البخاري ومسلم عن أنس، أنّ أعرابيّاً قال لرسول الله ﷺ: متى الساعة؟ قال له رسول الله ﷺ: «ما أعددت لها؟» قال: حبّ الله ورسوله. قال: «أنت مع من أحببت».

وفي رواية أنه قال: ما أعددتُ لها من كثير صوم ولا صلاة ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله، فقال الله الرسول ﷺ: «أنت مع من أحببت».

قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحَهم بها.

إنّ الحب السامي يرفع مراتب المقصّرين في فضائل السلوك والأعمال الصالحات، حتى يجعلهم مع من يحبّون من السابقين، الذين يستحقون المراتب العالية الرفيعة.

كما أنّ الحب الساقط المنحط يخفض منازل المجتهدين في ظواهر السلوك الحسن، حتى يجعلهم مع من يحبّون من المتخلّفين المقصّرين في الأعمال الصالحات، والذين يستحقون المنازل السفلى.

والسبب في ذلك أنّ الحب السامي الذي هو حب الله والرسول وحب ما يحبه الله والرسول، من أعلى مراتب الإيمان، بل هو أعلاها، إذ هو لدى التحقيق أعلى من مرتبة الحمد والشكر، وأعلى من مرتبة الإجلال والإكبار، بله مرتبة الخوف والطمع.

إنّ المحب الصادق في حبه يحب ولو لم يكن مع الحب خوف وطمع، ويحب ولو جاءه الألم من جهة من يحبّ، وحبه يدفعه إلى الحمد والثناء، والشكر على النعماء، دون ملاحظة الثواب والجزاء، ويدفعه إلى الإجلال والإكبار.

وحب الرسول من حب الله، لأنّ الله أمر بحبه كما أمر باتباعه، فمن

صدق في حبه لله فلا بد أن يحب من اصطفاه الله وأحبه واختاره رسولاً يبلّغ عنه رسالاته، وأمر بحبه.

وللرسول على الناس أيضاً سوابق فضل هدايتهم وإرشادهم إلى طريق سعادتهم، وله عليهم فضل ما بذل من أجلهم من نفسه وجسمه وكل ما يملك، وله عليهم فضل رحمته بهم ومحبته لهم وغيرته وحرصه عليهم، وصبره الشديد على أذى من آذاه وأساء إليه منهم، وله عليهم فضل خوفه الشديد من أن يمسهم عذاب ربهم على كفرهم وضلالهم، وأنه عزيز عليه أن ينالهم عنت أو مشقة.

كل ذلك يستوجب على الناس أن يحبوه، ولا يحبونه إلا إذا آمنوا به وبرسالته، ومتى أحبوه لهجت ألسنتهم بالثناء عليه وبالصلاة عليه، وتحركت إرادتهم لاتباعه والاقتداء به.

والحب محرك داخلي في الإنسان أعمق وأقوى من أي محرك آخر.

والحب السامي إيمان وزيادة عاطفة هي أقوى العواطف وأكثرها تأثيراً في الكيان الإنساني متى وجدت، وهي قادرة على أن تغلب سائر عواطف الإنسان.

لكل ما سبق كان للحب هذه القيمة، حتى قال الرسول ﷺ: «المرء مع من أحب». وقال للرجل المقصر في نوافل الطاعات، إلا أنه يحب الله والرسول: «أنت مع من أحببت».

لكن صدق الحب لا بد أن يدفع في الغالب إلى السبق في الطاعات والعمل بما يرضي المحبوب، وحين توجد بعض العوامل التي تبطىء المحب عن السبق في العمل بما يرضي المحبوب، فإن صدق حبه يقوم مقام الاستزادة من صالح العمل، لأن العمل القليل الذي يعمله مصحوب بإخلاص كثير.

أما الحب الساقط المنحط فهو تعليق للقلب بالشياطين، أو بما توسوس به الشياطين، أو ما يفضي في آخر الأمر إلى مرضاة الشياطين وسخط الله، وهذا لا يكون إلا ثمرة لتأثير عناصر من الباطل أو زخرف الحياة الفانية على نفس الإنسان وقلبه. ومتى تمكن في قلب الإنسان حبٌ من هذا القبيل فلا بد أن يجره

إلى تقصيرات كثيرة، ثم إلى مخالفات ومعاصٍ كبيرة، وكل ذلك يقذف به إلى درك المنازل المنخفضة المنحطة، وإن كان في أول طريقه من السالكين في طريق الاستقامة، لأن السلوك لم يكن أثراً لدوافع عميقة راسخة في الفؤاد، ولو كان أثراً لذلك لاقترن بالحب للخير، ولمصدر الخير، وللدال على الخير. ولو أنه كان سلوكاً ناشئاً عن إيمان صحيح صادق لما وجد الحب الساقط منفذاً يعبر منه إلى قرارة الفؤاد، ثم السيطرة على مشاعره، وهذا الحب الساقط انعطاف قلبي خطير إلى الشر واستحسان له.

(ب) **الحب في الله والبغض في الله:**

١ ــ روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال:

«ثلاث من كنّ فيه وجد بهنّ حلاوة الإيمان:

ــ أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

ــ وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله.

ــ وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار».

٢ ــ وروى الترمذي بإسناد حسن صحيح عن معاذ بن جبل قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«قال الله عز وجل: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء».

٣ ــ وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي».

٤ ــ وروى أبو داود والنسائي بإسناد صحيح عن معاذ بن جبل، أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال:

«يا معاذ والله إني لأحبّك، ثم أوصيك يا معاذ: لا تدعنّ في دُبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك».

٥ ــ وروى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنّ الله تعالى قال: من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببتُه كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنّه».

كمال الحب السامي من علامات الإيمان الكامل، وبه يذوق المؤمن حلاوة الإيمان.

والحب السامي الكامل يتحقق بأن يكون الله ورسوله أحب للمؤمن مما سواهما، وبأن يحب المرء لا يحبه إلا لله.

ومقياس صحة الإيمان أن يكره المؤمن أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار؛ إذ لا يتم صدق حب الشيء إلا بالكراهية التامة لنقيضه، والكفر نقيض الإيمان، ولما كان ثواب الإيمان جنة النعيم، والمؤمن يحب هذا الثواب ويحرص عليه، وكان جزاء الكفر الخلود في النار، وكل من يعرف النار يكره العذاب فيها، كان من علامات صدق الإيمان أن يكره المؤمن أن يعود في الكفر، بمقدار كراهيته لأن يقذف في النار.

حلاوة الإيمان:

أما حلاوة الإيمان فهي سعادة روحية وقلبية ونفسية يشعر بها المؤمن كامل الإيمان، وهي لذة عميقة طويلة البقاء، يستمتع بها من كان مؤمناً حقاً كامل الإيمان، يحب الله ورسوله أكثر مما يحب أي شيء سواهما حتى نفسه، وإذا أحب إنساناً أحبه لله، ويكره مواقع الكفر كما يكره مس النار والعذاب فيها.

ولا يعرف قيمة حلاوة الإيمان إلا من ذاقها في قرارة نفسه وأعماقِ فؤاده، فاللّذات والسعادات يعسر تصويرها بالعبارات، ويصعب تصورها بالخاطرات، ولكن متى أحس بها سعد واستمتع، وسكن إليها قلبه، واطمأنت بها نفسه،

وأخذت تعب منها جوارحه عبّاً هنيئاً، فتنشط للعمل بما يوجبه الإيمان وبما يستدر حلاوته.

فمن أراد أن يعرف حقيقة حلاوة الإيمان فليأخذ بأسبابها حتى يصل إلى ذواقها.

وقد يستطاع تقريبها إلى التصور بمقابلتها بأضدادها، فإذا استطعنا أن نتصور مبلغ الألم الذي يعاني منه إنسان يحب شيئاً ما حبّاً جمّاً، فجاء ظالم فانتزعه منه بغياً وعدواناً، وهو عاجز عن استرداد محبوبه منه، فحلاوة الإيمان مناظرة في الطرف المقابل لشدة مرارة الألم الذي يحدثه فقد المحبوب، ومهما زادت نسبة الإيمان زادت حلاوته.

وليست حلاوة الإيمان مجرد خلاص من آلام القلق والاضطراب والشك والحيرة، وإنما هي سعادة وجودية فوق ذلك، يقذفها الله في قلوب عباده المؤمنين، مع ما فيه من سعادة الخلاص من الآلام التي يجلبها الكفر والعصيان للعصاة الكافرين.

وقد يستطاع تقريبها إلى التصور بقياسها على بعض لذات الحياة الدنيا، إلا أن لذات الحياة الدنيا نفحات متقطعات، سريعة التحول والزوال، فإذا تصورنا أحب نفحات السعادة التي تأتينا في الحياة الدنيا عن طريق لذات النفس أو القلب، ثم تصورنا لو أنها كانت مستمرةً أو طويلة الأمد، أمكننا أن نقرب إلى تصورنا حلاوة الإيمان الكامل، الذي توافرت فيه الصفات الثلاث التي ذكرها الرسول ﷺ في الحديث.

فلو أن الرجل الذي انتزع منه الظالم الآثم الباغي أحب ما يحب من الحياة الدنيا، قد استطاع أن ينتصر على الظالم ويسترجع منه محبوبه، ويشفي منه صدره بالانتقام العادل، لكانت سعادة قلبه ونفسه شبيهة بحلاوة الإيمان الكامل بصفة تقريبية، مع ملاحظة الفرق الكبير في النوع وفي الكيف وفي الكم، إذا كانت حلاوة الإيمان من مستوى رفيع حقاً.

شروط الشعور بحلاوة الإيمان:

ويجد حلاوة الإيمان من استجمع ثلاثة عناصر:

العنصر الأول: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، أي أحب إليه من سائر ما يحب من مال وولد وزوج ووالدين وكل موجود سواهما، وجميع لذات الحياة ومتعها، حتى نفس المؤمن.

فحب الله والرسول بموجب هذا العنصر ينبغي أن يكون غالباً على حب هذه الأشياء كلّها، فضلاً عما سواهما مما هو دونها تأثيراً على الإنسان.

ولما كان الله هو الحق، وكل ما يأتي عنه حق، وكان الرسول هو المعرف بالحق والمبلغ عن الله ما أنزل من حق، كان حبُّهما من حب الحق وإيثاره.

ومن كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما آثر ما يرضيهما على كل أهواء نفسه وشهواتها، وعلى كل لذات جسده ومتعه الفانية، وضحى في سبيلهما بنفسه وماله وكل محابّ نفسه.

العنصر الثاني: أن يحب المرء لا يحبه إلا الله. وفي تحقيق هذا العنصر تحقيق لمبدأ الترابط الجماعي الخالص بين المؤمنين، وهو الترابط النقيّ من شوائب المصالح الشخصية والأهواء النفسية والشهوات المادية، إذ هو حبٌّ لله خالصٌ لوجهه.

ولما كان الحب في الله من آثار كمال الإيمان في السلوك النفسي، كان المتحابون في الله محبوبين لله تعالى، ويظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه، ويجعل لهم يوم القيامة منابر من نور يغبطهم عليها النبيّون والشهداء. دلّ على هذا جملة من الأحاديث، منها:

ما جاء في حديث السبعة الذين يظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه، ومنهم: «ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه».

وما جاء في الحديث القدسي: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلّهم في ظلّي يوم لا ظلّ إلاّ ظلّي».

وما جاء في الحديث القدسي: «قال الله عز وجل: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيّون والشهداء».

ومن مظاهر الحب لله عز وجل أن يندفع المحب بقوة إلى بذل النصيحة الطيبة والوصية بخير، لأن المحب يريد لمحبوبه كل خير، ولا يعلم المؤمن خيراً إلا أرشد من يحبه إليه، وبذل له ما لديه من نصيحة طيبة.

وهذه مظاهر طبيعية لصدق المحبة، ولذلك قال الرسول ﷺ لمعاذ: والله إني لأحبّك، ثم أوصاه فقدم له نصيحة دينية نافعة.

والمحب الذي لا يبذل النصيحة الطيبة لمحبوبه إما أن تكون دعواه الحب دعوى كاذبة، وإما أن يكون جاهلاً أرعن غير عاقل، كمحبة بعض الأمهات الجاهلات لأولادهن، إذ يهملْن نصيحتهم وتربيتهم، سروراً بما يستمتعون به من إرضاء لأهوائهم وشهواتهم، حتى ينتهي الجنوح بهم إلى بلاء كثير وشر مستطير. فمحبتهن لأولادهن ـ والحالة هذه ـ محبة رعناء، وعاطفتهن عاطفة شوهاء. وكم من آباء وأمهات يفسدون أولادهم بهذا الداء، ويدفعون بهم إلى شر وباء. وحينما يسقط الأولاد في العاقبة الوخيمة، ويذوقون النتائج الأليمة، يعتصر الندم قلوب آبائهم وأمهاتهم، الذين قصروا في تربيتهم والحزم عليهم، تأثراً بحبّهم الأرعن لهم، ولكن حين لا ينفع الندم. إنهم يبحثون عن طريق للرجعة فلا يجدون، لقد أقيمت بينهم وبين الرجعة سدود لا يستطيعون اختراقها، فالماضي حقيقة لا تسترجع، ولكن تحفظ آثارها وثمراتها.

فمن كان صادق المحبة وكان عاقلاً درَّاكاً للأمور دفعته محبته إلى أن يقدم لمحبوبه الوصايا الخيرة والنصائح الطيبة، وإن كانت هذه الوصايا والنصائح تخالف هواه، أو تحجزه وتمنعه مما تشتهي نفسه.

وأبان الرسول ﷺ أن من الآداب الإسلامية الاجتماعية، إذ أحب المؤمن مؤمناً حباً لله؛ أن يعلمه بذلك. والغرض من ذلك توثيق عرى المودة بينهما، وأن تكون نصيحة كلٍّ منهما لأخيه أكثر قبولاً في نفسه، إذْ يعلم أنها صادرة عن حب صادق، لا عن مداجاة أو خديعة أو ابتغاء مصلحة دنيوية لنفسه. فقال

الرسول ﷺ: «إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه». وأمر الرجل الذي يحب أخاً له في الله أن يعلمه.

وهكذا نجد في الإسلام دعم أواصر الجماعة، وما أكثر ما نجد فيه من مقويات لوحدة جماعة المسلمين، وميزة الجماعة الإسلامية المترابطة بالمحبة أن المحبة بين أعضائها مربوطة جميعها بمحبة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ، لذلك فهي محبة لا تكون إلا في الخير، ولا تتوجه إلا لخير؛ إذ محبة الله تعالى ومحبة رسوله لا تكون صادقة حقاً ما لم تكن مقترنة بالامتثال والاتباع، والطاعة والاقتداء، فمن علامات صدق الحب لله تعالى طاعته وامتثال أوامره ونواهيه، واتباع رسوله فيما جاء به والاقتداء بهديه.

وأبان الرسول ﷺ أن من ثمرات حب الله ورسوله والحب في الله بين المؤمنين، أن يكافىء الله المحبين بالحب، فيحبهم الله، وحين يحب الله عبداً ينادي جبريل أن يحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض.

وأبان الرسول ﷺ أن طريق اغتنام حب الله هو التقرب إلى الله بالنوافل من العبادات والقربات، لأنها تعبر عن صدق حب العبد لربه، فإذا أحبه الله كان سمعه وبصره وسائر جوارحه، وكان مجاب الدعوة.

العنصر الثالث: أن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار. وهذا ـ كما سبق ـ مقياس عظيم لصدق الإيمان وكماله. فصدق الإيمان إنما يظهر بالكراهية التامة لنقيضه، ولا يكفي حب الإيمان مع عدم كراهية الكفر والردة إليه والعياذ بالله، ووضوح الشهود الإيماني وكماله يظهران بشدة الخوف من نتائج نقيضه ـ ومن نتائج نقيضه الخلود في النار ـ وكل إنسان حاضر الوعي لا بد أن يكره النار والعذاب فيها، ويكره ما هو سبب لذلك، ولا يكون الإيمان صحيحاً حتى يؤمن المؤمن بأن عذاب النار نتيجة حتمية للكفر بالله، ولا يكمل الإيمان حتى تكون هذه العقيدة كالأمر المشهود، فتنفعل النفس بالخوف من عذاب النار، فتكره بشدة ما تخاف منه ، فتكره بشدة أيضاً ما هو سبب له، وهو الكفر ورفض طاعة الله.

ضابط المحبة العاقلة وثمراتها:

للمحبة ضابط يصونها في حدود المحبة العاقلة الحكيمة، ويلجمها حتى لا تتجاوز هذه الحدود فتغدو محبة رعناء مفسدة غير مصلحة.

إنه ضابط قصير العبارة، إلا أنه واسع الدلالة، شامل كل صغيرة وكبيرة في مجال المحبة، هذا الضابط هو أن يكون الحب في الله، أي في طاعة الله.

وفي مقابله يأتي ضابط الطرف المقابل وهو البغض، فضابطه أن يكون بغضاً في الله، أي: في طاعة الله.

فالمسلم الصادق في إسلامه، المتأدب بآداب دينه، الملتزم لتعاليمه، هو الذي يحب في الله ويبغض في الله. إنه متى فعل ذلك استقام أمره، وكانت محبته عاقلة حكيمة، وكان بغضه حسناً رشيداً، فهو يحب بحبه لله ما يحبه الله، ومن يحبه الله، وما أمر الله بمحبته، ومن أمر الله بمحبته. ويبغض بحبه لله ما يبغضه الله، ومن يبغضه الله، وما أمر الله ببغضه وكراهيته، ومن أمر الله ببغضه.

ولذلك نلاحظ أن المحبة التي دعا إليها الإسلام تكاد لا تذكر في نصوصه إلّا مقترنة بهذا الضابط.

«وأن يحب المرء لا يحبه إلّا لله» ومن أحب لله فلا بد أن يتقيد في معاملته من يحب بموجب طاعة الله.

ويلاحظ في الحديث الترتيب في توجيه المحبة:

ففي المرتبة الأولى والعليا تأتي محبة الله ورسوله، وظاهر أن بواعث الإيمان تدعو إلى إعطاء هذه المحبة أعظم نصيب.

* وبهذا نرى أن الطريق الأقوم للمحبة هو ما كان عن طريق محبة الله أولاً، ثم عن طريق محبة حامل لواء دينه ثانياً، ثم من كانت محبته لله وعلى مرضاته. فهذا الطريق هو الذي تصان به المحبة من كل انحراف إلى ما فيه ضرر أو فساد، وهذا هو طريق محبة المتقين.

فالمحبة التي لا تكون لله، ولا يلتزم فيها بتقوى الله، ستتحول إلى عداوة يوم القيامة، عقوبة لأصحابها من جنس عملهم، قال الله تعالى في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

إن الأخلاء في الدنيا الذين لا يتعاملون فيما بينهم على أساس من تقوى الله، سيكونون يوم القيامة أعداءً.

ويتحسر يوم القيامة من يتخذ في الدنيا خليلاً يضله عن سبيل الله، فيقول: يا ويلتا، ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً، قال الله تعالى في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾.

* أما المتحابون في الله فإن الله يظلهم يوم القيامة في ظلّه يوم لا ظل إلا ظله، ويؤويهم إلى كنف محبته، روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي، يوم لا ظل إلا ظلي».

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمامٌ عادل. وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل. ورجل قلبه معلق في المساجد. ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه. ورجل دعته امرأة ذات منصبٍ وجمالٍ فقال: إني أخاف الله. ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه. ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه».

ففي قول الرسول: «ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه، وتفرقا عليه» نلاحظ ثلاثة عناصر:

الأول: أن يكون التحابب في الله، أي في حب الله، وابتغاء مرضاته، وفي دائرة طاعته.

الثاني: أن يجتمعا إذا اجتمعا على طاعة الله، وتحقيق مرضاته، والبعد عن معاصيه.

الثالث: أن يتفرقا إذا تفرقا على طاعة الله، وتحقيق مرضاته والبعد عن معاصيه.

ولا يخفى أنّ التحابب الذي تجتمع فيه هذه العناصر هو أرقى صور التحابب، لأنه تحابب لم تدنّسه المعاصي، ولم تشُبه شوائب الأغراض الخاصة، والمصالح الذاتية.

أمّا التحابب الذي يقوم على المنافع الشخصية الدنيوية والأهواء الخاصة، فإنه يحمل في جنباته عناصر فساده وسرعة زواله، وقديماً كانوا يقولون: «من أحبّك لغرض أبغضك عند فقده»؛ لا سيما إذا اقترنت به معصية الله، فإنه ما أسرع ما ينتهي بالتعادي والتقاطع والخصام، وكثيراً ما ينتهي بالتقاتل وارتكاب الجرائم، وهذا من النتائج الطبيعية للتلاقي على معصية الله، فمن لم يكن عنده وفاء لنعم الله عليه بالشكر والطاعة، فكيف يكون عنده وفاء لأصدقائه ورفاقه الذين يجتمع معهم على المعصية والإثم، ويوادّهم على غير طاعة الله؟ إنّ الله لا بدّ أن يعاقبهم بإلقاء العداوة فيما بينهم. ولئن بقيت فيما بينهم مظاهر التوادّ فهي مشبعة بعناصر النفاق والحسد، وإرادة كلّ منهم السوء بالآخر، أو إرادة بعضهم السوء بالبعض الآخر، ويكون طيّبُ القلب منهم ضحيّة المنافقين.

بئست ــ والله ــ مودّات المصالح والأهواء والأغراض الخاصة الدنيوية، لا سيما إذا اقترنت بمعصية الله؛ إنها مودات في سبيل الشيطان، وعاقبتها ندامة وخسران.

وحين يكون الحبّ في الله فإن الله تبارك وتعالى هو الذي يتولّى الثواب عليه، وحسن الجزاء والمكافأة، بموجب قانون فضله الذي يعامل به عباده،

وبموجب سننه الثابتة، التي سنها لعباده في الحياة الدنيا، ولذلك يجعل الله يوم القيامة للمتحابين فيه منابر من نور يغبطون عليها، روى الترمذي بإسناد صحيح عن معاذ بن جبل، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور، يغبطهم النبيّون والشهداء».

هذا الحديث القدسي يبيّن ما للمتحابين في الله، من مجدٍ عظيم يوم القيامة، إذْ كان تحابهم في الدنيا ابتغاء مرضاة الله وعلى طاعته، ولم يكن تحاببهم ابتغاء مطامع دنيوية ومصالح شخصية، وعلى معصية الله ومخالفة أوامره ونواهيه.

* ومن الثمرات التي يظفر بها المتحابون في الله، أنّ الله تبارك وتعالى يكافئهم على ذلك بمحبّة من عنده، فيكونون من أحباب الله كما تحابّوا فيه، روى الإمام مسلم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «أنّ رجلاً زار أخاً له في قريةٍ أخرى، فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكاً، فلمّا أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تَرُبُّها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله. قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبّك كما أحببته فيه».

فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكاً: أي وكّل به ملكاً يترصد على طريقه مجيئه ليسأله ما سأله، وليخبره بما أخبره به.

هل لك عليه من نعمة تَرُبُّها: أي هل لك عليه معروف أنعمت به عليه، فأنت تريد تحصيل مكافأة منه على معروفك.

من هذا الحديث نلاحظ، أن الحبّ في الله قد بلغ من شأنه أن أنزل الله فيه ملكاً، ليخبر رجلاً صالحاً أحبّ أخاه في الله بأنّ الله يحبّه كما أحبّ أخاه فيه.

وإذا أحب الله عبداً نادى بأنّ الله يحبّه، فيحبّه جبريل، ثمّ ينادي جبريل في السماء: إنّ الله يحبّ فلاناً فأحبّوه، فيحبّه أهل السماء، ثمّ يوضع له القبول في الأرض، فيحبّه في الأرض أحباب الله، وكلّ ذوي القلوب النقية الصافية.

روى البخاري ومسلم، عن أبـي هريرة، عن النبـي ﷺ قال: «إذا أحبَّ الله تعالى العبد نادى جبريل: إنّ الله يحبّ فلاناً فأحبِبْه، فيحبّه جبريل، فينادي في أهل السماء: إنّ الله يحبّ فلاناً فأحبّوه، فيحبّه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض».

وإذا أبغض الله عبداً لفجوره وتمرده وكبره وكثرة شرّه، بغض به جبريل، ثمّ أهل السماء، ثم توضع له البغضاء في الأرض. روى مسلم عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله تعالى إذا أحبّ عبداً دعا جبريل فقال: إني أحبّ فلاناً فأحبّه، فيحبّه جبريل، ثمّ ينادي في السماء، فيقول: إنّ الله يحبّ فلاناً فأحبّوه، فيحبّه أهل السماء، ثمّ يوضع له القبول في الأرض. وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه، فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إنّ الله يبغض فلاناً فأبغضوه، ثم توضع له البغضاء في الأرض».

وروى الإمام مالك بإسناد صحيح في كتابه «الموطأ» عن التابعي أبـي إدريس الخولاني، قال: دخلت مسجد دمشق، فإذا فتىً برّاق الثنايا[1]، وإذا الناس معه، فإذا اختلفوا في شيء أسندوه إليه، وصدَرُوا عن رأيه، فسألت عنه فقيل: هذا معاذ بن جبل، فلـمّا كان من الغد، هجّرت[2]، فوجدته قد سبقني بالتهجير، ووجدته يصلي، فانتظرته، حتى قضى صلاته، ثمّ جئته من قبل وجهه، فسلّمت عليه، ثمّ قلت: والله إني لأحبّك لله، فقال: آللَّهِ؟ قال: فقلت: أللَّهِ. فقال: آلله[3]؟ فقلت: أللَّهِ. فأخذ بحبوة ردائي، فجذبني إليه، فقال: أبشر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى: وجبت محبتي للمتحابين فيَّ، والمتجالسين فيَّ، والمتزاورين فيَّ، والمتباذلين فيَّ».

ومن أحبه الله أدناه منه، وزاد في إكرامه والإنعام عليه.

---

(١) أي: متلامع الأسنان كأنهنّ حبّات اللؤلؤ.

(٢) هجّرت: أي بكرت بالحضور إلى المسجد.

(٣) آلله: أي أتقسم على ما تقول، فهو يستوثق منه بالقسم مرتين.

* ومن ثمرات محبة المقصرين للسابقين، أن يكونوا معهم في مراتبهم العلية يوم القيامة.

روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن مسعود قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف تقول في رجل أحبّ قوماً ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحبّ».

وروى البخاري ومسلم عن أنس، أنّ أعرابيّاً قال لرسول الله ﷺ: متى الساعة؟ قال له رسول الله ﷺ: «ما أعددت لها؟» قال: ما أعددت لها من كثير صوم ولا صلاة ولا صدقة، ولكني أحبّ الله ورسوله. قال: «أنت مع من أحببت».

قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بها.

— ٦ —

(أ) من أحبّ شخصاً لله فمن السنة أن يخبره بذلك:

إذا أحب المرء أخاً له في الله، فمن السنة أن يعرب له عن محبته له، لتتوثق بينهما وشائج الأخوة الإيمانية، وليرعى كلّ منهما حقوق هذه الأخوة القائمة على الحبّ في الله.

روى أبو داود والترمذي بإسناد صحيح، عن المقداد بن معد يكرب عن النبي ﷺ قال: «إذا أحبّ الرجل أخاه فليخبره أنه يحبّه».

وروى أبو داود أيضاً بإسناد صحيح، عن أنس أنّ رجلاً كان عند النبي ﷺ فمرّ رجلٌ فقال: يا رسول الله، إني لأحبّ هذا، فقال له النبي ﷺ: «أَعْلَمته؟» قال: لا، قال: «أعلمه» فلحقه فقال: إني أحبّك في الله. فقال: أحبك الذي أحببتني له.

وروى أبو داود والنسائي بإسناد صحيح عن معاذ، أن رسول الله ﷺ أخذ

بيده وقال: «يا معاذ، والله إنّي لأحبّك، ثم أوصيك يا معاذ: لا تدعنّ في دبر كلّ صلاة تقول: اللّهم أعنّي على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك».

فأعلم الرسول ﷺ معاذاً بما يجد في قلبه من محبّة له.

(ب) على المسلم أن يحسن انتقاء إخوانه وأصدقائه من المتقين:

للصداقة تأثير قوي على سلوك الإنسان، فالصاحب إذا كان له اتجاه جرّ صاحبه إليه، لأنّ الصداقة لا تتمّ إلاّ مقترنة بتبادل الثقة، ومع الثقة يحصل الاستسلام، والانقياد، والموافقة. فإذا ارتفعت الصداقة إلى مستوى المحبّة أو الخلة، كانت في ذلك أشد وأقوى، وكان تأثيرها على كلٍّ من الخليلين أعمق.

فعلى المسلم الواعي أن يحسن اختيار أصدقائه وأخلائه من المؤمنين المتقين الصالحين أهل الاستقامة، حتى يكونوا عوناً له على الخير، فإذا كانوا غير ذلك أثروا عليه تأثيراً عكسياً، وكانوا له عوناً على الشرّ، أو موسوسين له به، وآخذين بيده إليه.

ولذلك حثّ الإسلام على ضرورة انتقاء الأخلاء الصالحين، وضرورة البعد عن أصدقاء السوء والرفقاء الذين يساعدون على فعل ما لا ينبغي فعله.

روى الإمام أحمد والترمذي وأبو داود والبيهقي بإسناد صحيح، عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل».

فأبان الرسول في هذا أنّ المرء على دين خليله، والدين يشمل العقيدة والسلوك، وممّا لا شك فيه أنّ الإنسان يتأثر تأثراً كبيراً بعقيدة خليله في الحياة، وبسلوك خليله الذي يسلكه، خيراً كان أو شرّاً.

ويقول الناس في الحكم الدارجة: الصاحب ساحب.

وروى الترمذي وأبو داود والدارمي والإمام أحمد بـإسناد حسن عن أبـي سعيد الخدري، أنه سمع النبـي ﷺ يقـول: «لا تصاحب إلاّ مؤمنـاً، ولا يأكل طعامك إلاّ تقي».

فوجّه الرسول ﷺ في هذا الحديث إلى وجوب الابتعاد عن مصاحبة غير المؤمنين، لئلا يجرّوا من يصحبهم إلى ما لا يرضى الله عنه من سيئات وموبقات، بتأثيرهم عليه عن طريق المخالطة والصحبة.

(ج) حسن اختيار الزوج:

ولـمّـا كان الزواج سبيلاً إلى عقد أقوى الصداقات وأخطر المودات في الحياة، كان على كل من الرجل والمرأة أن يحسن اختيار زوجه ممن يرضى دينه وخلقه، وإلاّ جر الفاسد من الزوجين الصالح منهما إلى سبُل الفساد.

وهذا ما وجه إليه الإسلام في نصوصه، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك».

فجعل الرسول ﷺ الزواج من ذات الدين ظفراً بغنيمة عظيمة.

وروى الترمذي عن أبي هريرة بإسناد حسن، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إن لا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض».

فوجه الرسول ﷺ في هذا الحديث أولياء المرأة إلى الموافقة على تزويج الخاطب ذي الدين والخلق، لأن صحبة الزواج من أعمق أشكال الصحبة وأخطرها، فإذا لم يكن الدين عمودها جرت إلى معصية الله، وإلى شرور كثيرة، منها تأسيس أسرة فاسدة، تقتدي في فسادها بعميديها الفاسدين في دينهما وأخلاقهما، أو تقتدي في فسادها بأحد عميديها الفاسدين إذا كان فاسداً غير صالح.

ومن أجل ذلك حرم الله أن ينكح المسلم مشركة، أو تنكح المسلمة مشركاً، وبيّن الله سبب التحريم فذكر أن المشركين يدعون إلى النار أي إلى السبُل الموصلة إليها، على عكس الدعوة الربانية التي تدعو إلى الجنة، وإلى سلوك سبيل المغفرة، فالمشركون إذن يؤثرون على قرنائهم بدعوتهم الكافرة، قال الله تعالى في سورة (البقرة٣٢):

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١) ﴾.

وقد عالجت هذه الآية جانباً مهمّاً في موضوع الزواج، وهو أن المخطوبة المشركة قد تكون معجبة في شكلها، أو في عشرتها، أو غير ذلك فتميل النفوس إليها، وأن الخاطب المشرك قد يكون معجباً في شكله، أو في عشرته، أو في علمه أو في عمله، أو في ماله، أو في مركزه الاجتماعي، أو غير ذلك، فقال تعالى: ﴿ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم﴾ وقال: ﴿ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم﴾.

والخيرية تأتي من سلامة المؤمنة من شر تربية أبنائها على الكفر والفسق والعصيان، ومن خوفها من الله وحسن معاشرتها لزوجها، وكذلك العبد المؤمن، يضاف إلى ذلك الإكرام الرباني بتوفيق من لا يؤثر عليه ميله النفسي، فيكف عمّا استحسنه مما لم يأذن الله به.

— ٧ —
علامات صدق حبّ العبد لله ورسوله
ووسائل الظفر بمحبّة الله لعبده

للحب مظاهر وعلامات، ومن أبرز مظاهر حب العبد لله ورسوله طاعتهما، واتباع أوامرهما، واجتناب نواهيهما، والعمل بما يرضيهما، وكبح جماح أهواء النفس وشهواتها في ذلك.

أما ادعاء حبهما مع معصيتهما ومخالفتهما، والعمل بما يسخطهما، واتباع أهواء النفس وشهواتها، فهو أمر لا تقبله العقول السليمة، ولا تستسيغه النفوس

البريئة من العلل، ولذلك خاطب الشاعر الحصيف العاصي الذي يدعي محبة الله بقوله:

تعصي الإلـه وأنت تـزعم حبـه   هذا لعمري في القياس[1] شنيع
لـو كـان حبـك صـادقـاً لأطعتـه   إن المحب لمن يحـب مـطيـع

وقال الله تعالى لرسوله محمد ﷺ في سورة (آل عمران ٣):

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

ففي هذا النص القرآني يبيّن الله تعالى أن صدق محبة العباد لله تعالى تستلزم اتباع رسوله وطاعته، وأن اتباع الرسول وسيلة يظفر فيها العباد بمحبة الله لهم ﴿قل: إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ فاتباع الرسول لازم من لوازم محبة الله، واتباع الرسول شرطٌ جزاؤه الظفر بمحبة الله لعبده، ويوجد جزاء آخر لهذا الاتباع، وهو غفران الذنوب ﴿ويغفر لكم ذنوبكم﴾ وبهذا الغفران تصفو المحبة من منغصات الخطيئة والمعصية.

أما الذين يتولون عن الاتباع والطاعـة فأولـئك هم كافـرون، والله لا يحبهم، لأنه لا يحب الكافرين، إذ هم بتوليهم وإعراضهم يبعدون أنفسهم عن مواقع محبة الله، ويقذفون أنفسهم في مواقع سخطه وغضبه وطرده.

ومن أجل ذلك كان التقرب إلى الله بالطاعات من الأسباب التي تجعل العبد من أحباب الله، ومن أحبه الله وجد معونة الله مصاحبة لسمعه وبصره وسائر جوارحه، ومن أحبه الله كان عند الله مجاب الدعوة، وكان من أولياء الله. روى البخاري عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد أذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي

---

(١) يشير بذلك إلى القياس المنطقي الذي قدمه في البيت الثاني، وهو من قبيل القياس الاستثنائي المتصل، وبيانه: لو كان حبك صادقاً لأطعته، لكنك غير مطيع، فادعاؤك الحب ادعاء كاذب غير صادق. والمقدمة الكبرى تثبت أن صدق الحب يستلزم الطاعة.

مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه».

في هذا الحديث القدسي بيان لسبيل ذات مرحلتين من اجتازهما أحبه الله، ثم كان من أولياء الله.

المرحلة **الأولى**: يجب فيها المرور على جسر تأدية الفروض التي فرضها الله على عباده.

المرحلة الثانية: هي الانطلاق في التقرب إلى الله بالنوافل، وهي الأعمال الصالحة التي لم يفرضها الله على عباده، وبهذه الأعمال الصالحة غير المفروضة التي يقوم بها العبد يثبت بها أنه محب لله، وكلما زاد منها زاد خطواتٍ في طريق محبته لله وزاد في تقديم الأدلة العملية على صدق هذه المحبة ونموها، ولذلك تكون مكافأته من قبل الله أن يحبه الله محبة كبيرة، ومتى وصل الإنسان إلى هذه المرتبة العظيمة صار ملاحظاً بعناية الله ورعايته، ومحفوفاً بكنف الله وموالاته، فإذا سأل الله شيئاً أجابه ولم يرد طلبه، وإذا استعاذ به من شيء أعاذه وحماه، فكان مجاب الدعوة.

الخـلّـة:

وحينما ترتقي المحبة إلى المستوى الأعلى تكون هي الخلة، لأنها تخالل كيان الإنسان كلّه، وتهيمن على كل مشاعره، وهذا المستوى من المحبة هو المستوى الذي وصل إليه رسول الله محمد ﷺ ورسول الله إبراهيم عليه السلام.

روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «إن من أمنِّ الناس علي في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام ومودته».

وروى مسلم عن عبدالله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكنه أخي وصاحبي، وقد اتخذ الله صاحبكم خليلاً».

يعني نفسه.

ويقول الله تعالى في شأن إبراهيم عليه السلام في سورة (النساء ٤):

﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾.

ولذلك اشتهر بأنه إبراهيم الخليل.

— ٨ —

البغـــض في الله

طبيعة التناقض في ظروف هذه الحياة الدنيا تستدعي حتماً أن يقابل المؤمنون المناصرون للحق والخير، الباطل والشر بالتنكر والبغضاء، وأن يقابلوا حملة الشر في الأرض والداعين إليه والمؤيدين له بالمقاومة والعداء، وهـذا مما يرضي الله تعالى، فهو إذن من قبيل البغض في الله.

إن أنصار الحق والخير هم أنصار الله وأولياؤه وأعداء الشيطان وأعداء أوليائه. وإن أنصار الباطل والشر هم أنصار الشيطان وأولياؤه وأعداء الله وأعداء أوليائه.

فالبغض في الله يسير مع الحب في الله على خطين متوازيين، ولذلك جاء في نصوص كثيرة التوجيه للحب في الله والبغض في الله.

روى البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لأبـي ذر: «يا أبا ذر، أي عرى الإيمان أوثق؟» قال: الله ورسوله أعلم، قال رسول الله ﷺ: «الموالاة في الله، والحب في الله، والبغض في الله».

وروى الإمام أحمد عن أبـي ذر قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «أتدرون أي الأعمال أحب إلى الله تعالى؟» قال قائل: الصلاة والزكاة. وقال قائل: الجهاد. قال النبـي ﷺ: «إن أحب الأعمال إلى الله تعالى الحب في الله والبغض في الله».

والسبب في كون الحب في الله والبغض في الله أفضل الأعمال حسب

التوجيه الذي ورد في هذا الحديث؛ أن عاطفتي الحب والبغض من أقوى الدوافع إلى القيام بالأعمال العظيمة الشاقة، وحينها تكونان محصنتين بضابطهما العظيم ـ وهو كونهما في الله، أي: في طاعته ومرضاته ـ تكونان من أقوى الدوافع إلى فعل الخير وترك الشر، ومناصرة الحق وأهله، ومقاومة الباطل وأهله.

الفكرة الإسلامية في معاداة أعداء الله وعدم موالاتهم:

ظهر لدينا أنه لا تعارض بين كون الأصل في خلق المسلم الذي يعامل به الناس هو خلق المحبة، وبين كونه يبغض الباطل والشر والفساد والرذيلة وأنصارها، على أساس أنه يبغض فيهم هذه الصفات ولا يبغضهم لذواتهم، بل هو حريص على هدايتهم وإنقاذهم، ولكنهم أبوا، ورفضوا منهج الحق، وناصبوه العداء، وانحازوا إلى الطرف المناقض له.

وعرفنا أن المسلم يحرص بدافع خلق المحبة أن يكون الناس جميعاً شركاء له في السعادة الخالدة، وأنه بدافع خلق المحبة يقاتل المجرمين الشريرين، ليحمي الناس من شرورهم، ولعله بمقاتلتهم ينقذهم من شرور أنفسهم، فيعتدلون ويستقيمون، ويحولون مسيرتهم إلى سبيل الهداية، فيظفرون بالسعادة الخالدة، بعد أن كانت مسيرتهم آخذة بهم إلى العذاب الأليم، والشقاء المقيم.

وعلى هذا الأساس أكدت النصوص الإسلامية ضرورة اتخاذ شياطين الجن والإنس أعداءً، وضرورة اتخاذ الكافرين أعداءً، لأنهم ناصبوا الله والحق والخير العداء، فلا تنافر ولا تعارض بين المحبة التي يتوجه بها قلب المؤمن نحو الشخص الذي يعاديه، مريداً بهذه المحبة إنقاذه، أو إنقاذ المجتمع البشري من شره، وبين معرفة أنه عدو، وأخذ الحذر من مكايده وشروره، واتخاذه عدواً، لأنه غير مأمون الجانب.

وليس معنى معاملته على أساس خلق المحبة موالاته، أو عدم الحذر منه، والاستسلام لشروره ومكايده، فهذه الأمور تعتبر من الرعونة والغفلة الشديدة، وعدم التبصر بحقائق الأمور.

وبهذا تمتاز نظرة المسلم للذين يعادونه، عن نظرة غير المسلمين إلى أعدائهم، فغير المسلمين يعاملون أعداءهم على أساس الكراهية والحقد، أما المسلمون فإنهم يعاملون أعداءهم على أساس المحبة وإرادة الخير لهم وللناس أجمعين.

إن نظرة المسلمين إلى أعدائهم تشبه نظرة الأخ إلى أخٍ له مصابٍ بمرض خطير معدٍ، فهو يحبه ويحب له الشفاء من مرضه الخطير المعدي، ويسعى جهده لإبعاد هذا المرض عنه، وهو مع ذلك يفر منه، ويجافيه، ولا يخالطه، حذراً من شره وضره، ومخافة انتشار الوباء الذي يحمله، وقد يسجنه ويعزله عزلاً تاماً، فإذا غدا مرضه مرضاً مخيفاً، وغدت سلامة الناس متوقفة على الخلاص منه نهائياً، فإنه يتخلص منه، أو يسلمه إلى المشرفين على الصحة العامة، وهم ينفذون فيه حكم الإتلاف وتطهير المجتمع منه، لا بغضاً به، وكراهية له لذاته، ولكن خلاصاً من شره الخطير، ووبائه المستطير.

ــ ٩ ــ
معاداة الشيطان وعدم موالاته

الشيطان هو المخلوق الذي تمثل فيه الشر بكل أنواعه وصوره، وقد جعل هذا المخلوق من نفسه مغوياً ومضلاً لبني آدم، وناصبهم العداء منذ عهد أبيهم آدم عليه السلام، فمن الطبيعي أن يحذروه ويتخذوه عدوّاً، وذلك بأن يعلموا أنه عدوّ مبين لهم، ومتى عرفوا ذلك حذروا كل مكايده، ودسائسه، ووساوسه التي يوسوس بها في صدور الناس، والمؤمن يعرف مكايد الشياطين ودسائسهم ووساوسهم بأنها تدعو إلى مخالفة أوامر الله ونواهيه، والعدول عن المنهج القويم الذي رسمه لعباده.

من أجل ذلك حذرنا الله ورسوله من الشيطان، وأعلمنا الله بأنه عدوّ مبين لنا، وأمرنا بأن نتخذه عدوّاً، ومتى اتخذناه عدوّاً حذرناه ولم نواله، والنصوص الإسلامية في هذا كثيرة منها ما يلي:

١ ـ قال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾.

ينزغ بينهم: يفسد بينهم.

٢ ـ وقال الله تبارك وتعالى في سورة (فاطر ٣٥):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾.

الغَرور: الشيطان، وأطلق عليه هذا الوصف لأنه يغرّ كثيراً بوساوسه، وبما يزين للناس فيها من الشر ومعصية الله.

ومن يستجيب لوساوس الشيطان فقد جعل نفسه من حزبه، والشيطان إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، وهي نار جهنم الحامية.

٣ ـ وقال الله تبارك وتعالى في سورة (يس ٣٦):

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

جبلًّا كثيراً: أي خلقاً كثيراً.

فمن شأن العاقل إذا رأى عدوّاً، وشاهد منه سوابق العداء لأهل جنسه أن يعاديه ويكون على حذر شديدٍ منه.

فمن استجاب للشيطان واتبع خطواته، فكان من المجرمين، ومات على ذلك، تلقّى يوم القيامة هذا الخطاب: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم؟..﴾، فقد

جاء قبله في السورة نفسها: ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ فيأمرهم الله يوم القيامة بأن يمتازوا عن جموع الناس.

٤ ــ وقال الله تعالى موبخاً الذين يتخذون الشيطان وذريته أولياء من دونه في سورة (الكهف ١٨):

﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾.

وهل تنفع موالاة غير الله وحزبه شيئاً؟ إنها لا تغني أصحابها من الله شيئاً، إن الشيطان يعدهم ويمنّيهم، وما يَعِدُهم الشيطان إلا غروراً، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ ﴾.

وقد كثرت النصوص التي تحذر الناس من الشيطان وذريته وجنوده، ومن موالاتهم، وتأمرهم بأن يتخذوهم عدوّاً، وبأن لا يتبعوا خطواتهم، حتى لا يضلوهم ولا يستدرجوهم إلى عذاب النار.

ولـمّا كان إصلاح الشيطان أمراً ميؤوساً منه، كان اتخاذه عدواً، ومعاداته لشره الذي لا يفارقه، شيئاً طبيعياً، وكانت مشاعر الكراهية هي الأصل في معاملته، ولا يخفى أنه بالنسبة إلى الناس كائن غير منظور، فهو ومفهوم الباطل والشر والفساد والضلال والإضلال سواء، لأنه يمثل الدعوة إليها ويجسد صورها في التخيل.

معاداة الكافرين ودعاة الشر من الناس وعدم موالاتهم

وضمن المفهوم الإسلامي العام لمشاعر المحبة والمعارضات التي تقف في طريقها، يجد المسلم نفسه مضطراً إلى معاداة الكافرين ودعاة الشر.

في المجتمع البشري يوجد فريق من الناس يعادون الحق والخير والإصلاح والفضيلة لوجه الشيطان، أو لتلبية أهوائهم وشهواتهم الجامحة الجانحة، وطبيعي بالنسبة إلى هؤلاء أن يكشف الله الستار عن عداوتهم الحقيقية للمسلمين، وأن يحذرهم منهم ومن موالاتهم، لأنهم سيكيدون لهم أيّما كيد، وسيحاولون إيقاعهم في شَرَكهم، وهم لا يفتأون يدبرون ضد المسلمين الدسائس والمكايد، ونجد هذا التحذير في نصوص كثيرة:

١ ـ منها قول الله تعالى في سورة (الممتحنة ٦٠):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾.

ففي هذا النص يحدد الله للمسلمين مواقع الكافرين، وأنهم يقفون من المسلمين مواقف العداء، فعليهم أن يحذروهم ولا يوالوهم، ولا يُلقوا إليهم بالمودة.

وقد نزل هذا النص مع آيات أخرى، بمناسبة ما جرى من حاطب بن أبي بلتعة قبيل فتح مكة، إذ حاول إعلام قريش بعزم الرسول ﷺ على فتح مكة، فأرسل مع امرأة كتاباً لتوصله إلى بعض زعماء قريش، وفيه خبر ما عزم عليه الرسول، وقد أراد مصانعتهم بهذا الإعلام، ليحفظ أهلاً له كانوا في مكة، من أن يتعرض لهم مشركو قريش بأذى، لأنه لم يكن له في مكة قوة ولا عشيرة.

وحاطب قد كان مؤمناً، ولم يمس قلبه نفاق، ولكنه تعرض لحالة من حالات الضعف البشري، ضعُفَتْ معها إرادته المؤمنة العاقلة، فارتكب هذا الإثم العظيم، وسقط في هُوَّة الخيانة التي باشرها، ونزل الوحي فأخبر الرسول ﷺ خبر الكتاب الذي أرسله حاطب، وكانت المرأة التي حملت الكتاب ما زالت في طريقها إلى مكة، فتدارك الرسول ﷺ الأمر، فأرسل من انتزع الكتاب منها.

واستدعى الرسول حاطباً، وحاكمه، ثم عفا عنه لسابقته في الإسلام ولأن ما كان منه لم يكن عن نفاق ولا ردة عن الدين.

ولذلك صدّر الله النص بقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ إشعاراً بأن حاطباً لم يرتكب خيانته العظيمة بسبب نفاقٍ أو كفر مسّ قلبه، وإنما كان بسبب ضعف بشري أصاب إرادته من قبل عاطفته نحو أهله وولده.

وبعد هذا النداء للمؤمنين نهاهم الله عن أن يتخذوا الكافرين أولياء، مبرزاً من صفاتهم أنهم أعداء الله وأعداء المؤمنين﴿يا أيها الذين آمنوا، لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء﴾ أي: لا يكن بينكم وبينهم مناصرة، ولا موادة، وأشار إلى ما صنع حاطب بقوله: ﴿تلقون إليهم بالمودة﴾.

فاتخاذهم أولياء، ومصانعتهم بالمودة، مع أنهم أعداء حقيقيون، ثغرة كبيرة يستغلونها لضرب الإسلام والمسلمين، ولإنفاذ سهامهم إلى الصميم.

والمؤمن ذكي فطن، شديد الحذر من عدوّه، لا تأخذه السذاجة والغفلة، فتجره والمسلمين معه إلى فخ عدوه وعدو دينه وعدو الله ورسوله، ومن الواجب عليه دائماً أن يعرف مواقع عدوه، وأن يكون على حذرٍ شديدٍ من مكايده ودسائسه.

فالمصادقة، والمصافاة، والموادة، لأعداء الله وأعداء المسلمين، ثغرةٌ خطيرة ينفذ منها العدو، فينقض على المقاتل، والمسلمون في غفلة عما يكيده ويدبره بحقده وشدة عداوته.

ويكفي لتعليل هذا الإجراء الوقائي من قبل المسلمين تجاه عدوهم، ما ذكره النص من بيان واقع حال الكافرين أعداء الله وأعداء المسلمين:

(أ) فهم قد كفروا بما جاءكم من الحق.

(ب) وعملوا على إخراج الرسول وإخراجكم من دياركم وأموالكم لأنكم آمنتم بالله ربّكم.

(ج) وهم يضمرون الحقد عليكم، فإن يجدوكم في أي موقف من مواقف الضعف يكشفوا عداوتهم لكم، ويبسطوا إليكم أيديهم مقاتلين، وألسنتهم بمقالات السوء والشتائم القذرة.

(د) وهم يودّون دائماً لو تكفرون فتكونون مثلهم في عقيدتهم، وطريقتهم، وأعمالهم، فلا يرضون عنكم حتى تشاركوهم في الكفر بالله، وتتركوا إيمانكم وإسلامكم.

ألا تكفي هذه الأسباب الأربعة لمعاملتهم على أساس أنهم أعداء، وإن كان المؤمنون يودون لهم الخير والهداية بدافع خلق المحبة الذي يعاملون به الناس جميعاً.

وهذه الصفات التي وجدت لدى مشركي مكة، موجودة كلها لدى كل الذين لا يؤمنون بالإسلام، من يهود ونصارى وغيرهم، إذا هم رفضوا الاستجابة لدعوة الحق بعد أن عرضت عليهم واضحةً مشرقة، مدعمة ببراهينها، ومقرونة بالمواعظ الحسنة التي تحبب بها، والأساليب الحكيمة التي تقرب إليها.

وهذه الصفات موجودة أيضاً لدى المنافقين بشكل أخطر، وعلى وجه هو أدهى وأمكر، لأنه وجه مقنّع مستور بالتظاهر بالإيمان والموالاة، ومتمكن من النفوذ إلى المقاتل بالمخالطة والمداخلة والمشاركة في أمور السلم والحرب كلّها.

ولذلك حذّر الله ورسوله تحذيراً شديداً من مكايد المنافقين، وأبان الله أنّهم هم العدوّ، أي: هم العدوّ الخطير، الذي يجب الحذر منه، واليقظة الدائمة نحوه، وتتبع كلّ حركاته الصغرى والكبرى، ومراقبة خلواته، والتفرس في أقواله، ومعاريض كلامه، وفلتات لسانه، قال الله تعالى في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤) ﴾.

فقال سبحانه عن المنافقين: «هم العدوّ» أي: هم العدوّ الأخطر، لمخالطته، ومداخلته، ومصانعته، وتظاهره بالإسلام، ومعرفته مقاتل المسلمين، وثغرات الضعف التي يمكن أن ينفذ إليهم منها من يبغيهم بسوء.

وفي الحديث: «لا أتخوّف عليكم مؤمناً ولا كافراً، أمّا المؤمن فيحجزه إيمانه، وأمّا الكافر فيقمعه كفره، ولكن أتخوّف عليكم منافقاً عليم اللسان، يقول ما تعلمون، ويفعل ما تنكرون».

٢ ـ ومنها قول الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا . . . (١١٢) ﴾.

إنّ الصراع دائم بين الحق والباطل، والمحقين والمبطلين، فما من داعٍ إلى الحقّ إلّا له عدوٌّ من شياطين الإنس والجنّ.

إنّ مصالح الشياطين وأهواءَ نفوسهم وشهواتِها، لا تتحقق لهم كما يريدون، إلّا عن طريق تحكُّم الباطل، وممارسة الشرور، فمن الطبيعي أن يكونوا أعداءً لدعاة الحقّ، ومانعي ممارسة الشرور في الأرض.

ولـمّا كان النبيّون قمّة دعاة الحقّ في الناس، وكان وجود شياطين الإنس والجنّ في الأرض مستمرّاً، كان لا بدّ من وجود الصراع بين هؤلاء وهؤلاء، وكان شياطين الإنس والجنّ أعداءً طبيعيين للنبيّين، ولكل دعاة الحقّ والخير من ورائهم.

وإذا كان شياطين الإنس والجنّ هم قمّة دعاة الباطل وناشري الشرّ في الأرض، فإن من ورائهم مجرمين كثيرين، يعادون أيضاً النبيّين وسائر دعاة الحق والخير، قال الله تعالى في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝٣٠ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ۝٣١ ﴾.

فالمجرمون متى ظهر دعاة الحق والخير ناصبوهم العداء، وواجهوهم بالشرور والفتن، والمكايد والدسائس، والمقاومة والمصارعة، وذلك لأنّ دعوة الحقّ والخير تحجب عن المجرمين منافذ تسلّطهم المجرم، وتفوّت عليهم منافع ولذائذ يحصلونها بالباطل، وممارسة الشرّ والضرّ والأذى.

وعندئذٍ يجد دعاة الحقّ أنفسهم مضطرين لدفع شرورهم والحذر منهم، ومعاداتهم معاداة صريحة إذا يئسوا من إصلاحهم.

٣ ــ ومنها قول الله تعالى في سورة (المجادلة ٥٨):

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٢٢ ﴾.

ففي هذه الآية إعلان التنافي بين الإيمان بالله واليوم الآخر وموادّة من حادّ الله ورسوله.

نعم، هما قضيتان متناقضتان في لوازمهما، فهما لا تجتمعان: الإيمان بالله واليوم الآخر يستلزم محبة الله وطاعته، وموادّة أوليائه ومعاداة أعدائه. ومن حادّ الله ورسوله فقد اختار لنفسه سبيل الكفر، وسبيل الكفر مناقض لسبيل الإيمان، وموادّة من اختار سبيل الكفر تستلزم الرضى عنه في اتجاهه، والتجاوز عن مكايده للإسلام والمسلمين، ومناصرته في بعض أمره ضدّ دعوة الحقّ، وكلّ ذلك يناقض القضية الأولى ولوازمها.

إذن، فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر إيماناً صادقاً صحيحاً، فإنه لا يوادّ من حادّ الله ورسوله، ولو كان أقرب الناس إليه نسباً. وإذا كان لا يوادّه فهو لا يناصره على باطله بحالٍ من الأحوال.

إنّ لكلٍّ من الأمور العامة والخاصة حدوداً، ومتى تجاوزت الأمور حدودها انقلبت إلى أضدادها، فمعاملة أهل الباطل والشر والفساد لا يصح أن تتجاوز حدودها، فتنقلب إلى موادّة، تستتبع مخالطة ومداخلة، ثم تجرّ إلى ما يتنافى مع أصل الإيمان، وإلى ما يتنافى مع محبة الله والرسول وطاعتهما، والعمل بما يرضيهما. فالقضايا تحتاج إلى موازنات بصيرة عاقلة.

٤ ــ ومنها قول الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾.

ففي هذه الآية، ينهى الله تبارك وتعالى المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ويبين لهم أنّ من يوالي الكافرين هذه الموالاة فليس هو من الله في شيء، إلاّ أنّ الله تعالى قد استثنى الموالاة الظاهرة التي تكون الغاية منها اتقاء شرورهم، ودفع المكاره التي يخشى أن تأتي من قبلهم، فيأذن بها على مقدار الحاجة.

ثمّ يؤكد الله النهي عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين بالتحذير الشديد من مغبّة هذه الموالاة المحرّمة، فيقول الله تعالى: ﴿ويحذّركم الله نفسه، وإلى الله المصير﴾.

وأهم عناصر الموالاة المنهيّ عنها المناصرة والتأييد، وهذان يستدعيان المجاراة في كثير من الأمور، والمتابعة والمخالطة والموادّة، ومتى حصلت هذه الأمور ولوازمها، خرج المسلمون في سلوكهم من منازل الإيمان والمؤمنين، إلى منازل الكفر والكافرين.

والمراد من قوله تعالى «من دون المؤمنين»: النهي عن اتخاذ بعض المؤمنين الكافرين أولياء، من دون إرادة وموافقة سائر المؤمنين، أما حينما يحصل إجماع من المؤمنين على شيء من ذلك لضرورة سياسية ألجأت إليه، أو ترى القيادة الإسلامية ــ بعد المشاورة ــ ذلك، فإنّ الأمر يجوز بمقدار الحاجة الماديّة إلى المناصرة. هذا ما ظهر لي رجحانه، والله أعلم.

﴿ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء﴾ أي: فليس هو في شيء من ولاية الله، لأنّ الله إنّما يتولى أولياءه، ولا يتولّى أعداءه، فمن اتخذ أعداء الله أولياء له فقد أدخل نفسه في مواقع أعداء الله، وأخرجها من مواقع أولياء الله الذين يتولّاهم الله بنصره وتأييده.

﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾ وهي الموالاة الظاهرة لاتقاء شرّ الكافرين وضرهم وأذاهم، وهذه مأذون بها، بمقتضى الاستثناء، ولكن بحدود الضرورة التي استدعتها.

٥ ــ ومنها قول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾.

فجعل الله سبحانه في هذا النص اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين من صفات المنافقين.

﴿أيبتغون عندهم العزّة؟! فإن العزة لله جميعاً﴾: إنّه لأمر عجيب أنْ يبتغوا القوة عند الكافرين، مع أنّ القوة كلّها لله، فلا يطمعوا بأن تأتيهم قوّة من موالاة أعداء الله.

وفي هذا النص يبين الله مظهراً من مظاهر الموالاة، وهو مجالسة الكافرين

ومخالطتهم، فيقول: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره، إنكم إذاً مثلهم﴾.

٦ ــ وقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا (١٤٤)﴾.

أي: فإذا اتخذتم الكافرين أولياء من دون المؤمنين كان لله عليكم حجّة ظاهرة، يدينكم فيها بالجرم العظيم، فيتخلى عنكم، فتسقطون في شَرَك أعدائكم، ونارهم التي يؤجّجونها سرّاً لعذابكم واستدراجكم إليها.

٧ ــ وقول الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٥١)﴾.

هذا النص صريح في النهي عن موالاة اليهود والنصارى، لكفرهم وكراهيتهم الشديدة للمسلمين، وصريح في أنّ من يتولّى قوماً فإنه يلحق نفسه بهم.

٨ ــ وقول الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ (٢٤)﴾.

وفي هذا النص تحذير شديد، ونهي جازم، عن اتخاذ الآباء والإخوان أولياء إن استحبّوا الكفر على الإيمان، فمن يتولّهم من المؤمنين فأولئك هم الظالمون، إنّ قراباتهم لا تهوّن من أمر اتخاذهم أولياء ما داموا كافرين.

إنّ حبّ الله والرسول يستلزم عدم موالاة أعداء الله والرسول ولو كانوا من أقرب الناس نسباً.

وفي قوله تعالى: ﴿فتربصوا﴾ تهديد صريح واضح.

وهذا النص يبيّن أنّ من يتخذ الكافرين أولياء فاسق وظالم، لقوله تعالى: ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ وقوله: ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾.

٩ ــ وشبه الله من يتخذ من دون الله أولياء، بالعنكبوت التي تصنع لنفسها بيوتاً من خيوط واهية تفرزها من جسمها، فقال تعالى في سورة (العنكبوت ٢٩):

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

ــ ١١ ــ
حزب الله وأحزاب الشيطان

ينقسم الوجود إلى موقعين:

الأول: موقع يحتله حزب الله.

الثاني: موقع تحتله أحزاب الشيطان.

وبين هذين الموقعين تنافر وحدٌّ فاصل بيّن واضح، يمنع أيّ تداخل بينهما. فمن عرف موقعه من أعضاء حزب الله لم يجاوزه، ولم يتخذ لنفسه أولياء إلاّ من داخل الموقع الذي هو من أهله.

فالمؤمنون وفق ذلك بعضهم أولياء بعض، وجميعهم أولياء لله، ومتى صدقوا في محافظتهم على موقعهم كان الله وليّهم فأيدهم بنصره، وهو القوي العزيز.

أمّا أحزاب الشيطان فهم في موقعهم المختلف الأجزاء، المتنافر الأغراض والأهداف والمصالح، يتخذ بعضهم بعضاً أولياء على مقدار تلاقي المصالح والمنافع المادّية لكلٍّ منهم، والجامع لهم في هذا الموقع العام عنصر الشرّ الذي يمثّله في الوجود بصفة عامّةٍ الشيطان. فهم إذا تسلسلوا مع مستندات القوّة التي يعتمدون عليها، فإنهم سينتهون إلى طواغيتهم، التي لا يجدون عندها تأييداً ولا نصراً، ومن وراء هذه الطواغيت المختلفة الشيطانُ، الذي لا يجدون عنده إلّا الخذلان، وهو الغَرُور الخُذَلة.

فالمؤمنون الذين هم حزب الله بعضهم أولياء بعض، والكافرون والمنافقون الذين تتألف منهم أحزاب الشيطان بعضهم أولياء بعض.

قال الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾.

وقال تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ . . . ﴿٧٣﴾﴾.

فالمؤمنون بعضهم من بعض، وبعضهم أولياء بعض، وهم أولياء لله إذا اتقوا، والله وليهم، وهم حزب الله، وهم منصورون بنصر الله، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

والظالمون والكافرون بعضهم أولياء بعض، والشياطين والطواغيت

أولياؤهم، ولكنهم لا ينفعونهم في ولايتهم شيئاً، ولا يغنون عنهم من الله شيئاً، إنهم إذا جد الجد، وحَزَب الأمر، تولوا عنهم، وخذلوهم، وتبرأوا منهم.

هذا ما دلت عليه النصوص، ومنها ما يلي:

١ ـ قول الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾.

فأولياء الله هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، فهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ولهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

٢ ـ وقول الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

أي: ما أولياء الله إلا المتقون.

٣ ـ وفي بيان أنهم حزب الله، يقول الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

ويقول الله تعالى في سورة (المجادلة ٥٨):

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

٤ ــ وفي بيان أن الموقع المقابل لموقع حزب الله هو موقع يشتمل على أحزاب متباينة شتى، وهي في مجموعها تمثل حزب الشيطان، يقول الله تعالى في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤ ﴾.

ويقول الله تعالى في سورة (هود ١١):

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٧ ﴾.

فجعل الله في هذه الآية الكافرين بالقرآن أحزاباً.

ويدل على أن الأحزاب الكافرة تمثل بمجموعها حزباً للشيطان، قول الله تعالى في سورة (المجادلة ٥٨):

﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝١٩ ﴾.

وقول الله تعالى في سورة (فاطر ٣٥):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ ﴾.

فمن يتخذ لنفسه أولياء من حزب الشيطان فإنه يلحق نفسه بهذا الحزب الخاسر.

بيان أولياء الله وصفاتهم وثمرات هذه الولاية:

قال الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾.

وروى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب».

آذنته بالحرب: أي أعلمته به.

الولاية: هي المناصرة الدائمة، فأولياء الله هم الذين يواليهم الله ويناصرهم ضدّ كلّ من يعاديهم، ومن يعادي وليّاً من أولياء الله فإنّ الله تبارك وتعالى يعلمه بإعلان الحرب ضدّه مناصرةً منه لوليه.

وقد أبان النص القرآني صفات أولياء الله، فمن تحقق بهذه الصفات أخذ بالشروط المطلوبة للوصول إلى مرتبة الولاية.

فأولياء الله هم: الذين آمنوا، وكانوا يتقون.

أما الوصف الأول ـ وهو اتصافهم بالإيمان ـ: فهو يعني أنهم آمنوا إيماناً صادقاً راسخاً ثابتاً بكل ما يجب أن يؤمنوا به في الإسلام.

وأما الوصف الثاني ـ وهو اتصافهم بأنهم كانوا يتقون ـ: فهو يدل على استقامتهم على التقوى المتكررة المتجددة من الماضي إلى الحاضر، أخذاً من فعل (كانوا) الدال على الماضي، مع ما في فعل الكون من معنى الاستمرار ولو جاء بصيغة الماضي، وأخذاً من فعل (يتقون) الدال على التجدد والتكرر، كما هو شأن دلالة صيغة الفعل المضارع.

ثمرات الولاية:

وأولياء الله إذ يظفرون بتأييد الله ونصره على وجه العموم، لهم من الله جزاءٌ يشتمل على أربع ثمرات:

الثمرة الأولى: أنهم لا خوف عليهم، لأنهم في أمان الله، فهم محروسون بحفظه، مصونون بصونه، لذلك فإن قلوبهم مطمئنة لا قلق فيها ولا اضطراب، إنهم يحملون صك الأمان ممن بيده مقاليد الأرض والسماوات، وكل ما هو جارٍ وكلِّ ما هو آتٍ، ولا خوف عليهم يوم القيامة من حساب ولا عذاب.

الثمرة الثانية: أنهم لا يحزنون، فلا يمس الحزن قلوبهم على ما فات، لأنهم مؤمنون بأن ما قضاه الله لهم في الماضي هو الخير لهم، فهم راضون عن الله بما قضاه لهم، ولو كان مخالفاً لأهوائهم، ولما يشتهون، لأنهم يرون أنهم قد كوفئوا على إيمانهم وتقواهم بثواب عظيم جليل ونعيم مقيم لم يكن يخطر على قلوبهم، ولا على أفكارهم وأوهامهم.

الثمرة الثالثة: أن لهم البشرى في الحياة الدنيا، وهذه البشرى تشتمل على خيرات عظيمة ينالونها ويظفرون بها في الحياة الدنيا قبل الآخرة، منها التأييد والنصر والتمكين في الأرض، ومنها السعادة التي لا ينالها غير المؤمنين، ومنها الرؤيا الصالحة، وبشارة الملائكة له عند الموت بالمغفرة والجنة، والثناء الحسن.

وقد فسرت البشرى لهم في الحياة الدنيا بالرؤيا الصالحة، روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ قال: «الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له».

وروى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت نظير ذلك عن النبي ﷺ وفسرت البشرى لهم في الحياة الدنيا بالذكر الحسن والثناء العاطر. روى مسلم والإمام أحمد عن أبي ذر أنه قال: يا رسول الله: الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه ويثنون عليه به، فقال رسول الله ﷺ: «تلك عاجل بشرى المؤمن».

وفُسرت البشرى لهم في الحياة الدنيا بالبشارة بالمغفرة والجنة التي تبشرهم بها ملائكة من ملائكة الله عند الاحتضار، ففي حديث البراء رضي الله عنه:

«إنّ المؤمن إذا حضره الموت جاءه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب، فقالوا: اخرجي أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان، ورب غير غضبان، فتخرج من فمه كما تسيل القطرة من فم السقاء».

الثمرة الرابعة: أن لهم البشرى في الآخرة، وبشراهم في الآخرة هو إخبارهم بأن الجنة مأواهم. فبشراهم فيها تكون بدخول الجنة والظفر بالنعيم المقيم، والنجاة من عذاب الحشر وعذاب النار.

وذلك هو الفوز العظيم.

حقوق الموالاة بين المؤمنين:

والموالاة بين المؤمنين تستلزم المناصرة، وتقديم المعونات الجماعية، وتأدية الحقوق المختلفة للأفراد على الجماعة، ولكن للإلزام بها شروط:

(أ) فالموالاة العامة في كل الأمور شرطها المشاركة في دار الإسلام، والقيام بالواجبات التي تفرض على الفرد المسلم والجماعة الإسلامية.

(ب) والموالاة الخاصة بالنصرة في الدين شرطها ألا يكون بين المسلمين وبين القوم الذين ينصرون عليهم إخوانهم في الدين ميثاقٌ سابق يمنع هذه المناصرة.

وقد دل على هذين الأمرين قول الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ ﴾[1].

---

(١) يرى بعض المفسرين أن الولاية هنا بمعنى التوارث الذي كان ثم نسخ، وأرى النص عاماً، وباقياً، وأن الذي نسخ أحكام خاصة بالتوارث، والله أعلم.

حزب الله هم أولياؤه، والذين كفروا أولياؤهم الطواغيت والشياطين:

ومن كان من حزب الله، ولازم موقع هذا الحزب، فإنه من أولياء الله، وإن الله يتولاه بمعونته وتأييده ونصره.

ومن كان من أحزاب الشياطين والطواغيت كانت الشياطين والطواغيت أولياءه، فلا تعطيه في ولايتها نصراً، وإنما تستدرجه إلى تهلكته، وإلى منازل عذابه وشقائه الأبدي.

قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

وقال تعالى أيضاً في سورة (الأعراف ٧):

﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

والظالمون من أحزاب الشياطين يناصر بعضهم بعضاً، ويوالي بعضهم بعضاً ضد الذين آمنوا، والمؤمنون إذا اتقَوْا كان الله وليهم، فنصرهم وخذل أعداءهم.

قال الله تعالى في سورة (الجاثية ٤٥):

﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

ويسخر الله في ولايته للمتقين ملائكة تؤيدهم وتنصرهم وتتولاهم، قال الله تعالى في سورة (فُصِّلَت ٤١):

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾.

وشواهد نصر الله لأوليائه المتقين لا تحصر في التاريخ، وكذلك شواهد خذل الشيطان لأوليائه كثيرة لا تحصر، منها ما كان في غزوة بدر، إذ زيّن الشيطان للكافرين أعمالهم، وقال لهم: إني جارٌ لكم، فلما وقعت الواقعة فرّ الشيطان جباناً خائفاً، وفي بيان ذلك قال الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾.

— ١٢ —

ما يجب اتباعه تجاه الأعداء

من مجمل المفاهيم الإسلامية حول موقف المسلمين تجاه أعدائهم من كافرين صرحاء أو منافقين، نستطيع استخلاص ما يلي:

الأول: يجب معرفة أنهم أعداء، لأن طبيعة رفضهم لدعوة الحق، واتباعهم سبل الباطل، واستجابتهم لأهواء نفوسهم وشهواتها الجانحة، وموالاتهم للشياطين والطواغيت، تجعلهم أعداء لله ولرسوله وللمؤمنين، فهم حزب الشيطان.

الثاني: يجب عدم موادتهم، وعدم مخالطتهم، وعدم مداخلتهم، وعدم موالاتهم، وعدم اتخاذ بطانة منهم.

الثالث: يجب الحذر من مكايدهم، ودسائسهم، وشرورهم، ومراقبة حركاتهم وسكناتهم بيقظة تامة، ومعرفة مخططاتهم ضد الإسلام والمسلمين.

الرابع: يجب عدم اتباع خطواتهم، وعدم الاستجابة لوساوسهم وتسويلاتهم.

الخامس: من واجبات المسلمين محاولة إصلاحهم، وهدايتهم إلى صراط الله، عن طريق التبليغ والإقناع، والتذكير بالله، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، والجهاد في سبيل الله، وسائر وسائل التربية النافعة، ووسائل الإصلاح الفردي والجماعي.

السادس: إعداد العدة الكافية لدرء الأخطار والأضرار التي قد تأتي من قبلهم على حين غرة، عملاً بقول الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

- ١٣ -
قد يكون العداء من طرف واحد

لا يشترط في العداء دائماً أن يكون مشاركة بين طرفين، فقد يكون العداء من طرف واحد، ويكون من الطرف الآخر محبة، وتضحية، وبذل، وإرادة للخير.

ولكن المفروض فيمن يعرف أن من يحبه هو قد يكون معادياً له، أن يكون على حذر منه.

فقد يكون عدو الإنسان نفسه التي بين جنبيه، وقد يكون عدوه زوجه، أو ولده، والعدو هو الذي يدفع بالإنسان إلى تهلكته وعذابه وشقائه.

قال الله تعالى في سورة (التغابن ٦٤):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾.

ففي هذا النص القرآني نلاحظ أن الله تبارك وتعالى يرشد الذين آمنوا إلى أنه قد يوجد من أزواجهم وأولادهم من يكونون أعداءً لهم، يحاولون إيقاعهم في معاصي الله، وسوقهم إلى عذابه، ويأمرهم بالحذر من آثار هذه العداوة، وظاهر أن هذه العداوة من طرف واحد، فالآباء والأمهات يمنحون أولادهم كل محبة، ويريدون لهم كل خير، في حين أنه قد يوجد في الأولاد من يعادون آباءهم وأمهاتهم، ويتمنون موتهم والخلاص منهم، طمعاً بمنافع مادية يحصلونها، أو تخففاً من خدمات ونفقات يقدمونها.

* * *

الفصل السادس

الصَّبْر وفروعه وظواهره السُّلوكية

- ١ -

من الأسس العامة التي ترجع إليها مجموعة من الفروع والمفردات الخلقية المحمودة؛ خلُق الصبر.

ويأتي في مقابل هذا الأساس خلقُ عدم الصبر، وإليه ترجع مجموعة من النقائص الخلقية في السلوك الإنساني، مثل سرعة التضجر وعدم التحمل، والعجلة الرّعناء في الأمور، وسرعة الغضب، وعدم الأناة، وأشباه ذلك.

تعريف الصبر:

الصبر قوُة خلقية من قوى الإرادة، تمكّن الإنسان من ضبط نفسه لتحمّل المتاعب والمشقات والآلام، وضبطها عن الاندفاع بعوامل الضجر والجزع، والسأم والملل، والعجلة والرعونة، والغضب والطيش، والخوف والطمع، والأهواء والشهوات والغرائز.

وبالصبر يتمكن الإنسان بطمأنينة وثبات أن يضع الأشياء في مواضعها، ويتصرّف في الأمور بعقل واتزان، وينفذ ما يريد من تصرّف في الزمن المناسب، وبالطريقة المناسبة الحكيمة، وعلى الوجه المناسب الحكيم، بخلاف عدم الصبر الذي يدفع إلى التسرّع والعجلة، فيضع الإنسان الأشياء في غير مواضعها، ويتصرف برعونة، فيخطىء في تحديد الزمان، ويسيء في طريقة التنفيذ وفي

وجهه، وربما يكون صاحب حقٍّ أو يريد الخير، فيغدو جانياً أو مفسداً، ولو أنه اعتصم بالصبر لسَلِمَ من كلّ ذلك.

مجالات الصبر:

للصبر مجالات كثيرة في حياة الإنسان، منها المجالات التالية:

(أ) فمن الصبر ضبط النفس عن الضجر والجزع عند حلول المصائب ومسّ المكاره.

(ب) ومن الصبر ضبط النفس عن السأم والملل، لدى القيام بأعمال تتطلّب الدأب والمثابرة خلال مدّة مناسبة، قد يراها المستعجل مدّة طويلة.

(ج) ومن الصبر ضبط النفس عن العجلة والرعونة، لدى تحقيق مطلب من المطالب المادّية أو المعنوية.

والإنسان بطبعه عجول، يصعب عليه انتظار تحقيق الأمور في أوقاتها، ويريد استعجال الأشياء قبل أوانها، وفي الكلام السائر: صاحب الحاجة أرعن لا يروم إلّا قضاءها.

(د) ومن الصبر ضبط النفس عن الغضب والطيش، لدى مثيرات عوامل الغضب في النفس، ومحرّضات الإرادة للاندفاع بطيش لا حكمة فيه ولا اتزان في القول أو في العمل.

(هـ) ومن الصبر ضبط النفس عن الخوف لدى مثيرات الخوف في النفس؛ حتى لا يجبن الإنسان في المواضع التي تحسن فيها الشجاعة وتكون خيراً، ويقبح فيها الجبن ويكون شراً.

(و) ومن الصبر ضبط النفس عن الطمع لدى مثيرات الطمع فيها، حتى لا يندفع الإنسان وراء الطمع في أمرٍ يقبح الطمع فيه.

(ز) ومن الصبر ضبط النفس عن الاندفاع وراء أهوائها وشهواتها وغرائزها، كلّما كان هذا الاندفاع أمراً لا خير فيه.

(ح) ومن الصبر ضبط النفس لتحمّل المتاعب والمشقات والآلام الجسدية والنفسية، كلّما كان في هذا التحمّل خيرٌ عاجلٌ أو آجل.

فضل الصبر:

وفضل الصبر آتٍ من أنّه تعبير عن قوة الإرادة، وعن كمال العقل، والبعد عن الطيش والرعونة، وتعبير عن الحكمة في معالجة مشكلات الحياة.

يضاف إلى ذلك أنه في مستواه الرفيع ثمرة من ثمرات الفهم عن الله، وتدبّر حكمته العظيمة في تصريف الأمور، وامتحان عباده في هذه الحياة، وثمرة من ثمرات الرضى عن الله فيما تجري به مقاديره، ولذلك كان الصبر ضياء، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ فيما رواه مسلم عن أبي مالك الحارث الأشعري إذ قال: «والصبر ضياء»[1].

ويضاف إلى ذلك أيضاً أنّه السلاح الأقوى الذي يمكّن صاحبه من إصلاح خصمه أو الظفر به، وأنّه أعظم خلق نفسي وضع موضع الابتلاء في ظروف هذه الحياة الدنيا، ولذلك قال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ؟! ﴿١٤٢﴾ ﴾.

(١) ونص الحديث بكامله: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كلّ الناس يغدو فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها».

ـ ٢ ـ
الصبر عند المصائب وكلّ ما يجلب الآلام ويورث المتاعب والأكدار

لقد أرشد الإسلام إلى التحلّي بفضيلة خلق الصبر عند المصائب، وعند كلّ ما يجلب الآلام ويورث المتاعب والأكدار.

ووجّه الإسلام المؤمنين إلى الرضى بقضاء الله وقدره، في كلّ ما ينجزُه القضاء والقدر من أمره، وأبان للمؤمنين أنّ حكمة الابتلاء في ظروف الحياة الدنيا قد تقضي بأن يكون الابتلاء بالمكاره والمؤلمات، وأنّ ما يأتي به القضاء والقدر ممّا لا كسب للإنسان فيه ولا مسؤولية عليه به هو خير في حقيقة أمره، وإن كان ظاهره مكروهاً وموجعاً، وإن كان في عرف الناس مصيبة من المصائب. وأبان للمؤمنين أنه ما يصيبهم من حسنة فمن فضل الله وواسع رحمته وجوده، وما يُصيبهم من سيئة فبسبب من أنفسهم.

ووعد الإسلام الصابرين بالأجر العظيم، والثواب الجزيل، إذا صبروا رضىً بقضاء الله، وطاعة له، وابتغاء مرضاته.

وفيما يلي شرح لطائفة من النصوص الإسلامية في ذلك:

١ ـ يقول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾.

فدلّ هذا النصّ على أنّ المصائب المؤلمة، في الأنفس، أو في الأجسام، أو في الأموال، أو في الثمرات، قد تكون نوعاً من الامتحان في ظروف الحياة الدنيا، لقول الله تعالى: ﴿ولنبلونّكم﴾ والابتلاء هو الامتحان.

وقد أرشد هذا النصّ إلى التحلّي بفضيلة الصبر في مجال الإصابة بالمصائب

المختلفة، والتي منها مصائب الخوف، ومصائب الجوع، ومصائب النقص من الأموال، ومصائب النقص من الأنفس، ومصائب النقص من الثمرات.

وأبان النصّ أنّ من آداب الصابرين على المصائب التي تأتيهم من عند الله لابتلائهم، وامتحان إيمانهم، واختبار تسليمهم ورضاهم بما يجري به قضاء الله وقدره، أن يقولوا: إنّا لله وإنا إليه راجعون، معلنين بهذا أنّ كل شيءٍ هو مملوكٌ لله، وأنه إلى الله يرجع.

واشتمل النصّ على البشارة من الله للصابرين، إذ يقول تبارك وتعالى فيه: ﴿وبشّر الصابرين﴾؛ وهذه البشارة قد جاءت بأمرين محبوبين عظيمين:

الأمر الأول: أنّ عليهم صلوات من ربّهم.
الأمر الثاني: أنّ عليهم من ربّهم رحمة.

وقد استحقوا البشارة بهذا الجزاء الكريم لأنهم هم المهتدون إلى سبيل سعادتهم، وهم السالكون في الطريق القويم.

إنّهم لما صبروا ابتغاء مرضاة الله استحقّوا أنواعاً من رحمة الله وغفرانه، ومن أجل ذلك كان عليهم صلوات من ربّهم، ولـمّـا أعلنوا رضاهم عن الله، وتسليمهم لما تجري به مقاديره، بقولهم: إنا لله وإنا إليه راجعون، استحقوا نوعاً آخر خاصّاً من رحمة الله، مضافاً إلى أنواع الرحمات السابقات التي استحقوها بالصبر.

ومن هذا ندرك: أن رحمة الله أنواع كثيرة، وقد أشارت الآية إلى هذه الأنواعِ بعطف الرحمة على الصلوات من الله، مع أنّ الصلوات من الله هي أيضاً رحمات منه.

٢ ــ ويقول الله تعالى في سورة (الحج ٢٢):

﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

ففي قول الله تعالى في وصفْ المخبتين: ﴿والصابرين على ما أصابهم﴾ إشادةٌ بفضيلة خلُق الصبْر على المصائب، وقد قُرنت هذه الفضيلة بفضيلة وجل القلوب عند ذكر الله، وفضيلة إقامة الصّلاة، وفضيلة الإنفاق في سبيل الله.

فالمخبتون في الاصطلاح الشرعي هم الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، والصابرون على ما أصابهم، والمقيمو الصلاة، والمنفقون مما رزقهم الله ابتغاء مرضاته.

وأصل الخَبْتِ في اللّغة العربية: الأرض المنخفضة المطمئنّة، والمخبتُ لربّه هو المتواضع الخاشع المطمئنّ. وكأنّ هذه المعاني التي وردت في وصف المخبتين مأخوذة من الإخبات المادّي، وهو اللجوء إلى الأرض المنخفضة المطمئنّة، على سبيل التواضع والسكينة، ثمّ حمل لفظ الإخبات معنى التواضع والخشوع والطمأنينة، أو تكون هذه المعاني من لوازم المعنى اللّغوي لهذه اللفظة، فمن كان مخبتاً لربّه، أي: متواضعاً خاشعاً مطمئناً، كان من صفاته أنه إذا ذكر الله وجل قلبه، وإذا ابتلاه الله بمصيبة صبر على ما ابتلاه به، ومن كان مخبتاً لربّه كان لا بدّ أن يكون مقيماً للصلاة المفروضة مؤدّياً للزكاة، قائماً بحقِّ الله عليه.

المصائب مكفّرات للذنوب:

حين يعلم المؤمن أن الله يمتحنه بالمصائب ليختبر مقدار صبره ورضاه عن ربّه، وليكتب له الأجر العظيم عنده، فإنه يجد نفسه مدفوعاً لتحمّل المصائب بصبر ورضىً عن الله.

وحين يعلم أنّ الله يثيبه فيكفّر عنه من ذنوبه وخطاياه بالمصائب التي يصيبه بها، فإنه يزداد اندفاعه لتحمّل المصائب بصبر ورضىً عن الله.

وقد أبان الرسول صلوات الله عليه ما للمصائب وإن صغُرت من أثرٍ عظيم في تكفير الذنوب والخطايا، فمن ذلك ما جاء في الأحاديث التالية:

١ ــ روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد وأبي هريرة عن النبي ﷺ

قال: «ما يصيب المسلمَ من نصب ولا وصب، ولا همّ ولا حزنٍ، ولا أذىً ولا غمّ، حتى الشوكة يشاكها، إلاّ كفّر الله بها من خطاياه».

النصب: التعب. الوصب: المرض.

٢ ـ وروى البخاري ومسلم، عن ابن مسعود قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك[١] فقلت: يا رسول الله، إنّك توعك وعكاً شديداً، قال: «أجل، إني أوعك كما يوعك رجلان منكم» قلت: ذلك أنّ لك أجرين؟ قال: «أجل، ذلك كذلك، ما من مسلم يصيبه أذى، شوكة فما فوقها إلا كفّر الله بها سيّئاته، وحُطّت عنه ذنوبه كما تحطّ الشجرة ورقها».

٣ ـ وروى البخاري عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يُصِبْ منه».

٤ ـ وروى الترمذي بإسناد حسن عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبده الخير عجّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه، حتى يوافى به يوم القيامة».

وقال النبي ﷺ: «إن عِظَم الجزاء مع عِظَم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحبّ قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط».

٥ ـ وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة» رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

٦ ـ وروى الإمام أحمد والبيهقي في شعب الإيمان عن الحسين بن علي، عن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها وإن طال عهدها، فيحدث لذلك استرجاعاً، إلاّ جدّد الله تبارك وتعالى له عند ذلك، فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب بها».

---

(١) الوعك: مغث الحمّى، وقيل الحمى.

فقانون الصبر على المصائب والآلام التي تنزل بالمسلم يرجع إلى عنصرين:

الأول: تكفير الخطايا والسيئات، وهذا من تعجيل العقوبة على الذنوب.

الثاني: منح الأجر عليها، وهذا من فضل الله ورحمته بعباده المؤمنين.

ومن البديع أن التربية على الصبر والرضى عن الله في المصائب والآلام؛ قد جاءت بأسلوب بيان أجر المسلم على ما ينزل به من مصيبة وما يمسه من ألم، حتى الألم الذي يسترجعه تذكر المصيبة الماضية التي طال عليها العهد.

النهي عن تمني الموت تخلصاً من المصائب:

وحين يعلم المؤمن أنّ صبره على المصائب والآلام مكفّر لسيئاته، ورافع لدرجاته، ويسجّل له مع كل شعور بألم أجرٌ عند الله تعالى، يناله ثواباً عظيماً وكرامة عنده في دار الجزاء، يرى أنه في خير عظيم وفضل جسيم من الله تعالى، ويرى أنّ تمنيه الموت تخلصاً من المصائب هروب من الحياة، وفرار من مسؤولية الابتلاء، وخروج من سوق تجارة رابحة أضعافاً مضاعفة، لذلك فهو لا يتمنّى الموت ليتخلّص من مصائبه وآلامه، ويلاحظ المؤمن أنّ طول أجله فرصة له ليزيد من حسناته إن كان من المحسنين، وليتوب ويصلح من حاله إن كان من المسيئين، لكلّ ذلك نهى الرسول ﷺ الذين آمنوا عن تمنّي الموت.

روى البخاري عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال:

«لا يتمنى أحدكم الموت، إمّا مُحْسناً فلعلّه يزداد، وإمّا مسيئاً فلعلّه يستعتب».

يستعتب: أي يرجع عن الإساءة ويطلب الرضى بالتوبة والندم والاستغفار والعمل الصالح.

أي فهو أحد رجلين:

إمّا أن يكون محسناً، وفي هذه الحالة يرجو بطول الأجل أن يزداد إحساناً وأعمالاً صالحة.

وإمّا أن يكون مسيئاً، وفي هذه الحالة يرجو بطول الأجل أن يتوب ويستغفر ويعمل صالحاً، ويكفّر عن سيئاته.

وروى مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال:
«لا يتمنّى أحدكم الموت ولا يدعُ به من قبل أن يأتيه، إنه إذا مات انقطع عمله، وإنه لا يزيد المؤمنَ عمرهُ إلاّ خيراً».

فأبان الرسول ﷺ أن المؤمن لا يزيده طول عمره إلاّ خيراً، وأنّ عليه أن يواجه مسؤولياته في الحياة بقوة إرادة وصدق عزيمة، وصبر وصمود وكدحٍ ومجاهدة، ليغتنم من حياته ما يستطيع اغتنامه لآخرته.

وروى البخاري ومسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ:
«لا يتمنّينّ أحدكم الموت لضرّ أصابه، فإن كان لا بدّ فاعلاً فليقل: اللّهمّ أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفّني إذا كانت الوفاة خيراً لي».

وهذا الحديث يدلّ على أنّ الأفضل للمؤمن أن لا يتدخل في طلب الموت من ربّه مطلقاً، وأن يترك أمر الأجل لمقادير الله في خلقه، ولحكمته في عباده.

ولذلك لم يدعُ خبّاب بن الأرت على نفسه بالموت، مع أنّه وصل إلى حالة رأى فيها أنّ الموت أحبّ له من الحياة.

روى البخاري عن قيس بن أبي حازم قال: دخلنا على خبّاب بن الأرت رضي الله عنه نعوده، وقد اكتوى سبع كيّات، فقال: «إنّ أصحابنا الذين سلَفوا مَضَوْا ولم تنقصهم الدنيا، وإنّا أصبنا ما لا نجد له موضعاً إلاّ التراب. ثم قال: ولولا أنّ النبي ﷺ نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به».

وإنا أصبنا ما لا نجد له موضعاً إلاّ التراب: أي أصبنا من المال ما لا نجد له موضعاً نضعه فيه إلاّ أن نبني به ونعمر بيوتاً وبساتين.

وقد حدّث خبّاب نفسه بالموت ولم يطلبه، مخافة أن تنقص الدنيا والأموال التي زادت عنده من منزلته عن أصحابه الذين سبقوا إلى ربّهم، قبل أن تفتح الدنيا على المسلمين.

وهذه التربية الإسلامية من شأنها أن ترفع معنويّات المسلمين في الحياة، وتشدّ عزائمهم، وتنفي السأم والضجر عن نفوسهم وقلوبهم، وتضع بينهم وبين الطريق التي تنحدر بكثير من الناس إلى الانتحار سدّاً منيعاً.

أمّا من ترك الإيمان بالله واليوم الآخر، وكفر بالمفاهيم الإسلامية العظيمة، تولّد في نفسه السأم والضجر من الحياة عند أوّل ضرّ يمسّه، ومع تتابع أحداث الضجر مرّة بعد مرّة، تتكثف في نفسه ضغوط قاتلة، لا تجد لها منفذاً تتنفس منه؛ لأنّ المتنفس الوحيد لا يأتي إلا عن طريق الإيمان بالله واليوم الآخر، والرضى عن الله فيما تجري به مقاديره، ومراقبة الأجر العظيم الذي أعدّه الله للصابرين. وبعد تكثف ضغوط الضجر والسأم من الحياة دون أن تجد متنفساً سليماً تحدث حالة الانفجار النفسي، وهذا الانفجار ينتهي به إلى الانتحار أو إلى الجنون، أو إلى الجريمة البشعة، أو إلى إدمان المسكرات والمخدرات، وفي كلّ ذلك شرّ مستطير، وبلاء كبير.

أمّا المؤمنون فهم من هذا البلاء بعافية والحمد لله، وبلاد المسلمين هي أسلم البلاد وأنقاها من جرثومة هذا الوباء، وذلك بسرّ الوقاية العجيبة التي يصنعها الإيمان، وتغذيها عناصر التربية الإسلامية.

وقد أصيب بعض أبناء المسلمين في هذا العصر بأمراض أهل الكفر، لـمّا تسرّب إليهم داء الكفر بالله وبمقاديره وحكمته، والكفر باليوم الآخر وما فيه من جزاء بالثواب أو بالعقاب.

من روائع أمثلة الصبر على البلاء:

١ ـ صبر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام:

يحكي الله لنا قصة بطولة فريدة من بطولات الصبر، قدّمها ولدٌ ووالده، في امتحان ربّاني عجيب لهما، هما النبيان الرسولان الصابران إسماعيل وأبوه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام.

يكلّف الله إبراهيم في رؤيا منامية أن يذبح ولده إسماعيل، فيتجه بصبر عجيب لطاعة أمر ربه، فيقول لابنه إسماعيل: «يا بني إني أرى في المنام أني

أذبحك» أي أمرني ربي بذبحك في رؤيا منامية، ورؤيا الأنبياء حقّ تثبت بها الأحكام التكليفية.

فيقول الابن البار بأبيه المطيع لربه: «يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين».

وأسلما أمرهما إلى الله صابرين، وشرعا في تنفيذ التكليف ذابحٌ ومذبوح، فلما علم الله طاعتهما وصدْق إسلامهما وتسليمهما، أنزل لهما كبش الفداء، وتوقف أمر ذبح الوالد لولده، وتم الذبح للكبْش.

وفي عرض القرآن لهذه القصة إشادةٌ بفضيلة خلق الصّبر على تنفيذ أمر الرب، مهما كان قاسياً ومكروهاً لدى النفس. وتوجيهٌ لإعداد الأنفس للصّبر على المكاره والمصائب المرتقبة، والإقدام عليها بشجاعة وبطولة. وتقديمٌ لنموذج فريد من روائع قصص الأبطال الصابرين.

يقول الله تعالى في سورة (الصافات ٣٧) في معرض ذكر قصة إبراهيم مع قومه:

﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾﴾.

هذه قصة من روائع قصص الإقدام على المكاره بصبر وشجاعة نادرة، ومن روائع قصص الطاعة والامتثال لأوامر الله تعالى.

والإقدام على المكاره بصبر وشجاعة، من الأمثلة التي تدل على خلق

أصيل في النفس عظيم، وقد أثبت إسماعيل عليه السلام بالتطبيق العملي ما أعلنه بقوله: «ستجدني إن شاء الله من الصابرين» فكان ذا حظ عظيم من الصبر، حينما سعى هو وأبوه لتنفيذ أمر الرب.

والرائع في القصة أن الذابح المتدفق رحمةً على ولده، والذبيح المستسلم لأعظم مكروه في الدنيا، كلاهما قد بلغا قمة الاستسلام والطاعة لربهما، فقد تلّ الأب ولده للجبين، وأسلما أمرهما لله صابرين على ما امتحنهما به، ولما أثبتا نجاحهما في الامتحان ــ وما كان الله قد أراد أن يذبح إبراهيم عليه السلام ولده إسماعيل فعلاً ــ عندئذٍ أنزل لهما الفداء، وأعلن انتهاء فترة الامتحان، ورجع البطلان فائزين بدرجة عظمى من الاصطفاء الإلهي.

ولم يكن صبر إبراهيم في الإقدام على ذبح ولده امتثالاً لأمر ربه، بأقل من صبر إسماعيل في إقدامه مستسلماً للذبح امتثالاً لأمر ربه أيضاً، كلا الأمرين من أشد ما يصطدم به الإنسان من مكاره في حياته.

٢ ــ صبر أيوب عليه السلام:

ومن روائع أمثلة الصبر، صبرُ أيوب عليه السلام، فقد قدم مثالاً يقتدى به، من أمثلة الصبر على المصائب والمكاره التي يبتلي الله بها عباده.

كان أيوب عليه السلام عبداً صالحاً، امتحنه الله بالغنى، فبسط له الرزق الكثير، ورزقه أهلاً وبنين، فكان من الشاكرين.

وقد ذكر المؤرخون أنه كان أميراً غنياً محسناً، ثم امتحنه الله بالمصائب، ففقد المال والأهل والولد، ونشبت به الأمراض المضنية المضجرة، فكان من الصابرين، وتلقى كل ذلك بالحمد والثناء على ربه، وبالتسليم والرضى، فكان في حالتي السراء والضراء مثالاً رائعاً لعباد الله الصالحين، إذ كان شاكراً أيام النعمة، ثم كان صابراً أيام المصائب المتوالية. وكانت له امرأة مؤمنة إسمها «رحمة» من أحفاد يوسف عليه السلام، ورافقت هذه المرأة حياة نعمته وصحته، وزمن بؤسه وبلائه، فكانت في الحالتين مع زوجها شاكرة فصابرة.

ومن اللطائف في قصة صبر أيوب عليه السلام، أن الشيطان حاول أن

يفسد نفسه، فيوسوس له بأن يضجر من المصائب التي تكاثرت عليه، فلم يظفر بما أراد، فحاول أن يدخل إليه عن طريق زوجته، فوسوس لها، فجاءت إلى أيوب وفي نفسها الضجر مما أصابه من بلاء، وأرادت أن تحرك قلبه ببعض ما في نفسها، فغضب أيوب، وقال لها: كم لبثتُ في الرخاء؟ قالت: ثمانين ــ أي ثمانين عاماً ــ قال لها: كم لبثت في البلاء؟ قالت: سبع سنين. قال: أما أستحيي أن أطلب من الله رفع بلائي، وما قضيت فيه مدة رخائي!!

ولما اشتد به الضر، وطال الزمن، وهجره كل الناس حتى زوجته الوفية، واجتاز فترة الامتحان بنجاح، فكان عبداً صبوراً، نادى ربه: إني مسّني الضر، وأنت أرحم الراحمين.

عندئذٍ كشف الله عنه ما به من ضر، وآتاه الصحة، ورد له ما كان قد أخذ منه، وآتاه أهله ومثلهم معهم.

قال الله تعالى في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (ص ٣٨):

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾.

بنُصْبٍ: أي بمشقّة وتعب، والمراد من النصب والعذاب ما نزل به من بلاء المرض.

اركض برجلك: أي قيل له على لسان الوحي: اركض برجلك، والمراد أن يضرب الأرض برجله، فلمّا ضرب الأرض برجله نبعت له عين ماءٍ فيها شفاؤه. وقيل له لما نبعت: هذا مغتسل باردٌ وشراب، فاغتسل وشرب فشفاه الله، وأزال عنه ما كان قد نزل به من قبل، ورد الله له أهله الذين فقدهم أيام مرضه الشديد الطويل، وزاده مثلهم معهم، رحمة منه جل وعلا.

وكان قد حلف أن يضرب امرأته مائة سوط على أمرٍ طوى القرآن ذكره، فأنزل الله عليه ما يتحلّل به من يمينه، فقال له: ﴿خذ بيدك ضغثاً، فاضرب به ولا تحنث﴾ أي خذ بيدك حزمة صغيرة من حشيشٍ أو أعواداً خفيفة فيها مائة عودٍ أو أكثر، فاضرب به زوجتك، وتحلل بذلك من يمينك.

قالوا: وقد كافأ الله زوجته بذلك، لأنها خدمته وصبرت على خدمته.

من خلال قصة أيوب عليه السلام نلاحظ أنه اجتاز مرحلة صبر طويل شديد، ولذلك أثنى الله عليه بقوله: ﴿إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أوّاب﴾ أي رجاع إلى ربّه تواب.

ويعرض الله لنا أمثلة الصابرين ليكونوا لنا أسوة حسنة نقتدي بهم، فنصبر مثل صبرهم، أو مثل بعض صبرهم، كلّما اقتضت حكمة الله تعالى أن يبتلينا بشيء من مصائب الحياة الدنيا، في الأنفس، أو في الأجساد، أو في الأموال، أو في الثمرات، حتى يكون لنا عنده أجر الصابرين، ونرتقي عنده إلى منازل المحسنين المقربين العابدين أولي الألباب.

ولذلك قال الله تعالى بعد عرض قصة أيوب في سورة (الأنبياء): ﴿وذكرى للعابدين﴾، وقال بعد عرضها في سورة (ص): ﴿وذكرى لأولي الألباب﴾؛ فدل بذلك على أن الغرض من عرضها أن يكون أيوب في صبره أسوة حسنة لأولي الألباب، الذين هم العابدون. فأولو الألباب العارفون بثمرات الصبر وأجر الصابرين هم الذين ينتفعون بما يُعرض عليهم من أمثلة الصابرين، ويدركون أن الصبر من الدرجات العليا للعبادة، فيضيفونه إلى عباداتهم الكثيرة، التي يؤدونها ابتغاء مرضاة الله تعالى.

ولما كانت درجات الصبر العليا من مرتبة الإحسان، التي هي أعلى مراتب العبادة، قال الله تعالى بعد عرض قصة إبراهيم عليه السلام، وما كان منه من صبر على البلاء المبين: ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾، وقال: ﴿كذلك نجزي المحسنين﴾.

— ٣ —

الصبر ضرورة حياتية
لكل عمل نافع إيجابي أو سلبي

حين نتأمل في المجالات التي تحتاج إلى صبر في حياة الإنسان، يتبين لنا أن الصبر ضرورة حياتية لكل عمل نافع، إيجابيّاً كان أو سلبيّاً.

إن كسب الرزق يحتاج إلى صبر، ومعاملة الناس تحتاج إلى صبر، والقيام بالواجبات والمطلوبات الدينية يحتاج إلى صبر، والكف عن المحرّمات والمكروهات يحتاج إلى صبر، والجهاد في سبيل الله يحتاج إلى صبر، ومقارعة شدائد الحياة ومقاومة مكارهها وتحمل تكاليفها يحتاج إلى صبر، وهكذا إلى سائر الأعمال التي يمارسها الإنسان في حياته، سلبيّةً كانت أو إيجابية، فهي تحتاج إلى صبر.

يشهد لهذا واقع حال الإنسان مهما اختلفت ظروف حياته، وتدل عليه أيضاً النصوص الدينية:

١ — فمن الأدلة التي تدل على أن القيام بالواجبات الدينية يحتاج إلى صبر، قول الله تعالى في سورة (مريم ١٩):

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾.

هل تعلم له سميّاً: أي هل تعلم له شبيهاً يشبهه في صفاته العلية، سبحانه وتعالى عن الشبيه ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ فله تبارك وتعالى الوحدانية في ربوبيته والوحدانية في ألوهيته.

في هذا النص القرآني، نلاحظ أن الله تبارك وتعالى، حين أمر بعبادته أرشد إلى الاعتصام بالصبر الزائد، فقال تعالى: ﴿واصطبر لعبادته﴾، وصيغة «اصطبر» مأخوذة من «اصبر» مع زيادة التاء التي تدل على التكلف والمبالغة، ثم قلبت التاء طاءً لوقوعها بعد حرف الصاد، كما هي القاعدة العربية في مثل ذلك.

ولما كانت عبادة الله تشمل فعل ما أمر به أو رغب بفعله، وترك ما نهى عن فعله أو رغب بتركه، وكانت العبادة تحتاج إلى اصطبار، كان المقصود بالصبر المطلوب الصبر على فعل الطاعات، والصبر على ترك المخالفات، سواء أكانت محرمات أو مكروهات أو دون ذلك.

٢ ــ ومن الأدلة التي تدل على أن مخالطة الناس والتعامل معهم من الأمور التي تحتاج إلى صبر، قول الله تعالى في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

فهذه الآية تدل على أن من ضمن مجالات الامتحان الرباني للناس، امتحان بعضهم ببعض، والنجاح في هذا الامتحان يحتاج إلى صبر، ولذلك قال الله تعالى: ﴿أتصبرون؟﴾ أي: أتصبرون حتى تظفروا بالنجاح في الامتحان الرباني لكم.

ونستطيع أن نستخلص من هذا قاعدة عامة فنقول: إن جميع صور الامتحان الرباني للناس تحتاج إلى صبر، والله تبارك وتعالى يمتحن في التكاليف التي يأمرنا بها خضوعنا لأمره ونهيه، ومدى صبرنا على طاعته، في فعل ما يأمرنا به، وفي اجتناب ما ينهانا عنه.

٣ ــ ومن الأدلة التي تدل على أن الجهاد في سبيل الله يحتاج إلى صبر عظيم لما فيه من تعرض للتضحية بالنفس والجود بها ابتغاء مرضاة الله ــ والجود بالنفس أقصى غاية الجود، لذلك يأمرنا الله بالجهاد، وبالصبر العظيم فيه ــ قول الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾.

ففي هذه الآية يأمر الله الذين آمنوا بالصبر، ويأمرهم بالمصابرة، والمصابرة فيها مغالبة للخصوم بالصبر، فإذا صبر العدو في قتال المؤمنين، فعلى المؤمنين أن يغالبوه بالصبر، فيصبروا أكثر منه، حتى يكسروا بصبرهم صلابة صبره.

وأجدر الخصمين المتقاتلين بالظفر أكثرهما صبراً، ما داما متكافئين أو متقاربين في القوة والعدة، يضاف إلى ذلك أن المؤمنين يملكون من القوى المعنوية ضعف ما لدى أعدائهم في الحد الأدنى الواجب، وعشرة أضعاف ما لدى أعدائهم في الحد الأقصى المندوب إليه لدى كمال الإيمان.

ومن الأدلة أيضاً في هذا المجال، قول الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

ففي هذا النص يأمر الله الذين آمنوا بأن يثبتوا ويصبروا إذا لقوا عدوهم في معركة من معارك القتال، ففي الثبات والصبر مع سلامة الغاية، وطاعة الله ورسوله، والاشتغال بذكر الله، ووحدة الصف والقيادة، وتحقيق الشروط المادية التي منها إعداد المستطاع من القوة، يتحقق النصر المحبوب المرغوب، لأن الله عندئذٍ يكون مع المؤمنين مؤيداً وناصراً، ولا يكلهم إلى أنفسهم، دل على ذلك: ﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾.

٤ ــ ومن الأدلة التي تدل على أن الدراسة والبحث العلمي في الظواهر الكونية، والاجتهاد لاستنباط آيات الله فيها، وكذلك الاجتهاد لاستخراج أحكام الشريعة من مصادرها، أمور تحتاج إلى دأبٍ طويل، وصبرٍ جميل، فلا يقوم بها إلا كل صبار، قولُ الله تعالى في سورة (لقمان ٣١):

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ ﴾.

فدل هذا النص على أن البحث في هذه الظواهر الكونية لا بد أن يوصل إلى الإيمان العميق بأن الله هو الحق، ولكن هذا البحث العلمي إنما يتابعه كل صبّـار على البحث والمتابعة، وينتفع بنتائج البحث فيؤمن بالله ويطمئن لعبادته كل شكور لأنعم الله عليه.

فالذي يرى آيات الله في الظواهر الكونية وينتفع بها هو كل صبار شكور.

وكذلك الذي يتدبر آيات الله المنزلة في كتابه، ويستنبط منها ما اشتملت عليه من دلالات وأحكام وعلوم وعظات.

٥ ـ وكظم الغيظ، وإخماد جذوة الغضب، والدفع بالتي هي أحسن، أمور تحتاج إلى حظ عظيم من خلق الصبر، فالذي لا يتحلى بخلق الصبر لا يستطيع أن يكظم غيظه، ولا يستطيع أن يسكن غضبه، ولا يستطيع أن يدفع بالتي هي أحسن، دلت الملاحظة على هذه الحقيقة، ومن الأدلة الإسلامية التي دلت عليها أيضاً قول الله تعالى في سورة (فصلت ٤١):

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾.

فالله تبارك وتعالى يأمر في هذا النص بدفع السيئة بالتي هي أحسن، ثم

يقول: ﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا﴾ فدل بهذا على أن هذه الظاهرة من مكارم الأخلاق أثر من آثار خلق الصبر.

من الملاحظ في المعاملات الاجتماعية بين الناس أن بعضهم قد يسيئون إلى إخوانهم إساءات مختلفة، في ألسنتهم، في أيديهم، في غير ذلك من جوارحهم، في تصرفاتهم المالية أو غير المالية، والإساءة قد تمس النفس، أو تمس العرض والشرف، أو تمس المال والمتاع، أو تمس الأهل والعشيرة، أو تمس أي حق من الحقوق.

والله تعالى يأمر المؤمن في هذا النص بأن يدفع السيئة التي تأتيه من أخيه، بالخصلة التي هي أحسن، والخصلة التي هي أحسن من رد السيئة بمثلها إنما هي العفو والإحسان، أو الإعراض وكف الأخذ والرد في موضوع الإساءة.

وللدفع بالتي هي أحسن ثمراتٌ اجتماعية عظيمة، منها تحويل العدو المجابه بما يسوء ويؤذي إلى نصير مدافع وصديق حميم، وهذا ما نبه عليه وأوضحه قول الله تعالى: ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾.

وما أحوج القادة والموجهين إلى هذا الخلق العظيم، بل ما أحوج كل إنسان إليه، إنه أحد المظاهر الاجتماعية لخلق الصبر، وهو الدواء المرمم لما يبلى أو يتهدم من الروابط الاجتماعية، والمصلح لما يفسد منها، والمجدد لما يفنى منها، ومن أجل ذلك أمر الله به، وأثنى على من يتحلى به ثناءً عظيماً، فقال تعالى: ﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا، وما يلقّاها إلا ذو حظ عظيم﴾ أي: ذو حظ عظيم من مكارم الأخلاق وفضائل السلوك، وهو عند الله يوم الدين ذو حظ عظيم من الأجر والمنزلة الرفيعة في دار النعيم، إذا كان يدفع السيئة بالتي هي أحسن ابتغاء مرضاة الله، والله تبارك وتعالى يكافئه بمثل عمله، فيعفو عن سيئاته، ويكفر له خطيئاته، ويضاعف له أجره أضعافاً كثيرة، كل هذا من الحظ العظيم الذي يناله.

في مقدمة هذا النص جاء قول الله تعالى: ﴿ولا تستوي الحسنة

ولا السيئة﴾ ثم جاء بعده مباشرة قوله تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾ على طريقة تقرير القاعدة الكلية العامة، ثم التوجيه إلى الأخذ بجزئية من جزئياتها.

إن إيراد القاعدة الكلية العامة: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة﴾ بمثابة إقامة الدليل على كمال الدفع بالتي هي أحسن قبل الأمر به، وفي إيراد هذه القاعدة إعلان لحقيقة لا ينكرها عاقل، وهي أن الحسنة تقع في مرتبة الكمال، وأن السيئة تقع في حضيض النقصان، وهذان الضدان لا يستويان، كيف يستويان وأحدهما صاعدٌ شطر القمة، والآخر هابط شطر الحضيض؟!

إذا كان الأمر كذلك ففاعل الحسنة لا يمكن أن يستوي مع فاعل السيئة، ففاعل الحسنة يصعد في معارج المحسنين، وفاعل السيئة يهوي في أودية المسيئين.

ولما كان الإسلام يدعو إلى الكمال الخلقي ويدفع المسلمين إليه، كان من الطبيعي بعد إعلان التفاوت الكبير بين الحسنة والسيئة أن يأتي الأمر بالدفع بالتي هي أحسن.

وفي هذا النص إشارة إلى عامل من العوامل المحرضة على الغضب والانتقام مع وصف العلاج النفسي الناجع، أما العامل المحرض على الشر فهو نزغ الشيطان في داخل الأنفس، وأما علاجه فهو الاستعاذة بالله منه ومن نزغاته، قال الله تعالى: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾.

والسر في هذا العلاج أن الاستعاذة بالله من شأنها أن تذكر به، وبما أمر به، وبما نهى عنه، وبما أعده لعباده المؤمنين المحسنين من أجر عظيم، وهذه الذكرى كافية لأن تطرد وساوس الشيطان، وتصحح مفاهيم الإنسان، وبتصحيح مفاهيمه وصدق إرادة الخير لديه يستقيم سلوكه، يضاف إلى ذلك العون الرباني الذي يوفق الإنسان إلى فعل الخير، ويصرف عنه بواعث الشر.

وفي فضيلة كظم الغيظ والدفع بالتي هي أحسن، حتى درجتي العفو والإحسان الرفيعتين، يقول الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾.

فالمغفرة من الله والجنّة التي أعدّت للمتقين، يظفر بهما الذين ينفقون في السرّاء والضرّاء والذين يكظمون غيظهم، ويعفون عن الناس، يستحقون محبة الله لهم لأنّهم ارتقوا إلى مرتبة الإحسان فكانوا من المحسنين.

ولا يكظم غيظه إلاّ صابر، ولا يعفو عمّن أساء إليه إلاّ صابر، فكظم الغيظ والعفو عن الناس من مظاهر خلق الصبر.

وفي فضيلة إمساك الغضب، وعدم الاندفاع مع نوازغه، ومقابلة إساءة المسيء بالعفو والمغفرة؛ يقول الله تعالى في سورة (الشورى ٤٢):

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

فوصف الله الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون بأنهم إذا ما غضبوا من أحدٍ بسبب إساءة وجهت لهم؛ فإنهم يغفرون، ثـمّ وجّه الله إلى العفو فقال: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ ثـمّ ختم الله هذا النصّ الأخلاقيّ بقوله: ﴿ولمنْ صبر وغفر إنّ ذلك لمن عزم الأمور﴾. فدلّ هذا على أن إمساك الغضب وعدم الاندفاع مع نوازغه؛ من الظواهر السلوكية التي تعتمد على خلق الصبر.

— ٤ —

فضل الصابرين عند الله

لـمّـا كان من أكبر عناصر الامتحان في هذه الحياة الدنيا، امتحان الناس بما يتطلب منهم مقادير مختلفة من الصبر، لتقدير مدى صبر كلٍّ منهم على الطاعات، وصبر كل منهم عن المخالفات، قال الله تعالى في سورة (محمد ٤٧):

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾.

الابتلاء: هو الامتحـان، ونحن في هذه الحيـاة مخلوقون لـلامتحان، والامتحان يستتبع الجزاء، والدار الآخرة هي دار الجزاء الأمثل.

ولـمّـا كان الصبر هو المطلوب في هذا الامتحان كان ذا مكانة عظيمة عند الله.

ومن أجل المكانة العظيمة عند الله لخلق الصبر أعلن الله تبارك وتعالى أنه يحبّ الصابرين، فقال تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾.

وأنه تبارك وتعالى يمـدّهم بعونه وتأييده فقال تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ و ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾.

وقال تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾. و ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

ويوفي الله الصابرين أجرهم بغير حساب، قال تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾.

* وبيّن الرسول صلوات الله عليه فضل الصابرين على البلاء، وما لهم من أجر عظيم عند الله، فمن ذلك ما جاء في الأحاديث النبوية التالية:

١ ــ روى البخاري عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيّة من أهل الدنيا، ثم احتسبه إلا الجنّة»؟!

أي: ثم احتسب أجره عند الله صابراً على قضائه وقدره.

٢ ــ وروى البخاري عن عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون؟ فأخبرها أنه «كان عذاباً يبعثه الله تعالى على من يشاء، فجعله الله تعالى رحمة للمؤمنين، فليس من عبد يقع في الطاعون فيمكث في بلده صابراً محتسباً، يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له، إلا كان له مثل أجر الشهيد».

٣ ــ وروى البخاري عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة».
بحبيبتيه: أي بعينيه.

٤ ــ وروى البخاري ومسلم عن عطاء بن أبي رباح، قال: قال لي ابن عباس رضي الله عنهما: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ فقلت بلى. قال: هذه المرأة السوداء، أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع، وإني أتكشف، فادع الله تعالى لي. قال: «إن شئت صبرت ولك الجنّة، وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك» فقالت: أصبر. وقالت: إني أتكشّف، فادع الله أن لا أتكشف، فدعا لها.

الصبر عند الصدمة الأولى:

ولـمّا كان مصير كلّ مصاب أن ينسى المصيبة بعد حين، ما لم يكن

ألمها جائشاً متجدداً كان حساب قيمة الصبر مقدّراً عند الصدمة الأولى، لا بعد أن يضمحلّ أثر المصيبة بمرور الزمن، وهذا ما بيّنه الرسول ﷺ.

روى البخاري ومسلم عن أنس قال: مر النبي ﷺ على امرأة تبكي عند قبر ــ وفي رواية لمسلم: تبكي على صبي لها ــ فقال: «اتقي الله واصبري» فقالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمصيبتي ــ ولم تعرفه ــ فقيل لها: إنّه النبي ﷺ فأتت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك. فقال: «إنّما الصبر عند الصدمة الأولى».

ــ ٥ ــ

خلق الصبر من الشروط التي تؤهل لمرتبة القيادة العامة والإمامة الدينية

أحقّ الناس بالتحلّي بخلق الصبر من يتصدّى للقيادة العامة، أو للإمامة الدينية، وذلك لكثرة ما يتعرّض له من أمور تتطلب منه صبراً، فإذا لم يصبر فشل وسقط عن مرتبة القيادة أو الإمامة.

هذه هي سنّة الاجتماع البشري، التي دلت عليها الملاحظة، والتجارب التاريخية، والنصوص الإسلامية، وهي كما تنطبق على الأفراد تنطبق على الجماعات والأمم، ومن النصوص التي دلت على ذلك ما يلي:

١ ــ يقول الله تعالى في سورة (السجدة ٣٢):

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

فدل هذا النصّ القرآني على أن الصبر قد أهّل أربابه لمرتبة الإمامة الدينية، إذ كانوا مهديين بهدى كتاب الله، ولذلك جعل الله منهم أئمة يهدون بأمره.

٢ ــ وفي سياق الكلام على قصة يوسف وإخوته قال الله تعالى في سورة (يوسف ١٢):

﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

فدلّ هذا النصّ على أن بلوغ يوسف عليه السلام إلى مرتبة القيادة العامّة، قد كان مكافأةً من الله له، على ما كان منه من تقوى وصبر، إذ أهّله خلق الصبر لبلوغ هذه المرتبة.

٣ ــ ويقول الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾.

فهؤلاء قوم كانوا مستضعفين مذلّين على أيدي فرعون وجنوده، فجاءتهم الهداية، فاستجابوا لربهم، وصبروا على أذى قومهم لهم ابتغاء مرضاة الله، فأنجاهم الله من عدوهم، ثمّ منحهم القيادة والسيادة، وأورثهم حكم البلاد التي بارك فيها، وقد ذكر الله السبب في منحهم هذا الإرث العظيم فقال: ﴿بما صبروا﴾.

ــ ٦ ــ
خلق الصبر من الأركان الأساسية التي يجب أن يتحقق بها الدعاة إلى الله

يجب أن يتحلّى الدعاة إلى الله وإلى كلّ حقّ وخير وفضيلة بخلق الصبر، فكل حامل لواء دعوة لا يتحلّى بخلق الصبر محكوم عليه بالفشل، ومحكوم عليه بعدم النجاح في تأدية رسالته، هذه سنّة ثابتة من السنن التي

يعرفها كلّ الدعاة الناجحين. ورب دعوة باطلة كتب لها النجاح بسرّ صبر أربابها، ورب دعوة حقّة لم يُكتب لها النجاح بسبب أنّ حملتها كان ينقصهم الصبر.

ولذلك كان الدعاة إلى الله من الأنبياء والمرسلين متحلّين بخلق الصبر في دعوتهم، وفي أداء رسالتهم، وتاريخهم في دعواتهم يثبت هذه الصفة لهم، وأمر الله لهم بالصبر يؤكد ذلك.

ولئن كان بعض الرسل أكثر صبراً وأكثر عزماً من بعض، فإنهم جميعاً قد تحلّوْا بنسبة عالية من الصبر، وإن تفاوتوا فيما بينهم، فمنهم أولو العزم، ومنهم دون ذلك.

صبر نوح على قومه:

وقد ضرب نوح عليه السلام مثلاً فريداً في الصبر على قومه، إذ بلغ من صبره في دعوته لأجيال قومه أنه لبث يدعوهم إلى الله ألف سنة إلاّ خمسين عاماً، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة (العنكبوت ٢٩):

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾.

وجاء في القرآن تفصيل لواقع صبره في دعوته لقومه، ويحكي الله دعاءه لربه فيقول تعالى في سورة (نوح ٧١):

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴾.

صبر إبراهيم:

وضرب إبراهيم عليه السلام مثالاً رائعاً في الصبر، إذ تعرّض من أجل دعوته لربّه للقذف في النار العظيمة، فصبر، ولم يضطرب، ولم يجزع،

ولم يشْكُ، وأنجاه الله بآية كبرى؛ فقال الله للنار: ﴿كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ فكانت برداً وسلاماً عليه، ثم هاجر من بلاده التي يسيطر عليها النمروذ، وقال: «إني ذاهب إلى ربّـي سيهدين».

صبر سائر المرسلين:

وضـرب موسى وعيسى وكثـير من المرسلين أمثلة رائعـة في الصبر، فلم يهنوا، ولم يضعفوا، ولم يقصّروا فيما أمرهم الله به من التبليغ.

وضرب سيدنا محمد ﷺ أروع أمثلة الصبر في دعوته قومه إلى سبيل ربه.

وضرب سائر أنبياء الله ورسله ومعهم ربّيّون كثيرون أمثلة عالية في الصبر، حتى يونس عليه السلام، فإنه قد صبر في دعوته لقومه، إلاّ أنه استعجل قليلاً، فلم يعتصم بما كان ينبغي له من الصبر، فترك قومه مغاضباً لهم، إذ ظنّ أنّ الله لا يضيّق عليه في ذلك، ومن أجل ذلك آخذه الله، فقضى عليه بأن يقذف في اليمّ، وأن يلتقمه الحوت وهو مُليم، ثمّ أنجاه الله فنبذه بالعراء وهو سقيم، وأنبت عليه شجرة من يقطين. ولـمّـا شفاه الله أَمَره بأن يرجع إلى قومه، وأخبره بأنهم قد اتعظوا بنذُر العذاب، وأصبحوا مؤمنين.

تكليف الدعاة بالصبر:

١ ــ أمر الله محمداً ﷺ بأن يصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، حتى يؤدّي واجب التبليغ والهداية إلى سبيل الله أحسن أداء، فقال له في سورة (الأحقاف ٤٦):

﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

ففي هذه الآية يعظ الله رسوله محمداً ﷺ بأن يصبر في دعوته إلى سبيل ربه، كما صبر أولو العزم من الرسل الذين سبقوه، صلوات الله عليهم أجمعين.

ولا تستعجل لهم: أي ولا تستعجل من ربّك معاقبة الذين كذبوك وآذوك من قومك، فإنّ طبيعة دعوة الأمم إلى سبيل الهدى تستوجب التحلي بخلق

الصبر، إذ ليس من السهل أن تستجيب الأمم للدّعوات التي تخالف أوضاعها، وتقاليدها، ومفاهيمها، قبل مرور فترة زمنية كافية لإحداث التغييرات المطلوبة. إنّ التغيير لأوضاع الأمم وتقاليدها، وعقائدها ومفاهيمها، لا بدّ أن يسبقه علاج واسع النطاق تتخذ فيه مختلف الوسائل التربوية الحكيمة، الإقناعية والتجريبية والإلزامية، مع ما يرافقها من ترغيب وترهيب، وهذا يحتاج إلى فترة زمنية كافية لبناء الشعوب بناءً جديداً، وتغيير أوضاعها الموروثة. فاستعجال النتائج، أو استعجال العقاب للأمم، خروجٌ عن سنّة الحياة، ومعارضة لأحد القوانين الجماعية الثابتة. ولذلك كان الدعاة إلى الله مأمورين بالصبر، مهما نالهم من أقوامهم من أذىً ونُكر، ومتى انتهت الفترة الكافية للإصلاح دون أن تستجيب الأمم لدعاتها الربانيين يأتي النصر الإلهي لأولياء الله على أولياء الشيطان، والله يمهل مهما اقتضت الحكمة الإمهال، حتى إذا غدا الإمهال أمراً غير ذي فائدة ترجى فإن الله تبارك وتعالى لا يمهل، بل يأخذ بالعقاب العادل، ويؤدب على البغي والطغيان والفساد في الأرض. هذا ما أشار إليه قول الله تعالى: ﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلاّ ساعة من نهار﴾ وهذا الذي يرونه في الدنيا إنما هو الهلاك، ويدلّ عليه البلاغ الذي جاء في آخر النص: ﴿بلاغ: فهل يُهلَك إلا القوم الفاسقون﴾.

ومن البديع في هذا النصّ أنّه تضمّن بيان سبب إهلاك الله للأمم، مع الحصر الدّال على أنه ليس للإهلاك سبب غير الفسق الذي ينتشر فيها، ويلازمها حتى يكون أحد صفاتها الثابتة. وقد أُعلنت هذه السنة من سنن الله في الأمم على صيغة بلاغ.

أي: لا يُهلك إهلاكاً عامّاً غيرهم.

٢ ـ ويوجّه الله الدعاة للتحلّي بفضيلة خلق الصبر، فيقول لرسوله محمد ﷺ في سورة (النحل ١٦):

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ

فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

ففي هذا النص يأمر الله رسوله بأن يصبر في مجال دعوته إلى سبيل ربه فيقول له: ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله، ولا تحزن عليهم، ولا تك في ضيقٍ مما يمكرون﴾.

ويُلحق بالرسول كل داعٍ إلى الله.

ويظهر من هذا النص أن موقف الرسول مع قومه يتلخص بأمور أربعة، ولكل منها توجيه خاص به أرشد إليه النص:

الأمر الأول: هو وظيفة الرسول الأولى بالنسبة إلى قومه، وهي الدعوة إلى سبيل ربه.

والتوجيه الرباني حول هذه الوظيفة يتلخص بأن تكون الدعوة مقترنة بالحكمة وبالموعظة الحسنة في كل أحوالها.

ثم إذا اقتضى الحال شيئاً من الجدال فالتوجيه عندئذ يطالب بأن يكون الجدال بالتي هي أحسن.

هذا ما دل عليه قول الله تعالى في النص: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾.

الأمر الثاني: هو ما يتعرض له الرسول من أذى قومه له.

والتوجيه الرباني حول هذا الأمر يتلخص بخطتين:

إحداهما تدخل في باب العدل، والأخرى تدخل في باب الإحسان.

وخطّة العدل تسمح بالمعاقبة بالمثل، وقد دل عليها في النص قول الله تعالى: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ إلّا أن الله تبارك وتعالى يحث في مجال الدعوة على اتخاذ خطة الإحسان.

وخطة الإحسان تقضي بالاعتصام بالصبر، ومع الصبر قد يكون العفو عن السيئة، ودل على خطة الإحسان قول الله تعالى في النص: ﴿ولئن صبرتم لهو خير للصابرين، واصبر وما صبرك إلا الله﴾.

وفي هذا إرشاد إلى أن اكتساب فضيلة الصبر على الأذى إنما يكون بالاستعانة بالله ومراقبة ما أعد الله من أجرٍ للصابرين.

الأمر الثالث: هو حالة الرسول النفسية تجاه عدم استجابة القوم لدعوته.

وقد استدعت هذه الحالة توجيهاً ربانياً خاصاً له بأن لا يحزن على من أصر على عناده وكفره، بعد معالجته بوسائل الدعوة المختلفة، وقد جاء هذا التوجيه في قول الله تعالى في النص: ﴿ولا تحزن عليهم﴾.

الأمر الرابع: هو حالة الرسول العامة تجاه أنواع المكر التي يدبرها المعاندون المكذبون، ضد الرسول ودعوته.

وقد استدعت هذه الحالة توجيهاً خاصاً أيضاً للرسول بأن لا يكون في ضيق مما يمكرون، فإن الله ناصره ومفسدٌ خطط مكر أعدائه، وقد جاء هذا التوجيه في قول الله تعالى في النص: ﴿ولا تكُ في ضيق مما يمكرون، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾.

وما خوطب به الرسول في ذلك كله يعتبر خطاباً لكل الدعاة إلى الله، والمفروض في كل مسلم أن يكون داعياً إلى الله على مقداره.

ليس من شأن الدعاة إلى الله اليأس والقنوط:

لما كانت وظيفة الداعي إلى الله التبليغ، ولم تكن وظيفته تحويل الناس إلى الهداية ولا إكراههم عليها، ولما كانت الدعوة إلى الله في المجتمع الإنساني لا تعدم من يستجيب إليها مهما قل المستجيبون، كان من واجب الداعي أن لا ييأس ولا يقنط مهما وجد من الناس إعراضاً، ومهما قابلوه بالجحود والإنكار والرفض حتى الهزء والسخرية والاضطهاد والتعذيب. هذا إذا كانت دعوته دعوة صادقة مخلصة لله تعالى، يبتغي بها رضوان الله والدار الآخرة. أما إذا كانت

دعوته مشوبة بأغراض دنيوية ومصالح عاجلة فإن اليأس والقنوط سيستبدان بنفسه متى طال عليه الأمد دون أن يظفر بما يرجوه، ومع اليأس والقنوط قد ينهزم من ساحة الدعاة، وقد يتحول إلى طريق آخر يرجو منه ما ينشده من متاع الحياة الدنيا، وقد يستبصر فيصلح نيته ويجدد عزيمته، ويبدأ الدعوة إلى الله مخلصاً دون أن يطلب منها غير مرضاة الله والدار الآخرة ونعيمها.

وقد رأيت فريقاً من الذين تصدوا للدعوة إلى الله يشكون إعراض الناس عنهم، وعدم استجابتهم لهم، وعدم تقدير الناس لجهادهم ولما تعرضوا له من تعذيب على أيدي الظلمة من أعداء الله، وينحون باللائمة على جماهير المسلمين الذين لم يؤدوا لهم ثواب جهادهم ودعوتهم إلى الله، كأنهم كانوا يعملون للناس لا لله! ويريدون أن يستثمروا من الناس دعوتهم إلى الله.

ويقول قائلهم: لقد فسد الناس، وأمسى الإصلاح متعذراً، وأنه لا خلاص للعالم مما تردّى إليه إلاّ بمعجزة تتولاها المقادير الربّانية بشكل مباشر، إمّا بتدمير أهل الشرّ والفساد، وإمّا بآيات خارقة ترد الناس إلى الله، وتخرجهم من الظلمات إلى النور.

وهذا من اليأس الذي لا يكون من صفات الدعاة المخلصين، الذين يدعون إلى الله على هدى وبصيرة، ويبتغون مرضاة الله وثواب الآخرة.

إنّ اليأس والقنوط من رحمة الله لا يستبدّان بقلب مؤمن بالله صادق اليقين، هذه عقيدة من عقائد الإيمان وثمرة نفسية من ثمراته القريبة، لذلك قال إبراهيم عليه السلام للرسل الملائكة الذين بشّروه بغلام حليم كما جاء في سورة (الحجر ١٥):

﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ؟ ! ﴿٥٦﴾ ﴾.

وقال يعقوب لبنيه كما جاء في سورة (يوسف ١٢):

﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

وكان هذا في أمور دنيوية فكيف بالأمور التي تتعلق بالدعوة إلى الله، وهداية الخلق إلى الحقّ.

لقد بدأت الدعوة الإسلامية في عالم كلّه فساد وضلال، وجميع القوى المادّية فيه بأيدي أهل الشرّ والكفر، ثم انطلقت هذه الدعوة انطلاقاً إنسانياً محفوفاً بعناية الله وتوفيقه، وقد كانت أوّل الأمر غرسة واحدة طيبة مباركة، والعالم من حولها كلّه مخالف لها ومقاوم لدعوتها، ثمّ أخذت هذه الغرسة الطيبة تنمو نمّواً طبيعيّاً عجيباً، وصمدت للهزّات العنيفة، وصبرت على أنواع الأذى من أعدائها وخصومها، حتى شقّت طريقها الصاعدة بجهد جهيد وصبر مديد فاكتسحت وملكت ما كان في أيدي الشرّ من أرض ومالٍ وقوى مادّية، ثمّ دانت الأمم لها، واهتدت بهديها، وتمّ لها ما كانت تصبو إليه بالإيمان والعمل والصبر والأمل والثقة بالله والاعتماد عليه.

فكيف وعالمنا اليوم فيه بقايا كثيرة من الخير في كلّ موقع من الأرض، على رغم الشرّ المسيطر المالك لمعظم القوى المادّية؟ وفيه عناصر كثيرة قريبة من الحق، وفي الناس استعداد لتقبّل الحقّ بعد انهزام المذاهب الإنسانية في ميادين تجاربها لإسعاد البشرية!! فما على الذين يريدون القيام بواجب الدعوة إلى الله على هدى وبصيرة، إلاّ أن يعملوا بإخلاص وصبر، ويهتدوا في العمل بهدى رسول الله ﷺ، مع الأمل بنصر الله، والثقة بالله، والاعتماد عليه.

أما اليأس والقنوط فلا يستولي إلاّ على قلوب كافرة بوعد الله، والله قد وعد المؤمنين بالنصر، إذا هم حققوا في أنفسهم شروط استحقاقهم تأييد الله ونصره. أمّا إذا لم يحققوا في أنفسهم هذه الشروط فإنّ يأسهم من أنفسهم وليس يأساً من روح الله.

ولدى المراقبة الدقيقة للنتائج التي وصل إليها الدعاة إلى الله في عصرنا هذا، نجد أنها أكثر مما يستحقّون بكثير، إذا قسنا نِسَب الأعمال والإخلاص فيها، وما آتت من ثمرات مادّية ومعنوية، وإذا قسناها أيضاً بأعمال أهل الضلال والشرّ، وتضحياتهم التي يقدّمونها لنشر الفساد في الأرض، وما يبذلون

من مالٍ وجهد، وما يضعون من مخطّطات، وما يسخّرون من طاقات. فالله لا يضيع مثقال ذرّة من عمل، ولكلّ عامل نصيب من عمله، ضمن قوانين ثابتة لا تتخلّف، سواء أكان عمله في الخير أو كان عمله في الشرّ، إلّا أن هذه القوانين الثابتة تقضي بأنّ الأعمال في الخير يضاعف الله ثمراتها. أمّا الأعمال في الشرّ فتثمر على مقاديرها، وقد يبدّد بعضها بعضاً، ويفني بعضها بعضاً، عوناً لأهل الخير ومساعدة لهم إذا وُجد فيهم عاملون مخلصون.

ـ ٧ ـ

الحلم، من فروع خلق الصبر

ومن فروع خلق الصبر الحلم، إذ الحلْم هو الأناة والتثبت في الأمر، وما يلزم عن ذلك من ضبط للنفس عن الغضب، وكظم للغيظ، وعفوٍ عن السيئة.

والحليم هو ذو الأناة الذي لا يستفزّه الغضب إذا واجه ما يغضبه، ولا يتسرع بالعقوبة، بل يضبط نفسه، ويتريث، وبعد الأناة يتصرف على وفق مقتضيات الحكمة، وكلّ ذلك لا يكون إلّا بضبط النفس عن الاندفاع بعوامل الغضب، وهو وجه من وجوه الصبر.

ولـمّا كان الحلم أحد فروع الصبر جاء في أسماء الله الحسنى اسم الله (الحليم) وقد ذكر العلماء أن معناه الصبور الذي لا يستخفه سبحانه عصيان العصاة ولا يستفزّه الغضب عليهم، ولكنّه جعل لكلّ شيء مقداراً فهو منتهٍ إليه. وذكروا أيضاً أن معناه الذي لا يعجل بالانتقام من عباده المجرمين، ليفسح لهم مجالات التوبة والندم، وليقيم الحجة عليهم بأنّهم لم يُصلحوا قلوبهم وأعمالهم بعد الحلم الطويل بهم. وهذه المعاني لا تخرج عن معاني الصبر، وفي وصف الله تعالى بأنه حليم قال عزّ وجلّ في سورة (الأحزاب ٣٣):


﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ۝٥١﴾.

الصفات الخلقية المضادة لصفة الحلم:

أمّا الصفات الخلقية المضادة لصفة الحلم فأمرها ظاهر من تعريف خلق الحلم. وهي:

١ ـ العجلة الرعناء في تصريف الأمور، وفي القيام بالأعمال، وفي الحكم على الأشياء، واستعجال الأشياء قبل أوانها، والسرعة في العقاب دون إمهال تقتضيه الحكمة التربوية.

٢ ـ الطيش كلّما ثارت في النفس ثائرة، وكلّما تحرّك في النفس دافع من الدوافع لتحقيق مطلب من المطالب.

٣ ـ سرعة الغضب حينما يصطدم الإنسان بما يثير غضبه أو يخالف هواه.

وليس من الحلم التباطؤ والكسل، والتواني والإهمال، وتبلّد الطبع عند مثيرات الغضب، ونحو ذلك، بل هذه أمور مضادة أيضاً لخلق الحلم.

إنّ الحلم فضيلة تقع بين رذيلتين متباعدتين، في طرفين متقابلين، فمن وراء يمين الحلم يأتي التباطؤ والكسل، والتواني والإهمال، وتبلّد الطبع عند مثيرات الغضب، ونحو ذلك. ومن وراء يسار الحلم يأتي التسرّع في الأمور، واستعجال الأشياء قبل أوانها، والاستجابة السريعة لمثيرات الغضب، ونحو ذلك.

ولما كان الحلم هو الفضيلة الخلقية التي تأتي بالخير، وتدلّ على سلامة المزاج واعتداله، وعدم جنوحه ذات اليمين أو ذات الشمال، كان ما يتجاوزه يميناً أو شمالاً منافياً له، ونقصاناً خلقيّاً لا يأتي بالخير المطلوب، بل قد يأتي بالشرّ والضرّ أو الأذى.

فالذي جعل الحلم فضيلة خلقية هو اعتداله، ومسايرته لمقتضى العقل السليم، والآثار النافعة المفيدة الخيّرة التي تترتّب عليه.

وباستطاعتنا أن نصوّر الحلم بأنّه فضيلة خلقية نافعة، تقع في قمة عالية

دونها منحدرات. فهو أناة حكيمة بين التسرّع والإهمال أو التواني، وضبطٌ للنفس بين الغضب وبلادة الطبع، ورزانةٌ بين الطيش وجمود الإحساس، وهكذا.

وللحلم دائرة ذات حدود فما خرج عنها إلى غيرها أضرّ وأفسد، وخرج من دائرة الفضيلة.

وما قد يسمّى حلماً إذا أدّى إلى ما لا تحمدُ عقباه فهو ليس بحلم، وهو حينئذٍ ليس فضيلة خلقية، وتسميته حلماً خطأ في التقدير، بل هو في حقيقته تباطؤٌ أو إهمالٌ لا حلم.

هل للذكاء علاقة في اكتساب خلق الحلم؟

الذي تؤيده الملاحظة وتدعمه التجربة، أنّه لا يوجد ارتباط حتميّ بين الأخلاق عامّة ومنها خلق الحلم وبين مستويات الذكاء، لأننا نجد مختلف المتناقضات الخلقية في كلّ مستوى من مستويات الذكاء، فقد نجد الطيش وسرعة الغضب عند الأذكياء، بتأثير طباعهم الخلقية، وقد نجد الحلم عند متوسطي الذكاء ومن هم دون ذلك، بتأثير طباعهم الخلقية، وهكذا فقد نجد الحلم وضده، وقد نجد الشجاعة وضدّها، والجود وضدّه، والأمانة وضدّها، في كلّ مستويات الذكاء، وذلك كلّه يرجع إلى الطبع الفطري أو المكتسب.

لكن استجابة الأذكياء لاكتساب خلق الحلم وغيره من فضائل الأخلاق، أسرع من استجابة ضعاف الذكاء في كثير من الأحيان، مع تساوي نسبة الطبع الفطري، وذلك لأن الأذكياء أقدر على استيعاب فوائد الحلم أو غيره من فضائل الأخلاق، وإدراك المنافع التي تجنى منه.

واكتساب خلق الحلم شأنه كشأن اكتساب سائر الأخلاق، فهي جميعاً قابلة للاكتساب كما سبق في الباب الأول من هذا الكتاب، وقد جاء في الأثر بخصوص الحلم: «الحلمُ بالتحلّم، والعلم بالتعلّم» أي: إنّ التدرّب على الحلم والتكلّف له من الوسائل التي تنقل غير الحليم فتجعله حليماً بنسبة ما.

وممّا لا شكّ فيه أنّ للإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر دوراً كبيراً جداً مؤثراً وفعّالاً في اكتساب كل الفضائل الخلقية والسلوكية، وذلك لأن الإيمان العميق الصادق يولّد في الأنفس عاطفة قوية قادرة على مغالبة عواطف النفس الأخرى، ومقاومة طباعها وغرائزها، أو توجيهها لما فيه أفضل العواقب وأحسن النتائج، أو التغلّب عليها وإلجامها بلجام التقوى.

فالمؤمن الذي يعلم فضل الحلم عند الله، ويلاحظ الثواب العظيم الذي أعده الله للحلماء، لا بدّ أن يجد في نفسه اندفاعاً قويّاً لاكتساب فضيلة الحلم، ولو على سبيل التكلّف ومغالبة النفس، وبعد التدرّب خلال مدّة من الزمن قد تطول أو لا تطول فقد يصبح الحلم سجيّة خلقية مكتسبة، ولو لم يكن في الأصل طبعاً فطرياً.

بين الحلم والعقل:

ولكن يوجد ارتباط إيجابي قوي بين الحلم والعقل، وذلك لأن العقل السويّ هو الذي يعقل صاحبه عن الاندفاع وراء عواطفه وغرائزه، أو وراء انفعالاته وشهواته، أو وراء طبائعه الناريّة، أو وراء كل ما يميل به إلى الجنوح والانحراف.

فالعقل شيء والذكاء العلمي أو الذكاء العملي شيء آخر، وقد سبق بيان هذا في مبحث خاص.

توجيه الإسلام للتخلّق بخلق الحلم:

١ ـ من تمجيد الحلم وتعظيم أمره، وتمجيد الأناة التي هي من الحلْم أو قرينته، روى الإمام مسلم في صحيحه، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ لأشج عبدِالقيس: «إنّ فيك خصلتين يحبهما الله: الحلمَ والأناة».

وكلام الرسول ﷺ في هذا من البيان التفصيلي لقول الله تعالى: ﴿والله يحب الصابرين﴾؛ لأن الحلم والأناة من فروع الصبر كما وضح لدينا.

٢ ـ وكان الرسول ﷺ حليماً، وقد أعطانا دروساً عملية وقولية في خلق الحلم، منها قصة الأعرابي الجاهل بحرمة المساجد، إذ بال في المسجد النبوي.

روى البخاري، عن أبـي هريرة، قال: بال أعرابـيٌّ في المسجد، فقام الناس إليه ليقعوا فيه، فقال النبـي ﷺ: «دعوه، وأريقوا على بوله سَجْلاً من ماء، فإنّما بُعثتم ميسّرين، ولم تبعثوا معسّرين».

السّجْل: هو الدلو المملوء ماءً.

فقد علم الرسول ﷺ في هذا أصحابه كيف يكون الحلم بالجاهلين، وكيف يكون الرفق بهم، وكيف يجب أن يكون الدعاة إلى الله والحقّ والخير والفضيلة ميسّرين لا معسّرين.

وروى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابـي فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مَهْ، مَهْ، فقال رسول الله ﷺ: «لا تُزرموه، دعوه» قال أنس: فتركوه حتى بال، ثمّ إنّ رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول والقذر، إنما هي لذكر الله، والصلاة، وقراءة القرآن» أو كما قال رسول الله ﷺ.

قال أنس: وأمر رجلاً من القوم فجاء بدلوٍ من ماءٍ فَسَنَّهُ عليه.

لا تُزْرِمُوه: أي لا تقطعوا عليه بوله.

فسَنَّهُ عليه: أي فصبّه على المكان الذي بال الأعرابـي فيه، لتطهير المكان من النجاسة.

في هذه الرواية عن أنس زيادة رائعة، تبين حكمة الرسول التربوية لهذا الأعرابـي الجاهل بآداب المساجد، وهي تدلُّ على حلم الرسول ﷺ وعلى رفقه وحسن سياسته، وهذا الخلق العظيم هو الخلق الذي ملك به قلوب أصحابه، وفرض به احترامه على أعدائه.

٣ ــ ومن حلم الرسول ﷺ عدم دعائه على الذين آذوه من قومه، وقد كان باستطاعته أن يدعو عليهم فيهلكهم الله، ولحلمه بهم غاية يهدف إليها، فهو يرحمهم لعلهم بعد مدّة يؤمنون فينجون من عذاب النار، فيحلُم بهم رجاء إصلاحهم.

روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن مسعود قال: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبيّاً من الأنبياء صلوات الله عليهم، ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدّم عن وجهه ويقول: «اللّهم اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون».

وروى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أنّها قالت للنبيّ ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشدّ من أحد؟. قال: «لقد لقيتُ من قومك، وكان أشدّ ما لقيته منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليلَ بن كُلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلاّ وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، وإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني فقال: إنّ الله تعالى قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلّم عليّ ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملَكُ الجبال، وقد بعثني ربّي إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت، إن شئْتَ أطبقتُ عليهم الأخشبين (أي: الجبلين المحيطين بمكة) فقال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً».

وهكذا كان حلم الرسول ﷺ حلماً عظيماً، في أقسى حالات الشدة التي واجهها من قِبل قومه.

وسيأتي مزيد من الأمثلَة على حلم الرسول صلوات الله عليه.

٤ ــ وكما رغّب الإسلام بالحلم وحثّ عليه ومجّده حذّر من الأخلاق المنافية له، وعمل على تربية المسلمين تربية عمليّة تأخذ بأيديهم حتى يكونوا حلماء.

الغضب:

فمن التحذيرات النبوية من الغضب، أي: من الاستجابة لدوافع الغضب، والغضب منافٍ للحلم، ما رواه البخاري عن أبي هريرة، أنّ رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني، قال: «لا تغضب»، فردد ذلك مراراً، فقال: «لا تغضب».

إن الرسول ﷺ طبيب حكيم، والطبيب الحكيم هو الذي يتبصر بواقع حال مريضه، فيصف له العلاج المناسب لحالته المرضية، والظاهر أن هذا الرجل الذي طلب من الرسول أن يوصيه كان الغضب أقوى أمراضه الخلقية، ومن أجل ذلك اقتصر الرسول ﷺ على قوله له: «لا تغضب».

ومن الحقّ أنّ ضبط النفس عن الاندفاع بعوامل الغضب بطولة لا يستطيعها إلا الأشداء أقوياء الإرادة، والمؤمنون أقوياء الإيمان، فليس من السهل إذا غضب الإنسان أن يضبط نفسه ويكف غضبه، وليس من السهل إذا اغتاظ الإنسان أن يضبط نفسه ويكظم غيظه، ويكف عن الانتقام ممّن أغضبه أو غاظه.

ولذلك جعل الرسول ﷺ البطولة في الناس ضبط النفس عن الاندفاع بعوامل الغضب، وعرّف الصُّرعة من الرجال وهو بطل المصارعة، بأنه الذي يملك نفسه عند الغضب.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الشديد بالصُّرَعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب».

وروى مسلم عن عبدالله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: «ما تعدّون الصُّرَعة فيكم؟». فقالوا: الذي لا تصرعه الرجال، فقال الرسول ﷺ: «ولكنّه الذي يملك نفسه عند الغضب».

العرب يطلقون على بطل المصارعة الذي يصارع الناس فيغلبهم كلمة (صرعة) ويُكَبّرون أمره ويعظمون شأنه، فاستغل الرسول ﷺ إعجاب الناس بالرجل الصُّرعة وتقديرهم له، ثمّ حوّلهم عنه إلى البطل الحقيقي وهو الذي يملك نفسه عند الغضب، وذلك لأن ملك النفس عند الغضب بطولة إنسانية فعلاً، تعتمد على العقل وقوة الإرادة، أما بطولة المصارعة فهي امتياز جسدي يعتمد على قوة العضلات والتدريب الجسدي.

ولـمّا كانت طباع الناس تتفاوت في هذا المجال، أعطى الرسول

صلوات الله عليه تقسيماً بديعاً لها، فجعل القسمة رباعية، فقسّم الناس إلى أقسام أربعة:

الأول: بطيء الغضب سريع الفيء، أي: سريع الرجوع إلى حالة الهدوء واعتدال المزاج، وهذا خير الأقسام.

الثاني: سريع الغضب سريع الفيء، وسرعة الغضب خُلُق مذموم، إلا أن سرعة الفيء فضيلة محمودة، فهذه بهذه.

الثالث: بطيء الغضب بطيء الفيء، أمّا بطء الغضب فخلق محمود يدل على الحلم، لكن بطء الفيء خلق مذموم يدل على الحقد وعدم التسامح، فهذه بهذه، ويظهر أن هذا القسم معادل للقسم الثاني.

الرابع: سريع الغضب بطيء الفيء، وهذا شرّ الأقسام، لأنه جمع الداءين معاً، وما اجتمع الداءان إلّا ليقتُلا، فسرعة الغضب خلُق مذموم، وبطء الفيء خلُق مذموم، ويا بُـؤس من تلجئه الضرورة إلى معاشرة هذا القسم من الناس.

هذا التقسيم نجده في حديث رواه الترمذي، أنّ النبي ﷺ خطب في الناس عصر يومٍ من الأيام، فكان ممّا قاله لهم:

«إن بني آدم خُلقوا على طبقات شتّى، ألا وإن منهم البطيء الغضب سريع الفيء، والسريع الغضب سريع الفيء، والبطيء الغضب بطيء الفيء، فتلك بتلك، ألا وإن منهم بطيء الفيء سريع الغضب. ألا وخيرهم بطيء الغضب سريع الفيء، وشرّهم سريع الغضب بطيء الفيء. ألا وإن منهم حسن القضاء حسن الطلب، ومنهم سيّء القضاء حسن الطلب، ومنهم سيّء الطلب حسن القضاء، فتلك بتلك. ألا وإنّ منهم سيّء القضاء سيّء الطلب. ألا وخيرهم الحسن القضاء الحسن الطلب، وشرّهم سيّء القضاء سيّء الطلب. ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم، أما رأيتم إلى حُمرة عينيه وانتفاخ أوداجه؟ فمن أحسّ بشيءٍ من ذلك فليلتصق بالأرض».

نلاحظ في هذا الحديث لوناً من ألوان العلاج لثورة الغضب، وصفه الرسول ﷺ ألا وهو اللصوق بالأرض، والغرض منه تجميد كلّ حركة يمكن أن ينجم عنها آثارٌ غضبية ماديّة.

وفي حديث آخر أوصى الرسول ﷺ بالوضوء علاجاً لثورة الغضب، والغرض منه تبريد حرارة الغضب، والانشغال بأمر من أمور العبادة يصرف النفس عن توترها الغضبي، وانفعالها الناري.

روى أبو داود عن عطيّة بن عروة السعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الغضب من الشيطان، وإنّ الشيطان خلق من نار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ».

ويوجد علاج نبوي ثالث لحالة الغضب، وهو الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم.

روى البخاري ومسلم عن سليمان بن صُرَدٍ قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ ورجلان يستبّان، وأحدهما قد احمرّ وجهه وانتفخت أوداجه، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد» فقالوا له: إن النبي ﷺ قال: تعوّذ بالله من الشيطان الرجيم.

ويوجد علاج نبوي رابع لحالة الغضب، وهو علاج قائم على الترغيب بالأجر العظيم للذين يكظمون غيظهم ابتغاء مرضاة الله تعالى.

روى أبو داود والترمذي بإسناد حسن عن معاذ بن أنس، أن النبي ﷺ قال: «من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله سبحانه على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيّره من الحور العين ما شاء».

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما تجرّع عبد أفضل عند الله عز وجلّ من جرعة غيظٍ يكظمها ابتغاء وجه الله تعالى».

وهذا العلاج هو العلاج القرآني، وقد جاء في قول الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾.

ومن المفاهيم النبوية الربط بين الظواهر الخلقية وبين الإيمان، للدلالة على أن الإيمان الصحيح الصادق يدفع إلى مكارم الأخلاق، كما أن استجابة الإنسان لدوافع الرذائل الخلقية، وانسياقه معها، يؤثر على الإيمان تأثيراً سيئاً.

روى البيهقي في شعب الإيمان عن بهز بن حكيم، عن أبيه عن جدّه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الغضب ليفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل».

من روائع الأمثلة في الحلم:

١ ــ بلغ إبراهيم عليه السلام من الحلم مبلغاً عجيباً، حتى وصفه الله بقوله: ﴿إن إبراهيم لحليم أواه منيب﴾.

من ذلك أنه لـمّا أراد الله إهلاك قوم لوط عليه السلام، إذ بلغوا من العناد والإصرار على الكفر والفسوق والعصيان مبلغاً عظيماً، استحقوا به إنزال العقاب العام بهم، وأصبح استصلاحهم عملاً غير مجدٍ فيهم، أرسل الله إليهم ملائكة العذاب، فمرّوا بأمر الله على إبراهيم عليه السلام، قبل أن يذهبوا إلى قوم لوطٍ ابن أخيه. ولكنهم دخلوا على إبراهيم وهم متشكّلون بأشكال الناس، فظنّهم ضيوفاً من الناس، فأسرع وقدّم لهم القرى عجلاً مشوياً، غير أنهم ملائكة لا يأكلون. فلما رأى أيديهم لا تمتدّ إلى الطعام خاف منهم، وظنهم أعداءً يريدون به كيداً.

لـمّا رأوه خاف منهم كشفوا عن حقيقتهم، وقالوا له: إنا ملائكة أرسلنا الله لإهلاك قوم لوط، ولنبشرك وامرأتك بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب،

فلما اطمأن إبراهيم وعلم مهمّة هؤلاء الرسل من الملائكة، وجاءته البشرى، أخذ يجادل في قوم لوط، ويرجو عدم تنفيذ إهلاكهم؛ طمعاً في أن يصلح حالهم بالصبر، ويدعو الله في ذلك.

فقال الله له: يا إبراهيم أعرض عن هذا، إنه قد جاء أمر ربك، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود، وأثنى الله على إبراهيم بأنه حليم، في معرض ذكر هذه القصة في القرآن الكريم.

قال الله تعالى في سورة (هود ١١):

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾.

وامرأته قائمة فضحكت: ذكر بعض المفسرين أن معنى ضحكت هنا حاضت. وأنكر طائفة من اللغويين وجود هذا المعنى لغة لهذه المادة، ورأوا أن امرأة إبراهيم قد ضحكت فعلاً، وفق المعنى المعروف لهذه المادة، وإنما ضحكت تعبيراً عن مسرّتها الزائدة، إذ علمت أن الضيوف رسل من عند الله، وأنهم ملائكة، فانجلت بذلك سحابة الخوف التي أصابت إبراهيم وأصابتها معه، حينما شهدا أن ضيوفهما لا يأكلون من قراهما.

فيكون المعنى: قالوا: لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط، وامرأة إبراهيم

قائمة من أجل خدْمة الضيوف، واجمة من الحذر لأنهم لا يأكلون، فلما علمت حالهم ضحكت سروراً بانجلاء سحابة الخوف.

أواه: أصل الأواه في اللغـة كثير الحزن، وكثير الدعاء بالخير، والرحيم العطوف رقيق القلب، والمسبّـح كثير الثناء على الله. وكلّ هذه المعاني لكلمة أواه تنطبق على إبراهيم عليه السلام.

منيب: أصل الإنابة الرجوع إلى الله بالتوبة، والرجوع إلى طاعته وأمره وحكمه، فالمنيب هو الذي يرجع إلى طاعة الله ويتوب إليه ويعود إلى التزام أمره. وقد جاء وصف إبراهيم عليه السلام بأنه منيب مناسباً لحالته بعد مجادلته في قوم لوط. وجاء وصفه بالحلم تعليلاً لهذه المجادلة، وجاء وصفه بأنه أواه مناسباً للأمرين معاً.

٢ ــ ومن الأمثلة العظيمة لخلق الحلم، حلـم هود عليه السلام على قومه، فلقد قابل شتائم قومه له وجهلهم عليه، بحلم عظيم، وصبر جسيم، وصدر واسع.

شتموه بأنه ناقص العقل سفيه، وبأنه من الكاذبين، فقابلهم بنفي صفة السفاهة عنه، وأكد لهم أنه صادق في رسالته غير كاذب، وفي بيان ذلك يقول الله في سورة (الأعراف ٧):

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾.

٣ ــ ومن الأمثلة العظيمة لخلق الحلم، حلـم نوح عليه السلام، فلقد واجهه قومه بالشتيمة، فرد عليهم بالحلم، وفي بيان ذلك يقول الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

والفرق بين نوح وهود، أن جميع الملأ من قوم نوح وهم الكبراء وذوو الوجاهة والمكانة الذين يملأون عيون الناس، قد كانوا كافرين به، وقالوا له: إنا لنراك في ضلال مبين، ولذلك قال الله في حكاية قصته: ﴿قال الملأ من قومه﴾.

أما هود عليه السلام فبعض الملأ من قومه قد آمنوا به وبعضهم كفروا به، والذين كفروا منهم هم الذين قالوا له: إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين، ولذلك قال الله تعالى في حكاية قصته: ﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه﴾.

٤ ـ ومن الأمثلة العظيمة لخلق الحلم، حلم سيدنا ونبينا محمد صلوات الله وسلاماته عليه.

فمن حلمه ما رواه البخاري ومسلم عن جابر بن عبدالله، أنه غزا مع النبي ﷺ قبل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في واد كثير العِضَاه[١] قال جابر: فنزل رسول الله ﷺ وتفرّق الناس يستظلّون بالشجر، فنزل رسول الله ﷺ تحت سمُرة، فعلق بها سيفه ونمنا نومة، فإذا رسول الله يدعونا، وإذا عنده أعرابي فقال: «إن هذا اخترط علي سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتاً[٢] قال: من يمنعك مني؟ قلت: الله. الله. الله».

قال جابر: ولم يعاقبه وجلس.

---

(١) القائلة: وقت القيلولة عند شدة الحرّ في وسط النهار. والعضاه: هي الأشجار ذات الشوك.

(٢) صلتاً: أي مسلولاً.

ولهذه القصة تتمة عند غير البخاري ومسلم من المحدثين رواها أبو بكر الإسماعيلي في صحيحه، وهي أنه لـمّا قال الأعرابي للرسول ﷺ: من يمنعك مني؟ وقال الرسول له: الله. الله. الله، سقط السيف من يد الأعرابي، فأخذ رسول الله السيف، فقال للأعرابي: من يمنعك مني؟ قال: كن خير آخذ، فقال له الرسول: «تشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله؟» قال: لا، ولكني أعاهدك على أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قومٍ يقاتلونك، فخلى سبيله، فأتى الرجل أصحابه، فقال: جئتكم من عند خير الناس.

ومن حلمه صلوات الله عليه قصته مع الأعرابي الذي جاءه يطلب منه عطاءً.

روي أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ يطلب منه عطاءً، فأعطاه الرسول، ثم قال له: «أحسنتُ إليك؟» قال الأعرابي: لا، ولا أجملت. فغضب المسلمون وقاموا إليه، وقد هموا أن يؤدبوه بالعنف، فأشار إليهم الرسول أن كفوا، ثم قام ودخل منزله، فأرسل إليه وزاده شيئاً، ثم قال له: «أحسنتُ إليك؟» قال: نعم، فجزاك الله من أهلٍ وعشيرة خيراً، فقال له النبي ﷺ: «إنك قلت ما قلت آنفاً، وفي نفس أصحابي من ذلك شيء، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي، حتى يذهب ما في صدورهم عنك» قال: نعم.

فلما كان الغد جاء، فقال النبي ﷺ: «إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه، فزعم أنه رضي، أكذلك؟» قال: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً.

فقال الرسول ﷺ: «مثلي ومثل هذا كمثل رجلٍ له ناقة شردت عليه، فاتبعها النا س، فلم يزيدوها إلا نفوراً، فناداهم صاحبها، فقال لهم: خلوا بيني وبين ناقتي، فإني أرفق بها منكم وأعلم، فتوجه لها بين يديها، فأخذ من قمام الأرض، فردها، حتى جاءت واستناخت، وشد عليها رحلها، واستوى عليها، وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار».

صلوات الله عليك يا سيدي يا رسول الله ما أحلمك! وما أحكمك!

ومن حلمه صلوات الله عليه حلمه على من اتهمه بعدم العدل في قسمته الغنائم يوم حنين.

روى البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال: لما كان يوم حنين آثر رسول الله ﷺ ناساً في القسمة: فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة بن حصن مثل ذلك، وأعطى ناساً من أشراف العرب، وآثرهم يومئذٍ في القسمة، فقال رجلٌ: والله إن هذه قسمة ما عدل فيها، وما أريد فيها وجه الله.

فقلت: والله لأخبرن رسول الله ﷺ، فأتيته فأخبرته بما قال، فتغير وجهه حتى كان كالصِّرف[1]، ثم قال: «فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله» ثم قال: «يرحم الله موسى، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر» فقلت: لا جرم لا أرفع إليه بعدها حديثاً.

— ٨ —

الرفق، من فروع خلق الصبر

وقد يكون من فروع خلق الصبر الرفق، لأن الرفق في الأمور، والرفق في معاملة الناس، لا يكون إلا بضبط النفس عن الاندفاع بعوامل حبّ العنف والقسوة، وهذا وجه من وجوه الصبر.

وقد يشارك خلق الرحمة خلق الصبر في ظاهرة الرفق، فمن يشعر نحو غيره بشعور الرحمة يكون في معاملته رفيقاً لا عنيفاً، إذ يدفعه إلى الرفق به رحمته به.

وقد ينفرد كلٌّ من خلق الرحمة وخلق الصبر في ظاهرة الرفق، وكثير من ظواهر السلوك الخلقي قد ترجع إلى أكثر من أساس من الأسس الأخلاقية العامة، فتكون إحداها ظاهرة لها مجتمعة أو منفردة.

---

(١) الصِّرف: صبغ أحمر.

والرفق هو ظاهرة خلقية يضادها العنف، وهو من ظواهر خلق الصبر، أو من ظواهر خلق الرحمة، أو من ظواهرهما معاً.

وقد أوصى الإسلام بالرفق وحث عليه، واعتبر المحروم منه محروماً من خير كثير، وذلك لأن الرفق في الأمور من شأنه أن يصلح ويعطي أفضل النتائج وأجود الثمرات، بخلاف العنف فمن شأنه أن يفسد ويعطي نتائج سيئة. إن العنف في معالجة الآلة يكسرها، وفي مقارعة الخطوب يحطم الطاقات ويدمر القوى، ويحرم من الظفر بالنتائج المطلوبة. أما الرفق بالأحياء فهو رحمة توجبها الفضيلة الإنسانية، وتدعو إليها المشاركة الوجدانية الكريمة. فإذا كانت الأحياء من ذوات الإرادة المدركة فإن الرفق بها من شأنه أن يصلح نفوسها ويؤثر فيها أثراً حسناً، ويستعطفها إلى المطلوب منها أفضل استعطاف، ومن شأنه أن يلين عريكتها وإن كانت صلبة جافة قاسية، بخلاف معاملتها بالعنف، فإنه يولد لديها صلابة التحدي والعناد، وعدم الاستجابة للمطلوب منها، وإن كان حقاً وخيراً، وإن كانت لينة العريكة في فطرتها.

والعنف في معاملة الناس يورث العداوات والأحقاد ورغبات الانتقام، متى سنحت الفرصة لتنفيذه.

أما الرفق في معاملة الناس، فهو يؤلف قلوبهم، ويمتلك موداتهم، ويطوعهم، لا سيما رفق الراعي برعيته في إدارة شؤونهم، وتسيير أمورهم، وفرض الطاعة عليهم.

ومن أجل ذلك أمر الرسول ﷺ بالرفق، وحذر من العنف، وخص الرعاة بتوجيه خاص، فحذرهم من العنف برعاياهم ومن التشديد عليهم.

أحاديث نبوية في الرفق:

١ ــ روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على سواه».

وفي رواية: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله».

٢ ـ وروى مسلم عن عائشة أيضاً، أن رسول الله ﷺ قال لها: «عليك بالرفق، وإياك والعنف والفحش، فإن الرفق لا يكون في شيءٍ إلا زانه، ولا ينزع من شيءٍ إلا شأنه».

٣ ـ وروى مسلم عن جرير بن عبدالله البجلي؛ أن النبي ﷺ قال: «من يحرم الرفق يحرم الخير كله».

أي: يحرم خير العمل الذي استخدم فيه العنف، وانعدم فيه الرفق، وذلك لأن أسلوب العنف أسلوب لا يأتي بخير.

٤ ـ وروى مسلم عن عائشة رضي الله عنها، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشقَّ عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به».

وتشديد الرسول ﷺ في هذا يدل على أن حاجة الرعاة إلى الرفق أعظم من حاجة غيرهم إليه، فهو عنصر من عناصر القيادة الناجحة، التي يرتقب لها الاستمرار والقبض على أزمة قلوب الأفراد.

وليس المراد من الرفق اللين في المواقف التي تتطلب الشدة، ولكنه حسن السياسة بوجه عام، ما لم تدع الضرورة إلى شيء من العنف والشدة.

٥ ـ وروى الترمذي بإسناد حسن عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:

«ألا أخبركم بمن يحرَّم على النار أو بمن تحرَّم عليه النار؟ تحرَّم على كل قريب هين لينٍ سهْل».

٦ ـ وروى البخاري ومسلم عن أنس أن النبي ﷺ قال:

«يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا».

ومعلوم أن التيسير من الرفق بالناس.

٧ — وروى البخاري عن أبـي هريرة قال: بال أعرابـيٌّ في المسجد فقام إليه الناس ليقعوا فيه، فقال النبـي ﷺ:

«دعوه، وأريقوا على بوله سجْلاً من ماء أو ذنوباً من ماء، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين».

سجلاً أو ذنوباً: أي دلواً مملوءةً ماءً.

فدلت هذه النصوص على أن الرفق في الأمور والرفق بالناس واللين والتيسير من جواهر عقود الأخلاق الإسلامية، وأنها من صفات الكمال، وأن الله تعالى من صفاته أنه رفيق، وأنه يحب من عباده الرفق، فهو يوصيهم به ويرغبهم فيه، ويعدهم عليه عطاءً لا يعطيه على شيءٍ آخر.

ويفهم من النصوص أن العنف شين خلقي، وأنه ظاهرة قبيحة، وأن الله لا يحبه من عباده، فالرفق لا يكون في شيء إلا زانه، أي حسَّنه وجمله، ولا ينزع من شيء إلا شانه، أي قبَّحه.

أما قول الرسول ﷺ «من يحرم الرفق يحرم الخير كله»: فهو على سبيل المبالغة، أو أن بعض أحوال العنف تحرم الإنسان من الخير كله، كأن يدفع العنف صاحبه إلى التمرد على الله والكفر به، وعندئذٍ يحرم حتماً من الخير كله، لأن الخير حقاً هو خير الآخرة، ومن حرم خير الآخرة فقد حرم الخير كله، أو أن العنف في أي أمر من الأمور يفضي إلى الحرمان من الخير كله في ذلك الأمر، لأن العنف يفسده، ومتى فسد الأمر لم ينتج خيراً، ولعل هذا الأخير هو المراد والله أعلم.

وأبان الرسول ﷺ أن القريب الهين اللين السهل يحـرَّم على النـار، والسبب في ذلك أنه لين لدعـوة الإيمان، رفيق القلب رفيق النفس رفيق السلوك، سهل الانقياد إلى الخير، لين لا يتشدد في تعامله مع الناس، ولا يقسو عليهم، ليس في خلقه وعـورة بل هو سهل، فالله يكافئه على كل ذلك بالرفق، فيعفو عنه ويصفح ويجازيه من جنس عمله الجزاء الأوفى.

رفق الدعاة والمعلمين:

وأولى الناس بالتخلق بخلق الرفق الدعاة إلى الله والمعلمون، فالدعوة إلى الله لا تؤثر ما لم تقترن بخلق الرفق في دعوة الخلق إلى الحق، وتعليم الناس لا يؤتي ثمراته الطيبات ما لم يقترن لخلق الرفق الذي يملك القلوب بالمحبة.

أما العنف فمن شأنه التنفير من الداعي الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، والتنفير من المعلم. إن من توجه له الدعوة إلى الخير، أو يراد تعليمه، متى وجد العنف والشدة انكمشت عاطفته فانغلق قلبه، ومتى انغلق قلبه انغلق فكره، وعندئذ يصير كصخرة صماء، ترجع ولا تمتص، أو كلوحة من ماء تلين للكاتب ولكن لا تحفظ ما يكتب، أو كمرآة تحكي الصورة ما دام الأصل قائماً، فإذا سار الأصل سارت الصورة معه ولم تحتفظ المرآة بها.

بخلاف الداعي أو المعلم الرفيق الحليم ذي الأناة، فإنه يملك القلوب بالمحبة، وعندئذٍ تتفتح له القلوب التي أحبته، ومتى انفتحت إليه القلوب انفتحت إليه الأفكار، وتأثرت به وتفاعلت معه، وآتت دعوته وأعماله ثمراتها طيبة يانعة.

رفق الولاة والحكام وأضداد ذلك:

ومن الواجب على الولاة والحكام أن يرفقوا بالرعية، ولا يشقوا عليهم، فالرفق بهم حكمة رفيعة في السياسة، والعنف يورث الكراهية والتذمر والضجر والخروج عن الطاعة، وفساد أمر الجماعة.

لذلك دعا الرسول ﷺ فقال: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به».

ودعاء الرسول هذا مستجاب، وهو تأكيد لسنة الله في عباده القاضية بأن الجزاء من جنس العمل.

وروى البخاري ومسلم عن عائذ بن عمرو، أنه دخل على عبيدالله بن زياد، فقال: أي بني، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن شر الرِّعاء الحُطَمة».

فإياك أن تكون منهم.

الرِّعاء: جمع الراعي. الْحُطَمَة: هو الذي يشتد على إبله أو بقره أو غنمه فيسوقها سوقاً عنيفاً بلا رحمة ولا حكمة، ويدفع بعضها إلى بعض بالعسف والضرب، حتى يحطم بعضها بعضاً، ويقتل بعضها بعضاً. والْحُطَمَة من صيغ المبالغة، وتطلق على العنيف الشديد الذي يحطم الأشياء ويكسرها بعنفه وقسوته. ولمّا كانت النار تحطم ما تمسه سميت في القرآن الْحُطَمَة.

فأبان الرسول ﷺ أن شر الرعاة من الولاة والحكام هم الذين يشتدون عليهم ولا يرفقون بهم، ويدفعونهم بالعسف والعنف إلى أن يحطم بعضهم بعضاً، ويكسر بعضهم بعضاً، ويقتل بعضهم بعضاً.

وقد ضرب الرسول ﷺ في قوله: «إن شر الرعاء الحطمة» مثلاً لكل راعٍ عنيف قاسٍ شديد لا رحمة في قلبه على رعيته من الناس، سواءٌ أكان ولي أسرة، أو صاحب سلطان، صغرت دائرة رعيته أو كبرت.

فشر الرعاة من الناس على الناس هو الحطمة الذي لا رفق عنده، ولا رحمة في قلبه تلين سياسته وقيادته، فهو يقسو ويشتد على رعيته، ويوسعهم عسفاً وتحطيماً، ويدفعهم دائماً إلى المآزق والمحرجات، ولا يعاملهم بالرفق والحكمة في الإدارة والسياسة.

ومن تَرْكِ واجب الرفق احتجابُ الراعي عن رعيته، وعدم اهتمامه بحاجاتهم ومصالحهم، وعدم نظره في خلاتهم وفقرهم، فمن فعل ذلك جازاه الله يوم القيامة بمثل عمله.

روى أبو داود والترمذي عن أبي مريم الأزدي، أنه قال لمعاوية: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«من ولاّه الله شيئاً من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة».

فجعل معاوية رجلاً على حوائج الناس.

وشرٌّ من ذلك غش الراعي لرعيته وظلمه لهم:

روى البخاري ومسلم عن أبي يعلى مَعْقل بن يسار، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«ما من عبدٍ يسترعيه الله رعيَّةً يموت يوم يموت وهو غاشٌّ لرعيته إلّا حرم الله عليه الجنة».

وفي رواية: «فلم يَحُطها بنصحه لم يجد رائحة الجنة».

وفي رواية عند مسلم أن الرسول ﷺ قال:

«ما من أمير يلي أمور المسلمين ثم لا يجهَدُ لهم وينصح لهم إلّا لم يدخُل معهم الجنة».

أي إذا لم يتعب من أجلهم ويبذل جهده في رعايتهم وخدمة مصالحهم، ولم يكن ناصحاً لهم في قوله وعمله وصادقاً معهم لم يدخل معهم الجنة يوم القيامة، فيعاقب على تقصيره وغشه لرعيته عقاباً نُكراً، بخلاف الناصحين أهل العدل من الولاة، فهم يكرمون على منابر من نور.

روى مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وَلُوا».

وهم في مقدمة السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، كما جاء فيما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال:

«سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل...» الحديث.

إن الولاية فيها مزالق كثيرة للفتنة، فمن نجا من فتنتها كان من أقوى الناس إرادة وأكثرهم استقامة.

ـ ٩ ـ
الكتمان وحفظ السر، من فروع خلق الصبر

الكتمان هو ضبط النفس ضد دوافع التعبير عما يختلج فيها، وذلك لا يتم إلا بالصبر، من أجل هذا صح لنا أن نعتبره من فروع خلق الصبر.

على أن له أيضاً صلة بقوة الإرادة، المستندة إلى صحة العقل وسلامة الرأي، ولا يعزب عنا أن الصبر من قوة الإرادة.

وحين يكون في كتمان الإنسان حفظ لسر استأمنه صاحبه عليه، وطلب منه عدم إفشائه، فهو حينئذٍ مظهر من مظاهر الأمانة، ومظهر من مظاهر الصبر معاً.

ويكون الكتمان فضيلة إذا كان في أمر ينبغي كتمانه وعدم إفشائه، لأن المصلحة المعقولة والمشروعة تقضي بكتمانه، وهو عندئذ فضيلة خلقية.

فمن ذلك كتمان مقدار القوة والخطط الحربية عن الأعداء، إن هذا الكتمان فضيلة خلقية قد يرتبط بها النجاح والظفر، وقد تكون بضدها الخيبة والهزيمة.

وقد كان الرسول صلوات الله عليه في قيادته وسياسته ملتزماً خلق الكتمان، كلما ارتبطت به مصلحة المسلمين ضد أعدائهم، فكان إذا أراد غزوة ورَّى بغيرها، وإذا وضع خطة لم يعلن عنها حتى يأتي وقت التنفيذ، لئلا يعلم العدو بها، فيتخذ لها ما يضادها، وما يفسدها.

وكثيراً ما يكون قضاء الحاجات مرهوناً بالكتمان، وفي الحكم السائرة: استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان.

فالكتمان في هذه الأمور ونظائرها فضيلة نافعة.

ومن الكتمان المحمود ما جاء في قصة يوسف عليه السلام. لقد أوصاه أبوه يعقوب عليه السلام بأن يكتم رؤياه المبشرة له بالمجد العظيم، عن إخوته، حتى لا يثير حسدهم فيكيدوا له، قال الله تعالى في سورة (يوسف ١٢):

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ ﴾.

فقد أمر يعقوب عليه السلام ابنه يوسف بأن يكتم خبر رؤياه عن إخوته، حذر أن تثير حسدهم له، فيكيدوا له كيداً ما، لأنهم أبناء علاّت. أبوهم واحد وأمهاتهم شتى.

أما كتمان ما يجب إظهاره وتبليغه من الحق فهو معصية، وهو رذيلة خلقية، والساكت عن الحق شيطان أخرس، وذلك لأنه بسكوته نصر الباطل، فكان بذلك شيطاناً، ولّما كان عمله سلبياً قائماً على السكوت استحق أن يوصف بالخرس لا بالصمت.

وقد جاء في كلام الرسول ﷺ قوله: «من أوتي علماً فكتمه ألجمه الله بلجام من نارٍ».

وكتمان الشهادة إثم تتحمل القلوب وزره، قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ ﴾.

ولذلك شدد الله تبارك وتعالى في مؤاخذة بني إسرائيل إذ كتموا شهادة عندهم من الله، وذمهم ذماً كبيراً على ذلك، وجعلهم من المفرطين في الظلم، فقال عز وجل يخاطبهم في سورة (البقرة ٢):

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ ﴾.

أمر بني إسرائيل أمر عجيب، إنهم يكتمون كل شهادة عندهم من الله، إذا كان لهم في الكتمان مصلحة خاصة، ويكتمون الحق وهم يعلمون، إذا كان لهم هوىً في الكتمان، ولو كان هوىً شيطانياً خبيثاً، ولذلك خاطبهم الله بقوله في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

وقال لهم في سورة (آل عمران ٣):

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ؟! ﴿٧١﴾ ﴾.

ولمّا كان كتمان ما يجب تبليغه وبيانه من أمور الدين أمراً خطيراً وإثماً عظيماً، فقد حذرت النصوص الإسلامية منه تحذيراً شديداً.

فمن ذلك قول الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾.

وقول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

حفظ السر:

علمنا أن حفظ السر من الكتمان المحمود، والسرّ هو خبر مستأمن على حفظه وعدم إفشائه، ومن أودع أخاه سراً فإنما هو أمانة جعلها عنده، وعلى المستأمن أن يحفظ أمانته.

ومن قبل من الناس بأن يُودِع سرّ أخيه عنده فقد أعطى أخاه عهداً بأن لا يفشيه للناس، فوجب عليه الوفاء بعهده قال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾.

أي: كان مسؤولاً عند الله عن حفظه والوفاء به.

وأبان الرسول ﷺ أنّ الرجل إذا حدّث الحديث ثم انصرف فقد أودع عند من حدّثه أمانة، لذلك فعلى المستأمن أن يحفظ الأمانة التي عنده، فلا يخون صاحبه بها.

روى الترمذي وأبو داود بإسناد حسن، عن جابر بن عبدالله، أنّ النبي ﷺ قال: «إذا حدّث الرجل الحديث ثم التفت فهي أمانة».

ولكن حفظ أسرار الناس مشروط بأن لا يؤثر على حق الله أو حقّ المسلمين، فإذا كان مؤثراً على شيء من ذلك، كان من الخيانة لحقّ الله أو لحقّ المسلمين التستر على ما فيه إضرار بهما أو بأحدهما، وليس من حفظ الأمانة هذا التستر. يدلّ على هذه الحقيقة ما رواه أبو داود عن جابر بن عبدالله، قال: قال رسول الله ﷺ : «المجالس بالأمانة، إلاّ ثلاثة مجالس: سفك دمٍ حرام، أو فرج حرام، أو اقتطاع مالٍ بغير حق».

ومن الأسرار التي يجب حفظها وعدم إفشائها ما يكون بين الرجل وامرأته، فهو أوّلاً حقّ المرأة في عدم إفشاء ما يكون منها لزوجها، وهو ثانياً حقّ الآداب الإسلامية العامة التي توصي بستر مثل هذه الأمور، فالمرء مستأمن عليها من جهتين: جهة الآداب الإسلامية، وجهة صاحب الحقّ الخاص.

روى مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ : «إنّ من أشرّ الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى المرأة وتفضي إليه ثم ينشر سرّها».

وحكم المرأة في هذا مثل حكم الرجل، فالنصوص الإسلامية لها صفة العموم، ما لم يكن الأمر من خصائص أحدهما.

أمثلة على حفظ الأسرار:

١ ـ روى البخاري عن عبدالله بن عمر، أن عمر رضي الله عنه حين تأيّمت[1] بنته حفصة، قال عمر: لقيت عثمان بن عفان فعرضت عليه حفصة، فقلت: إن شئتَ أنكحتك حفصة بنت عمر، قال: سأنظر في أمري، فلبثت ليالي، ثمّ لقيني فقال: قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا. فلقيت أبا بكر الصديق فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر، فصمت أبو بكر، فلم يرجع إليّ شيئاً، فكنت عليه أوجد[2] مني على عثمان. فلبثت ليالي ثمّ خطبها النبي ﷺ فأنكحتها إياه. فلقيني أبو بكر فقال: لعلّك وجَدت عليّ حين عرضت عليّ حفصة فلم أرجع إليك شيئاً؟ فقلت: نعم، قال: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت عليّ إلاّ أني كنت علمت أنّ النبي ﷺ ذكرها، فلم أكن لأفشي سرّ رسول الله ﷺ ولو تركها النبي ﷺ لقبلتها».

٢ ـ وروى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: كنَّ أزواج النبي ﷺ عنده، فأقبلت فاطمة رضي الله عنها تمشي ما تخطىء مشيتها من مشية رسول الله ﷺ شيئاً. فلما رآها رحّب بها وقال: «مرحباً يا ابنتي» ثمّ أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثمّ سارّها، فبكت بكاءً شديداً، فلـمّا رأى جزعها سارّها الثانية فضحكت، فقلتُ لها: خصّك رسول الله ﷺ من بين نسائه بالسِّرار، ثم أنت تبكين؟

فلما قام رسول الله ﷺ سألتها: ما قال لك رسول الله ﷺ؟ قالت: ما كنت لأفشي على رسول الله ﷺ سرّه.

فلما توفي رسول الله ﷺ قلتُ: عزمت عليك بما لي عليك من الحقّ لَـمَا حدثتني ما قال لك رسول الله ﷺ؛ فقالت: أمّا الآن فنعم، أمّا حين سارَّني في المرة الأولى، فأخبرني أنّ جبريل كان يعارضه القرآن في كلّ سنة مرّة أو مرّتين، وأنّه عارضه الآن مرتين «وإني لا أرى الأجل إلاّ قد اقترب، فاتقي الله

---

(١) تأيمت: أي صارت بلا زواج وكان زوجها قد توفي.

(٢) أوجد مني: أي أكثر غضباً أو تألماً.

واصبري، فإنه نعم السلف أنا لك» فبكيت بكائي الذي رأيتِ، فلما رأى جزعي سارّني الثانية فقال: «يا فاطمة، أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة؟» فضحكت ضحكي الذي رأيتِ.

٣ ــ وروى مسلم عن ثابت عن أنس، قال: أتى عليّ رسول الله ﷺ وأنا ألعب مع الغلمان، فسلّم علينا، فبعثني في حاجة، فأبطأت على أمّي، فلمّا جئت قالت: ما حبسك؟ قلت: بعثني رسول الله ﷺ لحاجة. قالت: ما حاجته؟ قلتُ: إنّها سرّ. قالت: لا تُخبِرَنَّ بسرٍّ رسول الله ﷺ أحداً.

قال أنس: والله لو حدثت به أحداً لحدثتك به يا ثابت.

٤ ــ وكان حذيفة بن اليمان أمين سرّ رسول الله ﷺ في المنافقين.

فما أعظم التربية المحمدية الإسلامية، التي جعلت رجال الصحابة ونساءهم وغلمانهم أمناء على الأسرار بحقٍّ!!.

ــ ١٠ ــ

الدأب والمثابرة، من فروع خلق الصبر

الدأب والمثابرة من سمات أهل الجدّ والعمل، الخليقين بأن يظفروا بنتائج أعمالهم، والذين لا صبر عندهم يمدّهم بالدأب والمثابرة قلّما ينجحون في حياتهم.

والدأب والمثابرة ثمرة اجتماع علوّ الهمة مع الصبر، فلا بدّ فيهما من حوافز علوّ الهمة، وحوافظ طاقات الصبر.

إنّ الأعمال في الحياة تخضع لقوانين وسنن ثابتة، فمن لم يدأب ويثابر على عمله ويصبر على متابعة قوانين الأعمال وسننها، لم يظفر بالنتائج التي يرجوها.

من أراد أن يرتقي حتى يبلغ القمة، فعليه أن يدأب في ارتقاء العقبات، ويثابر كادحاً في الصعود، ويصبر على تحمّل المشقات التي تعترضه في مرتقاه.

ومن أراد بلوغ الماء في جوف الأرض أو الوصول إلى كنز دفين من

كنوزها، فعليه أن يدأب في حفر الأرض ويثابر على ذلك، ولو اعترضته صخور قاسيات، حتى يصل إلى مطلبه الذي يرجو، أو ييأس من تحقيق النتيجة لعقم السبيل، أو للخطأ في خطّة العمل.

ولا يكون العالم عالماً حتى يمرّ بمرحلة طويلة من الدأب والمثابرة على طلب العلم، معتصماً بقدر كبير من صبر النفس على الجدّ والاجتهاد والدراسة.

ولا ينال الطموح إلى مجد الزعامة ما يصبو إليه حتى يظفر بثقة الجماهير من الناس به، ولا يظفر بهذه الثقة، حتى يدأب ويثابر على تقديم الأمثلة والبراهين العملية التي تغرس الثقة في قلوب الناس، وذلك لا يكون إلّا بصبر عظيم في أمدٍ طويل.

ومبتكرات العلم ومنجزات الحضارة لم تظهر ولم تكتشف إلّا بالدأب الطويل، والمثابرة على متابعة البحث والاختبار والتجربة، مع دقة الملاحظة في كلّ مرحلة من مراحل العمل الدائب، ولولا الصبر الذي يتمتع به الباحثون لما ظفروا بالنتائج التي وصلوا إليها، ولما ظفرت الإنسانية بثمرات عبقرياتهم، ولا بما في هذا الكون من كنوز طاقات، وكنوز عناصر.

التوجيهات الإسلامية:

ولّما كانت التعاليم الإسلامية صوراً منسجمة كلّ الانسجام مع واقع حال السُّنن الكونية، وجدنا الإسلام قد عمل على تدريب المسلمين على خلق الدأب والمثابرة في الأعمال، في مختلف تعاليمه وتكاليفه وتوجيهاته.

إن الصلوات اليومية، مثالٌ من أمثلة التكاليف الإسلامية التي تحتاج المواظبة عليها إلى دأب ومثابرة دونما فتور، في السفر، والحضر، في الصحة والمرض، في السلم والحرب، في أحوال النشاط والكسل. وليس في هذا التكليف لغير ذوات الحيض والنفاس إجازة أسبوعية، ولا شهرية، ولا سنوية، ولكن فيه تخفيف في أحوال السفر والمرض والعجز، وفي ظروف القتال، وهذا التخفيف لا يصل إلى درجة ترك العمل أصلاً، إنّما هو تخفيف في كميته أو كيفيته، أو في تحديد وقته، ولذلك قال الله تعالى في سورة (البقرة):

﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾.

فخفف الله في حالة الخوف من شروط كيفية الصلاة، ولم يأذن بتركها تركاً كلياً.

وأثبت الله الفلاح للمؤمنين الذين من صفاتهم أنهم يحافظون على صلواتهم، فقال تعالى في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

وأكد الله هذه الصفة من صفات المؤمنين أهل الفلاح والفوز بجنات النعيم، فقال تعالى في سورة (المعارج ٧٠):

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

وعمل الإسلام على غرس خلق الدأب والمثابرة على العمل في نفوس المسلمين، والبعد بهم عن الطفرات الانفعالية في أعمالهم، وما يرافقها من تطوّرات إقبال مفرط وإدبار مفرط.

وضرب الله لنا مثلاً من الثبات على العمل والدأب فيه، ما سخره في كونه

من نظم ثابتة وحركات دائبة، فالشمس والقمر مسخّران دائبان على القيام بوظائفهما لا يفتران، والليل والنهار كذلك، وسنن الحياة وقوانين الوجود متصفة بصفة الثبات والدأب المستمر، قال الله تعالى في سورة (إبراهيم ١٤):

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۝٣٣ ﴾.

فمن أخلاق المسلم المتأدّب بآداب الإسلام والمتّبع لتعاليمه ووصاياه، خلق الدأب والصبر على متابعة العمل المستمر.

ومن التوجيهات النبوية للأخذ بخلق الثبات والدأب والمثابرة على العمل النافع ما يلي:

روى البخاري ومسلم عن عائشة، أنّ النبي ﷺ قال:

«أحب الأعمال إلى الله أدومها وإنْ قلّ».

فهذا الحديث يدعو إلى فضيلة الثبات والدأب والمثابرة على العمل، وعدم إجهاد النفس بطفرات الأعمال التي تستنفذ الطاقات، وتميت الرغبات أو تحوّلها، ثمّ لا تحقق الغايات المنشودة على الوجه الأكمل.

وروى البخاري ومسلم عن عائشة أيضاً، أنّ رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها امرأة، قال: «من هذه؟» قالت: هذه فلانة ـــ تذكر من صلاتها ـــ قال: «مَهْ، عليكم بما تطيقون، فوالله لا يملّ الله حتى تملّوا».

قالت: وكان أحب الدين إليه ما داوم صاحبه عليه.

فهذه المرأة كانت تكثر من النوافل ومن قيام الليل، إلى حدّ الإفراط والمبالغة، فنهى الرسول ﷺ عن ذلك بقوله: «مه» وهذه الكلمة فيها نهي وزجر. ثم وجّه الرسول ﷺ لما ينبغي فقال: «عليكم بما تطيقون» أي: الزموا من الأعمال ما يقع ضمن حدود طاقتكم فلا تزيدوا عليها، لئلا تنفر نفوسكم من العمل كله حين تستنفدوا فيه طاقاتكم.

ثمّ أوضحت عائشة مراد الرسول ﷺ بقولها: وكان أحب الدين إليه ما داوم صاحبه عليه.

فمن هذا يتضح لنا أن من العناصر الخلقية التي عمل الإسلام على تربيتها في نفوس المسلمين، عنصر الثبات والدأب والمواظبة على العمل، وهذا لا يكون مع الطفرات والزيادات والمبالغات، والإجهاد الذي يستنفد الطاقات، ويقطع الهمم ويحوّل الرغبات.

وجاء في الحكمة العربية: «إن المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى» وذكر ابن منظور في لسان العرب أنها من قول مُطرِّف.

والمنبتّ هو الذي يعطي دابته كلّ وسعها من الجري، حتى تهلك فينقطع في طريقه، فهو منبتٌ أي منقطع في الطريق بسبب سوء تصرفه، إذ لم يبقِ لنفسه ظهر دابته، ولم يقطع مسافة الأرض التي يريد اجتيازها.

ولـمّـا نهى الرسول ﷺ عن المبالغة والزيادة في الأعمال فوق حدود الطاقة المعتادة، خشي أن يفهم منه أن هذه الزيادات من نوافل الطاعات تعتبر عند الله من المعاصي التي يكرهها من عبده، فقال: «فوالله لا يملّ الله حتى تملّوا» أي لا يملّ الله من مكافأتكم على طاعاتكم وأعمالكم حتى تملّوا أنتم من متابعة الأعمال وتفقدوا نشاطكم للقيام بها. فليس النهي عن الزيادة لكراهية منحكم الأجور عليها، وإنما هو لمصلحتكم حتى تثبتوا عليها، وتداوموا على فعلها في مواقيتها، ولا تنفر نفوسكم من تكرارها مع المواظبة والدأب.

ــ ١١ ــ
الأناة في الأعمال، من فروع خلق الصبر

الأناة هي التصرّف الحكيم بين العجلة والتباطوء، ولا تكون الأناة في الأعمال ــ مع ملاحظة أنّ الإنسان بفطرته عجول ــ إلاّ بخلق الصبر.

فالأناة مظهر من مظاهر خلق الصبر، وهو من سمات أصحاب العقل والرزانة، بخلاف العجلة فهي من سمات أصحاب الرعونة والطيش، وهي تدلّ على أن صاحبها لا يملك الإرادة القوية القادرة على ضبط نفسه تجاه انفعالاتها العجولة، وبخلاف التباطؤ والتواني، فهما من سمات أصحاب

الكسل والتهاون في الأمور، ويدلّان على أن صاحبهما لا يملك الإرادة القوية القادرة على دفع همته للقيام بالأعمال التي تحقق له ما يرجو، أو ليس لديه همة عالية تنشد الكمال، فهو يرضى بالدنيّات، إيثاراً للراحة، وكسلاً عن القيام بالواجب.

إن أناة الإنسان تسمح له بأن يحكم أموره، ويضع الأشياء في مواضعها، بخلاف العجلة فإنها تعرضه لكثير من الخطأ والإخفاق، وتعرضه للتعثر والارتباك، ثم تعرّضه للتخلّف من حيث يريد السبق، ومن استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه. وبخلاف التباطؤ فهو أيضاً يعرّضه للتخلف والحرمان من تحقق النتائج التي يرجوها.

فالأناة هي المواءمة في مقدار السرعة بين حركة العمل وما يتطلبه الأمر المقصود بالعمل منها، فما يتطلب من الأمور عملاً سريعاً فالحكمة السرعة إذن، وهي لا تخرج عن الأناة، فالقضية نسبية، وما يتطلب من الأمور عملاً بطيئاً فالحكمة البطء إذن، وهو لا يخرج عن الأناة، لأن القضية نسبية، وما من مقدار من السرعة قل أو كثر إلا وفوقه أسرع منه وتحته أبطأ منه، ولكلّ أمر يراد تحقيقه مقدار ما من السرعة في العمل خاضع لسنن الله في كونه، إذ جعل الله لكل شيء قدراً. فلتكون الجنين سرعة محددة، ولاستنبات الزروع والثمار سرعات تلائم كل صنف منها، ولإنضاج العظام مقدار من الزمن يختلف عن إنضاج اللحم أو الخضراوات، وهكذا إلى سائر الأمور في الكون. فمن نقص من الزمن المطلوب فهو عجول فاشل، ومن زاد على الزمن المطلوب فهو متباطىء فاشل. ومن وافق الزمن المطلوب وفق سنن الله في كونه فهو الحكيم العاقل ذو البصر والأناة.

فليس للأناة مقادير زمنية ثابتة، ولكنها تختلف باختلاف حاجة الأشياء إلى مقدار السرعة الزمنية، فهي إذن المواءمة بين مقدار السرعة في الحركة وبين الحاجة الحقيقية التي تستدعيها النتائج المطلوبة. إن الجريح المشرف على خطر الموت قد يتطلّب إسعافه مقداراً كبيراً من السرعة، فالتخفيف منها توانٍ وتباطؤ، والزيادة عليها ربما يكون تعجّلاً مفسداً مسيئاً.

وليس من الأناة ولا الرزانة في شيء أن يفكر الإنسان طويلاً ليعرف

أفضل وجه يتفادى فيه خطر صخرة هاوية في اتجاهه من الجبل، والحال أن بينها وبينه مقدار زمن يسير جداً، إن العقل والحكمة والرزانة في مثل هذه الحال تكون بسرعة تفادي الخطر دون طيش ولا اضطراب، وهذا من أناة النفس وحكمتها، وإن ظهر في العمل سرعة فائقة، إلا أن هذه السرعة هي الحركة الواجبة للغاية المطلوبة.

لقد ظهر لدينا أن الأشياء مرهونة بأوقاتها، والعجلة فيها مع معرفة أوقاتها المطلوبة خلق مذموم يدل على ضعف خلق الصبر، والتباطؤ فيها خلق مذموم يدل على ضعف الهمة والإخلاد إلى الراحة، والأناة هي السلوك المطلوب، وهي ليست تعجُّلاً ومسابقة لأوقات الأشياء، ولا تباطؤاً وكسلاً.

كلٌّ من العجلة والتباطؤ يضيعان على أصحابها الجهد، والزمن، وما بذلوه من رؤوس أموال مادية، والأناة هي الكفيلة بتحقيق المطلوب، وتفادي الخسارة، ضمن سنن الله ومقاديره.

التوجيهات الإسلامية:

والإسلام يذم الاستعجال وينهى عنه، ويذم التباطؤ وينهى عنه، ويمدح الأناة ويأمر بها، وقد عمل على تدريب المسلمين على الأناة، وعلى التريث الحكيم في القيام بالأعمال وفي تصريف الأمور، إنه يطلب من القاضي أن يتأنى ويفكر طويلاً قبل أن يصدر حكمه، ويطلب من السلطان أن يتدبر الأمور قبل تصريفها.

ويأمر الرسول صلوات الله عليه بالأناة والتؤدة والسكينة لدى القيام إلى الصلاة، وهكذا.

ومن توجيه الإسلام إلى الأناة جعله الطلاق على ثلاث مراحل.

وفيما يلي مجموعة من النصوص الإسلامية:

١ ــ نهى الله تبارك وتعالى رسوله محمداً صلوات الله عليه عن أن يعجّل بتلاوة القرآن الذي يوحى إليه به قبل أن يقضى إليه وحيه، فقال له في سورة (القيامة ٧٥):

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾.

وقال له في سورة (طه ٢٠):

﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾.

٢ ــ وروى البخاري ومسلم عن أبي قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أقيمت الصلاة فلا تقوموا حتى تروني قد خرجت».

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون، وأتوها تمشون وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا».

السعي: هو المشي بسرعة، وهو فوق المشي ودون الرَّمَل.

٣ ــ وروى مسلم عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال لأشجِ عبدالقيس: «إن فيك لخصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة».

٤ ــ وروى الترمذي عن سهل بن سعد الساعدي، أن النبي ﷺ قال: «الأناة من الله والعجلة من الشيطان».

٥ ــ وعن أنس أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني، فقال: «خذ الأمر بالتدبير، فإن رأيت في عاقبته خيراً فأمضه، وإن خفت غَيّاً فأمسك».

(رواه في شرح السنة)

٦ ــ وعن مصعب بن سعد عن أبيه، قال الأعمش: لا أعلمه إلا عن النبي ﷺ قال: «التؤدة في كل شيء خير إلا في عمل الآخرة».

(رواه أبو داود)

٧ ــ وعن عبدالله بن سَرْجِس، أن النبي ﷺ قال: «السّمت الحسن، والتؤدة، والاقتصاد، جزء من أربع وعشرين جزءاً من النبوة».

(رواه الترمذي)

الفصل السابع

حُبّ العَطَاء وَفروعه وَظوَاهره السُّلوكية

— ١ —

من الأسس العامة التي ترجع إليها مجموعة من الفروع والظواهر والمفردات الخلقية المحمودة، خلق حب العطاء. ولهذا الخلق آثار اجتماعية كريمة عظيمة، وهو عنصر من عناصر علو الفطرة وسمو الطبع، وارتقاء الإنسانية، ورجاحة العقل.

ويأتي في مقابل هذا الأساس ضيق النفس، وشعورها بالأنانية المفرطة، التي ينجم عنها البخل، والشح، وكراهية العطاء، والرغبة بالاستئثار بكل شيء، والرغبة بالتسلط على كل شيء، وقبضُ النفس واليد عن البذل والإنفاق على الغير، من مال، أو جاه، أو علم، أو غير ذلك. ولهذا الخلق المقابل آثار اجتماعية سيئة جداً، وهو عنصر من عناصر هبوط الفطرة، ودناءة الطبع، ونقص الإنسانية، والحرمان من رجاحة العقل.

* * *

العطاء الأسمى من صفات الله:

إن أعظم درجات العطاء الذي لا حدود له، والذي لا يكون ابتغاء عوض هو من صفات الخالق جل وعلا، ومن أخلاقه سبحانه. ولذلك جاء في أسماء الله الحسنى: الوهاب، والرزاق، والكريم.

وعطاء الله سبحانه وتعالى فيض لا ينقطع ولا ينتهي، وهو في كل الأحوال

مرتبط بعلمه وحكمته، فهو يعطي خلقه وفق مشيئته التي تقتضيها حكمته، دون أن يكون له غاية من عطائه سبحانه أي عوض يرجوه من خلقه، وأما عبادة عباده له فهي لخيرهم وسعادتهم، ولترقية أرواحهم وتزكية نفوسهم.

ولذلك فإن الله تبارك وتعالى يمدّ بعطائه في الدنيا أهل طاعته، وأهل معصيته، حتى الكافرين به والجاحدين له.

قال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

فهذا النص يفسر الظاهرة المشهودة في دنيا الناس، فيبين أن الله تبارك وتعالى يُمدّ عباده بالعطاء غير المحظور، أي: الذي لا تستطيع منعه قوة غير قوة الله. فهو يُمدّ أهل الدنيا الذين يريدون العاجلة، ولكن ما لهم في الآخرة من نصيب، بل لهم فيها العذاب جزاء كفرهم وعصيانهم. ويُمدّ بعطائه طلاب الآخرة، ويدخر لهم العطاء الآجل الأعظم إلى يوم القيامة، فيمنحهم بذلك عطاء الدنيا وعطاء الآخرة، فضلاً منه وكرماً.

أما عطاء الدنيا فمشمول بقانون الابتلاء، الذي يخضع له المؤمنون والكافرون على سواء.

وأما عطاء الآخرة فهو عطاء الفضل العظيم، الذي يحرم من يحرم منه ضمن قانون الجزاء، قال الله تعالى في سورة (هود ١١):

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

غير مجذوذ: أي غير مقطوع، والجذ في اللغة القطع.

وقد زاد الله في فضله وإكرامه، فسمى هذا العطاء أجراً، مع أنه في الحقيقة والواقع من محض فضله وجوده، فقال الله تعالى في سورة (فصلت ٤١):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ﴾.

غير ممنون: أي غير مقطوع.

ونظيره قوله تعالى في سورة (التين ٩٥):

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ ﴾.

وتتساءل النفوس: لماذا لا يبسط الله الرزق لعباده في الدنيا ويوسع عطاءه لهم، بل هو ينـوّع لهم الأحوال فيبسط ويقدر؟

والجواب: أن حكمة الامتحان في ظروف هذه الحياة الدنيا تقتضي ذلك، إذ يمتحن الإنسان بالبسط والتـوسعة، ويمتحن بـالقبض والتضييق، وليس التضييق على بعض الناس أو في بعض الأحـوال بخلًا ولا إمسـاكاً، وإنمـا هو مشمول بحكمة من حكم الله العظمى، إذ كيف يتم امتحان بعض الناس في المجالات التي يطلب فيها الشكر بالبذل والعطاء، ويطلب فيها تزكية النفس من داء البخل والشح؟ وكيف يتم امتحان بعضهم في المجالات التي يطلب فيها الصبر والرضى عن الله والقناعة والتسليم لله في مقاديره، وتزكية النفس من داء الحسد؟ ولو بسط الله الرزق لجميع عباده لتعطل الامتحان بالشطر الثاني.

ومن الحكم التي يشتمل عليها التنويع بين البسط والتضييق، لفت نظر الإنسان إلى أن الله هو الخالق الرزاق، فإذا أمسك رزقه لم يجد الإنسان غير الله يرزقه، فيتعظ بذلك العقلاء، فيؤمنون بالله، ويطلبون أرزاقهم منه، قال الله تعالى في سورة (الملك ٦٧):

﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ . . . ﴿٢١﴾ ﴾.

وأشار الله إلى أن له حكماً جليلة في كل من بسطه الرزق لعباده وتضييقه، فقال تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾.

واستغل الخبثاء من يهود هذه الظاهرة المشمولة بالحكمة الربانية، فاتهموا الله سبحانه وتعالى بالبخل، ليبرروا لأنفسهم أقصى درجات الشح، فقالوا: يد الله مغلولة. قال الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ ﴿٦٤﴾﴾.

فإنفاقه تعالى يكون بحسب مشيئته، ومشيئته تعالى مشمولة بحكمته.

ومن حكمة الله في عدم بسطه الرزق لعباده في ظروف هذه الحياة الدنيا، ألا يكون بسط الرزق لهم سبباً في بغيهم، وقد لفت القرآن النظر إلى هذه الحكمة، فقال الله تعالى في سورة (الشورى ٤٢):

﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾.

على أن ظروف هذه الحياة الدنيا ــ دار الابتلاء. لا تستحق أن يوسِّع الله فيها على المؤمنين به في الرزق، لأنه تعالى قد ادخر لهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، في نعيم مقيم خالد، سيأتي لا محالة في دار الجزاء، ولولا الخوف على المؤمنين من أن يفتتنوا وينضموا إلى صفوف الكافرين، لخص الله الكافرين ــ في ظروف هذه الحياة ــ بالرزق الواسع الكثير، ولجعل رزق المؤمنين فيها بقدر، ولكن هذا يفتن المؤمنين، فيكون الناس عندئذ أمة واحدة في الكفر، نظراً إلى حالة الضعف البشري في الناس. قال الله تعالى في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا

بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

معارج: مصاعد يرتقون عليها.
زخرفاً: الزخرف الذهب الذي يزيَّن به.
لَـمّـا متاع الحياة الدنيا: أي إلا متاع الحياة الدنيا.

ومن حكمة الله فيما يقضيه من تفاوت بين الناس في الرزق، أن يتخذ الناس بعضهم بعضاً سخرياً، وهو ما بينه الله في هذا النص بقوله: ﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً، ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾.

ـ ٢ ـ
المجالات التي يشملها مفهوم العطاء

وتتنوع المجالات التي يشملها العطاء:

١ ـ فمنها العطاء من المال من كل ما يمتلك الإنسان من أشياء ينتفع بها، كالذهب والفضة، والخيل، والأنعام، والحرث، وكل مأكول، أو مشروب، أو ملبوس، أو مركوب، أو مسكون، أو يؤوى إليه، وكل آلة أو سبب أو وسيلة ينتفع بها، وكل ما يتداوى به أو يقي ضُـرّاً أو يدفع بأساً، إلى غير ذلك من أشياء يصعب إحصاؤها.

وفي هذا المجال معطاؤون، وفيه بخلاء وشحيحون.

٢ ـ ومنها العطاء من العلم والمعرفة. وفي هذا المجال من يحبـون العطاء، وفيه بخلاء ممسكون ضنينون.

والمعطاء في هذا المجال هو الذي لا يدخر عنده علماً ولا معرفة عمن يحسن الانتفاع بذلك، والبخيل هو الذي يحتفظ بمعارفه وعلومه لنفسه، فلا ينفق منها لمستحقيها، ضناً بها ورغبة بالاستئثار.

وبعض البخلاء بعطاء العلم إذا بذلوا منه شيئاً فإنما يبذلون منه بقدر، كأنهم يخشون النفاد مع أن المعارف والعلوم تربو بالعطاء فهي تزيد ولا تنقص؛ إلا أن دافع البخل في نفوسهم يجعلهم يضنون حتى في الأمور التي تزيد ولا تنقص، فسوابق أوهام نفوسهم التي سيطر عليها أن العطاء ينقص من الأشياء التي يمتلكونها، هي التي جعلت نفوسهم تكزّ عن عطاء العلم وتبخل به، دون أن تنير أجواء نفوسهم المظلمة بصيرة واعية، أو تخفف من غلواء أنانيتهم الضيقة أخلاق كريمة فاضلة.

ولما كان رسول الله صلوات الله عليه كامل الخلق، ومن كمال خلقه أنه جواد بعطاء ما يختصه الله به من معارف غيبية لم يأمره بكتمها، وصفه الله بخلق الجود في هذا المجال، فقال تعالى في سورة (التكوير ٨١) متحدثاً عن القرآن وعن جبريل ثم عن الرسول ﷺ:

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ ﴾.

ففي وصف الله لرسوله بأنه ليس بضنين على الغيب ـ أي: ليس بشحيح ولا بخيل بعطاء المعارف والعلوم الغيبية التي يصطفيه الله بها ـ إثبات لصفة جوده صلوات الله عليه بعطاء العلم الذي يملك معرفته، ويسمح له ببذله.

٣ ـ ومنها عطاء النصيحة، فالإنسان الجواد كريم النفس لا يبخل على أخيه الإنسان بأي نصيحة تنفعه في دينه أو دنياه، بل يعطيه نصحه الذي ينفعه مبتغياً به وجه الله تعالى.

وقد ارتقى مفهوم النصيحة عند الرسول ﷺ حتى كان مساوياً للدين كله، ولذلك عرّف الرسول ﷺ الدين بأنه النصيحة، فقال: «الدين النصيحة».

ولذلك كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أول الأركان الأساسية، التي تقوم عليها الدعوة إلى الله، وحماية المجتمع المسلم من الانحراف، وظاهر أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من النصيحة، وهو عطاء فيه تضحية، إذ قد يعرّض صاحبه لما يكره من قبل الناس.

٤ ــ ومنها العطاء من النفس، فالجواد يعطي من جاهه، ويعطي من عطفه وحنانه، ويعطي من حلو كلامه وابتسامته وطلاقة وجهه، ويعطي من وقته وراحته، ويعطي من سمعه وإصغائه، ويعطي من حبه ورحمته، ويعطي من دعائه وشفاعته.. وهكذا إلى سائر صور العطاء من النفس.

والبخيل يبخل بأي شيء من ذلك.

٥ ــ ومنها العطاء من طاقات الجسد وقواه، فالجواد يعطي من معونته، ويعطي من خدماته، ويعطي من جهده، فيعين الرجل في دابته فيحمله عليها أو يحمل له عليها، ويميط الأذى عن طريق الناس وعن المرافق العامة، ويأخذ بيد العاجز حتى يجتاز به إلى مكان سلامته، ويمشي في مصالح الناس، ويتعب في مساعدتهم، ويسهر من أجل معونتهم، ومن أجل خدمتهم، وهكذا إلى سائر صور العطاء من الجسد.

والبخيل يبخل بأي شيء من ذلك.

٦ ــ ويرتقي العطاء حتى يصل إلى مستوى التضحية بالحياة كلها: فالمجاهد المقاتل في سبيل الله يجود بحياته لإعلاء كلمة الله ونصرة دينه، ابتغاء مرضاة ربه. والذي يؤثر أخاه بشربة الماء، وهو على وشك الهلاك، لينقذ أخاه من الموت، يضحي ويجود بحياته من أجل غيره.

وهكذا تتنوع مجالات العطاء من المال، ومن العلم، ومن النصيحة، ومن النفس، ومن طاقات الجسد وقواه، ومن الروح والحياة.

ـ ٣ ـ

فوائد خلق حبّ العطاء وثمراته

لخلق حب العطاء فوائد وثمرات فردية واجتماعية عظيمة، فمنها ما يلي بيانه:

(أ) إن اكتساب خلق حب العطاء يولد في الفرد شعوراً بأنه جزء من الجماعة، وليس فرداً منعزلاً عنهم إلا في حدود مصالحه ومسؤولياته الشخصية. فهو بهذا الشعور النبيل يجد نفسه مدفوعاً إلى مشاركتهم في عواطفهم مشاركة وجدانية ومشاركة مادية، فيفرح لفرحهم، ويحزن لحزنهم، ويتألم عندما يتألمون، وينشرح صدره إذا وجدهم منشرحين، ويساهم معهم في الأعمال العامة، ويعين منهم ذا الحاجة بجسمه، أو جاهه، أو ماله، أو شفاعته في الحق، أو عواطفه ومشاعره وتعبيراتها.

ومتى كان هذا المعنى متبادلاً بين أفراد الجماعة استطاعت أن تمثل في واقعها معنى الجسدية الواحدة للجماعة، التي إذا اشتكى عضو منها تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، كما جاء في الحديث الصحيح الذي يقول الرسول ﷺ فيه: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر».

فأبرز الرسول صلوات الله عليه في هذه الجسدية الواحدة عنصرين:

العنصر الأول: التوادّ، أي التحابب، وهذا العنصر بمثابة الروح التي تسري في الأجساد المادية، فتعقد الصلة التامة بين أعضاء الجسد السارية فيه، حتى يشعر كل عضو بأنه جزء لا يتجزأ من وحدة كلية.

العنصر الثاني: التراحم، وهذا العنصر يبرز بالمشاركة الوجدانية والمادية في الآلام والمسرات، والأحزان والأفراح، وهذه المشاركة صورتها العطاء، وحقيقتها الانفعال العاطفي النبيل نحو الآخرين.

وإذا كان التواد بمثابة الروح التي تسري في الأجساد، فإن عنصر التراحم بمثابة الأغذية التي تمد الأجساد بشروط الحياة للمحافظة على بقاء الروح فيها.

(ب) ومن فوائد اكتساب خلق حب العطاء أنه يزكي الأنفس ويطهرها من رذائل الأنانية المقيتة، والأثرة القبيحة، والشح الذميم.

وبهذه التزكية يرتقي الإنسان في معارج الكمال، والعطاء من الكمال، ولذلك كان من صفات الله جل وعلا، وقد أفلح من زكى نفسه، قال الله تعالى في سورة (الشمس ٩١):

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾.

أي: أفلح من طهر نفسه من أدناس الرذائل الخلقية والسلوكية، وخاب من غمسها في هذه الأدناس، ومن هذه الرذائل المدنسة للنفس الإنسانية الشح والأنانية المفرطة المقيتة. ولذلك سميت الزكاة بهذا الاسم، فهي مطهرة للنفوس من دنس الشح والبخل والأنانية المفرطة المقيتة، وهي أيضاً مطهرة للمال من الحقوق المتعلقة به للفقراء والمساكين، ولذلك قال الله لرسوله في سورة (التوبة ٩):

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٠٣ ﴾.

ولما في العطاء من تزكية للنفس، قال الله تعالى في سورة (الليل ٩٢):

﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١ ﴾.

وهذه التزكية لا تكون إلا بمخالفة أهواء النفس وشهواتها، وقضية مخالفة أهواء النفوس يمكن أن تكون بتحويل ذكي فيه ارتقاء وشيء من المشقة عند الصعود، ولكن في هذا الارتقاء الشاق لذّات لا يظفر بها متبعو أهواء نفوسهم،

المنحدرون إلى أدناس الأخلاق وقبائح السلوك، مما يجدون فيه بعض متع زائلة منغصة بالأكدار والآلام.

(ج) ومن ثمرات خلق حب العطاء حل مشكلة حاجات ذوي الحاجات من أفراد المجتمع الواحد. فإبقاء هذه الحاجات من غير حل يعرض المجتمع إلى عواقب وخيمة، وويلات جسيمة، منها أن يتولد بين أفراده الحقد والحسد والبغضاء والشحناء والميل إلى العدوان والجريمة، والانطلاق الخطير في كل موبقة، وعندئذ يرتفع الأمن ويحل الخوف محله، ويكون الحصول على متع الحياة بالظلم والإثم، والحصول على ضرورات الحياة بالسلب والنهب، وتشيع في المجتمع فوضى الغاب، وتنحدر الحضارة إلى مستوى الظفر والناب، وعندئذ ينطلق من الشرور العجب العجاب.

ولكن متى شاع في المجتمع خلق حب العطاء الذي دفع إليه الإسلام، وجعله أساساً من أسس المجتمع الإسلامي، لم يكن لهذه الشرور الخطيرة آثار تذكر وتخشى.

(د) وفي تربية النفوس على خلق حب العطاء، إقامة سدٍّ واقٍ يمنع الأنفس عن الجنوح الخطير في مجال حب التملك والأثرة، فإنه متى جنحت الأنفس هذا الجنوح الخطير كان حب التملك غاية بنفسه، وليس مجرد وسيلة لتحقيق منافع الحياة ومصالحها، وعندئذ يستأثر بالإنسان داء الجمع والمنع، حتى يعيش حياته كلها جمّاعاً للمال، دون أن ينتفع بما يجمع منه، ثم تأخذه يد المنون فتعزله عن وظيفة حارس صندوق أو خازن مال، ليلقى حسابه العسير على ما جمع ومنع، فلا هو انتفع ولا هو نفع، ونعوذ بالله من شر هذا الداء.

— ٤ —

دافع التملك عند الإنسان

من المعترف به أن حب التملك أحد الدوافع النفسية عند الإنسان، وهو في مستواه المعتدل دافع نافع في الحياة، مفيد في عمران الأرض، وتنمية أرزاقها، واستخراج خيراتها، فإذا تجاوز حد الاعتدال، فدخل في دائرة الأنانية المفرطة، تولد عنه البخل والشح، وحب الاستئثار بكل شيء، والتسلط على كل شيء، فأمسى صاحبه ضنيناً لا يحبّ العطاء، ويصعب عليه التنازل عن أيّ شيء لغيره، ولو لم يكن بحاجة هو إليه.

وحين يقف عند حدّ الاعتدال، ويكون مقروناً بالعقل الرشيد والإيمان الراسخ، فإن صاحبه ينفتح حينئذٍ على خلق الله بالمحبة، والمودّة، وإرادة الخير، والرغبة بالمشاركة، فيندفع إلى إعطاء ذي الحاجة، بنفس هينة لينة سمحة، ويشعر بلذّة في العطاء أشد من لذة البخيل بامتلاك المال الكثير، وتحصيل الربح الوفير.

فالإفراط في الأنانية هو الداء الذي يتولد عنه البخل والشحّ، وعلى مقدار ما يكون الإنسان غيريّاً محبّاً للآخرين يكون في نفسه حبّ عطاء لهم، ثم بالتدرب على العطاء والشعور بلذّته في النفس يكون خلقاً من أخلاق النفس، وتتفاوت نسبة هذا الخلق في الأفراد، كسائر الأخلاق أسسها وفروعها.

ولئن كان حبّ التملك أحد الدوافع الفطرية، فإنّ الفضيلة الخلقية من شأنها أن تحدّ من الدوافع النفسية، وتضبطها عن الجنوح أو الغلوّ المفضيين إلى الفساد أو الضرر، وتحصرها في ضمن الدوائر التي تكون فيها نافعة مفيدة.

إن كلّ دافع من الدوافع النفسية له دائرة هو في ضمنها نافع ومفيد، فإذا تجاوز حدودها كان الزائد عليها ورماً خبيثاً ضاراً مفسداً يجب علاجه، وإلّا استشرى ونما نمواً مهلكاً. ودافع حبّ التملك أحد هذه الدوافع.

وقد زيّن الله للناس حبّ التملك والتسلّط على الأشياء لأمور عديدة من أمور الحياة: منها أن يتولّد في الناس الرغبة بالسعي لتحصيل وسائل العيش وجمعها،

وللقيام بعمران الأرض وبنائها، ولتحسين مرافق الحياة واستنباط الخيرات، وابتكار الأدوات والوسائل الحضارية الراقية، والرغبة بالقيام بالخدمات الخاصة والعامّة وتبادل التعاون الحضاري بين الناس، كلّ ذلك بدافع الطمع بالاستكثار ممّا يحب الإنسان تملكه والتسلّط عليه.

ولولا وجود دافع التملّك في النفس الإنسانية لرضي الناس بأدنى المستويات التي تدفع عنهم حاجات العيش، ولتعطلت أمور كثيرة من أمور الحياة الإنسانية.

وفي بيان وجود دافع حبّ التملك لدى الإنسان، قال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾.

ففي هذه الآية بيان أنّ حبّ التملك لدى الإنسان ليس له حدّ، فهو يحبّ تملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، مهما كانت زائدة عن حاجاته في الحياة، ويحبّ أن يتملك الشيء الكثير من عناصر الأموال الأخرى.

ولوجود هذا الدافع في الإنسان كان بفطرته قتوراً، وكان الشحّ حاضراً في نفسه قريباً منها، وكان منوعاً، إلاّ من آمن وعمل صالحاً، وتعلّقت آماله بالنعيم المقيم في جنة الخلد، فصعّد حبّه للتملك، وصرف معظم همّه وهمته عن زينة الحياة الدنيا، وعلّقها بحقائق النعيم العظيم المقيم في الآخرة.

قال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (المعارج ٧٠):

﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧) ﴾.

وقال تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ . . . (١٢٨) ﴾.

وقال تعالى في سورة (العصر ١٠٣):

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾.

فالله تبارك وتعالى يبين أن الإنسان قتور، فهو لا ينفق إلا بتقتير، مهما كان يملك من أموال وأرزاق، ولو أنه يملك خزائن رحمة الله التي لا تنفد ولا تنقص. ويبيّن أن الإنسان هلوع، ومعنى هلوع: أنه إذا مسّه الشرّ جزوع، وإذا مسّه الخير منوع، فهو كثير الجزع والضجر عند نزول المصائب به، وكثير البخل منوع إذا بسط الله له الرزق. ويبين أن الشح حاضر عند نفسه قريب منها. ويبيّن أنه في محيط من الخسر.

ويستثني الله المؤمنين، المصلّين المزكين، المصدّقين بيوم الدين، الذين يخافون عذاب ربّهم، ويعملون الصالحات ويتواصون بالحقّ، ويتواصون بالصبر.

إذاً: فوسائل تقويم الإنسان، وتعديل اتّجاه نفسه، وتصعيد دوافعه ومطالبه في الحياة، لا توجد إلّا في الدين الذي ارتضاه الله لعباده.

من الواضح المعترف به أنّ الإنسان مفطورٌ على حبّ نفسه، ومن حبّه لنفسه جزعه عليها إذا مسّه الشرّ، وحرصه على كلّ ما يمكن أن تحتاج إليه، إن عاجلاً وإن آجلاً، ومحافظته على أيّ شيء قد يكون سبب متعتها ولذّتها.

والإنسان في حدود هذه الفطرة العامة لا تنكر عليه فطرته، ولكنّه مع ذلك مفطورٌ أيضاً على صفة أخرى باستطاعتها أن تضبط فطرة أنانيته عن الجنوح، فتكبحها كلما توثبت لتجمح، وتعدلها كلما أخذت سبيلها إلى الشطط وتجاوز حدّ الخير، ألا وهي العقل الجامع لقدرات المعرفة، وللإرادة ذات السلطان في قيادة السلوك وتوجيه دوافع النفس. ونستطيع في هذا المقام أن نسمّي العقل في الإنسان ضابط التوازن.

إنّ قدرات المعرفة في الإنسان تستطيع أن تمدّ أنظارها بعيداً إلى الخير الآجل، فتتبصّر به، فإذا رأته أجلّ وأفضل من المتعة العاجلة، وجديراً بأن يتحمل الإنسان للظفر به بَذْلَ ما يحلو لنفسه من متع عاجلة، وتحمّل الصبر على المصائب والمكاره، قدّمت مشورتها ونصحها للإرادة العاقلة، وهنا يأتي دور العقل:

فإما أن يوجّه حركات النفس إلى الأَجَلّ الأفضل، فتصبر على مس المصائب القريبة، لتدفع بذلك ما هو أخطر منها وأشد ألماً وأكثر إزعاجاً، وتجلب ما هو أكثر فائدة وأخلد نعيماً.

وإما أن يتخاذل أمام عواء الشهوات والأهواء العاجلة، فيدع النفس تنطلق مع دوافعها الجاهلة الرعناء، حتى تطغى، وتتجاوز حدود الرأي الرشيد والعمل السديد، وتتجاوز حدود الخير والمنفعة.

فالإنسان أمام ما أعطاه الله من فطرٍ نفسية مفتوحة الحدود، وفطرة عقلية ضابطة للتوازن الخيّر، إما أن يكون نظره قاصراً وإرادته متخاذلة، فيجعل حساسية حبّه لنفسه مرتبطة بكل قريب عاجل، فيخسر بذلك مستقبله. وإمّا أن يكون نظره بعيداً، فيوجّه حساسيّة حبّه لنفسه إلى ما وراء حدود الزمن القريب، ويربط هذا الحبّ بأكمل صنوف الخير، وأعظم أنصبة النعيم لنفسه.

وأعلى مستويات هذا النظر البعيد مستوى نظر المؤمنين بالله، فهم بإيمانهم ينظرون إلى الكمال الأسمى، وإلى جنّة الخلد، وما فيها من نعيم مقيم، وينظرون إلى يوم الجزع الأكبر، وما فيه من عذاب أليم، فيهون عليهم أن

يضحّوا بالمتع العاجلة ويبذلوها، وأن يتحمّلوا الآلام العاجلة ويصبروا عليها، لأنّ ذلك هو الثمن في قانون العقل وسنن الله وشريعته لنيل ذلك الرفيع الأسمى، الذي هو أحبّ للنفس وأمتع وأرضى، ولدفع ما في يوم الجزاء من ألم هو أشد وأقسى وعذاب هو أمرّ وأدهى.

وفي حدود هذا النظر البعيد تكون فطرة الهلع في الإنسان مفيدة ونافعة، أمّا من دون ذلك فهي ضارة لهم، آخذة بهم إلى أودية الهلاك والخسران، والآلام الدائمة، والأحزان التي لا تزول، وإبرازاً لهذه الحقيقة، قال الله تعالى: ﴿والعصر إنّ الإنسان لفي خسر * إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾.

فالإنسان بتعلّقه بالعاجلة وإيثاره لها خاسر، وبنظره البعيد، وتعلّقه بالآجلة وإيثاره لها رابح سعيد، والخسران الذي جاء في سورة العصر بالنسبة إلى عموم الإنسان يشير إلى واقع حال الدوافع والغرائز التي فطر عليها الإنسان، فهي تأخذ بيده إلى الخسران في حدود النظر القاصر أو ضعف العقل، ولا ينجيه من ذلك إلاّ بُعد النظر وإيثار الآخرة، الأمر الذي يتحلّى به الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحقّ وتواصوا بالصبر.

ويشبه الاستثناء الذي جاء في سورة (العصر) الاستثناء الذي جاء في سورة (المعارج) فالإنسان قد خلق هلوعاً إذا مسّه الشر جزوعاً، وإذا مسّه الخير منوعاً، ولا ينجو من شرور هذا الهلع إلاّ المصلون لله، الذين هم على صلاتهم المفروضة دائمون، والذين في أموالهم حقّ معلوم للسائل والمحروم، والذين يصدّقون بيوم الدين، والذين هم من عذاب ربّهم مشفقون.

وهذه الصفات هي صفات المؤمنين، ولـمّـا كانت الصلاة هي السمة البارزة في حياة جميع أفراد المؤمنين ذكرهم الله بوصف المصلين.

وهكذا: فالإنسان قتور في حدود نظره القريب القاصر وضعف إرادته أمام دوافع نفسه العاجلة، أمّا إذا كان بعيد النظر عاقلاً ودخل في زمرة المؤمنين فإنه لا يكون قتوراً. وعلى مقدار بعد نظره يتهدّم من نفسه الحرص على الدنيا،

وما فيها من متع ولذّات، ويتولّد بدل ذلك في نفسه حبّ العطاء، طمعاً بما ادّخره الله للذين ينفقون في سبيله، وخوفاً ممّا أعتده الله من عذاب للبخلاء، الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله، فلا يؤدون ما فرض الله في أموالهم من حقوق. وبين الخوف من العذاب والطمع بالثواب يستقيم سلوك المؤمن ذي النظر البعيد، ويُحسن استغلال ما فُطِر عليه من طبائع، فينقلها إلى المواقع التي يحسن فيها الانتفاع منها، ويسمو بها إلى مراقي الكمال الخلقي.

أمّا إذا أساء الإنسان فأهمل بصيرته، وأهمل عقله، وسلّم قيادته لأهوائه وشهواته التي تحبّ العاجلة وتذر الآخرة، ولا تنظر إلى المستقبل وما يأتي فيه، فإنه لا بدّ أن يتوجه حبّه الأعمى لنفسه نحو الإمساك المذموم، والهلع الأرعن، والشحّ القبيح.

ـ ٥ ـ

التربية الإسلامية على خلق حبّ العطاء

وضع الإسلام كلّ ما يلزم من خطط وترتيبات، لتربية خلق حبّ العطاء في نفوس المسلمين، تقديراً منه لأهمية هذا الخلق العظيم في تزكية النفس، وفي توثيق روابط الأخوة بين المجتمع الإسلامي.

ولذلك حثّ حثّاً عظيماً على كلّ أنواع العطاء الخير، سواء أكان عطاءً معنويّاً أو عطاءً مادّياً، من خدمات ومعونات جسدية، أو عطاءات نفسية، أو ممتلكات مادّية، وسواء أكان عطاء عامّاً أو عطاءً خاصّاً.

والعملية التربوية الإسلامية الذكية قد أعدّت بحكمة بالغة، قُدّرت فيها العناصر المختلفة تقديراً حكيماً ملائماً للإنتاج المطلوب، كحكمة الصيدلاني إذ يقدّر العناصر الدوائية المختلفة بدقّة تامّة، لإعداد الدواء الملائم تماماً لعلاج الداء.

ونصفها بصورة مجملة فيما يلي:

١ ــ نضع عنصر حبّ الإنسان لنفسه، وقد عرفنا أنه عنصر جاهز في نفس الإنسان بحسب تكوينه الفطري.

٢ ــ نرفع درجة حرارته، فيتولّد عنه حبّ الإنسان كلَّ ما يفيده وينفعه ويمتعه ويلذّ له.

٣ ــ نضيف عنصر العقل الواعي، ذي البصيرة النافذة والنظر البعيد، ليقارن مقارنة صحيحة بين العاجل والآجل، وبين الدنيا والآخرة.

٤ ــ ستطفو على السطح شوائب الأهواء، ومجموعات من زبد النزوات النفسية، التي تؤثر العاجلة على الآجلة.

٥ ــ نطرح شوائب الأهواء، ومجموعات زبد النزوات النفسية، بوسائل حكيمة بارعة، حتى يتم نقاء المركّب النفسي ممّا لا نفع فيه، وممّا يجب أن يذهب جفاءً.

٦ ــ نضيف عنصر الطمع بما أعدّ الله يقيناً للذين ينفقون في سبيله، من نعيم مقيم، وجزاء عظيم، في جنة الخلد، ومن إخلاف وتعويض للباذلين في سبيل الله في الدنيا.

٧ ــ نضيف عنصر الخوف ممّا أعتده الله للبخلاء، الذين لا يؤدّون ما فرض الله في أموالهم، من عذاب أليم، ووعيد بالإتلاف لما بين أيديهم من أموال لم يؤدّوا منها حقّ الله.

٨ ــ نمزج العناصر السابقة مزجاً جيداً، ونرفع درجة حرارتها بوقود الإيمان بالله واليوم الآخر، ثم نعدّل درجة الحرارة ببرد اليقين الذي لا يداخله اضطراب.

بعد هذه العملية التربوية الإسلامية الذكية، لا بد أن تندفع نفس المؤمن إلى الجود بما تملك ابتغاء مرضاة الله، وطمعاً بما أعدّ الله للمنفقين في سبيله من ثواب عظيم، وخوفاً ممّا أعتد للبخلاء الممسكين من عذاب أليم.

وحين يتكرر في نفس المؤمن هذا الانفعال الخلقي نحو العطاء ابتغاء مرضاة الله،

ويأتي برد اليقين بعد ذلك بصفة متدرجة ويقترن بموجات الانفعال نحو العطاء شعور حلوٌ بلذّة ممارسته، ويمضي زمن كافٍ لاكتساب الخلق، عندئذٍ يغدو حبّ العطاء خُلقاً أصيلاً راسخاً في نفس المسلم المؤمن، بعد أن كان في بداياته ضئيلاً أو معدوماً.

بهذه التربية الإسلامية العظيمة، تمّت صناعة النماذج الراقية من الرجال المتحلّين بمكارم الأخلاق، والنساء المتحلّيات بمكارم الأخلاق.

وخلّدت معامل التربية الخلقية الإسلامية أعظم إنتاج ظهر في دنيا الناس، وكان المعلم الأول فيها رسول الله ﷺ ، وكان الهادي إلى سبيل الرشاد فيها كتاب الله وشرائعه التي أنزلها على رسوله، ونماذج التربية الربّانية التي ربّى الله بها أنبياءه ورسله عليهم صلوات الله تعالى وسلامه.

وبهذه التربية العظيمة على خلق حبّ العطاء، وبهذا التصنيع الخلقي الرفيع، استطاع أصحاب رسول الله ﷺ فتح العالم المتحضر يومئذ بالحضارة المادّية والمتخلّف في ميدان الحضارة الخلقية والحضارة الروحية الطاهرة، فكان سلطان الحضارة الروحية والخلقية أغلب وأقوى من سلطان الحضارة المادية، لأنه استطاع أن ينفذ إلى قلوب الشعوب التي تهيمن عليها الحضارة المادية، فيستولي عليها، وقد كانت قلوب هذه الشعوب ثغوراً مفتوحة ليس عليها حراس، وليس من دونها حصون.

وكان هذا هو المنطلق العظيم الذي انتصر به المسلمون.

بيان الوسائل:

وقد اتخذت التربية الإسلامية عدّة وسائل، لضبط دافع حبّ التملك عند الإنسان، وحصره ضمن الدائرة التي هو فيها نافع ومفيد، ومنعه عن أن ينمو نموّاً خبيثاً ضارّاً، ولغرس وإنماء حبّ العطاء، حتى يكون خلقاً من أخلاق المؤمن المسلم.

وفيما يلي بيان لأهمّ هذه الوسائل:

الوسيلة الأولى: تغذية الدوافع الفطرية الأخرى المعدّلة لهذا الدافع،

كالدافع الجماعي الذي يتولّد عنه مقدار ما من الغيرية، ويتولّد عنه حبّ العطاء.

فبزور الدوافع الفطرية المختلفة إذا نُمّيت وفق مقاديرها النافعة توازنت فيما بينها، وكان كلّ منها معدّلاً للآخر، وحاصراً له عن أن ينمو نمواً ضاراً، على حساب مواقع غيره في خريطة النفس.

الوسيلة الثانية: تقييد دافع حبّ التملك عن الانطلاق الحرّ في كلّ ميادين الكسب، ومنعه من أن ينطلق إلاّ في حدود ما أذن الله به، من وجوه كسب لا ظلم فيها ولا عدوان ولا ضُرّ ولا إثم.

الوسيلة الثالثة: تكليف المسلم بجملة من الحقوق المتعلقة بما يكسبه ويتملكه، كحقّ النفقة الواجبة، وحقّ الزكاة للسائل والمحروم، وحقّ مصالح المسلمين العامة، وإلزامُه بدفعها طائعاً راضياً، وإلاّ أخذت منه عَنوة وكرهاً. وفي هذه الوسيلة محاصرة لدافع التملك.

الوسيلة الرابعة: إقامة منافس في داخل نفس المسلم، وهذا المنافس يستطيع أن يكون قوّة حصار تكبح باستمرار محاولات جموح دافع التملك أو جنوحه.

هذا المنافس هو خلق حبّ العطاء، وقد عمل الإسلام على تربية هذا الخلق بوسائل وأساليب مختلفة، ومعلوم أنه لا يقوى في النفس الإنسانية كيان حبّ العطاء إلاّ على حساب محاصرة حبّ التملك ضمن الدائرة التي يكون فيها نافعاً ومفيداً، فكلّما حاول تجاوز دائرته قام حبّ العطاء فاستأصل الزوائد الضارّة، وأعاد النفس إلى مستوى التوازن، فلا حبُّ تملُّكٍ يطغى عن حدّه ودرجة قصده، ولا حبّ عطاءٍ يطغى عن حدّه ودرجة قصده.

وبالمزيج النفسي الخلقي السوي يعطي المسلم صورة للإنسان العامل في إقامة صرح الحضارة المثلى، العطوف الودود الغيري المعطاء.

الوسيلة الخامسة: الغوص إلى أعماق نفس المسلم، إلى حيث يستقرّ

الإيمان، ثم تحريك جانب الإيمان باليوم الآخر وتحريك محوري الطمع والخوف فيه بالترغيب والترهيب، وتصعيد مطامع النفس بالتملك، حتى تتوجه للرغبة بامتلاك ما هو أجلّ وأعظم، في جنة الخلد، حيث لا نهاية لأبعاد ما يملك المؤمن فيها، لا من جهة الكمّ، ولا من جهة الكيف، وعندئذ تصغر الدنيا وممتلكاتها في عينيه، ويهون في نفسه أن يتنازل عن بعض ما يملك من مال أو عن كلّ ما يملك، ابتغاء مرضاة الله.

ويشتد في نفسه خلق حبّ العطاء حتى يكون جواداً كلّما كان في الجود مرضاة الله جلّ وعلا.

وتتوازن بذلك شخصية المسلم المؤمن، ويرقّ قلبه تجاه ذوي الحاجات، وتتهدم أنانيته المقيتة.

الوسيلة السادسة: تدريب النفس على البذل، ولو عن طريق الإلزام.

قد تقف في وجه الإنسان مشكلة تغلّبه على نفسه، في مصارعتها عند محاولات البذل والعطاء، إذْ تَخَلّي الإنسان القتور في أوّل مراحله عما يملك أمرٌ صعبٌ عليه.

ولكنّ تدريب النفس على البذل والعطاء مرّة بعد مـرّة، مع معالجتها بالوسائل السابقة، قد يكسب النفس خلق حبّ العطاء، ففي المراحل الأولى يكون البذل صعباً على النفس، ثمّ يسهل شيئاً فشيئاً، ثم يكون حلواً، ثمّ تزداد حلاوته، حتى يكون ممتعاً للنفس ومسعداً لها.

وقد صوّر الرسول ﷺ معالجة النفس بهذه الوسيلة تصويراً غريباً ودقيقاً.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلُ البخيل والمتصدّق، كمثل رجلين عليهما جُنَّتان من حديد (أي: درعان من حديد) قد اضطرت أيديهما إلى ثُديّهما وتراقيهما، فجعل المتصدّق كلّما تصدّق بصدقة انبسطت عنه، وجعل البخيل كلّما همّ بصدقة قلصت وأخذت كلُّ حلْقةٍ بمكانها».

هذا الحديث يصوّر حالة الأنفس تصويراً بديعاً، ويمثّلها تمثيلاً بارعاً، فيصوّر الأنفس لدى محاولات البذل والعطاء في سبيل الله، بلابس درعٍ من حديد، وهذا الدرع ضاغطٌ على الصدر، وليس له أكمام تنطلق منها اليدان حتى تتحرّكا بيسر وسهولة وحرّية، يضاف إلى ذلك أنّ اليدين داخل الدرع مشدودتان إلى الثديين والترقوتين، في حالة تشبه الغلّ. وكذلك شحّ الأنفس يأخذ باليدين فيجعلهما مغلولتين إلى العنق.

ويصوّر الرسول ﷺ أثر التدريب العملي على البذل بقوله: «فجعل المتصدّق كلّما تصدّق بصدقة انبسطت عنه» أي: انبسطت عنه حلقات الدرع شيئاً فشيئاً، بتكرار تدريب النفس على دفع الصدقة، وينفرج الدرع الحديدي الضاغط شيئاً فشيئاً، حتى تتحرّر اليدان تحرّراً تاماً، على أنّ هذا يختلف من إنسان لآخر، بحسب استعداد النفس ومقدار التدرّب.

هذه الصورة التمثيلية تبرز مدى تأثير عمليات التدريب في اكتساب خلق حب العطاء، ونظيره سائر الأخلاق.

أمّا الذي لا يعالج نفسه بتحمّل مشقة التدريب على اكتساب هذا الخلق، فقد صوّره الرسول ﷺ بقوله: «وجعل البخيل كلّما همّ بصدقة قلصت وأخذت كلّ حلقة بمكانها» أي: قلصت الجُنَّة ـ وهي الدرع ـ على يديه، وأخذت كل حلقة بمكانها فلم تنفرج، لأنه لم يجد من قوّة إرادته ما يغلب به شحّ نفسه، الذي جاء تمثيله في الحديث بالدرع الذي تشتد حلقاته وتتقلّص على الجسم واليدين معاً. وإنما أدخلت اليدان في الدرع كما جاء في التمثيل، لأنهما أداة العطاء عادة، وإنّما ضُمّتا إلى الصدر والعنق، لأن هذه الصورة هي صورة البخل وصورة الشحّ، وهي الصورة التي يُكنَّى بها عن الشحّ، ولذلك قال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾.

فالشحيح الذي يجعل يده مغلولة إلى عنقه، ولا ينفق في سبيل الله، إنسان قصير النظر، يعمل ضدّ مصلحة نفسه، لأن عمله هذا سيجعله يقعد ملوماً محسورا على ما فرّط في حقّ نفسه، وفرّط في نصيبه من السعادة التي ينالها المنفقون في سبيل الله.

ومثله تماماً المبذّر الذي ينفق أمواله في معاصي الله، ويتبع خطوات الشيطان.

وهكذا نجد الإسلام يُربـي في معمله التربوي الإنسان الكامل، فيعدّل في نفسه الدوافع الأنانية بأضدادها من الدوافع الخلقية الفطرية والمكتسبة، وفق مناهج التربية الإسلامية، ومقاييسها وموازينها، وأدواتها، ووسائلها.

ولـمّـا كانت النفس الإنسانية وخصائصها المختلفة أعمق وأدقّ ما يوضع للبحث والدراسة والاختبار، كان معمل تربيتها أوسع المعامل وأكثرها دقّة.

وأقرب سبيل وأهداه لتعديل خصائص النفس الإنسانية وصفاتها، وللاستفادة من استعداداتها، أن توضع عجينة في يد التربية الإسلامية، حتى تصنعها صناعة راقية، وتجعل منها مزيجاً مثالياً.

وعندئذ يستطيع الإنسان أن يكون ربّانياً، صاعداً باندفاع سريع في سلّم الكمال الإنساني، الذي تتصل مراقيه العليا بسدرة المنتهى، حيث مكان القرب من الرب الجليل الأعلى.

وهذه الخصائص للتربية الإسلامية خصائص عزيزة المثال، وهي في غير شريعة الله لا تُطال ولا تنال.

ـ ٦ ـ

شرح وتفصيل للتربية الإسلامية على خلق حبّ العطاء . . مدعَّمان بالنصوص

لقد حثّ الإسلام على كلّ أنواع العطاء، وكلّ صُور المعونة والمساعدة، بالمال، أو بالنفس، أو بالجاه، أو بغير ذلك، ما دام العطاء في الخير لا في الشرّ.

١ ـ القدوة الحسنة:

كان الرسول صلوات الله عليه هو القدوة الحسنة والمثل الأعلى في الجود وحبّ العطاء، فقد كان أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان، إذ كان فيه كالريح المرسلة.

وقد بلغ صلوات الله عليه مرتبة الكمال الإنساني في حبّه للعطاء، إذ كان يعطي عطاء من لا يحسُب حساباً للفقر ولا يخشاه، ثقة بعظيم فضل الله، وإيماناً بأنه هو الرزاق ذو الفضل العظيم.

روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كان لي مثل أُحُد ذهباً لسرّني أنْ لا يمرّ علي ثلاث ليالٍ وعندي منه شيء إلاّ شيء أرصُدُه لِدَين».

إن الرسول ﷺ يقدّم بهذا النموذَجَ المثالي للقدوة الحسنة، لا سيما حينما نلاحظ أنه كان في عطاءاته الفعلية مطبقاً لهذه الصورة القولية التي قالها، فقد كانت سعادته ومسرّته عظيمتين حينما كان يبذل كلّ ما عنده من مال.

ثمّ إنه يربي المسلمين بقوله وعمله على خلق حبّ العطاء، إذ يريهم من نفسه أجمل صورة للعطاء وأكملها.

ومن التطبيقات العملية التي رويت لنا من سيرة الرسول ﷺ ما رواه البخاري عن عقبة بن الحارث، قال: صلّيت وراء النبي ﷺ بالمدينة العصر، فسلّم، ثم قام مسرعاً، فتخطّى رقاب الناس إلى بعض حجر نسائه، ففزع الناس من سرعته، فخرج عليهم، فرأى أنهم قد عجبوا من سرعته، فقال: «ذكرت شيئاً من تبر عندنا، فكرهت أن يحبسني، فأمرت بقسمته».

من تبر: أي من ذهب غير مضروب.

فقد خرج الرسول ﷺ عقب صلاته مسرعاً على غير عادته، حينما تذكّر أنّ عنده شيئاً من ذهب، وأسرع ليوزعه على ذوي الحاجات، ولـمّا رأى أنّ مباشرته لتوزيعه سيؤخره عن المسلمين أمر بتوزيعه، وعاد صلوات الله عليه إلى المسجد.

وروى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها أنّها قالت: كان لرسول الله ﷺ عندي في مرضه ستة دنانير أو سبعة، فأمرني رسول الله ﷺ أن أفرّقها، فشغلني وجع نبي الله ﷺ، ثمّ سألني عنها: «ما فعلت الستة أو السبعة؟» قلت: لا والله، لقد شغلني وجعك، فدعا بها ثمّ وضعها في كفّه، فقال: «ما ظنّ نبيّ الله لو لقي الله عز وجلّ وهذه عندي».

فهو صلوات الله عليه لم يسمح لنفسه بأن يبقي لديه سبعة دنانير، ويلقى الله قبل أن ينفقها في سبيل الله.

وروى مسلم عن أنس: «أنّ رجلاً سأل النبي ﷺ غنماً بين جبلين، فأعطاه إيّاها، فأتى قومه فقال: أي قومِ أسلموا، فوالله إنّ محمدّاً يعطي عطاءً ما يخاف الفقر».

وروى البخاري ومسلم عن جابر قال: «ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قطّ فقال لا».

وروى البخاري عن جبير بن مطعم، بينما هو يسير مع رسول الله ﷺ مقفله من حنين، فعلقت الأعراب يسألونه، حتى اضطرّوه إلى سمُرة، فخطفت رداءه، فوقف النبي ﷺ فقال: «أعطوني ردائي، لو كان لي عدد هذه العضاهِ نَعَم لقسمته بينكم، ثمّ لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً».

إلى سمُرة: أي إلى شجرة من شجر السمُر.

العضاه: اسم يطلق على أصناف مختلفة من الأشجار.

فالرسول يقول لهؤلاء الأعراب الذين تعلّقوا به: لو كان لي من النعَم،

من إبل وبقر وغنم، عدد هذه الأشجار التي تملأ الوادي لقسمته بينكم، ولم أبق لنفسي منه شيئاً.

فما أعظم جودك؟! وما أسخى نفسك؟! وما أكرمك؟! يا سيدي يا رسول الله، وما جودك هذا إلاّ خصلة من خصال خلقك العظيم الذي وصفك الله به.

٢ ـ حث الرسول على العطاء بشكل عام:

وقد حثّ الرسول ﷺ على العطاء، لتربية هذا الخلق الكريم في نفوس المسلمين، فمن ذلك ما يلي:

(أ) روى البخاري ومسلم عن أسماء قالت: قال رسول الله ﷺ: «أنفقي، ولا تُحصي فيحصي الله عليك، ولا توعي فيوعيَ الله عليكِ، ارضخي ما استطعت». وفي رواية: «ولا توكي فيوكى عليكِ»[١].

ولا توعي فيوعيَ الله عليك: يقال لغة: أوعى الطعام بالوعاء إذا جمعه فيه، ومراد الرسول ﷺ من هذا التوجيه لأسماء حثها على أن تتصدّق بفضل الزاد الذي يزيد عن حاجتها، ولا تدّخره في الأوعية، وهذا حثٌّ لها على مرتبة الكمال في العطاء، أو المراد والله أعلم حثّها على أن تعطي الكثير، من غير كيلٍ ولا تقدير، فهو على هذا نظير قوله لها: ولا تحصي فيحصي الله عليك.

ارضخي ما استطعت: أي أعطي ما استطعت من غير تقدير ولا إحصاء، وكأنّ هذا تفسير لقوله لها: ولا تحصي، ولا توعي.

(ب) وروى البخاري ومسلم عن أبي ذرّ قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو جالس في ظلّ الكعبة، فلمّا رآني قال: «همُ الأخسرون وربِّ الكعبة».

فقلتُ: فداك أبي وأمّي، منْ هُمْ؟

قال: «همُ الأكثرون أموالاً، إلاّ من قال هكذا وهكذا وهكذا. من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، وقليل ما هم».

---

(١) الوكاء: هو الرباط الذي يشد به فم السقاء أو الوعاء، والمراد لا تحبسي البذل فيحبس الله عنك.

أي: إلّا من أنفق في سبيل الله من كلّ الجهات.

فالمال إذا كان في يدٍ تقيّة سخيّة منفقة في سبيل الله فنعم المعونة هو، وإذا كان في يدٍ شحيحة ممسكة غير تقية فبئس جالب البلاء والعذاب هو.

(ج) ومن روائع التربية النبوية على الإنفاق في سبيل الله، ما رواه الترمذي وصحّحه عن عائشة، أنّهم ذبحوا شاةً، فقال النبي ﷺ: «ما بقيَ منها؟».

قالت عائشة: ما بقي منها إلّا كتفها.

قال ﷺ: «بقي كلُّها غير كتفها».

أي: إن عائشة رضي الله عنها قالت: ما بقي منها إلّا كتفها، لأنّهم قد تصدقوا بها، ولم يبقوا لطعامهم إلّا الكتف، فعكس الرسول ﷺ لها اللفظ، وأرشدها إلى أنّ الذي بقي لهم إنما هو الذي تصدّقوا به، وأمّا ما استبقوه لأنفسهم ليأكلوه فهو الفاني مع الحياة الدنيا وكلّ ما فيها.

(د) وروى مسلم عن أبي هريرة، أنّ الرسول ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلّا عزّاً، وما تواضع أحدٌ لله إلّا رفعه الله عزّ وجلّ».

فعطاء الصدقة لا ينقص من المال شيئاً، لأنّ الله سيخلفه.

(هـ) وروى البخاري ومسلم عن ابن مسعود، أن النبي ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلّطه على هلكته في الحقّ، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلّمها».

فالذي آتاه الله مالاً، فسلّطه على إنفاقه في الحق، أي: في سبيل الله، وفي كل أمر نافع يرضي الله تعالى ولا يسخطه، هو إنسان محظوظ من الخير، رفيع المنزلة عند الله، لذلك فهو حقيق بأن يحسد حسد غبطة على ما آتاه الله من خير عظيم، وكذلك الذي آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها فيعطي من علمه ولا يبخل به.

وحسد الغبطة: أن يتمنى المرء لنفسه مثل ما لأخيه من خير.

(و) وترغيباً بالعطاء والإنفاق في سبيل الله، لفت الرسول صلوات الله عليه النظر إلى نقطة مهمة جداً، وهي أن مال الإنسان هو ما أنفقه في سبيل الله، فقدّمه لآخرته، وأما ما ادخره لنفسه في الدنيا فهو مال الوارث، وليس ماله، لأنه ستأتيه المنية، فيترك كل شيءٍ للوارثين.

روى البخاري عن ابن مسعود، قال: قال النبي ﷺ: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟».

قالوا: يا رسول الله، ما منا أحدٌ إلا ماله أحب إليه.

قال: «فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر».

(ز) وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدق بعِدْل تمرةٍ من كسب طيب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فَلُوَّه (أي: مُهْره) حتى تكون مثل الجبل».

فالتمرة الواحدة يربيها الله بفضله، حتى تعظم فتكون مثل الجبل، ويكون الجزاء الرباني عليها بحسب المقدار الذي وصلت إليه.

(ح) وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه، إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً. ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً».

فما هذا النشيد الدعائي الغريب، الذي يردده هذان الملكان؟ إذا علمنا أن الملائكة مسخرة بأمر الله، علمنا أن دعاء هذين الملكين إنما يعبر عن مجرى سنة الله في عباده، فالله من شأنه أن يعطي المنفقين في الخير خلفاً لما ينفقون، ويعطي الممسكين عن الخير تلفاً لما يمسكون، ولئن رافق تطبيق هذه السنة إمهال من الله لحكمة هو يعلمها، فإنه تبارك وتعالى يمهل ولكن لا يُهمل.

(ط) ولذلك جاء في الحديث القدسي، فيما رواه البخاري ومسلم عن

أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: أنفق يا ابن آدم أنفق عليك».

فالذين ينفقون في سبيل الله يعوض الله لهم ما ينفقون، ويخلف لهم خيراً، وينفق عليهم.

(ي) ومن الأمثلة التطبيقية لمجرى هذه السنة الربانية، ما رواه مسلم عن أبـي هريرة عن النبـي ﷺ قال: «بَيْنا رجل بفلاة من الأرض، فسمع صوتاً في سحابة: اسقِ حديقة فلان، فتنحى ذلك السحاب، فأفرغ ماءه في حرّة[1]، فإذا شرجة[2] من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله، فتتبع الماء، فإذا رجلٌ قائم في حديقته يحوّل الماء بمسحاته، فقال له: يا عبدالله ما اسمك؟ قال: فلان ــ الاسم الذي سمع في السحابة ــ فقال له: يا عبدالله لمَ تسألني عن اسمي؟ فقال: إني سمعت صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه، ويقول: اسق حديقة فلان، لاسمك، فما تصنع فيها؟ قال: أما إذا قلت هذا، فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثاً، وأردّ فيها ثلثه».

أي: فهو يقاسم الفقراء قسمة مساوية لقسمته وقسمة عياله، لقد امتحنه الله بالغنى في زراعته، فكان من الشاكرين، فسخر الله له السحاب تسقي أرضه.

بخلاف مانعي الزكاة، فإن الله يمنع عنهم القطر من السماء ويرسل على زروعهم أسباب الإتلاف والإفساد.

هذه هي سنة الله في عباده يبارك للشاكرين، ويخلف لهم، ويزيدهم من فضله، أما الكافرون بأنعمه فيرفع عنهم البركة، ويسلط عليهم أسباب التلف والمحق.

(ك) ومن بديع القصص التي قصها رسول الله ﷺ، في شأن الابتلاء

---

(١) في حرّة: أي في أرض مملوءة بالصّخور غير صالحة للزراعة.

(٢) شرجة: مسيل الماء من الحرة إلى السهل.

بالنعمة، ومكافأة الشاكر بالمزيد، ومجازاة الجاحد بسلب النعمة، قصة المرضى الثلاثة: الأبرص، والأقرع، والأعمى.

روى البخاري ومسلم، عن أبي هريرة، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إن ثلاثة من بني إسرائيل، أبرص، وأقرع، وأعمى، فأراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكاً، فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟

قال: لون حسن، وجلد حسن، ويذهب الله عني الذي قد قذرني الناس.

فمسحه، فذهب عنه قذره، وأعطي لوناً حسناً، وجلداً حسناً.

قال: فأي المال أحب إليك؟

قال: الإبل.

فأعطي ناقة عشراء (العشراء: هي الحامل التي قاربت الوضع) فقال: بارك الله لك فيها.

قال: فأتى الأقرع (أي: أتى الملك الرجل الأقرع).

فقال: أي شيءٍ أحبُّ إليك؟

قال: شعر حسن، ويذهب عني هذا الذي قد قذرني الناس.

فمسحه، فذهب عنه، وأعطي شعراً حسناً.

قال: فأي المال أحب إليك؟

قال: البقر.

فأعطي بقرة حاملاً، وقال له: بارك الله لك فيها.

قال: فأتى الأعمى (أي: أتى الملك الرجل الأعمى).

فقال: أي شيء أحب إليك؟

قال: أن يردّ الله بصري، فأبصر به الناس.

فمسحه، فردّ الله إليه بصره.

قال: فأي المال أحب إليك؟

قال: الغنم.

فأعطي شاة والداً.

قال الرسول ﷺ: فأنتج هذان، وولد هذا، فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم.

قال الرسول ﷺ: ثم إنه (أي الملك) أتى الأبرص في صورته وهيئته، (أي: أتاه على صفة رجل مريض بداء البرص، كما كان هذا الرجل قبل أن يرفع الله عنه ضره).

فقال له: رجل مسكين، قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن، والمال، بعيراً أتبلغ به في سفري.

فقال: الحقوق كثيرة.

فقال: إنه كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيراً، فأعطاك الله مالاً؟

فقال له: إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر.

فقال: إن كنت كاذباً فصيَّرك الله إلى ما كنت.

قال رسول الله ﷺ: وأتى الأقرع في صورته (أي: وأتى الملك الأقرع في مثل الصورة التي كان الأقرع عليها من قبل).

فقال له: مثل ما قال لهذا (أي للأبرص) ورد عليه مثلما رد عليه هذا.

فقال: إن كنت كاذباً فصيَّرك الله إلى ما كنت.

قال: وأتى الأعمى في صورته وهيئته.

فقال: رجلٌ مسكين، وابن سبيل، انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري.

قال: قد كنت أعمى فرد الله إلي بصري، فخذ ما شئت، ودع ما شئت، فوالله لا أجْهَدُك اليوم بشيء أخذته لله.

فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رُضي عنك، وسُخط على صاحبيك.

ومضمون الامتحان الذي جاء في هذه القصة يتكرر كثيراً في حوادث الدهر، في كل عصر، وفي كل مصر.

(ل) وأبان الرسول ﷺ أن بذل الزائد عن حاجة الإنسان هو خير له، وأن إمساك الزائد عن حاجته شرٌّ له.

روى مسلم عن أبي أمامة صُدَيّ بن عجلان قال: قال رسول الله ﷺ: «يا ابن آدم، إنك إن تبذل الفضل خير لك، وإن تمسكه شرٌّ لك، ولا تُلام على كفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى».

أي: وابدأ بالإنفاق على من تجب عليك إعالتهم من الوالدين والأقربين، والزوجة والذرية والخادم، ثم انتقل إلى الإنفاق على غيرهم.

(م) وروى البخاري ومسلم عن عدي بن حاتم، أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا النار ولو بشق تمرة».

(ن) وروى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص، أن رسول الله ﷺ قال:

«أربعون خصلة أعلاها مَنيحة العنز، ما من عامل يعمل بخصلةٍ منها رجاء ثوابها وتصديقَ موعودها، إلا أدخله الله بها الجنة».

منيحة العنز: المنيحة من كل ذات لبن من النعم هي التي تُعار لتحلب وينتفع منها بحليبها، ثم ترد لصاحبها. ففي المنيحة فعل من الخير يتمثل بإهداء لبنها أو الصدقة به.

(س) وروى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص، أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أي الإسلام خير؟ قال:

«تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف».

دلت جملة النصوص الإسلامية على حرص الإسلام الشديد أن يربي في المسلمين خلق حب العطاء، على أن يكون في وجوه الخير وابتغاء مرضاة الله. كذلك نهت النصوص عن الإسراف والتبذير في الأمور التي لا خير فيها، وأرشدت إلى منهج الاعتدال بين البسط والقبض، وأبانت أن صفة الكمال الخلقي في الإنسان أن يكون في نفقاته الخاصة مقتصداً معتدلاً، لا مسرفاً ولا مبذراً، وأن يكون في البذل في وجوه الخير ابتغاء مرضاة الله جواداً سخياً. وعلمتنا النصوص الإسلامية أنه لا إسراف في فعل الخير مهما بلغ البذل فيه، ولا تبذير في بذلٍ يرضي الله تعالى مهما كان قدره، فالباذل في ذلك تاجر في عمله، بل هو أطمع الناس بالربح المضاعف، ولكنه طمع في فضل الله وثوابه العظيم، إذ يعلم أن الحسنة في ابتغاء مرضاة الله بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة لا يعلم مقدارها إلا الله تبارك وتعالى.

أما البذل في الشهوات الخاصة فهو في أدنى التقادير سيحاسب عليه حساباً يسيراً، فما للعاقل وللحساب، وميادين الربح الكثير الكثير مفتحة له فيها الأبواب؟!

إن التاجر العبقري هو التاجر الذي يعرف كيف يبذل ماله ليغنم مئات الأضعاف وما فوق ذلك، وهو تاجر من حق العقلاء أن يغبطوه في أمره، ويتمنوا لو كان لهم مثل خلقه في البذل في سبيل الله، وعندهم ما يتاجرون به مثل تجارته العظيمة الرابحة التي تفوق أرباحها كل الأرباح التي تقع في تقدير حساب الناس.

لذلك أبان الرسول ﷺ أن مثل هذا الرجل هو أحد رجلين يحق للمؤمن أن يحسدهما حسد غبطة على ما آتاهما الله من فضله. وحسد الغبطة أن يتمنى الإنسان لنفسه مثل ما لأخيه، وهو يسأل الله أن يديم نعمته على أخيه، ولا يخطر في فكره وقلبه رغبة بزوالها عنه، فقال صلوات الله عليه: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها».

فغبطة هذين الرجلين غبطة في أعظم ميدانين من ميادين الخير، ميدان بذل المال في طاعة الله، وميدان بذل العلم والحكمة في القضاء والتعليم.

لكن معظم الناس يبخلون أو يبذلون على أنفسهم وأهليهم بإسراف وتبذير، فإذا دعاهم الداعي إلى البذل في ميادين الخير ابتغاء مرضاة الله إذا هم يبخلون أو يشحون، وإن بذلوا شيئاً فإنهم يرشحون رشحاً بتقدير وتقتير.

والمال الضائع التالف عند الكثرة الكاثرة من الناس أحب إليهم من المال الباقي، ومال وارثهم أحب إليهم من أموال أنفسهم، وذلك لأن ما يبذلونه على شهواتهم إسرافاً وتبذيراً مالٌ تالف وهم يحبون ذلك، وما ينفقونه في سبيل الله مالٌ باقٍ ونامٍ، إذ ينميه الله حتى تكون الحبة كالجبل، وهم يكرهون ذلك، ولا تندفع نفوسهم إلى ادخاره عند الله، وتخليده في خزائن رحمته وفضله. والذين يبخلون يكنزون المال لوارثهم، وهم يحبون ذلك، فمال وارثهم أحب إليهم من مالهم، لأن ما يجمعونه بالكد والجهد، سيأخذه الوارث بالراحة التامة من غير كد ولا جهد، وهذا ما أبانه الرسول ﷺ لأصحابه، فقال لهم: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟» قالوا: يا رسول الله ما منا أحدٌ إلا ماله أحب إليه، قال: فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخّر».

وارتقاءً بالمسلم إلى المقام الأسمى من مقامات العقل والحكمة، عمل الإسلام على تربيته بالوسائل الكثيرة المختلفة على خلق حب العطاء، ومن هذه الوسائل وعد المنفق بالإخلاف، وإنذار الممسك بالإتلاف، فقال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً».

وفي الحديث القدسي أن الله تعالى قال: «أنفق يُنفق عليك».

وقال الله تعالى في سورة (سبأ ٣٤):

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

وقال رسول الله ﷺ لأسماء بنت أبي بكر: «لا توكي فيوكى عليك» وقال

لها: «أنفقي أو انفحي أو انضحي ولا تحصي فيحصي الله عليك، ولا توعي فيوعي الله عليك».

وقال ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال».

وأعطى الرسول ﷺ مثلاً رائعاً للمنفق والبخيل، وكيف أن المنفق بسماحة نفس تساعده نفسه على البذل، فكلما بذل تدرب على البذل وسهل عليه حتى يكون عادة له وخلقاً، فيكون بذلك جواداً، وكيف أن البخيل تكز نفسه فلا تساعده على البذل فلا يبذل، فيتدرب على البخل حتى يكون له عادة وخلقاً. فالباذل تلين له فطرة التقتير كصاحب الدرع الذي تتسع درعه كلما شد من أطرافها، والباخل تتصلب فيه فطرة التقتير، كصاحب الدرع الذي تلزق حلقات درعه في مواضعها فتضغط على صدره كلما دعاه الداعي إلى البذل، فقال صلوات الله عليه: «مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جنتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفي بنانه وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسعها فلا تتسع».

فدل هذا الحديث على عنصر فطرية الخلق، وعلى قابليته للتعديل بالممارسة والتدريب العملي، فالمنفق كان أول الأمر كالبخيل يشبهان لابسي درعين من حديد متساويين، وكأن الدرع مثال لما يضغط على الصدر عند إرادة النفقة، فمن يتدرب على البذل تنفتح نفسه كما يتسع الدرع فلا يكون له ضغط، وأما من يعتاد الإمساك فيشتد ضاغط البخل على صدره، فهو يحس بالضيق الشديد كلما أراد البذل، ومع الزمن يتصلب هذا الضاغط.

فنستفيد من هذا الحديث وسيلة التدريب العملي لاكتساب الخلق.

ومن الوسائل التي اتخذها الإسلام لتربية خلق حب العطاء ترتيب الجزاء العظيم، والوعدَ بالثواب الجزيل المضاعف يوم القيامة، للذين يبذلون من أموالهم في سبيل الله وابتغاء مرضاته، والوعد بتكفير السيئات والوقاية من عذاب النار. فمن ذلك:

قول الرسول ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة».

وقول الرسول ﷺ: «أربعون خصلة أعلاها منيحة العنز، ما من عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها وتصديق موعودها إلا أدخله الله بها الجنة».

وقول الرسول ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ــ ولا يقبل الله إلا الطيب ــ فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربِّيها لصاحبها كما يربـي أحدكم فَلُوَّه حتى تكون مثل الجبل».

فمقدار التمرة يتصدق به المؤمن من كسب طيب ينميه الله عنده حتى يكون مثل الجبل، ويربيه الله بعناية كما يربـي صاحب الخيل مهره بعناية فائقة حتى يكون فرساً جواداً.

وعلمنا الرسول ﷺ خمس قواعد ذهبية إذ قال: «يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خيرٌ لك، وإن تمسكه شرٌ لك، ولا تُلام على كفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السُّفلى».

فالقاعدة الأولى: إنك إن تبذل الفضل خير لك، والفضل هو ما زاد عن حاجة الإنسان في عيشه وعيش أهله.

هذه القاعدة النبوية تبين أن بذل الزائد عن الحاجة في وجوه الخير ابتغاء مرضاة الله، هو في كل الأحوال خير للإنسان وأفضل له، لأن بذله تجارة رابحة، وخلاص من مسؤولية ادخاره وحفظه واحتمالات منع الحقوق التي تتعلق به، وخلاصٌ من مزالق الافتتان به والطغيان بسببه.

والقاعدة الثانية: إن تُمسك الفضل شرٌّ لك.

وهذه القاعدة النبوية تبين أن إمساك الأموال الزائدة عن الحاجة شرٌّ للإنسان، ويظهر أن سبب كونه شراً أنه يتضمن في أول الأمر حرماناً من الخير العظيم الذي يغنمه الباذل في سبيل الله، والحرمان من الخير العظيم هو شر، وأنه يعرض ممسكه لمسؤولية ادخاره واحتمالات منع حقوق الله فيه، ثم يعرضه ثالثاً إلى مزالق الافتتان به والطغيان بسببه.

والقاعدة الثالثة: ولا تُلام على كفاف.

وهذه القاعدة تتصل بالقاعدة الثانية، وفيها توضيح لجانب السلامة والأمان، من مسؤوليات السؤال عن المال، واحتمالات السقوط في مهاوي الفتنة والهلاك، والوقوع في الشر بسببه.

والقاعدة الرابعة: وابدأ بمن تعول. أي وابدأ عند بذل المال بالإنفاق على من تعول من أهلك وأولادك وأبويك وسائر من تجب عليك نفقته.

وهذه القاعدة تشعر بأن الأقربين من بعد من يعول هم أحق بالبذل إليهم من غيرهم، على أن هذه الحقيقة قد جاءت مصرحاً بها في أحاديث أخرى.

والقاعدة الخامسة: واليد العليا خير من اليد السفلى.

وهذه القاعدة تتضمن توجيهاً تربوياً مهماً، ألا وهو إيقاظ مشاعر الكرامة الإنسانية، إذ تدفع الإنسان إلى أن يسعى جهده حتى يكون من أهل البذل وأصحاب اليد العليا المنفقة، لا من الذين هم عالة على غيرهم، أو من أصحاب اليد السفلى التي تأخذ الصدقات، ما لم تدعه الضرورة الملحة إلى شيء من ذلك.

إن المسلم الذي يشعر بكرامة نفسه ويجد سبيلاً لعمل يجني منه الرزق، لا تطاوعه نفسه أن يقعد عن العمل اتكالاً على ما ينفقه عليه المحسنون، أو ما يأخذه من صدقات المتصدقين، بل يكافح ويكدح ويعمل حتى يعف نفسه وأهله وذويه أولاً، ثم يكون من أصحاب اليد العليا التي تبذل الفضل، وتجود بالعطاء على ذوي الحاجات. والقادر على العمل والكسب هو غني بكسبه ما وجد إلى العمل والكسب سبيلاً، فليس له أن يسأل الناس وأن يقبل صدقاتهم.

٣ ـ التحذير من البخل:

(أ) قبل أن يحذر الإسلام من الشح والبخل، ويذم الأشحاء والبخلاء، أبان حقيقة من شأنها أن تشعر الإنسان بأنه ليس من حقه مطلقاً أن يبخل بشيء يقع تحت يده.

هذه الحقيقة هي أن أي شيء يملكه الإنسان في الصورة وفي عرف الناس، هو في حقيقته ملك لله، والإنسان موظف على إدارته، ومستخلف فيه.

قال الله تعالى في سورة (الحديد ٥٧):

﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾.

ففي هذا النص القرآني بيان من وجهين:

الأول: أن جميع ما في السماوات والأرض مملوك لله تعالى، وأنه داخل تحت سلطان ملكه.

الثاني: أن ما تحت أيدي الناس من أموال هي لله تعالى، ولكن الله تعالى قد جعلهم مستخلفين فيها، ليمتحنهم في تصرفاتهم، وليختبر كيف تكون طاعتهم لأوامره ونواهيه، ولذلك قال تعالى: ﴿وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾ أي: ليس لكم فيه ملك كامل ثابت، ولكن لكم فيه استخلاف مؤقت، وهذا الاستخلاف عُرضة للتبديل والتغيير من شخص لآخر، ومن أمة لأخرى، ثم يكون الميراث الحقيقي لمن له الملك الحقيقي، وهو الله تعالى مالك كل شيء، ولذلك قال الله تعالى في سورة (مريم ١٩):

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

ومع أن التغيير والتبديل في الاستخلاف من شخص لآخر، ومن أمة لأخرى، ظاهر في سنن الله الدائمة، فقد صرح به القرآن منبهاً عليه في مناسبات شتى، فمن ذلك قول الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

ففي هذه الآية تهديد رباني بتحويل الاستخلاف، حينما يسيء المستخلفون، ويتعدّون الحدود التي حدها لهم من استخلفهم.

أما الوعد الرباني بالاستخلاف المستقر الثابت، فهو للذين آمنوا وعملوا الصالحات، ويستقر لهم الاستخلاف ما داموا متحلين بالصفات التي تؤهلهم له، فإذا فسدوا وانحرفوا كان شأنهم عرضة للتغيير والتبديل بحسب حكمة الله، كشأن غيرهم من الأمم، وهذا الوعد الرباني نجده في قول الله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

وهكذا أكدت لنا النصوص أنّ الناس مستخلفون استخلافاً فيما تحت أيديهم، ممّا يرون أنهم مالكون له، وليسوا مالكين ملكاً حقيقياً.

وحينما نطلق كلمة الملك بالنسبة إلى الناس، فإنما نطلقها بمعنى إباحة التصرف بما تحت أيديهم، بموجب الإذن الرباني، وبالإضافة إلى مبادىء الحقوق فيما بينهم. أما بالنظر إلى الحقيقة الكبرى وواقع الأمر فالملك لله، وقد استخلف الله الناس فيما جعل تحت أيديهم من ملكه العظيم، مع أنهم وما استخلفهم فيه مملوكون لله خالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم عز وجلّ.

(ب) وبعد أن أبان الإسلام الحقيقة السابقة حذّر من الشح والبخل تحذيراً شديداً، وبين أن الشح قد كان سبباً في إهلاك الأمم السابقة، إذ حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلّوا محارمهم.

روى مسلم عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشحّ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم».

وحـذّر الله البخلاء من عاقبة بخلهم ببذل ما فرض الله عليهم بذله، فقال تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ ﴾.

ففي هذه الآية تخويف شديد من عقاب الذين يبخلون، فلا يؤدون ما فرض الله في أموالهم من حقوق، وإقناع لهم بأن بخلهم بما آتاهم الله من فضله شرٌّ لهم وليس خيراً لهم. والعاقل الرشيد إنما يسعى لجلب الخير لنفسه وإبعاد الشرّ عنها.

والعذاب الذي يخوّفـون منه هو أنهم سيطوَّقون ما بخلوا به يوم القيامة، فما المراد من هذا التطويق؟

هو على وجه العموم تطويق عذاب بالشيء الذي بخلوا به في الدنيا، إنهم لـمّـا جعلوا أيديهم مغلولة إلى أعناقهم، فلم يبذلوا ما فرض الله في أموالهم، عوقبوا يوم القيامة بعقاب من جنس عملهم، إذ يجعل ما بخلوا به غلاً في أعناقهم يشتد عليها بالعذاب، وقد جاء في كلام الرسول ﷺ تفسير هذا الغـلّ بأنّه ثعبان مخيف أقرع من شـدّة سُمّـه، يطوقه يوم القيامة، ثمّ يأخذ بشدقيه، ثـمّ يقول له: أنا مالُك، أنا كنزك.

روى البخاري في صحيحه عن أبـي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته، مُثّل له مالُـه يوم القيامة شجاعاً أقرع[1] له زبيبتان[2] يطوّقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه ــ يعني شدقيه ــ ثم يقول: أنا مالك أنا كنزك، ثم تلا رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿ولا يحسبنّ الذين يبخلون

---

(١) الشجاع الأقرع: هو الثعبان الخبيث الذي سقط شعر رأسه من كثرة سمه.

(٢) له زبيبتان: أي له نقطتان سوداوان فوق عينيه وهما تدلان على أنه من الأفاعي الخطيرة السامة.

بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم، بل هو شرّ لهم، سيطوَّقون ما بخلوا به يوم القيامة، ولله ميراث السماوات والأرض، والله بما تعملون خبير﴾.

وبعد التخويف من هذا العذاب ختم الله الآية، بإعلان الحقيقة الكبرى التي تثبت أن الإنسان مستخلف فيما تحت يديه من أموال، وأن الميراث لله تعالى، فقال تعالى: ﴿ولله ميراث السماوات والأرض﴾ وبعد ذلك نبّه على حقيقة عِلْمِه تعالى بما يعمل الناس فقال: ﴿والله بما تعملون خبير﴾.

وقال الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

فبشرهم بعذاب إليم: استعملت البشارة في جانب الإخبار بالعذاب الأليم على سبيل التهكم، وذلك لأنهم ينتظرون من كنزهم في الدنيا بشارات سارة تأتيهم، ممّا يمتعهم أو يضاعف ثرواتهم، فجاءت البشارة لفظاً فقط، وهي في الحقيقة إنذار، وفي تغليف الإنذار لهم بعبارة البشارة، تعذيبٌ نفسي لهم، في مقابل فرحهم في الدنيا بما كنزوا ومنعوا حقوق ذوي الحقوق.

وصورة العقاب للذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، أن يؤتى يوم القيامة بصفائح من ذهب وفضة، على مقدار ما كنزوا، فيحمى على هذه الصفائح في نار جهنم، حتى إذا اشتدّت حرارتها وتوهجت، جاءت بها ملائكة العذاب، فيكوونه من جهاته الأربع، يكوون بها جبهته وجنبَيْه وظهره.

وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة صفّحت له

صفائح من نار، فأحمي عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما ردَّت أعيدت له، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار».

وقد دل هذا الحديث على أن عذاب الكانزين، بالكيّ، بالصفائح المحماة في نار جهنم، يكون يوم القيامة، والناس في موقف الحساب، قبل أن يتم القضاء بين العباد، ويؤخذ أهل الجنة للجنة وأهل النار للنار.

أما مانعو زكاة الإبل والبقر والغنم وغيرها من الأموال، فقد سئل الرسول ﷺ عنها كما جاء في تتمة هذا الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة، وأجاب الرسول بما يعلم مما أنزل عليه.

قال أبو هريرة: قيل: يا رسول الله فالإبل؟ قال: «ولا صاحب إبلٍ لا يؤدي منها حقها ـ ومن حقها حلبُها يوم وردها ـ إلا إذا كان يوم القيامة، بطح لها بقاعٍ قرقر (أي: بُطح لها صاحبها بأرض واسعة ملساء مستوية) أوفر ما كانت، لا يفقد منها فصيلاً واحداً، تطؤه بأخفافها، وتعضه بأفواهها، كلما مر عليه أُولاها رُدّ عليه أخراها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار».

فقيل له: يا رسول الله، فالبقر والغنم؟. قال: «ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدي منها حقها، إلا إذا كان يومُ القيامة، بطح لها بقاعٍ قرقر، لا يفقد منها شيئاً، ليس فيها عقصاء[1] ولا جلحاء[2] ولا عضباء[3] تنطحه بقرونها، وتطؤه بأظلافها، كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إمّا إلى الجنة وإمّا إلى النار».

قيل: يا رسول الله، فالخيل؟. قال: «فالخيل ثلاثة: هي لرجل وزر،

---

(١) عقصاء: أي ملتوية القرنين.
(٢) جلحاء: أي لا قرون لها.
(٣) عضباء: أي مكسورة القرن.

وهي لرجل ستر، وهي لرجل أجر، فأما التي هي له وزر، فرجل ربطها رياءً وفخراً ونواءً[1] على أهل الإسلام، فهي له وزر. وأما التي هي له ستر، فرجل ربطها في سبيل الله، ثم لم ينس حق الله في ظهورها ولا رقابها، فهي له ستر. وأما التي هي له أجر، فرجل ربطها في سبيل الله لأهل الإسلام، في مرج أو روضة، فما أكلت من ذلك المرج أو الروضة من شيء إلّا كتب له عدد ما أكلت حسنات، وكتب له عدد أرواثها وأبوالها حسنات، ولا تقطع طِوَلَها (أي: حبلها) فاستنّت شرفاً أو شرفين (أي: ركضت شوطاً أو شوطين) إلّا كتب الله له عدد آثارها وأرواثها حسنات، ولا مرّ بها صاحبها على نهر فشربت منه ولا يريد أن يسقيها، إلا كتب الله له عدد ما شربت حسنات».

قيل: يا رسول الله، فالحُمُر؟ قال صلوات الله عليه: «ما أنزل عليّ في الحُمُر شيء إلا هذه الآية الفاذة الجامعة: ﴿فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرّاً يره﴾».

وفي إشارة الرسول ﷺ إلى هذه الآية توجيه إلى أن جميع أصناف الأموال فيها بذل يدخل في عموم الخير، وفيها منع يدخل في عموم الشرّ، ولكلٍّ منهما جزاء بحسبه.

ويدل على أن جميع أصناف الأموال فيها حقّ للسائل والمحروم، قول الله تعالى يصف المتقين في سورة (الذاريات ٥١):

﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ۝١٩﴾.

وقول الله تعالى في سورة (المعارج ٧٠):

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ۝٢٣ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ۝٢٥﴾.

---

(١) نواء على أهل الإسلام: أي منازعة ومعاداة لهم.

فذكر الله سبحانه عموم الأموال، ولم يخصص منها صنفاً دون صنف.

(ج) وذكر الله من صفات المختالين الفخورين، أنهم يبخلون، ويأمرون الناس بالبخل، ويكتمون ما آتاهم الله من فضله، وأبان أنه لا يحبّهم، وأنهم كافرون بأنعم الله عليهم، وأنه أعتد لهم عذاباً مهيناً، فقال تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ ﴾.

لدى التبصر في واقع أحوال الناس، نلاحظ تشابكاً في كثير من الظواهر السلوكية الدالة على بواعث خلقية في النفس، وقد تختلف الظواهر أو تتباين، ولكنها ترجع إلى جذور خلقية واحدة.

وهنا نلاحظ أن معظم المستكبرين في نفوسهم، والذين يعبرون عن استكبارهم بالاختيال إذا مشوا بين الناس، وبالافتخار عليهم؛ هم بخلاء بأموالهم، بخلاء بأنفسهم وخدماتهم ومعوناتهم، بخلاء بجاههم، لا يحبون العطاء، ويأمرون بالبخل، لأنهم يكرهون في أنفسهم أصل العطاء، سواء أكان منهم أو من غيرهم، ولأنهم لا يريدون أن يوجد في الناس من ترتفع مكانته عليهم بعطائه، ولستر نقيصة البخل فيهم يكتمون ما آتاهم الله من فضله، فلا يظهرونه، وقد يتظاهرون بعدم السعة.

يضاف إلى ذلك أنّ المصابين بداء الكبر النفسي، يفقدون في الواقع العناصر الحقيقية التي ترفع أقدارهم بين الناس إلى المستوى الذي يطمحون إليه، لذلك فهم يحرصون على امتلاك كل شيء يشعرهم امتلاكهم له بارتفاع قدرهم بين الناس، ولذلك فإن من أشدّ الأمور على نفوسهم أن يتنازلوا عن شيء منه بعطاء. وفوق ذلك لا يريدون من غيرهم أن يصدر عنهم عطاء، حتى لا يساعدهم هذا على منافستهم في مكانتهم، التي بنوها لأنفسهم بأوهامهم، ورفعوا قواعدها بتخيلاتهم.

ومن البواعث التي تجعل هذا الفريق من الناس يأمر بالبخل، حرصهم على عدم توسيع دائرة الطبقة الاجتماعية التي هم منها، ومحافظتهم على الفوارق الطبقية بينهم وبين الفقراء، وهذا يرجع إلى عنصر الكبر الطبقي، وقد يتعلّلون بأن المشيئة الإلهية أرادت أن يكون في المجتمع طبقة فقراء أذلاء، وطبقة أغنياء أعزاء، فيقولون كما أخبر الله عنهم في سورة (يس ٣٦):

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾.

فهم يتعلّلون بأن مشيئة الله أرادت أن تجعل الفقراء في مرتبة دنيا في الحياة، فليس من الهدى معاكسة هذه المشيئة الربانية، وإطعام ذوي الحاجة من الفقراء والمساكين، ويغمضون أعينهم عن حكمة الامتحان، وأنّ الله قد أغناهم ليمتحن شكرهم لله بعطاء ذوي الحاجات، وأفقر أولئك ليمتحن صبرهم، ورضاهم عن الله، وبعدهم عن الحسد. إنهم يصرفون عن أفكارهم تصوّر هذه المعاني، لأن أهواءهم تشدّهم إلى مواقع الاستكبار البخيل، والبخل المستكبر.

٤ ـ التوجيهات الإسلامية لإنفاق الأموال في سبيل الله:

أغلى المال وأعزّه على نفس مالكه ما وصل إليه بجهد بذله، إذ يشعر مالكه بأنه قيمة لما بذل في تحصيله من جهد، وكثيراً ما يكون المال قيمة اعتبارية يقدّر بها نسبة الجهد المبذول والطاقة المنفقة، فالقيمة الحقيقية هي للطاقة التي تبذل، والمال رمز لها، على أنّ الطاقة النافعة هي أثمن ما يملك، وأكرم ما يبذل، ولذلك كان العمل الصالح هو الثمن الذي تنال به المراتب الرفيعة في جنة الخلد، ولا يكون العمل إلا ببذل الطاقة، والطاقة جزء من كيان حياة الإنسان، وحياة الإنسان المشتملة على أنواع طاقاته هي رأس ماله، وهي الكنز الثمين الذي وهبه الله إياه.

وبهذه الاعتبارات المتداخلة يحب الناس المال، ويعتبرونه شقيقاً للروح، وبهذه الاعتبارات كان عطاء المال في سبل الخير من كبريات الفضائل، وبهذه

الاعتبارات اشترك الجهاد بالمال مع الجهاد بالنفس في مجال فضيلة واحدة من فضائل الأخلاق وفضائل السلوك.

ولذلك جمع القرآن الكريم في آيات متعدِّدة بين الجهاد بالمال والجهاد بالنفس، إشارة إلى اشتراكهما في مجال فضيلة واحدة، وإشارة إلى ضرورتهما أو الحاجة الماسة إليهما في أمور كثيرة من أمور الحياة، ومن هذه الأمور الدعوة إلى دين الله، وإقامة الحق والعدل بين الناس.

ونستعرض فيما يلي طائفة من النصوص الإسلامية التي توجه المسلمين إلى إنفاق أموالهم في سبيل الله.

(أ) يقول الله تعالى في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾.

فقد جعلت هذه الآية من أبرز سمات المؤمنين ثباتهم على عقيدتهم، وجهادهم بأموالهم وأنفسهم، لكنّ الشرط الذي لا بدّ منه في هذا الجهاد هو أن يكون في سبيل الله.

(ب) ويقول الله تعالى في سورة (الصفّ ٦١):

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ؟ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

ففي هذا النص القرآني إرشاد إلى تجارة عظيمة منجية، وقد جاء هذا الإرشاد في صورة استفهام مملوء برقة الدعوة ﴿هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب إليم؟﴾.

وبعد بيان العناصر التي أرشد إليها القرآن، وهي الثبات على الإيمان، والارتقاء في منازله، والجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس، جاءت الإشارة إلى الأساس الأخلاقي العام الذي ترتكز عليه هذه العناصر، ألا وهو الأخذ بمبدأ الخير﴿ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿إن كنتم تعلمون﴾ توجيه إلى أن هذا الأساس الأخلاقي في هذه العناصر أساس علمي ثابت، ومبدأ لا يجحده أهل البحث العلمي السليم، بل يثبتونه ويقرّونه ويأخذ به العقلاء منهم.

وفي قوله تعالى: ﴿يغفر لكم ذنوبكم، ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار، ومساكن طيبة، في جنات عدن، ذلك الفوز العظيم، وأخرى تحبّونها: نصرٌ من الله وفتح قريب، وبشر المؤمنين﴾، بيان لثمرات التجارة الرابحة التي أرشد إليها النص، وهي:

أولاً: أن الله تعالى ينظر إلى صدق الذين آمنوا بالله ورسوله، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، فيغفر لهم ذنوبهم، ويكفر عنهم سيئاتهم.

ثانياً: أنّ الله تعالى يجزيهم بالنعيم المقيم في دار الخلد، وذلك هو الفوز العظيم.

ثالثاً: أنّ الله تبارك وتعالى يمنحهم ثواباً معجّلاً يحبّونه ويرجونه في الدنيا، ألا وهو النصر على أعدائهم، والفتح القريب الذي يظفرون فيه بالمجد العظيم والمغانم الكثيرة. وقد تحقّق وعد الله، وما يزال يتحقق في كلّ زمان.

(ج) ويقول الله تعالى في سورة (فاطر ٣٥):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾.

هذا النص من النصوص التي نزلت في المرحلة المكية قبل أن يأتي دور

الجهاد ببذل النفس، ولذلك كانت الدعوة القرآنية حينئذٍ توجّه للإنفاق في سبيل الله، وتُبَين أنّ الأخذ بهذه الفضيلة أخذ بتجارة لن تبور، نظراً إلى أن بذل المال شقيق بذل الروح، ومرحلة العمل هي التي تحدّد ما ينبغي على المؤمنين بذله من مالٍ أو نفس، أو مالٍ ونفس معاً.

وفي المرحلة المكية كانت الدعوة إلى بذل المال، بالإضافة إلى المقوّمات الأخرى الفكرية والنفسية والجسدية واللّسانية، هي الدعوة التي تستدعيها هذه المرحلة بالذّات. ولذلك نجد في هذا النصّ توجيهاً لتلاوة القرآن، لاكتساب المعرفة الدينية الحقة، وترسيخها في أفكار المؤمنين ونفوسهم، ونجد توجيهاً لإقامة الصلاة، لاكتساب الصلة الروحية بالله، ثم توجيهاً للإنفاق في سبيل الله. ولكلّ ذلك تُرجى التجارة التي لن تبور، أي: لن تكسد، فهي إذن تجارة رابحة، إذ يوفيهم الله أجورهم، ويزيدهم من فضله عطاءً، ويغفر لهم خطاياهم، ويشكر لهم صالحات أعمالهم، ﴿إنه غفور شكور﴾.

(د) ويقول الله تعالى في سورة (سبأ ٣٤):

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

ففي هذا النص القرآني بيان لجملة من الحقائق المشجعة على الإنفاق في سبيل الله:

* أنّ الرزق بيد الله.

* أنّ الله هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدِر له، فليست القضية قضية جهد ولا ذكاء شخصي.

* أنّ الله يُخلف للمنفقين في سبيله ما أنفقوه.

* أنّ الله هو خير الرازقين، فيرزق عباده وفق مقتضيات حكمته.

(هـ) ويقول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾.

هذا نصّ عظيم في التوجيه للإنفاق الكريم المطلوب في الإسلام، المقرون بابتغاء مرضاة الله، وإكرام المبذول له في ذات نفسه وفيما يُبذل له.

والآية الأولى من هذا النصّ، تصوّر مبلغ الربح العظيم الذي يحققه الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، فهو يتضاعف عند الله إلى إضعاف كثيرة، وتغمز في النفوس مركز الطمع، فتثيره إثارة قوية جداً، فيندفع إلى البذل في سبيل الله أملاً بتحقق الربح الكبير.

ومن بديع ما جاء في هذه الآية أنّها لم تقل مباشرة: إنّ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله يضاعف لهم الثواب إلى سبعمائة ضعف، ولكنّها دلّت عليه في صورة تشبيهية، إذ شبهته بعمل زراعيّ عظيم الإنتاج، تنبت فيه الحبة الواحدة سبع سنابل، وتحمل كلّ سنبلة منها مائة حبّة، وبعملية حسابية بسيطة يعطي ناتج الضرب سبعمائة.

والغرض من الإعلام بالأجر العظيم عن طريق هذا التشبيه، اجتذاب نفس السامع إلى عذوبة العرض وحلاوة التشبيه، ووضع المضاعفة الحسابية في صورة مشهودة، واستغلال فكرة الإنسان عن واقع النماء الزراعي الذي يعتمد على فضل الله في الحياة، لتقريب فضل الله العظيم جزاء ما يزرعه الإنسان في هذه الحياة من عمل صالح يقصد به وجه الله تعالى. فإذا كانت الزراعة في الأرض قد تعطي هذه المضاعفة في الربح، بفضل ما أودع الله فيها من خصائص مادّية، فكيف تكون زراعة العمل الصالح والنفقة المراد بها وجه الله في جنّة مرضاة الله؟ كيف تكون المضاعفة فيها، وهي المجال الأعظم الذي يظهر فيه عظيم عطاء الله الذي لا حدّ له، وعظيم فضله الذي لا انقطاع له.

لكنّ الإنفاق الذي ينال صاحبه عليه هذا الأجر العظيم عند الله تعالى له شروط، وهذه الشروط مبينة في الآية الثانية من النص، وهي قوله تعالى: ﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منّاً ولا أذى * لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

* وقد اشتملت هذه الآية على بيان شرطين لسلامة الإنفاق ممّا يفسده:

الشرط الأول: أن يكون في سبيل الله، لا رياءً، أو طمعاً بمغانم ومنافع دنيوية، ولا يكون في سبيل الله إلاّ إذا كان موافقاً لشريعة الله لعباده.

الشرط الثاني: ألاّ يتبع المنفق نفقته بالمنّ ولا بالأذى.

ويكون المنّ بأن يتحدّث المعطي بعطائه أمام من أعطاه، أو أمام غيره من الناس، إشعاراً بالتفضّل عليه، وللمنّ دركات بعضها أخسّ وأحطّ من بعض.

وفي المنّ كسر لقلب آخذ العطاء، أو إهانة لكرامته، ولذلك كان مفسداً للعطاء. والمنّ قد يؤثر على الإخلاص في العطاء، حتى يكون عطاء رياءٍ وسمعة، لا عطاءً في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وهو يحتُّ من الإخلاص بمقدار ما فيه من أهداف صارفة عن ابتغاء مرضاة الله تعالى.

أمّا الأذى في العطاء فله صور كثيرة منها ما يكون بالمنّ ومنها ما يكون بغيره. ومن الأذى عند العطاء إشعار الآخذ بنزول مكانته، أو إهانته عند عطائه، أو الاستعلاء عليه والاستكبار، أو توجيه عبارات نقد لاذع لسلوكه الذي أحوجه إلى تقبّل عطاءات الناس، أو التشهير به ولو بسلوك لا كلام فيه، كوضعه في موقف يعلم الناظرون إليه فيه أنه في موقف ذلّة ومهانة وحاجة، أو جعله يتردّد على الأبواب بالمواعيد التي لا تنجز، أو تسخيره بالأعمال المذلّة له، استغلالاً لحالته التي أحوجته إلى تقبّل عطاءات ذوي العطاء، وهكذا إلى سائر ما فيه إذلال له، أو إهانة لكرامته، أو استغلال لحاجته أو ضرورته.

وكثير من ذوي العطاء والإحسان يفسدون عملهم بمثل هذه الصور من الأذى، الذي يؤذون به من يعطونهم أو ينفقون عليهم من ذوي الحاجات.

* ولذلك أكّدَ الله تبارك وتعالى النهي عن إتباع الصدقة بالمنّ والأذى، في ثلاث صور:

الأولى: قوله تعالى: ﴿الذين ينفقون في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منّاً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ وفي هذه الصورة بيان لمبلغ الأجر العظيم للمنفقين في سبيل الله، الذين لا يتبعون ما أنفقوا منّاً ولا أذى.

الثانية: قوله تعالى: ﴿قولٌ معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم﴾ وفي هذه الصورة مقارنة بين عطاء يتبعه أذى، ومنعٍ مقرون بقول معروف رقيق الحاشية مهذب، وستر جميل لحال السائل، وبيان أن هذا خير وأكرم وأفضل.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صـدقاتكم بـالمنّ والأذى﴾ وفي هذه الصورة بيان أنّ إتباع الصدقة بالمنّ والأذى مبطل لها، مفسد لجوهرها الكريم، محبط للأجر عليها. وبهذا الإفساد اللاحق تكون الصدقة في سبيل الله مشابهة للصدقة التي لا يبتغى بها وجه الله.

ثم يتابع النصّ، فيشبّه من يبطل صدقته بالمنّ والأذى بالذي لا يُحسَب له عند الله عطاء أصلاً، لأنه لم ينفق في سبيل الله، وإنما أنفق رئاء الناس، وابتغاء ثناء أو منافع تأتي من قبلهم، فقال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى، كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾.

أي: فيكون مثلكم في النتيجة ـ إذ يحبط عملكم بالمنّ والأذى ـ كمثل الذي ينفق ماله رياءً وسمعة، وهو لا يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا هدف له يرجوه إلّا المنافع الدنيوية العاجلة من الناس، ومن هذه المنافع ما يحقق لنفسه عندهم من مجد.

ثم انتقل النصّ فشبّه الذي ينفق ماله رئاء الناس وهو لا يؤمن بالله واليوم الآخر، بصورة مادية تتكرر في مشاهد الأحداث الكونية، فقال الله تعالى: ﴿فمثله كمثل صفوانٍ عليه ترابٌ، فأصابه وابل فتركه صلداً، لا يقدرون على شيء مما كسبوا، والله لا يهدي القوم الكافرين﴾.

الصفوان: هو الحجر الصلب الأملس.

الوابل: المطر الغزير.

فتركه صلداً: أي فتركه المطر الغزير حجراً يابساً أملس، لا يحفظ ماءً، ولا ينبت زرعاً.

وفي هذا التشبيه صورة بديعة جدّاً من التشبيه التمثيلي، الذي تمّ فيه تشبيه صورة ذات أجزاءٍ متعددة انتزع منها وجه شبه عامّ ذي أجزاء، بصورة ذات أجزاءٍ متعدّدة انتزع منها أيضاً وجه شبه عام ذي أجزاء.

فالذي ينفق ماله مرائياً به الناس، لينال من ألسنتهم مدحاً وثناءً، ومن قلوبهم تقديراً واحتراماً، ثم ليكون له منافع من قبلهم، إنسانٌ تاجر دنيا، وليس حبّ العطاء خلقاً أصيلاً في نفسه، وليس في نفسه أية غاية مثالية تدفعه إلى العطاء، لا سيما إذا كانت الصلة بينه وبين الله منقطعة تماماً، لأنه لا يؤمن بالله واليوم الآخر، فكيف يُتصوّر أن يكون له عند الله ثواب يضاعفه له بفضله في جنة خلده؟!.

إنه قد عمل عمله لتحصيل ثواب الدنيا، فله من ذلك على مقدار ما تعطي سنن الحياة الدنيا وقوانينها من ثواب، لا يُبخس من ذلك شيئاً، ولكن ليس له في الآخرة عند الله نصيب، لأنّ رحمة الله حينما تنزل عامة لا تجد في نفسه محلاً لها، فمثله إذن كمثل صخرة صمّاء قاسية ملساء، فُرش على سطحها تراب خفيف يخفيها عن الأعين، ثمّ زُرع في هذا التراب الخفيف الحبّ، رجاء أن يُنبت ويُثمر، ثم انتظر زارعه مطر السماء، فجاء غزيراً كثيراً، فلـمّـا أصابه لم يجد أرضاً طيبة تمتص الماء لتنبت الزرع، ولكن وجد صخرة قاسية ملساء، كنفس الكافر الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر، فما هي النتيجة الطبيعية المرتقبة؟

لا بدّ أن ينسفح التراب والحبّ معه عن الصخرة القاسية الملساء، وينجرف مع سيل الماء تالفاً، وتظهر الأرض الصلبة على حقيقتها أرضاً غير منبتة، ويعود الزارع خائباً خاسراً لا يقبض على أية ثمرة لما زرع.

وهكذا صوّر المثل البديع خيبة الذي ينفق ماله رئاء الناس وهو لا يؤمن بالله واليوم الآخر، المشبه به من يبطل صدقته بالمنّ والأذى.

ولما انتهت صورة المشبه به، استخلص القرآن النتيجة للمشبّه، وبنى الحكم على المشبه به كأنه هو المشبَّه نفسه، وجاء الحكم لهما معاً في قوله تعالى: ﴿لا يقدرون على شيء مما كسبوا﴾.

ثمّ كانت المحصلة الأخيرة خاصة بالمشبه به في قوله تعالى عند ختم الآية: ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ أي: ليس من صفاته سبحانه في قانون عدله أن يحكم بهداية الكافرين، وقد اختاروا لأنفسهم سبيل الضلال، والتزموا جانب الكفر.

ثم يعود النصّ فيأتي بمَثَلٍ للذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم، أي: وخلق حبّ العطاء ثابت أصيل في أنفسهم بتأثير إيمانهم وتربيتهم الإسلامية، أو تثبيتاً من أنفسهم لإيمانهم وإسلامهم وما يقتضيانه من سلوك في البذل، فقال الله تعالى: ﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم، كمثل جنّة بربوة أصابها وابل فآتت أُكُلَها ضعفين، فإن لم يصبها وابلٌ فطلّ، والله بما تعملون بصير﴾.

إذا كان مثل أولئك كصخرة عليها تراب خفيف يجرفه مطر السماء إذا نزل، فإنّ مثل هؤلاء المؤمنين الطيبين الذين في نفوسهم خلق حبّ العطاء، ويبذلون ابتغاء مرضاة الله، كمثل جنّة سمينة التربة، على ربوة مرتفعة لا تغمرها السيول فتفسدها، ينزل عليها وابل من السماء، فتؤتي أكلها ضعفين، وهي خصبة في ذاتها، فلو لم يأتها الوابل لكفاها الطلّ، وهو المطر الخفيف. ثمّ يُختم المثل بما يتعلق بالممثّل له، فيقول الله تعالى: ﴿والله بما تعملون بصير﴾ أي: فهو بصير بظاهر عملكم وباطنه، وبمقاصدكم منه، فيجازي كلاً بحسب قيمة عمله.

ويتابع النص عناصر الموضوع فيأتي بمَثَلٍ خاصّ بالّذين يبطلون صدقاتهم بالمن والأذى، فيقول الله تعالى: ﴿أيودّ أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار، له فيها من كلّ الثمرات، وأصابه الكبر، وله ذرّية ضعفاء، فأصابها إعصار فيه نارٌ فاحترقت؟ كذلك يبيّن الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾.

من البديع في هذا المثل أنه جاء مصدّراً باستفهام مثير لمن كان له عقل وبصيرة: «أيود أحدكم؟».

إنّ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، مثلهم كمثل زارع جنّةٍ عظيمة فيها ثمار مختلفات، فهو ينتظر لعاقبته وذرّيته منها خيراً عظيماً، فإذا أتبعوا ما أنفقوا بما يبطل صدقاتهم ويفسدها ويضيع عليهم أجرها كان مثلهم كمثل

صاحب الجنة الذي سبق الحديث عنه، إذا أصاب جنته ما أتلفها وأحرق زروعها وثمارها، فأمسى خاسراً، بعد أن كان الربح بين يديه حاضراً.

وقد جاء في هذا المثل تشبيه المنّ والأذى بالإعصار الذي فيه نار. والإعصار ريح شديدة عنيفة تهبّ بمستوى منخفضٍ إلى الأرض، ثمّ تلتفّ على نفسها، فتكوّن زوبعة صاعدة إلى الأعلى بشكل عمودي، فتحمل معها ما تحمل، وتقلع من الأشجار ما تقلع، وتتلف من الزرع ما تتلف، فإذا كانت هذه الريح التي هي من رياح العذاب مصحوبة بنار محرقة كانت أشدّ ضرراً وأعتى أثراً.

ولتستكمل الصورة التمثيلية عناصرها المطابقة للممثَّل له، جاء وصف صاحب الجنة التي فيها من كلّ الثمرات بأنه قد أصابه الكبر، وله ذرّية ضعفاء. وكذلك حال المنفق في سبيل الله هو بحاجة ماسة في آخرته لثمرات ما أنفق، لقد بذل فكان ببذله يشبه زارعاً لجنة عظيمة، فيها من كلّ الثمرات، والأنهار تجري من تحتها وهو يرتقب الظفر بالأجر العظيم في عاقبته يوم القيامة، وأقرب صورة تشبه حالته من صور الأحداث الدنيوية، أن يكون صاحب الجنّة قد أصابه الكبر، وله ذرية ضعفاء، فهو حريص على أن يدخر هذه الجنة لهم، فهم عقبه الذين يخشى عليهم من الفقر والضياع، وهم عياله الذين يتعلقون به. ومن أصابه الكِبَر ينقطع في العادة أمله في استنبات جنّة جديدة ورعايتها، حتى تصبح ثروة جاهزة مدّخرة لذريته، فإذا أصابها الإعصار الذي فيه نار فأحرقها كان ذلك أكثر إيلاماً له، وأبلغ في المصيبة، لا سيما إذ لاحظنا أنّ الإنسان إذا كبر وشاب شبّت فيه خصلتان: الحرص وطول الأمل. لكنّ الذي يُتبع صدقته بما يبطلها ويفسدها، يفعل شراً من هذه المصيبة، إنه يفعلها مع نفسه طائعاً مختاراً عن رغبة منه بما يفعل، ولذلك صدر الله المثل بقوله: ﴿أيودّ أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب﴾. وهكذا انطلق النص في وصف ما في الجنة من خيرات، حتى إذا أبرزتها في أبهى حللها، وصوّرت مبلغ تعلّق صاحبها بها، إذ يريد أن يدخرها لصغاره الذين يحبهم أبلغ الحبّ، بسبب أنهم ضعفاء،

لا يستطيعون حيلة، وعند بلوغ الجنة ذروة كمالها، وبلوغ النفس ذروة التعلق بها، تحلّ مصيبة الإعصار الذي فيه نار، فيحرقها ويبدّدها.

وهكذا جمعت دقائق الصور الفنية المحتملة الوقوع في هذا المثل الرائع، لإيجاد أقرب صورة من الواقع المادّي، مناظرة في كثير من أطرافها لأجزاء صورة المشبّه.

تلك هي بلاغة القرآن، ولذلك ختم الله الآية بقوله: ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ فالبيان عن طريق الأمثلة الحسية له تأثيره القويّ في النفوس، وهو أيضاً يفتح مجالات واسعة لتأملات الفكر في حقائق الأشياء، ويقرّب الأمور الفكرية المجرّدة والأمور الغيبية من الواقع التي تمتد إليها الحواسّ.

* وأخيراً يعالج النص نوعاً من البخل يجعل صاحبه يقصد الخبيث من ماله، فيختاره ليبذل منه ما يجب عليه من نفقة، فيقول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيباتِ ما كسبتم، ومما أخرجنا لكم من الأرض، ولا تيمّموا الخبيثَ منه تنفقون ولستم بآخذِيه إلّا أن تغمضوا فيه، واعلموا أنّ الله غنيٌّ حميد﴾.

ولا تيمموا: أي ولا تقصدوا.

ففي هذه الآية يأمر الله الذين آمنوا بأن ينفقوا من طيبات ما كسبوا من أموال، وبأن ينفقوا من طيبات ما أخرج الله لهم من الأرض من ثمرات ومن صنوف نباتات. وينهاهم عن أن يتقصدوا الخبيث من ذلك فينفقوه، ويجعلوه هو المال المخصّص عندهم للبذل في سبيل الله.

ما هو المراد من الطيب والخبيث؟

الطيب والخبيث لفظان متضادّان، وهما من الألفاظ العامة، ويوصف بهما موصوفات متضادة في خصائصها، بين الجودة والرداءة، والحسن والقبح، والطهر والنجاسة، والحلّ والحرمة، والتحلّي بفضائل الأخلاق والسلوك والتدنس برذائل الأخلاق والسلوك، والخصوبة والجدب، ونحو ذلك من متضادات كثيرة.

فيقال: طعام طيب وطعام خبيث. ورائحة طيبة وأخرى خبيثة. وأرض طيبة إذا كانت خصيبة منبتة، وأرض خبيثة إذا كانت سبخة لا تنبت. وثوب طيب أي طاهر. وشجرة طيبة وشجرة خبيثة.

ويكون الطيب والخبث في الأنفس، فيقال: طابت نفسه أو خبثت.

ويقال: كسب طيب إذا كان حلالاً، وكسب خبيث إذا كان حراماً. وهكذا إلى أمور كثيرة.

والمتبادر من هذه المعاني لحمل الآية عليه: أن يكون الطيب بمعنى الجيّد الحسن المقبول عند آخذ الصدقة، وأن يكون الخبيث بمعنى الرديء السيّء الذي لا يأخذه الإنسان إلّا عن ضرورة أو حاجة مع الكراهية.

على أنّ كثيراً من المعاني الأخرى قد تكون مرادة أيضاً من النصّ، فإذا كان المنفق يعطي من أرضه للزراعة، فالمطلوب منه أن يعطي أرضاً طيبة خصبة منبتة، لا أرضاً خبيثة سبخة لا تنبت. وإذا كان يعطي من طعامه، فليعط من الجيّد اللّذيذ الطعم، لا من الرديء المكروه الطعم. كما عليه أن ينفق من حلال ما يكسب فهو الطيب الذي يقبل عند الله، أما المكاسب المحرمة فهي خبيثة. وهكذا.

﴿ولا تيمّموا الخبيث منه تنفقون﴾ في هذا نهي عن قصد الخبيث لتخصيص الإنفاق منه في سبيل الله[1]، أمّا إذا دخل الخبيث في ضمن الأشياء الجيدة المبذولة في النفقة فليس منهيّاً عنه، لأن الخبيث عندئذٍ لم يُقصد بالذات.

﴿ولستم بآخذيه إلّا أن تغمضوا فيه﴾ يثير القرآن في هذه الجملة مبدأ معاملة الآخرين بما يريد الإنسان أن يُعامل هو به، فليفرض الباذل نفسه عند العطاء في موقف الآخذ لا في موقف المعطي، فماذا يكون منه إذا رأى الأشياء الخبيثة تقدّم له؟

---

(١) استفيد التخصيص من كلمة (تيمموا) ومن تقديم المعمول في (منه تنفقون) أي: منه تنفقون لا من غيره، فتخصّونه وحده بأن تنفقوا منه.

إنه إذا قبلها وأخذها فإنما يأخذها على مضض وكراهية، ولا يأخذها عن رغبة وإقبال، سواء أكان ذلك في معاملة بيع وشراء، أو تقاضٍ لحقّ، أو تقبّل لهدية، أو أخذٍ لصدقة. والمأخوذ على هذه الصفة تغمض العيون عند أخذه، ولولا الضرورة أو الحاجة أو التسامح لرفضه الآخذ ولم يقبله. إذن: فكيف يعمد الإنسان فيتقصّد خبيث ماله تقصّداً فينفق منه؟! إنّه بهذا لا يحسب حساباً لمشاعر الذين يقدّم لهم عطاءه، وكأنه يريد أن يتخلّص من الخبيث فيتصدق به وهو طامع بالأجر العظيم من وراء عمله، والله غني عن عباده، وهو سبحانه وتعالى طيب ولا يقبل إلاّ طيباً، وهو سبحانه حميد يشكر للذين ينفقون من طيب أموالهم.

ويلاحظ أن بعض الناس إذا اعتصروا من أنفسهم شيئاً من العطاء، فإنما يعطون ما يكرهون من أموالهم ولا يعطون ما يحبّون، ولا يعطون أيضاً من أواسط أموالهم، ضنّاً بالجيّد منها، واعتصاراً للرديء، مع كزازة في النفس وانقباض عن العطاء. هؤلاء فريق من الناس لم يكتسبوا بعدُ خلق حبّ العطاء، ولو أنّهم تربَّوْا تربية إسلامية صحيحة لكان لديهم من سماحة النفس وحبّ العطاء ما يجعلهم يبذلون بانشراح كامل من جيّد أموالهم وطيبها، لا من رديئها وخبيثها.

لكن لا حرج على من أدّى نفقاته الواجبة من طيب ما لديه من مال، ثم وجد عنده أشياء رديئة فأراد التخلص منها ببيع أو صدقة، أن يعرض الأمر على من يريد عطاءهم، ويبينّ لهم حاله، وواقع ما لديه من رديء، وأن ما يريد تقديمه هو نافلة على ما بذل من جيّد، فإن وجد عندهم استعدادا لتقبل هذا الرديء من غير كراهية، قدّمه إليهم معتذراً لهم، وشاكراً لهم سماحة نفوسهم، فهذا لا يدخل في عموم النهي، لأنه لم يقصد الخبيث بتخصيص نفقاته منه.

هذه وصايا للمنفق، وقد جاءت في الإسلام وصايا لجباة الزكاة، منها أن لا يَتَقصدوا كرائم أموال الناس فيأخذوها في الصدقة، وهم لذلك كارهون، بل يأخذونها من أوساط أموالهم.

(و) ثم قال الله تعالى عقب النص السابق من سورة (البقرة ٢):

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾.

بعد التوجيهات السابقة إلى الإنفاق في سبيل الله وبيان شروطه وصور كماله، ينتقل البيان القرآني إلى معالجة عوامل البخل في الأنفس، وهي العوامل التي تجعل النفس تكزّ وتنكمش عن الإنفاق في سبيل الله، نظراً إلى أنّ هذا الإنفاق بذل في غير لذّة أو منفعة عاجلة، بحسب التصوّر الذي يهيمن على النفوس، وتمليه وساوس الشيطان، فيقول الله تعالى: ﴿الشيطان يعدكم الفقر، ويأمركم بالفحشاء، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً، والله واسع عليم﴾.

إنّ المعالجة التربوية الحكيمة الكفيلة بإعطاء أفضل نسبة من الإصلاح التربوي، اعتمدت هنا على إصلاح الإنسان من داخل نفسه، ولإصلاح

الإنسان من داخل نفسه، استخدم البيان القرآني هنا ما يمكن أن نسمّيه بعلاج الطرح على الغير، حتى تشعر النفس بأنّ النزوع إلى الشرّ والإثم والفواحش والبخل في سبيل الخير ليس من جوهرها، ولا من أصل فطرتها، وإنما هو من مؤثرات خارجة عنها، ملازمة لها بالوسوسة والإغواء. وهذا الشعور من شأنه إيجاد عنصر المقاومة والتحدّي لهذا الموسوس الخارج عن كيان الذات، الملازم لها، الحريص على إغوائها بإصرار وعناد، هذا الموسوس هو الشيطان، إنه حقيقة يوسوس في النفوس، ولكنّ هذه الوسوسة لا تؤثر إلّا على من يسلّم الشيطان مقود إرادته. وبيان عمل الشيطان هذا نافع في التربية، إذ يحاول الإنسان طرح جنوحه على غيره، ليخلُص من الجنوح، ويأخذ سبيل الاستقامة المطلوبة.

واتخذ المنهج التربوي القرآني أسلوب كشف دسائس الشيطان، التي يدخل بها على النفس، ويغمز في داخلها نقطة ضعف عند الإنسان، وهي تخوفه من الفقر، وإنما يغمز فيه هذا التخوف حينما يدفعه دافع الخير إلى البذل في سبيل الله. ويغمز في داخل النفس أيضاً نقطة ضعف أخرى، وهي ما في النفس من أهواء وميل إلى الشهوات، قد تستدعي بذل مالٍ كثير للحصول عليها.

واتخذ المنهج التربوي القرآني أسلوب الإقناع بكمال ما يدعو إليه الرحمن من البذل في سبيل الله، وبأنه هو الحكمة في السلوك، وأسلوب استثارة الطمع بالتعويض العظيم على البذل اليسير في سبيل الله وابتغاء مرضاته.

* وتتلخص العناصر التطبيقية لهذا المنهج بما يلي:

العنصر الأول: كشف خطة الدسائس الشيطانية ذات الوجهين المختلفين المتناقضين.

الوجه الأول: التخويف من الفقر عند اتجاه النفس للإنفاق في سبيل الله، فحينما يسيطر في النفس الخوف من الفقر تنقبض عن العطاء، وتجبن عن البذل، وهذا ما دلّ عليه قوله تعالى في النص: ﴿الشيطان يعدكم الفقر﴾.

الوجه الثاني: الدفع بقوة إلى ارتكاب الفحشاء من المعاصي والآثام، حتى

مستوى الأمر بها، مهما احتاج ارتكابها إلى انفاق أموال طائلة، وهذا ما دلّ عليه قوله تعالى عن الشيطان: ﴿ويأمركم بالفحشاء﴾.

ففي البذل في الخير يخوّف الشيطان من الفقر، وفي البذل في المعاصي والآثام يأمر الشيطان بالفحشاء، وفي ذلك تحريض ضمني على الإسراف والتبذير، ولذلك كان المبذّرون إخوان الشياطين قال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾.

والبخلاء في الخير هم أيضاً إخوان الشياطين، لأنّهم يتبعون خطواتهم، ويستجيبون لوساوسهم، ويحرمون أنفسهم من خير عظيم، ويعرّضون أنفسهم لخسارة كبرى، فهم بذلك من كبار المبذّرين.

العنصر الثاني: الترغيب بحقيقتين من حقائق السنن الربّانية الثابتة:

الأولى: أنّ الله تبارك وتعالى قد وعد المنفقين في سبيله أن يعوّض عليهم، ويزيدهم من فضله، فمن شأن الاقتناع بهذه الحقيقة أن يولّد في الأنفس حبّ البذل والعطاء في سبيل الله، ومن نظر في سنن الكون تحقق لديه صدق هذا الوعد.

الثانية: أنّ الله تعالى قد وعد الذين ينفقون في سبيله أن يغفر لهم، ويستر حالهم، ولو ضعفت نفوسهم فسقطوا في بعض المعاصي، وارتكبوا بعض الفواحش.

وفي هذا الغفران تطهير لهم وتزكية، وفي ستر حالهم تكريم لهم عن الحاجة التي قد تلجىء إلى المسألة.

وقد دلّ على هاتين الحقيقتين قول الله تعالى في النصّ: ﴿والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً، والله واسع عليم﴾.

فبين دعوة الرحمن ودعوة الشيطان تعاكس، كلٌّ منهما فيه أمرٌ بالبذل والإمساك، إلاّ أنّ دعوة الرحمن تجعل الإمساك فيما ينبغي فيه الإمساك، وهي سبل الفحشاء، وتجعل الإنفاق فيما يحسُن فيه الإنفاق ويجمل، وهي وجوه الخير والبرّ. بخلاف دعوة الشيطان فهي على العكس من ذلك تماماً، دعوة إلى التبذير فيما يجب فيه الإمساك، ودعوة إلى الإمساك فيما يجب فيه البذل أو يحسن.

إنّ دعوة الرحمن هي الدعوة إلى الحكمة، إذ تأمر بوضع الأشياء في مواضعها. أمّا دعوة الشيطان فهي دعوة إلى ركوب الحماقة، إذ تأمر بوضع الأشياء في غير مواضعها، ولذلك جاء في النص بعد بيان دعوة الرحمن ودعوة الشيطان قول الله تعالى: ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، وما يذكّر إلاّ أولوا الألباب﴾.

ثمّ قال الله تعالى: ﴿وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإنّ الله يعلمه، وما للظالمين من أنصار﴾.

* ما دام السياق يدور حول الإنفاق في سبيل الله، وبيان أركانه وشروطه وآدابه، فإنّ الإنفاق في سبيل الله يكون على نوعين:

النوع الأول: العطاء المنجز.

النوع الثاني: العطاء الموعود به على سبيل الالتزام تجاه الله تعالى، والملتزم به تجاه الله تعالى هو ما كان على سبيل النذر، لأنّ النذر في العطاء إذا كان في طاعة الله تعالى، وابتُغي به وجه الله تعالى فهو وعد بالإنفاق يجب الوفاء به، وعند الوفاء به يكون من قبيل العطاء الواجب.

والغرض من الإعلام بأن الله يعلم صدقات المتصدّقين، الإيماء إلى ما أعدّ الله للمنفقين في سبيله من أجر عظيم،، قلّ أو كثر، خفي أو ظهر، فالله لا تخفى عليه خافية في السماوات ولا في الأرض ولا في الأنفس.

وفي قول الله تعالى: ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ تلويح للبخلاء مانعي الحقوق التي فرضها الله في أموالهم، وذلك بصفة رئيسية في هذا النصّ، نظراً إلى أن السياق يدور حول الإنفاق في سبيل الله.

بيد أنّ عموم النصّ يتناول كلّ الظالمين، فما للظالمين من أنصار ينصرونهم من عقاب الله، فمانعو الحقوق في أموالهم ظالمون، والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ظالمون، والذين يتبعون ما أنفقوا منّاً أو أذى ظالمون أيضاً، وحسب الظالم أن يكون ظالماً لنفسه، إذ يعرّضها للعقاب، أو يحرمها ويفوّت عليها عظيم الثواب.

* ولـمّـا كان للصدقة وجهان:

الوجه الأول: أن يكون بذل الصدقة بصفة علنية.

الوجه الثاني: أن يكون بذل الصدقة بصفة سرية.

قال الله تعالى: ﴿إن تبدو الصدقات فنعمّا هي، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم، ويكفّر عنكم من سيئاتكم، والله بما تعملون خبير﴾.

فدلّت هذه الآية على أنّ في كلٍّ من إبداء الصدقة وإخفائها خيراً، إلاّ أنّ دفعها للفقراء بصفة خفيّة لا إعلان فيه خيرٌ وأفضل عند الله، وبه يكفّر الله من سيئات المنفق في سبيله.

ولكن يشترط في إبداء الصدقة إخلاص النيّة، وعدم تسرّب الرياء إلى القلب، لأنّ مُراآة الناس في العمل محبطة للعمل بمقدار نسبة الرياء. وامتاز إخفاء الصدقة على إبدائها بفضل الأجر عند الله، وبتكفيره من سيئات المنفق، لأمـور منها ما يلي:

أولاً: لأن إخفاء الصدقة أكثر دلالة على الإخلاص في ابتغاء مرضاة الله من إعلانها، وأبعد عن تسرّب الرياء إلى قلب المنفق.

جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم عن أبـي هريرة، أن أحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلاّ ظله: «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

ثانياً: لأن في إخفاء الصدقة ستراً لحال آخذ الصدقة، فكثير من الفقراء مستوري الحال يؤلمهم جـدّاً أن يعلم الناس بفقـرهم وحاجتهم إلى أخـذ

الصدقات، وقد يؤثر بعضهم الجوع والفاقة على سد الحاجة عن طريق أخذ الصدقات المعلنة.

قد نتساءل حول النص، فنقول: لماذا لم يأت إلى جانب قوله تعالى: «إن تبدوا الصدقات» بيان من تعطى إليه، وجاء إلى جانب قوله تعالى: «وإن تخفوها» بيان من تعطى إليه، فقال تعالى: «وتؤتوها الفقراء»؟.

ولنا في الإجابة على هذا التساؤل وجوه:

الأول: أنّ هذا القيد ملاحظ في حالة إبداء الصدقات وفي حالة إخفائها، إلّا أنّ التصريح به في كلّ منهما يعتبر من قبيل الإسهاب والإطناب، فحذف من حالة الإبداء اكتفاء بالتصريح به في حالة الإخفاء، وهذا ما يقتضيه سموّ التعبير البلاغي.

الثاني: أن المفروض في الصدقات المعلنة أن تدفع لجباة الزكاة، لا للفقراء بأنفسهم، وفي هذه الحالة يظلّ الفقراء بعيدين عن التشهير بهم.

الثالث: التصريح بإيتاء الصدقات للفقراء عند الحديث عن أفضلية إخفائها، يشعر بضرورة التحرّي عن الفقراء حقيقة، لئلا يأخذها الأغنياء من مستوري الحال وهم يزعمون سرّاً أنّهم فقراء، فبعض غير ذوي الحاجة من ضعفاء النفوس قد يدّعون الفقر ويقبلون الصدقات سرّاً، ولكنهم لا يفعلون ذلك علانية خشية أن ينكشف كذبهم، إذ يعرف بعض الناس حقيقة غناهم وعدم حاجتهم، فيلومونهم على أخذ الصدقات.

على أنّ من يأخذ الصدقات وهو غني أشنع حالاً من مانع الزكاة، لأنه بفعله هذا يأكل حقوق الفقراء بغير حقّ، فهو ظالم آثم.

ثم قال الله تعالى في النصّ الذي نتدبّره من سورة (البقرة ٢):

﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ ﴾.

يبدو أنّ قول الله تعالى لرسوله: ﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾ ضمن الحديث عن الإنفاق في سبيل الله، قد كان لمعالجة حالة نفسية كانت تعتمل في نفس الرسول ﷺ، إذ كان شديد الحرص على هداية كلّ المسلمين هداية عملية، وتحويلهم إلى متخلقين جميعاً بخلق حب العطاء، منفقين في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وعلى مستوى رفيع من درجات الكمال في هذا المجال.

وهذه الحالة النفسية الشديدة التي كانت تشغل بال الرسول صلوات الله عليه، وتمتلك قسطاً كبيراً من مشاعره وهمّه، كانت بحاجة ماسَّة إلى تعديل بالتربية الإلهية، فأنزل الله عليه ضمن الآيات التي تعالج موضوع النفقة قوله: ﴿ليس عليك هداهم، ولكنّ الله يهدي من يشاء﴾؛ فأعلمه بهذا أنه ليس من مسؤوليته في رسالته تحويل الناس إلى الهداية تحويلاً عملياً، ولكنّ مسؤوليته مسؤولية تبليغ وإرشاد وتربية، وأنهم هم المسؤولون عن سلوك سبيل الهداية بإراداتهم الحرّة، أمّا القدرة على التحويل الفعلي إلى الهداية فهي من خصائص الله، الذي بيده الخلق والأمر، وبيده ملكوت السماوات والأرض، وهو على كلّ شيء قدير، وهذا لم يختره الله لنفسه بعد أن اختار للمكلفين من عباده أن يمتحن إراداتهم الحرّة.

ولم يلبث النصّ بعد هذه المعترضة التربوية للرسول ﷺ أن رجع إلى صلب موضوع الإنفاق في سبيل الله فالتفت إلى المؤمنين، ووجّه لهم تربية إقناعية كافية لدفعهم إلى الإنفاق في سبيل الله، فقال لهم: ﴿وما تنفقوا من خير فلأنفسكم﴾ أي فلأنفسكم فائدته، ولأنفسكم ثمراته، ولكن هذا إنما يكون لكم في حال كون إنفاقكم ابتغاء وجه الله، ولبيان هذا قال الله لهم: ﴿وما تنفقون إلّا ابتغاء وجه الله﴾

وتتساءل نفوس المنفقين: كيف يكون الإنفاق في سبيل الله لمصلحة أنفسنا، مع أنه بذل للآخرين، ونقصان من أموالنا؟ وجاء الجواب على هذا التساؤل بقول الله تعالى في النص: ﴿وما تنفقوا من خير يوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون﴾.

وجاء شرح ذلك في كلام الرسول ﷺ في نصوص كثيرة أبان فيها فضل الإنفاق في سبيل الله، وثواب المنفقين، منها ما يلي:

روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال شيئاً، وما زاد الله عبداً بعفو إلاّ عزّاً، وما تواضع أحدٌ لله إلاّ رفعه».

وروى الإمام أحمد بإسناد صحيح عن مرثد بن عبدالله قال: حدثني بعض أصحاب رسول الله ﷺ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنّ ظلّ المؤمن يوم القيامة صدقته».

ثم قال الله تعالى في النص الذي نتدبره:

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾.

وفي هذه الآية توجيه خاصّ للعناية بصنف من الفقراء، بعد التوجيهات العامّة للإنفاق في سبيل الله، والصفات التي يتميّز بها هذا الصنف من الفقراء هي ما يلي:

الصفة الأولى: أنهم مُحْصَرون في سبيل الله، أي: محبوسون للقيام بأعمال عامّة يرجون منها ابتغاء مرضاة الله، كالجهاد في سبيل الله، وكالتفرّغ لطلب العلم الواجب والدعوة إلى الله.

الصفة الثانية: أنهم لا يستطيعون ضرباً في الأرض لكسب ما يكفيهم لحاجات عيشهم، وذلك بسبب أنهم محصرون في سبيل الله.

الصفة الثالثة: أنّهم بسبب تعفّفهم عن التعرّض لأخذ الصدقات يحسبهم الجاهل أغنياء.

الصفة الرابعة: أنّ الخبير العارف بأحوال الناس يستطيع أن يعرف أنّهم

فقراء من العلامات التي يراها فيهم، الدالّة على فقرهم. فبؤس الفقراء لا يخفى على البصراء، مهما تعفّفوا وتكتّموا، وابتعدوا عن التعرّض لأخذ الصدقات.

الصفة الخامسة: أنّهم لا يُلحّون في المسألة إذا ألجأتهم الضرورة إليها.

واهتماماً بهذا الصنف من الفقراء وجّه الله العناية لبذل الصدقات إليهم.

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿وما تنفقوا من خير فإنّ الله به عليم﴾، وفي هذا تلويح بما أعدّ الله للمنفقين في سبيله من أجرٍ عظيم.

ثم قال الله تعالى في آخر آيات الإنفاق في سورة (البقرة ٢):

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾.

وفي هذا الختام تأكيد لما سبق من الترغيب بالإنفاق في سبيل الله، وبيان للأجر العظيم الذي أعدّه الله للمنفقين في سبيله، وربما كانت هذه الآية خاصة بذوي الجود الكثير، لأن من سماتهم أنهم ينفقون بالليل والنهار، أي: في كلّ الأوقات، وأنهم ينفقون في كلّ الأحوال سرّاً وعلانية، فهؤلاء لهم أجرهم الخاص عند ربهم، ولا خوف عليهم يوم القيامة، ولا هم يحزنون على شيء فاتهم لما يرون من الكرامة عند ربّهم.

البرّ في العطاء:

(ز) ويقول الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾.

هذه الآية تدلّ على أن مرتبة البرّ في الإنفاق لا تنال إلاّ بتعمّد المسلم أن ينفق في سبيل الله مما يحبّ أي: من بعض ما يحب، ومعلوم أنّ الإنسان إنما يحبّ من أمواله نفائسها وأحاسنها وكرائمها في الغالب.

لكنّ هذه المرتبة مرتبة صعبة على النفوس، لا تقتحم إلاّ بقهر للهوى، أو بفطرةٍ عالية جدّاً تحبّ العطاء أكثر ممّا تحبّ التملّك.

ولذلك كان إنفاق الإنسان مما يحبّ أفضل الإنفاق، روى البخاري ومسلم عن أبـي ذر، قال: قلت: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: «الإيمان بالله والجهاد في سبيل الله» قال: قلت: أيّ الرقاب أفضل؟ قال: «أنفسها عند أهلها، وأكثرها ثمناً».

من قصص الذين نالوا البرّ في العطاء:

* روى البخاري ومسلم عن أنس قال: «كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحبّ أمواله إليه بَيْرُحاء[1]، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخُلها ويشرب من ماءٍ طيّب فيها.

قال أنس: فلـمّـا نزلت هـذه الآية: ﴿لن تنـالوا البـرّ حتى تنفقوا مما تحبّون﴾ قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنّ الله تعالى يقول: ﴿لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا ممّا تحبّون﴾. وإنّ أحبّ مالي إلي بَيْرُحاء، وإنّها صدقة لله تعالى، أرجو برّها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله.

فقال رسول الله ﷺ: «بخٍ بخٍ، ذلك مالٌ رابح وقد سمعت ما قلتَ وإني أرى أن تجعلها في الأقربين».

فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسّمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمّه».

وسيأتي الاستشهاد به في «فضل الإنفاق على الأقربين».

* وروي أنّه لـمّـا نزلت هذه الآية، جاء زيد بن حارثة بفرس كانت له يحبّها، فقال: هذه في سبيل الله.

فحمل عليها رسول الله ﷺ أسامة بن زيد. فكأن زيداً وجد في نفسه، فقال: يا رسول الله، إنما أردت أن أتصدق بها (أي: وما أردت أن أعطيها ابني).

---

(١) بَيْرُحاء: اسم لحديقة جيدة من نخل كانت لأبـي طلحة.

فقال له رسول الله ﷺ : «أما إنّ الله تعالى قد قبلها منك».

* وروي أنّ عمر بن الخطاب، كتب إلى أبي موسى الأشعري أن يشتري له جارية من سبي جلولاء، يوم فتحت مدائن كسرى، فلـمّـا جاءت إليه أعجبته فقال: إنّ الله تعالى يقول: ﴿لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا ممّا تحبّون﴾.

فأعتقها ابتغاء مرضاة الله تعالى، وطلباً لمرتبة البرّ في الإنفاق.

* وروي في أخبار عُمر بن عبدالعزيز، أنّه كانت لزوجته جارية بارعة الجمال، وكان عمر راغباً فيها، وكان قد طلبها منها مراراً، فلم تعطه إيَّاها.

ثمّ لـمّـا تولّى عمر الخلافة، جاءت زوجته فزينت الجارية أحسن زينتها، وأرسلتها إليه، وقالت له: قد وهبتكها يا أمير المؤمنين فلتخدمك.

قال عمر بن عبدالعزيز لزوجته: من أين ملكتها؟ قالت: جئت بها من بيت أبـي، عبدالملك، ففتش عن كيفية تملّك عبدالملك لها، فقيل له: إنه كان على فلانٍ العامل ديون، فلـمّـا توفي أخذت من تركته. ففتش عن حال العامل، وأحضر ورثته وأرضاهم جميعاً بالمال. ثم توجّه للجارية، وكان يهواها هوى شديداً، فقال لها: أنت حرّة لوجه الله تعالى.

فقالت له زوجته: لـمَ فعلت هذا يا أمير المؤمنين، وقد أزحت عن أمرها كلّ شبهة؟

فقال لها: لستُ إذن ممّن نهى النفس عن الهوى.

٥ ـ في فضل الإنفاق على الأهل والعيال والأقربين والدابة:

١ ـ روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال: «كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحبّ أمواله إليه بَيْرُحاء[1]، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب». فلـمّـا نزلت هذه الآية:

---

(١) بَيْرُحاء: اسم حديقة في المدينة كانت لأبـي طلحة، فيها نخل.

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ ﴿٩٢﴾﴾ .

قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنّ الله تعالى يقول: ﴿لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبّون﴾ وإن أحبّ مالي إليّ بَيْرُحاء، وإنها صدقة لله تعالى، أرجو برّها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال رسول الله ﷺ: «بخٍ ذلك مالٌ رابح، ذلك مالٌ رابح، وقد سمعتُ ما قلتَ، وإنّي أرى أن تجعلَها في الأقربين».

فقال أبو طلحة: أفعلُ يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمّه».

فقد أرشده الرسول ﷺ أن يجعل صدقته في الأقربين، فقسمها في أقاربه وبني عمّه، فدلّ هذا الإرشاد على أنّ بذل المال وأنواع الصدقات لأقارب الباذل أفضل من البذل لغيرهم، ما دام في أقارب الباذل محاويج، وذلك لأنّ البذل في الأقارب هو من جهة صدقة، وهو من جهة أخرى صلة رحم. وعمل فيه فضيلتان أعظم من عمل فيه فضيلة واحدة منهما، وهذا المعنى أبانه الرسول ﷺ في حديث آخر.

٢ ــ وروى مسلم عن ثوبان بن بُجْدُدَ مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ.

«أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله، ودينار ينفقه على دابته في سبيل الله، ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله».

٣ ــ وروى البخاري ومسلم عن أبـي مسعود البدري عن النبـي ﷺ قال: «إذا أنفق الرجل على أهله يحتسبها فهو له صدقة».

يحتسبها: أي يحتسب أجر نفقته عند الله تعالى.

٤ ــ وروى البخاري ومسلم عن سَعْد بن أبـي وقّاص، أنّ النبـي ﷺ قال له فيما قال يوم جاءه يعوده من وجع اشتدّ به:

---

(١) ال عمران ٩٢.

«وإنَّك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلاّ أجرت عليها، حتى ما تجعل في فِي امرأتك» أي في فم امرأتك.

٥ ــ وروى البخاري ومسلم عن أم سلمة قالت: قلتُ: يا رسول الله، هل لي أجرٌ في بني أبـي سلمة أن أنفق عليهم، ولست بتاركتهم هكذا وهكذا إنّما هم بنيّ؟. فقال: «نعم لك أجر ما أنفقتِ عليهم».

٦ ــ وروى مسلم عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدّقت به على مسكين، ودينارٌ أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك».

٧ ــ وروى أبو داود بإسناد صحيح عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ:

«كفى بالمرء إثماً أن يضيّع من يقوت».

وعند مسلم:

«كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمّن يملك قوته».

في جملة هذه الأحاديث يـربّـي الرسـول ﷺ في المسلمين خلق حبّ العطاء، فيحثهم على الإنفاق وابتغاء مرضاة الله فيه، سواء أكان إنفاقاً على الأهل والعيال والأقربين، أو إنفاقاً على الدابـة، أو إنفاقـاً على الأصحـاب والإخوان، أو إنفاقاً في الصدقة، أو في أي وجه من وجوه الخير.

إنّ المال لا تظهر فائدته إلا بالإنفاق في المصالح النافعة، أمّا كنزه وجمعه وعدّه فهو قتل له، وحرمانٌ لثمراته من أن تظهر، ولخيراته من أن تزهر، ولطاقاته من أن تتحرّك وتنتج. والممسكون معـطلون ومتلفون ومحـرومون، وجـمّاعون لغيرهم، للصّ ماكر، أو صائل مغامر، أو سلطان جائر، أو وارث غير شاكر يتربّص بمورثه الدوائر.

وقد أبان الرسول ﷺ أن أفضل الإنفاق ما كان إنفاقاً على العيال، لأنّ

النفقة على العيال من قبيل النفقة الواجبة، وهذه النفقة عليهم تسدّ حاجتهم وتُعفّهم عن المسألة، وتقطع أنظارهم عن التطلّع إلى ما في أيدي الناس وما في بيوتهم وما على موائدهم.

وأبان الرسول ﷺ أن الأجر على الإنفاق ليس خاصاً في الانفاق على الفقراء والمساكين وذوي الحاجات والجهاد في سبيل الله ونحو ذلك، بل هو عام في كلّ إنفاق يُبتغى به وجه الله تعالى حتى ما يضعه الرجل في فم امرأته. ولكن اغتنام الأجر رهن باحتسابه عند الله تعالى، أي بابتغاء مرضاته فيه، وطلب ثوابه عز وجل، وهذه القاعدة أصل عامٌ يشمل كلّ عمل من أعمال الخير، فاغتنام الأجر عليه رهن بأن يكون ابتغاء مرضاة الله تعالى.

فما أعظم نعمة الله على المسلم، إنّ أي عمل يعمله متقيداً فيه بحدود ما أذن الله فيقصد به مرضاة الله جلّ وعلا، يكـون له به أجر وثواب عظيم على مقدار صلاح نيته، مع ما يكون له في العمل من لذّة ومتعة ومصلحة دنيوية.

وكما أن الانفاق على العيال من أفضل أنواع الإنفاق، فالإمساك عنهم وتضييعهم من أكبر الإثم لِما لهم من حقوق مفروضة عليه.

— ٧ —

الصدقة ومفاهيمها وفضلها

الصدقة في المفهوم الإسلامي لا تنحصر بعطاء المال، وإطعام الطعام، وكسوة الثياب، وتقديم الدواء والمسكن، ونحو ذلك، بل هي أعمّ وأشمل، فكلّ معروف صدقة.

روى البخاري ومسلم عن جابر وحذيفة، قالا: قال رسول الله ﷺ: «كلّ معروف صدقة».

وبهذا المفهوم الموسّع يستطيع الفقراء أن يجدوا مجالات كثيرة يصنعون بها المعروف للناس، ابتغاء مرضاة الله، فيكسبون بذلك صدقات ينافسون فيها باذلي أموالهم من الأغنياء.

وروى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ : «على كلّ مسلم صدقة».

قالوا: فإن لم يجدْ؟

قال: «فلْيعملْ بيديه، فينفع نفسه ويتصدّق».

قالوا: فإن لم يستطع، أو لم يفعل؟

قال: «فيعين ذا الحاجة الملهوف».

قالوا: فإن لم يفعله؟

قال: «فيأمر بالخير».

قالوا: فإن لم يفعله؟

قال: «فيمسك عن الشرّ فإنّه له صدقة».

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «كل سُلامَى من الناس عليه صدقة، كلّ يوم تطلع فيه الشمس: يعدلُ بين اثنين صدقة، ويعين الرجل في دابته فيحمله عليها، أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكلّ خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة».

كلّ سُلامَى: السّلامَى هي كلّ عظم بين مفصلين.

وجاء في حديث آخر تحديد عدد المفاصل التي خلق عليها ابن آدم، والحثّ على اكتساب أفعال الخير في كلٍّ منها، روى مسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ : «خلق كلّ إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مَفصِل، فمن كبّر الله، وحمد الله، وهلّل الله، وسبّح الله، واستغفر الله، وعزل حجراً عن طريق الناس أو شوكة أو عظماً، أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر، عدد تلك الستين والثلاثمائة، فإنه يمشي يومئذٍ، وقد زحزح نفسه عن النار».

وروى الإمام مسلم عن أبي ذرّ الغفاري قال: قال رسول الله ﷺ : «إنّ بكل تسبيحة صدقة، وكلّ تكبيرة صدقة، وكلّ تحميدة صدقة، وكلّ تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بُضع أحدكم صدقة».

قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟!

قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر».

ففي هذا تعميم جديد لمفهوم الصدقة أدخل الرسول ﷺ فيه التكبير والتحميد والتهليل.

ولقد يبدو ظاهراً أن يكون بذل الجهد للآخرين من الصدقات، فبذل الجهد على سبيل المعونة بغية مسرّة صاحب الحاجة مثلُ مواساته بالمال. وبذل الجهد لإماطة الأذى عن الطريق معونةٌ عامّة ينتفع منها كلّ سالك فيه، وبذل الجهد لفعل خير عامّ هو أيضاً معونة عامة تدخل في مفهوم الصدقات بلا إشكال.

ولكن كيف يدخل التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير في مفهوم الصدقة؟

ونلاحظ في الإجابة على هذا أنّ الإسلام قد جعل من الصدقات صدقة الإنسان على نفسه، فمن لم يجد ما يتصدق به على الآخرين، فليعمل عملاً يبذل فيه جهداً يبتغي به مرضاة الله تعالى، فإنه يتصدّق بذلك على نفسه، وهذا من واسع جود الله وكرمه ورحمته.

وبهذا المعنى الموسع للصدقات يدخل في مفهومها كلّ عطاء أو بذل جهد تستفيد منه البهائم وسائر الحيوانات، وقد جاء هذا مصرّحاً به في كلام الرسول ﷺ.

روى البخاري ومسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يغرس غرساً، أو يزرع زرعاً، فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة، إلّا كانت له صدقة».

وفي رواية لمسلم عن جابر: «وما سُرق منه له صدقة».

فلنعجب لهذا الدفع الحضاري البنّاء، الذي يشجع الإسلام عليه، ويجعل كلّ ثمرة من ثمراته، وكلّ غرم في سبيله صدقة من الصدقات.

وقد جاء تأكيد هذا المفهوم العام للصدقة في أقوال نبوية كثيرة:

منها ما رواه البخاري ومسلم عن أبي ذرّ قال:
قلت: يا رسول الله أيُّ الأعمال أفضل؟
قال: «الإيمان بالله والجهاد في سبيله».
قلت: أيّ الرقاب أفضل؟
قال: «أنْفَسُها عند أهلها وأكثرها ثمناً».
قلت: فإن لم أفعل؟
قال: «تعين صانعاً أو تصنع لأخرق».
قلت: يا رسول الله أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟
قال: «تكفّ شرّك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك».

ومنها ما رواه مسلم عن أبي ذرّ قال: قال النبي ﷺ: «عُرضت عليّ أعمال أمتي حسنُها وسيئها، فوجدت من محاسن أعمالها الأذى يماط عن الطريق، ووجدت من مساوىء أعمالها النخاعة تكون في المسجد لا تدفن».

فإذا كانت إماطة الأذى عن الطريق من الصدقات ومن محاسن الأعمال، فإنّ تقذير المساجد بالنخاعة وهي النخامة التي يقذفها مخطىء لا ذوق عنده ولا رعاية عنده لآداب الإسلام خطيئة، ومن مساوىء الأعمال.

ومنها ما رواه مسلم عن أبي ذرّ أيضاً، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق».

فجعل الرسول ﷺ طلاقة المرء وجهه لأخيه من عمل المعروف، وذلك لأن في طلاقة الوجه عطاءً كريماً يُسرّ به من يلقاه، وقد سبق أنّ الرسول ﷺ قال: «كل معروف صدقة».

ومنها ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال:

«بينما رجلٌ يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً، فنزل فيها، فشرب ثم خرج، فإذا كلبٌ يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان قد بلغ مني، فنزل البئر، فملأ خفه ماءً، ثمّ أمسكه بفيه حتى رقي فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له».

قالوا: يا رسول الله، إنّ لنا في البهائم أجراً؟

فقال: «في كلّ كبد رطبة أجر».

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أيضاً، قال: قال رسول الله ﷺ: «غُفر لامرأةٍ مومسةٍ مرّت بكلبٍ على رأس ركية (أي: بئر) يلهث، كاد يقتله العطش، فنزعت خفها فأوثقته بخمارها، فنزعت له من الماء، فغُفر لها بذلك».

قيل: إنّ لنا في البهائم أجراً؟

قال: «في كلّ ذات كبد رطبة أجر».

ومنها ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مرّ رجلٌ بغصن شجرة على ظهر طريق، فقال: لأنحّينَّ هذا عن طريق المسلمين لا يؤذيهم، فأُدخل الجنّة».

وفي رواية لمسلم، أنّ رسول الله ﷺ قال: «لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين».

ومنها ما رواه مسلم عن أبي بَرْزَةَ قال: قلت: يا نبي الله علمني شيئاً أنتفع به، قال: «اعزل الأذى عن طريق المسلمين».

بهذا يستطيع الفقراء أن يسابقوا في ميادين الصدقات مسابقة عظيمة، ما دامت كل هذه الأبواب مفتّحة لهم، حتى كفّ الأذى عن الناس، وهو من الأعمال السلبية، وحتى غشيان المباحات من المتع واللذات، لكف النفس وإعفافها عن المحرمات، فهو من صدقة المسلم على نفسه.

* ولكن لاعتبار أي عمل منها داخلاً في الصدقات المأجورة عند الله شرطان:

الأول: كون صاحب العمل مسلماً مؤمناً، أما غير المسلم المؤمن فإن أعماله الحسنة في الدنيا لا يثاب عليها عند الله يوم القيامة، لأنه لم يؤمن بالله ولم يسلم له حتى يطلب ثوابه منه، ولكن ينال مكافأة عمله في الدنيا وفق سنة الله في خلقه.

الثاني: ابتغاء مرضاة الله في العمل، فإن لم يفعل ابتغاء مرضاة الله لم يسجل له عمله في الحساب الخاص بالأعمال التي يثاب عليها، ويكفي في ابتغاء مرضاة الله النية المستمرة لدى كل مسلم مؤمن، دون وجود صارف يصرف عنها إلى مطلب من مطالب الحياة الدنيا، وعرض من أعراضها، كالمدح، والشهرة، وتحصيل مال أو جاه أو نحو ذلك.

— ٨ —
التهادي وتبادل الهبات

ومن مظاهر خلق حب العطاء التهادي وتبادل الهبات بين الناس. وقد حث الإسلام المسلمين على أن تكون ظاهرة التهادي وتبادل الهبات إحدى الظواهر السلوكية التي يوجهون لها عنايتهم، مهما كانت قيمة الهدية أو الهبة قليلة وضئيلة، لأن من شأن هذه الظاهرة الكريمة توثيق روابط الصلة بين أفراد جماعة المسلمين، وتعميق جذور المودة والمحبة بينهم، وتوحيدهم في نظام الجسدية الواحدة، التي تتعاون أعضاؤها، وتتشارك أجزاء بنيانها في مسراتها وأحزانها، ولذاتها وآلامها.

ولذلك كان الرسول ﷺ يُهدي ويقبل الهدية، وكان يهبُ ويقبل الهبة.

والفرق بين الهبة والهدية، أن الأصل في الهبة أن لا يلاحظ فيها معنى انتظار المكافأة، بخلاف الهدية فقد يلاحظ فيها هذا المعنى عرفاً أو عند بعض الناس، ولذلك جاء في أسماء الله الحسنى اسم الله (الوهاب)، لأن فيض عطاء الله سبحانه وتعالى لا يكون ابتغاء عوض في أي حالٍ من الأحوال.

ومن الخير في الهدية أن لا يلاحظ فيها أيضاً معنى العوض، وإلا كانت لوناً من ألوان المعاوضة، ومتى لوحظ فيها معنى العوض فسد معناها الإسلامي، وصار الناس يحاسب بعضهم بعضاً على مقدار ما يُهدي كلٌّ منهم أخاه، وعلى مقدار ما يأتيه من قبله من هدايا، فإذا أهدى شيئاً ذا قيمة عالية، وكوفىء عليها بهدية دونها في القيمة، وجّه لأخيه انتقاده ولومه، ووصفه بالبخل وبقلة الوفاء.

وحين يصل التهادي بين الناس إلى هذا المستوى الشحيح فإنه يصبح معاوضة مادية بحتة في ثوب مكرمة خلقية، وهذا الثوب ثوب زور لا محالة.

فعطاء الهدية ينبغي أن يكون صلة مودة، لا مظهر رياء، ولا وسيلة تفاخر، ثم إن المودة التي ترجى منها لا تتحقق متى تحولت عن غرضها ومفهومها الإسلامي الصحيح. ومتى دخل عنصر التفاخر في الهدايا صار أغنياء الناس يحتقرون هدايا فقرائهم، وينظرون إليها بازدراء واستكبار.

ولذلك لـمّـا حثّ الرسول ﷺ على التهادي بين المسلمين حذر من عوارض الانحراف، الذي يمكن أن ينحرف إليها مفهوم الهدية لدى التطبيق العملي.

روى الترمذي عن أبي هريرة، أن النبـي ﷺ قال: «تهادَوا فإنّ الهدية تذهب وَحَرَ الصدر، ولا تحقرَنّ جارة لجـارتها ولو شِقّ فِرْسِنِ شاة».

وَحَرَ الصدر: الوحَرُ بفتح الحاء يأتي بمعنى الحقد والغيظ والعداوة والغلّ، ونحو ذلك مّما يكون في صدور بعض الناس على بعض.

فِرْسِنُ الشاة: المراد منه ظلفها، وشقّه نصفه، وهذا أحقر ما يمكن أن يطلب من الشاة عند الضرورة، ومع ذلك فقد نهى الرسول ﷺ عن احتقاره إذا أهدته جارة لجارتها.

بهذه المعاني الإسلامية تؤدي الهدية أهدافها المنشودة.

وضمن هذه المعاني الإسلامية قال الرسول ﷺ فيما رواه أحمد والترمذي وصححه عن أنس: «لو دُعيت إلى كراع أو ذراعٍ لأجبتُ، ولو أهدي إليّ ذراعٌ أو كراعٌ لقبلت».

على أنه ينبغي للمسلم إذا قُدّمت له هدية أن يكافىء عليها بحسب استطاعته لا أن يكون آخذ هدايا فقط، وهو قادر على أن يكافىء بهدايا مماثلة، وإلّا دلّ على طمعه وشحه.

أما من لا يستطيع أن يكافىء على الهدية فعليه أن يثني على من أهداه ويدعو له بأن يجزيه الله خيراً، روى أبو داود والترمذي عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعطي عطاءً فوجد فليجزِ به، ومن لم يجد فلْيثنِ، فإن من أثنى فقد شكر، ومن كتم فقد كفر، ومن تحلى بما لم يُعط كان كلابس ثوبـي زور».

وروى الترمذي بإسناد جيّد عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «من صُنع إليه معروف فقال لفاعله: جزاك الله خيراً، فقد أبلغ في الثناء».

وثبت أن شكر صاحب الهدية أو صاحب العطية من شكر الله، روى الإمام أحمد والترمذي بإسناد صحيح عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله».

ولـمّـا كان الأنصار من أكثر الناس عطاءً لإخوانهم المهاجرين، خاف المهاجرون أن يسبقوهم بالأجر، أو يذهبوا بالأجر كله، فقال لهم الرسول ﷺ فيما رواه الترمذي وصححه عن أنس: «إلاَّ ما دعوتم الله لهم وأثنيتم عليهم».

ـ ٩ ـ
عطاء العلم والدعاء بظهر الغيب

١ ـ من الناس فضلاء معطاؤون يحبون أن يعطوا كلّ ما لديهم من معارف ونصائح وعلوم، ومن الناس بخلاء يبخلون حتى بنشر ما لديهم من معارف وعلوم ونصائح، ولو كان ذلك يزيد ثروتهم العلمية ويحفظها.

وقد أشاد الرسول ﷺ بالجود في نشر العلم، وذمّ كاتمي العلم الذي يجب نشره، وأبان بأنهم يعاقبون يوم القيامة بأن يُلجَموا بلجام من نار.

روى البيهقي في شعب الإيمـان عن أنس بن مـالـك قـال: قـال رسول الله ﷺ:

«هل تدرون من أجود جوداً؟».

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «الله تعالى أجود جوداً، ثم أنا أجود بني آدم، وأجودهم من بعدي رجلٌ عَلِم علماً فنشره، يأتي يوم القيامة أميراً وحده» أو قال: «أمة واحدةً».

وروى أبو داود والترمذي ــ وقال: حديث حسن ــ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار».

إنّ هذا اللجام جزاء من جنس العمل، فالذي يكتم العلم الذي يجب نشره وإبلاغه إلى أهله، يعاقب يوم القيامة بسجن لسانه بعذاب من نار.

وأقبح من كاتم العلم من يُضلّل بإعطاء معلومات كاذبة، أو بتقديم مشورة غير راشدة، وهو يعلم ذلك من نفسه، فهو بخيل وخائن.

روى الدارمي وأبو داود بإسناد حسن عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أفتى بغير علم كان إثمه على من أفتاه، ومن أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد في غيره فقد خانه».

٢ ــ ومن العطاء المحمود دعاء الأخ لأخيه، وشفاعة الأخ لأخيه بين يدي الله.

ولذلك علّمنا الإسلام أن ندعو لإخواننا المؤمنين، وأن نكون شفعاء لهم بين يدي الله، لا سيما في ظهر الغيب، ومن هذا القبيل الصلاة على موتى المسلمين، فهي دعاء لهم وشفاعة، وهذا من العطاء المتبادل الذي يكون بين المؤمنين، والتقصير في هذا من البخل، ومن يبخل فإنما يبخل على نفسه، لأن الملائكة تقول عند دعاء الأخ لأخيه: ولك مثل ذلك، فينال دعاءً مثل دعائه على لسان الملائكة المكرمين الذين لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

والصلاة على النبي ﷺ من هذا القبيل، فهي عطاء له على سبيل الوفاء له، مقابل ما قدمه صلوات الله عليه لأمته وللعالمين أجمعين من هداية وإخلاص ودعاء، وما سيقدمه يوم القيامة من شفاعة.

والبخيل بالصلاة على النبي ﷺ إنما يبخل على نفسه، لأن من صلى على

النبي محمد ﷺ مرة صلى الله عليه بها عشراً، مكافأة له، وقد أمرنا الله بأن نصلي عليه، وأخبرنا بأنه يصلي على النبي هو وملائكته، فقال تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾.

وقد جاء في كلام الرسول ﷺ قوله: «البخيل من إذا ذكرت عنده فلم يصل عليّ». أخرجه الترمذي والنسائي عن الحسين وعن عليّ رضي الله عنهما.

والصلاة من الناس هي الدعاء بالرحمة، والصلاة من الملائكة دعاءٌ واستغفار، والصلاة من الله إفاضة فيوض من رحمته جلّ وعلا.

وقد دلّ على أن الملائكة تدعو للذين يدعون لإخوانهم بمثل ما دَعوْا به لهم، ما رواه مسلم عن أبـي الدرداء، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد مسلمٍ يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال المَلَكُ: ولك مثل ذلك».

وعن أبـي الدرداء أيضاً، أن رسول الله ﷺ كان يقول: «دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل، كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكّل به: آمين. ولك مثل ذلك».

أما الأعرابـي الذي قال: اللهم ارحمني ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً، فقد حجّر واسعاً، وشحّ برحمة الله، وأعرب عن جهله الكبير بفضل الله العظيم وعطائه الجسيم، ولذلك بين الرسول ﷺ ضلال هذا الأعرابـي في مقالته هذه، مشيراً بذلك إلى أن من بالغ الجهل حجر فضل الله، فهو إذا لم تسمح نفسه بأن يجود بدعوة عامة لكل المسلمين، فليسكت. وقصة هذا الأعرابـي جاءت فيما رواه أبو داود عن جندب قال:

جاء أعرابـي، فأناخ راحلته، ثم عقلها، ثم دخل المسجد فصلى خلف رسول الله ﷺ، فلما سلم أتى راحلته فأطلقها، ثم ركب، ثم نادى: اللهم ارحمني ومحمداً، ولا تشرك في رحمتنا أحداً.

فقال رسول الله ﷺ : «أتقولون: هـو أضلّ أم بعيـره؟ ألم تسمعوا إلى ما قال؟» .

قالوا: بلى.

ـ ١٠ ـ
الإيـــثـــار

الإيثار مرتبة راقية جداً من مراتب خلق حب العطاء، إذ هو تقديم الإنسان أخاه على نفسه في أمر هو بحاجة إليه.

ولا شك أن من الصعب جداً أن يتجرد الإنسان عن نفسه كل هذا التجرد، فيؤثر أخاه على نفسه في أمر هو بحاجة شديدة إليه.

ومع ذلك فإننا نجد ظاهرة الإيثار بنسبة جيدة عنـد الأمهات نحـو أولادهن، إذ يؤثرنهم على أنفسهن في كثير مما يحتجن إليه في حياتهن، وقد نجدها عند الآباء نحو أولادهم ونجدها عند المحبين والعشاق، لا سيما في أحوال تأجج نار الحب والعشق، وتوهج لهيب الشوق، إذ يؤثر العاشق من يحب على نفسه بكثير مما يحب.

لكن كل هذه الصور من الإيثار صور ضيقة الدوائر، محدودة المواقع: أمّ تؤثر ولدها على نفسها، فإذا عاملت الآخرين عاملتهم بأنانية مفرطة. أبٌ قد يؤثر ولده على نفسه، فإذا عامل الآخرين عاملهم بأنانية مفرطة. عاشق قد يؤثر من يحب على نفسه، فإذا عامل الآخرين عاملهم بأنانية مفرطة.

أما الإيثار المثالي، الذي لا ينحصر في دوائر ضيقة، ولا تدفع إليه عاطفة ثائرة، فهو الإيثار الذي نجده عند المؤمنين الصادقين، الذين يعاملون الله تعالى، ويبتغون رضوانه، ويرجون الأجر عنده. فهؤلاء هم الذين تتسع دائرة الإيثار عندهم، فحيثما وجدوا مرضاة الله في إيثار غيرهم على أنفسهم، توقد في قلوبهم الإيمان، فآثروا على أنفسهم ابتغاء مرضاة الرحمن، ولو كان بهم خصاصة (أي: ضرورة أو حاجة) وقدموا مصالح أنفسهم الدنيوية ضحايا وقرابين لتذبح على

مذبح ابتغاء الخير والفضيلة، جوداً بها، وعطاءً غير محدود، وقد يبلغ بهم جود الإيثار أن يقدموا أرواحهم وحياتهم ضحايا، فداءً لغيرهم، ولكن ابتغاء مرضاة الله.

بواعث الإيثار:

أما الإيثار الأدنى ذو الدوائر الضيقة، الذي يكون عند الأمهات والآباء والعشاق، فالباعث إليه أمر فطري في النفوس ينتج عنه حب شديد عارم، والحب من أقوى البواعث الذاتية الدافعة إلى التضحية بالنفس وكل ما يتصل بها من مصالح وحاجات، من أجل سلامة المحبوب أو تحقيق رضاه، أو جلب السعادة أو المسرة له.

إن الحب محرك ذاتي قوي وفعال، وهو في النفس مولد حراري لأية قوة أو مادة يلامسها داخل الأنفس، ومع ارتفاع درجة حرارة الأنفس بمس الحب ينسى الإنسان ذاته، ويصبح أداة توجهها قيادة الحب، كما يوجه قائد السفينة سفينته بحركات بسيطة من مركز قيادته، وبهذا نفسر كيف يكون إيثار العشاق من يحبون بما يحبون، ما دام الحب هو الموجه في مركز قيادة أنفسهم.

أما الإيثار المثالي الأسمى، الذي يكون عند الطراز الراقي من المؤمنين الصادقين، فهو ليس إيثاراً انفعالياً عاطفياً مجرداً، ولكنه إيثار يعتمد على محاكمة منطقية سليمة، ويعتمد على عاطفة إيمانية عاقلة، وكذلك تكون أعمال المؤمنين بالله، الذين يحرصون على ابتغاء مرضاته.

ولـمّـا كانت مرضاة الله تعالى لا تنحصر في وجه من وجوه البر، أو في فرد معين من الأفراد؛ فإن تضحيات هؤلاء ومظاهر إيثارهم لا تنحصر كذلك، بل هي تساير اتجاه مرضاة الله.

والمحاكمة المنطقية لديهم قائمة على أن كل ما يعملونه ابتغاء مرضاة الله مأجورون عليه عنده أضعافاً مضاعفة، في دار هي أعظم من هذه الدار، وحياة هي أجلّ وأكمل من هذه الحياة، فإيثارهم وتضحياتهم من قبيل التجارة الرابحة قطعاً، وقائمة أيضاً على ملاحظة أن كل عمل فيه تحقيق لمرضاة الله هو العمل الأفضل والأنفع والأصلح في الحياة.

والعاطفة الإيمانية العاقلة لديهم قائمة على حب الله ورسوله، وحب ما يرضي الله ورسوله.

لذلك كان إيثار هذا الطراز الراقي من المؤمنين هو أرقى أنواع الإيثار وأفضل صوره.

أمثلة من الإيثار الأسمى:

١ ـ سجل الله للأنصار فضيلة إيثارهم إخوانهم المهاجرين، بكثير مما لهم به ضرورة أو حاجة، وفي ثنائه عليهم تحريض على الاقتداء بهم، فقال تعالى في سورة (الحشر ٥٩):

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

ففي هذا النص يبيّن الله تعالى فضل المهاجرين وفضل الأنصار، أما المهاجرون فقد ضحوا بأموالهم ومساكنهم وخرجوا مهاجرين من مكة، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وينصرون الله ورسوله. وأما الأنصار فقد استقبلوهم بالإكرام، وآثروهم على أنفسهم بكثير من محابهم، حتى كان منهم من آثر أخاه من المهاجرين على نفسه، مع أن به خصاصة لما آثر به.

وقد بلغ من إيثارهم أن يكون للأنصاري زوجتان أو أكثر، فيقول لأخيه من المهاجرين: اختر ما تشاء منهن، حتى أطلقها من أجلك لتتزوجها إذا انقضت عدتها.

وفي غزوة بني النضير، لم يجد الأنصار في أنفسهم غضاضة أن يوزع الرسول ﷺ فيئها على فقراء المهاجرين، عفة منهم وإيثاراً، وشعوراً منهم بحق المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم، فأصابهم الفقر بسبب الهجرة.

٢ ـ ومن لطائف قصص الإيثار، ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني مجهود (أي: فقير جائع) فأرسل ﷺ إلى بعض نسائه فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، ثم أرسل إلى أخرى، فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلّهُنّ مثل ذلك: لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء.

فقال النبي ﷺ: «من يضيف هذا الليلة؟».

فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله. فانطلق به إلى رحله، فقال لامرأته: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ. وفي رواية، قال لامرأته: هل عندك شيء؟

قالت: لا، إلا قوت صبياني.

قال: فعلّليهم بشيء، وإذا أرادوا العشاء فنوِّميهم، وإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج، وأريه أنا نأكل، فقعدوا وأكل الضيف، وباتا طاويين[1]، فلما أصبح غدا على النبي ﷺ فقال: «لقد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة».

ففي هذا الحديث قصة لطيفة من قصص إيثار الأنصار، وفيه بيان ما كان عليه الرسول ﷺ من إيثار لشظف العيش، ولو شاء أن يكون ذا سعة لكان.

٣ ـ وروى البخاري عن سهل بن سعدٍ، أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ ببردة منسوجة، فقالت: نسجتها بيدي لأكسوكها، فأخذها النبي ﷺ محتاجاً إليها، فخرج إلينا وإنها إزاره.

فقال فلان: اكسنيها ما أحسنها!.

فقال: «نعم» فجلس النبي ﷺ في المجلس، ثم رجع فطواها، ثم أرسل بها إليه.

فقال له القوم: ما أحسنت، لبسها النبي ﷺ محتاجاً إليها، ثم سألته، وعلمت أنه لا يرد سائلاً.

---

(١) طاويين: أي من غير عشاء.

فقال: إني والله ما سألته لألبسها، إنما سألته لتكون كفني.

قال سَهْلٌ: فكانت كفنه.

٤ ـ هذه التربية الإسلامية هي التي جعلت أبا بكر رضي الله عنه يقدم كل ماله في موسم من مواسم البذل والعطاء، إذ دعا الرسول ﷺ فيه إلى البذل في سبيل الله. ولـمّـا سأله الرسول ﷺ: ماذا تركت لعيالك؟ قال: تركت لهم الله ورسوله.

وهي التي جعلت عمر بن الخطاب يقدم نصف ماله في سبيل الله، وهي التي جعلت عثمان بن عفان يجهز جيش العسرة.

وهي التي علَّمت الأشعريين أن يشتركوا فيما عندهم من طعام إذا قل طعام عيالهم.

روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قل طعام عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناءٍ واحد بالسوية، فهم مني وأنا منهم».

فللّه درّ الأشعريين، ما أحسن تعاونهم وتشاركهم وإيثارهم!.

ـ ١١ ـ
الوصيــة بعطــاء

من الناس من تغلب عليهم طبيعة البخل طوال حياتهم، حتى إذا يئسوا من الحياة وأقعدهم المرض المنذر بالموت، أخذوا يتبرعون بمقادير من أموالهم، لعلمهم بأنها صائرة إلى غيرهم لا محالة، ويكون بذلهم إما على سبيل الوصية، وإما على سبيل العطاء المنجز.

وهذا تدارك حسن، رغّب به الإسلام، وحث عليه، إلا أن الأحسن منه والأفضل عند الله، أن يتصدق المسلم وهو صحيح الجسم واسع الأمل بالحياة،

تراوده مخاوف الفقر، وتطمع نفسه بالثراء الواسع. أما بذل المال عند اليأس من الحياة، فهو بذل من مالٍ سيخرج من ملكه حتماً، ويدخل في ملك غيره، والعطاء عن طريق الوصية صدقة تصدق الله بها على عباده، فأعطاهم حق التصرف بحدود ثلث أموالهم فقط، ليكتب ذلك في صحائف أعمالهم، ولولا هذا العطاء الإلهي لكان تصرف الإنسان المضاف إلى ما بعد موته تصرفاً لا قيمة له، لأنه تصرف من ملك من جعل الله لهم حقوقاً في تركته. فالإنسان متى مات انتهت ملكيته لأمواله، وعاد الملك لمالك الملك جل وعلا، ويوزع على المستحقين بالعطاء الإلهي حسب التقسيمات التي فرضها الله.

ومن أجل ذلك يعتبر عطاء الإنسان في حالة اليأس من الحياة، أو عطاؤه المضاف إلى ما بعد الموت، عطاءً ضعيف القيمة بالنسبة إلى العطاء في حالة الصحة والقوة.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رجل: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجراً؟ قال: «أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تمهل، حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت: لفلانٍ كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان».

وقد كان لفلان: أي إن المال صائر حتماً بعد موت الموصي لفلانٍ ما، سواء أكان لمن يأخذه على سبيل صدقة، أو لمن يأخذه على سبيل الميراث، فكأن الموصي يتصدق من مال غيره.

ولكن ليس معنى هذا أنه لا قيمة للصدقة على سبيل الوصية، إنما الغرض بيان أفضلية الصدقة المنجزة، حينما يكون الإنسان صحيحاً في جسمه، شحيحاً بماله، يخشى الفقر والحاجة، ويأمل الغنى لما تبقى من عمره.

وروى أحمد والنسائي والترمذي وصححه عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل الذي يتصدق عند موته أو يعتق كالذي يهدي إذا شبع».

* * *

الفصل الثامن

سماحة النّفس

ـ ١ ـ

من الأسس العامّة التي ترجع إليها مجموعة من الظواهر الخلقيّة المحمودة سماحة النفس.

ويأتي في مقابل هذا الأساس الخلقي ما يمكن أن نسمّيه بخُلُق نكد النفس وعسرها وتشدُّدها، وترجع إليه مجموعة من الظواهر الخلقية الذميمة في السلوك الإنساني.

والناس على اختلاف مستوياتهم في الذكاء واختلاف نماذِجهم الخلقية يوجد فيهم من يتمتعون بخلق سماحة النفس، فهم هيّنون لينون سمحاء، ويوجد فيهم آخرون نكدون متشدّدون يتذمّرون من كلّ شيءٍ لا يوافق هواهم، ويريدون الدّنيا كلّها أن تكون على وفق شهواتهم وأهوائهم الآنية المتجدّدة، أو على وفق ما يرون أنه الأفضل والأصلح والأحسن، فلا يستقبلون الأحداث بسماحة نفس، ولا يستقبلون ما لا يوافق هواهم من أشياء بسماحة نفس، بل يستقبلونها بتمعُّرٍ في وجوههم، ونكدٍ وتسخُّطٍ في نفوسهم، وسبٍّ وشتمٍ وتذمُّرٍ في اللسان. وَيترقّبون المستقبل بتشاؤم وحذر.

أمّا سمحاء النفوس فإنّهم يكونون هيّنين ليّنين، يتقبلون ما يجري به القضاء والقدر من خيرٍ أو شرٍّ بالرضى والتسليم، ويحاولون أن يجدوا لكلّ

ما يجري به القضاء والقدر حكمة مرضية، وإن كان مخالفاً لأهوائهم، ويراقبون دائماً قول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾.

ويردّدون في أنفسهم عند كل أمرٍ يكرهونه معنى قول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾.

من أجل ذلك يستقبلون كلّ ما يأتيهم من قِبَل الله بالرضى والتسليم، ويلاحظون جوانب الجمال في كلّ ما تجري به المقادير، ويغضون عن جوانب القبح التي قد تكون فيها بحسب تقديرهم. فهم هينون لينون راضون متسامحون، لا يسخطون إلا إذا وجدوا أمراً يسخط الله تعالى، عندئذٍ يغضبون لغضب الله. أمّا ما فيه رضى الله فإنهم يرضون به لرضى الله.

وَهم يترقبون المستقبل بتفاؤل وأمل، كما يستقبلون الواقع بانشراح لما يحبّون وإغضاءٍ عمّا يكرهون، وبذلك يُسعدون أنفسهم، ويُريحون قلوبهم بالرضى والتسليم.

وهذا من كمال العقل، إنّ العاقل هو الذي يكون واقعياً، فيسعد نفسه وقلبه بالواقع الذي لا يملك دفعه ولا رفعه. ويكون واقعياً فيعامل الناس بالتسامح، لأنه لا يملك أن يطوّع الناس جميعاً لما يريد، فالناس الآخرون ليسوا جماداتٍ تُطوَّع، ولكنهم مثله أصحاب نفوس مختلفة، وطبائع متباينة، وإراداتٍ لا يطابق بعضها بعضاً.

وأما أصحاب النفوس النكِدةِ العسيرة المتشدّدة فإنهم قلّما يرضيهم شيء، بل يحاولون أن يجدوا في كلّ شيءٍ أو عملٍ جوانب قبيحة تنفّرهم منه، بل تكاد عيونهم لا ترى من الأشياء أو الأعمال إلّا جوانب قبحها، فلا يرون في البدر

إلّا كلفه، ولا يشاهدون في شجرة الورد إلّا شوكها، ولا يرون في الجبل الشامخ إلّا أنه عقبة في طريق السالكين، ولا يرون في الصيف إلّا أنّ شمسه محرقة، ولا يرون في الشتاء إلّا أن بردَهُ مؤذٍ ومزكم، ولا يرون في كتاب عظيم النفع إلّا ما فيه من أخطاءٍ وسقطات، ولا يرون في الطعام اللّذيذ إلّا الشعرة التي سقطت فيه خطأً.

إن النكد المحروم من خلق سماحة النفس إذا نظر إلى وجه جميل أخذ يبحث فيه عن بثرةٍ ليعيبه بها، وإذا تعرّف على رجل ذي كمال واستقامة أخذ يبحث له عن عثرة لينقصه بها، وهكذا ديدنه، نكدٌ عسير متشدّد، بحّاثٌ عن العيوب والقبائح، لا يرضيه شيء، ولا يسرُّهُ شيء، حتى نفسه وأعماله.

وخلق نكد النفس شقاءٌ على صاحبه، إذ يحرمه من أن يسعد نفسه بشيء.

— ٢ —

فوائد سماحة النفس ومضارّ نكدها

يستطيع سمح النفس الهينّ اللّين أن يغنم في حياته أكبر قسط من السعادة وهناءة العيش، لأنه بخلقه هذا يتكيف مع الأوضاع الطبيعية والاجتماعية بسرعة مهما كانت غير ملائمة لما يحب أو لما تهوى نفسه، ويستطيع أن يستقبل المقادير بالرضى والتسليم مهما كانت مكروهة للنفوس.

ويستطيع سمح النفس الهين اللّين أن يظفر بأكبر قسط من محبّةِ الناس له، وثقة الناس به، لأنه يعاملهم بالسماحة والبشر ولين الجانب، والتغاضي عن السيئات والنقائص، فإذا دعاه الواجب إلى تقديم النّصح كان في نصحه رفيقاً ليّناً، سمحاً هيّناً، يُسِرّ بالنصيحة، ولا يريد الفضيحة، يسدُّ الثغرات، ولا ينشر الزّلات والعثرات. ويعامل الناس أيضاً بالسماحة في الأمور المادية، فإذا باع كان سمحاً وإذا اشترى كان سمحاً، وإذا أخذ كان سمحاً، وإذا أعطى كان سمحاً، وإذاقضى ما عليه كان سمحاً وإذا اقتضى ما له كان سمحاً.

ويجلب سمح النفس الهيّن لنفسه الخير الدنيوي بتسامحه، وذلك لأنّ الناس يحبّون المتسامح الهيّن اللّين، فيميلون إلى التعامل معه، فيكثر عليه الخير بكثرة محبّيه والواثقين به.

ويجلب سمح النفس الهيّن اللّين لنفسه رضى الله تعالى والخير الأخرويّ العظيم، ما ابتغى بسماحته رضوان الله عزّ وجلّ.

أمّا نكد النفس العسير الشديد فإنه يحرم نفسه من كلّ الفوائد التي يظفر بها السمح الهيّن اللّين، فهو في معظم أحواله متذمّر غير سعيد، ذامٌّ مُشاكس متّضجر طعانٌ لعّانٌ سيء المعاشرة، مكروهٌ من الناس، تنفر منه الطباع، وتتحاشاه الأبصار والأسماع، ويتجافى عنه الناس اتقاء نكده وشرّه، ولا يتعاملون معَه إلا مضطرين، فيحرم بذلك من خير دنيوي كثير، وأخيراً يحرم نفسه من حبّ الله ورضاه، لأنه كثير التسخط على مقاديره.

والنكد العسير الشديد يكره من كان مثله، فينفر منه ولا يحب معاشرته ولا التعامل معه، فإذا اضطرا إلى ذلك لم يصبر كلٌّ منهما على صاحبه، فإما أن يختصما وإما أن يتفرقا.

وما أحسب أحداً تعامل مع الناس إلاّ مرّ عليه منهم نكدون فتحاشاهم وتجافى عنهم، وآثر البعد عن معاشرتهم والتعامل معهم.

أخرجُ إلى السوق فأصادف من الباعة سمحاء طلقاء الوجوه، فأجد قلبي مجذوباً إلى الشراء منهم والتعامل معهم، حتى ولو كانت بضاعتهم أقلّ جودة من بضاعة غيرهم، وأصادف آخرين نكدين عبوسين شرسين متشدّدين، فأنفر من الوقوف عندهم ومن التعامل معهم، حتى ولو كانت بضاعتهم أجود من بضاعة السمحاء الطلقاء، ولا أشتري منهم إلاّ مضطرّاً.

وهكذا في كل مجالات التعامل والعلاقات الإنسانية الأخرى.

- ٣ -

ترغيب الإسلام بسماحة النفس وتنفيره من نكدها

١ ـ دعا الرسول ﷺ للسمحاء بأن يرحمهم الله، فقد روى البخاريّ عن جابرٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى».

وفي رواية أخرى: «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى سمحاً إذا قضى، سمحاً إذا اقتضى».

أي: سمحاً إذا قضى الحق الذي عليه، سمحاً إذا اقتضى الحقّ الذي له.

٢ ـ ووصف الرسول ﷺ المؤمنين بأنّهم هيّنون ليّنون سُمحاء، إشعاراً بأنّ هذا الخلق من ثمرات التربية الإيمانية.

روى الترمذي في حديث مرسل عن مكحول قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمنون هينون ليِّنون كالجمل الآنف، إن قِيدَ انقاد، وإن أُنيخ على صخرةٍ استناخ».

والجمل الآنف: هو الذّلول السهل الذي يطيع صاحبه ولا يعصيه، فهو يأنف من الزّجر والضرب، ولا يحوج صاحبه إليهما ولا إلى أحدهما.

ولا غرو أن للتربية الإيمانية أثرها في تربية خلق السماحة ولين الجنب، وسهولة النفس، والبعد عن كلّ نكد وعسر وشراسة، وغلظة وفظاظة.

٣ ـ وجاء في كلام الرسول ﷺ الترغيب العظيم بالعافية من النار لمن كان هيّناً ليناً قريباً سهلاً، والترهيب الشديد بالحرمان من دخول الجنة لمن كان غليظاً فظاً.

فعن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بمن يحرم على النار وبمن تحرم النار عليه؟ على كلّ هيّن ليّن قريب سهْل».

(رواه الإمام أحمد والترمذي وقال: حديث حسن غريب)

وعن حارثة بن وهب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة الْجَوّاظُ ولا الجَعْظَرِي».

رواه أبو داود في سننه والبيهقي في شعب الإيمان.

وجاء في تفسير الجوّاظ والجعظري: أنه الغليظ الفظّ.

٤ ــ وشبه الرّسول ﷺ الناس في أخلاقهم وطباعهم بالأرض، فالهينون كهيِّنها، والقساة النكدون كحزْنِها، والطيبون كطيبها، والخبيثون كخبيثها، ويتضمن هذا التشبيه مدحاً للهينين الطيبين، وذمّاً للقساة النكدين الْعَسِرين.

فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأحمر، والأبيض، والأسود وبين ذلك، والسَّهْل، الْحَزْنُ، والخبيثُ والطيب».

(رواه أحمد والترمذي وأبو داود بإسنادٍ صحيح)

ونظم بعض الشعراء هذا المعنى فقال:

الناس كالأرض ومنها همُ ... فمن خشنِ الطبع ومن لين

فجندلٌ تدمى به أرجُلٌ ... وإثمدٌ يوضع في الأعينِ

فالنفس السمحة كالأرض الطيبة الهينة المستوية، فهي لكلّ ما يرادُ منها من خير صالحة، إن أردت عبورها هانت، وإن أردت حرثها وزراعتها لانت، وإن أردت البناء فيها سهلت، وإن شئت النوم عليها تمهّدت.

أمّا النفس النكدة الشديدة العسيرة، فهي مثل الأرض السبخة الوعرة، لا تطيب ولا تهون ولا تلين لأي عمل يراد فيها، ولا لأي مصلحة تقصد منها.

٥ ــ وكان الرسول محمد صلوات الله عليه أعظم أسوة حسنة في سماحة النفس، ولين الطبع، وسهولة المعاملة، وكمال الخلق، فكان بأخلاقه صلوات الله عليه صاحب دعوة عملية للتحلي بهذا الخلق، وبسائر فضائل الأخلاق، ومحامد السلوك.

ولم يكن صلوات الله عليه نكداً ولا صعباً ولا فظّاً ولا غليظاً، ولذلك أثنى الله عليه بالرّقة ولين الجانب ولطف الحديث، إذ نفى عنه الفظاظة وغلظ القلب، فقال تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ولو كنت فظّاً غليظَ القلبِ لانفضوا مِن حولك (١٥٩)﴾.

أي: لستَ يا محمد فظّاً في أقوالك ومخاطباتك للناس، ولا غليظ القلب عديم الرقة واللطف والرحمة، في واقع حالك الخلقي، وليس من شأنك ولا من شأنِ أي داعٍ يدعو إلى الله أن يكون فظّاً أو غليظاً، لأن هذين منفران ويجعلان الناس ينفضونَ من حول الداعي إلى الله.

— ٤ —

من ظواهر خلق سماحة النفس

إضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه من ظواهر خلق سماحة النفس، من لين الجانب، ورقة المعاملة ولطفها، واستقبال الأحداث بالرضى والبشر والبعد عن كل عنف وشدّة وغلظة وفظاظة ونكد، وطعنٍ ولعنٍ وشتم، وتذمّر وتضجر، ومقابلة للناس بما يكرهون، نلاحظ من ظواهر هذا الخُلق ما يلي:

* **أولاً**: طلاقة الوجه واستقبال الناس بالبشر، ومشاركتهم بالسمع والفكر والقلب.

وطلقُ الوجه حسن البشر بالناس محبّب إليهم، مألوف في نفوسهم، قريب إلى قلوبهم.

وقد حثّ الرسول ﷺ على هذه الظاهرة بقوله وعمله، فمن ذلك ما يلي:

(أ) عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «كلّ معروف صدقة، وإنّ من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلْق، وأن تفرغ من دلوك في إناء أخيك».
(رواه الإمام أحمد والترمذي)

وهذا في الأحوال الطبيعية يرجع إلى سماحة النفس.

(ب) وعن أبـي ذرّ أن النبي ﷺ قال: «لا تحقرنّ من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طَلِيق» رواه مسلم.

(ج) وروى الترمذي عن أبـي ذرّ قال: قال رسول الله ﷺ: «تبسّمك في وجه أخيك صدقة، وأمرُك بالمعروف صدقـة، ونهيك عن المنكـر صدقـة، وإرشادك الرجُل في أرض الضلال لك صدقة، ونصرك الرجل الرديء البصر لك صدقة، وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة».

(د) وفي حديث طويل رواه أبو داود بإسنادٍ صحيح عن جابر بن سُلَيم، أن رسول الله ﷺ قال له فيه: «وأن تُكلّم أخاك وأنت منبسطٌ إليه وجهك إنّ ذلك من المعروف».

(هـ) وقد كان رسول الله ﷺ دائم البشر طلق الوجه مشرقاً، يواجه الناس بابتسامة حلوة، ويشارك الناس بمشاعره وحواسّه.

روى الترمذي عن عبدالله بن الحارث بن جَزْءٍ قال: «ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ».

وعن جرير بن عبـدالله البَجَليّ قـال: «ما حجبني رسـول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا ابتسم».

وهكذا يكون سمْحُ النفس طلْق الوجه باسماً مشرق المُحيَّا، بخلاف النكِدِ الصعب، حتى يبدوَ كأنه قَرِفٌ من كلّ شيء، فإذا واجه الناس واجههم بسحنة منقبضة لا انبساط فيهـا ولا بشر، وإذا اجتمـع معهم لم يشاركهم بمشـاعره ولا بحواسه، وكان بينهم كأنه غريب عنهم، وكأنهم غرباء عنه، في وجهه ولسانه ونفسه، وهذا الوضع يجعله ممقوتاً مكروهاً بعيداً عن قلوب الناس، لأنه وضع يلازمه في معظم أحواله بسبب نكد نفسه الملازم له.

على أنّ مثل هـذه الظاهـرة قد تعـرض لمعظم النـاس إذا نزل بهم ما يكرهون، ولكنها لا تلازمهم، فالسمحاء منهم لا يلبثون أن يَرجع إليهم انبساطهم وانشراحهم، والحالة الكئيبة التي ظهرت منهم حالة طارئة مع عارضة

الحزن الذي أصابهم، أو الهمّ الذي انتابهم، ولا تلبث طويلاً في نفوسهم، بل ترجع نفوسهم سريعاً إلى سماحتها وانبساطها ورضاها عن الله.

* **ثانياً**: مبادرة الناس بالتحية والسلام والمصافحة وحسن المحادثة:

فمن كان سمح النفس بادر إلى هذه المحاسن، ووجودها في الإنسان طبيعية غير متكلفة، يدلّ على أنّه سمح هيّن ليّن رقيق حاشية النفس، أَلُوف ودود لا فظ ولا غليظ.

أما نكد النفس فلا يفعلها إلّا متكلفاً، ولمصلحة يقصد الحصول عليها.

وقد حثّ الإسلام على هذه المحاسن من ظواهر الأخلاق الاجتماعية بنصوصه كما كان الرسول ﷺ أسوة حسنة فيها بعمله وأخلاقه، وفيما يلي طائفة من الشواهد على ذلك:

(أ) ففي السلام يقول الله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۝٢٧ ﴾.

ولتستمرّ عادة البدء بالسلام أرشدنا الله إلى أن نسلّم على أنفسنا إذا دخلنا بيوتاً ولم نجد فيها أحداً من الناس نُسلّم عليه، وجعلها الله تحيّة من عنده مباركةً طيبة لنا، فقال تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً ﴾.

وكلّفَ اللّهُ من وُجّهت له تحيّةٌ من أخيه المؤمن أن يُحيّيهُ بأحسن منها أو بمثلها، فقال تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۝٨٦ ﴾.

وأحاديث الرسول ﷺ في الحث على إفشاء السلام ذوات عدد، منها ما يلي:

* روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص، أن رجُلاً سأل رسول الله ﷺ: أيُّ الإسلام خير؟ قال: «تُطْعِم الطّعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف».

* وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلوا الجنة حتّى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتّى تحابّوا، أو لا أدلّكم على شيء إذا فعلتموه تحابَبْتمْ؟ أفشوا السلام بينكم».

* وروى الترمذي ـ وقال حديث صحيح ـ عن عبدالله بن سلام قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام».

* وكان الرسول ﷺ يعلّم أصحابه هذا الأدب الإسلامي بشكل عمليّ، في كلّ الأحوال التي يطلب فيها البدء بالسلام.

* وطبّق أصحاب الرسول ﷺ في حياتهم هذا الأدب، حتى إذا حُجب بعضهم عن بعض بشجرة وهم يمشون في طريق واحدة، سلّم بعضهم على بعض بعد ذلك.

(ب) وفي المصافحة بوصفها مظهراً من مظاهر البشر وحسن التلاقي وآدابه، نجد عدة نصوص منها ما يلي:

* روى البخاري عن قتادة قال: قلت لأنسٍ رضي الله عنه: أكانت المصافحة في أصحاب رسول الله ﷺ؟ قال: نعم.

* وروى أبو داود بإسناد صحيح عن أنسٍ قال: لما جاء أهل اليمن، قال رسول الله ﷺ: «قد جاءكم أهل اليمن، وهمْ أوّل من جاء بالمصافحة».

* وروى أبو داود عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسْلِمَين يلتقيان فيتصافحان إلاّ غُفر لهما قبل أن يفترقا».

* **ثالثاً**: حسن المصاحبة والمعاشرة والتغاضي وعدم التشدّد في الأمور:

فمن كان سمح النفس كان حسن المصاحبة لإخوانه، ولأهله، ولأولاده، ولخدمه، ولكل من يخالطه، ولكل من يرعاه.

وكان حسن المعاشرة خفيف المحاسبة والمؤاخذة، متغاضياً عن المخالفات التي تتعلق به، لا يتشدّد في الأمور، ولا يعظم الصغائر، بل يلتمس العذر لمن يقصّر معه أو لا يعطيه من الاحترام أو الخدمة حقه.

وقد كان رسول الله ﷺ المثل الكامل في ذلك كلّه، فمّما ورد في السنة من شمائله ما يلي:

(أ) روى البخاري ومسلم عن أنس خادم الرسول ﷺ قال: خدمتُ النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أفٍّ، ولا: لِمَ صنعت؟ ولا: ألا صنعت؟

وروي عنه أنه قال: خدمت رسول الله ﷺ وأنا ابن ثمان سنين، خدمته عشر سنين، فما لامني على شيءٍ قطّ أُتي فيه على يديّ، فإن لامني لائم من أهله قال: «دعوه فإنه لو قضي شيءٌ كان».

أُتي فيه على يديّ: أي أهلك أو أتلف على يدي.

فكان صلوات الله عليه من سماحة نفسه وخلقه العظيم لا يتضجر من عملٍ عمله خادمه ولو خالف ما يريد منه، ولا يلومه على عمل لوماً صريحاً ولا لوماً غير صريح، فلا يقول له: لِمَ صنعت؟ تلويماً على فعل صنعه، ولا يقول له: ألا صنعت؟ تلويماً على عمل لم يقم به.

وإذا كان هذا شأنه مع خادمه فما بالك بشأنه مع أهله وأصحابه، وسائر الناس؟!

(ب) وروى مسلم عن أنسٍ قال: كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقاً، فأرسلني يوماً لحاجة، فقلتُ: والله لا أذهب، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به رسول الله ﷺ فخرجت حتى أمرّ على صبيان وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفايَ من ورائي، قال فنظرت إليه وهو يضحك، فقال: «يا أنيسُ ذهبتَ حيث أمرتك؟». قلت: نعم أنا أذهبُ يا رسول الله.

(ج) ومن سماحته وحلمه وخلقه العظيم قصته مع الأعرابيّ الذي أخذ يجذب رداءه بشدة ليأمر له بعطاء.

فقد روى البخاري ومسلم عن أنسٍ قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُرْدٌ نجرانيّ غليظ الحاشية، فأدركه أعرابيٌّ فجبذه بردائه جَبْذَةً شديدة، ورجع نبي الله ﷺ في نحر الأعرابي، حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثّرت بها حاشية البُرد من شدّة جبذته، ثم قال: يا محمد مُرْ لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثمّ ضحك ثمّ أمر له بعطاء.

(د) ومن سماحته وَجُوده صلوات الله عليه أنه ما سئل شيئاً قط، فقال: لا.

كذا روى البخاريّ ومسلم عن جابرٍ رضي الله عنه.

(هـ) ومن سماحته وتواضعه ولين جانبه صلوات الله عليه، أنّه كانت تأتيه أمةٌ ضعيفة فتأخذ بيده ليقضي لها من حوائجها، فيتقبّل ذلك بنفسٍ هيّنة ليّنة سمحة، ثمّ لا يشعرها بتذمُّر ولا تنكّر.

روى الإمام البخاري عن أنس قال: كانت أمة من إماء أهل المدينة تأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت.

(و) ومن سماحته وتواضعه وصبره صلوات الله عليه، أنه كان يتحمّل المتاعب في نفسه من أجل الضعفاء والمساكين.

روى البخاري عن أنس: أنّ امرأةً كان في عقلها شيءٌ، فقالت: يا رسول الله، إنّ لي إليك حاجة، فقال: يا أم فلان، أي السّكك شئت حتى أقضي لك حاجتك، فخلا معها في بعض الطّرق حتى فرغت من حاجتها.

وروى مسلم عن أنس أيضاً قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلّى الغداة جاء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء، فما يأتون بإناءٍ إلا غمَسَ يده فيها، فربّما جاؤوه بالغداة الباردة فيغمسُ يده فيها.

وقد كانوا يفعلون ذلك لينالوا من بركته صلوات الله عليه.

(ز) ومن سماحته ويسره صلوات الله عليه مشاركته أهله في أعمال البيت.

روى البخاري عن الأسود قال: سألت عائشة: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قال: كان يكون في مَهنة أهله، فإذا حضرت الصلاةُ خرج إلى الصلاة.

(ح) ومن سماحته ورغبته بالأيسر الأسهل من الأمور، أنه ما خُيّر بين أمرين إلّا اختار أيسرهما إلّا أن يكون إثماً.

روى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: ما خُيّر رسول الله ﷺ بين أمرين قطّ إلّا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط إلّا أن يُنتهك حرمة الله فينتقم لله بها.

(ط) ومن سماحته ويسره وتغاضيه عن السيئات التي تتعلّق بذاته ﷺ ما رواه مسلم عن عائشة قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ لنفسه شيئاً قط بيده، ولا امرأة ولا خادماً، إلّا أن يجاهد في سبيل الله، وما نِيلَ منه شيءٌ قطّ فينتقمَ من صاحبه، إلّا أن يُنتهكَ شيءٌ من محارم الله فينتقم لله.

وما رواه الترمذي والإمام أحمد بإسناد صحيح عن عائشة قالت: لم يكن رسول الله ﷺ فحّاشاً ولا متفحشاً ولا سخاباً في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح.

الفحش والتفحش: النطق بالألفاظ الفاحشة المتصلة بالعورات وما يجب ستره من الأفعال، والبعد عن ذلك من الآداب الرفيعة التي يلتزم بها المسلم، فلا يسمع الناس من الكلام ما يعفّ عن سماعه كرام الناس.

والسّخبُ في الأسواق: رفع الصوت فيها كما يفعل السوقة.

(ي) ومن سماحته ويسره وتواضعه صلوات الله عليه أنه كان يركب الحمار إذا لم يتيسر له غيره، وأنه كان يخصف نعله بيده، ويخيط ثوبه، ويخدم نفسه.

روى ابن ماجه والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس خادم الرسول ﷺ أن النبي ﷺ كان يعود المريض، ويتبع الجنازة، ويجيب دعوة المملوك، ويركب الحمار.

ويقول أنس: لقد رأيته يوم خيبر على حمار خطامه ليف.

وروى الترمذي عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته.

قالت: كان بشراً من البشر، يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه.

(ك) ومن سماحته وتودده للناس وتألفه لقلوبهم وكمال خلقه صلوات الله عليه، حسن مؤانسته لجلسائه، فيشارك جلساءه في أحاديثهم العامة من أمور الدنيا، ما لم يكن فيها معصية لله تعالى، أو انقطاع عن خير أهمّ وأفضل من مؤانسة الجلساء ومشاركتهم وتأليف قلوبهم وجبر خواطرهم.

روى الترمذي عن خارجة بن زيد بن ثابت قال: دخل نفر على زيد بن ثابتٍ فقالوا له: حدّثنا أحاديث رسول الله ﷺ، قال: كنت جاره فكان إذا نزل عليه الوحي بعث إليّ فكتبته له، فكان إذا ذَكَرْنا الدنيا ذكرها معنا، فكلّ هذا أحدّثكم عن رسول الله ﷺ.

(ل) ومن سماحته ورقة طبعه وكمال خلقه صلوات الله عليه، أنه كان إذا صافح رجلاً لم ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يده من يد الرسول، وكان لا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون الرجل هو الذي يصرف وجهه عن وجهه.

روى الترمذي عن أنس: أنّ رسول الله ﷺ كان إذا صافح الرجل لم ينزع يده من يده حتى يكون هو الذي ينزع يده، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون هو الذي يصرف وجهه عن وجهه، ولم يُر مقدّماً ركبتيه بين يدي جليس له.

(م) ومن سماحته وتواضعه ورحمته وكمال خلقه صلوات الله عليه، أنه كان لا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي لهما حاجتهما.

روى النسائي والدارمي بإسناد صحيح عن عبدالله بن أبـي أوفى، قال: كان رسول الله ﷺ يكثرُ الذكر، ويُقلّ اللّغو، ويطيل الصلاة، ويقصّر الخطبة، ولا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي لهما الحاجة.

ــ ٥ ــ

من وسائل اكتساب خلق سماحة النفس

لقد تبين لنا في بحث اكتساب الأخلاق من الباب الأول من الكتاب، أن الأخلاق يمكن اكتساب مقادير منها، تتناسب مع أصل الاستعداد الفطري لاكتسابها، وأن النسبة تتفاوت بين الناس بحسب نماذجهم الطبعيّة، بيد أن كلّ نموذج قابل لاكتساب مقدارٍ ما من كلّ خلق.

وبناء على هذا نبحث هنا في بعض الوسائل التي يحسن التركيز عليها، من الوسائل التي تنفع في اكتساب خلق سماحة النفس، وفي التحلي بالظواهر السلوكية لهذا الخلق.

والذي أرى لفت النظر إليه في هذا المجال ثلاث وسائل.

الوسيلة الأولى: التأمل في الترغيبات التي رغّب الله بها الذين يتحلون بخلق السماحة، والفوائد التي يجنونها في العاجلة والآجلة، والسعادة التي يظفرون بها في الحياة الدنيا والآخرة.

الوسيلة الثانية: التأمل في المحاذير التي حذّر الله منها النكدين المتشددين العسيرين، وما يجلبه لهم خلقهم وظواهره السلوكية من مضارّ عاجلة وآجلة، ومتاعب وآلامٍ كثيرة، وخسارةٍ مادّية ومعنوية.

الوسيلة الثالثة: وهي من أنجع الوسائل وأكثرها عُمقاً في النفس، وتأثيراً في جذور التكوين الخلقي، ألا وهي وسيلة الاقتناع الإيماني بسلطان القضاء والقدر، وأنّه هو المهيمن على كلّ الأحداث التي تخرج عن حدود الإرادة الإنسانية المسؤولة عن الأعمال الصادرة عنها.

فمتى علم الإنسان أن المقادير أمور مرسومة، وأنه لا رادّ لقضاء الله، وأنّ الله لا يقضي شيئاً إلّا لحكمة هو يعلمها، ولا يأذن بنفاذ شيءٍ في كونه ولو من أهل الاختيار إلّا لحكمة هو يعلمها، اطمأنّ قلبه، وثبت فؤاده، وهَدَأ قلقه، وأراح نفسه من طلب تغيير المقادير النافذة، وداوى هواه الذي خالفته المقادير أو ما أذنت بنفاذه المقادير بقول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾.

وبقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾.

وحينما يعامل الناس وينالـه منهم أذى فإنه يعلم أنّ ما نالـه منهم له وجهان:

الوجه الأول: أنه ظلم من العباد لا يرضى الله به، لأنه جاء على خلاف ما أمر الله به أو نهى عنه، فالمؤمن لا يرضاه منهم، لأنّ الله أبان أنه لا يرضاه منهم.

الوجه الثاني: أنّ الله أذن بنفاذه لحكمةٍ هو يعلمها، ولو شاء لمنع نفاذه، فهو بهذا المعنى من قضاء الله وقدره، وقد رضيه الله بحكمته، فهو يرضى بقضاء الله الحكيم، ويرى أن الخير فيما رضيه الله له، لذلك فهو يتقبلُه بانبساط وسماحة نفسٍ وتسليم كامل، ولا يوجّه أيّ اعتراضٍ وتذمُّر على الله فيما قضاه.

ومن يرضى بمقادير الله يسعد قلبه برضاه، أمّا من يتسخّط على المقادير فإنه يشقي قلبه ونفسه بتسخطه، فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فعليه السخط.

ومن أجل الإقناع بهذه الحقيقة من حقائق القضاء والقدر، لملء قلوب المؤمنين بالسعادة، ومنحهم خلق السماحة، وإبعادهم عن كلّ كآبة، تكاثرت

نصوص القرآن والسنة، لتبيان هذه الحقيقة، التي تمثل أساساً عظيماً من أسس الإيمان.

(أ) فمنها قول الله تعالى في سورة (الحديد ٥٧):

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾.

ففي هذه الآية يبيِّن الله لعباده حقيقة من حقائق القضاء والقدر والعلم الربّاني السابق للأحداث، وهذه الحقيقة تتلخص بأن جميع المصائب وجميع النعم التي ينالها الناس في الحياة، سواءٌ نزلت في الأرض أو نزلت في الأنفس هي مكتوبة في كتاب علم الله وقضائه من قبل أن يبرأ الله الأنفس، أي من قبل أن يخلقها، فهي لا بدّ حاصلة لا يمكن ردّها ولا دفعها، وهذا الأمر في ضمن تراتيب القضاء والقدر أمرٌ يسيرٌ على الله وليس بعسير.

وقد أعلمنا الله بهذه الحقيقة من حقائق القضاء والقدر، لنتقبل مقادير الله بسماحة نفس، راضين عن الله مستسلمين إليه، عالمين بأنّ لله حِكَماً عظيمة في كلّ مقاديره، ولنتقبّل مصائب المقادير الرّبّانية بالصّبر، ونتقبل نِعَم المقادير الرّبّانية بالشكر، مبتعدين عن الفرح المبطر الذي يولّد في النفوس رذيلتي الاختيال والفخر، وذلك بالتكبّر على خلق الله، وبالطغيان الذي يولّده الشعور بالاستغناء.

وفي صدر الآية الأولى حذف دلّ عليه ما جاء في الآية الثانية، وتقدير الكلام: ما أصاب من مصيبة ولا نزل من نعمة في الأرض ولا في أنفسكم إلّا في كتاب من قبل أن نبرأها، لكيلا تأسَوْا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم.

الأسى: هو الحزن، يقال لغة: أسِيَ يأسَى أسَىً، إذا حزِن، فهو أسْيان، ويقال: أسوان، أي: حزين.

والفرح المذموم: هو البطر المخرج عن حدّ الاعتدال، والذي يتولد عنه الفخر على الناس والاختيال عليهم.

(ب) ومن النصوص أيضاً قول الله تعالى في سورة (التغابن ٦٤):

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

فهذا النصّ يدلّ على أنه ما من مصيبة تنزل إلّا بإذنٍ من الله تعالى، فإمّا أن تكون بمحض قضاء الله وقدره، فلا تنزل إلّا بإذن، وإمّا أن تكون أثراً لأسباب باشرها بعض خلق الله، وحين تكون النتائج مقضيةً بقضاء الله فإنّ الله تعالى يأذن للأسباب بأن تتحقّق منها هذه النتائج، ولو شاء سبحانه لمنع الأسباب عن التأثير، أو لصرفها، أو لأوجد أي عائق يعوقها عن التأثير، فما يفعل أحد من خلق الله أمراً تنتج عنه مصيبة من المصائب إلّا وإذن الله بوقوع المصيبة مرافق له، وربما يكون من فعل الفعل مسؤولاً عند الله تعالى عنه، لأنه عصى أوامر الله أو نواهيه، ومع ذلك فإنّ النتائج لم يكن لها أن تحصل لو لم يأذن الله بوقوعها.

ومع أنّ العالم قائم على نظام السببيّة وتأثيرها في مسبّباتها، فإنّ أيّ تأثير لسبب لا بدّ أن يقترن بإذن الله تعالى، ولو لم يأذن الله لم تؤثر الأسباب بمسبباتها، ومتى رفع الله إذنه عن سبب من الأسباب ارتفع تأثيره، كما أن السبب إذا لم يكن عين اختيار المخلوق المكلف هو من قضاء الله وقدره.

وبهذا المعنى الدقيق نردّ على الاتكاليين الذين يعتمدون على المقادير فيعطلون اتخاذ الأسباب، ويهملون شؤون الحياة، مع أنهم مأمورون بأمر الله الجازم باتّخاذ الأسباب.

وقد روى الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه بإسناد حسن صحيح، عن ابن خِزامَة عَن أبيه قال: قلت: يا رسول الله أرأيت رُقىً نَسْترقيها، ودَواءً نتداوى به، وتُقاه نتّقيها، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ قال: «هي من قدر الله».

ويمكن أن نمثّل بمثال مادّي مشاهد لاقتران الإذن الرباني بالأسباب، ولله المثل الأعلى، وهو إضاءتنا المصابيح الكهربائية في بيوتنا، إننا لا نستطيع إضاءتها إلّا بإذن القائمين على مؤسسة الكهرباء، فلو فرضنا أن مراقب الإمداد بالطاقة الكهربائية كان مطلعاً على كلّ حركة نتحرّكها في بيوتنا، وأنّ باستطاعته أن يقطع عنّا التيار متى شاء قطعاً كلّياً أو جزئيّاً، لكان كلّ ما نعمله في بيوتنا باستخدام الطاقة الكهربائية بإذنه، وإن لم يكن على ما يحب ويرضى، وذلك لأنه هو الممدّ بالطاقة وعلى علم بما يجري من أحداث، ومتى شاء فصل الطاقة، فاستمرار الإمداد بفعله، واستخدامنا لها بإذنه.

(ج) ومن النصوص أيضاً قول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾.

وقد أشار هذا النص إلى أنّ من سنن الله في خلقه أن يبتليهم بالمصائب، ليختبر ردود أفعالهم تجاهها، فهل يتقبّلونها بالصبّر والرضى والتسليم، إيماناً بالله وبما تشتمل عليه مقاديره مِن حِكم، أم يستقبلونها بالضجر والتذمّر والنّكد والتسخّط على الله.

فإن كانوا من الفريق الأول قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون، وهؤلاء هم أصحاب المنزلة العظيمة عند الله، عليهم صلوات من الله، أي رحمات، ورحمة من نوع خاص فوق الصلوات. وهؤلاء هم المهتدون.

وقد جعل الله جملة: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ ذكر الذاكر بعد نزول المصائب، لأن المصائب لا تعدو أنها سلبٌ للنّعمِ التي سبق أن أنعم الله بها، أو حرمان من النعم التي أنعم الله بمثلها على عباده، والنعم لدى التحقيق هي ملك لله تعالى، والناس وسائر عباد الله الذين ينعم عليهم بالنعم هم أيضاً ملك لله تعالى، ومصير العباد كلّهم أن يرجعوا إلى مالكهم، ومصير الأشياء كلّها أن

تعود إلى مالكها، فإذا ابتلى الله المؤمن فاستردّ منه نعمة كان قد وضعها بين يديه ليبتليه بها، فإن المؤمن يتذكّر بسرعة أنّ الله هو مالك كلّ شيء، ويتذكّر أيضاً أنه هو نفسه مملوك لله، وأنّ جميع الخلائق مملوكون لله وأنّهم عباده، وأنهم جميعاً راجعون إليه، فإذا رجع الملك إلى مالكه فعلامَ الحزن؟ وعلام الأسى؟ ولِمَ الاعتراض؟ ولماذا التسخّط؟

فحينما يتذكّر المؤمن هذه الحقائق يُعلن عبارة الإيمان التي تدلُّ عليها فيقول: إنّا لله وإنا إليه راجعون.

هذه العقيدة الإيمانية رحمة من الله تملأ القلوب طمأنينة وتسليماً، ورضىً عن الله فيما جرت به مقاديره.

وهكذا حال واقع الفريق الأوّل.

وأمّا الفريق الثاني: فإذا أصابتهم مصيبة تضجّروا وتسخّطوا على الله، وأضافوا إلى مُصِيبتهم التي امتحنوا بها مصيبة أكبر من داخل نفوسهم، وهم فوق ذلك يحرمون أنفسهم من رحمة الله، فيكون سخطهم شقاء عليهم، ووبالاً ونكداً وألماً دائماً، وكآبة مقيمة.

ولـمّا كانوا لا يملكون العقيدة الإيمانية الصحيحة، فإن المصائب إذ تصدمهم بآلامها القاسيات لا تجدُ لديهم أيّة قوّةٍ دفاعية داخل نفوسهم، ولا داخل قلوبهم، بل تقوم لديهم قوى الحزن والضّجر والاضطراب والتذمر والتسخط والنكد، فتساعد المصائب، وتنضم إلى جيشها، فتخرّب في كيان صاحبها أكثر من تخريب العدوّ، حتى يجد الإنسان نفسه وحيداً، وليس أمامه من داخل نفسه صديق يواسيه أو يسليه أو يداريه أو يساعده في تحمّل المصائب، وتظلم الحياة في وجهه، ويسودّ في عينيه كل شيء، وعندئذ إمّا أن يفرّ من الحياة بالانتحار، وإمّا أن يتحوّل مجرماً وشيطاناً رجيماً؛ يريد أن ينتقم من كلّ شيءٍ ويحطّم كل شيء، وينفس غيظه على كلّ شيء.

وإذ فقد هؤلاء ركناً أساسياً من أركان الإيمان كانوا غير مهتدين، وكانوا محرومين من الصلوات والرحمة من الله.

(د) ولأهميّة الاعتقاد بالقضاء والقدر في حياة الإنسان، إذ يمنحه سعادة الطمأنينة والاستقرار وسماحة النفس، وسعادة الرضى والتسليم؛ كان الرسول ﷺ يعلّم صغار الصحابة مضامينه مع أول ما يتعلّمونه من العقائد، ويلقّنهم مفاهيمه تلقيناً.

فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد والترمذي بإسنادٍ صحيح، عن عبدالله بن عباس رضي الله عنه، قال: كنتُ خلف رسول الله ﷺ[1] فقال: «يا غلام، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجدْه تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلّا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضرّوك إلّا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».

فالمؤمن يريح قلبه من عناء التعلّق بالأسباب، مع أنّه لا يفرّط في اتخاذ الأسباب الكونية التي ربط الله بها تحقيق المسبّبات، وأمر الناس باتخاذها، ومتى أراد الله شيئاً أنفذ مراده من خلال الأسباب، وإذا لم يرد شيئاً أوقف الأسباب، أو عطّل تأثيرها من خلال أسباب أخرى معارضة، أو بسلب الأسباب خصائصها، ولكن هذا إنما يتمّ في حدود المعجزات وخوارق العادات، وخرق قوانين الأسباب في مجرى المقادير من النوادر في سنن الله.

والواجب على المؤمن أن يربط قلبه بمسبب الأسباب كلها، وهو الله عز وجل، وأن يربط عمله وجوارحه بالأسباب قياماً بما أوجب الله، وبذلك يسلم له الاعتقاد ويسلم له العمل، ويظفر بأكبر قسط من السعادة، ومتى خالف ذلك حرم من السعادة، وتحمل متاعب الشقاوة.

فعن سعدٍ قال: قال رسول الله ﷺ : «من سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله له، ومن شقاوة ابن آدم تركه استخارة الله، ومن شقاوة ابن آدم سخطه بما قضى الله له».

(رواه الإمام أحمد والترمذي بسند ضعيف)

---

(١) أي رديفاً له على دابة.

(هـ) ومن النصوص أيضاً قول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾.

قد يرى بعض الناس إشكالاً في هذا النصّ، إذ يقول الله تعالى في الآية الأولى منه عمّا يصيب الإنسان من حسنة أو سيئة: ﴿قل: كلٌّ من عند الله﴾. ويقول في الآية الثانية منه: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله * وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾.

والجمع بين هاتين الفكرتين اللتين قد يتبادر منهما أنّهما متعارضتان يظهر في البيان التالي:

بعد أن هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة، وتحوّلت المدينة فصارت قاعدة الدولة الإسلامية وعاصمة المسلمين، أخذ المنافقون واليهود يتصيّدون كلّ مناسبة لبثّ أراجيفهم، وتقطيع المسلمين عن رسول الله ﷺ، وصدّهم عن دعوته، فإذا جاءت المسلمين نعمة من رزقٍ أو خيرٍ أو نصرٍ أو غنيمة، وامتدّ نفعها للمنافقين واليهود، أسرع هؤلاء فقالوا: هذه من عند الله، ليصرفوا أنظار المسلمين عن أثر بركة الإسلام، وبركة رسول الله ﷺ بين ظهرانيهم، وإذا أصابت المسلمين سيئة في أموالهم أو أنفسهم وامتدّ أثر ذلك إلى المنافقين واليهود، أخذ هؤلاء يرجفون فيقولون: هذا من شؤم محمد ورسالته، ليقطّعوا المسلمين عن رسول الله صلوات الله عليه، فكان المناسب في جوابهم والردّ عليهم أن يعلم الله رسوله أن يقول لهم: «كلٌّ من عند الله». أي: كلٌّ من الحسنة والسيئة من عند الله تعالى، وأفعال الله إنما تكون لحِكَمٍ هو يعلمها، فهي من عند الله خلقاً وإيجاداً وابتلاءً. ﴿فمالِ هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً؟﴾. أي: ماذا جرى لهم حتى جعلهم منطمسي البصائر لا يكادون يفقهون حديثاً.

أمّا قوله تعالى في الآية الثانية من النصّ: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾.

فهو يتضمن الإشارة إلى أنّ ما يصيبنا من حسناتٍ بقضاء الله، فإنما هو تطبيق لقانون الفضل الإلهي، وأنّ ما يصيبنا من سيئات بقضاء الله فإنما هو تطبيق لقانون العدل الإلهي، أو قانون التربية الإلهية.

ويمكن شرح جملة النصّ على الوجه التالي:

إنّ ما ينزل بالناس ممّا يحبون ومما يكرهون هو من عند الله وبقضائه وقدره، أمّا الحسنات منها فمن فضل الله، وأمّا السيئات منها فبسبب من الإنسان، إمّا لأنّ ذنبه هو السبب في استحقاق العقوبة، وإمّا لأن تربيته وتأديبه يقتضيان إذاقته بعض ما يكره في حياته من مصائب وآلام، فمصلحة الإنسان نفسه هي التي اقتضت أن يصيبه من الله بعض ما يكره من صروف الحياة.

وعلى هذه الشاكلة يحسن تدبّر معاني آيات القرآن الكريم، لأن القرآن متكامل المعاني، يتمّم بعضه بعضاً، ويفسر بعضه بعضاً، ولا ينقض بعضه بعضاً، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً. وعمل المتدبر لكلام الله يتمّ بأن يضع معنى كلّ آية في الموضع الملائم له، وعلى مقدار نسبته من ساحة المعاني، فلا يعمّم تعميماً زائداً على المراد، ولا يخصص تخصيصاً زائداً على المراد، ولكن يجمع ما اختلف من النصوص حول موضوع واحد، ويؤلف بينها تأليفاً تامّاً يملأ به ساحة الموضوع، ويعطي كلّ نصٍّ منها على مقداره.

وأمّا التعميم الوارد في قول الله تعالى في سورة (الشورى ٤٢):

﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾.

فيمكن فهمه على أحد وجهين:

الأول: أنه يتحدّث عن المصائب العامّة التي تشمل أمّةً من الأمم، أو قوماً من الأقوام، وهذه المصائب التي لها صفة العموم والشمول، إنما تكون على سبيل العقوبة العامة، بسبب ما كسبت الأمة أو القوم من سيئات ومخالفات، ويعفو الله عن كثير منها.

الثاني: أنّ سياق النص يدل على أنه خطابٌ للمشركين المعـاندين، فالمصائب الجماعية التي كانت تنزل بهم قد كانت بسبب عنادهم وجحودهم وكفرهم، ومعصيتهم لله والرسول، ولذلك جاء في الآية التي بعدها قوله تعالى:

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ ﴾.

أمّا المصائب التي تنال الأفراد ضمن سنن الله في ابتلاء عباده، فقد يكون لها حِكَمٌ أخرى غير حكمة العقوبة، فقد تكون للامتحان والاختبار والتمحيص والتمييز، وقد تكون للتربية والتأديب.

فمن النصوص الدالة على أنّ من المصائب ما هو للامتحان والاختبار والتمحيص والتمييز، قول الله تعالى للمؤمنين في سورة (آل عمران ٣):

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾.

فالامتحان قد يقتضي في بعض أشكاله أن يكون بالمصيبة وبما تكره النفوس. وتحمُّل المؤمن مصائب الامتحان الإلهي بصبر وصدق مع الله ورضىً وتسليم؛ هو من أفضل أعماله الصالحة، التي يكتب الله له بها أجراً عظيماً، وثواباً جسيماً.

ومن هذه النصوص أيضاً قول الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾

وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾.

فهذه مصائب امتحان وهي في سبيل الله، وتحملها والصبر عليها من صالحات الأعمال.

ومن هذه النصوص قول الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾.

والخلاصة: أنّ المصائب التي تصيب الناس في أنفسهم، أو في أرزاقهم، أو في أموالهم، أو في غير ذلك ممّا يتصل بهم ممّا يسرّهم الكمال فيه ويؤلمهم النقص منه، يرجع في حكمة القضاء والقدر إلى أمرٍ أو أكثر من الأمور التالية:

الأمر الأول: الابتلاء والامتحان، وهذا هو الأساس العام من الأسس التي تقوم عليها حكمة وجود المضارّ والمنافع، واللذائذ والآلام في الحياة.

الأمر الثاني: تربية النفوس على تحمّل ألوان الحياة المختلفة، الخاضعة لسنن ثابتة عامّة، ضمن مقادير الله الكبرى.

وهذه الحكمة التربوية ذات فلسفة عظيمة في سرّ الألوان المتضادة التي تتعرّض إليها الحياة، إنّ اللّذة لا تعرف قيمتها إلاّ بالألم، وإنّ الجميل لا يُعرف جماله ما لم تعرف صورة القبح، وإنّ الكمال لا يدرك كماله إلاّ بالنقص، وبضدها تتميز الأشياء.

الأمر الثالث: العقوبة على ما اكتسبه الإنسان بإرادته من أعمال سيئة، وما اقترفه من معاصٍ ومخالفات لله تعالى.

وكما تكون العقوبة للأفراد تكون أيضاً للأمم.

— ٦ —

سماحة الإسلام ويُسره

كما دعا الإسلام المسلمين إلى التحلّي بخلق السماحة، فإنّ السماحة من خلق الإسلام نفسه، وإنّ الله تبارك وتعالى يعامل عباده بالسماحة، ما لم يقتضِ الحقّ إقامة العدل اقتضاءً لازماً، وما لم تقتض الحكمة ذلك. وفي الحديث: «أحبّ الدين إلى الله الحنيفية السمحة».

فمن السماحة عفو الله ومغفرته للمذنبين من عباده، وحلمه تبارك وتعالى على عباده، وتيسير الشريعة عليهم، وتخفيف التكاليف عنهم، ونهيهم عن الغلوّ في الدين، ونهيهم عن التشديد في الدين على عباد الله.

(أ) وشواهد يُسر الإسلام وسماحته كثيرة في النصوص الإسلامية، فمن هذه النصوص ما يلي:

١ ــ يقول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ . . . ﴿١٨٥﴾﴾.

٢ ــ ويقول الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾.

فالله تبارك وتعالى ما يريد لنا فيما أنزل علينا من شرائع الْعُسْر، وإنما يريد لنا اليسر، وما يريد أن يجعل علينا حرجاً في الدين، وإنما يريد تطهيرنا من الأرجاس المادّية والمعنوية، ويريد تكميلنا بإتمام نعمته علينا.

٣ ــ ويقول الله تعالى في سورة (الحج ٢٢):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾.

ففي هذا النصّ يمتنّ الله علينا بأنه ما جعل علينا في الدين من حرج، وهذا من سماحة هذا الدين ويسره.

٤ ـ ويقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

فامتنّ الله علينا بأنه يريد أن يخفّف عنّا في تكاليف الشريعة مراعاةً لواقع حال ضعفنا.

(ب) وقد ظهر يسر الإسلام وسماحته في تطبيقات الأحكام الشرعية، وشواهد ذلك كثيرة، فمنها ما يلي:

١ ـ فعند التكليف بتقديم الهدي بالنسبة إلى الـمُحْصَر وبالنسبة إلى المتمتع بالعمرة إلى الحج؛ يقول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴿١٩٦﴾ ﴾.

٢ ـ وبالنسبة إلى قيام الليل يقول الله تعالى في سورة (المزمل ٧٣):

﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾.

أي: علم الله أن لن تطيقوه، فخفف عنكم فرغبكم بأن تصلّوا ما تيسر لكم من الصلاة، أو بأن تكتفوا بقراءة ما تيسر لكم من القرآن.

٣ ـ ووجّه الله الدائنين إلى التيسير على المدينين المعسرين، فقال عزّ وجلّ في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ ﴾.

فعلّمهم الله بذلك سماحة النفس، وحسن التغاضي عن المعسرين.

وروى البخاري ومسلم عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ رجلاً كان فيمن قبلكم أتاه الملك ليقبض روحه، فقيل له: هل عملت من خير؟. قال: ما أعلم. قيل له: انظر. قال: ما أعلم شيئاً غير أني كنت أبايع الناس في الدنيا وأجازيهم، فأنظر الموسر وأتجاوز عن المعسر، فأدخله الله الجنة».

وفي رواية لمسلم نحو هذا الحديث عن عقبة بن عامر، وأبـي مسعود الأنصاري، وفيها: «فقال الله أنا أحق بذا منك، تجاوزوا عن عبدي».

٤ ــ وروى البخاري عن أبـي هريرة قال: قـال رسول الله ﷺ: «إنّ الدين يسر، ولن يشادّ الدين أحد إلاّ غلبه، فسدّدوا، وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغُدوة والرّوحة وشيءٍ من الدلْجَة».

الغدوة: هي أول النهار. والروحة: هي آخر النهار. والدلْجَة: هي آخر الليل.

أي: استعينوا على القيام بطاعة الله بأوقات نشاطكم، وحضور همتكم، وذلـك في أول النهار، وفي آخـره، وفي آخر الليـل، ولا تكلّفوا نفـوسكم ما لا تطيقون من الأعمال.

٥ ــ وروى مسلم عن عبدالله بن مسعود أنّ النبـي ﷺ قال: «هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون».

والمتنطعون: هم المتعمقون المشدِّدون في غير موضع التشديد.

وقد أكد الرسول ﷺ هلاك المتنطعين بتكريره، خوفاً على أمته من أن يأتي مشدِّدون فيُشددوا عليهم دينهم، وفي هذا توجيه للسّير مع سماحة الإسلام ويُسره.

٦ ــ ومن سماحة الإسلام ويسره توجيهه إلى المداومة على عمل الخير القليل، دون الإفراط في العمل الكثير، ثم الانقطاع عنه.

روى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «أحبّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قل».

وروى البخاري ومسلم عن عائشة أيضاً قالت: قال رسول الله ﷺ: «خذوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يملّ حتّى تملّوا».

وروى البخاري ومسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ليصلّ أحدكم نشاطه، وإذا فتر فليقعد».

٧ ــ ومن سماحة الإسلام ويسره توجيهه للتيسير على الناس والرفق بهم، وتهديده من يشدّد عليهم ويشُق عليهم.

روى مسلم عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: «اللهم من وَلي من أمر أمتي شيئاً فشقّ عليهم فاشقُق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به».

٨ ــ ومن يسر الإسلام وسماحته محبته التخفيف على المسلمين، وكراهيته التثقيل عليهم في أمور الدين، واتخاذ أيّ تشديد منفّر، ولذلك اشتدّ رسول الله ﷺ في موعظته مغضباً، حينما بلغه أن بعض أئمة المساجد يطيل في صلاته فينفّر بعض القوم من حضور صلاة الجماعة.

روى البخاري ومسلم عن أبي مسعود عقبة بن عمرو البدري قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني لأتأخّر عن صلاة الصبح من أجل فلان ممّا يطيل بنا، فما رأيت النبي ﷺ غضب في موعظةٍ قطّ أشد ممّا غضب يومئذٍ فقال: «يا أيها الناس، إنّ منكم منفّرين، فأيكم أمّ الناس فليوجز، فإنّ من ورائه الكبير والصغير وذا الحاجة».

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صلّى أحدكم للناس فليخفّف، فإنّ فيهم السقيم والضعيف والكبير، وإذا صلّى أحدكم لنفسه فليطوّل ما شاء».

وروى البخاري ومسلم عن أنس قال: ما صلّيت وراء إمام قطّ أخف

صلاة ولا أتمّ صلاة من النبي ﷺ . وإن كان ليسمع بكاء الصبيّ فيخفّف مخافة أن تفتن أمُّه.

وكان صلوات الله عليه يوصي أصحابه بأن يخفّفوا في الصلاة إذا أمُّوا الناس وصايا خاصة، غير التي كان يعلنها في وصاياه العامة، فمن ذلك ما رواه مسلم عن عثمان بن أبي العاص قال: آخر ما عهد إليّ رسول الله ﷺ : «إذا أممت قوماً فأخفّ بهم الصلاة».

وفي رواية له: أن رسول الله ﷺ قال له: «أمّ قومك» قال: قلتُ: يا رسول الله إني أجد في نفسي شيئاً[1]. قال: «ادْنُه» فأجلسني بين يديه، ثمّ وضع كفّه في صدري بين ثديَيّ ثم قال: «تحوّل». فوضعها في ظهري بين كتفيّ ثم قال: «أمّ قومك، فمن أمّ قوماً فليخفّف، فإن فيهم الكبير، وإن فيهم المريض، وإن فيهم الضعيف، وإنّ فيهم ذا الحاجة، فإذا صلّى أحدكم وحده فليُصلّ كيف شاء».

٩ ــ ومن سماحة الإسلام ويسره ما كان من الرسول ﷺ في شؤون مناسك الحج، فقد كان في حجته بعيداً عن كلّ تشديد فيها، فما سئل عن شيء قدّم أو أخّر إلاّ قال للسائل: «افعل ولا حرج».

روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص، أن رسول الله ﷺ وقف في حجة الوداع بمنى للناس يسألونه، فجاءه رجلٌ فقال: لم أشعُر فحلقتُ قبل أن أذبح، فقال: «اذبح ولا حرج». فجاءه آخر فقال: لم أشعر فنحرت قبل أن أرمي، فقال: «ارم ولا حرج». فما سئل النبي ﷺ عن شيءٍ قُدّم ولا أخّر إلاّ قال: «افعل ولا حرج».

وروى البخاري عن عبدالله بن عباس قال: كان النبي ﷺ يُسْأَل يوم النحر بمنى فيقول: «لا حرج». فسأله رجلٌ فقال: رميت بعدما أمسيت، فقال: «لا حرج».

(١) يعني أنه يجد وسوسة في صدره.

١٠ ـــ ومن سماحة الإسلام ويسره حبُّه للرفق وحثه عليه وكراهيته للعنف وتحذيره منه.

روى مسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى رفيق يحبّ الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه».

وفي رواية لمسلم عن عائشة أن النبي ﷺ قال لها: «عليك بالرفق، وإياك والعنف والفحش، إنّ الرفق لا يكون في شيءٍ إلا زانه، ولا ينزع من شيءٍ إلا شانه».

وروى مسلم عن جرير أن النبي ﷺ قال: «من يحرم الرفق يحرم الخير».

وعن أبي صرمة مالك بن قيس المازني، أن النبي ﷺ قال: «من ضارّ ضارّ الله به، ومن شاقّ شاقّ الله عليه».

(رواه ابن ماجه والترمذي وقال: حديث غريب)

١١ ـــ ومن سماحة الإسلام ويسره نهيه عن أن يُشدّد المسلمون على أنفسهم وأن يغالوا في الدين.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «دعوني ما تركتكم، إنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم».

ولـمّـا حاول بعض أصحاب رسول الله ﷺ أن يشدّدوا على أنفسهم في العبادات، نهاهم الرسول ﷺ عن ذلك وقال لهم: «فمن رغب عن سنتي فليس مني» وذلك في حديث رواه البخاري ومسلم عن أنس.

وعن أنس بن مالك أنّ النبي ﷺ كان يقول: «لا تشدّدوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم، فإنّ قوماً شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم، فتلك

بقاياهم في الصوامع والديار: ﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حقّ رعايتها﴾.

(رواه أبو داود بسند ضعيف)

وقال الرسول ﷺ لأصحابه: «فإنما بعثتم ميسّرين ولم تبعثوا معسّرين»[٢].

* * *

(١) الحديد (٢٧).

(٢) في حديث الأعرابي الذي بال في المسجد.

الفصل التاسع

علوّ الهِمّة

— ١ —

من الأسس الأخلاقية العامة الفاضلة: علو الهمّة. وترجع إلى هذا الأساس الأخلاقي مجموعة من الظواهر الخلقية، كالجدّ في الأمور، وكالإباء والترفّع عن الصغائر والدنايا، وكالطموح إلى المعالي.

وبمقدار ارتفاع درجة علوّ الهمة ترتفع نسبة الظواهر الخلقية التي ترجع إليه، وترتفع قيمتها، وبمقدار انخفاض درجة هذا الخلق تأتي نِسَبٌ من الظواهر الخلقية غير الفاضلة المضادّة للظواهر الفاضلة لخلق علوّ الهمّة، فتأتي مثلاً ظواهر الكسل والتسفُّل والضّعة والاستخذاء والرضى بالدّنايا والصغائر، وتعلّق النفس بها.

والذي دعا إلى اعتبار علوّ الهمة أحد الأسس الأخلاقية، أنه قد يوجد وقد ينعدم مع مختلف نسب الذكاء، ومعلوم أنّ الذكاء هو الوسيلة لتقدير الأمور حقّ قدرها، ومع ذلك فإننا نجد اثنين على مستوى واحدٍ من الذكاء إلا أن أحدهما عالي الهمة صاحب جدٍّ وطموحٍ وترفُّعٍ عن الصغائر والدنايا، أمّا الآخر فوضيع الهمة كسولٌ ميّال إلى الهزل، رضيٌّ بالصغائر والدنايا. فلا بد أن نعزو هذا الفارق بينهما إلى أثر اختلاف العناصر الخلقية بينهما، ولنسمٍّ ذلك علوّ الهمة في الجانب الكريم منه، ونزول الهمّة أو الدناءة في الجانب غير الكريم منه، مهما كانت العناصر النفسية التي تكوّن منها هذا الخلق، في طرفه الفاضل الرفيع، أو في طرفه القبيح الوضيع.

ـ ٢ ـ
موقف الإسلام من خلق علو الهمة

والإسلام يحثّ على علوّ الهمة، ويحرص على تربية المسلمين على هذا الخلق الكريم، وعلى كلّ الظواهر الخلقية الرفيعة التي ترجع إليه.

فمن الملاحظ في الإسلام أن الإيمان والعمل قرينان، والعمل هو الظاهرة المادّية لعلو الهمة في النفس، والعمل هو التحرك الهادف الجادّ الذي تبذل فيه طاقة من الطاقات، لتحقيق غاية من الغايات.

ومن الملاحظ في الإسلام أنه يعمل على ترقية غايات المسلمين إلى الغايات الرفيعة المثلى، وهذا إعلاء لهمتهم النفسية، ورفع لها عن الصغائر والدنايا، وأخذٌ بيدها إلى معالي الأمور.

وقد كانت حياة الرسول ﷺ مليئة بألوان تربية المسلمين على خلق علوّ الهمة، الذي يستلزم الجدّ والإباء والترفّع عن الصغائر والدنايا، والطموح إلى المعالي.

ومن تربية الإسلام المسلمين على خلق علوّ الهمّة توجيههم لكسب أرزاقهم عن طريق الكدح والعمل والمشي في مناكب الأرض، وتوجيههم للترفّع عن مسألة الناس ما لم تدعُ الضرورة إليها، وتعريفهم بأن اليد العليا خير من اليد السفلى، وتوجيههم للتنافس والتسابق في فعل الخيرات، والتنافس والتسابق إلى معالي الأمور، ورفيع المنازل بالعمل الصالح والمكتسبات الإرادية الخيرة، وتعويدهم الجدّ في أعمالهم، والقيام بها بهمّةٍ ونشاط، وأمرهم بالجهاد ومجاهدة النفس، والجهاد أقصى مراتب العمل الجاد.

وفي مقابل ذلك ذمّ الإسلام التواني والكسل، وأمر بالبعد عن الهزل واللّهو واللّعب وكلّ أمرٍ لا فائدة ترجى منه، وأمر بالبعد عن سفاسف الأمور، والترفّع عن الدنايا والمحقرات، والزهد بالدنيا طلباً لما هو أجل وأعظم، وأبقى وأخلد، ألا وهو النعيم المقيم في جنّات النعيم الخالد.

وكان رسول الله ﷺ وسائر رسُل الله يتحلّون بخلق علوّ الهمة، وارتقى

الأمر ببعضهم حتى كان من أولي العزم، ولذلك أمر الله رسوله محمداً ﷺ أن يصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، حتى يكون من أولي العزم، فقال له في سورة (الأحقاف ٤٦):

﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ۝٣٥﴾.

ووضع الإسلام المسلمين في موضع قيادة الخلق إلى الحقّ، وحمّلهم تبعات هذه القيادة، وفي هذا غرس لخلق علوّ الهمّة في نفوسهم، ودفع شديد لهم حتى يتحلّوا بكلّ ظواهرها، ويسيروا في السبل التي لا تُجتازُ إلاّ بعلّو الهمّة، ويحاولوا اختراق الصعاب وتحمّل المشقات، والاستهانة بما يعترضهم من آلام، طموحاً إلى المجد الذي يصبون إليه بعلوّ همتهم.

ولـمّـا كان مجد الآخرة أعظم المجد كان ابتغاؤه أعظم الغايات، وكان هو الهمّ الأكبر للمؤمنين الصادقين ذوي الهمم العليّة، والنفوس الكبيرة الزكية. أما الدنيا فإنها في نظرهم ـ مهما بلغت أمجادها ـ قليلة القيمة في جنب الآخرة، لذلك فهم يحاولون أن يبتغوا فيما آتاهم الله الدار الآخرة، مع أنهم لا ينسون نصيبهم من الدنيا.

وكلّما علت همة الإنسان كانت مطالبه أسمى، وصغرت في عينه المطالب الدنيا، فلا يهتمّ لها كثيراً، ولا يتتبّعها إلا بمقدار الحاجات؛ ولذلك فهو لا يدنّس نفسه بالدناءات ومحقرات الأمور، ولا يبذل رأس مال حياته من جهد وطاقة وعمر فيما لا جدوى منه، فضلاً عن أن يبذل شيئاً من ذلك فيما فيه مضرّة له أو لغيره، من المضرّات بالدين أو المضرّات بالدّنيا.

فخلق علوّ الهمة مع حسن البصر بالأمور وتقديرها حق قدرها، يبعد صاحبه عن المعاصي والآثام، لأنها دنايا ومستقذرات. ويدفع صاحبه لمجاهدة نفسه عن شهواتها الجانحة، تزكية لها، وإعلاء من شأنها. ويدفع صاحبه أيضاً للتسابق في ميادين الطاعات والعبادات والأعمال الصالحات، للظفر بمراتب المجد الرفيع في الآخرة، لأنها إنما تنال بذلك. ويدفع صاحبه أيضاً للتسابق في ميادين المعرفة للظفر بالدّرجات الرفيعة التي فضّل الله بها العلماء. ويدفع صاحبه

أيضاً للتحلّي بأفضل مكارم الأخلاق، للظفر بمرتبة القرب من الله ورسوله، والظفر بالذكر الحميد في الدنيا دار الفناء، وفي الآخرة دار الجزاء. فهو وسيلة عظيمة من وسائل الارتقاء في سلّم كلّ مجد عظيم، ولكن بشرط أن يقترن بحسن التبصّر بالأمور، وتقديرها حق قدرها، وإلّا ضاعت طاقات الإنسان هدْراً، وتاهت اندفاعاته، وكانت عزائمه ألعوبة في أيدي شذوذاته الفكريّة.

* ولخلق علوّ الهمة ظواهر في السلوك تنجم عنه، وفيما يلي شرح لطائفة منها:

ـ ٣ ـ

الجد في العمل وعدم التواني والكسل

من ظواهر خلق علوّ الهمة في السلوك الجدّ والنشاط في العمل، وعدم التواني والكسل، وعدم التباطوء وعدم التهاون.

والجدّ والنشاط في أعمال الخير التي ترضي الله تعالى من سمات المؤمنين الصادقين الذين يراقبون الله ويرجـون اليوم الآخر، إنهم كلما دعاهم داعي العمل إلى فعل الخير قاموا إليه بحيوية ونشاطٍ جادّ. يدعوهم الداعي إلى الجهاد في سبيل الله فيطيرون إليه كالصقور رجالاً أو ركباناً. ويدعوهم الداعي إلى الصلاة من جوف الليل، فتتجافى جنوبهم عن المضاجع. ويناديهم المنادي إلى العلم والمعرفة فيقفزون لتناوله ولو كان في الثريّا. وتتحرك فيهم الدوافع إلى اكتساب الرزق، فيبكرون إليه، لينالوا من بركة دعوة الرسول ﷺ: «بورك لأمتي في بكورها».

والمؤمنون الصادقون يكرهون الكسل ويحتقرونه ويستعيذون بالله منه، ويدعون بدعوة الرسول ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعود بك من غلبة الدين وقهر الرجال». ومن كان صاحب همة عالية لم يقبل واحدة من هذه الخصال، لأنها ظواهر لا تتلاءم مطلقاً مع خلق علوّ الهمّة.

وذمّ الله التكاسل والتباطؤ وجعلهما من صفات المنافقين.

قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا (٧١) وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣) ﴾.

فقد دعا الله المؤمنين في هذا النص إلى أن ينفروا مجاهدين في سبيل الله ثُباتٍ ــ أي جماعات متفرقة ــ أو جميعاً ــ أي عصبة واحدة في نفير عامّ ــ وذلك حسب مقتضيات المصلحة.

وأنحى باللائمة على المبطئين، وهم من المنافقين الموجودين في صفوف المؤمنين، فهم فريق طلاب مغانم، ولكنّهم غير مستعدّين أن يبذلوا أي جهد في سبيل الله، فإذا دعا الداعي إلى الجهاد تباطؤوا ولم يخرجوا، فإذا نال المجاهدين مكروه فرحوا هم بالسلامة، وإذا ظفر المجاهدون وغنموا ندموا هم وتحسّروا على أنفسهم، وقال قائلهم: يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً، ويعتبر الغنيمة هي الفوز العظيم، لأنه منافق لا يؤمن باليوم الآخر، ولا يسعى للفوز فيه، ولو كان مؤمناً حقاً لتوقّد إيمانه حرارة فنفى عنه التباطؤ والتكاسل، وخرج إلى القتال في سبيل الله ورجا الشهادة والأجر عند الله.

وقال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢) مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (١٤٣) ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

فقد ذمّ الله المنافقين بأنهم لا يقومون إلى الصلاة إلّا وهم كسالى، فمن كان فيه هذا الوصف من المؤمنين كانت فيه صفة من صفات أهل النفاق.

وعلة المنافقين أنهم غير مؤمنين بفائدة الصلاة وجدواها، لذلك فهم إذا اضطرهم نفاقهم أن يقوموا إليها مسايرة للمؤمنين، وحتى لا ينكشف نفاقهم، قاموا إليها متباطئين كُسالى.

بخلاف المؤمنين الصادقين فإنهم يقومون إلى الصلاة بهمة ونشاط، ورغبة صادقة، ولذلك وصف الله المؤمنين الصادقين بأنهم يقومون إلى التهجد في الليل أو إلى صلاة الفجر تتجافى جنوبهم عن المضاجع، وهذا عنوان مصارعة همتهم لحاجة أجسادهم إلى الراحة والنوم، فقال تعالى في سورة (السجدة ٣٢):

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

همة الرسول ﷺ في عباداته:

وقد كان الرسول ﷺ صاحب همّةٍ عالية جدّاً في عباداته، كان يقوم من الليل حتى تتورّم قدماه.

روى النسائي بإسناد صحيح على شرط مسلم، عن حميد بن عبدالرحمن بن عوف قال: إنّ رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ قال: قلت وأنا في سفر مع رسول الله ﷺ : والله لأرقبنّ رسول الله ﷺ للصلاة حتى أرى فعله، فلـمّا صلّى العشاء وهي العتمة، اضطجع هَوِيّاً من الليل[1]، ثمّ استيقظ فنظر في الأفق فقال:

---

(١) هوياً من الليل: أي زماناً منه.

﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ ﴾. (آل عمران ٣).

قال: ثم أهوى رسول الله ﷺ إلى فراشه، فاستلّ منه سواكاً، ثمّ أفرغ في قدح من إداوة عنده ماءً فاستنّ[1]، ثمّ قام فصلّى، حتى قلت: قد صلّى قدر ما نام.

ثمّ اضطجع حتى قلت: قد نام قدر ما صلّى، ثمّ استيقظ ففعل كما فعل أوّل مرّة، وقال مثل ما قال.

ففعل رسول الله ﷺ ثلاث مرّاتٍ قبل الفجر.

كل هذا يفعله ﷺ من علوّ همته مع أنّ الله تعالى قد غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، وأعطاه أعظم الدرجات، ولكن الرسول ﷺ كان عبداً شكوراً لربّه، كما قال هو.

وروى البخاريّ ومسلم عن عبدالله بن مسعود قال: صليت مع النبي ﷺ ليلة فأطال القيام، حتى هممت بأمر سوء. قيل: وما هممت به؟ قال: هممت أن أجلس وأدعه.

وروى مسلم عن حذيفة بن اليمان قال: صليت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثمّ مضى فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى فقلتُ: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثمّ افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسّلاً إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مرّ بسؤال سأل، وإذا مرّ

---

(١) فاستن: أي فاستاك بالسواك.

بتعوذ تعوّذ. ثمّ ركع، فجعل يقول: «سبحان ربـي العظيم» فكان ركوعه نحواً من قيامه، ثم قال: «سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد» ثم قام قياماً طويلاً قريباً ممّا ركع، ثمّ سجد فقال: «سبحان ربـي الأعلى» فكان سجوده قريباً من قيامه.

وروى البخاري ومسلم عن عائشة، أن النبـي ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطّر قدماه، فقلت له: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً»!!

وكان من علوّ همته صلوات الله عليه، يحيـي اللّيل كلّه في بعض مواسم العبادة، روى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ إذ ادخل العشر أحيـى اللّيل، وأيقظ أهله، وجد، وشدّ المئزر».

والمراد من العشر العشر الأواخر من رمضان، تحرّياً لليلة القدر.

والمراد من شدّ المئزر: تشميره للعبادة وبعده عن معاشرة النساء.

التكاسل عن العبادات من وساوس الشيطان:

ولـمّـا كان الشيطان عدواً للإنسان، وكان يكره منه الإيمان وعبادة الله والأعمال الصالحة، كان من وسائله تثبيط الهمم عن العبادة، والوسوسة بما يميل بالنفس إلى الكسل.

ومن أعماله أنه يعقد على قافية رأس الإنسان إذا هو نام، ليمنعه من اليقظة والنهوض إلى عبادة الله في جوف الليل. وقافية الرأس قفا الرأس ومؤخّره. روى البخاري ومسلم عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب على كلّ عقدة: عليك ليل طويل فارقد. فإن استيقظ فذكر الله انحلّت عقدة. فإن توضأ انحلت عقدة. فإن صلى انحلت عقدة، فأصبح نشيطاً طيّب النفس، وإلّا أصبح خبيث النفس كسلان».

فهي عقد كسل مضروب عليها بوساوس شيطانية، ومتى تراكمت على

الإنسان صارت خَبَلاً، وقد عبّر الرسول ﷺ عن هذا الخبل المقعد عن النشاط والهمة إلى طاعة الله وعبادته بأنه أثر خبيث من آثار وساوس الشيطان.

فقد روى البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال: ذُكر عند النبي ﷺ رجل، فقيل له: ما زال نائماً حتى أصبح، ما قام إلى الصلاة قال: «ذلك رجل بال الشيطان في أذنه» أو قال: «في أذنيه».

فمن لطائف التوجيه الإسلامي ربط الكسل وظواهره بالشيطان، وتربية المسلمين على مدافعة كلّ ظواهر الكسل.

ــ ٤ ــ
الاندفاع إلى الجهاد في سبيل الله بشجاعة ونشاط

ومن ظواهر خلق علّو الهمة في السلوك الاندفاعُ إلى الجهاد في سبيل الله، وخوض المعارك القتالية بنشاط وشجاعة وإقدام، كأن ساحات القتال ساحات مغانم.

وكذلك كان المؤمنون الصادقون، الذين تعلّموا وتدربوا على يد الرسول ﷺ وعلى أيدي النخبة المتازين من أصحابه.

فالرسول صلوات الله عليه قد كان لهم الأسوة الحسنة، والقدوة الرائعة، في علوّ الهمة والشجاعة والإقدام، وقد ثبت أنه ﷺ كان إذا حمي الوطيس في الحرب كان أكثر الناس شجاعة، وأعظمهم إقداماً، وأعلاهم همّة، وقد قاد صلوات الله عليه بنفسه خلال عشر سنين سبعاً وعشرين غزاة، وكان يتمنّى أن يقود بنفسه كل البعوث التي بعثها والسّرايا التي سيّرها، ولكن أقعده عن ذلك أنه كان لا يجد ما يزود به جميع أصحابه للخروج معه في كلّ بعث، وكان أكثرهم لا تطيب نفسه أن يقعد ورسول الله قد خرج إلى الجهاد.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي

نفسي بيده، لولا أنّ رجالاً من المسلمين لا تطيب أنفسهم أن يتخلّفُوا عني، ولا أجد ما أحملهم عليه، ما تخلّفت عن سرّية تغزو في سبيل الله، والذي نفسي بيده لوددتُ أن أقتل في سبيل الله ثمّ أُحيى، ثمّ أقتل ثمّ أحيى، ثمّ أقتل ثمّ أحيى، ثمّ أقتل».

فأيّة همةٍ عليّةٍ أعلى من هذه الهمّة النبوية.

أمّا دعوةُ الرسول ﷺ القولية إلى علوّ الهمة في هذا المجال، فمن أمثلته ما يلي:

روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من خير معاش الناس لهم رجلُ ممسكٌ عنان فرسه في سبيل الله، يطير على متنه، كلّما سمع هَيْعَة أو فَزْعة طار عليه يبتغي القتل أو الموت مظانّه».

كلّما سمع هَيْعَة: أي صيحة يفزع منها.

أو فَزْعةً: أي نداءً من مستغيث.

فمن خير معاش الناس لهم معاش رجل ممسك بعنان فرسه مرابطٍ في سبيل الله، كلّما سمع صيحة تدعو إلى القتال في سبيل الله، أو نداء استغاثة من المسلمين لصدّ عدوّهم طار على متن فرسه، غير متباطىء ولا متكاسل، ولا خائفٍ، ولا متردد، وذلك من علوّ همته، لأن الإسلام قد علّمه ذلك، ولأنّ حرارة الإيمان تدفعه إليه.

وكان من أثر تربية الرسول ﷺ القوليه والعملية لأصحابه، أن ظهرت منهم بطولات عجيبة ونادرة، تدلّ على علوّ همتهم وسموّ غاياتهم، وتضحيتهم بأنفسهم وكلّ ما في الحياة الدنيا، ابتغاء مرضاة الله وثواب الآخرة.

(أ) فمن ذلك قصة أنس بن النضر عمّ أنس بن مالك رضي الله عنهما في غزوة أحد.

روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال: غاب عمي أنس بن النضر رضي الله عنه عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله، غبتُ عن أوّل قتالٍ

قاتلت المشركين، لئن اللَّهُ أشهدني قتال المشركين لَيُرِيَنّ الله ما أصنع[1]. فلـمّا كان يوم أحد انكشف المسلمون، فقال: اللهم أعتذر إليك مما صنع هؤلاء (يعني أصحابه)، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء (يعني المشركين). ثمّ تقدَّم، فاستقبله سعدُ بن معاذ فقال: يا سعدُ بنَ معاذ، الجنة وربِّ النضر، إني أجدُ ريحها من دون أحد.

فقال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع.

قال أنس: فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل ومثّل به المشركون، فما عرفه أحدٌ إلّا أخته ببنانه.

قال أنس: كنا نرى أو نظن أنّ هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه. فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً﴾[2].

فمنهم من قضى نحبه: النحبُ في اللّغة النذر، والمعنى: فمنهم من قضى نذره الذي نذره بأن يصدق الله في قتال أعداء الله، حتى بلغ آخره ونال الشهادة.

وأنس بن النّضْر كان قد نذر أن يقاتل بصدق حتى يقتل، وقد فعل، فقضى نحبه، أي النذر الذي نذره.

(ب) ومن ذلك أيضاً بطولة حمزة عمّ الرسول ﷺ، فقد صدق في القتال بهمّة عالية، وأبلى بلاءً حسناً، حتى رماه وحشيٌّ بحربته فقتله، وقد وصفه وحشيٌّ بقوله:

«رأيته (أي: يوم أحد) في عُرْض الناس مثل الجمل الأورق يَهُدّ الناس بسيفه هدّاً، ما يقوم له شيء».

---

(١) أي: ليظهرن الله للناس ما أصنع من جهاد وفداء.

(٢) الأحزاب: ٢٣.

الأورق: من الإبل، هو الذي في لونه بياض إلى سواد.

(ج) ومن ذلك بطولة أبـي دُجَانة سماك بن خرشة في أحد، فقد كان ذا بأسٍ شديدٍ وهمّة عالية، ومن علوّ همّته رضي الله عنه، ما حدث به عن نفسه، قال: رأيت إنساناً يَخمشُ الناس خمشاً شديداً، فصمدت له، فلـمّـا حملت عليه السيف وَلْوَل، فإذا هو امرأة. قال: فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأةً.

وهذه المرأة ــ كما قال الزبير بن العوّام ــ هي هند بنت عتبـة زوجة أبـي سيفان، إذ كانت يومئذٍ من أشدّ المحرّضات على قتال المسلمين. وقد أسلمت بعد فتح مكة، كما أسلم زوجها أبو سيفان صبيحة يوم الفتح.

وعفّة أبـي دجانة عن قتل هند بنت عتبة إكراماً لسيف رسول الله ﷺ عن أن يقتل به امرأة من علوّ همته، فعلو الهمة يكون بشدة البأس حيناً، ويكون بالترفّع والكف والتعفف حيناً آخر، وربما يكون الترفّع مع القدرة أدلّ على علوّ الهمة من دلالة شدّة البأس.

وكان لأبـي دُجانة مشهدٌ آخر في أحد يدلّ على علوّ همته، إذ ترَّس بنفسه دون رسول الله ﷺ، يقع النبل في ظهره وهو منحنٍ عليه، حتّى كثرت فيه النبل.

(د) ومن ذلك أيضاً ما كان من أُمّ عُمارة نسيبة بنت كعبٍ المازنية في غزوة أحد، رضي الله عنها.

تقول أمّ سعدٍ بنت سعد بن الربيع: دخلت على أمّ عُمارة فقلت لها: يا خالة، أخبريني خبرك، فقالت: خرجت أول النهار، وأنا أنظر ما يصنع الناس، ومعي سقاءٌ فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه، والدولة والريح للمسلمين، فلـمّـا انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ، فقمت أباشر القتال، وأذبّ عنه بالسيف، وأرمي عن القوس، حتى خلصت الجراح إليّ.

قالت أم سعد: فرأيت على عاتقها جُرحاً أجوف له غور، فقلت: من أصابك بهـذا؟ قال: ابنُ قمئة أقمأه الله (أي: أذلّـه). لـمَّـا ولى المسلمون عن رسول الله ﷺ أقبل يقول: دُلّوني على محمد، فلا نجوتُ إن نجا، فاعترضت له أنا ومصعب بـن عمير وأناس ممن ثبت مع رسول الله ﷺ، فضربني هـذه الضربة، ولكن فلقد ضربته على ذلك ضربات، ولكنّ عدوّ الله كان عليه درعان.

ـ ٥ ـ
التطلّع إلى الكمال والترفع عن النقص

من ظواهر خلق علوّ الهمة التطلّع الدائم إلى الكمال، والسعي إليه قدر المستطاع، والنفور من النقص وكراهيته، والترفع عنه والخوف من الظهور بمظاهره.

وفي الحديث: «إنّ الله يحبّ معالي الأمور ويبغض سفسافها». أي: يبغض الرديء الحقير من كل شيءٍ وكل عمل.

وفي حديث آخر: «إنّ الله رضي لكم مكـارم الأخلاق وكـره لكم سفسافها».

والسفساف: هو الأمر الحقير والرديء من كل شيءٍ، وهو ضدّ المعالي والمكارم. وأصل السفساف ما يطير من غبار الدقيق إذا نخل، والتراب إذا أثير[١].

وقد دفع القرآن إلى مراتب الكمالات، إذ ميز بين الطيب والخبيث، وبين الذين يعلمون والذين لا يعلمون، وبين المجاهدين والقاعدين، وبين السابقين والمتخلفين، وفضّل المرتقين في مراتب الكمال على الناقصين، ونصوص القرآن في هذا كثيرة منها ما يلي:

---

(١) كذا في لسان العرب.

١ ــ قول الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

٢ ــ وقول الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾.

أي: أفمن هو قانت... (إلى آخر الاستفهام) كمن ليس كـذلك. وجواب الاستفهام بداهة: لا.

٣ ــ وقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾.

٤ ــ وخاطب الله المؤمنين بقوله في سورة (الحديد ٥٧):

﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

أي: لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل هو ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل.

ولـمّـا كان الارتقاء في مراتب الكمال لا يأتي بمجرّد الأماني، وإنّما يأتي بالجهاد والاجتهاد والعمل الدائب والصبر والمصابرة، قال الله تعالى للذين آمنوا في سورة (النساء ٤):

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾.

أي: ليس دخول الجنة والظفر بمراتبها العلية، ولا النجاة من النار ومن دركاتها الدنيّة، بالأماني، ولكن بالعمل، بفعل الصالحات وترك السيئات، وهذا إنما يكون ببذل الطاقة ارتقاءً في مراتب الكمال وترفعاً عن دركات النقصان، وبالطاعة على قدر الاستطاعة.

وهذا ما وجّه له الرسول ﷺ، إذ حرّض على ابتغاء الكمال والتطلع إليه، والسعي لارتقاء درجاته، ببذل المستطاع من القوة، مع الاستعانة بالله القوي العزيز.

فمن ذلك ما روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القويّ خيرٌ وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍّ خير. احرص على ما ينفعك. واستعن بالله ولا تعجز. وإن أصابك شيءٌ فلا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قلْ: قدّر الله وما شاء الله فعل، فإنّ (لو) تفتح عمل الشيطان».

ففي قول الرسول ﷺ: «احرص على ما ينفعك» أمر للمؤمن بأن يحرص على ما فيه نفع له، والحرص على الشيء أبلغ من ابتغائه والتطلّع إليه. وما ينفع الإنسان نفعاً صحيحاً مقترن بارتقائه في مراتب الكمالات، وابتعاده عن دركات النقصان، وذلك لأن دركات النقص في الحياة ليس فيها نفع صحيح، وإن كانت محفوفة بالشهوات، أما مراتب الكمال ففيها النفع الصحيح، وإن كانت محفوفة بالمكاره. وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «حجبت النار بالشهوات وحجبت الجنة بالمكاره» ومعلوم أنّ في دخول النار أشدّ المضرّة، وأن فيها تتنازل الدركات، وهي تناسب هبوط الإنسان في دركات السلوك في الحياة الدنيا. وأن في دخول الجنة أعظم المنفعة الحقيقية،

وأن فيها تتعالى الدرجات، وهي تناسب ارتقاء الإنسان في مراتب الكمال عقيدة وخلقاً وسلوكاً في الحياة الدنيا.

وفي قول الرسول ﷺ: «واستعن بالله ولا تعجز» عقب قوله «احرص على ما ينفعك» توجيه لبذل المستطاع من القوة لتحقيق ما ينفع، أي لارتقاء مراتب الكمال، وتوجيه لطرد الشعور بالعجز الذي قد يصيب نفس الإنسان، بتوجيهها للاستعانة بالله القوي العزيز الذي لا يعجزه شيء، فهو يمدّ من استعان به بما يشاء من إمداد. ومع شعور المؤمن بارتباطه بالله تتهدّم في نفسه الصعوبات، وينطرح عنه كابوس العجز. وهذه الاستعانة تشحن النفس بقوّة معنوية عظيمة، إذ تجعل المؤمن حينما يعمل يلاحظ أن الله معه يمده بالعون، فيضاعف من جهده، وقلبه مطمئن لا قلق فيه ولا اضطراب، وهذه أهم عناصر إنتاج العمل إنتاجاً وافراً. أما ترك العمل والتباطؤ عنه أو التباطؤ فيه، مع زعم التوكل على الله، والتعلق بالأماني، فهو فهم سيءٌ جدّاً لمعنى التوكّل، وما كان أصحاب رسول الله ﷺ يفهمونه كذلك، وما كان علماء المسلمين من قبل يفهمونه على هذا الوجه، وإنما هو فهم دخيل قد يتعلق به جهلة من المنتسبين إلى الإسلام، إنه ليس توكّلاً على الله ولا استعانة به، وإنما هو انهزام من ميادين العمل، وعجز وكسل، وتعلل بأوهن العلل.

ومن أجل ذلك صدر الرسول ﷺ كلامه في هذا الحديث بقوله: «المؤمن القوي خيرٌ وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف».

وفي الصحيح من كلام الرسول ﷺ قوله: «ومن بطّأ به عمله لم يُسرع به نسبه».

والقوي هو صاحب العزم عالي الهمة، الذي يواجه صعوبات الحياة ومراقي الكمالات، بقوة وعزيمة وهمّة عالية، فيحرص على ما ينفعه، ويبذل كل ما يستطيع من قوة لديه مستعيناً بالله، غير متخاذل ولا شاعر بالعجز أو خائف منه، كيف يعجز وعون الله يصاحبه إذا كان صادقاً مع الله؟! ولكن يجب عليه أن يقدّر الأمور قدرها، ويتخذ لها أسبابها المكافئة لها.

وفي مقابل شحن النفس بحوافز العمل تجاه الحاضر والمستقبل، إعلاء لهمة المؤمن، وجّه الرسول صلوات الله عليه المؤمن إلى صرف نفسه عن اجترار أحزان الماضي وآلامه، والتحسّر على ما فاته فيه، فقال:

«وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قل: قدّر الله وما شاء الله فعل، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان».

إنّ الاشتغال بالتحسّر والحزن على ما فات يضيّع على الانسان حاضره، ويضيع عليه كل زمن آتٍ يشغله باجترار الحزن والتحسّر، ثم يأتي زمن آخر يتحسّر فيه على الزمن الذي ضيّعه في الحزن والتحسّر، وهكذا تتسلسل الأغنية الشيطانية التي يقول فيها الإنسان: لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا، وتأتي المنيّة وقد ضاع العمر في الحزن والتحسّر على فوات الأماني.

إنّ تحقيق الأماني لا يكون بالندم على ما فات، ولا باجترار الأحزان على الماضي، وإنما يكون بالعمل واستغلال كلّ وقتٍ يمرّ به الإنسان، أملاً بتحقيق الأماني والآمال في المستقبل، وهذا من علوّ الهمّة.

أمّا إضاعة الحاضر حزناً على الماضي فهو من نزول الهمة، وهو انسياق وراء أوهام ووساوس شيطانية، ما فيها للإنسان إلا الضرر، وضياع العمر سُدى.

وكلمة «لو» التي يتحسّر فيها الإنسان على ما فاته من عمل في الماضي تفتح عمل الشيطان، وعمل الشيطان هو تبديد عمر الإنسان فيما لا خير فيه.

وأبعد الأشياء من الإنسان ما فاته في ماضي زمانه، فكل ماضٍ هو في حكم العقل بعيد، لأنه غير ممكن الاسترجاع.

وفي النهي عن العجز والحث على العمل، روى أبو داود عن عوف بن مالك، أن النبي ﷺ قضى بين رجلين، فقال المقضيّ عليه لـمّـا أدبر: حسبي الله ونعم الوكيل، فقال النبي ﷺ:

«إن الله تعالى يلوم على العجز، ولكن عليك بالكَيْس، فإذا غلبك أمرٌ فقل: حسبي الله ونعم الوكيل».

الكَيْسُ: الخفّةُ والتوقّد والنشاط في العمل، والعقل في التصرف، والرفق في الأمور.

— ٦ —

الحياء

ومن ظواهر خلق علوّ الهمة الحياء، فالحياء ظاهرة تعبّر عن الخوف من الظهور بمظاهر النقص، وتعبّر عن ترفّع النفس عنه، وعدم الرضى به وإن مستها بعض عوارضه، وتعبر عن علوّ همّة النفس إلى الكمالات، ونفورها من النقائص وكراهيتها لها، وحذرها من أن تظهر أمام الناس ببعض مظاهرها.

فالإنسان لا يستحيي من الكمال إذا هو ظهر به واتصف بصفاته، وإنما يستحيي مما فيه نقص، أو مما يخشى أن يكون فيه نقص. لذلك فالحياء من علّو النفس، وحبّها للكمال وحرصها على أن تتصف بصفاته، وتظهر أمام الناس بالمظاهر التي تدل عليه.

وقد نلاحظ بعض الناس من الذين يغلب عليهم الحياء يستحيون من أمور لا نقص فيها، وليس من شأنها أن يُستحيى منها، ولكن ذلك يرجع إلى سوء فهمهم لبعض الأمور، أو إلى عدم تقديرهم الأمور حقّ قدرها. فالانفعال الخلقي الذي يكون التعبير عنه بظاهرة الحياء انفعالٌ صادق، والمحرّك له في النفس علوّ الهمة، الذي ينشأ عنه في بعض جوانبه النفور من النقص، وكراهية الظهور بشيءٍ من مظاهره، أو الخوف من الاتصاف أمام الناس ببعض صفاته. ولكنّ الذي قد يحدث أن الفكر ربّما يقدّم للنفس مفاهيم خاطئة، مستندة إلى أوهامٍ أو تقاليد فاسدة، والفكر بالنسبة إلى النفس هو مرجعها ومحلّ ثقتها، فتنفعل النفس وتستجيب استجابة صادقة لهذه المفاهيم الخاطئة، فالمسؤول عن ظاهرة الحياء في غير محله مفاهيم الفكر الخاطئة. ولكن حين يجري تصحيح هذه

المفاهيم لا يستحيي ذو الحياء مما لا يُستحيى منه، بل يواجه الناس به بكل جرأة وشجاعة.

ونظير ذلك انفعال الخوف، فمن الناس من يخاف من أمور وهمية تجسّمت في تخيّلاته، والمسؤول عن هذا الخوف الذي هو في غير محله أوهام الفكر. أمّا الانفعال النفسي فهو صادق تجاه ما قدّمه الفكر من أمور زعمها للنفس حقائق وهي ليست بحقائق، وإنما هي أوهام كاذبة، وكما أن الخوف يبقى على طول الخطّ انفعالاً ممّا يُخشى منه الضرر أو الأذى، فإنّ الحياء يبقى على طول الخطّ انفعالاً يثيره ما في النفس من همّةٍ عالية، تحبّ الكمال، وتحرص على أن تتصف بصفاته، أو تظهر بالمظاهر التي تدلّ عليه.

من أجل هذا قرّر الرسول ﷺ أنّ الحياء من الإيمان، وأنه خيرٌ كلُّه. فقد روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمر، أن رسول الله ﷺ مرّ على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال رسول الله ﷺ: «دعه فإنّ الحياء من الإيمان».

وروى البخاري ومسلم أيضاً عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «الحياء لا يأتي إلا بخير» وفي رواية: «الحياء خيرٌ كلُّه».

ومن المشاهد المجرب أنّ خلق الحياء يمنع صاحبه عن ارتكاب النقائص والقبائح والمنكرات، أما حينما ينعدم خلق الحياء، فإنه يهون على الإنسان أن يفعل من النقائص والقبائح والمنكرات ما يشاء. وإعلاناً عن هذه الحقيقة جاء في كلام الرسول ﷺ:

«إنّ مما أدرك الناس من كلام النبّوة الأولى: إذا لم تستحي فاصنع ما شئت».

(رواه البخاري عن عبدالله بن مسعود)

ففقد خلق الحياء يجعل الإنسان وقحاً، وماجناً يجاهر بقبائح فعاله دون أن يبالي أحداً، ودون أن يكترث بما يقوله الناس فيه، وبما يعيبونه به، ومن الوقاحة والمجانة أن يتحدث الإنسان بما فعل من القبائح التي سترها الله عليه.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ أمتي معافى إلا المجاهرون، وإن من المجانة أن يعمل الرجل عملاً بالليل ثم يصبح وقد ستره الله. فيقول: يا فلان، عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربّه، ويصبح يكشف ستر الله عنه».

أما الحياء فيحجز المرء عن الفواحش، ويجعله يتستر بها إذا هو كبا فسقط في شيءٍ من أوحالها، ويجعله بعيداً عن فحش القول والبذاءة.

والحياء يدفع المرء إلى التحلي بكل جميل محبوب، والتخلي عن كلّ قبيح مكروه. والجمال من الكمال، والقبح من النقصان، وجمال الخصال والأفعال أسمى من جمال الرسوم والأشكال.

لكل ذلك حثّ الإسلام على التحلي بخلق الحياء، والبعد عن كلّ وقاحة ومجانة وفحش وبذاء، وفيما يلي طائفة من أقوال الرسول ﷺ في هذا:

(أ) روى الإمام أحمد والترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاءُ من الجفاء، والجفاء في النار».

فالجفاء يهوّن على الإنسان أن يكون فاحشاً بذيئاً، وهذا لا يكون إلّا من وقح، والله يبغض الفاحش البذيء.

(ب) وعن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «إنّ أثقل شيء يوضع في ميزان المؤمن يوم القيامة خلق حسن، وإن الله يبغض الفاحش البذيء».

(رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح)

(ج) وروى البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «إن الحياء والإيمان قرناء جميعاً، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر».

وفي رواية عن ابن عباس: «فإذا سُلب أحدهما تبعه الآخر».

(د) وعن النبي ﷺ أنه قال: «إنّ لكل دين خُلقاً، وخلق الإسلام الحياء».

رواه الإمام مالك مرسلاً عن زيد بن طلحة، ورواه ابن ماجه والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس وابن عباس.

(هـ) والحياء من صفات الله عزّ وجل، فقد روى الترمذي وأبو داود والبيهقي في الدعوات الكبير، عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ : «إن ربّكم حَيِيٌّ كريم، يستحيي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يُردّهما صفراً».

وقد نتساءل عن وجه التلازم بين الإيمان والحياء، حتى يكون رفع أحدهما مستلزماً لرفع الآخر كما جاء في الحديث: «إن الحياء والإيمان قرناء جميعاً فإذا رفع أحدهما رفع الآخر» وفي الإجابة على هذا التساؤل نضع أمامنا أولاً ما جاء في كلام الرسول أيضاً من أن الحياء من الإيمان. ثم نقول: متى سلّمنا بأنّ الحياء من الإيمان، أي: من آثاره في السلوك النفسي، وفي ردود أفعالها، ثم عرفنا أن الإيمان مع لوازمه التي لا ينفك عنها يمثل وحدة كلية لا تقبل التجزئة، كان من الطبيعي أن نفهم أنّه متى رُفع الحياء رُفع الإيمان، لأن الحياء جزء ملازم للإيمان الصحيح الصادق وهو لا ينفك عنه، فعدم وجود الحياء دليل على عدم وجود الإيمان.

ولـمّـا كان الباعث على الحياء من المعاصي وسيّىء الأفعال هو الإيمان الذي يرافقه الخوف من الله وخشية جلاله، كان من الطبيعي أن لا يوجد الحياء متى رفع الإيمان، وكان من الطبيعي أن تحلّ محلّه القحة والجرأة على فعل كلّ قبيح فيه معصية لله تبارك وتعالى، ولا يبقى بعد ذلك إلا الحياء من الناس في أمر اصطلحوا على أن يعتبروه عيباً، وهذا من شأنه أن ينهار شيئاً فشيئاً بتغيير العادات، وإطلاق الحرّيات، فما كان يُسْتَحيى منه يمسي بتغيير العادة أمراً يفتخر به، في مجتمع انهارت فيه المفاهيم الدينية والمبادىء الأخلاقية.

بهذا يظهر لنا سر التلازم بين الحياء والإيمان وفق المفهوم الأخلاقي في الإسلام.

ولقائل أن يقول: إن بعض المسلمين قد توجد منهم مجانة ووقاحة في بعض الأحيان، كما نلاحظ أن الحياء من فعل النقائص والقبائح قد يوجد عند غير المؤمنين.

ولنا أن نجيب بأن المسلم حينما يفعل النقائص والقبائح بوقاحة ومجانة،

فإن الإيمان يرتفع عنه ما دام في حالته تلك، ومثله بالنسبة إلى الإيمان كمثل المغمى عليه إذ يفقد وعيه، فالمغمى عليه يرجع إليه وعيه متى صحا، وهذا يرجع إليه إيمانه متى عاد إلى رشده وأقلع عن مجانته، فارتفاع الإيمان مع ارتفاع الحياء عنده كان حركة مؤقتة. ولهذا نظير في كلام الرّسُول ﷺ في تفسير وقوع الكبائر من المؤمن. فقد روى البخاري ومسلم عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ :

«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهب نُهبةً يرفعٍ الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن، ولا يغلُّ أحدكم حين يغلّ وهو مؤمن، فإيّاكم إيّاكم».

وفي رواية عن ابن عباس: «ولا يَقتل حين يقتل وهو مؤمن».

قال عكرمة: قلت لابن عباس: كيف ينزع الإيمان منه؟ قال: هكذا، وشبّك بين أصابعه ثم أخرجها، فإذا تاب عاد إليه هكذا، وشبّك بين أصابعه.

قال البخاري: لا يكون هذا مؤمناً تامّاً، ولا يكون له نور الإيمان.

أي: إنّ المؤمن كامل الإيمان لا يسمح لنفسه بأن تغفل غفلة ترفع عنه سلطان الإيمان.

وقد أبان الرسول ﷺ ارتفاع الإيمان بصورة أوضح، إذ مثّل ارتفاعه بأنه يكون فوق رأسه كالظلّة، فإذا انتهى من معصيته رجع إليه الإيمان. نجد هذا فيما رواه الترمذي وأبو داود عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «إذا زنى العبد خرج منه الإيمان فكان فوق رأسه كالظلّة، فإذا خرج من ذلك العمل رجع إليه الإيمان».

وهذا البيان النبوي يعطي تفسيراً أدق لارتفاع الإيمان.

وما جاء في هذا البيان أمرٌ مشاهد في أنفسنا، فالمعصية الكبرى لا تصدر من أحد المؤمنين إلّا إذا كان في غفلة عن الله، وعن بواعث الإيمان في القلوب، وتشبيه هذه الغفلة بالصورة البيانية التي رسمها الرسول ﷺ تشبيه رائع.

وعلى هذا فلا نحكم على من كان مرفوع الإيمان رفعاً مؤقتاً بالكفر، إنما هو ليس في كمال الإيمان، بل هو في ظلال الإيمان، وهكذا يكون ارتفاع الإيمان عند ارتفاع الحياء.

أمّا وجود ظاهرة الحياء عند غير المؤمنين، فهي مرتبطة بما يقول الناس عنه هذا عيب أو نقص. إنّ المؤمن إذا خلا بينه وبين نفسه اسْتَحيى من ربّه أن يفعل النقائص والقبائح، أما غير المؤمن فإنه لا يجد شيئاً من الشعور بحياءٍ من هذا القبيل، جُلُّ ما في الأمر أنه قد يستحيي ممّا يقول الناس عنه هذا عيب أو نقصٌ، فهو يحرص على أن يكون كاملاً في أعين الناس، وليس له عناية بالكمال الحقيقي الذي ترتبط مفاهيمه بالإيمان. هذه واحدة، وأخرى أنه على مقدار بقايا مواريث الإيمان في أمةٍ من الأمم، تبقى فيها بقايا من الحياء، أمّا الأمم الملحدة الكافرة بكلّ القيم الإيمانية فإنه لا يوجد لديها أيّ أثرٍ للحياء، إلّا ما يرتبط بمصالحهم الخاصة، لذلك نجدهم يفعلون كلّ الجرائم والقبائح والمنكرات بوقاحة عجيبة لا تعرفها الإنسانية في تاريخها الطويل.

وإمعاناً في الوقاحة يسمّون جرائمهم الإنسانية المنكرة تطوراً في تقنية القمع، أو التكنيك الحربي، ويُسمّون قبائحهم وخبائثهم وفواحشهم تقدماً ومدنية، ويحاولون أن يدفعوا البشرية إلى حمأة كلّ رذيلة مهلكة للبشرية، بدعوى الخوف من الكبت، ويزينون ذلك للشباب الحائر الثائر، حتى يقذفوا به إلى المهالك، ويفعلون فعل من يداوي الصداع العارض بقطع الرقاب، ويقولون لهم: إنّ الحياء والخجل ضعف في النفس، وجبنٌ عن مواجهة الحقائق الواقعية، وما على الشاب التقدمي إلّا أن يكون جريئاً في تلبية دوافعه النفسية مهما كان شأنها، غير مبال ديناً ولا تقاليد ولا عادات اجتماعية، وعندئذٍ يكون شجاعاً حقاً، وفي الصف التقدمي الأول. هذا ما يوسوسون به، إنه تقدم، ولكن إلى ماذا؟ إنّه تقدّم إلى كل تهلكة، تقدّم إلى تقويض صرح الحضارة الإنسانية، تقدّم إلى الجحيم، وإلى كل عذاب أليم.

هذه هي تقدّمية الملحدين الوقحة، لقد فقدوا كل شيءٍ من عناصر

الإيمان ففقدوا بذلك كلّ دافع من دوافع الحياء، فانطلقوا في كل رجس من أرجاس الأخلاق والأفعال، وبهذا ندرك سر قول الرسول ﷺ: «إنّ الحياء والإيمان قرناء جميعاً، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر».

حياء موسى عليه السلام:

جاء في وصف موسى عليه السلام أنّه كان حييّاً ستّيراً، حتى كان يستر بدنه، ويستحيي أن يظهر مما تحت الثياب شيئاً حتى مما ليس بعورة. وبسبب تستره الزائد آذاه بعض بني إسرائيل في أقوالهم، فقالوا: ما يبالغ في ستر نفسه إلا من عيب في جسمه، أو من أدرة[1] هو مصاب بها.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى كان رجلاً حيياً ستّيراً، لا يُرى شيءٌ من جلده استحياء، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما تسترّ هذا التستّر إلاّ من عيبٍ أو أدْرةٍ، وإنّ الله أراد أن يبرئه، فخلا يوماً وحده ليغتسل، فوضع ثوبه على حجر، ففرّ الحجر بثوبه، فجمح موسى في إثره يقول: ثوبي يا حجر، ثوبي يا حجر، حتى انتهى إلى مَلأٍ من بني إسرائيل، فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله، وقالوا: والله ما بموسى من بأس، وأخذ ثوبه وطفق بالحجر ضرباً، فوالله إنّ بالحجر لَنَدْباً من أثرِ ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً».

وحياء موسى الزائد كان من همته العلية التي تنشد الكمال، وقد رأى في ذوقه الرفيع أنّ ستر بدنه أكثر كمالاً من كشفه، فكان يستحيي من كشفه للناس.

حياء محمد ﷺ:

وقد كان الرسول ﷺ شديد الحياء، أشدّ حياءً من العذراء في خدرها، روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري قال: كان النبي ﷺ أشدّ حياء من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه.

ومن شدّة حيائه كان لا يرى من زوجاته عوراتهن الكبرى، ولا يكشف

---

(١) الأدرة: هي انتفاخ في الخُصى بسبب فتق.

أمامهنّ عورته، وفي هذا قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: ما رأيت منه صلوات الله عليه ولا رأى مني.

أي: مكان العورة.

ومن حيائه أنه لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولا سخّاباً في الأسواق، لأن هذه الأمور تنافي الكمال، وهو صلوات الله عليه ذو همة عالية تتطلّع إلى كل كمال.

روى الترمذي عن عائشة قالت: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ولا سخّاباً[1] في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح.

وروى البيهقي في دلائل النبوة، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أنّ يهوديّاً يقال له فلانُ حبر، كان له على رسول الله ﷺ دنانير، فتقاضى النبي ﷺ فقال له: «يا يهوديّ ما عندي ما أعطيك». قال: فإني لا أفارقك يا محمد حتى تعطيني، فقال رسول الله ﷺ: «إذاً أجلس معك». فجلس معه، فصلى رسول الله ﷺ الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة والغداة، وكان أصحاب رسول الله ﷺ يتهددونه ويتوعدونه ففطن رسول الله ﷺ ما الذي يصنعون به، فقالوا: يا رسول الله، يهوديٌّ يحبسك، فقال رسول الله ﷺ: «منعني ربّي أن أظلم معاهداً وغيره» فلما ترجّل النهار[2] قال اليهودي: أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أنّك رسول الله، وشطر مالي في سبيل الله، أما والله ما فعلت بك الذي فعلت بك، إلّا لأنظر إلى نعتك في التوراة، محمد بن عبدالله، مولده بمكة، ومهاجره بطيبة، وملكه بالشام، ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا سخّابٍ في الأسواق، ولا متزيٍّ بالفحش ولا قول الخنا، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وهذا مالي فاحكم فيه بما أراك الله، وكان اليهودي كثير المال.

---

(١) سخاباً: صيّاحاً.

(٢) ترجّل النهار: أي ارتفع.

ستر العورات مما يدعو إليه الحياء:

ولـمّـا كان أدب ستر العورة مظهراً من مظاهر الكمال، ويدعو إليه خلق الحياء الذي هو أثر من آثار علو الهمة، فقد أمر الإسلام به، ودعا إليه.

روى أبو داود والنسائي بسندٍ حسن عن يعلى قال: إن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يغتسل بالْبَراز[1]، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إنّ الله حييٌّ ستّير يحبّ الحياء والتستر، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر».

وفي رواية عند النسائي أنّ الرسول ﷺ قال: إن الله ستّير، فإذا أراد أحدكم أن يغتسل فليتوار بشيء».

وكون الله حيّياً ستّيراً: قد يكون المراد منه أنه يستر عيوب عباده، ويستر قبائحهم، ويحبّ منهم أن يستروا عيوبهم وعوراتهم، ومن مظاهر هذه الصفة ما نشاهده من الأدب الرفيع في الكتاب المجيد، إذ لا يذكر الله فيه ألفاظ الفحش، وإن دعت الحاجة إلى ذلك لبيان حكم من أحكام الدين، ويكتفي في ذلك بالكنايات وإشارات الألفاظ البعيدة، كالملامسة، والمباشرة، والغائط ونحو ذلك.

ـ ٧ ـ
السعي لكسب الرزق

ومن ظواهر خلق علّو الهمة سعي الإنسان لكسب رزقه بعمله، وترفعه عن أن يكون عالة على غيره، وترفعه عن المسألة وقبول الصدقات ما لم تدع الضرورة القصوى إلى ذلك.

أولاً ـ الحث على العمل للكسب:

لقد أمر الإسلام بالمشي في مناكب الأرض لاكتساب الرزق، وذمّ المسألة ونهى عنها إلاّ في حدود الضرورة، تكريماً للمسلم عن المهانة والمذلّة والضعة،

(١) بالبراز: أي في الفضاء من غير تستّر.

وإعلاء لهمته، وحفاظاً على كرامة نفسه، ونجد كثيراً من النصوص الإسلامية والتطبيقات التربوية النبوية المشتملة على ذلك، ومنها ما يلي:

١ ــ يقول الله تعالى في سورة (الملك ٦٧):

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾.

ففي هذه الآية يمتن الله علينا بأنّه جعل الأرض لنا ذلولاً، أي: مذللة مطوّعة لنا، نحرثها ونزرعها ونستخرج كنوزها، وننتفع من طاقاتها وخصائص عناصرها، ونستعمرها كما نشاء. وبعد هذا الامتنان أمرنا بالمشي في مناكب الأرض. أي: في جوانبها التي تستدعي منّا بذل الجهد والكدح والكدّ.

ومناكب الأرض: مرتفعاتها وطرقها وجوانبها، ولـمّا كان المنكب من الإنسان رأس كتفه، كان استعمال المناكب هنا دليلاً على أن العمل للانتفاع من خيرات الأرض يحتاج من العاملين كدّاً وكدحاً، ولا يأتي هذا الانتفاع بأيسر عمل.

وفي الأمر بالمشي في مناكب الأرض للأكل من رزق الله أمرٌ بالعمل للكسب. ولـمّا كان لكسب الرزق بالعمل وجهان: وجهٌ حلال ووجه حرام؛ أشارت الآية إلى وجوب التقيّد في كسب الرزق بما أحلّ الله، وذلك عن طريق التذكير بيوم الحساب، إذ ختم الله الآية بقوله: ﴿وإليه النشور﴾.

٢ ــ ومن جمال توزيع الجهد في تنظيم العمل في الإسلام، أنّ الله تبارك وتعالى جعل للعبادة أوقاتاً، أوجب السعي فيها لأداء العبادة الواجبة، فإذا أتمّ المسلم عبادته فإن الله يناديه ويأمره بأن يمشي في جوانب الأرض ويبتغي من فضل الله مطالب حياته، فقال تعالى في سورة (الجمعة ٦٢):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾.

فهذا النصّ القرآني يأمرنا بأن نسعى إلى شهود الصلاة من يوم الجمعة وذكر الله فيها، وترك أعمالنا الدنيوية في هذه الساعة، وأهمّ ما يجذبنا إلى هذه الأعمال الدنيوية البيع الذي فيه ربح من غير جهدٍ كبير، فإذا قضيت الصلاة فإنه يأمرنا بأن ننتشر في الأرض، ونبتغي فيها من فضل الله مطالب حياتنا.

ومن الملاحظ أن الله تعالى أمرنا بأن نمشي في مناكب الأرض لاكتساب الرزق وبأن نسعى للصلاة من يوم الجمعة، ومعلوم أنّ السرعة في العمل هي في السعي أكثر منها في المشي، ويظهر أن الغرض من هذا أن يكون العمل لاكتساب الرزق مصحوباً بأناة ورفق مع صبر وكدح، وأنّ السرعة لا تنفع فيه، ولذلك جاء التعبير في جانبه بالمشي. أما العبادة فينبغي أن تكون بهمّة نفسية ونشاط في العمل، نظراً إلى أنها محدّدة الوقت، معلومة المقدار، مضمونة النتيجة عند الله، بخلاف اكتساب الرزق في مناكب الأرض ففي الأغلب هو من قبيل اتخاذ سبب احتمالي قد لا تتحقق به النتيجة المرجوة إلّا أنّ الله قد ضمن رزق العباد بفضله، وما عليهم إلا أن يتخذوا الأسباب.

وليس المراد من السعي للصلاة الإسراع الحثيث في المشي، وإنما المراد الهمة النفسية والنشاط في العمل؛ لأن الرسول ﷺ قد أمر بأن يكون السعي للصلاة مصحوباً بالسكينة والوقار، ونهى عن الركض إليها، ولكنّ السكينة لا تعني التباطؤ والكسل وتخاذل الهمة.

٣ ــ ودفعنا الإسلام إلى العمل لاكتساب مطالب حياتنا ولو أحوجنا ذلك إلى ركوب البحار، فبالعمل نترفع عن أن نكون عالة على الآخرين العاملين، ونعفّ أنفسنا عن سؤال الناس وتقبُّل الصّدقات، فقال تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾.

فالله تبارك وتعالى سخّر لنا في النظام الثابت الذي وضعه لكونه أموراً

كثيرة، منها أن تجري الفلك في البحر، فنركبها ونعبر البحار عليها إلى بلاد بعيدة، لنبتغي بذلك كسب مطالب حياتنا من فضل الله، وفي هذا الامتنان توجيهٌ لسبيلٍ من سبُل العمل لكسب الرزق.

يزجي لكم الفلك: أي يسوق لكم الفلك في البحر، ضمن ما سخّر لكم من أنظمة وقوانين ثابتة.

ونظير هذا قول الله تعالى في سورة (الجاثية ٤٥):

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

فجريان الفلك في البحر لم يتم إلاّ بأمر الله، إذْ وضع للناس أنظمة ثابتة تمكنهم من ذلك، وجعل من حكمة هذه الأنظمة الثابتة أن ينتفع الإنسان منها، فيركب البحار ويبتغي مطالب حياته من فضل الله، بأسفاره البحرية.

وقد ذكر الله بعض المسخرات الظاهرة في الكون، ممّا تتدخّل في صناعته يد العمل الإنساني، لنقيس عليها سائر المسخّرات الأخرى ممّا يمكن أن تتطور إليه الصناعة الإنسانية، مستفيدة من واقع الأنظمة والقوانين الكونية الثابتة، التي نظّم الله بها كونه. وعلى هذا فباستطاعتنا أن نقيس كل المكتشفات والمبتكرات الصناعية التي قد يصل الإنسان إليها، على ما امتنّ الله به علينا من مكتشفات سابقة توصَّل الإنسان إليها في القرون السالفة الأولى.

على أنّ لدينا نصوصاً عامّة تنبّه على أنّ الله قد سخّر لنا جميع ما في السموات والأرض؛ فقال الله تعالى عقب الآية السابقة من سورة (الجاثية ٤٥):

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

٤ ــ وامتن الله علينا بما سخر لنا ممّا في السموات وما في الأرض، كما سبق، ومنها أن جعل لنا نظام الليل والنهار لنسكن في الليل إلى الراحة، ولنعمل

في النهار في كسب مطالب حياتنا مبتغين كسبها من فضل الله، فقال تعالى في سورة (القصص ٢٨):

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

أي: لتسكنوا في الليل ولتبتغوا من فضل الله في النهار، وجاء التوزيع على طريقة اللّف والنشر المرتّب، وأفرد الضمير في (فيه) ولم يأت مثنّى إشارة إلى هذا التوزيع، أي لتسكنوا فيه (أي في الليل) ولتبتغوا من فضل الله (أي في النهار) وقد حذف هنا الضمير إيجازاً، ودلّ عليه التناظر والتقابل والتكامل.

٥ ـ وفي الحث على العمل لكسب الرزق والترفع عن مسألة الناس، روى البخاري عن الزبير بن العوّام أن رسول الله ﷺ قال: «لأن يأخُذ أحدكم أحبُلَه ثم يأتي الجبل فيأتي بحزمةٍ من حطبٍ على ظهره فيبيعها، فيكفّ الله بها وجهه، خيرٌ له من أن يسأل الناس أعطَوْه أو منعوه».

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خيرٌ من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه».

ففي هذا التوجيه النبوي دفعٌ شديد إلى العمل لاكتساب الرزق، وإعفاف النفس عن صدقات الناس، وفيه إعلاءٌ من همّة نفس المؤمن، وفيه تحريض للمسلم على أن يحافظ على كرامته، إضافة إلى ما فيه من توجيه كلّ قادر على العمل للمساهمة في تنمية الثروة العامة للمسلمين.

وفيه بيان أنّ أشق الأعمال وأقلها حصيلة كسب، خيرٌ وأفضلُ من سؤال الناس صدقاتهم ولو أعطوه.

٦ ـ ولفت الرسول ﷺ أنظار المسلمين إلى قدوة حسنة في مجال العمل، ليشحذ همتهم للعمل في اكتساب الرزق.

فقد روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «كان داود عليه السلام لا يأكل إلا من عمل يده».

وروى البخاري عن المقدام بن معد يكرب عن النبي ﷺ قال: «ما أكل أحدٌ طعاماً قطّ خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإنّ نبيّ الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده».

فداود عليه السلام على الرغم من كونه ملكاً عظيماً وذا سلطان كبير، كان لا يأكل إلا من عمل يده، لأنّ انتفاع الإنسان في الحياة الدنيا من كسب يده أشرف له وأكرم لنفسه.

ومعظم الأنبياء كانت لهم أعمالٌ يأكلون منها، فزكريا عليه السلام كان نجاراً، روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كان زكريا نجاراً».

وما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم، وقد كان رسول الله محمد ﷺ يرعى الأغنام لأهل مكة قبل بعثته مقابل قراريط يأخذها أجرة على عمله، روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما بعث الله نبياً إلاّ رعى الغنم» فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم، كنت أرعى على قراريط لأهل مكة».

٧ ـ ونصوص الحث على الأكل من كسب اليد كثيرة، منها ما يلي:

روى الترمذي والنسائي وابن ماجه عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ «إنّ أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم».

وفي رواية أبي داود والدارمي: «إنّ أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه».

والمراد من كون الولد من كسب والده: أنّ الولد إذا كسب كسباً فأكل منه أبوه فإن ذلك للأب طعام طيّب، لأنه لم يصل الولد إلى سنّ الكسب إلا بعد جهد مضنٍ بذله أبوه في تربيته.

* وقضية الرزق ذات وجهين كسائر قضايا ما يجنيه الإنسان بعمله في الحياة:

الوجه الأول: وجه الكسب السببي، وهو ما يمارسه الإنسان بعمله وسعيه وبحثه عن رزقه.

الوجه الثاني: وجه الفضل الربّاني بتقدير الرزق، وتيسير الأسباب، والتوفيق في العمل، ثمّ بدفع الموانع وبتحقيق النتائج.

ونظراً إلى هذين الوجهين المقترنين معاً في قضايا الرزق، نجد النصوص القرآنية والنبوية حينما تتحدّث عن الرزق تقرن السعي الإنساني في طلبه بابتغائه من فضل الله.

قال الله تعالى في سورة (الجمعة ٦):

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

أي: ابتغوا الرزق من فضل الله.

ولـمّـا كان المشركون يعبدون أوثانهم ويعتقدون أنّها تملك لهم شيئاً من الرزق أو تيّسره لهم، نزل القرآن ببيان الحق، وأنّ ما يعبدون من دون الله لا يملكون لهم رزقاً، وأن من بيده الرزق هو الله وحده، وأن عليهم أن يبتغوا عند الله الرزق فقال الله تعالى في سورة (العنكبوت ٢٩):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

ثانياً ــ ذمّ المسألة:

وكما حثّ الإسلام على العمل لكسب الرزق، فقد ذمّ المسألة، وذمّ استجداء صدقات الناس وأعطياتهم، إلا عند الحاجة الماسة، ودفع المسلمين إلى أن يصونوا نفوسهم عن ذلك، ويسموا بها عن المذلة، ويحفظوا لها كرامتها، والنصوص في هذا المجال كثيرة، منها ما يلي:

١ ــ جاء في أحاديث صحيحة متعدّدة قول الرسول ﷺ: «اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى».

والعليا هي المعطية، والسفلى هي الآخذة.

روى البخاري عن حكيم بن حزام، أنّ النبـي ﷺ قال: «اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول، وخير الصدقة عن ظهر غنى، ومن يستعفف يعفّه الله، ومن يستغن يغنه الله».

وروى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمر، أن رسول الله ﷺ قال ــ وهو على المنبر وذكر الصدقة والتعفف عن المسألة ــ: «اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى، واليد العليا هي المنفقة، والسفلى هي السائلة».

فلا ينفع السائل أن يأخذ الصدقة ويده عالية على يد المنفق، فالعلوّ والسفل أمران معنويان في هذا المقام، وليسا بأمرين مادّيّين، والحيلة المادّية في هذا لا تنفع آخذ الصدقة.

٢ ــ وروى البخاري ومسلم عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة الْعَرَض، ولكنّ الغنى غنى النفس».

فأوضح الرسول ﷺ في هذا أن الغنى الحقيقي إنما هو غنى النفس، وليس الغنى بأن يملك الإنسان كثيراً من عرض الحياة الدنيا، فكم من إنسان يملك كثيراً إلّا أنه فقير النفس، بشدة طمعه، وبخله وشحه، وكم من إنسان لا يملك إلّا القليل لكنه غني النفس عفيفها، واثق بالله وبفضله.

٣ ــ وروى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمر، أن النبـي ﷺ قال: «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس في وجهه مزعة لحم».

أي: ليس في وجهه قطعة لحم. وفي هذا دليل على أن إراقة ماء الوجه في المسألة بمثابة تقطيع لحم الوجه؛ فإذا اعتاد الإنسان أن يسأل الناس صدقاتهم وأعطياتهم، فإنه ما يزال يقطع من لحم وجهه حتى يمسي وجهه بمثابة عظم ليس عليه لحمٌ يستره، إلّا جلدةً لا حياء فيها ولا خجل ولا كرامة.

وأقبح صور المسألة ما يصنعه المتسولون الشحاذون، الذين فقدوا كرامة أنفسهم، ولبسوا ثياب الذل والمهانة، وأخذوا يتكفّفون وجوه الناس دون ضرورة ماسة.

٤ ــ وعن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المسألة كدٌّ يكُد بها الرجل وجهه، إلاّ أن يسأل الرجل سلطاناً، أو في أمرٍ لا بدّ منه».
(رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح)

إنّ المسألة كد يكُد بها الرجل وجهه: أي هي خَدْشٌ يخدِش الرجل بها وجهه، فيزيل بهذا الخدش قطعة من لحم وجهه.

إلاّ أن الرسول صلوات الله عليه استثنى من عموم المسألة صورتين منها:

الصورة الأولى: سؤال السلطان، وذلك نظراً إلى أنه المسؤول عن رعيته، وسؤاله إنما يكون باعتبار ولايته على أموال ذوي الحاجات من الأموال العامة.

الصورة الثانية: السؤال في أمرٍ لا بدّ منه، وفي هذا بيان لحالة الحاجة الملحة التي يعذر الإنسان فيها بالمسألة.

٥ ــ وعن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسدّ فاقته، ومن أنزلها بالله فيوشك الله له برزقٍ عاجلٍ أو آجل».

ففي هذا الحديث يعلي الرسول ﷺ همة المسلمين، إذ يوجّههم لربط مطالب حياتهم بالله الخالق الرازق، لا بما في أيدي الناس، فمن تعلّق قلبه بالناس فأنزل بهم فاقته (أي: فقره وحاجته) لم تُسد فاقته، ومن تعلّق قلبه بالله فأنزل به فاقته، فإنّ الله يسخّر له ما يشاء من أسباب، ويوشك أن يسعفه بما يطلب من رزق، إن عاجلاً أو آجلاً.

وهذا المبدأ مبدأ عامٌّ يشمل أيضاً كل الأسباب الصورية المادّية، فعلى المسلم أن يباشر الأسباب امتثالاً لأمر الله، بشرط أن يكون معلّقاً قلبه بالله، معتقداً أنه هو الْفَعّال، وغير معتمد في قلبه على الأسباب، فالأسباب ما تفعل شيئاً إلاّ بأمر الله، ولو شاء أن يسلبها خصائصها وتأثيرها لفعل، وهذا وجه آخر من سموّ النفس وعلوّ الهمة، وفي الحديث: «من تعلّق شيئاً وكل إليه».

ومن توكّل على الله مع مباشرته كل الأسباب التي أمر الله باتخاذها، كفاه

الله، إذا صدق قلبه مع الله، وأثبت بذلك كمال إيمانه، وكمال يقينه بالله، وبأنه هو الذي بيده مقاليد السماوات والأرض، وهو الذي وضع في الأسباب خصائصها وتأثيراتها.

٦ ـ واستخدم الرسول ﷺ أسلوب التنافس للسبق إلى نيل الجائزة العظمى، وهي دخول الجنة لمن يتعهد بأن لا يسأل أحداً من الناس شيئاً.

روى أبو داود بإسناد صحيح عن ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: «من تكفّل لي أن لا يسأل الناس شيئاً وأتكفّل له بالجنّة؟».

قال ثوبان: فقلت: أنا.

فكان ثوبان بعد ذلك لا يسأل أحداً من الناس شيئاً.

وجعل الرسول ﷺ أحد بنود البيعة مع بعض أصحابه أن لا يسألوا الناس شيئاً، فالتزموها، حتى إن أحدهم يسقط سوطه فما يسأل أحداً يناوله إيّاه.

روى مسلم عن عوف بن مالك الأشجعي قال: كنا عند رسول الله تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال: «ألا تبايعون رسول الله؟» وكنا حديث عهدٍ ببيعة، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: «ألا تبايعون رسول الله؟» فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلامَ نبايعك؟ قال: «أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، والصلوات الخمس، وتطيعوا» وأسرّ كلمةً خفيّة: «ولا تسألوا الناس شيئاً»، فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله إيّاه.

٧ ـ وروى مسلم عن أبي بشر قَبيصة بن المُخارق قال: تحمّلتُ حمالةً فأتيت رسول الله ﷺ أسأل فيها فقال: «أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها» ثم قال: «يا قبيصة، إنّ المسألة لا تحلّ إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة فحلّت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك. ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلّت له المسألة حتى يصيب قِواماً من عيشٍ، أو قال: سِداداً من عيش. ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجا من قومه: لقد أصابته فاقة، فحلّت له

المسألة، حتى يصيب قواماً من عيش، أو قال: سِداداً من عيش. فما سواهنّ من المسألة يا قبيصة سُحتٌ يأكلها صاحبها سحتاً».

تحمّلت حَمالة: الحَمالة هي ما يتحمله الإنسان عن غيره من دية أو غرامة، ليصلح بذلك بين فريقين متخاصمين، ويدخل هذا في عموم الغارمين، الذين غرموا من أموالهم مقداراً ليصلحوا به بين الخصماء وهؤلاء لهم الحقّ في أن يسألوا الناس مشاركتهم فيما تحمّلوه من غرامات، وإنما يفعل هذا في العادة وجهاء القوم وحلالو مشكلاتهم، فمن العدل والإنصاف مساعدتهم على ما هم فيه من خير.

وهذا هو الصنف الأول الذي قرّر الرسول ﷺ أنه من الأصناف الثلاثة الذين تحلّ لهم المسألة. وقد بيّن الرسول ﷺ أن هذا الصنف يأخذ على مقدار الحمالة التي تحمّلها، ولا يتخذ ذلك ذريعة للإثراء والاستكثار من المال بغير حق.

ورجل أصابته جائحة: الجائحة هي المصيبة العظيمة التي تحلّ في مال الإنسان، فتستأصله كله، كالحريق، أو الغرق، أو النهب، أو السرقة، أو ما أشبه ذلك. فمن أصابته جائحة اجتاحت ماله، فإن له الحقّ في أن يسأل الناس صدقاتهم، مقداراً يسدّ به حاجته فقط، وليس له أن يسأل حتى يستعيد مستوى غناه، ولذلك قال الرسول ﷺ في جانب هذا الصنف الثاني: «فحلّت له المسألة حتى يصيب قِواماً من عيش، أو قال: سِداداً من عيش».

ورجل أصابته فاقة: الفاقة هي الفقر الذي يصيب الإنسان بشكل مستور، دون أن يكون عن طريق جائحة ظاهرة، ولذلك كان بحاجة إلى شهادة ثلاثة رجال من أهل العقل والرأي في قومه، يشهدون له بأنه قد أصابته فاقة، ويدخل في هذا الصنف الفقراء والمساكين الذين يصيبهم الفقر بعد سابق غنى. وحكم من أصابته فاقة كحكم من أصابته جائحة، فإنّه لا يجوز له أن يسأل زيادة على ما يصيب به قواماً من عيش له ولأسرته.

يأكلها صاحبها سحتاً: السحت هو المال الحرام الذي لا يحل كسبه، وسمي سحتاً لأنه يسحتُ البركة، أي يُذهبها.

وأصل السَّحْت يُفيد معنى قشر الشيء قليلاً قليلاً حتى استئصاله، والسُّحت أيضاً في اللّغة العذاب. فكل ما ينال عن طريق مسألة غير مشروعة هو مال سحت ومكسب حرام.

٨ ـ وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل الناس تكثّراً فإنما يسأل جمراً فليستقلّ أو ليستكثر».

فسؤال الناس أموالهم وصدقاتهم للاستكثار وسيلة مهنية قذرة، حذّر منها الرسول ﷺ، وجعلها بمثابة من يسأل الناس جمراً، لأن عقوبتها يوم القيامة مسّ جمرات عذاب، على مقدار الدراهم والدنانير التي يأخذها بالمسألة تكثُّراً واستزادةً من جمع المال، ولا يورّط نفسه بذلك إلاّ كلّ أحمق لا يقدّر العواقب على مهانة في نفسه، وانحطاط في همته، وهل مسّ جمرات جهنم بالأمر الهينّ؟!

ـ ٨ ـ
الترفع عن محقرات الأمور وصغائرها ونشدان معالي الأمور وكمالاتها، والزهد في الدنيا

ومن ظواهر خلق علوّ الهمة الترفع عن محقّرات الأمور وصغائرها، ونشدان معالي الأمور وكمالاتها، فالتعلّق بمحقرات الأمور من دناءة النفس وانحطاط همّتها، ولا يفعله كبار القلوب والنفوس، لأنّ هؤلاء تكون نظراتهم آخذة في طريق صاعدة، ومتطلعة إلى آفاق المعالي.

ومن تدبّر حقائق الأمور وانطلق من هذا المنطلق الخلقي الكريم وكان مؤمناً بالله واليوم الآخر إيماناً كاملاً؛ وجد الحياة الدنيا وما فيها من زينة ومتاع أموراً صغيرة قليلة القيمة، لا تستحقّ في نظره الحرص عليها، وإيثارها على ما عند الله من أجرٍ عظيم في جنّاتِ النعيم. فإذا دعاه الواجب الرباني إلى بذلها أو الزهد فيها بذلها في سبيل الله وزهد بها، وإذا دعاه الواجب إلى القناعة بما يتيسّر له منها بطريق ليس فيه معصية لله، أو إضرارٌ بالناس، أو تفاخرٌ عليهم وتكاثر، كان من أهل القناعة والرضى، لأنّ همته العالية قد تجاوزت حدود هذه

الفانيات وتعلقت بالباقيات الخالدات المسعدات حقاً، إذ علم أن أعظم ما في الحياة الدنيا من نعيم لا يعادل قطراتٍ من بحر نعيم الدار الآخرة، وأن أعظم ما في الدنيا من مصائب وشدائد يهون أمام نعيم دار الآخرة، ولا يُعادل مقدار شرارة صغيرة من عذاب جهنّم.

الزهد في الدنيا:

فمن عرف هذه الحقائق وآمن بها فلا بدّ أن يزهد بعرض الحياة الدنيا ويقطع علائق قلبه منه، ترفعاً إلى ما هو أجلّ وأعظم، وأكرم وأبقى.

ولكن ليس معنى الزهد المطلوب ترك السعي في عمران الدنيا، وإعلاء بنيانها الحضاري، وترقية وسائلها، والانتفاع من خيراتها، بل الزهد الذي يتطلّبه الإيمانُ باليوم الآخر إنّما هو عدم تعليق همّة القلوب والنفوس بمتع الحياة الدنيا وزخارفها وزينتها، وهذا الزهد المطلوب يستلزم تسخير ما يصل إلى يد الإنسان منها في طاعة الله التي تحقق له يوم القيامة الثواب العظيم، الذي يصغر ويتضاءل أمام نعيمه كلّ نعيم عاجل مهما جلّ وعظم.

وليس معنى الزهد المطلوب ترك الاستمتاع بما أحل الله من متاع الحياة الدنيا، فالاستمتاع المعين على القيام بالواجبات والبعد عن المحرمات، والمقرون بالنية الصالحة، عمل محبوب مرغوب في الإسلام، وهو في الحدود المعتدلة التي لا إفراط فيها ولا إسراف من العبادات، ولذلك قال الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

ففي هذا النص القرآني توجيه للتعجب من تحريم زينة الله التي أخرج لعباده، وللتعجب من تحريم الطيبات من الرّزق، إعلاناً عن أن إباحة هذه

الزينة وهذه الطيبات من الرّزق من الأمور البدهيّة المعلومة بداهة من شريعة الله، ولكن إباحتها لا تعني الانغماس فيها، والافتتان بها، والانصراف الكليّ إليها، ونسيان الله والدار الآخرة أو السعي إلى تحصيلها بمعصية الله، أو منع حقّ الله فيها، فكلّ ذلك يخرجها عن كونها زينة مباحة، على أنّ علوّ همة المؤمن يوجهه لمطامع أجلّ وأسمى، ويجعله دائم الطلب والشوق لما عند الله.

فهو يأخذ من نصيب الدنيا ما يجتاز به رحلة هذه الحياة سالماً غانماً، دون أن يتعلّق به كل التعلّق، أو يميل إليه كلّ الميل.

هذا حال المؤمن عالي الهمّة، يأخذ نصيبه من الحياة الدنيا ضمن الحدود التي أذن الله بها، وقلبه وحبّه وشوقه ومطالبه الساميات معلّقة بما أعدّ الله للمتقين في الدار الآخرة من خيرات حسان، وهذا هو الزهد المطلوب من المؤمنين، إنه زهد القلوب واستصغار ما في الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما في الدار الآخرة. وهذا التصوّر الصحيح مع أثره في النفوس والقلوب يجعل المؤمن العاقل يوجه معظم طاقاته وأنواع نشاطه إلى ما يحقق له يوم القيامة مطمع أجلّ وأعظم، وليس من شأن هذا التوجيه أن يفسد مصالح الدنيا، بل من شأنه أن يزيدها ارتقاءً، ويجعلها مشمولة بنسبة أعظم من سعادة المجتمع الإنساني كلّه.

بخلاف التعلّق الكلي بالدنيا ومتاعها ولذاتها فإنه ينمي الحْسَدَ والتنافس بين الناس، وينتهي بالمجتمعات الإنسانية إلى الفساد وسفك الدماء وخراب العمران، ولذلك فإن من جعل كلّ همّه مرتبطاً بالحياة الدنيا وزينتها، فإنّ الله يعطيه منها على مقدار عمله وما قسم له، ثمّ لا يجعل له يوم القيامة نصيباً من النعيم المقيم، قال الله تعالى في سورة (هود ١١):

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

فما كانوا يعملونه في الدنيا قد كان من أجل الدنيا، وقد وفّى الله إليهم

أعمالهم فيها ضمن قوانين كونه وسُننه الثابتة، وحينما يأتي يوم الجزاء لا يجدون من أعمالهم التي عملوها من قبل إلاّ الكفر بالدار الآخرة وما فيها وما يتصل بذلك، ولذلك يكون جزاء كفرهم وسوء أعمالهم النار. أمّا الأعمال النافعةُ في الدنيا فقد ظهر بطلانها يوم الجزاء، لأنهم لم يعملوها ابتغاء مرضاة الله، ولا طلباً لما في الدار الآخرة من نعيم مقيم. لقد كانت الدنيا همّهم ومطلبهم فنالوا منها حظوظهم على قدر أعمالهم، ولم تكن همتهم عالية متطلعة إلى ما هو أجل وأسمى من كل ما في الدنيا، حتى ينالوا منه ما يرجون من ربهم.

فدلّ النصّ على أن الأعمال التي يُراد بها ثمرات الحياة الدنيا فإنّ ثمراتها تتحقق للعاملين من غير نقصان، فهي سنة من سنن الله الثابتة، ولكن ما أريد به الدنيا فلا ثمرة له في الآخرة، ويدخل في هذا أعمال المرائين وأعمال الكافرين.

روى مسلم عن أنس أن النبي ﷺ قال:

«إنّ الكافر إذا عمل حسنة أُطعم بها طُعمةً من الدنيا، وأمّا المؤمن فإن الله تعالى يدّخر له حسناته في الآخرة، ويُعقبه رزقاً في الدنيا على طاعته».

وثبت في المرائين أن أعمالهم تحبط يوم الدين، وأنّ أجورهم على ما عملوا قد أخذوها ممن عملوا لهم في الدنيا، منها ثناء المثنين، ومدح المادحين، وما أصابوه من تعويض على ما بذلوه ضمن سنة الثمرات الدنيوية.

خطأ في مفهوم الزهد:

ويفهم بعض الناس الزهد فهماً خاطئاً، إذ يرون أن الإسلام يحب الفقر للمسلمين ويدعوهم إلى تفضيله وإيثاره، فيجعلهم هذا التصّور الخاطىء يبطّئون همتهم عن العمل والإنتاج وعمران الدنيا، ويرغبون في الّلجوء إلى الزّوايا والتكايا والصوامع بزعم التفرغ للعبادة وإيثار عمل الآخرة، ويصابون بعد ذلك بداء الكسل والإخلاد إلى الراحة، وداء الطمع بعطاءات الناس ومِنَحِهم، وما يبذلونه لهم من مآكل ومشارب.

وسبب خطئهم أنهم لم ينظروا إلى جملة النصوص الإسلامية التي يكمّل

بعضها بعضاً، لقد تعلقوا بنصوص التزهيد في الدنيا وأساؤوا فهمها، ولم ينظروا إلى نصوص الحث على العمل والكسب وعمران الدنيا والأخذ بأسباب القوة، ونصوص الحث بعد ذلك على البذل في سبيل الله بعد الكسب الحلال زهداً في الدنيا وابتغاءً لرضوان الله.

إنّ من الواجب لدى بحث أي موضوع جزئي من الموضوعات الإسلامية أن ينظر الباحث إلى النصوص المتعلقة به، والنصوص المتعلقة بما يقابله، وسائر النصوص التي لها ارتباط بالموضوع الكلي الشامل للموضوع الذي يبحث فيه ولغيره من الموضوعات، مع نظرة شاملة إلى الإسلام بوجه عام. بهذه النظرة الشاملة يظهر مكان الموضوع الجزئي، وتظهر حدوده، وقيوده وشروطه، ومفاهيمه الصحيحة، ويكون الباحث أبعد عن الخطأ في الفهم، ولا يأخذ الموضوع الجزئي في تصوّره أكثر من حدوده ضمن الساحة العامة المخصصة للموضوع الكلي، من أصل الخريطة العامة للإسلام ومفاهيمه الكلية والجزئية.

فمن أراد أن يبحث مفاهيم الزهد الذي رغب الإسلام فيه، فعليه أن يبحث أيضاً مفاهيم العمل الذي رغب الإسلام فيه أيضاً، وربى المسلمين عليه، من زراعة وصناعة وعمران وتنمية لمختلف الثروات، وخدمات اجتماعية، وغير ذلك من أعمال كثيرة فيها إنتاج أو استثمار أو خدمة أو إصلاح وتحسين حضاري. وعليه أن يبحث أيضاً دعوة الإسلام إلى البذل والعطاء، ودعوته إلى التخفف من الانغماس في تناول الشهوات واللذائذ الدنيوية، التي تورث القلوب الغفلة عن الله، والقسوة المجففة لمنابع الرحمة فيها، والتي تنفخ في النفوس الخفة والطيش والشره الزائد إلى المتع العاجلة، والبطر القاتل، وتنفخ فيها الكبر والعجب بالنفس، والاستعلاء على الناس، والاستهانة بما هو سبيل السعادة الأخروية، ثم تدفع بها إلى مواقع الطغيان، والتي تغشّي الفكر فتحجبه عن كثير من الحقائق، وتجعل ذكاءه ألعوبة في أيدي الأهواء والشهوات، وأداةً تُسخّر للشّره والكبر والعجب والطغيان.

فدعوة الإسلام إلى الزهد في الدنيا ليست دعوة إلى ترك العمل والإنتاج

والاستثمار، وليست ترغيباً بالفقر والضعف والمسكنة، بل هي تربية أخلاقية تدفع المسلم إلى فضائل البذل والعطاء، والبعد عن رذائل البخل والشحّ، ومسبّبات قسوة القلب، والكبر والعجب والاستعلاء على الناس والطغيان والاستهانة بالفضائل، وما ينجم عن ذلك من انحطاط كبير عن مراتب الكمال الإنساني في الفكر والنفس والسلوك.

ودعوة الإسلام إلى الزهد في الدنيا دعوة إلى القناعة بما قسم الله من رزق، والالتزام بما أذن الله من كسب، وتربية على العفة عمّا في أيدي الناس، وعدم الطمع بما لدى الآخرين، وعدم النظر إليه بحسد ورغبةٍ بامتلاكه.

ودعوة الإسلام إلى الزهد في الدنيا دعوة إلى أن يصرف المؤمن قلبه عن التعلّق بالأشياء الدنيوية لذاتها أو للذّتها، كي يتوجه شطر الآخرة ومحبة الله وابتغاء مرضاته، حتى إذا رأى المؤمن أن مرضاة الله تتحققّ بالتخلي عن عَرَض الحياة الدنيا تخلى عنه ابتغاء مرضاة الله، وإيثاراً لثواب الآخرة. وهكذا يستطيع المؤمن الصادق أن يكون قلبه غير متعلّق بزينة الحياة الدنيا، وما فيها من مالٍ ومتع وتفاخر وتكاثر، مهما كان في يده من ذلك، بل يستخدم كلّ ما يجنيه للظفر بنعيم الآخرة ومجدها، ولا يبطئه ذلك عن العمل والكسب، لأن العمل والكسب عندئذ من أفضل العبادات، وهو أفضل من التفرغ للعبادات المحضة بنسبة عظيمة، فمن تفرغ ليكون كلاً على غيره، وهو يزعم أنه قد تفرغ للعبادة، فإن من ينفق عليه هو أفضل منه.

أما من تفرغ للعلم وإرشاد الناس وتعليمهم فهو عامل في أشرف الأعمال وأفضلها، وعلى الأمة أن تكفيه معاشه، وهو من أزهد الناس في الدنيا متى كان صادقاً مع الله.

هذا المفهوم الإسلامي الصحيح إنما نتوصل إليه بعد النظر الشامل إلى النصوص الإسلامية المختلفة وبعد التصور الشامل لمفاهيم الإسلام.

التربية الإسلامية على الزهد في الدنيا تطلعاً إلى الآخرة ومنازلها العالية:

وقد عمل الإسلام على تربية المسلمين بمختلف الوسائل التربوية، لاكتساب هذه الظاهرة من ظواهر خلق علوّ الهمة:

١ ـ فاتخذ الإسلام لذلك وسيلة الإقناع بحقيقة ما في الدار الآخرة من كمالات عظيمة ونعيم مقيم، للذين يطلبونها ويسعون لها سعيها وهم مؤمنون، والإقناع بحقيقة الحياة الدنيا، وأنها مزرعة للآخرة، وأن مدتها قليلة ضئيلة بالنسبة إلى الخلود المقرر للآخرة، وأنّ كل نعيم فيها مهما عظم فهو قليل ضئيل سريع الزوال مغموس بالأكدار والمنغصات، وهو في جوهره بالنسبة إلى ما في الآخرة حقير لا يؤثره ويفضله على ما في الدار الآخرة إلاّ كافر بها، أو منحط الهمة قاصر النظر، يؤثر العاجلة ويذر الآخرة.

ولذلك جاء وصف الآخرة بأنها دار القرار ودار الخلود، وبأنها لهي الحيوان، وبأنها دار المقامة.

قال الله تعالى حكاية لقول موسى لقومه في سورة (غافر ٤٠):

﴿ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

أي: دار الاستقرار والثبات.

وقال الله تعالى في سورة (العنكبوت ٢٩):

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

أي: لهي الحياة الباقية الخالدة الحقة التي لا فناء فيها ولا زوال.

وقال تعالى في سورة (فاطر ٣٥) حكاية لما سيقوله أصحاب الجنة وهم فيها ينعمون:

﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾.

أي: لا يمسنا فيها تعب ولا يمسنا فيها إعياء، بل قوة دائمة على التلذّذ بما فيها من نعيم مقيم.

وجاء وصف ما في الجنة بأنه نعيم، وبأنه نعيم مقيم، وسميت الجنة جنة نعيم، وسميت الجنات جنات النعيم، فالنعيم في الآخرة يقابل المتاع والاستمتاع في الدار الدنيا.

فقال الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

وقال تعالى في سورة (الواقعة ٥٦):

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

٢ ــ واتخذ الإسلام بعد الإقناع وسيلة الحث على طلب ما في الآخرة من نعيم خالد وكمالات عظيمة، وتحويل قلوب المؤمنين ونفوسهم عن التعلق بزينة الحياة الدنيا وزخرفها والتزهيد فيها كلـمّـا كانت صارفة عن السعي لتحصيل ثواب الآخرة ومجدها الرفيع؛ دون أن يؤثر ذلك على الواجبات المتعلقة بالحياة الدنيا، والاستفادة ممّا سخّر الله للناس فيها.

وفي الإقناع بالفارق الكبير بين ما في الدنيا وما في الآخرة، يقول الله تعالى في سورة (الرعد ١٣):

﴿ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ ﴾.

أي: وما الحياة الدنيا في جنب الآخرة وبالقياس عليها إلّا متاع.

وقال تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ﴾.

أي أرضيتم بالحياة الدنيا بدل الآخرة! فما متاع الحياة الدنيا في جنب الآخرة وبالقياس عليها إلّا متاع قليل، لا يستبدله العقلاء المؤمنون بالآخرة وما فيها، فلا يرضون بالحياة الدنيا بدلاً عن الآخرة وما فيها من نعيم مقيم.

وقال تعالى في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

أي: لولا أن يكفر الناس جميعاً بسبب تفضيل الكافرين بمتاع الحياة الدنيا لفضّلهم الله في الدنيا على المؤمنين بهذا المتاع الفاني احتقاراً له وامتحاناً للمؤمنين.

فالبيوت الفارهة ذات السقف المصنوعة من الفضة، وذات المعارج والمصاعد المريحة، وذات الأبواب العظيمة والسّرر النفيسة، والمزخرفة بالذهب، قد وصفها الله بأنّها متاع الحياة الدنيا، ثم وجّه الله المؤمنين إلى الآخرة وما فيها من نعيم مقيم.

وقال تعالى في سورة (الشورى ٤٢):

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

وروى مسلم بسنده عن المستورد بن شداد، أنّ النبي ﷺ قال: «ما الدنيا في الآخرة إلاّ مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليمّ، فلينظر بم يرجع».

وروى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيُصبَغُ في النار صبغة ثم يقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيراً قط؟ هل مرّ بك نعيم قط؟. فيقول: لا والله يا ربّ. ويؤتى بأشدّ الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة، فيُصْبَغُ صَبْغَةً في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم، هل رأيت بؤساً قطّ؟. هل مرّ بك شدّة قطّ؟. فيقول: لا والله ما مرّ بي بؤسٌ قطّ، ولا رأيت شدّة قطّ.».

فيُصبغ صبغةً: أصل الصّبغ في اللّغة الغمس، يقال: صبغ يده في الماء أو في الزيت أو نحوهما إذا غمسها، فمعنى قول الرسول ﷺ: «فيصبغ صبغة»: فيُغْمَسُ غمسة، في النار أو في الجنة، أي: يذوق ما في هذه من عذاب بمقدار غمسة، ويذوق ما في هذه من نعيم بمقدار غمسة.

أي: يؤتى بأنعم أهل الدنيا ممّن قضي عليه بأن يكون من المعذبين في النار يوم القيامة، فيغمس في النار غمسة يسيرة يذوق بها ألم العذاب، ثم يطلب منه أن يقارن بين هذا العذاب وبين النعيم الذي كان قد تمتّع به في الحياة الدنيا، وهل كان ذلك النعيم يستحق الاغترار به وإيثاره؟

فيقول: ما رأيت خيراً قط ولا مرّ بي نعيم قطّ يستحق أن يُذكر، وذلك بالقياس على ما ذاق من عذاب في هذه الغمسة اليسيرة، فكيف بالخلود في هذا العذاب؟

ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا ممن قضي له بأن يكون من أهل الجنة لإيمانه وصالح عمله، فيغمس في نعيم الجنة غمسة يسيرة يذوق بها طرفاً قليلاً

من هذا النعيم، ثم يطلب منه أن يقارن بين هذا النعيم وبين البؤس الذي كان قد ذاقه في الحياة الدنيا، وهل كان ذلك البؤس يستحق الضجر منه، ما دام هذا النعيم بعض ثواب الآخرة؟

فيقول: ما مرّ بـي بؤس قطّ، ولا رأيت شدّةً قطّ، أي: فما سبق لي من بؤس لا يستحق أن يذكر بالنسبة إلى هذا النعيم الذي وجدته في هذه الغمسة اليسيرة في نعيم الجنة، فكيف بالخلود في نعيم هذا جزء يسيرٌ منه؟

ولهذا كان الرسول ﷺ يقول: «اللهمّ لا عيش إلا عيش الآخرة» فيما روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه.

ومن أجل ذلك علت همة الرسول ﷺ عن زينة الحياة الدنيا، وزهد بها، وحينما عُرضت عليه جبال مكة أن تكون له ذهباً رفضها، واختار لنفسه العبودية والمسكنة، ولهذا قال صلوات الله عليه فيما رواه البخاري ومسلم عن أبـي هريرة: «لو كان لي مثل أحُدٍ ذهباً لسرّني أن لا يمرّ عليّ ثلاث ليالٍ وعندي منه شيءٌ إلّا شيءٌ أرصده لدين».

على أنّ الرسول ﷺ ما كان يزهد بأن يدخل عليه مالٌ كثير، إنما كان يزهد بادخاره لنفسه وحرصه عليه، ويدلنا على هذه الحقيقة ما رواه البخاري ومسلم عن أبـي ذرّ قال: كنت أمشي مع النبـي ﷺ في حرّةٍ بالمدينة، فاستقبلنا أحد، فقال: «يا أبا ذرّ» قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «ما يسرّني أنّ عندي مثل أحدٍ هذا ذهباً تمضي عليّ ثلاثة أيام وعندي منه دينار، إلّا شيءٌ أرصده لدين، إلّا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا» وأشار بيده صلوات الله عليه عن يمينه وعن شماله ومن خلفه. ثمّ سار فقال: «إنّ الأكثرين هم الأقلّون يوم القيامة، إلّا من قال هكذا وهكذا وهكذا وقليل ما هم» وأشار بيده صلوات الله عليه عن يمينه وعن شماله ومن خلفه.

٣ ــ وكان الرسول صلوات الله عليه المثل الأعلى في علوّ همته، وفي طلبه للدار الآخرة، وفي زهده بجمع المال، ولو شاء لكان أغنى الناس مالاً، وفي زهده بما في الحياة الدنيا من ترف ونعيم، رغبة بالبذل والعطاء، وطلباً

لما عند الله من ثواب عظيم ومراتب ساميات، حتى توفي صلوات الله عليه دون أن يترك عند موته درهماً ولا ديناراً.

روى البخاري عن عمرو بن الحرث أخي جويرية بنت الحارث أم المؤمنين، قال: «ما ترك رسول الله ﷺ عند موته درهماً ولا ديناراً، ولا عبداً ولا أمةً ولا شيئاً، إلاّ بغلته البيضاء التي كان يركبها وسلاحه، وأرضاً جعلها لابن السبيل صَدقة».

وروى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: «توفي رسول الله ﷺ وليس في بيتي شيءٌ يأكله ذو كبد، إلاّ شطر شعير في رفٍّ لي، فأكلت منه حتى طال عليّ فكلتُه ففني».

شطر شعير: أي شيءٌ قليل من شعير.

لقد كانت البركة الرّبانية تزيد منه، فلـمّا كالته عائشة رضي الله عنها وعرفت مقداره طارت البركة منه، ففني بحسب مقداره الطبيعي، وكانت هذه البركة استمراراً للأحوال التي كان الله يمدّ بها رسوله صلوات الله عليه.

٤ ــ وتخوّف الرسول ﷺ على أمته من فتنة الحياة الدنيا، ومِن أن تبسط عليهم فتكون سبباً في تمزيق وحدتهم، وإضعاف روح الجهاد والدعوة إلى الله فيهم، ومن أن تكون سبباً في هلاكهم، كما أهلكت الأمم التي كانت قبلهم، ولذلك حذّرهم من فتنتها.

روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري قال: جلس رسول الله ﷺ على المنبر، وجلسنا حوله فقال: «إنّ ممّا أخاف عليكم بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها».

ففي هذا الحديث وعدٌ وتخوّف، وعد بأن الله سيبسط عليهم الدنيا، وتخوّف عليهم من هذا البسط.

وروى البخاري ومسلم عن عمرو بن عوف الأنصاري، أنّ رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها، فقدم بمالٍ

من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبـي عبيدة، فوافَوْا صلاة الفجر مع رسـول الله ﷺ، فلما صلى رسـول الله ﷺ انصرف، فتعـرضـوا لـه، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم، ثمّ قال: «أظنكم سمعتم أنّ أبا عبيدة قدم بشيءٍ من البحرين؟» فقالوا: أجل يا رسول الله، فقال: «أبشروا وأمِّلوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم».

فهذا الحديث يدل على أنّ التخوّف من بسط الدنيا هو التخوّف من أن يفضي بسطها إلى الهلاك بسبب التنافس فيها، والتقاتل والتحاسد من أجلها، وهذا التنافس فيها لا حدود له، ولا بدّ أن تضيق الدنيا عن مطامع الناس فيها، وينتهي بهم الأمر إلى التحاسد والتقاتل والفساد وسفك الدماء.

وهذا بعض مخاطر بسط الدنيا، ومن مخاطره الاغترار بزينة الحياة الدنيا، والانغماس في الترف، ونسيان الله واليوم الآخر، والسقوط في المعاصي والآثام.

وتحذيراً من فتنة الدنيا وزينتها بين الرسول ﷺ أنّها حلوة خضرة، وأنّ الله قد استخلف عباده فيها ليبتليهم، فينظر كيف يعملون، ورتب على هذه الحقيقة قوله: «فاتقوا الدنيا واتقوا النساء» أي: فاتقوا فتنة الدنيا وزينتها، واتقوا فتنة النساء؛ فقد روى مسلم عن أبـي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإنّ الله تعالى مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء».

وروى الترمذي بإسناد صحيـح عن كعب بن عياض قـال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إنّ لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال».

وتهويناً من شأن الدنيا وبياناً لقيمتها الحقيقية، حتى لا تسيطر على قلب المؤمن، فيؤثرها على الآخرة، ويعصي الله من أجلها، وردت عدة بيانات نبوية.

منها ما رواه الترمذي بإسناد صحيح عن سهل بن سعدٍ الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ:

«لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء».

فهذا هو وزن الدنيا بالنسبة إلى الآخرة، ووزنها في نظر الله، وفي ميزان الحقيقة.

ومنها ما رواه مسلم عن جابر، أنّ رسول الله ﷺ مرّ بالسوق والناس كنفتيه، فمرّ بجدي أسكّ ميّتٍ، فأخذ بأذنه ثم قال:

«أيّكم يحبّ أنّ هذا له بدرهم؟».

فقالوا: ما نحبّ أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟. قال: «أتحبّون أنّه لكم؟».

قالوا: والله لو كان حيّاً كان عيباً أنّه أَسَكُّ فكيف وهو ميّت؟! فقال: «فوالله للدّنيا أهون على الله من هذا عليكم».

كنفتيه: أي محتفّون به عن جانبيه.

أَسَكّ: أي صغير الأذن، وهذا من عيوب الغنم عند العرب.

ففي قصة هذا الحديث درس نبويٌّ تعليميٌّ حواري، تسلسل بالسؤال والجواب، حتى بلغ الغرض التعليمي والتربوي بطريقة مثلى، وقد كان هذا الدرس مزوداً بوسيلة إيضاحية، وفي الهواء الطلق ضمن سوق البيع والشراء.

ومنها ما رواه الترمذي بإسناد صحيح عن كعب بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه» والمراد بالشرف المجد والجاه والمكانة الدنيوية.

٥ ــ وفي تربية خلق علوّ الهمة في هذا المجال، يشرح القرآن واقع حال الدنيا وما فيها من نعيم بالنسبة إلى الدار الآخرة، ويبيّن أنّها لهو ولعب وزينة وتفاخر وتكاثر بين الناس، وأنها متاع زائل وأنّها متاع الغرور، وأنّ ما عند الله خير للأبرار، ويبين أنّها متاع قليل، وأنّ الآخرة خير لمن اتقى، وأنّ من أراد

ثواب الدنيا آتاه الله منها، ومن أراد ثواب الآخرة أعطاه الله نصيبه من الدنيا وادّخر له الجزاء الأوفى إلى يوم الدين.

وفيما يلي طائفة من البيانات القرآنية في هذا المجال:

* (أ) يصف الله تبارك وتعالى الدنيا فيقول في سورة (الحديد ٥٧):

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾.

الكفار: الزرّاع، يهيج: يجف وييبس.

ففي هذا النصّ يبين الله تعالى أنّ مغريات الحياة الدنيا منحصرة في كليّات خمس، أو في مجالات خمسة كبرى، وهي:

١ ــ اللعب.
٢ ــ اللهو.
٣ ــ الزينة.
٤ ــ التفاخر بين الناس.
٥ ــ التكاثر في الأموال والأولاد.

وهل في الدنيا مجالات كبرى غير هذه المجالات يتنافس فيها الناس؟

إنّ متع الحياة الدنيا التي ينفق الناس فيها أعمارهم وطاقاتهم لا تعدو مجالات اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر في الأموال والأولاد.

وهذه الكليات الخمس إذا نظرنا إليها بمنظار الحقيقة لا بمنظار الغرور وجدناها كمثل دورة من دورات الربيع، أو دورة من دورات المواسم الزراعية، تبدأ بأعمال الحرث والزرع والخدمات المرافقة للنبات، وخلال ذلك يلتمس

الزّراع غيث السماء، فينزل الغيث، وينبت الزرع، وتزدان خضرته، ويختال شبابه، وتتزيّن بأكاليل الزهر رؤوسه، وعندئذ يعجب الزرّاع نباته، حتى إذا جاء أوانه أخذ يهيج، أي يدب فيه اليبس شيئاً فشيئاً، حتى يكون في آخر مرحلة اليباس مصفر اللون بعد أن كان أخضر نضراً، ثمّ يتحطم ويتكسّر، ولا يبقى من رونقه شيء، ثم لا يبقى منه إلاّ الأثر والذكرى، وكذلك مثل الحياة الدنيا كلها، فضلاً عن الأعراض التي تمرّ فيها.

وبعد ذلك يأتي دور الحياة الآخرة، التي هي دار الخلود، دار الجزاء على ما قدّم مكلّفو الحياة الدنيا من أعمال، فإما عذاب شديد للذين اغترّوا بالحياة الدنيا وزينتها، فجحدوا ربّهم، وعصوا أوامره ونواهيه، وذلك في دار العذاب التي أعدّها الله لمستحقي العقاب، وإمّا مغفرة من الله ورضوان في نعيم مقيم، للذين آمنوا بربهم وعملوا صالحاً ولم تغرّهم الحياة الدنيا بزينتها ﴿وما الحياة الدنيا إلاّ متاع الغرور﴾.

ولـمّـا ضرب الله مثلاً للحياة الدنيا بدورة من دورات المواسم الزراعية الأرضية التي يهتم بها الزّراع، وكان هذا المثل موجّهاً للكافرين بالدرجة الأولى، لأنهم هم المغرورون بالحياة الدنيا، كان من البراعة الفائقة والإبداع الرائع، أن يُختار في المثل ألفاظٌ مشتركة بين عناصر من المثل وعناصر من الممثّل له، فقال تعالى: ﴿كمثل غيث أعجب الكفّار نباته﴾ والكُفَّار هم الزرّاع، والكفار هم المنكرون لما أنزل الله والمكذبون برسله.

واختير لفظ الكفار في المثل بدل لفظ الزرّاع تلويحاً لمعنى يراد من بعيد، وهو أنّ الكفار بالدين هم الذين يغترون بالحياة الدنيا غروراً كاملاً، وهذا المعنى تمرّ رائحته على أهل الذوق من عَبَق اختيار اللّفظ فقط.

شرح مغريات الحياة الدنيا الخمس:

١ ــ اللعب: هو ما كان من الأعمال غير الجادّة ذا غاية مقصودة، كرياضة الجسم أو رياضة الفكر، لاكتساب مهارات علمية أو عملية، أو تنمية قدرة من القدرات الجسمية أو الفكرية أو النفسية، فمن ذلك ركوب الخيل

واللّعب عليها، والسباحة واللعب فيها، والرمي واللعب فيه، فهـذه كلّها ألعاب، ولكنّها ذات مقاصد تقصد ونتائج ترجى.

٢ ــ اللهو: هو ما كان من الأعمال غير الجادة متّسماً بأنّه غير ذي غاية تقصد، وإنما هو مجرد تلهٍّ عن القيام بالأعمال الجادة النافعة.

وقد يفسّر اللغويّون اللّهو باللّعب، ولكن إذا تتبعنا مادة كلمة اللهو وجدناها تتضمن معنى التشاغل عن شيء ما بأي شيء آخر ليس مقصوداً لذاته، وإنما هو انصراف به عن الشيء الذي أراد المتلهي الإعراض عنه، فاللّهو يحمل معنى الإعراض عن عمل ما أكثر مما يحمل معنى القيام بالعمل الآخر، فقد يكون التلهي بالعبث المطلق، كالعبث بحصى الأرض، والعبث بسلسلة تُدار على الإصبع ثم تُنكث، أو بسبحة تحرك حباتها بالأصابع، إلى غير ذلك.

ومن أمثلة اللهو ما يفعله الذين ينفقون أعمارهم وطاقاتهم في العبث بلعبة النرد، أو بألعاب الورق ذات الأرقام والصور، ونحو ذلك من وسائل لهو وعبث.

وكثير من أعمال الناس الدنيوية، إذا لم يكن فيها تحقيق غاية ترضي الله تعالى وتجلب غُنماً أخروياً خالداً، هي من قبيل اللّهو أو اللّعب، إذ لا تزيد قيمتها الحقيقيّة على أنّها تلهّ بما هو حقير وتافه، عمّا هو عظيم جليل خطير الشأن، أو لعب ضئيل القيمة تافه الغاية. وَمَثل التلهي بأعراض الدنيا عن القيم الأخروية العظيمة كمثل تلّهي الأطفال عن ميراثهم العظيم بألعاب يخدعهم بها شيطان خبيث يريد أن يضيع لهم ميراثهم، ويتلف لهم كنزهم.

كم يضيع الناس من كنوز الآخرة بما ينخدعون به من لعب ولهو، وقد كان باستطاعتهم أن يكونوا أهل جدٍ وعمل يزرعون في الحياة الدنيا ما يبقى لهم ثمراً خالداً نامياً إلى يوم الدين.

لو أنّ مزارعاً تلهى ولعب في وقت الحرث والزرع، وتشاغل بما لا يخدم مزرعته أفتراه يحصد ثماره مع الغانمين إذا جاء موسم الحصاد؟ إنه يومئذٍ يحصد

الخيبة والندم، ويقطف من أشواك الألم ثمرات لهوه ولعبه، ويرى الغانمين يملأون أحمالهم وديارهم خيراً ورزقاً، فيمتلىء قلبه وتمتلىء نفسه حسرة وألماً.

فإذا كان اللعب واللهو في الإثم ومعصية الله كان البلاء أدهى وأمرّ، إذ لا يقتصر ضررها على الحرمان من الخير العظيم يوم القيامة، بل هي أوزار ثقيلة تجرّ عذاباً أليماً.

بخلاف الأعمال النافعة ذات النتائج الخيِّرة يوم القيامة، فهي ذات خاصتين:

الأولى: ما يغنمه المؤمن من أجر عظيم عليها يوم الدين.

الثانية: ما ينجم عنها من عمران دنيوي حضاري خير لا شرّ فيه، يجمع بين المادّة والروح، بين المتعة والفضيلة، بين لذة الروح ولذة الجسد، بين الدين والدنيا.

وبذلك تمتاز أعمال المسلمين الملتزمين تعاليم الإسلام عن أعمال غيرهم، فهم يستطيعون أن يوفقوا بحكمة رائعة بارعة بين الدنيا والآخرة، بقيادة حكيمة توجه العمل شطر الخير، مع ابتغاء مرضاة الله فيه.

٣ ـ الزينة: هي في الأصلْ اسم جامع لكلّ ما يُتزيّن به، والتزيين هو تحسين المظهر وتجميله حتى تميل إليه الحواس وترتاح إليه النفس، ولا يشترط فيما هو حسن مزيّن المظهر أن يكون في حقيقته جوهراً نافعاً، وذا قيمة حقيقية باقية، بل ربّما يكون ضاراً وجالباً لشرٍّ وعذاب، فالزينة من شأنها أن تستهوي النفوس إذ تستحسنها الحواس.

وقد أبان الله لنا أنه جعل ما على الأرض زينة لها ليبلو الناس أيّهم أحسن عملاً، فقال عز وجل في سورة (الكهف ١٨):

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ ﴾.

أي: لنختبرهم في مجال الزينة التي تخدع حواس غير العقلاء، وبالامتحان

يظهر أيّهم أحسن عملاً، أيّهم يكون جادّاً عاملاً لما عند الله من أجر عظيم وثواب جزيل، وأيّهم يكون مغترّاً بزينة الحياة الدنيا، معرضاً عمّا يحقق له في الآخرة سعادة عظيمة خالدة.

وهكذا سمّى الله كل ما على الأرض من شيء يتمتّع به الإنسان زينة لها، نظراً إلى الحقيقة الجوهرية، وقياساً على الدار الآخرة وما فيها من نعيم حقيقي لا ينقطع.

وسمّى الله تبارك وتعالى المال والبنين زينة من زينة الحياة الدنيا، وأبان أن الباقيات الصالحات خير عنده ثواباً وخيرٌ أملاً، فقال تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾.

والباقيات الصالحات هي الأعمال الصالحة التي ترضي الله تعالى، ويبتغى بها وجهه، فهي باقيات لأنّ ثوابها باقٍ وخالد في دار النعيم يوم الدين، فهي لذلك خير من المال والبنين ثواباً.

أمّا كونها خيراً أملاً، فيظهر لنا حينما نلاحظ أنّ الناس يجمعون المال الكثير ويرغبون بالبنين أملاً بما في المال والبنين من نفع لهم في مستقبل حياتهم، لكنّ الباقيات الصالحات من الأعمال التي لها ثواب عظيم خالد في دار الجزاء، هي خيرٌ أملاً في نفوس المؤمنين من كلّ الآمال التي يعلّقها الناس في الدنيا على الأموال والبنين.

وأبان الله لنا أن المراكب من زينة الحياة الدنيا، فقال تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

فركوبها واقتناؤها انتفاع وزينة.

ومن الزينة التطلّع إلى استتباع أصحاب المال والجاه، والزهدُ بالفقراء والضعفاء، ففي تربية الله لرسوله في هذا الشأن قال تعالى له في سورة (الكهف ١٨):

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾.

فُرُطاً: أي سرفاً وتضييعاً للخير.

وجاء التعبير عن زينة الحياة الدنيا بالزهرة، لأن الزهرة مزدانة المظهر شكلاً ولوناً ورائحة وملمساً، إلاّ أنها سريعة الذبول قصيرة العمر قليلة النفع، إنها زينة النبات، وهي أقصر ما في النبات عمراً، مع أنها أرقه حاشية وأحلاه منظراً، قال الله تعالى في سورة (طه ٢٠):

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾.

وحينما نمعن النظر في كلّ ما في الحياة الدنيا ممّا يستهوي نفوس الناس، وننظر بمنظار الحقيقة الأبدية الخالدة، يتبيّن لنا أن متاعها الذي يتقاتل الناس عليه ويتنافسون فيه هو من قبيل الزينة، ذات البريق الظاهر فقط، والنفوس تميل إليه والحواس تنجذب إليه، انخداعاً به، واغتراراً بأنه ذو مضمون نافع مشحون بالخير وهو في الحقيقة غير ذي محتوى جوهريّ صحيح، الكدح له كثير، واللذة منه كرذاذ من الماء ترمي به على حديدٍ محمي بالجمر، والفتنة به والانشغال به عن الإعداد للآخرة وما فيها من نعيم عظيم خالد، هو من قبيل اللهو واللعب إذا قيس بمقياس الحقيقة الجوهرية الأبديّة.

على أنّ الاستمتاع بالزينة في حدود ما أباح الله لا يتعارض مع العمل للآخرة، بل قد يكون مساعداً عليه، بل قد يكون جزءاً منه، إذا اقترن بنية صالحة فيها طاعة لله تعالى، قال الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

فالزينة مباحة في الدنيا للذين آمنوا، ينالون منها هم وغيرهم، وهي لهم وحدهم يوم القيامة، ولكن يشترط لاستمتاع المؤمنين بها في الحياة الدنيا شروط:

(أ) أن لا يستمتعوا من الزينة بما حرّم الله تعالى، أو على وجه حرّمه الله تعالى.

(ب) أن لا يطغى استمتاعهم بها على الواجبات المنوطة بهم.

(ج) أن لا تنسيهم الله وتلهيهم عن ذكره.

والمستوى الرفيع لاستمتاعهم بالزينة أن تعينهم على طاعة الله وشكره، وأن تكون بالمقاصد الصالحة عنصراً من عناصر عبادتهم لله تعالى.

والاستمتاع بالزينة تعتوره الأحكام الشرعية الخمس: فقد يكون واجباً كأكل ما فيه قوام الحياة، وقد يكون مندوباً كالزواج لشابٍّ استطاع الباءة، وقد يكون مباحاً كشراب مباح دعت إليه الشهوة ولم تدع له الحاجة، وقد يكون مكروهاً كالزيادة عن مقدار الحاجة في طعام أو شراب لاحتمال الضرر في ذلك، وقد يكون حراماً كالاستمتاع بما حرم الله من مآكل ومشارب ومناكح وغير ذلك.

فليس الغرض من ترغيب الإسلام المسلمين بالزهد في الدنيا وزينتها الامتناع من الزينة والاستمتاع بها، وليس الغرض من اعتبار الحياة الدنيا لعباً ولهواً وزينة وتفاخراً وتكاثراً من الأموال والأولاد أنّ الإسلام يمنع المسلم من هذه الأمور. إنما الغرض تحقير أمر الدنيا في نظر المؤمن حتى لا يشتدّ تعلّقه بها، ولينظر إلى الآخرة وما فيها من نعيم مقيم ويسعى لها سعيها المطلوب، فيظفر بالخير العظيم الذي أعده الله للعاملين الساعين للمنازل الرفيعة في دار الخلود. وليهون عليه التضحية بماله ونفسه طمعاً بما هو أعظم وأجلّ.

٤ ــ التفاخر: وهو التسابق لحيازة ما به يفتخر الناس بعضهم على بعض.

وكم يتسابق الناس في الحياة الدنيا ويتنافسون ويبذلون الكثير لينالوا بين الناس مظهراً من مظاهر الفخر، وليرضوا في نفوسهم دافع الكبر وحبّ الاستعلاء. إنّ كثيراً من الناس يشقون أنفسهم ليفخروا على غيرهم بعرض من أعراض الحياة الدنيا، وينافسهم آخرون ويشقون في الحياة ليجاروهم وليكون لهم من الفخر مثل ما لهم.

إنّ أحدهم قد يشحّ بالدرهم في مجال لا فخر له فيه عند الناس، وربما يكون له فيه أجر كبير عند الله، في حين أنه قد يبذل الألوف أو مئات الألوف في مجال آخر يجد له فيه بين الناس فخراً، ويشعر بأنه يتعاظم فيه ويتكبّر على خلق الله، أو يعظم فيه ويكبر عند الناس.

ربّما يقتل بعض الناس نفسه حذر أن تجرح مرتبة الفخر التي يتصورها لنفسه.

كم يجر التفاخر من تحاسد وكيد تنمو بهما نامية الشر والفتنة، ويكثر الفساد في الأرض.

معظم الحروب الجاهلية كان الدافع الأكبر فيها عنصر التفاخر الفردي والأسري والقبلي والقومي.

قريش في غزوة بدر علمت أن عيرها وأموالها قد نجت، ولكن لم يطاوعها كبرها وتفاخرها بين العرب أن ترجع دون أن تظهر للعرب مكانتها وقوتها، فقال قائلهم: والله لا نرجع حتى نردَ بدراً فنقيم عليه ثلاثاً، فننحر الجُزر، ونُطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا. وهكذا اندفعوا بدافع الفخر، وقد حذّر الله المؤمنين أن يكونوا مثلهم، فقال تعالى لهم في سورة (الأنفال ٨):

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾.

فالمشركون قد خرجوا إلى بدر من ديارهم بطراً وكبراً وليُروا الناس مكانتهم وقوتهم تفاخراً وتعاظماً.

ووصف الله أهل الاختيال والفخر بأنهم بخلاء في مجالات الخير، ويأمرون الناس بالبخل، فإذا كانوا في موقف من مواقف الفخر أنفقوا أموالهم رئاء الناس، ليعظموا في نفوسهم، قال تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۝٣٦ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝٣٧ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ۝٣٨ ﴾.

فهم بأوهام التفاخر الشيطانية يمارسون موقفين متناقضين تماماً، بخلاء دعاة للبخل في مواطن الخير ومرضاة الله، مسرفون مبذرون في ميادين التفاخر ومراآة الناس.

وماذا كان يضرّهم لو أنهم آمنوا بالله واليوم الآخر، ثم أنفقوا في سبيل الله، ليظفروا بمجد الآخرة والأجر العظيم عند الله؟! وهم لن يفوتهم مع ذلك مجد الدنيا ولا ثوابها ولا تعويض ما بذلوه في سبيل الله، ولذلك قال الله تعالى في شأنهم عقب النص السابق من سورة (النساء ٤):

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ۝٣٩ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٤٠ ﴾.

وحبّ التفاخر من أغراض الدنيا، وهو محبط للعمل الصالح، ومنه ما يجرّ إلى معصية الله فهو حرام، ومنه ما هو مكروه، ومنه ما هو مباح ومأذون به، كالتفاخر في مواقف القتال لقذف الرعب في قلوب الأعداء.

٥ ــ التكاثر: وقد ذكر النص التكاثر في الأموال والأولاد ويلحق به التكاثر في الأنصار والأعوان والأجناد، والتكاثر في جميع ما هو من زينة الحياة الدنيا ومفاخرها، مادّيّاً كان أو معنويّاً.

وجاء التكاثر مطلقاً في قوله تعالى: ﴿ألهاكم التكاثر﴾.

ودوافع التكاثر ترجع إلى عنصرين نفسيين:

العنصر الأول: الطمع المقرون بالأمل، والطمع ينحلّ إلى الرغبة بالتملّك والاستئثار، وهذان يرجعان إلى جذر الأنانية في الإنسان، وهي الأنانية الجموح التي لا بصر يهديها ولا عقل يلجمها ويضبطها.

وجاء في الحديث: «لو أوتي ابن آدم وادياً من ذهب لابتغى إليه ثانياً، ولو أوتي ثانياً لابتغى إليه ثالثاً ـ وهكذا ـ ولا يملأ جوف ابن آدم إلاّ التراب ويتوب الله على من تاب».

العنصر الثاني: رغبة النفس بالاستعلاء على الآخرين، وهذه الرغبة مقرونة بالتفاخر، وبالبحث عما يتفاخر فيه الناس في الحياة الدنيا.

وهذه الرغبة ترجع إلى جذر الكبر المتفرع من الأنانية المقيتة، وهي الأنانية العمياء الجموح التي لا بصر يهديها، ولا عقل يلجمها ويضبطها.

إن الأنانية العمياء الجموح مع قصر النظر وجحود الآخرة أو نسيانها، واتباع الهوى وشهوات النفس، علّة العلل وأصل الداء.

ودواء الإنسان يكمن في الإيمان بالله واليوم الآخر، وتصوّر المنازل الرفيعة التي يظفر بها في دار النعيم المستهينون بما في الحياة الدنيا من زينة، والمضحون بها ابتغاء مرضاة الله، كلّما دعاهم الواجب أو دعتهم الفضيلة إلى التضحية بها، والذين يوجّهون مطالب أنفسهم إلى ما أعدّ الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات من مجد عظيم، ونعيم باذخ.

وهذا الدواء كفيل بأن يبصّر الأنانية بطريق مجدها وغناها وفخرها الصحيح الخالد الذي لا يفنى، وكفيل بأن يهوّن في نظرها الدنيا وما فيها، فيصرفها عن التعلّق التامّ بما هو موصول بها، ومحدود الغاية عندها، ليعلّقها بما هو موصول بالآخرة ورضوان الله، وغير محدود الغاية، إيماناً بأن الدار الآخرة هي دار الخلود، وهي دار الحياة الحقة.

وبهذا الدواء تتحوّل الطاقة الأنانية إلى مركبة سحرية عجيبة، تجري بصاحبها بسرعة فائقة إلى منازل الخالدين، وتجعل صاحبها حينئذٍ متحلياً بفضائل أخلاقية وسلوكية عظيمة.

وكذلك كل الفِطر الإنسانية لا تحتاج إلى أكثر من حسن توجيه، حتّى يدرج الإنسان في مسالك الخالدين في النعيم، ذوي الاستقامة على الصراط السوي، صراط الله العزيز الحكيم.

أما إهمالها للأوهام تعبث بها، أو توجيهها توجيهاً سيئاً، فإنّ كلاً منهما من شأنه أن يسلمها إلى أيدي الشياطين، وعندئذ تتعلّق تعلقاً كليّاً بالدنيا وما فيها وتقطّع ما بينها وبين الله والدار الآخرة من أسباب، وتسير في ركب الشياطين يلهيها الأمل، ويزين لها الغرورُ طريق الهلاك الذي تسير فيه بحلاوة المتاع العاجل الذي تستمتع به.

وقد حذر الله الناس من أن تغرّهم الحياة الدنيا، فقال تعالى في سورة (فاطر ٣٥):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝٥ ﴾.

وأبان الله للذين آمنوا بأن الدار الآخرة هي دار الحياة الحقة، التي تستحق وحدها أن يقال عنها: «الحيوان» أي الحياة الكبرى الخالدة، فقال تعالى في سورة (العنكبوت ٢٩):

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ۝٦٤ ﴾.

وقد ضرب الله مثلاً للحياة الدنيا بنبات الربيع، ينزل الغيث من السماء فينبت فيعجب الزراع نباته لخضرته ونضرته، ولكنه لا يلبث غير مدة قصيرة حتى تذهب خضرته ويصفر وييبس ثم يتحطم ويتكسر، ﴿كمثل غيث أعجب

الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً».

وبعد الحياة الدنيا تأتي الآخرة وفي الآخرة بالنسبة إلى الناس أنواع ثلاثة:

(أ) عذاب شديد للكافرين.
(ب) ومغفرة من الله لمستحقيها من عصاة المؤمنين.
(ج) ورضوان من الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات.

وأخيراً يعطي الله الحكم النهائي على الحياة الدنيا فيقول: ﴿وما الحياة الدنيا إلاّ متاع الغرور﴾.

ثم يدعو المؤمنين إلى أن يسابقوا بالعمل الصالح لتحصيل خيرات الآخرة في جنة عرضها كعرض السماوات والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله.

أمّا وصف الحياة الدنيا بأنها متاع الغرور كما جاء في هذا النص الذي نتدبره وفي غيره:

فالمتاع: اسم لكل ما يتمتّع به إلى أجل ثمّ ينتهي ويفنى، وعمره بالنسبة إلى من يتمتع به عمرٌ قصير. وهو يطلق في اللّغة على ما ينتفع به انتفاعاً مؤقتاً إلى حين، ثمّ يأتي عليه الفناء والزوال.

ولما كانت الدنيا وجميع ما فيها ظلالاً زائلة فانية كانت جديرة بأن توصف بأنها متاع، وكانت لذّاتها وكلّ ما ينتفع به منها جديرة بأن توصف بأنها متاع.

ومادة هذه الكلمة لم تستعمل في القرآن إلاّ في جانب ما في الدنيا من نعيم زائل ولذّات فانيات أمّا نعيم الآخرة فلم يرد وصفه في القرآن بأنه متاع ولا بأنّه يستمتع به، لأنه نعيم خالد.

والغرور: يأتي في اللغة بمعنى الأباطيل، ويأتي بمعنى الأشياء التي يُغتَرُّ بها، وهي في حقيقتها غير جديرة بأن يغترّ بها. قالوا: ويجوز أن يكون الغرور جمع غارٍّ، على مثل شاهد وشهود، وقاعد وقعود، والغرور مصدر لفعل غرّهُ يغُرّه غروراً إذا خدعه، واسم الفاعل منه غارّ، واسم المفعول منه مغرور.

وبعد هذا البيان اللّغوي باستطاعتنا أن نتبصر معنى قول الله تعالى: ﴿وما الحياة الدنيا إلّا متاع الغرور﴾أي: فما الحياة الدنيا من زينة ولذّات وزخارف ولهو ولعب وتفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد، كلّ ذلك متاع زائل، وظلّ حائل، يغتر بها الجاهل، فإذا اغترّ بها وآثرها على الدار الآخرة وعصى الله تعالى بسببها كانت بالنسبة إليه متاعَ غرور، لا متاع بلاغ يتبلّغ به إلى يوم الخلود يوم الجزاء الأكبر، وذلك لأنه اغتر بهذا المتاع، والإضافة في (متاع الغرور) نظير الإضافة في قولنا: (هذه دار إقامة) أي بالنسبة إلى من يقيم بها.

* (ب) وأمام الحياة الدنيا التي وصفها الله بأنها متاع الغرور نجد الناس قسمين:

القسم الأول: غاية همته ما في الحياة الدنيا، فهو يكدح من أجل ذلك فقط، ولا يطلب نصيباً من الدار الآخرة، وطبيعيٌّ أن لا يكون لهذا القسم من الناس نصيب من سعادة الدار الآخرة، لأنهم لم يطلبوه ولم يسعوا له سعيه.

القسم الثاني: لهم مطلبان، مطلب عاجل ومطلب آجل أما المطلب العاجل فهو زاد حسن يجتازون به طريق الحياة الدنيا، ويتبلّغون به إلى نهايته وفق الأجل المرسوم لهم.

وأمّا المطلب الآجل فهو الذي يطمحون إليه، وتتعلق غاية همتهم به وبمراتبه التي لا تتناهى سموّاً وارتقاء.

وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ﴾.

ويقول الله تعالى في سورة (آل‌عمران ٣):

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

فمن سنة الله في خلقه أنّ من أراد من الناس بعمله الدنيا آتاه الله منها على قدر عمله، ومن أراد منهم بعمله الآخرة، آتاه الله ثواب الآخرة، ومعلوم أن ثواب الآخرة يضاعف عند الله أضعافاً كثيرة، أما ثواب الدنيا فخاضع للسنة الثابتة، وهي أن نتائج الأعمال تكون على قدرها.

على أنّ باستطاعة المؤمن أن يظفر بثواب الدنيا والآخرة معاً، وهذا ما أشار إليه قول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾.

وحينما لا يمكن الجمع بين متاع الدنيا وثواب الآخرة، فعلى المؤمن حينئذ أن يؤثر ثواب الآخرة على متاع الدنيا، ولذلك لما كان الجهاد في سبيل الله يستدعي بذل كل ما في الحياة الدنيا، حث الإسلام على هذا البذل، وطلب من المؤمنين أن يؤثروا الدار الآخرة على ما في الحياة الدنيا.

فقال الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: فما متاع الحياة الدنيا في جنب الآخرة الخالدة إلاّ متاع قليل، لا يستحق أن يكون محلّ إيثار وتفضيل.

* (ج) وطلب الآخرة في ارتفاع همة النفس لا يفوت على طالبها ما قدّر الله له من نصيب في الحياة الدنيا، قال الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

فللمحسنين حسنة في الدنيا، وحسنة عظمى في الآخرة، فلا يعاب على المؤمن أن يطلب الدنيا والآخرة معاً، إذا أمكن التوفيق بينهما من غير معصية الله تعالى، إنما الذي لا يليق بالمؤمن هو أن يؤثر الحياة الدنيا وزينتها على الآخرة، وأن يستحب الحياة الدنيا على الآخرة، ولذلك ذمّ الله هذا الإيثار وهذا الاستحباب.

فقال الله تعالى في سورة (إبراهيم ١٤):

﴿ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾.

فهؤلاء الكافرون علتهم النفسية أنّهم استحبّوا الحياة الدنيا على الآخرة، وهذا الاستحباب جعلهم يكفرون بالله، ويصدّون عن سبيله، ويبغونها سبيلاً عوجاً.

وقال الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

فسبب كفر الذين شرحوا بالكفر صدراً يرجع إلى أنهم استحبّوا الحياة الدنيا وزينتها على الآخرة.

وقال الله تعالى في سورة (الأحقاف ٤٦):

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

فالذين كفروا يقال لهم يوم القيامة إذ يُعرضون على النار: أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها.

فهم استحبوا الدنيا على الآخرة فطلبوها وحدها، ولم يطلبوا حظاً كريماً من الدار الآخرة، فاستكبروا في الأرض بغير الحق، وعصوا أمر ربّهم، وانطلقوا في كلّ مجال يفسقون، لذلك فهم يجزون عذاب الهون، وهو عذاب الخزي والذلّ والصغار، في مقابل ما كانوا عليه في الدنيا من تمرد على الحقّ واستكبار.

ومشكلة نفوسهم تتلخّص بأنهم يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، مع أن الآخرة خيرٌ لهم وأبقى، وطلبها لا يُضيع عليهم من الحياة الدنيا إلّا ما لا خير لهم فيه وقد نبه القرآن على أنّ علة انصراف الناس عن تزكية نفوسهم وتطهيرها بصالح العمل، وإعراضهم عن ذكر الله وعبادته، هو أنهم يؤثرون الحياة الدنيا، فقال الله تعالى في سورة (الأعلى ٨٧):

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾.

فإيثار الناس للحياة الدنيا هو السبب في إعراض من يعرض منهم عن تزكية نفسه، أي: عن تطهيرها بالعمل الصالح.

وإيثار الحياة الدنيا يولّد طغياناً في النفوس، وذلك لأنّ من جعل كل همّه وهمته الحياة الدنيا، فلا بدّ أن يوجّه لها كل طاقات مطامعه، وتتحدّد فيها كل شراهة نفسه، وهذا يسوق حتماً إلى الطغيان، وفي هذا يقول الله تعالى في سورة (النازعات ٧٩):

﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾.

فالكافرون هم الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة إيثاراً كلياً، ويدرج على مدرجتهم عصاة المؤمنين، الذين تغلبهم أهواؤهم وشهواتهم، فيسقطون فيما حرّم الله، ويحبّون اللذات العاجلة، ويؤثرونها على الخيرات العظيمة الآجلة، فيمسهم العذاب يوم القيامة بمقدار ما تجاوزوا من حدود الله، أو يشملهم عفو الله، ويحرمون أنفسهم من مراتب عاليات في دار النعيم.

الخلاصة:

فالغرض من التزهيد في الحياة الدنيا تشجيع المسلم على بذل ما يملك منها في سبيل الله، والتضحية بمتعها وزينتها ولذائذها ابتغاء مرضاة الله كلّما دعا الواجب أو دعت الفضيلة إلى البذل والتضحية، وتوجيهه للسعي إلى ما هو أسمى وأرقى من كلّ ما في الحياة الدنيا، وتقطيع علائق قلبه عنها، حتى لا تسوقه إلى الإثم ومعصية الله والتحاسد والتباغض إذا هو سعى في طلبها، ولئلا يستبدّ الحرص عليها بهوى قلبه، فيعميه عن كلّ فضيلة، ويدفع به إلى كل رذيلة.

وليس الغرض من التزهيد بالدنيا صرف المسلمين عن تنمية الثروات التي تقوي شوكة المسلمين، وتدفع عنهم البؤس والحاجة، وتمتعهم برفاهية العيش التي أذن الله بها، وتأخذ بأيديهم إلى تحسين وسائل العيش وترقيتها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، بل هذه مطلوبة في الإسلام مع زهد القلوب في الحياة الدنيا وزينتها.

قصة المغرور بالدنيا صاحب الجنتين وصاحبه المؤمن:

لقد ضرب الله مثلاً قصة رجلين: أحدهما غرّته الدنيا، إذ وسع الله عليه في الرزق، فآتاه جنتين من أعناب، فافتخر بما آتاه الله على صاحبه، وظنّ أن جنتيه خالدتان، وأنكر الساعة ويوم الجزاء، فوعظه صاحبه، فلم يستجب لموعظته، فسلبه الله النعمة، فندم على ما كان منه من كفر بربّه وشرك به، وقال: يا ليتني لم أشرك بربي أحداً.

قال الله تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾.

لقد نفخ الاغترار بكثرة المال وقوة الرجال في رأس صاحب الجنتين، فجعل يفتخر على صاحبه في حوار كلامي جرى بينهما، ويقول له على سبيل الكبر والاستعلاء والتفاخر: أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفراً.

إنّ داء هذا الرجل المغرور بماله ورجاله داء منتشر في الناس انتشاراً واسعاً، ونجد أمثلة كثيرة له في كل زمان وفي كل مكان، وفي كلّ بيئة اجتماعية كبيرة أو صغيرة.

إنّ أي إنسان لم يهذّبه الإيمان بالله والنظر الدرّاك إلى حكمة الله في العطاء والمنع، والخفض والرفع، متى رأى توافر قوتي المال والرجال بين يديه، نفخ الغرور برأسه، فغشّى على بصيرته، فظنّ أنه قد جمع ما قد جمع من مال وقوة أنصار بقوّة ذكائه وعظيم حيلته، وأنّ ذلك يرجع إلى أنه إنسان عظيم في ذاته كبير في خصائصه، جدير بأن يكون عظيم القدر جليل الخطر بين الناس، وعلى الناس أن يعترفوا له بذلك، فإذا لم يعترفوا له فهم يظلمونه في حقه عليهم.

وهذه الأوهام التي تستبدّ به تجعله يحقد على الناس، ويحاول الانتقام منهم إذا لم يرفعوا مقداره، ويُعلو بينهم مكانته على أساس أنّه أكثر من غيره مالاً وأعزّ نفراً.

وتتولّد لديه عقدة الكبر والعجب بالنفس، ثمّ يكون لهذه العقدة ظواهر في السلوك، كالاختيال، والتعاظم في الجسم، والتنطع في القول، والإعراض عن مخاطبة الذين يراهم دونه، والصلف وتصعير الخدّ بإمالة العنق على سبيل الشموخ وتجميع عروق الرقبة وجعلها تنتصب إلى الأعلى، وجرّ الثوب عند المشي، ولفّ الرجل على الرجل إذا جلس على كرسيّه، مع توجيه نعله أو أسفل

قدمه إلى وجوه جلسائه، وعدم تثبيت نظره تجاههم، بالتشاغل عنهم بأمور بين يديه لا تعنيه ولا غرض له منها إلاّ الانصراف والإعراض عنهم تكبراً.

وبعض الناس من هؤلاء المتعاظمين يختار لعينيه النظارات السوداء، ليجمع بين مظهر إعراضه المستكبر ببصره وبين ما يعنيه أن ينظر إليه ويتفحصه بين جلسائه.

وحين لا يكترث الناس به، ولا يجدون سبباً حقيقياً يعطيه هذه العظمة، يصرح بحجته، ويقدم الدليل على أنه مستحقٌ للعظمة، فيقول وهو يفخّم منطقه وينفخ شدقيه: أنا أكثر مالاً وأعزّ نفراً.

ويقول مثل مقالة فرعون إذا كان ذا ملك وسلطان: أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي؟

وهنا تسخر الحقيقة منه أيما سخرية، وكثيراً ما تسخر منه المقادير الربّانية الحكيمة، فتسلبه النعمة، فيتصاغر فيه كل شيء كان قد تعاظم بالأمس.

ونظير التكاثر بالمال التكاثر بالشهادات والتعاظم بالرفيع منها، فقد ينفخ الغرور في الرؤوس الفارغة من العلم الصحيح والعقل الرجيح، متى أحسّت بأنها تمتلك من الشهادات ذات الألقاب الفخمة ما لا يملكه أقرانهم منها، وهنا يتوهمون أنّ العبرة بالأوراق والوثائق الموقعة، لا بالمعارف الصحيحة التي تثقّل أقدارهم في ميزان الكفايات، وحينها يتمكن هذا الوهم من نفوسهم تبدأ ظواهر عقد الغرور والكبر والعجب والتفاخر وجنون العظمة تتدفق بشكل عجيب، غير معهود في عالم العقلاء، شبيه بما كان يظهر عند الذين يغترون بكثرة أموالهم.

وعقدة الكبر هذه تتولّد من أمور كثيرة تتصل بما هو من زينة الحياة الدنيا والتفاخر والتكاثر بها، فمنها كِبْر الغنى، ومنها كبر الاعتزاز بالأتباع والأنصار، ومنها الكبر الطبقي، ومنها الكبر القومي، والكبر العرقي، وكبر المركز الاجتماعي، وكبر المرتبة الوظيفية، وكبر الشهادات العليا، وكبر الألقاب الاجتماعية، وكبر الخصائص الفردية الفطرية، كالجمال والفصاحة والذكاء والقوة الجسدية، وهكذا إلى غير ذلك ممّا يولّد الشعور بامتلاك أكثر من الآخرين.

أمّا صاحب الجنتين فقد قال لصاحبه وهو يحاوره: أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفراً، سورة (الكهف ١٨):

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾.

حُسْباناً: أي عذاباً مهلكاً، والحُسْبَانُ في اللّغة العَذاب، والبلاء، والجراد، والعجاج، والشرّ، وسهامٌ صغار يرمى بها عن القسيّ الفارسية، وكلّ ما يُرمى به على شيء كمطر من حجارة أو بَرَدٍ لإتلافه.

صعيداً زلقاً: أي أرضاً ملساء لا نبات فيها تنزلق عنها الأقدام فلا تثبت.

وهكذا أبان النص القرآني أنّ الغرور قد سيطر على هذا المتكاثر بماله ورجاله سيطرة تامة، حتى أخذ يتوهم لجنّته الخلود، ثم جره هذا التوهم إلى إنكار قيام الساعة، وربطه بالأرض ربطاً كاملاً. ثم أطغاه الاستغناء فأنساه خالقه، وحينما تهزّه دلائل الإيمان تأتيه وساوس الشيطان فتقول له: لو لم تكن ذا حظوة عند ربّك ما حباك الخير الكثير في الدنيا، وعلى فرض صدق الأقوال المنذرة بالدار الآخرة فإنّك محظوظ عند ربّك سيعطيك فيها خيراً ممّا أعطاك في الدنيا، فيصدّق هذه الوساوس الشيطانية فيقول: وما أظنّ الساعة قائمة، ولئن رُددتُ إلى ربّي لأجدنّ خيراً منها منقلباً.

لكنّ الله عز وجل لا يتركه فريسة أوهامه ووساوس شيطانه، بل يقيض له من يذكّره بالحق ويعظه به، فأرسل له صاحبه المؤمن فحاوره وناظره وذكّره

بالحق، وكشف له أنّ ما وصل إليه إنما هو من قبيل الغرور بالنفس، والغرور بالدنيا، وأن إنكار يوم الجزاء كفرٌ بالله وتكذيب له،ثم ذكّره بعقوبات الله، وبأنّ مُتع الدنيا وأموالها وزينتها عرضة للزوال، وعرضة للقبض بعد البسط، وللتدمير بعد التعمير، وللسلب بعد العطاء، فمكرُ الله لا يؤمن، ونقمته قريبة مهما أمهل، ولكنّ المغرور قد كان في غشاوة على بصيرته، من ظواهر الزينة التي يستمتع بها، فلم يسمع نصيحة صاحبه المؤمن، وبقي سادراً في غيّه، حتى حلت به العقوبة، وفاجأته المصيبة، فسلبه الله نعمته، فأصبح نادماً يتحسر، قال الله تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾.

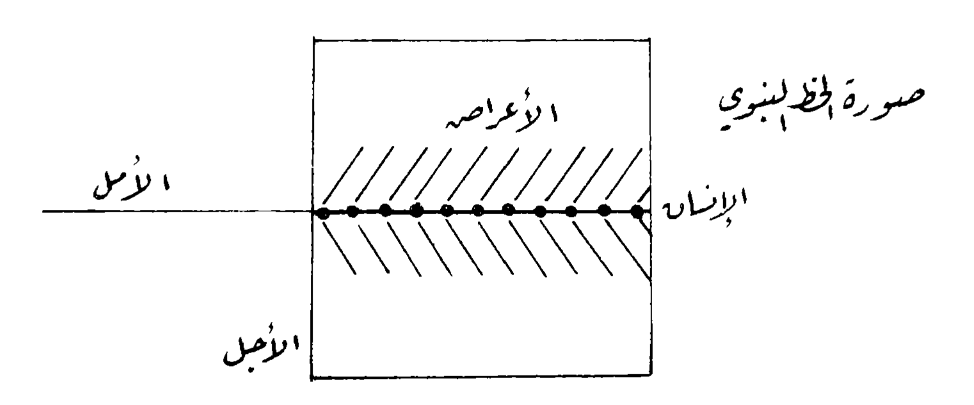
من دوافع الحرص على الدنيا الأمل بطول البقاء:

درس تعليمي رسم فيه الرسول ﷺ خطوطاً بيانية خطّها لأصحابه، ورمز بهذه الخطوط التي رسمها إلى حقائق أوضحها لهم، فجعل بعضها مثالاً للإنسان، وبعضها مثالاً لأجله المحيط به، وبعضها مثالاً لأمله الممتد وراء أجله، وبعضها مثالاً للأعراض القائمة في طريق حياته، والتي لا بدّ أن يصيبه أحدها بعلّة، ثم يأتيه أجله مع واحد منها.

ودلّ الرسول ﷺ بصنيعه هذا على أهمية استخدام الوسائل التعليمية لإيضاح الحقائق عن طريق السمع والبصر، وعن طريق الرسوم التي تقرّبُ الحقائق المجرّدة للتصور.

روى البخاري عن عبدالله بن مسعود قال: خطّ النبـي ﷺ خطّاً مربّعاً، وخطّ خطّاً في الوسط خارجاً منه، وخطّ خُططاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي بالوسط؛ فقال:

«هذا الإنسان، وهذا أجله محيطاً به، أو قد أحاط به، وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخُطَط الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا نَهَشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا».



فهذا الرسم يوضّح أن الإنسان محصور ضمن مربّع أجله، ويوضّح أنّ أمله في الحياة خارج ممتدّ وراء مربّع أجله، فهو يسعى وراء آمالٍ دنيوية كثيرة يأتي أجله من دونها، يحدوه إليها الغرور والطمع. ويوضّح أيضاً أن من دون الأجل أعراضاً مالئة طريق حياة الإنسان، ويسير الإنسان في حياته متخذاً مسيرته ضمن هذه الأعراض، فهو لا يدري عند أيٍّ منها يكون أجله، وهذه الأعراض ينبغي أن تكون مذكّرة له بالموت، ومخفّفة من طول أمله، ولكن قلّ من الناس من يتعظ ويتذكر. وبعض الناس تقعده العلّة المرضية، ويظلّ مع ذلك طويل الأمل بالحياة، مع أنّ أيّ عرض من أعراض الحياة مهما صغر كافٍ لأن يكون أجل الحياة عنده، وقد يأتي الأجل من دون عرض مرض، وكم من عثرة يسيرة مات بها عاثرها، وكم من علّة خفيفة كانت القاضية على من اعتل بها، وربّ داء دويٍّ شديد قاتل لا يقتل صاحبه لأنه لم يحن أجله، ومع ذلك فأية لحظة تمرّ بالإنسان قد يكون عندها نهاية أجله، ومع كلّ نَفَسٍ يقذفه الإنسان من صدره احتمال أن يكون هو النفس الأخير.

فطول الأمل بالحياة الدنيا مفسدة للإنسان، لأنه يُنسيه الدار الآخرة والسعي لها، ويولِّد فيه جملة من قبائح الأخلاق ورذائلها، ويدفعه إلى ارتكاب كثير من حماقات السلوك السيء في الحياة.

إنّ طول الأمل يلقي على بصيرة الإنسان غشاوات الغفلة، فلا يحسُب حساباً للموت الذي قد يباغته وهو غارق في آثامه، سارح في أوهامه، متخبط في أضغاث أحلامه.

ولذلك أوصى الرسول ﷺ عبدالله بن عمر بأن يكون في الدنيا كأنه غريب أوعابر سبيل، روى البخاري عن عبدالله بن عمر قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال:

«كن في الدنيا كأنّك غريب أو عابر سبيل».

وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك.

فمن الأفضل للإنسان أن يذكّر نفسه دائماً بالموت، ليخفّف من شدّة أمله بطول البقاء، حتى لا يُفسد نفسه طولُ أمله، وفي الوصية بهذا روى الترمذي عن أبي هريرة، أنّ النبي ﷺ قال:

«أكثروا ذكر هاذِم اللّذات».

(قال الترمذي: حديث حسن)

هاذِم اللّذات: هو الموت، ووصفه الرسول ﷺ بأنه هاذم اللّذات لأنّه يقطعهـا قطعاً سريعاً، والهاذم لغة هو القاطع بسرعة، والهاذم أيضاً هو الذي يأكل بسرعة فيزدرد الطعام ازدراداً.

وما دام الموت قد يباغت الإنسان دون سابق إنذار فمن المفروض أن يُعدّ المؤمن له عُدّته، وهذا ما أوصى به الإسلام وأكثر من التذكير به.

روى الترمذي بإسناد حسن عن أبي بن كعب قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثُلث الليل قام فقال:

«يا أيّها الناس، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه».

قال أبيٌّ: قلت: يا رسول الله، إنّي أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ فقال: «ما شئت». قلت: الرّبع؟ قال: «ما شئتَ فإن زدت فهو خير لك». قلت: فالنّصف؟. قال: «ما شئت فإن زدت فهو خير لك». قلت: فالثلثين؟. قال: «ما شئت فإن زدت فهو خير لك». قلت: أجعل لك صلاتي كلّها. قال: «إذاً تكفى همّك، ويغفر لك ذنبك».

وفي الاستعداد للموت، أوصى الرسول ﷺ بأن لا يبيت الإنسان المسلم ليلتين أو ثلاث ليال إلاّ ووصيته مكتوبةٌ مهيّأة عنده، ترقّباً لاحتمالات مباغتة الموت دون سابق إنذارٍ من شيخوخة أو مرض.

روى البخاري عن عبدالله بن عمر، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«ما حقّ امرىء مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلاّ ووصيته مكتوبة عنده».

قال ابن عمر: ما مرّت عليّ ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ قال ذلك إلا وعندي وصيتي.

وفي الاستعداد للآخرة وعدم الالتهاء بالأموال والأولاد عن ذكر الله، والتحذير من مفاجأة الموت والإنسان غافل مشغول بزينة الحياة الدنيا، خاطب الله الذين آمنوا بقوله في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

ففي هذا النص القرآني عظة كافية بتذكر الموت والعمل لما بعد الموت، وعدم التلهي بزينة الحياة الدنيا عن ذكر الله، فإذا جاء الأجل انقطع الأمل، وانتهى دور العمل، وعندئذ لا مجال للتأخير ﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها﴾.

وفي التنديد بطريقة الكافرين الذين يلهيهم الأمل، يقول الله تعالى في سورة (الحجر ١٥):

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾.

إنه الأمل الذي يجعل الإنسان في غرور من أمره، فيلهيه بالأوهام ويشغله عن إبصار الحقائق والتعلّق بها، حتى يجعله ينزلق إلى مواقع الكفر ويقيم فيها.

* وأمل الكافرين ذو شقين:

الشق الأول: أملهم بطول الأجل في الحياة الدنيا، ومن هذا الأمل يتفرّع أمل آخر، وهو أملهم باغتنام أكبر قدر يتصوّرونه من لذات الحياة الدنيا وزينتها، وهذا الأمل يجرهم إلى الكدح سعياً في مناكب الأرض بكل طاقاتهم الجسمية والفكرية والنفسية، ليجمعوا منها ما به يستمتعون، ثمّ هم يلتقطون بعد الساعات الطويلة من الكدح المضني لحظات لذّة ومتعة، منغضة بأكدار كثيرة، أو غير منغضة إلاّ أنها عابرة قصيرة تثير في أنفسهم آمالاً أوسع. ثم يسلمون أنفسهم إلى الرقاد الذي هو بمثابة الموت بالنسبة إلى الشعور، فإذا استيقظوا واصلوا أعمال الكدح أملاً بأن يجمعوا ما به يستمتعون.

وتتشابه الأيّام، وتمرّ الأعوام، ويظلّ الأمل أسبق من الكدح، وكلّما ضاعف الإنسان من كدحه اشتدّ أمله يَعْدو أمامه، فلا هو يغيب عن ناظره ببعده حتى ينقطع عنه، ولا هو يدنو منه حتى يقبض عليه ويشعر بأنه قد ظفر به، ولكن بين بين، وقد يدنو منه ليلهب نار طمعه، فإذا كان منه عند ملمس رؤوس الأنامل ابتعد عنه، كمن يدنو من الشاطىء في البحر، حتى إذا كاد أن يلمسه جذبته موجة إلى غَمْر العباب، فأبعدته عنه، وتتكرّر القصة وهو مشغول بالأمل، لاهٍ بالعمل له عن كلّ عمل، حتى تنتهي مدّة الامتحان ويحين الأجل، وحينئذٍ تنقطع الآمال، وتنتهي الحياة الأولى، ويأتي دور الحساب والجزاء.

الشقّ الثاني: أملٌ احتمالي بما بعد الموت، وهو أمل تركّبه في نفوسهم وساوس الشياطين، وقد عبّر عنه صاحب الجنتين الذي قال لصاحبه وهو يحاوره: ﴿وما أظنّ الساعة قائمة ولئن رُددت إلى ربّي لأجدنّ خيراً منها منقلباً ﴾.

وهذا الأمل الاحتمالي ينخدع به كثير من الكافرين المترفين الموسّع لهم في الحياة الدنيا وقد سقط في فخّه صاحب الجنتين هذا، كما أوضحت لنا قصته سورة الكهف.

هذا أمل الذين كفروا باليوم الآخر، أمّا المؤمنون فلهم من هذا الأمل ظلال دون الكفر، وأملٌ بطول الأجل وإصلاح العمل في المستقبل، وأمل بعفو الله ورحمته وغفرانه مهما ارتكبوا من صغائر الذنوب وكبائرها، ثم تأتيهم مناياهم وهم في غفلاتهم ومعاصيهم مقيمون، وعن الله وذكره معرضون.

من دوافع الحرص على الدنيا وزينتها الرغبة بالتنافس وحب التفاخر:

عنصر التفاخر والتنافس بين الناس فيما يملكون من الدنيا وزينتها ومتاعها وزخرفها، هو الداء الدويّ والمرض القوي الذي يستولي على مشاعر معظم الناس، على اختلاف فئاتهم وطبقاتهم.

والمعافى من هذا الداء كالجوهرة الفريدة عديمة النظير، أو نظيرها نادر ليس بالكثير.

وهذا الداء هو الداء الخطير الذي أصاب المسلمين ففرّق كلمتهم، وشتت شملهم، وأفسد بين قلوبهم، وكان الجرثومة التي نشرت بينهم أوبئة التحاسد والتباغض والتصارع ثم التقاتل.

وطبيعي فيمن يقطع نظره عن الآخرة وما فيها، ويحصر نظره في الدنيا وزينتها، أن لا يتعلق هواه إلّا بها، وعندئذ يحبّها حبّ الهائم، ولا يحذر في حبّها لومة لائم، ولا يطيع فيه نصيحة بصير عالم، ويظل وراءها في سعيٍ دائم، ومع طلّابها وعشّاقها في تنافس وخصام، وتزاحم وصدام، ومعارك لها بداية وليس لها ختام.

وسائل التربية الإسلامية:

الوسيلة الأولى: وقد عالج الإسلام هذا الداء بصدق الإيمان بالدّار الآخرة وما فيها، وبالتذكير الدائم بها، وبما فيها من نعيم وعذاب، وجنة ونار.

فالغفلة عن الآخرة تورث التعلّق الكامل بالدنيا، ولذلك نلاحظ أنّ أكبر علّة تجعل الكافرين يتنكّبون صراط الهداية والخير هو كفرهم بالآخرة وما فيها، وظلال هذا الانحراف الذي يسببه الكفر بالآخرة تمتد إلى الذين يغفلون عن الآخرة ولا يضعونها في حسابهم دائماً.

قال الله تعالى في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

أي: فصراط الهداية الذي تدعوهم إليه يا محمد يتنكّبُه ويعدلُ عنه الذين لا يؤمنون بالآخرة.

والذين لا يؤمنون بالآخرة تـزيّن لهم أعمالهم السيئة، لأنهم يتعلّقون بالدنيا وحدودها تعلّقاً كلياً، فتنطمس بصائرهم عن رؤية الحقيقة، فيسيرون مع أهواء أنفسهم بِعَمَهٍ شديد، فيهوون إلى الهلاك، وهم يحسبون أنّهم يلهون ويتمتعون في أرجوحة الحياة الدنيا ولذّاتها، قال الله تعالى في سورة (النمل ٢٧):

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾﴾.

والذين يغفلون من المؤمنين عن الآخرة يصيبهم نصيب من داء الكافرين بها، فتزيّن لهم أعمالهم السيئة، وينطلقون في زينة الحياة الدنيا وقد عشيت أبصارهم، وغُشّي على بصائرهم.

إنّ الإيمان الصادق بالآخرة، وإحضار هذا العنصر الإيماني في ساحة التصور، من شأنه أن يحوّل دوافع التنافس في نفوس الناس إليها، وبالتحول إلى التنافس في الخير يستقيم سلوك الإنسان وتصحّ مسيرته في الحياة الدنيا.

الوسيلة الثانية: ومن هذا نلاحظ أنّ من وسائل التربية الإسلامية وسيلة التحويل، الذي لا تُضغط فيه الطاقات، وإنّما تُوجّه في المسير النافع وهي عاملة منطلقة، فلا يحدث صدّها كبتاً، بل يستفاد من انطلاقها في فعل الخير.

إنّ خطة التحويل هي من أنجع الوسائل التربوية لإصلاح الأخلاق وتقويم السلوك، وقد اعتمد الإسلام على وسيلة التحويل لتخفيف التنافس على الدنيا من نفوس المسلمين، وبهذا التحويل استطاع أن يمتصّ كثيـراً ممّا في

الأنفس، بصرفه إلى ميادين التنافس في العمل الصالح، للظفر بالمغانم العظيمة المدخرة للذين آمنوا وعملوا الصالحات في الدار الآخرة دار الجزاء. وبهذا استطاعت التربية الإسلامية أن تجعل المسلمين الأولين ومن تبعهم بإحسان أكثر الناس استقامة على صراط الهداية والخير في الحياة الدنيا.

وهذه الوسيلة التربوية نافعة جداً في مختلف مجالات التربيـة للصغار والكبار.

كثيراً ما يتخاصم الصغار على لعب تافهة صغيرة، وقد يصل الخصام بينهم إلى ضجيج وتقاتل مقلق للراحة، وقد يصل بهم الحال إلى أن يؤذي بعضهم بعضاً، ويعتدي بعضهم على بعض، بدافع التنافس بينهم، ليظفر كلّ منهم باللعب التي لا ترضي مطامع الجميع، ويتدخل المربّـي الحكيم بأسلوبه البارع، فيحوّل نظرهم عن اللعب الصغيرة إلى ما هو أهمّ وأكثر تأثيراً على نفوسهم، كرياضة يشترك معهم فيها، أو قصة شائقة يحكيها لهم، وعندئذ يجدهم قد ألقوا اللعب من أيديهم وطرحوها أرضاً، وانقطع تنافسهم عليها، ويرسل المربي الحكيم من يجمع اللّعب ويُخفيها، وتنحلّ المشكلة.

وبوسيلة التحويل وجدنا أصحاب الرسول ﷺ قد أخذوا يتنافسون في السبق إلى أعمال الخير تسابقاً عجيباً، ويغبط بعضهم بعضاً على الأعمال الصالحات، وقد انقطعت أنظارهم عن التنافس في الدنيا لاغتنام زينتها ومتاعها ولذّاتها.

ويظهر لنا هذا التنافس الذي تحوّل إلى التنافس في الخير، فيما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة، أنّ فقراء المهاجرين أتَـوا رسول الله ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدّثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم، فقال: «وما ذاك؟»، فقالوا: يصلّون كما نُصلّي، ويصومون كما نصوم، ويتصدّقون ولا نتصدّق، ويعتقون ولا نُعتق، فقال رسول الله ﷺ:

«أفلا أعلّمكم شيئاً تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم، إلاّ من صنع مثل ما صنعتم؟».

قالوا: بلى يا رسول الله. قال:

«تسبّحون وتكبّرون وتحمدون دبُر كلّ صلاة ثلاثاً وثلاثين مرّة».

فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ:

«ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

أهل الدثور: أي أهل الأموال الكثيرة وأصحاب الغنى.

الوسيلة الثالثة: من وسائل التربية التي اتخذها الإسلام لمنع نظرات التنافس في واقع حياتي لا بدّ أن يُوجد فيه تفاضل بين الناس في حظوظهم من الحياة الدنيا، تربية القناعة في النفس، والرضى بقضاء الله وقدره، واعتقاد أنّ ما قدّره الله للعبد هو الأفضل له، وهو الخير له ممّا تشتهيه نفسه وتتطلع إليه، والبصيرة الحقة بحقيقة، سورة (البقرة ٢):

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾.

الوسيلة الرابعة: ومن وسائل التربية معالجة الإنسان نفسه بالنظر إلى من هو دونه في الحياة الدنيا؛ عندئذ يجد نفسه مفضّلاً على كثير من عباد الله في نعم كثيرة. وقد أرشدنا الرسول ﷺ إلى هذه الوسيلة، فقد روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم».

وفي رواية عند البخاري:

«إذا نظر أحدكم إلى من فُضّل عليه في المال والْخَلْقِ فلينظر إلى من هو أسفل منه».

الوسيلة الخامسة: ومن وسائل التربية التحرّر من العبودية للدنيا وزينتها،

وسلطان أموالها وشهواتها، بتقوية الإرادة، وتغذية مشاعر عزّة النفس، وتصعيد مطالبها عن الفانيات إلى الباقيات الخالدات.

وفي تحرير المسلم من العبودية للدنيا ومظاهرها، روى البخاري، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال:

«تَعِس عبد الدينار والدرّهم والقطيفة والخميصة، إنْ أعطي رضي، وإن لم يُعطَ لم يرضَ».

الخميصة: نوع نفيس من الثياب الصوفية المخطّطة، كانت معروفة بنفاستها، كما أن القطيفة كانت من نفيس الثياب[1].

الوسيلة السادسة: ومن وسائل التربية الإيمان بالتعويض المضاعف للمؤمنين الذين لا يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، ومن التعويض الثابت في البيانات الإسلامية ما رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس وعمران بن الحصين، أن النبي ﷺ قال:

«اطّلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء».

فالغنى كثيراً ما يولّد نفسيّة الطغيان، والطغيان يقذف صاحبه في النار، أمّا النساء فلكثرة انحرافهنّ عن صراط الله وطغيانهن بسلطان أنوثتهن واستخدام ذلك في فتنة الرجال، وفي ألوان شتى من الظلم.

وروى البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد عن النبي ﷺ قال:

«قمتُ على باب الجنة فكان عامّة من دخلها المساكين، وأصحاب الْجَدّ محبوسون، غير أنّ أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار».

أصحاب الْجد: هم أصحاب الحظّ والغنى في الدنيا، ويحبسون لسؤالهم عن أموالهم من أين اكتسبوها وكيف أنفقوها.

---

(١) تشبه ما يسمى في عصرنا بالمخمل.

وروى الترمذي بإسناد صحيح عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال:

«يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام».

وإنه لتعويض مُجزٍ جدّاً عن فقر في عمر محدود، وذلك لمن آمن وصبر ورضي عن الله.

الوسيلة السابعة: ومن وسائل التربية الاقتناع بأنّ مال الإنسان هو ما انتفع به في الدنيا، وما ادّخره عند الله ببذل صالح في صدقة ترضي الله تعالى أو جهاد في سبيله، أو أيّ طاعة من الطاعات، وأيّ وجه من وجوه الخير والبر. وفي الإقناع الإسلامي بهذه الحقيقة، روى مسلم عن عبدالله بن الشّخّير قال: أتيتُ النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿ألهاكم التكاثر﴾ قال:

«يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلاّ ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدّقت فأمضيت؟!».

فحقوق الإنسان الأساسية من الرزق في الدنيا محصورة بضروريات معاشه، وأمّا ما عدا ذلك فزيادة ورفاهية، إذ الدنيا بمثابة قاعة امتحان، لا حقّ للممتحن فيها بأكثر من حاجاته الأساسية الضرورية، أمّا دار النعيم فهي دار الجزاء الأكبر يوم الدين، وتلك الدار هي محل التطلّع السامي بالنسبة إلى المؤمنين، وطريقهم إليها هو العمل الصالح في الحياة الدنيا، وعدم تعلق القلب بها.

وروى الترمذي بإسناد صحيح عن عثمان بن عفان، أن النبي ﷺ قال:

«ليس لابن آدم حقٌ في سوى هذه الخصال: بيت يسكنه، وثوب يواري عورته، وجلفُ الخبز والماء».

جلف الخبز: أي خبز ليس معه إدام، أو هو غليظ الخبز.

الوسيلة الثامنة: ومن وسائل التربية الاقتناع بأن الدنيا مزرعة للآخرة، وأنها ليست دار إقامة، وأهلها فيها عابرو سبيل، وفي التربية على هذه القناعة، روى البخاري عن عبدالله بن عمر قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال:

«كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل».

وحين يتبصر المسلم بمختلف هذه الحقائق الإيمانية عن الدنيا والآخرة، لا يرى الدنيا إلا بمثابة السجن الذي يضيق به وينتظر الخلاص منه، بعد أن يؤدي فيه وظيفته خير أداء، ويغنم في مرحلته أكبر قدر مستطاع من العمل الصالح، وهذا ما بيّنه الرسول ﷺ بقوله فيما رواه مسلم عن أبي هريرة:

«الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر».

فمن سيطرت على مشاعره هذه البصيرة الإيمانية، زهد في الدنيا زهد القلب لا تَزهُّد الظاهر.

ومن قطع علائق قلبه من زينة الحياة الدنيا ومتاعها، وتوجّه إلى الله صادقاً أحبّه الله، لأنه برهن بذلك على أن أصباغ الدنيا وألوانها ومفاتنها لم تخدعه عن الحقيقة، ولم تصرفه عن النعيم المقرون برضوان الله، مهما كان في يده منها، ومهما مشى في مناكبها طلباً للبلغة وإعفاف النفس، وقياماً بواجب السعي، وابتغاء لمرضاة الله في البذل والإنفاق.

ومن قطع علائق قلبه مما في أيدي الناس أحبّه الناس، لأنهم يرون فيه الرجل الذي لا يكلفهم من أموالهم شيئاً، ولا ينافسهم، ولا يحسدهم على ما آتاهم الله من فضله ليبلوهم، فهم لذلك يحبونه.

وفي هذا روى ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة، عن سهل بن سعد الساعدي قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس، فقال:

«ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس».

مصعب بن عمير وزهده في الدنيا بعد إسلامه:

لّما صدق مصعب بن عمير في إيمانه، وقد كان من قبل آنق شباب مكة وأحسنهم ثياباً وعطراً، نظر إلى الدنيا التي كان من قبل متعلقاً بها، فرآها لا تستحق إيثاراً على الآخرة، ورأى أن طريق الآخرة جهاد وصبر وتحمّل

للمشقات، فخاض غمار هذه الطريق الشاقة الحلوة في قلوب المؤمنين، وهاجر داعياً إلى الله، وسعى في يثرب معلماً مناضلاً قبل هجرة المسلمين والرسول إليها، فشقّ الطريق ومهد الأرض، وهيّأ بتوفيق الله الأوس والخزرج تهييئاً حسناً، لاستقبال هجرة المسلمين والرسول ﷺ إليهم، حتى كانت الهجرة النبوية وبدأت غزوات الرسول ﷺ، واشتدت ضراوة عداء المشركين لدعوة الحق، وكانت معركة أحد، وكان في القتلى الداعية الإسلامي العظيم مصعب بن عمير، فلم يجدوا من ثيابه لكفنه غير نمرة إذا غطّوا بها رأسه بدت رجلاه وإذا غطوا بها رجليه بدا رأسه!!.

روى البخاري ومسلم عن خباب بن الأرت قال: هاجرنا مع رسول الله ﷺ نلتمس وجه الله تعالى، فوقع أجرنا على الله، فمنا من مات لم يأكل من أجره شيئاً، منهم مصعب بن عمير رضي الله عنه ـ قتل يوم أحد وترك نَمرة، فكنّا إذا غطينا بها رأسه بدت رجلاه، وإذا غطّينا بها رجليه بدا رأسه، فأمرنا رسول الله ﷺ أن نغطي رأسه ونجعل على رجليه شيئاً من الإذخر ـ ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها.

يَهْدبها: أي يقطفها.

ـ ٩ ـ
الحزم في الأمور

ومن ظواهر خلق علوّ الهمة الأخذ بالحزم في الأمور، والقيام بما يجمل ويحسن من أعمال دون تسويف ولا تأجيل عند القدرة على التنفيذ.

وقد حثّ الإسلام على هذه الظاهرة الخلقية التي تنبع من خلق علو الهمة وكمال العقل، وحبّب إلى المسلمين الكياسة وحذّرهم ونفّرهم من العجز والتسويف.

إنّ العاقل الحصيف ذا الإرادة القوية يعلم أن عمره رأس مال حياته، وأنه لا يمكن ادّخاره، فهو يجري بنفسه دون أن يستطيع مالكه حبسه، فإمّا أن

يغنمه بعمل صالح يستطيع ادّخاره ليسعد به، وإمّا أن يدعه يجري بدداً دون أن يغنم منه شيئاً، وإما أن يجني فيه على نفسه.

وحين يعلم العاقل الحصيف ذو الإرادة القوية هذه الحقيقة فإنه سيختار لنفسه الحزم، والكياسة، فيغنم ما يجري من عمره بما يستطيع من أعمال صالحات، ويبادر إليها بحزم، ويغتنم فُرصه التي إذا مرّت لم يكن لها عوض.

والشباب والصحة والفراغ والقدرة على العمل كلّ هذه مغانم متى مرّ عليها الزمن دون انتفاع منها ضاعت من يد صاحبها، وفرّت دون أن يستطيع القبض عليها، ثم صارت أخباراً تروى، وذكريات لا وجود لها إلا في الخواطر المتحسّرة النادمة، وأزماناً ماضية لا رجعة لها، ويجترّ فاقدها الندم عليها ولكن لات ساعة مندم، زمن مضى، وشباب ولّى، وقوّة ضعفت، فكيف الرجعة؟!.

ثم إذا انقضى العمر كلّه ولم يغتنم فيه صاحبه عملاً صالحاً، حلّ به الخسران المبين، والندم المحدق والمحرق للقلوب على ما فات، ولكن هيهات هيهات.

وقد صور القرآن حالة هذا الخاسر، إذ يجد نفسه وقد ضيّع ما كان باستطاعته أن يغنم به نجاته وسعادته، فيطلب من ربّه الرجعة ليعمل عملاً صالحاً فيما ترك، ولكنْ حُمّ القضاء فلا رجعة إلى الدنيا، إنّ إلى الله الرجعى.

وهذا الطلب يطلبه الخاسر إذا جاءه الموت، قبل مفارقة روحه جسده، ويطلبه إذا مات وانفصلت روحه عن جسده، ويطلبه في موقف الحساب يوم القيامة ويطلبه حين يوقف على النار ليلاقي مصيره الأليم، ويجاب عليها جميعاً بالرفض.

وقد دلّ على هذا الطلب في المرحلة الأولى قول الله تعالى في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

ففي هذا النص تصوير لطلب تأخير الأجل في حالة الغرغرة مع نزول مصيبة الموت.

ودل على هذا الطلب في المرحلة الثانية عند الموت وبعد انفصال الروح عن الجسد، قول الله تعالى في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

ففي هذا النص تصوير لطلب الرجعة إلى الحياة الدنيا بعد الموت، لاستئناف حياة الابتلاء، حتى يعمل الخاسر صالحاً فيما ترك، ولكنه يزجر ويرفض طلبه.

ودلّ على طلب الرجعة إلى الحياة الدنيا في موقف الحساب قول الله تعالى في سورة (السجدة ٣٢):

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

ففي هذا النص تصوير لطلب الرجعة إلى الحياة الدنيا حينما يقف المجرمون عند ربّهم في موقف الحساب.

والسبب في رفض طلب الرجعة أنهم لو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه، ولم يستقيموا، لأنهم لو ردّوا للامتحان فسيردّون وقد محيت من ذاكرتهم صورة الحياة الآخرة، وبذلك يرجعون لاستئناف ما بدأوه في الامتحان الأول، قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

فالعاقل الكيّس هو الذي يغتنم فرصة عمره في الحياة الدنيا فيملأه بصالح العمل.

والعاجز الأحمق هو الذي يتبع نفسه هواها، ويتمنى على الله الأماني، والأماني وحدها لا تنفع صاحبها ما لم تصاحبها أعمال صالحات من شأنها أن تحقق في سنن الله الأماني المطلوبة.

وفي توجيه الإسلام إلى الكياسة والحزم والخلاص من العجز وضعف الإرادة واتباع الهوى يقول الرسول ﷺ فيما رواه الترمذي وابن ماجه عن شداد بن أوس:

«الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله».

الكيّس: هو العاقل الحازم الذي يعمل أحسن عمل ينفعه، ويقابله العاجز ضعيف الإرادة الذي يتبع أهواء نفسه فلا عقل ولا حزم عنده.

والعجز إذا كان عجزاً جسديّاً فإنّ الله يعذر به ولا يؤاخذ عليه، وصاحبه في زمرة الضعفاء، أما العجز الإرادي وهو الذي يفقد صاحبه الحزم في الأمور، فإنّ الله يؤاخذ عليه، وهو من مجالات الابتلاء في الحياة الدنيا، روى أبو داود عن عوف بن مالك، أن النبي ﷺ قضى بين رجلين فقال المقضي عليه لما أدبر: حسبي الله ونعم الوكيل. فقال النبي ﷺ: «إنّ الله تعالى يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمرٌ فقل: حسبي الله ونعم الوكيل».

ومن التوجيهات النبوية لاغتنام أعظم ما يملكه الإنسان في حياته بالعمل الصالح، جاء في كلام الرسول ﷺ:

«اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك».

وفي المبادرة بالأعمال الصالحة، روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«بادروا بالأعمال الصالحة فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا».

ـ ١٠ ـ

اشتغال الإنسان بما يعنيه وانصرافه عما لا يعنيه

من ظواهر خلق علو الهمة أن يشتغل الإنسان بما يعنيه ويترك ما لا يعنيه، فاشتغال الإنسان بما لا يعنيه فضول يضيّع به وقته الذي هو رأس مال حياته، وهو يدلّ على نقص العقل أو غلبة الهوى، وحينما يعجز الإنسان عن ملء وقته بما يعنيه، أي بما ينفعه ويفيده في دنياه وآخرته، يحاول أن يملأ فراغه بما لا يعنيه ولا يفيده في دنياه ولا آخرته.

واشتغال الإنسان بما لا يعنيه لهوٌ أو شبهه، بل هو في بعض الأحيان لا يقتصر على كونه مضيعة للوقت بما لا فائدة فيه للجسم أو للعقل أو للنفس، ولكن يزيد على ذلك فيكون جنايةً على الجسم والعقل والنفس وظلماً لها، إذ يجلب لها مضرة عاجلة أو آجلة.

ولـذلك قال رسول الله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».
(رواه مالك وأحمد عن علي بن الحسين بإسناد صحيح)

ومن اشتغال الإنسان بما لا يعنيه أن يغتاب أخاه المؤمن بغية تهديم مكانته بين الناس، فيجني المغتاب بذلك على نفسه عند الله إثمَ ذِكرِهِ أخاه بما يكره.

ومن اشتغال الإنسان بما لا يعنيه أن يكون نمّاماً، يمشي بين النـاس بالنميمة فيجني بذلك على نفسه عند الله، إذ يكسب إثم السعي بين الناس بالفساد.

ولذلك يترفّع المؤمن العاقل عالي الهمة عن هذه القبائح، فلا يشغل نفسه بما لا يعنيه، بل يرى أنّ ممّا يعنيه أن لا يشتغل بما يضرّه ويؤذيه عند الله.

من أجل ذلك يترفع عباد الرحمن عن محاورة الجاهلين، والخوض معهم في أحاديث الجهل، ويترفعون عن اللغو، ويترفعون عن لهو الحديث، لأنّهم يعرضون عمّا لا يعنيهم، ولا يشغلون أنفسهم إلاّ بما يفيدهم في آخرتهم، أو يفيدهم في دنياهم في حدود ما أذن الله لهم به.

وفي وصفهم يقول الله تعالى في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾﴾.

إنه لما كان خطاب الجاهلين من الأمور التي لا تعني عباد الرحمن في شيء، لأنها لا تنفعهم في دنيا ولا آخرة، كان من واجبهم أن يعرضوا عنها ويقولوا للجاهلين: سلاماً عليكم، وينصرفوا عن مجالستهم، إذا لم يجدوا سبيلاً إلى نصحهم وإرشادهم حتى يقلعوا عن جهلهم، ولا بد أن يكون هؤلاء الجاهلون من صنف السفهاء الذين يخاطبون عباد الرحمن بالسوء من القول، فيشتمون، أو يُقذعون، أو يتهكمون ويسخرون، والجهل هنا من نوع الجهل الذي ورد في قول الشاعر العربي:

ألا لا يجهلنْ أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وليس هو الجهل المقابل للعلم، ولو كان من هذا النوع لكان من وظيفة عباد الرحمن تجاهه تعليم الجاهل، ونصيحته وإرشاده، فالتعليم والنصح والإرشاد ممّا يعني المؤمن، إذ ينفعه عند الله ما ينال عليه من أجر عظيم، وثواب جزيل، وكرامة عالية.

وفي وصف عباد الرحمن يقول الله تعالى أيضاً في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴿٧٢﴾﴾.

فمن أوصاف عباد الرحمن أنهم إذا مروا في حياتهم بأمر من أمور اللغو قولاً كان أو عملاً أعرضوا عنه، وكرّموا أنفسهم عن النزول إلى مستواه، لأنّ

همتهم عليّة، ولم يسمحوا لأنفسهم بأن تضيّع في سبيله شيئاً من أوقات عمرهم، فزمنهم عندهم ثمين، ليس فيه محلّ للغو ولا للهو.

أما اللغو فهو كل ما يجب أن يلغى ويطرح ممّا لا خير فيه، ويقول أهل اللغة: اللغو: السّقط وما لا يعتدّ به من كلام وغيره، ولا يحصل منه على فائدة ولا نفع.

فالاشتغال باللغو اشتغال بما لا يعني، وعباد الرحمن عقلاء أهل حصافة وبصر نافذ، لذلك فهم يكرّمون أنفسهم وأوقاتهم عن الاشتغال بما لا ينفع ولا فائدة فيه لهم في آخرة ولا في دنيا مباحة.

أما الذين لا عقل لهم يبصرهم بما ينفعهم، ويكبح جماح أهوائهم وشهواتهم، ولا حصافة عندهم تجعلهم يحرصون على ما فيه منفعتهم وفائدتهم، فهم يتبعون اللغو واللهو والمساخر، ويبذلون في ذلك أموالهم وحياتهم، ويضيّعون عمرهم وطاقاتهم سدى، ولو عقلوا لسعوا فيما فيه فائدتهم ومنفعتهم العاجلة أو الآجالة وكلما زاد عقل الإنسان كان حرصه الأكبر على أعظم خير يمكن أن يناله بعمله، ألا وهو خير الآخرة.

وهذا الصنف من الناس الذين لا عقل لهم يبصرهم بما ينفعهم، قد ذكره الله تعالى بقوله في سورة (لقمان ٣١):

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦ ﴾.

فهذا صنف من الناس لا يكتفي بأن يضيع وقته في لهو الحديث، بل هو يشتريه بماله، ولا يكتفي أيضاً بذلك، بل غرضه منه أن يضلّ عن سبيل الله، ويتخذ سبيل الله هزواً.

- ١١ -

لـــواحـــق

من غرائب التوجيه إلى خلق علو الهمة، ما جاء في كلام الرسول ﷺ من أن الله تبارك وتعالى يحب العطاس ويكره التثاؤب، فقد روى البخاري عن أبـي هريرة، أن النبـي ﷺ قال:

«إنّ الله يحب العطاس ويكره التثاؤب، فإذا عطس أحدكم وحمد الله تعالى كان حقاً على كل مسلم سمعه أن يقول له: يرحمك الله، أما التثاؤب فإنما هو من الشيطان، فإذا تثاءب أحدكم فليردّه ما استطاع، فإن أحدكم إذا تثاءب ضحك منه الشيطان».

وفي رواية عند مسلم: «فإنّ أحدكم إذا قال: ها. ضحك الشيطان منه».

فالعطاس الذي لا يكون عن مرض كالزكام مثلاً، هزة عصبية موقظة للنشاط والعمل، والنشاط والعمل من علوّ الهمة النفسية والجسدية، بخلاف التثاؤب، فهو ظاهرة من ظواهر الفتور والكسل، وميل الأعصاب إلى الاسترخاء والإخلاد إلى الراحة، وعزوف النفس عمّا يحرّكها للعمل والإنتاج، وكل ذلك من نزول الهمة.

ولذلك جعل الرسول ﷺ التثاؤب من الشيطان، أي مما يرضي الشيطان ويسرّه من الإنسان، تنفيراً منه، وليدفعه المسلم عن نفسه ما استطاع، حتى لا يقع فريسة لمثبطات الشيطان، ولما يحب من عجز وكسل، وتوانٍ عن العمل، وفتور في الهمة.

ولما كان العطاس الذي لا يكون ظاهرة مرضية دالاً على حركة عصبية باعثة على اليقظة والنشاط، وكان أمراً انفعالياً غير إرادي، كان حقاً على العاطس أن يحمد الله عليه، لأنه نعمة ربّانيّة جاءته لتوقظه وتنشطه إلى العمل، وكان حقاً على من سمعه من المسلمين أن يشاركه السرور بهذه الرحمة الربانية التي جاءته، فيدعو له بأن يرحمه الله.

كما أنه مناسبة يتصيدها المؤمن ليذكر الله عندها، ويتصيدها جلساؤه ليدعوا له بالرحمة، فتشتدّ بين المؤمنين أواصر المودة وروابط الأخوة، وهذا من عناصر المشاركة الجماعية في الإسلام، التي تتبع كل صغيرة وكبيرة.

أما التثاؤب فلما كان عنواناً للكسل والخمول وتواني الهمة، فهو بهذا المعنى نقص عن الكمال ونزول في الهمة، ومن أجل ذلك كان من الأدب الإسلامي أن يردّه المسلم عن نفسه ما استطاع، وكان من أدب جليسه أن يعرض عنه ويتجاهله، وينطلق فيما هو فيه كأنه لم يعلمه من جليسه، فالمسلمون يفرح بعضهم لبعض بما يأتيهم من نعمة وكمال، ويغضي بعضهم عن بعض فيما يصيبهم من نقص.

ومن آداب التثاؤب أن يمسك المتثائب بيده على فمه، ليستر منظر فتح الفم، وليمنع تأثيرات الشيطان الداعية إلى الكسل، روى مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال:

«إذا تثاءب أحدكم فليمسك بيده على فمه، فإنّ الشيطان يدخل».

أي فإن الشيطان يجد مدخلاً للتأثير بوساوس الكسل.

وفي بيان آداب العاطس وآداب تشميت العاطس، روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله، وليقل له أخوه أو صاحبه: يرحمك الله. فإذا قال له يرحمك الله فليقل: يهديكم الله ويصلح بالكم».

وروى مسلم عن أبي موسى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إذا عطس أحدكم فحمد الله فشمّتوه، وإن لم يحمد فلا تشمتوه».

أي: إذا حمد الله فقولوا له: يرحمكم الله، فهذا هو التشميت.

قال أهل اللغة: تشميت العاطس الدعاء له، قال ابن سيدة: شمّت العاطس وسمّت عليه: دعا له أن لا يكون في حال يشمت به فيها. والسين لغة عن يعقوب وكل داع لأحدٍ فهو مشمّت له ومسمّت، بالشين والسين، والشين أعلى وأفشى في كلامهم.

وحكي عن ثعلب أنه قال: الأصل فيها السين من السمت وهو القصدُ والهَـدْي[1].

فإذا تكرر العطاس دلّ على أن الـرجل مـزكوم، روى مسلم عن سلمة بن الأكوع، أنه سمع النبـي ﷺ وعطس رجل عنده فقال له: «يرحمك الله» ثم عطس أخرى فقال: «الرجل مزكوم».

* * *

---

(١) انظر لسان العرب لابن منظور.

الفَصْل العَاشِر

ظَوَاهِرُ خُلُقِيَّـةٌ لأكثر مِن أسَاسٍ خُلُقِي

ـ ١ ـ

العفــة وضدّهـــا

العفة: هي كفّ النفس عن المحارم وعمّا لا يجمل بالإنسان فعله. ومنها: العفة عن اقتراف الشهوة المحرمة، وعن أكل المال الحرام، وعن ممارسة ما لا يليق بالإنسان أن يفعله ممّا لا يتناسب مع مكانته الاجتماعية، وممّا يراه الناس من الدناءات، كالجشع في الولائم والتسابق على أطايب الطعام، وكالجشع في التجارة ومزاحمة صغار الكَسَبة في مجالاتهم الحقيرة قليلة الموارد والأرباح، وكالتعرّض لمحقرات المنافع عن طريق التطفّل أو ما يشبه التطفّل إلى غير ذلك من أمور كثيرة.

ويأتي في مقابل العفة الدناءة والخسة في كثير من صورها. والعفة من مكارم الأخلاق، والدناءة والخسة وكلّ ما ينافي العفة من رذائل الأخلاق.

ولدى تحليل دوافع العفة نجدها ترجع إلى أكثر من أساس خلقي، وذلك لأننا إذا وضعنا المثيرات، ونظرنا إلى دوافع النفس تجاهها، ثم نظرنا إلى القوة الضابطة التي تضبط النفس عن تلبية دوافعها فيما لا يحل أو فيما لا يجمل بالإنسان فعله، تكشفت لنا مجموعة من العوامل التي ترجع إلى مجموعة من الأسس الأخلاقية.

ولنفرض أنّ في ساحة الإثارة امرأةً ذات منصب وجمال وهي تدعو إلى

نفسها، وأن في ساحة النفس رجولة وشباباً وحيويّة، والفضيلة العامة توجب الامتناع عن تلبية دافع النفس، فما هو الخلق الذي يضبط النفس ويملكها عن تلبية الدافع في مثل هذا الموقف الحرج، حتى يكون الإنسان عفيفاً أو متعفّفاً؟

ولدى التحليل نلاحظ أن عدّة عوامل قد تتدخل في هذا المجال، منها الصبر، ومنها الخوف من عاقبة تلبية الدافع، ومنها الطمع بثواب الكفّ، ومنها حب الحقّ الذي يجعل صاحبه يكفّ عمّا لا حقّ له به.

فبمقدار ما لدى الإرادة من قدرة على الصبر تستطيع القيام بضبط النفس عن تلبية الدافع الْمُثار، فتكون العفة عندئذٍ من مظاهر خلق الصبر، وحين يكون الضبط بتأثير الخوف من العاقبة، أو بتأثير الطمع بالثواب، تكون العفّة من مظاهر ذلك، وحين يكون الضبط بتأثير خلق حبّ الحقّ تكون العفّة من مظاهره، وحين تجتمع كلّ هذه العوامل تكون العفة مظهراً اشتركت فيه جملة أسس أخلاقية.

والعفة لا تكون إلّا إذا وجد الدافع النفسي إلى ما ينافيها، فإذا لم يكن في النفس دافع إلى ما ينافي العفة، أو لم يوجد ما يثير الدافع لم يكن للعفة وجودٌ أصلاً.

فأي معنى لعفّة من لا إرْب له، أو لعفة معتزل في صومعة لا يتعرّض إلى أي مثير؟! إنّها عفة المحروم، أو عفّة عاجزٍ لم يتعرّض لامتحان.

ولـمّـا كانت عفّة يوسف عليه السلام عفّةً مستوفية كلّ شروطها وأركانها كانت من أعظم أمثلة العفة في تاريخ الإنسان. ففي يوسف الرجولة والشباب والدافع القوي، وفي امرأة العزيز الإثارة بكلّ قواها، جمال ومنصب، وإغراء كامل، ودعوة ملتهبة، وخلوة تامة، وتهديد إن لم يستجب. ومع استيفاء كلّ هذه العوامل القوية تبرز فضيلة العفّة في يوسف عليه السلام، فيضبط نفسه بصبر منقطع النظير، ويقاوم الدوافع والمغريات بإصرار وعزيمة قوية، ترفّعاً عن الخيانة، وطلباً لمرضاة الله، وينتصر خلقه العظيم في معركة الدوافع والمغريات والتهديدات.

وقد عرض القرآن قصة يوسف مع امرأة العزيز أروع عرض يبرز الساحة النفسية عند يوسف، وساحة الإثارة بكلّ ملابساتها، وقوة الضبط الخلقي الذي جعل يوسف عليه السلام يكفّ عما لا يحلّ له، ويعطي أروع أمثلة العفة، فيقول الله تعالى في سورة (يوسف ١٢):

﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

وهكذا كانت عفّة يوسف عليه السلام مستوفية لكامل شروطها وأركانها، وبذلك نال مجد هذا الخلق العظيم.

وقد أمر الله بالعفة الذين لا يجدون قدرة على النكاح، حتى يغنيهم الله من فضله، ولم يأذن لهم بالتفريط فيها عند حاجتهم العضوية، فقال تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ ﴿٣٣﴾ ﴾.

أي: فليلْزموا جانب العفة، ولا يفعلوا ما لم يأذن به الله. والذين لا يجدون نكاحاً هم الذين لا يجدون قدرة مالية على الزواج. وفي قوله تعالى: ﴿حتى يغنيهم الله من فضله﴾ إشارة إلى أنهم إذا التزموا جانب العفة أغناهم الله من فضله، فيتهيأ لهم بذلك زواج مناسب لهم.

تعفف الفقراء عن المسألة:

وتكون العفّة في مجالات مغريات النفس المالية، وقد أثنى الله تبارك وتعالى

على الفقراء المتعففين عن المسألة، وأوصى بالبحث عنهم وتعهّدهم بالعطاء، فقال تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾.

الإلحاف: هو شدّة الإلحاح في المسألة، وشدّة الإلحاح في الطلب، يقال لغة: ألحف السائل إذا ألحّ في الطلب؛ فمعنى ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾: لا يُلحون في طلب الصدقة من الناس.

وأرشد الله إلى أن هؤلاء المتعففين يُعرفون بسيماهم، فقال: ﴿تعرفهم بسيماهم﴾، فكيف تكون هذه المعرفة لهم مع أنهم متعفّفون؟.

ويمكن أن نجيب بأنّ للفقر الحقيقي علامات تظهر على الإنسان الفقير المتعفف، كما تظهر على أسرته، في الطعام، والملبس، والمسكن، وفي حالة الجسم بشكل عامّ، وفي مراقبة موارد رزقه، إلى غير ذلك من علامات.

وعلى المسلمين أن يبحثوا عن أحوال الفقراء المتعففين، ويمدّوهم بحقوقهم التي فرضها الله في أموال الأغنياء، فهم لا غرو يُعرَفون، يعرفهم من كان دقيق الملاحظة جيد الفراسة، إلاّ أنّ الجاهل هو الذي يحسبهم أغنياء من التعفف، وهذا ما نبّه عليه القرآن.

التعفف عن كل ما وهب الله الآخرين:

ومن العفة عفة الإنسان عن النظر والتطلع إلى ما لدى غيره من متع الحياة الدنيا، من مختلف الأصناف، وفي ذلك يقول الله لرسوله محمد ﷺ في سورة (طه ٢٠):

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾.

وخطاب الرسول في مثل هذا خطابٌ لكلّ مؤمن برسالته.

وفي قوله تعالى: ﴿ولا تمدَّنَّ عينيك﴾ أمر بالعفّة، ونهي عن مجانبة سبيلها.

«أزواجاً» أي أصنافاً مختلفة من زهرة الحياة الدنيا، فيدخل فيها كلّ ما تمتدّ إليه مطامع الناس: (مال ـ سلطان ـ حدائق وبساتين ـ خيلٌ مسوّمة وأنعام ـ قصور ومساكن طيبة ـ زوجات حسان ـ جاه عريض ـ قوة وجمال ـ أولاد وذرّية) إلى غير ذلك من أصناف مختلفات.

وإذْ أمر الله بالعفة لفت الأنظار إلى ما عنده من رزقٍ هو خير وأبقى، وهذا من عناصر التربية القرآنية الحكيمة، وهي التربية بالتحويل والتصعيد.

وضدّ العفة في هذا المجال الحسد، والعفيف يترفع عن رذيلة الحسد، لأنّه لا يمدّ عينيه إلى ما لدى غيره من زهرة الحياة الدنيا، كما أن غير العفيف الذي يمدّ عينيه إلى شيء غيره هو في الغالب حسود، أو ذو عدوان.

ومن لا عفّة عنده يسقط في الخيانة، سواء أكانت خيانة مالٍ أو عرضٍ أو غير ذلك.

والعفيف المتعفف مع حاجته من أهل الجنة، والخوّان من أهل النار، روى مسلم عن عياض بنِ حمارٍ قال: قال رسول الله ﷺ:

«أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطانٍ مقسط متصدّق موفق، ورجلٌ رحيم رقيق القلب لكلّ ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفّف ذو عيال. وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زَبْرَ له الذين هم فيكم تَبَعٌ لا يبغون أهلاً ولا مالاً. والخائن الذي لا يخفى له طمعٌ وإن دقّ إلاّ خانه. ورجلٌ لا يصبح ولا يمسي إلاّ وهو يخادعك عن أهلك ومالك. وذكر البخل أو الكذب. ثم قال: والشِّنْظيرُ الفحاش».

لا زبر له: أي لا عقل له يعقله عن المعاصي والآثام.
الشنظير الْفَحَّاش: هو سيءُ الخُلُقِ بذيء اللّسان.

ـ ٢ ـ
الشجاعــة والجــبن

الشجاعة المحمودة هي الإقدام بعقل في مخاطرة يرجى منها خير أو دفع شرّ.

ويمكن تعريفها بأنها قوة في عزيمة النفس تدفع إلى الإقدام بعقل في مخاطرة بعمل أو قول لتحصيل خير أو دفع شرّ مع ما في ذلك من توقع هلاك أو مضرة يقيناً أو ظناً.

وبملاحظة قيود هذا التعريف يتبين لنا أن الإقدام بغير عقلٍ جنون أو شبيه به، وأنّ الإقدام في غير مخاطرة لا يعتبر من الشجاعة بل هو نشاط وهمة، وأنّ الإقدام لا لتحصيل خير أو دفع شرّ لا يعتبر شجاعة محمودة، بل هو تهور مذموم.

فالمنتحر يقدم على ما فيه هلاكه، ولكنّ عمله ليس شجاعة، إنما هو جنونٌ أو جنوح في العقل، أو جبن وفرار من مواجهة صدمة عنيفة مؤلمة من صدمات الحياة، لأنه إقدامٌ لشرٍّ لا خير فيه، بخلاف التضحية بالنفس عن عقل لإعلاء كلمة الله، ومقارعة أعداء الله، فهو من أعلى مراتب الشجاعة، لأنه جودٌ بالنفس، والجود بالنفس أقصى غاية الجود، وهو جود في خير عظيم.

ولدى التأمل بغية تحليل الشجاعة إلى عناصرها النفسية الأساسية نلاحظ ما يلي:

إذا اجتمعت رغبة جامحة بتحقّق مطلوب ما مع غشاوة تحجب صورة المخاوف المرتقبة، أو مع قناعة تهوّن وقوع المخاوف المرتقبة، وقد يقترن بذلك انفعال غضبي، أو انفعال تحدٍّ وتنافس، من ذلك يتكوّن في النفس مركّبٌ يدفع إلى الإقدام على المخاطر، وهو ما يسمى بالشجاعة، وعلى مقدار اختلاف نِسَب

هذه العناصر تزداد الشجاعة أو تقلّ، ثمّ لا تستمر بعد وقوع الآلام فعلاً إلاّ بأن يدعمها خلق الصبر.

وترتقي نسب الشجاعة بعوامل فطرية يكون بها القلب ثابتاً أمام المخاطر، أو متقبِّضاً لا يمدّ الأعصاب بالقوة المطلوبة.

وفي مقابل الشجاعة يأتي الجبن، ويرجع إلى وضوح رؤية المخاوف المرتقبة في التصور ولو على سبيل التوهم، مع ضعف أو عدم وجود القناعة الخاصة التي تهوّن المخاوف المرتقبة، ومع برود الانفعال الغضبي، وضعف انفعال التنافس أو التحدي، وتزداد نسبة الجبن بعوامل فطرية يكون بها القلب سريع التأثر بالمخاوف أو بتصوراتها ولو كانت أوهاماً غير واقعية.

وحين يفقد الشجاع عنصر الصبر يفقد شجاعته عند نزول الآلام التي لا يصبر على تحمُّلها، فيكون شجاعاً في الأوائل جباناً في الأواخر، فالصبر على تحمّل المكاره التي يجرها الإقدام عن عقل وحكمة هو الذي يحافظ على استمرار خلق الشجاعة في النفس، وقد تكون الحاجة إلى الصبر مقترنة بأول مراحل الشجاعة.

وقد توجد الشجاعة في الإقدام إلى مخاطر لا تقضي الحكمة الفكرية السليمة بجواز الإقدام إليها، لأنّ الخير الذي يرجى أن يتحقق بهذا الإقدام، أو الشر الذي يرجى أن يدفع بهذا الإقدام، لا يكافىء تحمّل المخاطر المرتقبة، ولكن ذلك يرجع إلى سوء تقدير صاحب هذا الإقدام لما هو فيه من أمر، فلا يكون إقدامه من قبيل التهور أو الجنون، بل هو شجاعة حقيقية، إلاّ أنّ الفكر عنده كان مخطئاً في تقديره، فأشبه العمل عمل المتهورين.

الشجاعة فطريّة ومكتسبة:

ويتفاوت الناس فيما لديهم من شجاعة أو جبن في أصل فطرتهم، فبعض الناس مفطورون على خلق الشجاعة، وبعضهم مفطورون على الجبن، وبعض الناس أشجع من بعض في أصل الفطرة، فللشجاعة عند الشجعان نِسَبٌ متفاوتة. وبعض الناس أجبن من بعض في أصل الفطرة، وللجبن عند الجبناء

نِسَبٌ متفاوتة. وما من شجاعٍ إلاّ لديه نسبة ما من الجبن الفطري، وما من جبانٍ إلاّ لديه نسبة ما من الشجاعة الفطرية، والتفاوت بين الناس فيها لدى كلٍّ منهم من نسبة من الجبن ونسبة من الشجاعة. كسائر المزدوجات في التكوين النفسي أو التكوين الجسدي، ففي التكوين الجسدي نلاحظ هرمونات الذكورة والأنوثة في كلّ ذكر وأنثى، ومتى غلبت نسبة إحداها الأخرى برزت صفاتها، فإن كانت الغالبة هي هرمونات الذكورة كان الإنسان ذكراً، وإن كانت الغالبة هي هرمونات الأنوثة كان الإنسان أنثى، وعند التساوي يكون الإنسان خنثى، وما من إنسان لا يوجد فيه الصنفان معاً، وتزداد الذكورة كلما ازدادت نسبة هرموناتها في الجسد، وتزداد الأنوثة كلما ازدادت نسبة هرموناتها في الجسد.

كذلك مزدوج الجبن والشجاعة في كلّ إنسان.

اكتساب خلق الشجاعة ووسائله:

وحال خلق الشجاعة في قابليته للاكتساب كحال سائر الأخلاق، فالأخلاق كلّها منها ما هو فطري ومنها ما هو مكتسب، فمن الشجاعة شجاعة فطرية، ومنها شجاعة مكتسبة، ومن الجبن جبن فطري ومنه جبن مكتسب.

ولاكتساب خلق الشجاعة وسائل، منها الوسائل التالية:

الوسيلة الأولى: التدريب العملي بدفع الإنسان إلى المواقف المحرجة التي لا يتخلص منها إلا بأن يتشجع، وينبغي أن يكون ذلك بالمقدار الذي يغذّي خلق الشجاعة، ولا يزيد نسبة الجبن.

الوسيلة الثانية: الإقناع بأنّ معظم مثيرات الجبن لا تعدو أنها أوهام لا حقيقة لها.

الوسيلة الثالثة: القدوة الحسنة وعرض مشاهد الشجعان، وذكر قصصهم، مع تمجيدهم، والثناء عليهم، ومنحهم المكافآت المغرية، لإثارة عنصر المحاكاة، ثم المتابعة، ثم المنافسة.

الوسيلة الرابعة: إثارة دوافع التنافس، ومكافأة الأشجع بعطاءات مادية، مع الثناء والإطراء والتمجيد.

الوسيلة الخامسة: ترسيخ عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر، وأنّ الإنسان لن يصيبه إلاّ ما كتب الله له، وترسيخ عقيدة الإيمان باليوم الآخر.

ولـمّـا كان التدريب العملي من أفضل الوسائل لاكتساب الأخـلاق والمهارات، وجدنا أهل البادية يتمتعون بشجاعة اجتياز المفـازات ومقارعـة خطوبها، ووجدنا أهل الجبال يتمتعون بشجاعة ارتقاء شواهقها، واختـراق عقباتها، ووجدنا أهل الجزر البحرية والسواحل يتمتعون بشجاعة ركوب البحار وخوض غمارها، ومصارعة أمواجها، كلّ ذلك بسبب التدريب العملي الذي يمارسونه بحكم بيئتهم التي تفرض عليهم ظروفاً معينة تغرس فيهم لوناً من ألوان الشجاعة، لا سيما إذا ارتبطت أرزاقهم ووسائل عيشهم بخوض غمار المخاوف.

وللإقناع تأثير فعّال في غرس الأخلاق أو تهذيبها في الأنفس، فمن عرف فضيلة الشجاعة وفوائدها، ورذيلة الجبن ومضاره، تكونت لديه عناصر مهمة مساعدة على اكتساب خلق الشجاعة، وكذلك سائر الأخلاق.

وللقدوة الحسنة وللمشاهدة والقصة أثر إيحائي كبير في الأنفس، فمشاهدة أعمال الشجعان الأبطال، وذكر قصصهم، من الوسائل المساعدة على غرس خلق الشجاعة، وهذا ما كانت تلجأ إليه الأمم في مشاهد البطولات، وفي تداول سير أبطالها وشجعانها، ليغرس ذلك في قلوب ناشئتها خلق الشجاعة.

ولوسيلة التنافس والمكافأة أثر عظيم في التربية بوجه عامّ، ومن ذلك اكتساب الفضائل الخلقية.

أما الإيمان بالله وبمقاديره والإيمان باليوم الآخر فمن أعظم الوسائـل لاكتساب فضائل الأخلاق، ومنها خلق الشجاعة، وذلك لأن الإيمان بالقدر خيره وشرّه من الله يورث القلوب طمأنينة تامة تجاه أشد المخاوف وأعتاها، فالمؤمن صادق الإيمان على يقين تام بأنه لن تصيبه مصيبة لم يسبق فيها قضاء من الله وقدر، ولن يستطيع أن يفلت من مصيبة سبق فيها قضاء من الله وقدر، ولذلك لـمّـا خرج الرسول بجمهور المسلمين إلى غزوة أحد، وانخزل عنه

المنافقون، وقتل من قتل من المسلمين في هذه الغزوة، أخذ المنافقون يقولون: لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قتل من قتل في أحد، فنزل القرآن بالتربية الإيمانية في هذا المجال، معلناً أنهم لو لم يخرجوا إلى الغزوة لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم، فماتوا في الوقت نفسه الذي ماتوا فيه، فقال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾.

فهذه العقيدة الإيمانية تجعل القلوب في طمأنينة تامة، وتمدها بمدد عظيم من الشجاعة والثبات تجاه أشد المخاوف، لأنها تجعل النفوس مستعدة لتقبل المقادير خيرها وشرها رضى بما يختار الله وهذا يورث القلوب طمأنينة.

والإيمان باليوم الآخر وما أعد الله فيه للمجاهدين في سبيله من كرامة وثواب عظيم، من شأنه أن يعلّق مطامع المؤمنين وآمالهم بما أعدّ الله لهم من أجر عظيم ونعيم مقيم في الدار الآخرة، وهذا يُهون شأن الحياة الدنيا في قلوبهم، ويخفف من حرصهم عليها، وبذلك يضمر جبنهم وتنمو شجاعتهم.

وقد استخدم الإسلام كلّ الوسائل التربوية التي تغذي في قلوب المسلمين ونفوسهم خلق الشجاعة.

فدفعهم إلى مواقع التدرب العملي، بالجهاد في سبيل الله لنشر دين الله، ومقارعة أعداء الله.

وأقنعهم بفوائد الشجاعة ومضارّ الجبن، ورغبهم بالثواب العظيم للمجاهدين في سبيل الله.

ووضع لهم القدوة الحسنة الحيّة في الشجاعة، فكان رسول الله ﷺ أشجع الناس، وقص عليهم قصص بطولات الأنبياء والمرسلين، ومنها شجاعة إبراهيم عليه السلام، وشجاعة داوود عليه السلام.

وكانت حياة الرسول ﷺ بعد الهجرة مشحونة بالتدريب العملي للمسلمين على خلق الشجاعة، فكان يدفع أصحابه باستمرار إلى مواقف البسالة والإقدام، حتى اكتسبوا من خلق الشجاعة ما فاقوا به كل الشجعان، وقصص بطولات الرسول وأصحابه في هذه الحقبة كثيرة.

وكانت حياة الرسول ﷺ قبل الهجرة حياة صعبة جداً، فيها مُقاساة شديدة ومعاناة بالغة، ممّا كانوا يلقونه من المشركين، وكانوا يتلقّون كل ذلك بصبر وشجاعة. وكانت الشجاعة الأدبية التي تعتمد على قول الحقّ في كل المواقف هي السمة المميزة لهذه الفترة من حياة الرسول ﷺ والذين آمنوا معه، وقصص بطولات الرسول ﷺ وأصحابه في هذه الحقبة كثيرة.

واستمر التدريب العملي في المسلمين بعد الرسول ﷺ طوال العصور الإسلامية الذهبية، التي كانت مملوءة بأعمال الجهاد في سبيل الله، بالقول وبالأموال وبالأنفس، حتى جاءت عصور التخلف وأصاب الوهن جماهير المسلمين، فأخلدوا إلى الأرض، وأبطرهم المجد الباذخ والنعيم الوافر، فضعفوا وطمع بهم أعداؤهم الكثيرون، وفقدوا قسماً كبيراً من شجاعتهم التي كانوا يتحلون بها.

ولن يعود للمسلمين مجدهم وما كان لهم من بأس وقوة، حتى يرجعوا إلى أسس دينهم وتعاليمه في السلم والحرب.

وفي توجيه الرسول ﷺ للتدرب العملي نجد عدة نصوص، منها ما روى مسلم عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: «وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة، ألاّ إنّ القوة الرمي، ألا إنّ القوة الرمي، ألا إنّ القوة الرمي».

فأمرهم بأن يتدربوا دائماً على الرمي، وإذا عمّمنا كلمة الرمي وجدناها تشمل كل أنواع الرمي التي استحدثت فيما بعد عصر الرسول ﷺ وستستحدث إلى أن تقوم الساعة.

ولقد حث الرسول ﷺ على تعلّم الرمي واستمرار التدرب عليه، ولو كان ذلك على سبيل اللّهو بين المتدربين.

روى مسلم عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستفتح عليكم الروم ويكفيكم الله، فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه».

أي أن يتدرب على تسديد الهدف فيها ولو على سبيل اللّهو.

وعنه أيضاً قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من عَلِمَ الرّمي ثمّ تركه فليس منّا، أو فقد عصى».

وروى البخاري عن سلمة بن الأكوع قال: خرج رسول الله ﷺ على قوم من أسلم يتناضلون بالسوق[1]، فقال: «ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً، وأنا مع بني فلان» لأحد الفريقين، فأمسكوا بأيديهم فقال: «ما لكم؟» قالوا: وكيف نرمي وأنت مع بني فلان، قال: «ارموا وأنا معكم كلّكم».

ولـمّـا كانت عوامل الجبن في الأنفس ترجع معظمها إلى حرص الإنسان على الحياة، وكلّما كان الإنسان أشدّ حرصاً على الحياة، كان أشدّ جبناً وضعفاً وخوراً، أو ترجع إلى خوف الإنسان على نفسه من العلل والجراحات والآلام التي قد تصيبه إذا هو غامر في المواطن التي تتطلب الشجاعة، أو ترجع إلى خوف الإنسان على أهله وأولاده من بعده، وبسبب ذلك يدبّ الجبن إلى قلبه، أو ترجع إلى عوامل أخرى فرعية كالأوهام والعقد النفسية؛ وهذه العوامل جميعها باستطاعة الإيمان العميق الصادق أن يهدمها أو يخفّف منها، كما سبق بيانه. يضاف إلى ذلك أن الإيمان بأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، وأنّه هو ربّ العالمين والكفيل بأرزاقهم، من شأنه أن يذهب الخوف على الأهل والأولاد ثقة بالله وتوكلاً عليه، ومتى انهدمت عوامل الجبن اشتدت عوامل الشجاعة ودوافعها، فكان الإنسان شجاعاً بعد أن كان جباناً.

والنصوص الإسلامية المشتملة على هذه التربية الإيمانية كثيرة، منها النصوص التالية:

(أ) يقول الله تعالى في سورة (الحديد ٥٧):

---

(١) أي يتبارون بالرمي في السوق.

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾.

فهذا النصّ يثبت أنه ما من مصيبة تنزل في الأرض ولا في الأنفس إلاّ وقد سبق بها علم الله من قبل أن يخلقها. أي وكذلك ما ينزل من نعمة، بدليل قوله: ﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾.

وقد أخبرنا الله بهذه الحقيقة لتكون قلوبنا مطمئنة مستسلمة لله عز وجل، راضية بما تجري به مقاديره، فلا تحزن على ما فاتها ولا تفرح بما أصابت من خير لأنها تعلم أنّ كل ذلك لحكمة أرادها الله سبحانه، ومظاهر حكم الله مختلفة، فمنها نعم ومنها مصائب، وقد دلت النصوص القرآنية على أنّ الغاية العظمى من النعم والمصائب في ظروف هذه الحياة الدنيا إنما هي الابتلاء وهو الامتحان.

(ب) وروى مسلم عن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن!.. إنّ أمره كلّه له خير، وليس ذلك لأحد إلاّ للمؤمن، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له».

سرّاء: نعمة أو رخاء أو كل ما يسرّ.

ضرّاء: فقر أو مرض أو محنة وبلية، وكلّ ما يضرّ.

وروى الإمام أحمد بسند صحيح والبيهقي في شعب الإيمان، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجب للمؤمن إن أصابه خير حمد الله وشكر. وإن أصابته مصيبة حمد الله وصبر. فالمؤمن يؤجر في كل أمره، حتى في اللقمة يرفعها إلى في امرأته» أي: إلى فم امرأته.

فهذه العقائد الإيمانية تمدّ قلوب المؤمنين بألوان من الشجاعة لا توجد عند غير المؤمنين، ولا يتخاذلون ولا يجبنون إلاّ إذا ضعفت في قلوبهم عقائد الإيمان، أو أصابها السّبات بسبب الاستغراق في الشهوات، والتمسّك الشديد بزينة الحياة الدنيا ومباهجها ومفاتنها وأموالها ومفاخرها الفانية.

ومتى عشقت القلوب الحياة الدنيا وزينتها حرصت عليها، ونسيت الدار الآخرة ورغبت عنها.

ومن المعروف أنّ الجيوش تعاني أكبر ما تعاني من فقد الروح المعنوية، أي من انعدام الشجاعة من أفرادها، لكن الجيوش الإسلامية المغذاة بالإيمان الصحيح قلّما يدبّ إليها هذا الداء.

ولدى الإحصاء التاريخي نلاحظ أن الجيوش الإسلامية الصادقة تتمتع بأعلى نسبة من الروح المعنوية، أي بأعلى نسبة من شجاعة أفرادها واستبسالهم وإقدامهم وطاعتهم لقيادتهم. ولذلك أوجب الله على المسلمين أوّل الأمر أن يثبتوا في مقابلة عشرة أضعافهم، لأنهم إذا كانوا مؤمنين صادقين صابرين يستطيعون أن يغلبوا عشرة أضعافهم، ثم خفّف الله عنهم في هذا الحكم، فكلّفهم أن يثبتوا لضعْفِهم فقط، فإنّهم إذا صبروا كانوا هم الغالبين بمعونة الله، ولو كان العدوّ ضعف عددهم، قال الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

فقد أثبت الله في هذا النص أنّ مئةً من المؤمنين الصابرين يغلبون ألفاً بإذن الله، أي: عشرة أضعافهم، وهذا في الحدّ الأعلى لنسبة الإيمان القوي الصادق، أما في النسبة الدنيا للإيمان الصحيح الصادق فإنّ المئة من المؤمنين الصابرين يغلبون مئتين، أي ضعف عددهم، فإذا لم يظفروا بالغلب فذلك يرجع أمّا إلى ضعف في إيمانهم، أو إلى إخلال منهم بشروط النصر التي أمرهم الله بتحقيقها.

ولـمّـا كان الصبر من أقوى العناصر التي تمدُّ الشجاعة بالاستمرار، جعله

الله تعالى عنصراً أساسياً في رفع الروح المعنوية لدى المؤمنين المقاتلين في سبيل الله «فإن يكن منكم عشرون صابرون». «فإن يكن منكم مئة صابرة». «والله مع الصابرين».

وقال تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾.

فالمصابرة مغالبة بالصبر، والمرابطة في سبيل الله تحتاج إلى شجاعة وصبر.

والنصوص التي تجعل الصبر عنصراً أساسياً من العناصر الممدة للشجاعة والثبات والإقدام في مواقف البأس والقتال كثيرة.

الترغيب بالجهاد في سبيل الله لتغذية قلوب المؤمنين بالشجاعة:

وقد استخدمت التربية الإسلامية الترغيب بالثواب العظيم عند الله، لتغذية قلوب المؤمنين بالشجاعة العظيمة، كلّما كانت الشجاعة في سبيل الله، ولإعلاء كلمة الله ونشر دينه وإقامة العدل الذي أمر به.

كما وعد الله بنصر أوليائه الصادقين القائمين بما أوجب عليهم في القتال في سبيله وفي الإعداد له، على أعدائه.

وجاء هذا الترغيب بصور عديدة وأشكالٍ متنوعة.

فالترغيب كان بثوابين: ثواب مؤجّل، وثواب معجّل.

أمّا الثواب المؤجل: فهو ما أعدّه الله للمجاهدين في سبيله من نعيم مقيم، وأجر عظيم، وكرامة فضلى، ومنزلة مثلى، وهم يستقبلون سلسلة هذه الحسنيات منذ نيلهم الشهادة، وتستمرّ معهم ينعمون بخيراتها الحسان حتى يدخلوا الجنة ويرتقوا في منازل الشهداء.

وأمّا الثواب المعجّل: فهو الوعد بأن يهبهم الله التأييد والنصر، إذا هم نصروا دينه وأخلصوا له، وأدّوا الشروط والواجبات التي أمر بها في الجهاد وقبله.

وبعد النصر تكون لهم الغنائم، ويكون لهم السلطان القوي في الأرض، وتفتح لهم أبواب الممالك وتخضع لهم عروشها.

ونصوص الترغيب في هذا كثيرة، منها النصوص التالية:

(أ) روى البخاري ومسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ : «لَغَدْوة في سبيل الله أو روحةٌ خير من الدنيا وما فيها».

الغدوة: الخروج في أوّل النهار.

الروحة: السير في العشي.

فثواب الغدوة في سبيل الله أو الرّوحة في سبيل الله، خيرٌ للمجاهد من الدنيا كلها وما فيها، لو سيقت إليه.

(ب) وروى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ : «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها».

الرّباط: هو حراسة الثغور حذَر هجمات الأعداء على حين غرّة. فثواب رباط يوم واحد من أعمال الجهاد في سبيل الله خير للمرابط من الدنيا وما عليها، أي لو سيقت له.

(ج) وروى البخاري ومسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ : «ما من أحدٍ يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا، وله ما في الأرض من شيء إلا الشهيد، يتمنّى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرّات لما يرَى من الكرامة».

فهو لما يرى ويشاهد بنفسه من الكرامة العظيمة التي أعدها الله للشهداء الذين جاهدوا في سبيله مخلصين، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل في سبيل الله عشر مرات.

(د) وروى مسلم عن مسروق قال: سألنا عبدالله بن مسعودٍ عن هذه الآية: ﴿ولا تَحْسَبَنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم

يرزقون﴾[1] فقال ابن مسعود: أما إنا قد سألنا عن ذلك، (أي سألنا رسول الله ﷺ) فقال:

«أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلّقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطّلع إليهم ربهم اطِّلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟. قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يُتْركوا من أن يسألوا، قالوا: يا ربّ، نُريد أن تردّ أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلمّا رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا».

وهذا يكون لهم بعد الشهادة وقبل يوم القيامة، لذلك فهم أحياء عند ربهم يرزقون.

فكم في هذا من ترغيب بالجهاد في سبيل الله والقتال حتى الاستشهاد.

(هـ) وروى مسلم عن أبي قتادة أن رسول الله ﷺ قام فيهم فذكر لهم أنّ الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال، فقام رجل فقال: يا رسول الله، أرأيت إن قتلت في سبيل الله يكفِّرُ عني خطاياي؟.

فقال له رسول الله ﷺ: «نعم، إن قتلت في سبيل الله وأنت صابرٌ محتسب، مقبل غير مدبر».

ثم قال رسول الله ﷺ: «كيف قلت؟» فقال: أرأيت إن قتلت في سبيل الله أيُكفِّر عني خطاياي؟

فقال رسول الله ﷺ: «نعم، وأنت صابر محتسب، مُقبل غير مدبر، إلاّ الدَّيْن، فإن جبريل قال لي ذلك».

مُحْتَسِبٌ: أي محتسب أجره وثوابه عند الله، غير ناظر إلى مطامع دنيوية، ومصالح مادية معجّلة لنفسه أو لذويه مما لا مرضاة لله فيه.

---

(١) الآية ١٦٩ من سورة آل عمران.

إلّا الدَّيْن: أي إنّ الله تبارك وتعالى يكفّر بالاستشهاد في سبيله كلّ الخطايا باستثناء الحقوق التي هي للعباد، فإنها ديون في أعناق من هي عليهم، لا تكفّر إلّا بإرضاء أصحاب الحقوق أنفسهم.

وهذا ترغيب عظيم ومشجع جسيم أن يرى المسلم أن الاستشهاد في سبيل الله يكفّر عنه خطاياه، ويدخله الجنة بفضل الله.

(و) وروى مسلم عن أنس قال: انطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر، وجاء المشركون، فقال رسول الله ﷺ : «قوموا إلى جنّة عرضها السماوات والأرض».

قال عُمَيْر بن الحُمام: بَخٍ بَخٍ.

فقال رسول الله ﷺ : «ما يحملك على قولك بخٍ بخٍ»؟

قال: لا والله يا رسول الله إلّا رجاء أن أكون من أهلها.

قال له رسول الله ﷺ : «فإنك من أهلها».

قال أنس: فأخرج تمراتٍ من قرنه فجعل يأكل منهنّ، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي إنّها لحياة طويلة. قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثمّ قاتل حتى قتل.

فرغبة عمير بن الحمام رضي الله عنه بما أعد الله للشهداء في سبيله في الجنة دار النعيم، قذفت في قلبه حب الموت على مقدار ما كان من قبلها يحب الحياة، ومنحته شجاعة لا يُوقف إقدامها واستبسالها إلا أن يقع صريعاً شهيداً.

وكما قذفت هذه الرغبة الشجاعة النادرة في قلوب المؤمنين المجاهدين في سبيل الله، قذفت الصبر والرضى والتسليم في قلوب أمهاتهم وزوجاتهم، وبنيهم وبناتهم وسائر ذويهم.

(ز) وروى البخاري عن أنس أنّ الرُّبَيِّعَ بنت البراء ــ وهي أم حارثة بن سُراقة ــ أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ألا تحدثني عن

حارثة ـ وكان قتل يوم بدر أصابه سهمٌ غَرْبٌ[1] ـ فإنْ كان في الجنة صبرت، وإن كان غيرذلك اجتهدت عليه في البكاء، فقال لها الرسول ﷺ: «يا أم حارثة، إنّها جِنانٌ في الجنة، وإنّ ابنك أصاب الفردوس الأعلى».

فما أعجب أثر الإيمان وأثر الترغيب بما أعدّ الله للمجاهدين في سبيله من أجر.

(ح) وروى مسلم أن أبا موسى الأشعري حدّث فقال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أبواب الجنة تحت ظلال السيوف» فقام رجلُ رثّ الهيئة فقال: يا أبا موسى أنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا؟. قال أبو موسى: نعم. فرجع الرجل إلى أصحابه فقال: أقرأ عليكم السلام، ثمّ كسر جفن سيفه فألقاه، ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قتل.

جفن السيف: غلافه.

(ط) وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري أنّ رسول الله ﷺ قال: «من رضي بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً وجبت له الجنة»، فعجب لها أبو سعيد فقال: أعدها عليّ يا رسول الله، فأعادها عليه، ثم قال: «وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة في الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض».

قال أبو سعيد: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله».

وسبب هذا الأجر العظيم للمجاهد في سبيل الله أن الجهاد وسيلة إلى نشر دين الله، وإقامة العدل في الأرض، ومقاومة الظلم والظالمين، وبناء الحضارة الإسلامية المجيدة، وردّ المعتدين وطرد الغاصبين، ولأن المجاهد في سبيل الله يبذل أغلى شيء لديه وهو حياته، فإذا أضاف إلى ذلك بذل ماله فقد جمع الحسنيين.

---

(١) السهم الْغَرْب: هو السهم الذي لا يعرف راميه.

ولذلك كان الجهاد في سبيل الله أفضل بكثير من العبادات الخاصة التي يملأ العابد بها أوقاته معتزلاً بعبادته عن الناس.

(ي) وروى الترمذي بإسناد حسن عن أبي هريرة قال: مرّ رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشعبٍ فيه عُيَيْنَةٌ[1] من ماءٍ عذبة، فأعجبته فقال: لو اعتزلتُ الناس فأقمت في هذا الشعب، فذُكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «لا تفعل، فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته سبعين عاماً، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة، اغزوا في سبيل الله، من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة».

فواق الناقة: هو مقدار ما بين الحلبتين من زمن، وذلك لأنّ الناقة تحلب ثم تترك مدّة غير طويلة ليجتمع اللبن ثم تحلب.

(ك) وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في سرّية، فمرّ رجل بغار فيه شيءٌ من ماءٍ وبقل، فحدّث نفسه بأن يقيم فيه ويتخلّى من الدّنيا، فاستأذن رسول الله ﷺ في ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «إنّي لم أبعثْ باليهودية ولا بالنصرانية، ولكنّي بعثت بالحنيفية السمحة، والذي نفس محمد بيده، لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، ولمقام أحدكم في الصفّ خير من صلاته ستين سنة».

ولمقام أحدكم في الصف: أي في صف القتال في سبيل الله.

(ل) وروى أبو داود عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «إنّه لـمّا أصيب إخوانكم يوم أحد، جعل الله أرواحهم في جوف طَيْر خضر، ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلّقةٍ في ظل العرش، فلـمّا وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقبلهم قالوا: من يبلّغ إخواننا عنّا أننا أحياءٌ في الجنة، لئلا يزهدوا في الجنة ولا ينكلوا عند الحرب؟ فقال الله تعالى: «أنا أبلغهم عنكم»، فأنزل الله تعالى: ﴿ولا تحسبَنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون﴾ (آل عمران ١٦٩).

---

(١) عيينة: أي عين ماء صغيرة.

فحياة الشهداء لها صفات وظروف أخرى غير صفات حياتنا الدنيوية وظروفها، ولا علاقة لها بالأجساد الدنيوية، كما دلّ عليها هذا الحديث، والحديث الذي سبق الاستشهاد به، وهو ما رواه مسلم عن مسروق.

(م) وروى الدارمي بإسناد صحيح عن عتبة بن عبدٍ السلّمي قال: قال رسول الله ﷺ: «القتلى ثلاثة: مؤمن جاهد بنفسه وماله في سبيل الله، فإذا لقي العدوّ قاتل حتى يقتل».

قال النبي ﷺ فيه: «فذلك الشهيد الممتَحَن، في خيمة الله تحت عرشه، لا يفضله النبيّون إلا بدرجة النبوّة».

«ومؤمن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، جاهد بنفسه وماله في سبيل الله، إذا لقي العدو قاتل حتى يقتل».

قال النبي ﷺ فيه: «مُمَصْمِصةٌ محت ذنوبه وخطاياه، إنّ السيف محّاءٌ للخطايا، وأدخل من أيّ أبواب الجنة شاء».

«ومنافق جاهد بنفسه وماله، فإذا لقي العدو قاتل حتى يقتل، فذاك في النار، إنّ السيف لا يمحو النفاق».

فذلك الشهيد الممتحن: أي فذلك هو الشهيد الذي نال الدرجة الأولى في الامتحان. وهذا الصنف له صفتان مميّزتان له:

الأولى: هي الإيمان الصادق الخالص عقيدة وعملاً.

الثانية: هي الجهاد بالنفس والمال في سبيل الله حتى الشهادة.

مُمصمصة محت ذنوبه وخطاياه: أي شهادته في سبيل الله مطهّرة له من دنس الخطايا والذنوب، يقال لغة: مصمص الرجل إناءه إذا غسله بالماء ونظفه. فالشهادة في سبيل الله تغسل ذنوب هذا المجاهد الذي كان قد خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً. وخصائص هذا الصنف الثاني هي أنه مسلم عاصٍ خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، إلّا أنه جاهد في سبيل الله بصدقٍ وإخلاصٍ حتى

استشهد، فتكفّر له الشهادة ما سلف من معاصيه، ما عدا حقوق الناس فهي مستثناة كما سبق النصّ عليه في الصحيح من أقوال الرسول ﷺ.

أمّا الصنف الثالث: فهو المجاهد المنافق، وهذا الصنف لم يجاهد في سبيل الله، وإنما اضطره نفاقه أن يشارك المسلمين في قتالهم لعدوهم، حتى لا ينكشف أمره، أو حتى يظفر بحصته من الغنيمة، ولذلك لم يأت في وصف هذا الصنف أنّ جهاده كان في سبيل الله.

أمثلة في الشجاعة الإيمانية:

المثال الأول:

روى البخاري ومسلم عن جابر بن عبدالله قال: قال رجل للنبي ﷺ يوم أحد: أرأيت إنْ قتلتُ فأين أنا؟. قال رسول الله ﷺ: «في الجنة» فألقى تمرات كنّ في يده، ثمّ قاتل حتى قتل.

يتبينّ لنا من قصة هذا الحديث، أنّ الإيمان بما بعد الموت كما جاء في العقيدة الإسلامية يشحن قلوب المؤمنين بشجاعة نادرة، تدفع بالمؤمن إلى ساحة الموت بانطلاق عجيب ينقطع فيه عن الدنيا وما فيها، تعلقاً بالنعيم المقيم الذي يناديه من الآخرة، وشوقاً إلى ما في الجنة من كرامةٍ ورضوان من الله.

ولذلك لـمّـا سأل هذا الصحابي عن مكانه بعد الموت إذا هو قتل في سبيل الله، وأخبره الرسول ﷺ بأنّ مكانه في الجنة، توقدت في قلبه نيران الشوق إلى لقاء ربّه، فلم يصبر مدة يسيرة يأكل فيها تمرات معدودات كانت في يده مع ما يشعر به من جوع، بل ألقى بها واندفع بشجاعة نادرة يبتغي الشهادة في سبيل الله، وما زال يقاتل قتال المستميت حتى قتل رضي الله عنه وأرضاه.

ومن هذا نستدل على أنّ من أساليب تربية قلوب المؤمنين على خلق الشجاعة أسلوب غرس اليقين بما أعدّه الله من كرامة ونعيم مقيم في الجنة، للّذين يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون، وذلك لما في هذا الأسلوب من تحويل مطامع الأنفس إلى ما هو أجلّ من الدنيا وما فيها، وعندئذٍ يغدو الحرص

على الدنيا في مرتبة منخفضة جداً بالنسبة إلى الحرص على الآخرة وما فيها من أجر عظيم وثواب جزيل.

وهذا التحويل النفسي عن طريق الإيمان بما هو أعظم من كل ما تتعلّق به الأنفس من الدنيا، ينبغي أن يكون في المرتبة الأولى من الإصلاح التربوي، سواء أكان ذلك في ميدان الأخلاق أو في الميادين التربوية الأخرى.

ولذلك عمل الإسلام على غرس الإيمان أوّلاً، ثمّ انتقل إلى بيان التعاليم الإسلامية الأخرى والتربية عليها، ومنها الفضائل الأخلاقية.

المثال الثاني:

وروى البخاري ومسلم عن أنس قال: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله، غبت عن أوّل قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليُرِيَنَّ الله ما أصنع، فلمّا كان يوم أحد انكشف المسلمون فقال: اللهم أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ــ يعني أصحابه الذين تركوا مواقعهم في أحد ــ وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء ــ يعني المشركين ــ .

ثمّ تقدّم فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا سعدُ بن معاذ، الجنّة وربّ النضر، إني أجد ريحها من دون أحد، فقال سعد: فما استطعتُ يا رسول الله ما صنع.

قال أنس: فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل ومثّل به المشركون، فما عرفه أحد إلّا أخته ببنانه.

قال أنس: كنّا نرى أو نظنّ أنّ هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه:

﴿من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قَضَى نَحْبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً (٢٣)﴾[1].

---

(١) سورة الأحزاب (٣٣).

في هذا الحديث قصة من قصص بطولات أصحاب الرسول ﷺ ، إنّ أنس بن النضر رضي الله عنه أثبت في أحد أنّه يتحلى بخلقين عظيمين من أخلاق الإيمان:

الأول: شجاعته النادرة حتى الشهادة، مع الصبر على آلام القرح، والاستهانة بالحياة الدنيا، طلباً لرضوان الله والجنة.

الثاني: وفاؤه التامّ بما عاهد الله عليه، إذ قال: لَيُرِيَنّ الله ما أصنع. فوفّى، فقاتل قتالاً شديداً صادقاً، وضحّى تضحيات لم يبذل مثلها عظماء الأبطال.

وكان ما قدّمه رضوان الله عليه مظهراً من مظاهر إيمانه القوي الذي ملأ أبعاد فكره وقلبه ونفسه.

ليريَنّ الله ما أصنع: رويت بوجهين: الأول بضم الياء وكسر الراء، والثاني بفتح الياء والراء. والمعنى على الوجه الأول: ليُظهرنّ الله للناس ما أصنع من جهاد صادق في سبيله، والمعنى على الوجه الثاني: أن الله تعالى سيرى ما يصنع. وقد أقسم رضوان الله عليه على عهده هذا، فاللام واقعة في جواب قسم محذوف.

وقد صدق أنس بن النضر ما عاهد الله عليه، ووفّى به أحسن الوفاء، رغم أن الأمر يتعلق بالجود بالنفس.

قوله: «اللهم أعتذر إليك مما صنع هؤلاء» يعني به أصحابه الذين أغراهم الطمع بالغنائم فتركوا مواقعهم، وخالفوا أمر الرسول ﷺ ، فكان عملهم سبباً في تحوّل رياح النصر عن المسلمين إلى المشركين.

فمنهم من قضى نحبه: يطلق النحب في اللغة على النذر، وعلى الموت، وعلى الحاجة، وعلى الأجل والمدّة، وكل هذه المعاني صالحة لأن تُفهم من الآية، والأول منها أقرب لسياق معنى الآية ولمناسبتها بوجه عام. والله أعلم.

المثال الثالث:

روى مسلم عن أنس، أنّ رسول الله ﷺ أخذ سيفاً يوم أحد فقال:

«من يأخذ هذا مني؟».

فبسطوا أيديهم كل إنسان يقول: أنا أنا.

فقال: «فمن يأخذه بحقّه؟».

فأحجم القوم، فقال أبو دجانة (سِمَاكُ بن خَرَشة رضي الله عنه): أنا آخذه بحقه، فأخذه ففلق به هام المشركين.

يلاحظ أنّ عرض الرسول ﷺ السيف على أصحابه بالشكل الذي عرضه في يوم معركةٍ ذات شأن، يتضمّن إثارة روح المنافسة الكريمة بينهم، لغرس خلق علوّ الهمة في نفوسهم، والتحمّس لطلب المعالي، واكتشاف الشجعان الأبطال فيهم.

لقد امتحنهم في طريقة العرض التي استخدمها مرّتين:

الأولى: امتحنهم بها في مجال الطمع بالحصول على تكريم خاصّ منه صلوات الله عليه وسلامه، فاستشرفت نفوسهم جميعاً لذلك، وانطلق كلّ واحد منهم يقول: أنا أنا. إذ كان عرضاً لعطاء خالٍ من مسؤولية مرافقة له، فرغب كل واحدٍ منهم في أن يكون هو الظافر به.

الثانية: كان العرض فيها مقترناً بالمسؤولية المقصودة من العطاء، عندئذ عرف الصحابة أنّ من يأخذ السيف لا بدّ أن يعطي مع أخذه له وعداً أو عهداً يلتزم بتنفيذه تجاه الله والرسول، وذلك بأن يبلي فيه بلاءً حسناً في القتال.

وهذا ما جعلهم يحجمون، ويفكّرون بالأمر الذي سيعطون عليه العهد، إذا هم وافقوا على أخذ السيف من الرسول بحقّه.

وهنا نجد أنّ واحداً منهم قد وزن نفسه وزناً صحيحاً، وأحسّ من نفسه أنّه على استعداد لأن يفي بعهده ووعده، ويقاتل أعداء الله بسيف

رسول الله ﷺ قتال المستميت، حتى ينكسر السيف أو يستشهد. فقال أبو دجانة: أنا آخذه بحقه، فأعطاه الرسول السيف، فأخذه فوفّى بحقه تماماً، فقاتل به وأبلى بلاءً حسناً، وأثبت أنه وفيٌّ بوعده، شجاع مقدام، وضرب في الجهاد في سبيل الله مثلاً رائعاً دلّ على شجاعته وبسالته وصدقه، كما تذكر كتب السيرة النبوية.

ولا نشك في أنّ عدداً وفيراً من أصحاب رسول الله ﷺ في هذه المعركة قد كان قادراً على أن يأخذ سيف رسول الله بحقه، ولكن مسؤولية الوعد والعهد كانت مسؤولية كبيرة في نفوسهم، جعلتهم يتريثون حتى يزنوا أنفسهم وزناً صحيحاً، وهذا يدلّ على أنهم كانوا يتحلّون بأخلاق عظيمة تجعلهم لا يعطون الوعد حتى يكونوا عازمين على الوفاء به، وحتى يأنسوا من أنفسهم القدرة على ذلك، وهذا من أثر التربية الإسلامية التي ربّاهم عليها رسول الله ﷺ، وغرستها في قرارة نفوسهم تعاليم القرآن الكريم.

الجـــبن:

الجبن: ضدّ الشجاعة التي سبق بيانها، والذي يكشف صفة الجبن في الإنسان هو وجوده في مواقف الخوف الحقيقي أو الوهمي، فالخوف هو الكاشف لصفة الجبن، وقد لا يكون مقدار الخوف كافياً لإثارة الجبن، إلاّ أنّ الجبان هو من يكون جبنه أكثر ممّا يتطلبه الموقف المخيف، فالجبان يخاف أكثر ممّا ينبغي فيجبُن، ويتمثّل الجبن بعدم الإقدام في المواقف التي تتطلب الإقدام، أو بعدم ثبوت الأقدام في المواقف التي يجمل فيها ثبوت الأقدام، أو بالفرار من الساحة.

وليس كلّ من يخاف من المواقف جباناً، ولكنّ الجبان هو من يزيد خوفه عن حاجة الموقف عند الشجعان الأسوياء، حتى يمنعه عن الإقدام والاستبسال، أو هو من يخاف فيجبن في المواقف التي يجمل فيها ويحسن الإقدام وعدم الخوف.

ومن الجبن أن لا يصبر الإنسان على مواجهة المواقف المخيفة، أو مقارعتها، أو تحمل آلامها، لذلك يجد سبيله إلى الفرار إن استطاع إليه سبيلاً، أو تنقطع عزائمه، وتنهار قوته، فلا تثبت أقدامه، وعند ذلك يستسلم

استسلام الشاة لجزارها أو لمفترسها، جبناً واستخذاءً وعجزاً عن تقديم أية قوة من قوى المعارضة.

وقد وصف الله اليهود بأنهم أحرص الناس على حياة، إشعاراً بأنهم جبناء في مواقف القتال، فقال تعالى في وصفهم في سورة (البقرة ٢):

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

ومعلوم أنّ الحرص على الحياة يورث الجبن في القلوب، ولكن المؤمن يعلم أن الله تعالى هو وحده الذي بيده الموت والحياة، وأن لكل إنسان أجلاً لا ينقص ناقص منه ولا يزيد زائد فيه، لذلك فهو أكثر ضبطاً لنفسه عند مواقف الخوف من الموت، ثقة بأنه لن يصيبه إلاّ ما كتب الله له.

ووصف الله اليهود أيضاً بقوله في سورة (الحشر ٥٩):

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

فمن ظواهر جبنهم أنهم لا يقاتلون المسلمين مجتمعين إلاّ إذا كانوا في قرى محصنة، أو كانوا وراء جُدُر.

ووصف الله المنافقين بأنهم فرّارون من المعارك، إشعاراً بأنهم جبناء، فقال تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾.

ولكن الفرار لا ينفعهم إذا قضى الله عليهم بالموت أو بالقتـل، فإنّ ما يفرّون منه آتيهم في آجالهم المقدّرة لهم، وهذا ما أبانه الله بعد ذلك بقوله في السورة نفسها:

﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾.

□ □ □

الباب الخامس

نصوص مشروحة

تشتمل على جوانب أخلاقية

ـ ١ ـ
في أنـــواع الـــبرّ

قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾.

البرّ في استعمال الشرع كلمة جامعة لكل أصناف الخير، ويراد منه ما زاد على حدود التقوى، فهو مرتبة فوق مرتبة التقوى ودون مرتبة الإحسان.

وفي قول الله تعالى في الآية: ﴿ليس البر أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾ تصحيح لفهم خاطىء كان مهيمناً على أفكار المخاطبين. وذلك أنّه لما أنزل الله تحويل قبلة المسلمين في الصلاة من بيت المقدس إلى الكعبة بيت الله الحرام، أخذ السفهاء من الناس وفي مقدّمتهم يهود المدينة، يلغطون ويشوّشون، ويقولون: ما ولّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ ويقولون للمسلمين: إما أنكم كنتم على خطأ فصلاتكم الأولى إلى بيت المقدس باطلة، وإمّا أنكم الآن على خطأ فصلاتكم إلى الكعبة باطلة، فأنزل الله تبارك وتعالى تصحيح أصل المفهوم في موضوع الاتجاه في الصلاة، وبين للمسلمين أن تحديد

الجهة التي يجب على المصلّي أن يتوجّه لها لا يعدو أن يكون شكليّة اقتضتها حكمة توجيه المسلمين جميعاً شطر جهة واحدة، وليس الاتجاه عبادة للجهة، فالمضمون الحقيقي هو عبادة الله، والجهات كلّها مشارقها ومغاربها لله، فليس البرّ الحقيقي هو أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، وفي هذا تحرير لمفاهيم المسلمين من التعلّق الفكري والقلبي بالأشكال والرسوم، وإن التزموا بها طاعة لله، ووصلهم بالمضامين الجوهرية التي هي البرّ حقيقة.

ثمّ بيّن الله بعض وجوه البرّ التي هي حقائق جوهرية ذات ثمرات وأهداف عظيمة، ووجوهاً هي من مرتبة التقوى باعتبار أنّ مرتبة التقوى شرط أساسيّ لتحقق مرتبة البرّ، فذكر الله عزّ وجلّ عدّة أنواع:

النوع الأول: الإيمان الصحيح الكامل بالحقائق الفكرّية الكبرى التي هي الأسس الأولى لتقويم السلوك. وقد أثبتت الآية أهم أركان هذا النوع، بقول الله تعالى فيها: ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين﴾.

أي إنّ البرّ هو برّ من آمن هذا الإيمان، وهذا الإيمان هو من مرتبة التقوى.

النوع الثاني: إيتاء ذوي الحاجات من أفراد المجتمع من عطاء زائد على الواجب، وهذا النوع يبرز صورة مهمة من صور مكارم الأخلاق في الفرد المسلم، إذ يعبّر عن مدى رحمته بمن يستحقون الرحمة من عباد الله، ومدى تعاونه الجماعي وتدعيمه لوحدة المجتمع المسلم المتعاون المتماسك القوي.

وقد أثبتت الآية أهمّ أمثلة هذا النوع بقول الله تعالى: ﴿وآتى المال على حبّه ذوي القربـى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب﴾وهذا من مرتبة البرّ.

النوع الثالث: العبادة الخالصة لله تعالى، وقد أثبتت الآية أهم أركانها، ممّا كان قد نزل التكليف به، فقال تعالى: ﴿وأقام الصلاة﴾. وهذا من مرتبة التقوى.

النوع الرابع: الزكاة، وهذا من مرتبة التقوى.

النوع الخامس: فضائل الأخلاق التي هي من مرتبة التقوى، وقد أثبتت الآية عنصراً مهماً منها، فقال تعالى: ﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾.

النوع السادس: فضائل الأخلاق التي هي من مرتبة البرّ، وقد أثبتت الآية عنصراً مهمّاً منها، وهو الصبر، فقال تعالى: ﴿والصابرين في البأساء والضرّاء وحين البأس﴾.

(أ) البأساء: وهو الجوع، طوعاً في الصوم، أو كرهاً في المجاعة.

(ب) الضرّاء: وهي المصائب في الأموال والأنفس.

(ج) البأس: وهو القتال الشديد.

وكل هذه الأمور تحتاج إلى فضيلة خلق الصبر. ثمّ ختم الله الآية بقوله: ﴿أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾.

ـ ٢ ـ
من شعب الإيمان

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «الإيمان بضع وسبعون شعبة أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلاّ الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان».

بضع وسبعون أو بضع وستون: شكٌّ من الراوي. والبضع في العدد من الثلاثة إلى التسعة.

والمراد من شعب الإيمان مظاهره في السلوك لا أركانه، لذلك أبان الرسول أنّ أعلاها وأفضلها قول: لا إله إلاّ الله. وأنّ أدناها إماطة الأذى عن الطريق، وأنّ الحياء شعبة من الإيمان، والحياء ظاهرة في السلوك النفسي نابعة من قاعدة الإيمان.

وحين يكون الإيمان صحيحاً صادقاً فلا بدّ أن تكون له آثار ومظاهر في

السلوك على مقدار قوته ورسوخه وهيمنته على الفكر والنفس، وهذه الآثار والمظاهر بمثابة فروع مشهودة في السلوك الإنساني لشجرة الإيمان المتغلغلة جذورها في القلب والنفس وقرارة الرّوح.

ونستفيد من هذا أنّ الأعمال الإسلامية، إنما تكون إسلامية حقاً إذا كانت مظاهر للإيمان المتغلغل في القلب، وإذا كان الإيمان بالله هو الدافع إليها، وإلا كانت غير ذات جذور أصيلة في كيان الإنسان.

ـ ٣ ـ
في أبرز خصائص المسلم والمهاجر

روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه».

في هذا الحديث تنبيه على أبرز خصائص المسلم، وأبرز خصائص المهاجر، فمن لم يتحقق بهذه الخصائص لم يكن من أهل هذا الاسم حقاً.

فالمسلم المتحقق بإسلامه هو من يسلم المسلمون من شرّ لسانه وشرّ يده.

والمهاجر إلى الله المتحقق بمعنى الهجرة في سبيل الله وابتغاء مرضاته هو من يهجر حقاً ما نهى الله عنه.

وبتحليل الموضوع إلى عناصره يتبين لنا هذا واضحاً، وذلك لأننا إذا تبصرنا في تعاليم الإسلام، وجدنا أعظم غاياتها بعد الإيمان بالله وعبادته وحده تتكثّف حول مصلحة الجماعة وسعادتها ورفاهها ونظام حياتها، وهل يتحقق هذا والجماعة عرضة لعدوان الأفراد وظلمهم لها باليد أو باللسان؟ وهل يكون إسلام الفرد صحيحاً سليماً مستوفياً عناصره وهو يخالف تعاليم إسلامه في أهم العناصر وأبرزها، والتي أولاها الله عزّ وجلّ عناية كبيرة في التوجيه والأحكام الشرعية وترتيب الجزاء؟.

ولو فرضنا أن إنساناً ما هو قائم بفروض العبادات المحضة، إلّا أنه يؤذي

المسلمين بلسانه، فيستغيب هذا، ويشتم هذا، ويسعى بالنميمة ليفرّق بين الإخوان في الله، ويؤذي المسلمين بيده، فيضرب ويقتل ويسرق ويرمي الأذى في طرقاتهم أو على بيوتهم، ويقذّر مساجدهم ومواطن عبادتهم، فإن عبادته لربّه وقيامه بفروضه سيذهبان هدراً، يسدّد منها حقوق من ظلمهم، حتى إذا ظهر إفلاسه طرح عليه من سيئات من آذاهم وظلمهم.

وإذا تبصّرناه في الغاية الأساسية من الهجرة المادّية التي تكون من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، وجدنا أن الغاية الأساسية منها أن يهجر المسلم المهاجر ما نهى الله عنه، فالهجرة المادّية من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام تساعد على تحقيق هذه الغاية للمهاجر ولأهله وأولاده وسائر أسرته، إذ تحميهم من الفتنة في دينهم عقيدة وسلوكاً، وتضعهم في البيئة الإسلامية الصالحة التي تساعدهم وتنشطهم للقيام بالأعمال الإسلامية التي تطلب منهم، كما أنه بالهجرة إلى بلد الإسلام يشدّ أزر المسلمين ويقوي شوكتهم ويعزّز قوتهم الدفاعية أو الاقتصادية أو العلمية أو غير ذلك.

والهجرة المادية وحدها هجرة جسدية، لا تتضمن غير مفارقة الوطن والتنازل عن بعض المصالح الدنيوية، وقد تلتبس بقصد منافع ومصالح دنيوية أخرى، كما جاء في حديث: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

أما الهجرة الحقيقية المعنوية فهي هجرة قلبية ونفسية وعملية من مواقع الكفر والعصيان إلى مواقع الإسلام والطاعة، وهذه هي الجديرة بأن تكون هي الهجرة الكبرى، لأنها تتضمن مفارقة كل ما فيه معصية لله تعالى ممّا تتعلّق به الأهواء والشهوات ومحابّ الأنفس، وتتضمن التنازل عن كل ما يراه الإنسان لنفسه مصلحة ويراه الشارع له إثماً، وهذه الهجرة المعنوية القلبية والنفسية والسلوكية لا تلتبس بقصد منافع ومصالح دنيوية تأتي من غير طريق الله، فالنية السامية مقترنة بها غالباً.

وكم يهاجر مهاجر من بلد الكفر إلى بلد الإسلام ولكنه مع ذلك لا يهاجر من مواقع المعاصي والآثام، إلى مواقع الطاعة وحسن الانقياد والاستسلام.

وهكذا أخذ الرسول ﷺ بيد المسلم ليبصره بالموقع الحقيقي الذي يكون فيه معلن الإسلام مسلماً حقاً، مأمون الجانب من قبل المسلمين، لا ينال المسلمين منه أذى لا من لسانه ولا من يده، وهذا في أدنى حدود ارتباط الفرد بالجماعة الإسلامية، ويأتي فوق هذا ما على المسلم أن يبذله من لسانه ويده وماله ونفسه من أنواع عطاء ينفع بها جماعة المسلمين وأفرادهم.

وكذلك أخذ الرسول ﷺ بيد المهاجر ليبصّره بالموقع الحقيقي الذي يحتله المهاجر الحقّ، وهو الموقع الذي يهجر فيه المسلم جميع ما نهى الله عنه، وهذا في أدنى حدود تحقق المسلم بالطاعة لله تعالى، ثم يأتي من فوق ذلك ما على المسلم أن يفعله من خيرات ومبرات وعبادات يرتقي بها في معراج القرب من الله، والهجرة عن الأرضيات أياً كان شأنها، وهذه هي الهجرة العظمى ذات العروج والصعود إلى الله العلي المتعال، ومن ليس عنده هجرة من هذا النوع فهو من الذين أخلدوا إلى الأرض، ورضوا بالحياة الدنيا عن الآخرة.

— ٤ —

في جملة من الفضائل: في الصدقة والصبر والتعفف عن المسألة، وسنن الله فيها وفي أن صدق النية مع عدم القدرة على العمل كالعمل

روى الترمذي بإسناد صحيح عن أبي كبشة عُمر بن سعد الأنماري، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

«ثلاثة أقسم عليهنّ، وأحدّثكم حديثاً فاحفظوه: ما نقص مال من صدقة. ولا ظُلم عبد مظلمة صبر عليها إلاّ زاده الله عزّاً، ولا فتح عبد باب مسألة إلاّ فتح الله عليه باب فقر (أو كلمة نحوها).

وأحدثكم حديثاً فاحفظوه (قال): إنما الدنيا لأربعة نفر:

* عبد رزقه الله مالاً وعلماً، فهو يتقي فيه ربّه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقاً، فهذا بأفضل المنازل.

* وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النية يقول: لو أنّ لي مالاً لعملت بعمل فلان، فهو نيّته، فأجرهما سواء.

* وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً، فهو يخبط في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربّه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقاً، فهذا بأخبث المنازل.

* وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً، فهو يقول: لو أنّ لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان، فهو نيّته، فوزرهما سواء».

في هذا الحديث بيان لثلاث قواعد هي من سنن الله في عباده، وبيان لأقسام الناس الأربعة في تصرفهم في حالتي سعة الرزق، وقلة ذات اليد.

السنة الأولى: ما نقص مال من صدقة. إنها سنة ربانية أقسم عليها الرسول ﷺ تأكيداً لكونها من الحقائق الثابتة.

أي إن الصدقة مضمونة الإخلاف من الله تعالى، مع المضاعفة، وكل ما هو مضمون العوض من مليء قادر على الوفاء صادق الوعد فهو باقٍ لم يذهب منه شيء، فإذا لاحظنا نماءه عند الضامن المليء كان من قبيل التجارة الرابحة، وما أحدٌ يتصور أنّ ما يبذله من ماله في تجارة رابحة، أو في قرض سيؤدى حتماً قد نقص من ماله شيئاً، وإنما يفهم أنه قد نقله من صندوقه إلى صندوق أمين.

وحين يلاحظ المؤمن أنه يتعامل مع الله في قرضه وفي تجارته الرابحة، يكون على يقين بأن ماله الذي دفعه في الصدقة قد وضعه في يد أمين أعظم منه حراسة وصوناً وحفظاً، وأعلم منه بالتنمية والتثمير والتربية.

وقد دلت النصوص القرآنية على أن من يبذل الصدقة مخلصاً لله تعالى فإنما يقرض الله قرضاً حسناً يضاعفه الله له.

وجاء في الحديث أن الصدقة تقع في يمين الرحمن، فيربيها الله له وينميها.

وهل من التعويض المضمون نقصان؟!

يضاف إلى ذلك أن الصدقة الواجبة في المال هي في الحقيقة مال أصحاب الحقوق، ويد صاحب المال عليها يد مستودع أمانة ليست له، ويجب عليه أن يؤديها إلى أهلها، فإذا أدّاها لم ينقص ماله الذي هو له شيئاً، وإنما أدى الوديعة، والوديعة هي لأصحابها، على أنّ الله تعالى يخلف على باذل الصدقة الواجبة، إذا لم يخن الأمانة التي استأمنه الله عليها حين يسر له سبيل الرزق.

السنّة الثانية: ما ظُلم عبد مظلمة صبر عليها إلاّ زاده الله عزّاً.

وتتضمّن هذه السنة الربانية أنّه ما من عبد تدفعه مكارم أخلاقه وابتغاء مرضاة الله أن يصبر على مظلمة يُظلمها، وكان الظالم له يتصوّر أنه قد استطاع الاستطالة عليه بسبب أنّه أضعف منه قوةً أو حيلة، إلاّ كانت عاقبة الأمر أن يمدّ الله المظلوم بقوّة من عنده، فيزداد عزّاً، بعد أن كان أضعف من ظالمه، ويعوّض الله له ما خسره من عزّته بتسلط الظالم عليه. ثم ترتفع مكانته في نفوس الناس، حتى يكون عزيزاً بأخلاقه، كريماً عندهم بفضائله، محبوباً لديهم، منظوراً إليه بعيون العطف والتأييد، وعندئذ تأتيه منهم النصرة ولو كانوا من قبل لا يعرفونه، وبذلك يزيده الله عزّاً أيضاً.

السنة الثالثة: ما فتح عبدٌ باب مسألة إلاّ فتح الله عليه باب فقر.

وفي هذه السنة الربّانية تحذير من هوان النفوس، وتعريض الإنسان نفسه لذلّ سؤال الناس كي يمنحوه من عطاءاتهم، وهذا التحذير يتمثل بأن يعاقب المسيء في ذلك بحرمانه من الشيء الذي أساء بغية الوصول إليه. إنه اتخذ سؤال الناس ليصل إلى الغنى، لذلك كانت سنة الله تقضي بمعاقبته بأن يجعل الله الفقر بين عينيه، فكلما فتح باباً من أبواب المسألة فتح الله عليه باباً من أبواب الفقر، فتظلّ مشاعر الفقر وآلامه تلاحق نفسه، ولو كان بين يديه من المال ما يكفيه.

وهذا هو ما نلاحظه في المتسوّلين الذين يتكفّفون الناس، إنّ أحدهم قد يجمع بالمسألة مالاً كثيراً، وهو مع ذلك مصاب بداء الفقر النفسي، ومعظمهم

لا ينتفع بما يجمع من مال، ويظل يكنزه ويبخل به على نفسه، حتى يصل إلى رمسه وهو في ثياب الفقراء، وطعام الفقراء، ومأوى الفقراء، يعاني من داء طلب الغنى والخلاص من الفقر.

هذه هي السنن الربانية الثلاث التي أقسم الرسول ﷺ عليهنّ في الحديث الذي نتدبره.

أمّا أقسام الناس الأربعة بالنسبة إلى تصرفهم في حالتي سعة الرزق وقلّة ذات اليد، بحسب بيان الرسول ﷺ، فقد أبان الرسول أنّ الناس بالنسبة إلى حيازة المال وعدمه قسمان: ذو مال، وغير ذي مال، وبالنسبة إلى العقل والحكمة في التصرف بالمال وإرادة الخير فيه قسمان أيضاً: عاقل حكيم يريد الخير ويعمل به، وجاهل أرعن لا يريد الخير ولا يعمل به، وبنتيجة ضرب هذين القسمين بالقسمين السابقين تكون الأقسام أربعة.

فقال الرسول ﷺ: «إنما الدنيا لأربعة نفر» أي لأربعة أقسام، وهذا التقسيم في الحقيقة هو تقسيم للناس.

فالقسم الأول: قسم رزقه الله مالاً وعلماً، فهو يتقي فيه ربّه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقاً، فهذا بأفضل المنازل.

فهذا القسم من الناس قسم قد جمع المال والعلم، وليس المراد من العلم مجرد المعرفة، وإنما المراد منه المعرفة المقرونة بالحكمة في التصرف، والحكمة سلوك عاقل مستند إلى علم بما هو خير وأفضل، والذي يوضح هذه الحقيقة الترتيب السلوكي الذي جعله الرسول ﷺ ثمرة من ثمرات العلم، وهو في الحقيقة ثمرة من ثمرات العلم النافع، وهو العلم المقرون بالحكمة في التصرف، إذ قال الرسول ﷺ: «عبد رزقه الله مالا وعلماً، فهو يتقي فيه ربه، ويصل رحمه، ويعلم لله فيه حقاً، فهذا بأفضل المنازل».

فأطلق الرسول العلم وأراد العلم والحكمة، إذ العلم الذي لا يكون من ثمرته الحكمة في التصرف ليس بعلم في الحقيقة، وإنما هو مجرد إدراك ذهني.

وتقوى الله في المال تكون بكسبه ممّا أحل الله وأذن، وإنفاقه فيما أحل الله وأذن، وتأدية حقّ الله منه.

ثمّ هو لا يقتصر على جانب التقوى فقط، بل يزيد نافلة هي من البرّ، ومن أفضل ذلك صلة الرحم، ببذل المال إليهم، وإكرامهم به، والتوسعة عليهم منه.

وهذا هو القسم الأول وهو بأفضل المنازل بالنسبة إلى سائر الأقسام التي ذكرها الرسول ﷺ.

القسم الثاني: عبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النية يقول: لو أنّ لي مالاً لعملت بعمل فلان، فهو نيته فأجرهما سواء.

فهذا قسم من الناس لديه علم وحكمة، ولكن ليس لديه مالٌ يعمل فيه بعمل القسم الأول من الناس، إلّا أنه صادق النية في أنه لو كان لديه مال لاتقى فيه ربه، ووصل به رحمه، وأدى منه حقّ الله.

فشأن هذا القسم لدى المحاسبة والجزاء شأن نيته، فهو يثاب على نيته كثواب القسم الأول، إذ كان صادق النية، عالماً حكيماً، يقول: لو كان لي مال لعملت فيه بعمل ذلك العالم الحكيم ذي المال.

فأبان الرسول ﷺ في هذا أن النية الصالحة الصادقة التي لم يمنعها عن التنفيذ إلا مانع خارج عن إرادة الإنسان كافيةٌ وحدها للظفر بالأجر كله دون نقصان، فلا يتوقف الظفر بالأجر على تنفيذ النية بالعمل حينئذ.

أما إذا كان المانع من التنفيذ شيئاً داخلاً في إرادة الإنسان فالأمر يختلف، ويتبع الحساب والجزاء عندئذ واقع حال ما في النفس من ذلك.

القسم الثالث: عبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً، فهو يخبط في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقاً، فهذا بأخبث المنازل.

هذا قسم له مال، ولكن ليس لديه علم ولا حكمة في التصرف بماله، ولـمّـا كان هذا القسم محروماً من العلم والحكمة في التصرف وقد وجد سلطان المال بين يديه، فلا بدّ أن يخبط في ماله خبطاً جاهلاً، متبعاً أهواء نفسه جمعاً وإنفاقاً، فيجمعه بغير تقوى الله، من أي طريق يصادفها، حلالاً أو حراماً، وينفقه في غير تقوى الله، إسرافاً وتبذيراً، تلبية لأهواء نفسه وشهواتها، ويبدّده بمعصية الله، ويمسكه عن وجوه الخير، ويمنع حقّ الله فيه، أو يبخل به على نفسه وغيره، فيكنزه ويكاثره، ثم يموت عنه ويتركه، ويجازى عليه عند ربه، ويأتي الوارث من بعده فيستولي عليه، ويكون من حظّه، وقد كدّ في جمعه له مورثه.

وجدير بهذا القسم أن يكون بأخبث المنازل، لأنّ بيـده قوة المـال، فاستعملها أسوأ استعمال، إذ خبط بماله بغير علم ولا حكمة، خبط الأعشى السائر في الظلمات على غير هدى ولا بصيرة.

القسم الرابع: عبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً، فهو يقول: لو أنّ لي مالاً لعملتُ بعمل فلان، فهو نيته، فوزرهما سواء.

وهذا قسم من الناس هو في منتهى الغباء، يتمنّى أن تكون بيده قوة الجاهلين الذين لا عقل لهم ولا حكمة تضبط سلوكهم، حتى يعمل مثل أعمالهم السيئة التي يخبطون فيها خبطاً خبيثاً، فلا هو متمتع بتلبية شهواته وأهواء نفسه، ولا هو ناج من أوزار المسيئين، إذ جعلته نيته السيئة الخبيثة كالمسيئين نية وعملاً، وجعلته يحمل أوزاراً مثل أوزارهم، من غير فرق بينه وبينهم لأنه لو وجد المال لما قصّر عنهم في الأعمال. فالمانع له من التنفيذ قد كان أمراً خارجاً عن إرادته، فإرادته المصمّمة المحجوزة عن العمل بمانع خارجي هو العجز عن التنفيذ، كافيةٌ لتحميله الوزر المكافىء لوزر العامل المسيء، لأن أصل الامتحان في الحياة إنما هو امتحان الإرادة.

ـ ٥ ـ
في أداء الواجب الربّاني وعلوّ الهمة وعزّة النفس بالله والصبر والرضى بمقادير الله

عن عبدالله بن عبّاس قال: كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال: «يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشي لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».

(رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح)

وفي رواية عند غير الترمذي:

«احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أنّ ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أنّ النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأنّ مع العسر يسراً».

هذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام، وهو يشتمل على كلّيات كبرى من كلّيات العقيدة والأخلاق الإسلامية:

١ ـ ففيه أوّلاً جانب تربويّ مهمٌّ جدّاً، وهو يتمثل باهتمام الرسول ﷺ بتعليم الصغار والغلمان الأصول الكبرى للعقيدة والأخلاق. ويتمثّل أيضاً باستغلاله صلوات الله عليه كلّ فرصة سانحة للتعليم والتربية.

فهذا عبدالله بن عباس ابنُ عمّ الرسول ﷺ غلام لم يبلغ الحلم، يكون رديفاً ذات يوم خلف الرسول على دابّة يركبانها في طريق، فلا يدع الرسول الفرصة تمرّ دون أن يوجّه لابن عمّه الغلام درساً عظيماً من دروس العقيدة والأخلاق، ويخاطبه بقوله: «يا غلام، إني أعلّمك كلمات».

٢ ـ الكلمة الأولى في هذا التعليم النبوي: «احفظ الله يحفظك، احْفظ الله تجده تُجاهك».

هذه الكلمة من جوامع الكلِم في التوجيه الخلقي، الذي يُصلح علاقة الإنسان بخالقه، والمقترن بالتنبيه على الفائدة والثمرة التي يجنيها الإنسان المسلم من التزامه مضمون التوجيه.

والمراد من مطالبة المسلم بأن يحفظ الله، أن يحفظ حقوق الله، فيؤدّيها حقّ أدائها، ولا يهملها، ولا يخونها، ويكون ذلك بحفظ أوامر الله ونواهيه وبحسن مراقبته والتزام طاعته والبعد عن معصيته، مع الثناء عليه بما هو أهله، وشكره بالعبادة والتقرّب والزلفى.

وهذا الحفظ يمثل أعظم فضيلة خلقية يعامل بها الإنسان ربّه. ومن حفظ الله على هذا الوجه حفظه الله من كلّ سوء، وحفظ له ما يستحقه من ثواب عظيم، أعدّه للمحسنين بفضله الكريم، ومن كان يرجو ثواب الله العظيم فإنه لا بد أن يندفع بصدق إلى حفظ حقوق الله عليه وابتغاء مرضاته.

فمن حفظ الله وجد الله أمامه في كلّ أمرٍ من أموره، معيناً وناصراً، وموفّقاً، وممداً بما لا يحصى من العطايا والهبات. ومن حفظ الله وجد الله أمامه عند كلّ أزمة يتعرض لها في حياته، ووجده تجاهه مؤنساً في الوحشة، وصاحباً في الوحدة، وأهلاً في الغربة.

وتأكيد هذه المعاني المفهومة ضمناً قد جاء في قوله ﷺ: «تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدّة» أي تعرف إليه بالتزام طاعته والإحسان بالتقرّب إليه، يعرفْك في شدّتك بالمعونة والمساعدة ورفع الشدّة وتفريج الكرب.

٣ ــ والكلمة الثانية في هذا التعليم النبوي: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله».

وفي هذه الكلمة تأصيل لأسس اعتقادية كبرى، فالسؤال ــ وهو الطلب من القوى الغيبية ــ لا يجوز أن يوجّه إلّا لله وحده، لأنه هو وحده القادر على إجابة السؤال، والاستعانة بالقوى الغيبية لا يجوز أن تكون إلّا بالله، لأنه هو وحده القادر على منح المعونة الحقيقية.

وتوجيه السؤال لغير الله تعالى، وطلب الاستعانة من غيره، كلٌّ منهما شرك بالله، وما كان لمؤمن أن يفعل شيئاً من ذلك، فالشرك بالله جحود لا يفعله ذو خلق كريم، وسلوك مستقيم. فمن كان ذا خلق كريم حقّاً لم يجحد بالله فلم يشرك به أحداً، فإذا سأل لم يسأل غيره، وإذا استعان لم يستعن إلّا به.

وترسيخاً لهذه العقيدة أبان الرسول ﷺ أنّه لا نافع ولا ضارّ إلّا الله، فقال لابن عباس: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلّا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضرّوك بشيءٍ لم يضرّوك إلّا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفّت الصّحف».

وفي هذا البيان الكاشف لحقيقة مُجريات المقادير قطعٌ لأسباب القلوب من المخلوقين، وربط لها بالخالق الذي بيده مقاليد كلّ شيءٍ وهو على كل شيء قدير.

ونظير هذا البيان ما جاء في الرواية الثانية:

«واعلم أنّ ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك».

أي إن مقادير الله وأقضيته نافذة لا محالة، فلو استطاع الإنسان استعادة ما مضى من الزمن لم يستطع أن يدفع المقادير التي علم الله أنها ستقع، فليقطع من الناس كلّهم أسباب قلبه، وليربطها بالله وحده لا شريك له.

وفي هذا البيان تربية على خلق الصبر والرضى بقضاء الله وقدره، فمن أيقن أن مقادير الله نافذة لا محالة أعدّ نفسه لاستقبالها بصبر ورضى.

٤ ــ والكلمة الثالثة في هذا التعليم النبوي: «واعلم أنّ النصر مع الصبر، وأنّ الفرج مع الكرب، وأنّ مع العسر يسراً».

فأعطى الرسول ﷺ بهذا البيان السنّن العامّة للمقادير الربّانية:

فالنصر مقترن بالصبر، وفي بيان هذه السنة الرّبانية ترغيب عظيم بخلق الصبر كلّما كان النصر غاية منشودة، ولا بدّ مع الصبر من تحقق الشروط الأخرى لاستحقاق النصر.

والفرج مقترن بالكرب، وفي بيان هذه السنة الرّبانية ترغيب أيضاً بخلق الصبر كلّما اشتد الكرب على الإنسان.

واليسر يأتي بعد العسر، وفي بيان هذه السنة العامة للمقادير الربّانية ترغيب أيضاً بخلق الصبر كلّما ضاقت حلقات العسر على الإنسان، فما بعد العسر إلاّ اليسر.

هذه سنن ربّانية لم يمتحنها مؤمن بالله آمل بها إلاّ وجدها كذلك.

وهكذا اشتمل هذا الحديث على ما يلي:

(أ) التوجيه للمحافظة على أداء الواجب الربّاني، وهو رأس الفضائل الخلقية.

(ب) التوجيه لتعليق القلب في كلّ المطالب بالله تعالى، وهو أعلى درجة في خلق علو الهمة وعزة النفس بالله.

(ج) التوجيه للرضى بقضاء الله وقدره وصرف القلب عما سوى الله تعالى، وهذا من أرفع درجات مكارم الأخلاق.

(د) التوجيه لخلق الصبر، والصبر من الأصول الكبرى للمكارم الخلقية.

ــ ٦ ــ

في الإيمان والجهاد والبذل والتعاون وكفّ الأذى

روى البخاري ومسلم عن أبي ذرّ جُنْدب بن جنادة قال:

قلت: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟.

قال: «الإيمان بالله والجهاد في سبيله».

قلت: أي الرقاب أفضل؟

قال: «أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمناً».

قلت: فإن لم أفعل؟

قال: «تُعين صانعاً، أو تصنع لأخرق».

قلت: يا رسول الله، أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟

قال: «تكف شرك عن الناس، فإنّها صدقة منك على نفسك».

* في هذا الحديث توجيهات خُلقية كريمة:

فالأول: الإيمان بالله، وهو أفضل الأعمال، وأعظم الأسس الأخلاقية، لأنه الاعتراف القلبي والإذعان النفسي للحقيقة الكبرى في الوجود، وهذا الاعتراف وهذا الإذعان سلوك أخلاقي، وعمل من الأعمال، ولذلك جعله الرسول ﷺ أفضل الأعمال.

والإيمان غير مجرّد المعرفة، إنّ المعرفة وحدها لا تكون إيماناً، حتى يقترن بها إذعان قلبيٌّ ونفسي خاضع للإرادة الحرة داخل الإنسان، فهو بذلك يدخل في عموم العمل الإنسان الإرادي، لأنّه حركة إرادية، وليس انفعالاً ضرورياً كحصول المعرفة بعد حصول أسبابها.

والثاني: الجهاد في سبيل الله، وهو من أفضل الأعمال بعد الإيمان، وظاهرة من ظواهر الأخلاق الإيمانية.

فالجهاد في سبيل الله لا يتأتّى في سلوك الإنسان ما لم يسبقه الإيمان، ولا يكون سمة ملازمة لسلوك المؤمن ما لم يسبقه تدريب نفسيٌّ وجسدي، حتى يتأصل في العادة العملية، وهذا يكشف ما في الجهاد في سبيل الله من أنه ظاهرة من ظواهر الأخلاق الإيمانية.

يضاف إلى ذلك أن الجهاد في سبيل الله لا يتحقق في الواقع ما لم تكن الغاية منه ابتغاء مرضاة الله تعالى، وهذه الغاية هي من أرقى الغايات الخلقية.

والثالث: عتق أنفس الرقاب عند أهلها وأكثرها ثمناً، فهو يدخل في خلق الجود وحبّ العطاء، لأنه تنازل عن حقّ الملك الشخصي بوجه من وجوه الخير، وحينما تكون الغاية منه ابتغاء مرضاة الله تعالى، يكون عملاً نابعاً من خُلُق نفسي كريم، غير مقتصر على السلوك الظاهر.

وقد أبان الرسول ﷺ لأبي ذرّ أنّ أفضل الرقاب التي إذا أعتقها مالكها نال الثواب الأفضل عند الله تعالى، هي أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمناً، وذلك

لأنّ بذلها فيه فعالية قوية للنفس، لتعلق النفس بها، وفيه اقتحام عقبة كبرى من عقبات النفس، والله تعالى يقول: ﴿لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا ممّا تحبون﴾.

والرّابع: معونة المسلم لأخيه، وفي التوجيه لهذا قال الرسول ﷺ لأبي ذرّ: «تعين صانعاً، أو تصنع لأخرق».

وفي هذا توجيه لعمل أخلاقي كريم، إذ المعونة بذلٌ وعطاء من الجهد للآخرين، وهو من مكارم الأخلاق لا محالة، ما لم تكن معونة على الإثم أو العدوان أو معصية الرسول.

ومعاونة الصانع في صنعته التي يعملها معروف إنساني يقدّمه الإنسان لأخيه، سواء أكانت معاونة مادّية أو فكرية أو تشجيعية أو غير ذلك. لا سيما إذا كان من يريد الصنعة أخرق لا يحسن ما يحاول فعله، فمساعدته حينئذٍ معروف يشبه البذل للفقير أو المسكين، لأنه فقير في صنعته إلى من يساعده ويصنع له.

والخامس: وهو عمل سلبيّ خُلقي، ويأتي في أدنى مراتب العمل الأخلاقي، وهو أن يكفّ الإنسان شرّه عن الناس، وهو ما أجاب به الرسول ﷺ أبا ذرّ حين قال له: يا رسول الله، أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟ فقال له الرسول ﷺ: «تكف شرّك عن الناس، فإنها صدقة منك على نفسك».

أي أرأيت إن ضعفت عن عمل أعين به الناس، أو أفعل به الخير لهم، فأرشده الرسول ﷺ إلى عمل سلبي يستطيعه كل إنسان مهما بلغ به الضعف، ألا وهو كف شره عن الناس.

فالإمساك عن فعل الشر مع رغبة النفس به سلوك خلقي كريم، يثابُ عليه المؤمن ما ابتغى به وجه الله تعالى، ويكون عندئذ هذا الإمساك عن الشرّ صدقة يتصدّق بها الإنسان على نفسه.

على أنّ كفّ الشرّ عن الناس صدقة خفيّة عليهم، ولكنّها لا تدرك عند كثير من الناس، لا سيما إذا كان كفّ الشرّ عملاً إراديّاً مقصوداً مع حاجة النفس إليه، أما حينما يكون انصرافاً غير مقصود لعدم تعلّق النفس به، فإنه حينئذٍ لا يكون كفّاً أخلاقياً، إذ العمل الأخلاقي هو ما كان أثراً لدافع أخلاقي، ومقترناً بنيّة أخلاقية.

وفي الحديث دلالة على حرص أصحاب الرسول ﷺ على أمور دينهم، وما يقرّبهم إلى الله تعالى من الأعمال، وما يغنمون به أعظم الأجر عنده، وعلى حرصهم على الارتقاء في سلّم المجد العظيم، ولذلك كانوا النموذج الأمثل للمجتمع الأخلاقي المسلم.

ـ ٧ ـ
في التعاون بين المسلمين والحث على العلم ومسؤولية الإنسان الشخصية، وفي أن الجزاء من جنس العمل

روى مسلم عن أبي هريرة أنّ النبي ﷺ قال:

«من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كُرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عونِ العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلاّ نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه».

في هذا الحديث حثٌ على وجوه من معونة المؤمن لأخيه المؤمن، وبيان لقاعدة من قواعد الجزاء الربّاني، وهي أن الجزاء يكون من جنس العمل.

* وقد اشتمل على موضوعات سبعة، فيها توجيهات جميلة، لفضائل جليلة:

١ ـ **الموضوع الأول**: ما تضمنه قول الرسول ﷺ: «من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة».

فقرر هذا البيان أن الجزاء بالثواب من جنس العمل إلاّ أنه أعظم وأجل.

والتنفيس في اللّغة يأتي بمعنى التفريج والتوسعة، وكأن هذا المصدر مأخوذ من النَّفْس التي يضغط فيها الهم والغم والحزن، فالتنفيس عنها هو إخراج ما يضغط في داخلها من ذلك، بتوسعة وتفريج، أو مأخوذٌ من النَّفَس وهو الذي يتنسمه الإنسان فيستروح به، ويخلص به من حالة الضيق المادّي الذي يصيبه إذا هو لم يأخذ منه جديداً ولم يطرد منه محترقاً، ثم جرى نقل هذا المعنى المادي على سبيل الاستعارة إلى المعاني النفسية.

والكَرْب في اللّغة الحزن والغمّ الذي يأخذ بالنفس، ويضغط فيها ضغطاً مؤلماً، والاسم منه الكُرْبة، وجمعُها كُرَب.

والكُرَبُ الضاغطات في الأنفس المؤلمات لها، لا تستريح الأنفس منها إلّا بالتنفيس.

وهنا يأتي دور مساعدة المؤمن لأخيه المؤمن، بتنفيس الكُرب عنه إذا هي حلّت به، أو حلّ به شيءٌ منها. وبغية مساعدته ينظر في سبب الكربة: فإذا كانت كربته من جهة فقره وحاجته ساعده حتى يسدّ حاجته، ويرفع عنه ضرورته، سواء أكان ذلك من ماله، أو من مساعيه الحسنة، بدعوة ذوي الإحسان إلى البذل له والتوسعة عليه. وإذا كانت كربته بسبب حاجته إلى قرض حسن يدفع به ضرورة ملحّة أقرضه. وإذا كانت كربته بسبب مصيبة حلّت فيه واساه وعزّاه حتى تنفرج عنه الكربة. وإذا كانت كربته بسبب حاجته إلى شفاعة حسنة شفع له. وإذا كانت كربته بسبب حاجته إلى زواج سعى في تزويجه. أو بسبب حاجته إلى عمل سعى في تهيئة العمل الملائم له. أو بسبب حاجته إلى تداوٍ من علّة سعى له فيما يريد حتى تنفرج كربته. أو بسبب حالات نفسيّة خاصّة واساه ونصح له وعالجه علاجاً نفسياً حتى ينفس عنه كربته.

وجزاؤه عند الله أن يكافئه على عمله بثواب من جنس عمله، وذلك بأن ينفّس الله عنه كربة من كُرَب يوم القيامة، وفرق كبير بين كُرَب الدنيا وكُرَب يوم القيامة. إنّ كُرَب الدنيا كلّها لو جمعت لا تعادل بعض كُرَب يوم القيامة، فَنِعْمَ الثوابُ ثواب من ينفّس الكرب عن إخوانه المؤمنين في هذه الحياة الدنيا، إنّه لثواب عظيم.

هذا الخلق الاجتماعي العظيم الذي يدعو إليه الإسلام يشتمل على عنصر المشاركة الوجدانية، وعنصري المساعدة المادّية والمعنوية، ويعبّر عن حقيقة الأخوة الإيمانية في الواقع التطبيقي، ويبرز معاني الجسدية الواحدة القائمة بين المؤمنين، وكلّ هذه الفضائل من صميم مكارم الأخلاق الاجتماعية.

٢ ـ **الموضوع الثاني**: ما تضمنه قول الرسول ﷺ : «ومن يسّر على معسرٍ يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة».

وقرر هذا البيان أيضاً أنّ الجزاء بالثواب في سنّة الله من جنس العمل، إلّا أنه أعظم وأجل، إنّها سنة ربّانية، وقاعدة تربوية عظيمة.

فمن يسّر على معسر في الدنيا يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة.

والتيسير هو التسهيل والمسامحة، ويكون التيسير على المعسر من وجوه شتّى. منها التيسير على المدين إذا حلّ أجل الدين ولم يجد عنده ما يفي به دينه، وذلك بإنظاره أو مسامحته، والله تبارك وتعالى يوصينا بهذا فيقول في سورة (البقرة ٢):

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾.

فأمر بالنّظِرة إلى الميسرة، والنّظِرة هي الانتظار، ووجّه إلى ما هو خير منها وهو التجاوز والمسامحة، وسمّى ذلك صدقة، لأنّه من قبيل الصدقة الخفيّة.

وقد جاء في الحديث الصحيح أنّ رجلاً كان يداين الناس فإذا حلّ الأجل ولم يجد لديهم ما يؤدون منه ديونهم تجاوز عنهم، فكافأه الله على ذلك فتجاوز عنه وأدخله الجنة.

ومن التيسير على المعسر التيسير في المبايعات، وذلك بالتساهل معه إذا لم يكن لديه ما يفي بثمن السّلعة، أو بتأجيل بقيّة ثمنها.

ومن التيسير على المعسر التيسير على الصانع الذي لم يتمكّن من تأدية

العمل في الوقت المحدّد له، وذلك بالتسامح معه، وبتأجيله إلى وقت آخر، إلّا أن يكون كاذباً مراوغاً فللكاذب جزاؤه.

وهكذا تكثر المجالات التي يكون فيها التيسير على المعسرين، وجزاء الميسّرين أنّ الله تبارك وتعالى ييسّر عليهم أمورهم في الدنيا دار الابتلاء والجزاء الأصغر، وفي الآخرة دار الجزاء الأكبر.

٣ ـ **الموضوع الثالث**: ما تضمنه قول الرسول ﷺ : «ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة».

فمن أخلاق المسلم أن يستر أخاه ولا يفضحه، ما لم يجاهر في معصيته أمام الناس، وما لم تكن معصيته ممّا يتعلّق بها حقٌ من حقوق الناس، أو حقّ من الحقوق العامة، أو تفضي إلى الإضرار بمصالح المسلمين الكبرى.

وجزاء من يستر أخاه المسلم أن يستره الله في الدنيا وفي الآخرة.

وجاء في حديث آخر للرسول ﷺ : «لا يستر عبد عبداً في الدنيا إلّا ستره الله يوم القيامة».

٤ ـ **الموضوع الرابع**: ما تضمنه قول الرسول ﷺ : «والله في عَوْن العبد ما كان العبد في عون أخيه».

فمعاونة المسلم لأخيه المسلم فضيلة خلقيّة يقترن بها دائماً عون من الله له مكافأة له على عمله.

ومَن هذا الإنسان الذي لا يحتاج إلى معونة الله في أموره كلها؟ ومَن هذا الإنسان الذي يستطيع أن يستغني عن الله في أيّ شأن من شؤونه؟

إنّ جَزاء من يكون في عون أخيه واصل إليه تباعاً ما دام في عون أخيه، ولكن ثواب الله دائماً أعظم من عمل الإنسان، فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، والثواب الرّباني معجّل ومؤجل.

فمن كان في حاجة إلى معونة ربّانية في أمر من أموره فليسع في معونة أخ

مسلم له يجد الله معه يمدّه بعونه، وييسّر له أمره، وهذا من الأمور المجرّبة التي يقترن بها برهانها التطبيقي.

ومجالات المعونة كثيرة جداً لا تكاد تحصر، ولكن يشترط في المعونة أن لا يكون فيها معاونة على الإثم أو العدوان، أو مخالفة لأوامر الله ونواهيه، أو لأوامر الرسول ونواهيه، وفيما عدا ذلك تستحبّ المعونة أو تجب، على حسب واقعة الحال التي تستدعي المعونة.

فالعون يكون في مجال المساعدة بالمال، وبالجسم، وبالقول، وبالجاه، وبالفكر والمشورة النافعة، وبالعلم، وبالشفاعة الحسنة، والإمداد بالقوة والإمداد بالرجال، وما من عمل في الحياة إلّا له جوانب يمكن أن تكون مجالاً من مجالات العون، والعونُ الأسمى يكون في الإيثار.

والعون مظهر من مظاهر خلق حب العطاء أحد الأسس الأخلاقية العامة التي تنبع منها جملة من مكارم الأخلاق.

٥ ـ **الموضوع الخامس**: ما تضمّنه قول الرسول ﷺ: «ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له به طريقاً إلى الجنة».

ففي هذا القول النبوي دعوة إلى الأخذ بسُبُل العلم والمعرفة، وحثُّ جميل على التماس العلم وسُلوك طرقه.

ومن الروائع التي اشتمل عليها هذا التوجيه أنّ طرق العلم والمعرفة هي طُرق إلى الجنة، لأن العلم الصحيح الذي لا تدليس فيه ولا تزوير، من شأنه أن يدل على الله، لأن الله تبارك وتعالى قد أودع في كلّ حقيقة علمية من حقائق الوجود دليلاً عليه سبحانه، فمن طلب الحقيقة صادقاً في طلبها سهّل الله له طريقاً يوصله إلى معرفة الحقيقة، وهذه الحقيقة لا بدّ أن تنقله إلى معرفة الله، ومن كان صادقاً مع نفسه في طلب الحقيقة الصغرى فإنّ الحقيقة الكبرى ستفرض نفسها عليه، فيذعن لها ويؤمن بها، وعندئذ يسلك طريقه بالإيمان إلى جنّة الرضوان، فمن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له به طريقاً إلى الجنة.

وفي مقدمة العلوم التي من التمسها سهّل الله له بها طريقاً إلى الجنّة علوم

الدين، على أن العلوم الأخرى ـ باستثناء العلوم الضارة المحرمة، وباستثناء الآراء الباطلة والأكاذيب التي تسمى علماً ـ من شأنها أن توصل طالب الحق الصادق في طلبه إلى معرفة الله، وهذه المعرفة تأخذ به إلى سلوك طريق الجنة، لأنّ العلوم الكونية الحقّة تدلّ بظاهرة الإتقان وإحكام الصنعة على المتقن الحكيم، فمن كان صادقاً في طلب الحقيقة، باحثاً عنها بحث العالم المنصف توصّل إلى معرفة الله، ومن توصّل إلى معرفة الله وهو في نفسه منصف محبٌّ للحقّ فلا غرو أن يؤمن، والإيمان الصادق هو فاتحة الطريق الموصل إلى الجنة، ولذلك نجد معظم العلماء المنصفين الباحثين عن الحقيقة مهما كان نوع اختصاصهم ينتهون بعد التعمق في البحث العلمي إلى الإيمان بالله جلّ وعلا، وهذا ما تشهد به أقوالهم الكثيرة واعترافاتهم الصادقة.

٦ ـ **الموضوع السادس**: ما تضمنه قول الرسول ﷺ: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلّا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده».

فقد اشتمل هذا التوجيه النبويّ على فضيلة ذات ثلاث عناصر:

(أ) الاجتماع في بيت من بيوت الله.

(ب) تلاوة كتاب الله.

(ج) تدارس معاني كتاب الله فيما بينهم.

وهذا الاجتماع يشتمل على عبادة الالتقاء على الخير، وعبادة الجلوس في بيت من بيوت الله، وعبادة تلاوة كتاب الله، وعبادة تدارس العلم الذي اشتمل عليه هذا الكتاب المجيد.

أمّا الاجتماع بين المسلمين المؤمنين فله ثمرات طيبات جداً، إذ تتلاقح فيه القلوب والأفكار، وتتعاون فيما بينها على الارتقاء في معارج مرضاة الله تعالى، لا سيما إذا كان هذا الاجتماع في مسجد من المساجد، حيث تتنزّل رحمات الله، وتكثر نفحات الخير، وتتعاقب وفود الملائكة.

وأمّا تلاوة كتاب الله تعالى ففضلها عظيم، روى الترمذي عن عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال:

«فمن قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول الم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف».

(قال الترمذي: حديث حسن صحيح)

وروى مسلم عن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه».

وروى البخاري عن عثمان بن عفّان قال: قال رسول الله ﷺ:

«خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه».

فإذا اقترنت بتلاوة القرآن مدارسته كان ذلك خيراً وأعظم أجراً، لأنّ القرآن إنما أنزل في الأصل لتدبّر معانيه، والعمل بما فيه، والقرآن يأتي يوم القيامة يحاجّ عن صاحبه الذي كان يعمل به، روى مسلم عن النوّاس بن سمعان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا، تقدُمُه سورة البقرة وآل عمران تحاجّان عن صاحبهما».

فمن يعمل بالقرآن تكون حجته عند الله معه، لأنه هو الكتاب الذي أنزله الله وأمر الناس بالعمل بما اشتمل عليه من أحكام، فمن عمل به فقد أدّى ما فُرض عليه من قبل الله عزّ وجلّ.

ولصاحب القرآن في الدنيا ميزة يوم القيامة، وقد جاء بيان هذه الميزة في حديث رواه أبو داود والترمذي بإسناد صحيح عن عبدالله بن عمْرو بن العاص، أنّ النبي ﷺ قال:

«يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق، ورتّل كما كنت ترتل في الدنيا، فإنّ منزلتك عند آخر آية تقرأ».

وفي هذه الفضيلة التي دعا إليها الرسول ﷺ دعوةٌ إلى الجماعة، وإلى تلاقي المؤمنين على الخير في أماكن العبادة، وقد اشتمل هذا الخير على تلاوة

تعبدية ومدارسة علمية، فهي جملة فضائل تقوّي أواصر الجماعة، وتغذّي روح التعاون بين المؤمنين.

والخيرات التي يظفر بها المجتمعون في بيت من بيوت الله على تلاوة كتاب الله ومدارسته فيما بينهم، قد بينها الرسول في أربعة أمور:

الأول: تنزل عليهم السكينة، والسكينة في اللغة تأتي بمعنى الوقار والطمأنينة القلبية، وهي مشتقة من السكون، وإنما يكون السكون النفسيّ والقلبي حينما تمرّ على الإنسان نفحات السعادة الرّبانية، وقد تمثّلت السكينة لبعض أصحاب الرسول ﷺ بصورة سحابة تنزلت من السماء، روى البخاري ومسلم عن البراء قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف، وعنده فرس مربوط بشطَنَيْن[1]، فتغشته سحابة، فجعلت تدنو، وجعل فرسه ينفر منها، فلمّا أصبح أتى النبيّ ﷺ فذكر له ذلك، فقال ﷺ : «تلك السكينة تنزّلت للقرآن».

الثاني: تغشاهم الرحمة، أي تعمّهم وتنزل عليهم رحمة من عند الله، لاجتماعهم، وتلاوتهم كتاب الله، وتدارس معانيه فيما بينهم.

الثالث: تحفّهم الملائكة، أي تحف مجلسهم من كلّ جوانبه، وقد ثبت في الصحيح أنّ بعضهم يحفُّ بعضاً بأجنحتهم حتى يملأوا ما بينهم وبين السماء الدنيا.

الرابع: يذكرهم الله فيمن عنده، وهذا تشريف كبير لهم، ورفع لأقدارهم في الملأ الأعلى.

٧ ــ **الموضوع السابع**: ما تضمنه قول الرسول ﷺ : «ومن بطّأ به عمله لم يُسرع به نسبه».

في هذا الكلام البليغ دعوة رفيعة إلى العمل الذاتي الذي تكتسب به الفضائل والكمالات، وفي هذه الدعوة تغذية لخلق علوّ الهمة وشحذٌ لها.

---

(١) بشَطَنَيْن: أي بحبلَيْن.

وفي هذا الكلام البليغ دعوة إلى عدم الاعتماد على مجد النسب فإنه لا يغني صاحبه عند الله من دون عمل ذاتي يؤهل الإنسان لارتقاء مجد حقيقي، فمن بطّأ به عمله فلم يساير ركب المتقدمين أو ينافسه ويسابقه لم يستطع مجدُ نَسَبه أن يجرّه فيجعله مع الركب، فضلاً عن أن يدفع به إلى مراتب المنافسة والسبق، بل سيبقى في ركب المتخلّفين الذين بطّأت بهم تقصيراتهم في العمل، أو أعمالهم السائرة في غير طريق الارتقاء والتقدّم، ولن تغني عنهم أنْسابهم.

ومع أن أرقى الأنساب وأعظمها مجداً نسب محمد رسول الله ﷺ، فقد نادى محمّد في الأقربين من أهله فقال: «يا صفية عمةَ رسول الله اعملي لنفسك لا أغني عنك من الله شيئاً. يا فاطمة بنتَ محمد اعملي لنفسك لا أغني عنك من الله شيئاً. يا عبَّاسُ بنَ عبدالمطلب اعمل لنفسك لا أغني عنك من الله شيئاً».

فلو كانت الأنساب تنفع الذين لا يعملون لما ألحّ رسول الله ﷺ على الأقربين من أهله أن يعملوا، ولما قال لهم: لا أغني عنكم من الله شيئاً.

ولو كانت الأنساب تنفع أصحابها لنفع النسب إلى نوح عليه السلام وَلَده الذي كان من المغرقين، لكن كفره بالله وسوء عمله قد قطع ما بينه وبين أبيه من وشائج النّسب، فقال الله تعالى له:

﴿إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح﴾.

أما الإبداع البلاغي في كلمة الرسول ﷺ: «ومن بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه» فيظهر فيه أمران:

الأول: ابتكار الفكرة التي تعزّ إلا على ذكي ألمعي، وهي عملٌ يبطىء ونسب لا يُسرع، وأبكار الأفكار تستقبلها النفوس بمسرة وانشراح.

الثاني: الجمع اللطيف بين المتضادات المتخاطرة التي يستدعي بعضها بعضاً، فالنفس حينما يُذكر أحد المتضادين تنطلق بسرعة إلى الثاني منهما، فإذا استكمل البليغ به الصورة الأدبية أرضى نفوس مخاطبيه وأوجد لديها إحساساً بالجمال الفني، فانفتحت لتفهم الكلام وتدبّر معانيه وحفظه وترديده.

— ٨ —
في الحرص على فعل المعروف وإن قلّ

وروى البخاري ومسلم عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ :
«ما منكم من أحد إلّا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدّم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلّا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلّا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشقّ تمره، فمن لم يجد فبكلمة طيبة».

أي فمن لم يجد نصف تمرة أو مقدارها يتصدّق به، فليقل كلمة طيبة، فالكلمة الطيبة الخفيفة على اللسان الهينة على النفس قد يكون لها أثر عظيم وثواب جسيم.

ما أعظم حرص الإسلام على فعل المعروف ولو كان المتيسّر منه شيئاً قليلاً فهو مساهمة جميلة وكريمة في فعل الخير والبرّ، ولذلك فإن الله تبارك وتعالى لا يضيّع مثقال ذرّة، فالعمل سواءُ أكان قليلاً أو كثيراً، خيراً أو شرّاً مشمول عند الله بقانون: ﴿فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره﴾.

وصيانة لكرامة من يفعل المعروف القليل من احتقار الناس لفعله، نهى الرسول ﷺ بشدّة عن احتقار واستصغار المعروف الذي يقدّمه المسلم لأخيه المسلم، أو احتقار الموسرين ما يقدّمه المعسرون من صدقات قليلة في أبواب الخير العامة.

ومن ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة، أنّ النبي ﷺ قال:

«يا نساء المسلمات، لا تحقرن جارة لجارتها ولو فِرْسنَ شاة».

أي لا تحقرن جارة هدية لجارتها، ولو كان قدرها ظلف شاة، وهذا أحقر ما يمكن أن يُهدى في الأحوال النادرة.

واحتقار الصدقات التي يتصدّق بها المتطوعون الفقراء من المؤمنين، سمة من سمات المنافقين، وهذه السمة لا تليق بالمسلم في حال من الأحوال، وفي شأن المنافقين قال الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ .

وقد جاء في سبب نزول هذه الآية أن الرسول ﷺ قد حثّ على الصدقة إعداداً لغزوة تبوك، فجاء عبدالرحمن بن عوف بأربعة آلاف، فقال: يا رسول الله مالي ثمانية آلاف، جئتك بنصفها وأمسكت نصفها، فقال: «بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت». وجاء أبو عقيل (وهو من فقراء الصحابة) بصاع من تمر، فقال: يا رسول الله، أصبت صاعين من تمر، صاعٌ أقرضه لربي، وصاع لعيالي.

فلمزهما المنافقون، وقالوا: ما الذي أعطى ابن عوف إلا رياء، وقالوا: ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا؟ مشيرين إليه باستهزاء واحتقار. وقالوا أيضاً: إنما أراد أن يذكّر بنفسه، فاحتقروا ما قدّم ولمزوه بذلك.

فانتصر الله له، وأثبت أنه كان صادقاً مع الله في بذله، وأنه بذل ما في وسعه، فهو مؤمن متطوّع في الصدقة، لا يجد إلّا جهده، وأما جزاء الذين سخروا منه فسخرية الله منهم وعذاب أليم.

وروى مسلم عن أبي ذرّ قال: قال لي النبي ﷺ :

«لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجهٍ طليق».

دلّ هذا الحديث على أنّ لقاء المسلم أخاه بالتحية والبشر والوجه الطليق عمل من أعمال المعروف التي يثاب عليها لأنه يدخل به السرور إلى قلبه.

ومن البرّ كلّ عمل أو قول يُدخل السرور إلى قلوب الناس، ما لم يكن فيه إثم ومعصية لله تعالى.

والحديث يحثّ على فعل المعروف صغيراً كان أو كبيراً، جليلاً كان أو حقيراً، فما دام المعروف عطاءً من مالٍ أو جاهٍ أو جسم أو بشرٍ أو قولٍ حسن، فهو برٌّ قد يصادف ذا حاجة، فيقع عنده موقعاً حسناً، وكثيراً ما يصدُّ

الإنسان عن فعل المعروف احتقاره لما بيده ممّا يملك في ساعته تقديمه، أو ممّا طاوعته نفسه أن يقدمه، وحلاً لهذه العقدة الصادّة عن فعل أنواع كثيرة من المعروف، الذي قد يكون له أثر كبير عن الموجّه له رغم احتقار فاعله له.

وأدنى ما يفعل الإنسان من معروف أن يلقى أخاه بوجه طليق، إذ لا يكلّفه شيئاً غير بسط عضلات وجهه بطلاقة وابتسامة محبّبة للناظرين، ومع ذلك فعلى المسلم أن لا يحتقر هذا العمل الصغير، فقد يكون له أثر عند الناس كبير، أمّا أثره عند الله فعظيم.

ومن هذا القبيل قول الرسول ﷺ : «اتقوا النار ولو بشق تمرة».
(رواه البخاري ومسلم عن عديّ بن حاتم)

ـ ٩ ـ
في حبّ العطاء وقوة الإرادة وعلوّ الهمة

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجراً؟ قال:

«أن تصدّق وأنت صحيح شحيحٌ تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتّى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان».

أي ولا تهمل بذل الصدقة وأنت في حال صحتك وشُحك بالمال، وأنت في حالة نفسية تخشى معها الفقر وتأمل الغنى، حتى إذا بلغت الروح الحلقوم، وذلك عند النزع وخروج الروح، قلت عندئذٍ في وصيتك: لفلان كذا، ولفلانٍ كذا، وقد كان هذا الذي تبذله وأنت في هذه الحالة لفلانٍ ما لا محالة، أي إنّ مالك كلّه صائر لغيرك لا محالة، وغيرك يكنّى عنه بفلان.

وفي هذا الحديث من التربية الخلقية أمران:

الأول: يوجّه فيه الرسول ﷺ المسلم إلى فضيلة خلق حبّ العطاء، لا سيما العطاء الذي يكون في محله، والذي يبتغى به وجه الله تعالى، وهو عطاء الصدقة، ولا سيما أيضاً العطاء الذي يكون الإنسان معه شديد الحرص على

ما يملك، واسع الأمل بالحياة، غير مرتقب الموت وغير يائس من طول البقاء، وطول الأمل يكون عادة في حالة الصحة والقوة، ومع طول الأمل يزداد الطمع بالدنيا والحرص على أموالها ومتاعها، وهذا ما ذكره الرسول ﷺ جواباً للسائل الذي سأله: أي الصدقة أفضل، بقوله: «أن تصدّق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى».

الثاني: يوجّه فيه الرسول ﷺ المسلم لخلق قوة الإرادة وخلُق علوّ الهمّة، اللّذين ينشأ عنهما الحزم والعزم والمبادرة إلى فعل الخير، دون تهاون أو إهمال أو توانٍ أو تقصير، فكثير من الناس يريد الخير ولكن ينقصه الحزم والعزم، وتتقاصر همّته عن التنفيذ، فيصاب بداء التهاون والإهمال والتواني والكسل والتسويف في الأمور، حتى يضيع عمره كلّه، وعندئذ يجد نفسه أمام أجله المحتوم، وليس في صحيفة أعماله ما يعطيه ثمرة نافعة، وليس في مزرعة حياته إلا قفرٌ مغبر، أو نبات غير مثمر. فإذا أراد أن يتدارك ما فات لم يسعفه الوقت بأن يغنم ما يطمع فيه، وعندئذٍ لا يجد أمامه إلاّ الوصية يوصي بها، فيوصي لفلان بكذا من تركته، ولفلان بكذا، مع أنّ تركته صائرة حتماً إلى غيره، فهو بعطائه هذا إنما يعطي من مال غيره، لا من مالٍ له فيه مطمع لنفسه، ولذلك لم يأذن الله له بأن يتصرّف إلاّ في حدود ثلث ماله، وهذه صدقة تصدّق الله بها عليه، إذ أذن له أن يوصي بثلث ماله لغير الوارثين أما الوارث فلا وصية له كما ثبت في بيان الرسول ﷺ.

— ١٠ —

في الرحمة بذوي الحاجات والحث على العطاء

روى مسلم عن جرير بن عبدالله البَجَلي قال: كنّا في صدر النهار عند رسول الله ﷺ فجاء قومٌ عراةٌ، مجتابي النّمار أو العباء، متقلّدي السيوف، عامّتهم من مضر، بل كلهم من مضر، فتمعر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثمّ خرج، فأمر بلالاً فأذن وأقام، فصلى ثم خطب فقال:

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها

زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام. إن الله كان عليكم رقيباً﴾.

والآية التي في الحشر:

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظرْ نفسٌ ما قدمت لِغَدٍ واتقوا الله * إن الله خبير بما تعملون﴾.

«تصدق رجلٌ من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بُرّه، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشقّ تمرة».

قال: فجاء رجلٌ من الأنصار بصُرّة كادت كفّه تعجز عنها بل قد عجزت. قال: ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلّل كأنه مُذْهبة، فقال رسول الله ﷺ:

«من سنّ في الإسلام سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقُصَ من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنّة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقُصَ من أوزارهم شيء».

في صدر النهار: أي في أوله.

عُراة: جمع عارٍ، وهو من أخلقت أثوابه.

مجتابي النمار: أي مقطعي الثياب، والنمار جمع نِمرة، وهي بُردة من صوف يلبسها الأعراب مخططة تشبه جلد النمر.

فتمعّر وجه رسول الله: أي تغير لونه شفقة عليهم وتألماً لفقرهم.

الفاقه: الفقر والحاجة.

يتهلّل: أي يستنير ويتلألأ.

كأنه مُذهبة: أي كأنه فضة مموهة بالذهب.

الوزر: الحملُ الثقيل.

يستأثر بمشاعرنا في هذا الحديث إنسانية الرسول ﷺ الكاملة، ورحمته العظيمة، وشفقته الكريمة، بهؤلاء المضريّين البؤساء، الذين قدموا عليه صلوات الله عليه بأثوابهم المقطعة وجوعهم الظاهر، وفاقتهم التي تبعث الألم في قلوب الرحماء.

إن إنسانية الرسول الكاملة لم تمرّ على مشهد فاقه القوم المضريّين مرور أكثر الناس الذين تبلّد حسهم الإنساني، فلا يجدون انفعالاً وجدانياً نحو ذوي الحاجة يدفعهم لمواساتهم ورفع الضر عنهم، ولكنّ إنسانيته الكاملة صلوات الله عليه قد انفعلت لهذا المشهد انفعالاً بالغاً، ظهر في تلوّن وجهه رحمة بهم، ثم ظهر في دخوله إلى بيته لعلّه يجد عنده ما يواسيهم به، ثمّ ظهر باهتمامه البالغ بهم، الأمر الذي دعاه إلى جمع الناس، وحثهم بنفسه في خطبة مؤثرة رائعة على مواساة هؤلاء القوم ذوي الفاقة، وهو ما دفع المسلمين إلى أن يساهموا بمعوناتهم، حتى ترابى كومان من طعام وثياب بين يدي الرسول ﷺ قبل أن ينفضّ الجمع عقب صلاة الظهر على ما يظهر.

ألا فليتخذ القادة وعظماء الناس هذا الإنسان الكامل ذا الخلق العظيم أسوة حسنةً به يقتدون، وبهديه يسترشدون، فمن قصة هذا الحديث يتبين لنا ما كان يتحلّى به الرسول ﷺ من خلق الرحمة والمشاركة الوجدانية، وما كان يتحلّى به من جود نفسي عظيم، فالجواد إذا لم يجد ما يبذله بلغ الألم من نفسه مبلغاً كبيراً، ولا يُسرّي عنه هذا الألم إلا أن يجد الباذلين قد قاموا بما كان يريد أن يقوم به، ولا يشعر بالسعادة حتى يرى ذوي البؤس قد مسحت على صدورهم يد السعادة بتفريج الكرب، وإزالة البؤس.

والرسول ﷺ يخطب المسلمين بنفسه، ويحمل بنفسه مهمة الجباية للفقراء.

وكانت طريقة دعوة الرسول ﷺ لمساعدة هؤلاء القوم الفقراء طريقة بارعة بالغة اللّطف والرقة، فقد جاءت بأسلوب الخبر لا بأسلوب الأمر، وبأسلوب التنكير والإبهام لا بأسلوب الخطاب، وجاء التوجيه للبذل في حدود اليسر والاستطاعة، حتى لا يعتذر منهم معتذر بأنه لا كثير عنده ينفق منه، وحتى

لا يخجل منهم مقلٌ بما يقدّم من قليل عطاء. وبإيجاز رائع أرشد وحثّ وبلغ الغاية.

واستجابة لهذه الدعوة الرفيقة الرقيقة إلى البذل تسابق المسلمون إلى تقديم ما جادت أنفسهم به، لقد علمهم الرسول ﷺ كيف تكون العاطفة الأخوية، والرحمة الإنسانية، والمشاركة الوجدانية، وكيف ينبغي أن تكون أخلاق المسلمين تجاه إخوانهم المسلمين.

ويدلّ على كمال إنسانية الرسول ﷺ مشهده وقد امتلأ قلبه سروراً وابتهاجاً، حتى طفح فظهر على وجهه تهلّلاً وإشراقاً وبشراً، حينما رأى عطايا الصدقةتترابى بين يديه لسدّ حاجة هؤلاء الفقراء الذين قدموا إليه بائسين.

ثم لم ينس الرسول ﷺ التنويه بفضل أول من بادر من المسلمين إلى تقديم صدقته، فسنّ بسبقه إلى البذل سنّة حسنة تبعه فيها غيره، وانتهز الرسول ﷺ هذه المناسبة لإعلان مبدأ هام من مبادىء الإسلام، وأصل عظيم من أصوله، فقال: «من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجرُ من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء».

وفي هذا إعلان لأصل من أصول المحاسبة والجزاء، وهو المحاسبة على العمل وعلى آثار العمل، خيراً كان أو شراً.

ـ ١١ ـ
في صدق التوكّل على الله

عن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«لو أنكم تتوكّلون على الله حق توكّله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً».

أي تذهب في أوّل النهار ضامرة البطون فارغتها، وتروح في آخر النهار ممتلئة البطون من الشّبع.

هذا الحديث يؤكد العقيدة الإيمانية في قضيّة الرزق، ويوجه المؤمن إلى صدق التوكل على الله، حتى تكون مساعيه في اكتساب الرزق متّسمة بخلق الثقة بالمقادير الربانية، وبالوعد الرباني الذي ضمن الله فيه لعبادة أرزاقهم، وكلّفهم السعي لتحصيل ما قسم لهم، فما تموت نفس حتى تستوفي ما قدّر لها من رزق.

وهذه العقيدة الإيمانية قد تولى القرآن الكريم بيانها في مواضع كثيرة وفي مناسبات مختلفة، حتى يطمئن الناس على أرزاقهم، فلا يقلقوا من أجلها، ولا تكون سبب بخلهم أو جبنهم أو تتبعهم طرق الكسب الحرام.

ومن النصوص المقرّرة لهذه الحقيقة الإيمانية قول الله تعالى في سورة (الذاريات ٥١):

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

فقد أقسم الله مؤكداً على أن قضية الرزق قضية مضمونة في السماء ﴿وفي السماء رزقكم﴾.

وهذا الضمان حقّ ظاهر، وهو قريب من متناول الإنسان، وواقع في ملكه مثلما يملك الإنسان نطقه ﴿فورب السماء والأرض إنه لحقٌّ مثلما أنكم تنطقون﴾.

ومن النصوص المقرّرة لهذه الحقيقة، قول الله تعالى في سورة (هود ١١):

﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾.

فهذا النص يقرر ويؤكد أن رزق كل دابة في الأرض إنما هو على الله، وهو سبحانه ضامن لهذا الرزق.

وقول الله تعالى في سورة (العنكبوت ٢٩):

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

ولكنّ الرزق قد يأتي الإنسان من حيث يحتسبه، أي من الجهة التي يدخلها في حسابه، وقد يأتيه من حيث لا يحتسب، ولكنّ الذين يتّقون الله يميزهم بأنه سبحانه يرزقهم من حيث لا يحتسبون، ودليل هذا قول الله تعالى في سورة (الطلاق ٦٥):

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾.

لكنّ الرزق المضمون لا يشترط أن يكون متساوياً بين أفراد المرزوقين، بل التفاوت والتفضيل بين الأفراد هو السنة الثابتة في قضية الرزق، ويدلّ عليه نصوص كثيرة، منها قول الله تعالى في سورة(النحل ١٦):

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ﴿٧١﴾﴾.

أمّا التفضيل فله حكم ربّانية كثيرة، منها امتحان الناس بعضهم ببعض، ومنها امتحان الغني هل يشكر أم يكفر، وامتحان الفقير هل يصبر أم يضجر.

هذه قضية الرزق وما يتعلّق بها من مفاهيم إيمانية، ومن واجب المؤمن الخلقي في علاقته بربّه خالقه ورازقه أن يؤمن به، وبكل صفات الكمال التي له، وبكل ما أخبر به، وإلّا كان مدنّساً بقذارة الجحود والكنود، وبخساسة نكران الحقّ ونكران الجميل، وبخساسة التكذيب بالحقّ.

فمن حقّ من ضمن الرزق لعبده ضماناً قطعياً وهو يعلم أنه لا يخلف وعده، أن يصدّقه وأن يسعى في اكتساب رزقه الذي قدره له كما أمره، وحين يسعى في اكتساب رزقه كما أمره لا يعلّق قلبه بالأسباب التي يباشرها، بل بمسبب الأسباب الذي ربط النتائج بها.

وهذا سلوك أخلاقي واجب، لأن تأدية الحقوق الواجبة ممّا تفرضه مكارم الأخلاق.

فتعليق القلب بالخالق مسبّب الأسباب مع مباشرة الأسباب التي أمر بها هو التوكّل الحقيقي على الله، وهو التوكّل الحقيقي المطلوب في الإسلام، وهو ظاهرة إيمانية، وظاهرة خلقية.

ـ ١٢ ـ
في حمـــد الله والرضى عنه وما يقترن بهما من ظواهر خلقية

روى مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنّ الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها».

فمن جلائل فضائل خلق المسلم أن يكون كثير الحمد لله، في أحواله كلّها، إذا أكل حمد الله، وإذا شرب حمد الله، وإذا قضيت له حاجة حمد الله، وإذا ربح في تجارته حمد الله، وإذا سَلِم من مكروه حمد الله، وإذا تعلّم مسألة من العلم حمد الله وهكذا في أمره كله، حتى فيما يكره من الأمور، لأنه لا يعلم أين يكون الخير، هل هو فيما يحبّ أو فيما يكره.

والله تعالى ليرضى عن عبده إذا كان كثير الحمد له، لأن العبد يبرهن بحمده لربّه على أنه ذو خلق كريم، يعترف للمنعم بنعمه فيحمده عليها، وللمحسن بإحسانه فيثني عليه به.

إنّ حمد المنعم على نعمه مظهر من مظاهر مكارم الأخلاق، وهو يرجع إلى حبّ الحقّ وإيثاره والاعتراف به، ومقابلة الجميل بالثناء عليه.

والحمد لله في الأحوال كلّها أثر من آثار رضى القلب عن الله، ورضى القلب عنصر من عناصر السعادة. فالحمّاد في سائر أحواله سعيد في حياته، والسعادة أجلّ نعمة في الحياة يسعى إليها العقلاء، ولكنهم كثيراً ما يجهلون طريقها، ويخطئون في طلبها من غير أسبابها ووسائلها، فيقعون في متاهات كثيرات، وتخونهم الأماني فلا يجدون ما ينشدون، ويتكشّف لهم بعد التجربة

أنّهم كانوا يطلبون الشراب من السراب، ويرجون الأمن من متن العباب، ويبدو لهم بعد فوات الأوان، أنهم كانوا يحرثون في الماء، ويبذرون في الهواء.

كم تصوّر ناس سعـادتهم في المال فلما جـاءهم المال لم يكن سبب سعادتهم، بل ربما كان سبب شقائهم.

وكم تصوّر ناس سعادتهم في البنين والذرية فلما جاءهم ما يرجون من ذلك لم يكن سبب سعادتهم، بل ربما كان سبب شقائهم وسبب تعاستهم.

وكم تصوّر ناس سعادتهم في الجاه والمجد الدنيوي، فلما ظفروا من ذلك بما يرجون لم يكن سبب سعادتهم، بل ربما كان سبب متاعبهم الكثيرة وسبب شقاء لهم وتعاسة، حتى إنّهم ليحسدون آحـاد الناس ممّن لا جاه لهم ولا مجد على ما يتمتعون به من سعادة وهناءة عيش، ورضى قلب وطمأنينة نفس.

وكم تصوّر ناس سعادتهم في الحصول على لذّات الجسد ومتعه، فلمّا نالوا من ذلك نهمتهم لم يجدوا أن سعادتهم قد تحققت، بل ربما كانت هذه المتع التي سعوا إليها سبب آلام كثيرات حلّت في أنفسهم أو أجسادهم.

لكنّ حمد الله في الأحوال كلّها ورضى النفس عن الله من العناصر التي تمنح الأنفس سعادتها لا محالة.

فالعاقل هو الذي يستطيع أن يتكيّف مع الأحوال التي تكتنفه، وأن يكون راضي القلب والنفس بها، حامداً الله عليها، ساعياً في التحسين ودفع ما يكره ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فإن لم يستطع تقبّل الواقع بنفس هنيّة رضيّة، وسأل الله في ذلك الرضى والأجر وحسن المثوبة.

وتدريب النفس على حمد الله في كلّ الأحوال من شأنه أن يحلّي الإنسان بعدّة فضائل خلقية، منها خلق الصبر، وعدم التضجّر، ومنها حسن مواجهة الناس بطلاقة وجهٍ، وسماحة نفس، ومنها البعد عن كلّ نكد وتذمُّر وضيق صدر، ومنها معاملة الناس بالإغضاء عن السيئات والهفوات، ومعاملتهم بالعفو والإحسان، إلى غير ذلك من أخلاق كثيرة، فهي جميعها من ثمرات تأصيل

خلق الحمد لله في نفس المؤمن، ولذلك علّمنا الإسلام أن نحمد الله على كل ما يجري لنا من خير، وأن نحمده على كل ما يصيبنا من مكروه، لأن المكروه لأنفسنا ربما كان هو الخير لنا، والله يعلم حقائق الأمور، في حين أننا كثيراً ما نجهلها.

ومن صفات المؤمنين أنهم حامدون لله. قال الله تعالى في وصفهم في سورة (التوبة ٩):

﴿ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

فالمؤمنون من صفاتهم أنهم تائبون، أي يرجعون إلى ربّهم بالطاعة، كلّما ابتعدوا عنه بالمعصية، ويرجعون إليه بالاستغفار والندم على ما فرّطوا في جنب الله.

ومن صفاتهم أنهم عابدون لله خاضعون له، غير متمردين على أوامره ونواهيه، وغير مستكبرين عن عبادته.

ومن صفاتهم أنهم حامدون.

ومن صفاتهم أنهم سائحون، أي يصومون طاعة لله، وأنهم مصلّون راكعون ساجدون.

ومن صفاتهم أنهم حرّاس المجتمع المسلم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن صفاتهم أنهم حافظون لحدود الله فلا يتجاوزونها ولا يقعون فيها، بل يلتزمون ما أمرهم بالتزامه، وهؤلاء لهم البشرى من الله.

— ١٣ —

في التحذير من الظلم ومن الشحّ

روى مسلم عن جابر، أن رسول الله ﷺ قال:

«اتّقوا الظلم فإنّ الظلم ظلمات يوم القيامة، واتّقوا الشّحّ فإن الشحّ أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلّوا محارمهم».

في هذا الحديث يحذّر الرسول ﷺ من رذيلتين من رذائل الأخلاق، هما الظلم والشحّ، ويبيّن عاقبة الظلم الوخيمة، ويكشف آثار الشحّ الضارة في المجتمع الإنساني، فالشحّ أهلك في التاريخ الإنساني أمماً، حملهم على سفك الدماء واستحلال المحارم، فأفضى بهم ذلك إلى الهلاك.

وإذ يحذّر الرسول ﷺ من الظلم يذكر ما يتعرض له الظالم من عقاب شديد على ظلمه، فالظلم يوم القيامة ظلمات شديدة رهيبة، مشتملة على عذاب أليم يمسّ الظالم عقاباً له على ظلمه. وقد أطلق الرسول الظلم ولم يحدّد نوعاً من أنواعه، ليشمل أنواع الظلم كلّها، الظلم في المال، وفي الأنفس، وفي الأعراض، وفي الحكم والقضاء، وفي العقائد وفي اتباع الظن، إلى سائر أنواع الظلم.

والظلمات يوم القيامة مقرونة بالعذاب، فقد ثبت في القرآن أنّ المنافقين والمنافقات يحرمون من النور يوم القيامة، فيسعون وراء المؤمنين يقولون لهم: انتظرونا نقتبس من نوركم، فيُقال لهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً، ويضرب بين الفريقين بسور له باب، باطنه فيه الرحمة التي يسعد بها المؤمنون، وظاهره من قِبَله العذاب الذي يشقى به المنافقون، قال الله تعالى في سورة (الحديد ٥٧):

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾.

ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً: أي ارجعوا إلى أعمالكم التي عملتموها في ماضي حياتكم في الدار الدنيا فالتمسوا نوركم منها إن كان لكم فيها عمل صالح. ولكن أنّى لهم ذلك، إنهم لم يعملوا إلّا ما يضاعف لهم الظلمات، وعندئذ يضرب بينهم وبين المؤمنين الذين دخلوا الجنّة بسورٍ له باب، باطن هذا السور من جهة الجنة فيه الرحمة، وظاهره حيث تتكاثف الظلمات من قِبَله العذاب.

وإذ يحذّر الرسول ﷺ من الشحّ يبيّن أنه أهلك أمماً سابقة، إذ حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلّوا محارمهم.

فالشحّ يفضي إلى مخاطر وأضرار يعرّض الأمة التي يشيع فيها ويستولي على أفرادها للهلاك، وهذه الحقيقة مؤيّدة بالوقائع التاريخية في الأمم السالفة.

والسبب في ذلك أنّ الشحّ يرافقه طمع الشحيح، ورغبته بالاستزادة، ويرافقه هضم الحقوق المالية ومنعها مستحقّيها، ومع هذين الأمرين الخبيثين توجد توتّرات اجتماعية خطيرة قائمة على الحقد والحسد والرغبة بالانتقام، وفي مقابلها كبر وأنانية ورغبة بالأثرة والاستعلاء وحبّ التسلّط.

ويوجد مع الشحّ الزائد عند الواجدين ضروراتٌ حياتية عند المحرومين، تدفع بهم إلى ارتكاب جرائم السرقة والسلب والنهب والقتل.

وهذه مناخات ملائمة لسفك الدماء واستحلال المحارم فيكثر القتل وينتشر الزنى.

وأمّة تنتشر فيها هذه الجرائم بنسبة واسعة لا بدّ أن ينتهي الأمر بها إلى الهلاك. وهكذا تنكشف طائفة من حلقات السلسلة السببية التي تبدأ بالشحّ وتنتهي بالهلاك.

في عدم المجاهرة بفعل السوء

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«كلّ أمّتي معافى إلاّ المجاهرين، وإنّ من المجاهرة أن يعمل الرجل باللّيل عملاً ثمّ يصبح وقد ستر الله عليه فيقول: يا فلان عملتُ البارحة كذا وكذا. وقد بات يستره ربّه، ويصبح يكشف ستر الله عليه».

فمن الناس من يفعلون السوء سرّاً، ويصبحون قد سترهم الله، فيأتون ويتحدّثون بين الناس بما فعلوا من إثم، كأنّهم لم يفعلوا شيئاً، وقد يتفاخرون بين الناس بما فعلوا كأنّهم قد فعلوا أمراً حسناً، وهذا مجون وتهتّك وقِحَة، وهو مثل المجاهرة العلنية بفعل السوء، ولا يكون من ذي حياء، وقد جاء في الحديث: «إنّ مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى، إذا لم تستحي فاصنع ما شئت».

فمن لاحياء عنده هان عليه أن يجاهر بما يفعل من قبيح، والمجون صفة من لا أخلاق له ولا فضيلة عنده تردعه وتمنعه عن القبائح.

سئل أحد أهل المجون: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت لا فرق عندي مدحني الناس أو ذمّوني. فقال له السائل: لقد استرحْتَ من حيث تَعِب الكرام.

فالماجن يفقد بمجونه كرامة نفسه، ويرضى لها مقام الذلّ والمهانة، ويرضى لها مقام الخزي والندامة والعذاب المهين يوم القيامة.

أمّا من يستحيي بخطيئته، ويتستّر فيها ويتوارى، ولا يتحدّث بها أمام الناس، فإنّ العافية مرجوّة له برحمة الله وتوفيقه، لأنّ حياءه الذي منعه من المجاهرة وجعله يتوارى ويتستّر، عنصر خلقي كريم سيأخذ بيده إلى مقام الاستحياء من الله، فيترك القبائح كلّها في سرّه وعلنه، لأنه يعلم أنّ الله مطلع عليه مراقب له، وسيحاسبه على أعماله حساباً عادلاً.

فالتستّر بفعل القبائح عمل أخلاقي فاضل، وستر المسلم أخاه المسلم

عمل أخلاقي فاضل، وكلّ منهما يساعد على كتم الرذيلة وإشاعة الفضيلة، بخلاف المجاهرة والفضيحة فإنّهما يساعدان على نشر الرذيلة وإشاعة الفواحش والقبائح بين الناس.

ـ ١٥ ـ
في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإنكاره وتغييره

١ ــ روى مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

٢ ــ وروى مسلم عن عبدالله بن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال:

«ما من نبيّ بعثه الله في أمّة قبلي إلّا كان له من أمّته حواريّون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنّها تخلُف من بعدهم خلوف[١] يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبّة خردل».

٣ ــ وروى البخاري عن عبادة بن الصامت قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله، إلّا أن تَرَوْا كفراً بواحاً[٢] عندكم من الله فيه برهان، وعلى أن نقول بالحقّ أينما كنّا لا نخاف في الله لومة لائم».

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومحاولة تغيير المنكر بالنصيحة وبالطرق

---

(١) خلوف: جمع خَلْف، وهم أقوام وأمم تأتي بعد أقوام وأمم، فتكون خلْفاً لهم، كقرنٍ وقرون.
(٢) بواحاً: أي جهاراً معْلناً ظاهراً.

العملية المثمرة، مساهمة جليلة في صيانة المجتمع وتقويمه وإصلاحه، وكلّ مساهمة في إصلاح المجتمعات الإنسانية وتقويمها وصيانتها أعمال أخلاقية فاضلة.

وحينما لا يستطيع الإنسان تغيير المنكر بيده، ولا إنكاره بلسانه، فإنه لا يبقى لديه إلّا أن ينكره بقلبه، وحركة القلب أوّل العمل الأخلاقي، ثم تأتي من بعدها ظواهر السلوك القولية أو العملية، وحين تقف عقبات دون ظهورها، أو لا توجد الاستطاعة لتنفيذها، أو تتخاذل النفس بالجبن، فإنّ العمل القلبي وحده يُعتبر في نظر الحقيقة عملاً أخلاقياً إلّا أنه عمل ضعيف من جهة آثاره المادّية الظاهرة، والعمل الأقوى منه هو ما كان له آثار في اللّسان، والأقوى منهما ما كان له آثار في التطبيق العملي، ولذلك وصف الرسول ﷺ إنكار القلب للمنكر بأنه أضعف الإيمان، مع إثبات أنه عمل إيماني.

وليس دون إنكار القلب مرتبة ضعيفة من مراتب الإيمان، فما دون إنكار القلب للمنكر إلّا الرضى بالمنكر، ثم استحسانه، ثم المتابعة عليه وفعله ونشره بين الناس، وكلّ ذلك ليس فيه من الإيمان مثقال حبّة من خردل، لأنه عمل لا يقتضيه الإيمان بحال من الأحوال، بل هو مناف لمقتضياته، فهو يقع خارج القوس الإيماني.

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإنكاره ومحاولة تغييره من مكارم الأخلاق الإيمانية، لما فيها من خدمة اجتماعية، وصيانة للمجتمعات عن الانزلاق في مزالق الانحراف.

ولذلك حرص الإسلام حرصاً شديداً على جعل كلّ المسلمين والمسلمات حرّاساً لأسوار الفضائل وتعاليم الدين الحنيف، فمن جاهد منهم المنحرفين بيده فهو مؤمن، ومن جاهد بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهد بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبّة خردل.

والرسول ﷺ يحمّل المجتمع المسلم مسؤولية تقويم المنحرفين وحراسة حدود الإسلام، بمستويات تتناسب مع مستويات الاستطاعة لكل فرد منهم، وهذه المسؤولية مسؤولية دينية أخلاقية معاً.

ولذلك كان من بنود البيعة التي بايع الرسول ﷺ عليها أصحابه، أن يقولوا بالحقّ أينما كانوا، وأن لا يخافوا في الله لومة لائم، والقول بالحقّ يتضمّن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ووظيفة حراسة المجتمع لحمايته من الانحراف وظيفة اجتماعية إلزامية، لا يجوز التخلّي عنها في حال من الأحوال والتخلّي عنها يعرض الأمّة كلّها للعقوبة العامة، وهذا ما هدّد به الرسول ﷺ في مناسبات متعدّدة، منها ما رواه الترمذي وقال: حديث حسن، عن حذيفة عن النبيّ ﷺ قال:

«والذي نفسي بيده، لتأمُرُنّ بالمعروف ولتنهوُنّ عن المنكر، أو ليوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثمّ تدعونه فلا يستجابُ لكم».

ومنها ما رواه أبو داود والترمذي والنسائي بأسانيد صحيحة، عن أبي بكر الصدّيق قال: يا أيّها الناس، إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿يا أيّها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم﴾ وإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمّهم الله بعقاب منه».

ومنها ما رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن، عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنّ أوّل ما دخل النقص على بني إسرائيل، أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتّق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحلّ لك، ثمّ يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلمّا فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض». ثم قال:

﴿لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم، ذلك بما عَصَوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون. ترى كثيراً منهم يتولّون الذين كفروا لبئس ما قدّمت لهم أنفسهم أن

سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون. ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكنّ كثيراً منهم فاسقون﴾[1]. ثم قال:

«كلّا والله لتأمرُنّ بالمعروف، ولتنهوُنّ عن المنكر، ولتأخذُنّ على يد الظالم، ولتأطُرُنّه على الحقّ أطراً، ولتقصرُنّه على الحقّ قصراً، أو ليضربنّ الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم».

وفي حديث المبايعة المبايعةُ على السمع والطاعة، والسمعُ والطاعة من أخطر الفضائل وأجلّها في تكوين الأمم القوية المتماسكة، وإن أيّة أمّة لا تتحلى بخلق السمع والطاعة لقادتها لا تستطيع أن تبني نفسها البناء الجماعيّ القويّ المتماسك الحصين.

ـ ١٦ ـ

فيمن يأمر بالمعروف ولا يأتيه وينهى عن المنكر ويأتيه

روى البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيُلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار في الرّحا، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان مالك؟ ألم تكنِ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه».

هذا الحديث يبين حال معذّب بسيّئاته من معذّبي نار جهنم، يؤتى به يوم القيامة، فيلقى في النار على طريقة القذف المذلّ المهين، فيصطدم بما في النار اصطداماً عنيفاً يحطّمه ويشُق بطنه، فتندلق أقتاب بطنه، أي تخرج أمعاء بطنه بتتابع سريع، فتلمس شدّة العذاب. إنّها أمعاء كان يأكل فيها الأموال باسم الدين، ويحشوها حشو الجشعين، ويتعاظم بها تعاظم المترفين، فإذا رآها

---

(١) الآيات من٧٨ ـ ٨١ من سورة (المائدة ـ ٥).

مندلقة أمامهُ طار صوابه وتعاظم عذابه، وتراكبت عليه الذلّة، فيدور في النار كما يدور الحمار في الرّحا، فراراً ممّا يلاقيه من عذاب، ولكن أين المفرّ؟ إنه يفرّ فيجد نفسه يدور فيعود إلى المكان الذي فرّ منه، وهكذا تكون صورة عذابه.

ويرى الناس الذين كانوا يشاهدونه في الدنيا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهم منغمسون في معاصيهم، غير مكترثين بموعظة منه ولا تذكير، وقد كان يتعاظم عليهم في الدنيا بفضل العلم وبفضل التقوى التي كان يرائي الناس بها، فيناله الخزي، فيخفض رأسه ويغمض عينيه، فتكون صورته في كل ذلك كصورة الحمار الدائر في الرّحا، بدورانه وذلّته وإغماض عينيه، ولكنّ العصاة الذين كانوا يرونه في الدنيا واعظاً مرشداً يعجبون لأمره، فيأتون إليه فيقولون: يا فلانُ مالك؟!. ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. إذ كنت عالماً بالحلال والحرام، عارفاً بشرائع الله، متصدّياً لمهمة التوجيه العامّ، والأمر بوجوه الخير والنهي عن وجوه الشرّ، فما الذي دهاك فرماك بهذا العذاب المهين؟

فيقول: بلى، كنتُ آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه.

إن هذا العذاب الذي يناله هذا الفريق من الناس هو نتيجة المقت الرّبّاني الذي يحل بالذين يقولون ما لا يفعلون، وإنّه لكبُر مقتاً عند الله أن يقولوا ما لا يفعلون. قال الله تعالى في سورة (الصف ٦١):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾.

وقد استنكر الله هذا الخلق من اليهود أشدّ الاستنكار، فقال سبحانه وتعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٤٤ ﴾.

هذا التباين بين ما يدعو الإنسان إليه من فضائل، وبين ما يعمله في ذات نفسه ويمارسه من سلوك، تبايُن يتنافى مع الفضيلة الخلقية.

لأنّ هذا الإنسان إمّا أن يكون مؤمناً بما يدعو إليه، أو غير مؤمن، فإن كان غير مؤمن بما يدعو إليه، فهو إذن كاذب مراءٍ منافق، قد اتخذ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صناعة من الصناعات، يستدر منها مالاً أو جاهاً أو أيّ عرض من أعراض الدنيا لنفسه، والكذب والرياء والنفاق من أقبح رذائل الأخلاق، لذلك فهو يستحق هذا العقاب المهين الأليم في نار جهنّم. وإن كان مؤمناً بما يدعو إليه من خير، فهو إذن عالم أحمق لا عقل عنده، إذ يعرف الخير وينحرف عنه، ويعرف الشرّ وينغمس فيه، ولا يكون هذا في الإنسان إلاّ ثمرة انهيار أخلاقي في نفسه. فإما أن يكون مرضه الأخلاقي مرض الكبر عن الطاعة، ومن الطبيعي أن يستحق المستكبر هذا العذاب الأليم المهين، وإما أن يكون مرضه الأخلاقي مرض ضعف الإرادة وتخاذلها أمام سلطان الشهوات وأهواء النفس، وقد كان عليه أن يقوّي من إرادته، ولو أنه كان صادقاً مخلصاً في إرشاده ونصحه للناس، لاستطاعت أقواله ونصائحه أن تؤثر فيه تأثيراً ما، ومع التكرار والمتابعة يستقيم حاله، ويصير من الذين يعملون بما يقولون، لأنّ النصيحة الصادقة سلاح ذو حدّين: أحدهما يؤثر بالناصح، وثانيهما يؤثر بالسامع. فإذا هو استمرّ على حاله من الانحراف في السلوك، ومن مخالفة أعماله لأقواله، فهو إنسان قد تبلّد حسّه الأخلاقي، ومات ضميره ووجدانه، وتحوّل إلى تاجر أقوال، له منها مغانم ومنافع دنيوية، وصار إنساناً لا عقل عنده يعقله عن الشر، وعندئذ يكون علمه وتكون أقواله حجّة عليه، ولا ريب عندئذ أن يستحق هذا العذاب المهين الأليم.

فقوله تعالى للذين يأمرون الناس بالبرّ وينسون أنفسهم: ﴿أفلا تعقلون؟﴾ أي أفليس لديكم عقل يعقلكم عن اتباع أهوائكم وشهواتكم التي تزيّن لكم الإثم والمعصية وجحود الحقّ الذي جاءكم به الرسول محمد ﷺ.

على أن من كان مخلصاً في دعوته وإرشاده ونصحه، فلا بدّ أن يأتي عليه يوم تؤثر في نفسه أقواله، حتى يكون من أهل الاستقامة قولاً وعملاً. لذلك فعلى مرتكب الإثم أن ينصح الآخرين بعدم ارتكابه، وإن لم يستطع هو كفّ

نفسه عنه، لأنه إذا أخلص في نصحه استفاد هو من كلام نفسه مثل استفادة الآخرين منه أو أكثر.

ولكنّ الرذيلة الخلقية تتمثل باتخاذ صنعة الكلام تجارة دنيوية بالدين، إذ الحسّ الأخلاقي والحسّ الديني يتبلدان معها ثم يموت.

ـ ١٧ ـ
أصناف الناس بالنسبة إلى الهداية كأصناف الأرض بالنسبة إلى الغيث

روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعَوْا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلِم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به».

الكلأ: ما تنبته الأرض من مرعى الدواب.
العشب: هو الرطب من البقول البرّية ينبت في الربيع.
الأجادب من الأرض: صلاب الأرض التي تمسك الماء فلا تشربه سريعاً.
القيعان: جمع قاع، والمراد منها أنواع من الأرض لا تمسك الماء ولا تنبت الكلأ.

يمثل الرسول ﷺ في هذا الحديث الهداية والعلم اللّذيْن بعثه الله بهما للناس بمثال مادّي مشاهد في أحداث الطبيعة، ألا وهو غيث السماء الذي ينزل على أصناف شتى من الأرض.

فالهدى والعلم كالغيث من السماء، وأصناف الناس في استقبال الهدى والعلم كأصناف الأرض في استقبال الغيث، فكل صنف منهم يشبه صنفاً منها.

ولمّا كان الهدى والعلم الرّبّانيان فيهما للناس حياة سعيدة باذخة المجد عزيزة الجانب، كان فيهما شبه بالغيث الذي ينزل من السماء، إذ فيه حياة الأرض ونضارتها ورونقها، هذا وجه شبه بينهما.

ووجه شبه آخر وهو أن الهدى والعلم الربانيان منزلان على الرسول ﷺ من السماء أي من جهة السموّ والعلو، وكذلك الغيث ينزل أيضاً بأمر الله وقضائه من جهة السماء.

ووجه شبه ثالث وهو أن الهدى والعلم الرّبّانيان أمران نقيان طاهران من كل باطل أو فساد، وكذلك الغيث الذي ينزل من السماء ينزل نقياً طاهراً من كلّ رجس ودنس.

ووجه شبه رابع وهو أن الهدى والعلم الرّبّانيان أمران يقدّمهما الرسول ﷺ إلى الناس جميعاً ليتعلّموا ويهتدوا، وكذلك الغيث إذ ينزل في بلد فإنه يشمل رقعة أرضها، فيصيب مختلف أصنافها جميعاً بنسبة متساوية، دون تفريق بين حجر صلد، ورمالٍ غير متماسكة، وتربة خصبة، وأرض سبخة.

(أ) فطائفة طيبة من الأرض يشبهها طائفة طيبة من الناس، إذ من الملاحظ أنّ غيث السماء ينزل عامّاً على جميع أصناف الأرض، كما يبلغ الرسول ﷺ الهدى والعلم لجميع الناس.

أمّا الغيث فتستقبله الأرض الطيبة الجيدة التربة الليّنة الجانب، وهي متعطشة له، مستعدة للحياة، خيّرة معطاء، غنية بالخِصْب والنماء، فتنتفع من الغيث لنفسها، وتنفع بنباتها وثمراتها غيرها.

وكذلك نجد في الناس طائفة طيبة، تتقبّل الهدى والعلم، فتنتفع بهما اعتقاداً وعملاً، وتنفع الناس بهما دعوة وهداية وتعليماً.

والصفة الخلقية لهذه الطائفة هي التواضع ولين الجانب وحبّ الحقّ وإيثاره، وحبّ العطاءللآخرين.

ومعلوم أنّ أفراد هذه الطائفة الطيبة يتفاوتون فيما بينهم تفاوتاً كبيراً.

(ب) وطائفة أخرى أجادب من الأرض يشبهها طائفة من الناس.

والأجادب أرض لا خصب فيها، ولا خير عندها، لكنّها مطمئنة الجانب، يصيبها الغيث من السماء فتحفظه في منخفضاتها وفي تجاويفها، ولا تستكبر عن تلقّيه وحفظه. إلّا أنها لا ترتشفه، فلا يخالط منها تربة صالحة. لذلك فهي لا تعطي ثمراً، ولا تنبت نباتاً حسناً، إنما تحتفظ بما ينزل عليها من الغيث، فيأتي الناس فيجدون ما عندها من ماءٍ فيأخذونه فينتفعون به، وهذه الطائفة من الأرض متفاوتة في مقادير ما تحفظ من ماء على مقدار ما عندها من استعداد للاستيعاب، فمنها ما يحوي البحيرات الكبيرة، ومنها ما يحوي الجرعات القليلة، ومنها ما هو بين ذلك.

وكذلك نجد في الناس طائفة كهذه الأجادب من الأرض، يُلقى عليها الهدى والعلم، فلا تقبل في ذاتها الخير والهداية، فلا تنبت عملاً صالحاً، ولا تمنح خيراً ولا ثمراً، لكنها تستوعب ما يلقى إليها استيعاب الحفظ المجرّد، فيأتي إليها طلاب الهداية والمعرفة، فيجدون ما عندها من ذلك، فيتعلّمونه ويعملون به، وينتفعون وينفعون.

والصفات الخلقية لهذه الطائفة صفات فيها بعض النفع للآخرين، ولكن ليس فيها نفع لأصحابها، فلديها حرص على تحصيل مجد بين الناس، ولكن ليس لديها قوة إرادة تضبط سلوكها على صراط الهداية، وتكبح جماح أهوائها وشهواتها.

(ج) وطائفة ثالثة من الأرض هي قيعان، يشبهها قسم من الناس لا خير فيه لنفسه ولا خير فيه لغيره.

نعم، في الأرض صخور قاسية ملساء، وأرض متحجّرة صلدة، ورؤوس جبال مستكبرة، ورمال ذرّاتها قاسية مبعثرة، ينزل عليها الغيث من السماء، فيصيبها كما يصيب غيرها من الأرض، لكنّها لا تمتصّ ماءً ولا تمسكه ولا تحفظه، ولا تنبت عشباً ولا كلأً، فهي لا تنتفع من الماء بنفسها، ولا تمسكه لمن ينتفع به.

وكذلك نجد في الناس طائفة كهذه القيعان، يقرع أسماعها هدى

الإسلام وعلومه، وتصدم عيونها أنواره، وتنزل عليها غيوثه، لكنّها لا تعبأ بهدي ٍ منه ولا معرفة ولا ترفع بشيءٍ من ذلك رؤوسها، قسوةً في قلوبها، وكبراً في نفوسها، وجفاءً في أخلاقها، فهي لا تقبل من الحقّ علماً ولا عملاً، يحجبها عن الخير شيءٌ في نفوسها مثل الشيء الذي نجده في صخرة صمّاء من الأرض، أو مثل الشيء الذي نجده في أرض صلبة مستوية ينسفح عنها الماء، أو مثل الشيء الذي نجده في رمل صلب الذّرات لا تماسك فيه.

وهذا القسم من الناس هو قسم الكفرة الجهلة، الذين يستكبرون عن العلم والعمل معاً، وتقسو قلوبهم، وتتحجّر عقولهم، فهم لا خير عندهم لأنفسهم، ولا خير عندهم لغيرهم.

والصفات الخلقية لهذه الطائفة من الناس فيها الكبر والقسوة، وجفاف العاطفة والانكماش عن التأثّر بالخير، أو تقديم النفع لأحد من الناس.

— ١٨ —

في تكريم ذوي الفضل وآداب المجالس

— روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال: خرجتُ مع جرير بن عبد الله البجلي في سفر، فكان يخدمُني، فقلت له: لا تفعل. فقال: إنّي قد رأيت الأنصار تصنع برسول الله ﷺ شيئاً آليت أن لا أصحب أحداً منهم إلاّ خدمته.

فهو رضي الله عنه يكرمهم بذلك تكريماً لرسول الله ﷺ لأنهم كانوا يخدمونه في حياته.

٢ — وروى مسلم عن عقبة بن عمرو البدري الأنصاري، أن رسول الله ﷺ قال:

«يؤم القوم أقرأهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواءً فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواءً

فأقدمهم سنّاً، ولا يؤمَّنَّ الرجلُ الرجلَ في سلطانه، ولا يقعد في بيته على تكرمته إلّا بإذنه».

فمن الآداب الإسلامية تقديم الأعلم، والأسبق في صالح العمل، والأكبر سنّاً على من سواهم.

٣ ــ وروى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:

«لِيَلِني منكم أولو الأحلام والنهى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، وإيّاكم وهيشات الأسواق».

هيشات الأسواق: أي جماعات الأسواق التي تختلط دون تنظيم ولا تنسيق، فيختلط فيها الصغير بالكبير، والجاهل بالعالم، وذو المكانة بغيره دون تمييز، فهذا الاختلاط الذي لا تمييز فيه مخالف للآداب الإسلامية.

وجاء في كلام الرسول ﷺ قوله: «أنزلوا الناس منازلهم».

٤ ــ وروى البخاري ومسلم أنّ عبد الرحمن بن سهل ذهب يتكلم وفي القوم من هو أكبر منه سنّاً، فقال له الرسول ﷺ: «كبِّرْ كبِّرْ».

أي ليتكلّم من هو أكبر منك سنّاً، وهذا الأدب قد تعلّمه أصحاب رسول الله ﷺ والتزموه، فهذا سمرة بن جندب يقول فيما رواه البخاري ومسلم: لقد كنت على عهد رسول الله ﷺ غلاماً، فكنت أحفظ عنه، فما يمنعني من القول إلّا أن ههنا رجالاً هم أسنّ منّي.

٥ ــ وروى الترمذي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما أكرم شابٌ شيخاً لسنّه إلّا قيض الله له من يكرمه عند سنه».

٦ ــ وروى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد، أن رسول الله ﷺ أتي بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلام، وعن يساره الأشياخ، فقال للغلام:

«أتأذن لي أن أعطي هؤلاء».

فقال الغلام: لا والله يا رسول الله لا أؤثر بنصيبي منك أحداً، فتلّه رسول الله ﷺ في يده.

قال الشراح: الغلام هو ابن عباس.

فتلّه: أي ألقاه إليه بشيء من العنف الدال على عدم ارتياح الرسول ﷺ.

فمن الآداب الإسلامية في المجالس أنّ أول حلقة المجلس يمثلها دائماً وجه القوم ومتقدّمهم حيثما كان من المجلس، وقد التزم أصحاب رسول الله ﷺ هذا الأدب الإسلامي من الآداب الاجتماعية، فكانوا يبدأون برسول الله ﷺ في كل المجالس التي يكون فيها، فيقدمون إليه الشراب أوّلاً إذا كانت الضيافة على شراب، أو الطعام إذا كانت الضيافة على طعام.

فوجه المجلس هو واسطة العقد الذي ينبغي أن يبدأ به أوّلاً، سواء أكان في صدر المجلس أو في طرفه، ثمّ من على يمينه، ثم من على يساره.

٧ ـ وروى مسلم عن عبد الله بن عمر أنّ رسول الله ﷺ قال:

«أراني في المنام أتسوّك بسواك، فجذبني رجلان أحدهما أكبر من الآخر، فناولتُ السواك الأصغر منهما، فقيل لي: كبّرْ، فدفعته إلى الأكبر».

فدلّ هذا الحديث على أنّ البدء بالأكبر من الآداب الإسلامية التي أمر بها الرسول في المنام.

ـ ١٩ ـ

في تربية الصغار على عفة النفس وعدم الشره والطمع . . وآداب الطعام

روى البخاري ومسلم عن عمر بن أبي سلمة ربيب رسول الله ﷺ قال: كنت غلاماً في حجر رسول الله ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله ﷺ:

«يا غلام سمّ الله، وكُل بيمينك وكلُ ممّا يليك».

فما زالت تلك طعمتي بعد.

تطيش في الصحفة: أي تدور في نواحي صحفة الطعام لاختيار أطيب ما فيها.

فما زالت تلك طعمتي بعد: أي فما زلتُ بعد ذلك متقيّداً بالأدب الذي أمرني به رسول الله ﷺ في طعامي، فأنا أسمّي الله وآكل بيميني، وآكل ممّا يلي مجلسي من صحفة الطعام.

نستفيد من هذا الحديث أنّ الرسول ﷺ كان لا يدع مناسبة ملائمة لتوجيه نصيحة، أو تعليم أدب من آداب الإسلام، أو خلق من أخلاقه، دون أن يوجّه فيها ويبيّن ويعلم، وكان لا يفوّت فرصة يستطيع فيها أن يؤدّب ويربّي صغيراً أو كبيراً دون أن يؤدّب فيها ويربّي.

فهذا ربيب رسول الله ﷺ يعلمه الرسول أدب الطعام، وأدب مؤاكلة الناس، ويعلّمه أنّه ليس من الأدب الإسلامي أن يطلق الآكل مع القوم لطمع نفسه وشرهها العنان، فيتعدّى الجهة التي تلي مجلسه من القصعة، إلى الجهات الأخرى التي تلي جلساءه عليها، لأنّ في ذلك سوء أدب من جهة، وعدواناً على حقّ الشركاء من جهة ثانية. وهو يدلّ على طمع وشره، فهو يتنافى مع الخلق الكريم، لأنّ من تدور يده في صحفة الطعام ومعه آكلون يشاركونه فيها لينتقي اللحم منها أو لينتقي أطايب الطعام وأجوده إنسان شره طمّاع أنانيٌ لا يكترث بحقوق الآخرين.

إنّ الطعام حينما يوضع بصفة جماعيّة لعدد من الآكلين هو موزّع حكماً عليهم، وكلّ واحد منهم يأكل منه في حدود الجهة التي يجلس إليها، مع مراعاة التسامح في نصيب كلٍّ منهم، زاد نصيبه أو نقص. والمفروض فيهم أن يؤثر بعضهم بعضاً ويُكْرِم بعضهم بعضاً، لا أن يتسابقوا إلى تناهبه، ويتسارعوا إلى ازدراده، فهذه قبائح الجشعين. أمّا القناعة والتسامح والإيثار فتلك آداب الفضلاء وأخلاق المؤمنين.

أمّا الأكل باليمين فهو أدب إسلامي جميل، يرجع إلى توزيع أنواع الأعمال بين اليمين والشمال. فالأعمال الشريفة كالأكل والشرب والكتابة والمصافحة والإشارة عند التشهد في الصلاة والإشارة إلى إنسان أو شيء، قد جعلها الإسلام من خصائص اليد اليمنى، والأعمال المهينة كالاستنجاء وإزالة القذارات وما أشبه ذلك قد جعلها الإسلام من خصائص اليد اليسرى. وهذا ينمّ عن ذوقٍ رفيعٍ جدّاً، يتصل بما تقتضيه القواعد الجمالية والآداب الذوقية. ومن مارس هذا التوزيع مذ صغره صار عادة ثابتة لديه.

وأمّا التسمية عند بدء الطعام فهي عبادة وشكرٌ لله تعالى، وأدب مع الله المنعم بالطعام، وتذكّر لعنصرٍ من عناصر القاعدة الإيمانية، واستعانةٌ بالله عزّ وجل على ما بدأه من عمل.

وفي اهتمام الرسول ﷺ بتربية الصغار وتعليمهم توجيه للأولياء أن يربّوا صغارهم ويعلّموهم، حتى ينشأوا نشأة إسلامية فاضلة، وهذه التنشئة الإسلامية توفّر على المجتمع الإسلامي كثيراً من مشكلات المستقبل، فتربية الأجيال الناشئة على الإسلام أسلم طريق لبناء المجتمع الإسلامي الفاضل، بل المجتمع الإنساني الكامل.

ومن التوجيه للعناية بتربية الصغار على الفضائل الإسلامية ما رواه أبو داود بإسناد حسن، عن عَمْرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرّقوا بينهم في المضاجع».

خاتمة

كان الفراغ من كتابة هذا السِّفْر في الأخلاق الإسلامية وأسسها ليلة الاثنين الحادي والعشرين من شهر رجب من العام الهجري ١٣٩٨ الموافق للخامس والعشرين من شهر حزيران سنة ١٩٧٨ ميلادية.

والله أسأل أن ينفع به، ويجعله خالصاً لوجهه، ويكتب له القبول في الأرض، ويضاعف به الأجر لي، ولزوجتي التي هيأت لي الجوّ الملائم لكتابته، وكانت خير حاثّ لي على إتمامه، وأن يثيبَ من يقرأه فيُهْديني نصيحته، أو يصلح خطأً يعثر عليه، ويغضي عن هفوات قد يلاحظها.

كما أسأل الله أن يضاعف أجر من يقوم بواجب الدعوة إلى الله منتفعاً مما كتبت، ومما كتب غيري من هدى وعلم نافع.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل، والحمد لله على توفيقه، والصلاة والسلام على رسوله محمد وعلى إخوانه النبيين والمرسلين.

مكة المكرمة في: ٢ من شهر رجب سنة ١٣٩٨هـ
الموافق: لـ ٢٥ من حزيران سنة ١٩٧٨م

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

فهـــرس

الموضوع	الصفحة

الفصل الثالث: قوّة الإرادة

الموضوع	الصفحة

الفصل الرابع: الدافع الجماعي

الموضوع	الصفحة

الفصل الخامس: المحبة للآخرين

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الفصل السابع: حبّ العطاء وفروعه وظواهره السلوكية

الفصل الثامن: سماحة النفس

الفصل التاسع: علو الهمة

الموضوع	الصفحة

الفصل العاشر: ظواهر خلقية لأكثر من أساس خلقي

الموضوع	الصفحة

الباب الخامس

نصوص مشروحة تشتمل على جوانب أخلاقية

[تم الكتاب بعونه تعالى]